اربعة قرون

من تاريخ العراق الحديث

الفه بالانكليزية

المستر ستيفن هيمسلي لونكريك

المفتش الاداري في الحكومة العراقية سابقاً

نقله الى العربية المرحوم

جعفر الخياط





اربعة قرون
من تاريخ العراق الحديث

كتاب يبحث عن تاريخ العراق في العصور المظلمة

ألفه بالانكليزية
المستر ستيفن هيمسلي لونكريك
المفتش الاداري في الحكومة العراقية سابقا

نقله الى العربية المرحوم
جعفر الخيّاط

(الطبعة السادسة)
١٩٨٥

اهداء

الى النور الذي انار دربنا
بارفع القيم والمُثل

الى روح والدنا الغالي

نهـدي الطبعة السادسـة

عائلة المرحوم

مقدمة الطبعة الرابعة

كان نشر الطبعة الاولى من هذه الترجمة ، في ١٩٤١ ، قد لقي تشجيعاً غير يسير من القراء ، فأدى ذلك الى ان تنفد الطبعة الاولى بسرعة ، والطبعتان الثانية والثالثة اللتان ظهرتا بعدها . واستنادا الى هذا الاقبال والتشجيع عزمت على أخراج الطبعة الرابعة بحلتها هذه ، عساها تحظى بنفس الاقبال والرواج لتعم الفائدة ويتقدم وعي العراقيين تجاه تاريخهم الحافل بالعظات والعبر .

وقد أجريت في هذه الطبعة كذلك تنقيحات عدة ، وأضفت بعض الشروح والتعليقات ، ثم أعدت كتابة عدد من الجمل والصفحات ، متوخيا الدقة في التعبير والامانة في الترجمة الى أقصى حدٍ ممكن .

فعسى أن أكون قد وفقت في ذلك كله ، وقمت بما يحتمه علي الواجب تجاه هذا البلد الكريم الامين .

ومن الله العون والتوفيق .

بغداد في : غرة تموز ١٩٦٨

٥ ربيع الثاني ١٣٨٨

جعفر الخياط

ترجمة الكتاب الذي بعث به المؤلف

الى مترجم الكتاب بعد تسلمه نسخة من الطبعة العربية الاولى

ادارة أراضي العدو المحتلة[1]

(اريتريا)

أ سمرة : ٢٢ تشرين الاول ١٩٤٢

السيد جعفر الخياط
مدير التعليم الثانوي
وزارة المعارف ـ بغداد

لقد تسلمت ، بواسطة الكابتن هولت[2] ، نسخة من تعريبكم الذي يثير الاعجاب لمؤلفي عن تاريخ العراق . وأرجو أن تقبلوا تشكراتي الصميمة عن هذه الهدية التي أدخلت عليّ سروراً عظيماً . وأني أقدر غاية التقدير ما ذكرته في مقدمتك عن « تاريخي » وعن نفسي .

وانا واثق بأن قيمة الكتاب ستزداد كثيرا ، وستكون أكثر خلودا ، بشكله الجديد في العربية . وان العراق لذو حظٍ بعثوره على مثل هذا المترجم المتمكن .

وآمل ان يستفيد من الكتاب جمهور أكبر من القراء والباحثين .

المخلص
ستيفن هـ . لونگريك
أمير اللواء

(١) لقد اشترك المؤلف مع الجيش البريطاني فى الحرب العالمية الثانية ايضا برتبة « أمير لواء » ـ المترجم .

(٢) «السكرتير الشرقي» الأسبق فى السفارة البريطانية ببغداد ـ المترجم

Occupied Enemy Territory Administration

(Eritrea)

Asmara, 22 October, 1942.

Sayyid Jafar Khayat,
Director of Secondary Education,
Ministry of Education,
Baghdad.

Dear Sir,

I have received, through Capt. Holt, a copy of your admirable translation of my work on the History of Iraq. I ask you to accept my cordial thanks for this gift, which has given me great pleasure. I appreciate highly the terms in which you speak in your Preface, both of my history and myself.

I am confident that the value of the book will become much greater and more permanent in its new form in Arabic, and Iraq is fortunate in having found for it so accomplished a translator. I hope it will bring benefit to a very wide public.

Yours faithfully,

Stephen H. Longrigg
Brigadier

مقدمة المترجم

عصفت ريح الخراب في العراق وكبا جواد العرب في نهاية العهد العباسي فتدفقت على هذه البلاد سيول من قبائل المغول والتركمان ، ملأت الاغوار والانجاد واكتسحت القرى والبلاد • وظلت هذه القبائل تعيث فتكاً في الارض وفساداً في البلاد ، وتجهز بوحشيتها على بغداد عاصمة الاسلام وحصنه الحصين حتى انطفأ نور الخلافة العباسية منها ، فغمرها ظلام دامس لا تستبين العين فيه الا نار الخراب التي أشعلتها يد الجور الاثيمة ، ولا يسمع فيها الا انين مدنية سارت بذكرها الركبان • واذا بهذا الانين ينقطع فيعقبه صمت الموت الرهيب ، فتدخل هذه البلاد من أدناها الى أقصاها في سبات عميق ظلت تغط فيه طوال عدد من القرون ، حتى استفاقت على صوت المدنية الحديثة وهو يدوّي في الآفاق •

وقد بقيت البلاد خلال هذه العصور المظلمة نهباً بأيدي الامـراء المغـول والتركمان ردحا من الزمن ، تتقاذفها أطماعهم وتستعر في ميادينها حروبهم حتى قضى بعضهم على بعض ، وابتلعتهم هذه الارض الزكية كما ابتعلت الفاتحين من قبلهـم • وتبـع ذلك نزاع الترك والايرانيين على بغداد الكسيرة ، وكانت تلوّح للفريقين بمجدها الذاهب وعظمتها السالفة واسمها الذائع الصيت •

وقد نزلت بالبلاد خلال النزاع المحتدم بين الايرانيين والاتراك العثمانيين عليها طوال القرون الاربعة الاخيرة كوارث جسيمة ، وحدثت فيها حوادث عظيمة وعظات بالغات ملأى بالعبر ، فلم يدون أكثرها ، وأنما دون قسم منها هنا وهناك مبعثراً متناثراً • وبقيت أحوال هذه الحقبة الطويلة مطوية في سجل الزمان وفي طي الغموض والنسيان حتى عصرنا هذا حين اتجهت الانظار من الغرب الى بلاد الشرق ، والى هذه البلاد خاصة ، لما فيها من ثروة ، ومركز جغرافي ممتـاز يلوح للطامعين من قريب ومن بعيد •

وكان من حسن حظ هذه البلاد ان ينبري للاهتمام بتاريخها رجل انكليزي فاضل اشتغل فيها عدة أعوام ، في عدد من المناصب الحكومية المهمة ، فخبـر الامور فيها وسبر أغوارها وأطلع على ما خفي منها وما ظهر ، ذلك هو المسـتر ستيفن هيمسلي لونكريك مؤلف هذا الكتاب • وكان من الآثار الحسنة لاهتمام

المستر لونكريك بتاريخ البلاد هذه ان [illegible] بكتابه « أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث »[1] هذ [illegible] أخراجه فظهر أول مرة سنة ١٩٢٥ ٠ ولقد سد بأخراجه هذا الكتاب باباً كبيراً في التاريخ لم يكن بوسع أحد أن يسده الا بعد الجهد الجهيد والكد الطويل ٠ لان تاريخ الحقبة الطويلة من العصور المظلمة المنحصرة بين سنة ١٥٠٠ و ١٩٠٠ للميلاد لم يسبق أن كتب بصورة جامعة شافية في العربية ولا في اللغات الاجنبية ، ولذلك أصبح الكتاب يعد حلقة جديدة ، كانت معدومة ، لسلسلة تاريخ هذه البلاد الحافل ٠

ومن الغضاضة على هذه البلاد ان ينبري لكتابة تاريخها رجل أجنبي تبت في سبيل أخراجه للكتاب عقبات اللغة ، وندرة المراجع [illegible] الكثيرة ، فيخرجه بهذه الحلة القشيبة ٠ وكان من المؤسف ان يخرج مثل هذا التاريخ بلغة أجنبية ، وهو على جانب كبير من الاهمية ، فيبقى أعواماً طوالا من دون ان ينقل الى العربية فيطلع عليه أهل هذه البلاد وأحفاد الذين يبحث عن تاريخ أسلافهم وأجدادهم ٠ هذا هو الشعور الذي كان يخالجني ويملأ نفسي عند ظهور الكتاب بالانكليزية وقراءتي إياه بكل اقبال وامعان ٠ وقد مرت السنون والاعوام وسنحت لي الفرص وا[illegible] مندفعاً لتحقيق ما كنت أفكر فيه ٠ فأقدمت على ترجمة الكتاب برغم ما تصورت [illegible] متاعب ومشاق متوكلا على الله ، ثم عمدت الى طبعه بعد ان هممت بذلك مراراً عدة حتى أخرجته بهذه الحلة من الطباعة ٠

ويعد هذا التاريخ سجلا حافلا بالحوادث المروعة التي وقعت في العراق خلال عدة قرون ، فطبعت طابعها عليه وأثرت فيه آثارها البينة الظاهرة للعيان حتى الآن في شتى المناحي والمرافق ٠ ومن يتطلع فيه ، وفي تاريخ العراق القديم وأحواله حتى السنين الاخيرة يجد ان العراق ، وهو ذو الثروة الكامنة والموقع الجغرافي المهم ، لا يعد تاريخه الا سلسلة من تاريخ تناضل الشعوب والامم القوية عليه طمعاً منهم في كنوزه وحباً لموقعه ٠ فقد تقاتل عليه من قديم الزمان الايرانيون والرومان ، والعرب والتركمان ، وتناحر عليه الايرانيون والاتراك العثمانيون عدة قرون ، ثم طمعت فيه في العهد الاخير الامم الغربية المختلفة مما لا يخفى أمره على أحد ٠ وها ان العراق يهب اليوم لتكوين كيانه في وسط هذا

---

(١) Four Centuries of Modern Iraq.

العالم المصطخب ، الذي تتضارب فيه المصالح والمنافع وتستعر فيه نيران الاطماع ، وله من ماضيه القريب وغير القريب ، الحافل بالفتوح المفعم بالدسائس والمؤامرات وبالكوارث التي أنزلتها به الطبيعة ، من طاعون يتكرر حدوثه وأمراض متأصلة وغرق البلاد في فيضان الرافدين في كل عام ، ما يدل بإيضاح تام على المشاكل التي تحيط به والعقبات الثابتة في سبيل تقدمه . وكتابنا هذا صفحة ناطقة خطت في هذا السهل الواسع ، الممتد في وادي الرافدين ، وهي تبحث في هذه المشاكل بتفصيل وأسهاب وتشير الى أن هذه البلاد ، التي تقطن في أرجائها العشائر العربية والكردية ، في السهل والجبل والبطائح والاهوار ، ويجري في عروق سكان مدنها خليط من دم أقوام مختلفة ، يجب ان توضع الخطط القويمة لحكمها وترسم الرسوم الصالحة لتسيير سكان الامور فيها . على أن يعتبر بالعبر البالغة التي يزخر بها تاريخ هذه البلاد ، وتدونها كل صفحة من صفحات هذا الكتاب .

ومما يزيد في قيمة الكتاب التاريخية ان المؤلف رجل محايد لايمت بصلة الى أية جهة يبحث فيها ، سوى ما لاحظناه فيه من الانتصار لقوميته عند البحث عن علاقات امته بالبلاد ونشوء مصالحها شيئاً فشيئاً ، ثم تعاظم ذلك مما لا يخفى أمره على الجميع . على ان هذا لا يعني أنه يغفل الحقائق التي قد يعد ذكرها تحاملا على أمته أو بني جنسه . ولهجة المؤلف في الكتاب يستفحل فيها التهكم اللاذع ، فهو يسرد الوقائع حقائق مرة على ما فيها من صحة ومطابقة للواقع .

وقد توخيت ان تخرج ترجمة الكتاب ترجمة حرفية بقدر الامكان لتكون أقرب ما يمكن من آراء المؤلف وأفكاره . وعلى هذا فالمؤلف وحده هو المسؤول عما جاء في الكتاب ، وعليه العهدة فيه ، وما انا الا ناقل لذلك .

وهنا يدعوني الواجب الى الاشارة بالشكر العطر للصديق الفاضل الدكتور مصطفى جواد لما تفضل به في مراجعة الكتاب ولبعض التعليقات القيمة التي علقها في الحاشية وقد أشير لها بحرفي (م.ج) مضافاً الى ذلك مساعدته في احتساب السنين بالتقويم الهجري الذي رأينا من الضروري ادراجه مع حساب السنين بالتقويم الميلادي الذي ذكره المؤلف وحده .

ولابد لي في الختام من أن أسجل ها هنا أعجابي بجلد المؤلف وتعبه وبقابلية استقصائه ، واعداده المراجع الكثيرة بشتى اللغات ، تلك القابلية التي لولاها

ما ظهر الكتاب بهذا المظهر ، وأن أنوه بالشكر له على تفضله بالموافقة على ترجمة الكتاب ، فقد رحب بذلك بكتاب خاص منه أرسل به الي .

وأني لشاعر ، أذ أخرج هذه الترجمة ، بأني قد أديت جزءاً من الواجب المحتم علي في سبيل خدمة العراق . وآمل أني وفقت للقيام بذلك ، سدد الله الخطا ووفقنا تعالى لما فيه خير الامة والوطن .

بغداد ـ ٧ رجب ١٣٦٠
أول آب ١٩٤١

جعفر الخياط

محتويات الكتاب

مقدمة المؤلف

ان القطر الذي يكوّن تاريخه ، خلال القرون الاربعة الاواخر ، موضوع هذا الكتاب هو القطر الذي يتكون ـ مع اختلافات في التفصيل فقط ـ من الولايات التركية : بغداد والموصل والبصرة في شكلها الاخير • على ان اطلاق أسم العراق بهذا الشكل قد يكون موضع أخذ ورد ، لانه لم يكن يشيع استعماله بهذه الدرجة من الاهمية خلال القسم الاكبر من المدة نفسها ، كما انه كان يطلق في بعض الاوقات ليدل على قطر يختلف تمام الاختلاف عما هو عليه اليوم • غير انه ليس هناك من الاسماء ما هو أكثر انطباقاً ، ووضوحاً عند جمهور أصبح متعوداً تمام التعود عليه ، مثل الاسم الذي تحمله المملكة العراقية في يومنا هذا •

ولو وجد المؤلف تاريخاً شافياً بدرجة معقولة للبلاد في العصور الحديثة ـ منذ أوائل القرن السادس عشر الى نهاية القرن التاسع عشر ـ لما أقدم على اقتحام هذا الميدان • فلم يكتب مثل هذا التاريخ من قبل باللغة الانكليزية ، ولا باللغات الاوربية الاخرى ، سوى رسالة واحدة لا تفي بالمرام • وليس بين الكتب المطبوعة بلغات آسية الغربية ، ولا بين الكتب المخطوطة ، ما يمكن ان تسد ترجمته الفراغ الموجود في هذا الشأن • فقد حظيت المدونات القديمة عن العراق ، ومدونات القرون الوسطى عنه ، منذ القدم وما تزال تحظى بعناية الآثاريين والمؤرخين التي تليق بمهد حضارة الانسان ، وبمركز يعد من أهم مراكز الامبراطوريات القديمة ، وباصقاع مر بها كبار القادة من الاغريق والرومان ، وبمشهد مجد الاسلام ومفاخره في زمن العباسيين • لكن هذه الشهرة العريقة في القدم قد خابت خيبة لا مثيل لها في ان تستجلب نظرة من العطف الغريب النادر على التقلبات التي تلت تلك العهود والاهوال التي كابدتها البلاد • فقد نفّر عصر الفقر ، والفوضوية والاهمال الطويل ، الذى أعقب غزو المغول للبلاد ، مؤرخي حمورابي وكويرش ومؤرخي سلوقس وخسرو وهارون على حد سواء • فغمرت تاريخ العراق ظلمات مختلفة الدياجير منذ الساعة التي انطفأ فيها نور الخلافة الوهاج حتى القرن الحاضر • والحقيقة ان كثيراً مما له علاقة بالفترة المتقضية ما بين احتلال هولاكو للبلاد وميلاد أيران الصفوية يمكن أن يوجد مدوناً في تواريخ المغول والتتر والتركمان المغمورة ، لكن مؤلف هذا الكتاب

لم يتدخل فيه بشيء • وانما اقتصر في بحثه على الحقبة الاخيرة التي لم يصبها الا نزر يسير من البحث والتنقيب •

بيد ان ما يسوغ له كتابة صفحات كثيرة مثل هذه ، وهي متعبة في كثير من الاحيان ، لا ينحصر في المجد والمفاخر المتضائلة في القدم منذ مدة بصورة خاصة • وانما ينحصر في بحثه عن تاريخ أصقاع مترامية الاطراف ، مهمة بموقعها ، مدهشة بثروتها القديمة وعظيمة بثروتها الكامنة في هذا اليوم ، وعن أحوال طبيعية واجتماعية ثابتة تستحق الدرس بكونها أساساً للتاريخ سواء أكانت فريدة في بابها أم لم تكن ، وعن تاريخ بلاد يتعلق ماضيها المتأخر جداً بأرواح الالوف من أبناء بلادنا ومصائرهم ، ويعد مستقبلها اليوم مشكلة تثير أشد أنواع الاختلاف والجدل • واستناداً الى السبب الاخير هذا يتمنى المؤلف ، وهو يجازف في ذلك ، بان يكون ظهور هذه الصفحات قد جاء في وقته ، وان تلقى بما فيها من الحقائق التاريخية الواقعة ترحيباً عند اولئك الذين يقدرونها حق قدرها باعتبارها أساساً تستند اليه أراؤهم وأفكارهم •

ومدونات العراق التاريخية بحد ذاتها تحتوي في الوقت نفسه ، منذ أيام سليمان القانوني ، على شخصيات بارزة حرمت من مكانها الذي تستحقه في التاريخ ، ووقائع خلو من القيمة التاريخية أو الدراماتيكية ، ومواد تاريخية يمكنها ان تلقي ضوءاً على الولايات الآسيوية التابعة لامبراطورية السلطان في أوجها وانحطاطها • فعلى مؤرخ الجزيرة العربية ان يتجه الى هنا عندما يريد البحث عن ناحية من أهم نواحي القبائل البدوية وهي ناحية ظهور « المجددين [1] » الشرسين ، وعن ما جرى في بواديها وواحاتها ، وعلى مؤرخ ايران ان يتجه الى هنا كذلك حينما يريد البحث عن مشاهد النزاع الديني والامبراطوري المر الذي امتد طوال العصر بين « الرفض » و « السنة » حيث استولى أبطال شهيرون من الامبراطوريتين ، مرة وثانية ، على همدان والوديان الكردية وبغداد • وعلى مؤرخ الاكراد (الذي لم يظهر بعد) ان يتجه الى هنا أيضاً اذا ما أراد البحث عن تعامل دويلات الوديان الجنوبية مع الجهات التي كانت تتبع لها ، وعلاقاتها هي بعضها ببعض • كما يجب على مؤرخ الشركات البريطانية ان يتجه الى هنا في

(١) يقصد الوهابيين ـ المترجم •

الوقت نفسه للوقوف على ما يختص بأول مؤسسات متواضعة واتجارها مع البصرة ، وبتعاظمها البطيء الذي انقلب الى سيادة ديبلوماسية واقتصادية في النهاية .

ولقد جابه المؤلف ، الذي يطمح مثل هذا الطموح ليفيد غيره من المؤلفين ورجال الدولة والمستشرقين ، واجبه هذا في أحوال يكتنفها شيء كثير من الانشغال ويحيط بها طقس قاس ، وتبعد فيها عنه المكتبات والمراجع . وهو لايمكنه أن يأمل ستر نواقص « الطبعة الاولى » هذه عن نباهة القاريء المدقق . على أنه شعر بأن فرصته النادرة التي تسهل له الاتصال بالمراجع الشرقية ، وأفضلية المساعدة التي يحصل عليها من الباحثين المحليين ، واقامته الطويلة في العراق (الضرورية لمعرفة أحوال البلاد ولغاتها والوضع الطوبوغرافي فيها) قد اضطرته الى ان يحاول القيام بعمل لا يروق الا للقليل من الناس . وهو سيرحب بالفرصة التي يظهر فيها بأقرب ما يمكن كتاب تدبجه يد مؤرخ أبرع من يده ، ليحل محل كتابه هذا ، وعندئذ سيكون في متناول تلك اليد استقصاءات المؤلف نفسه .

ولا يمكن ان نعترف هنا اعترافاً تاماً بالمساعدات السخية التي قدمها له الكثيرون من الاصدقاء العراقيين في تهيئة المواد المخطوطة ، والمؤلفات التركية النادرة ، وفي الخدمات الكتابية . على أنه ليس من اللائق ان تهمل الاشارة هنا بالشكر الى حمدي بك بابان (من أفراد الاسرة الشهيرة الوارد ذكرها في الكتاب)، ويعقوب أفندي سركيس ، ومحمود بك الشاوي ، وحسن بك في الحلة ، وداود بك الحيدري ، والشيخ أحمد باش أعيان . وقد قدمت للمؤلف معلومات قيمة في التاريخ الاخير لبعض المواقع الخاصة من الحاج عذار في البصرة ، والحاج شكري بك في الحلة ، وحميد خان في النجف ، وعبدالمجيد بك اليعقوبي في كركوك ، وكثيرين غيرهم . كما سهلت الاعمال الكتابية التي قام بها زاهد أفندي ، وعبد الجبار أفندي ، ويوسف مالك ، مهمة جمع المراجع والمعلومات تسهيلا كبيراً .

بغداد ـ شباط ١٩٢٥

س . هـ . ل .

(المؤلف)

الفصل الاول

العراق والفتح التركي

البلاد في ١٥٠٠[1]

العروق والمجتمع

ليس بين البلاد المشهورة قديماً سوى بلاد قليلة اختفت عن أنظار العالم المتأخر ، وأصبحت أكثر خمولا في ذكرها ، كالبلاد التي كانت في وادي دجلة والفرات في أوائل القرن السادس عشر • فقد اكتسحت أمجاد هذه البلاد القديمة موجات بشرية متتالية من الشرق الاقصى ، فأدت الى قيام سلالات مالكة عـــدة وسقوط اخرى غيرها • ولم يترك للعراق ما استجد من شؤون النهضة الحديثة في أوربة ، وعالم كولومبس الجديد ، وخطط ملوك أوربة النابهين في خلق دول جديدة من أمم متكتلة ، الا شيئاً يسيراً يمكن ان يلفت به أنظار الغرب اليه • وقليل من الناس من كان يعتبر « بابل » و « نينوى » وبغداد مواقع لها وجود في أي بلد من البلاد الحية ، وأقل من هؤلاء من كان يسمع بتبادل المراسيم الديبلوماسية نادرة الوقوع ما بين ولاة العراق وبلاطات أوربة • وكانت قصص السياح والرحالين صنينة بالاخبار ولا تمت الى الحقيقة بصلة • ولم يهتم بالبلاد الواقعة شرقي البحر الابيض المتوسط ، بوصفها مصدراً للحرير والتوابل والابازير المتبادلة في سورية ومصر ، أو واقعة في الطريق اليه ، سوى دول أوربة الجنوبية المهتمة بالملاحة • ومن أجل هذا كانت رحلات دياز ودوغاما البحرية قد أثارت الاهتمام بالبلاد الهندية وما جاورها • فقد مخرت أساطيل البرتغال عباب البحار الهندية قبل أن ينتهي القرن الخامس عشر ، واستعمرت في الخليج العربي قلعة هرمز العظيمة سنة ١٥٩٧ (٩١٣ هـ) • وكان تجار البندقية وجنوة يسلكون الجسر الارضي الممتد بين سواحل الابيض المتوسط والسواحل الايرانية بصورة دائمة ، على قلة

---

(١) توافق سنة ٩٠٦ للهجرة •

ما كانوا يفعلون ، فينزلون في خانات بغداد او « بابل » ، ويشاهدون النجف ويتلبثون أيام مرورهم في الزبير •

فعلى مثل هذه التفاهة كانت مكانة العراق وأهميته في العالم قبل ان تعود به وتجعله قبلة الانظار من جديد ـ بمقياس متواضع ـ الصوفية الايرانيـة الآخـذة بالنمو ، وفتوحات السلطان الشرقية ، وتوسع تجارة الدول الغربية ومغامراتها •

غير ان العراق في الوقت نفسه لم يكن فيـه ما يثـير أطماع جيرانه • فقد كانت البلاد على عظمة ما ضيها ، وعلى ما فيها من ثروة دفينة ما تزال تنتظر العلم والحكم المستنير لاستثمارها ، قد تقادم فيها عهد الخراب الذي سببه الجور المبيد فأصبحت قفراً موحشاً تسود فيها الاحكام الفوضى من القلعة الصخرية في ماردين حتى شـط العرب •

وكان المسافر اذا مر بالبلاد سالكا الطرق ، التي كونها استطراقها منذ القدم ، يلقى اضطراب أحوال الجو ومشاق السفر الخاصة بكل قسم من البلاد • فقـد كان يمكن المسافر أن يمر من جنوبي العراق الى وسطه في نهر الفرات حتـى الحلة ، أو في الفرات والغراف[1] ودجلة الى ايوان كسرى • وأذا ما سلك المسافر الطريق المذكورة فكان يبدأ من الجنوب بشط العرب فيمر بذلك الطريق الزاهر ثـم يخترق أهوار الحلفاء والبردي ويدفعه «ادلاؤه» على طول جداول قد غطت جانبيهـا النخيل في مواضـع ، والصفصاف في أخرى ، وتتفرع ثم تلتقي ابـدا ودوما • واذا مر من هناك فقلما يصادف غير قطع من الارض مزروعة بالـذرة أو الشعير ، ويشاهد قطعان الجاموس وقرى المعدان المتألفة من الخصاص « بيـوت الحصران القصبية » أو بيوت الشعر التي يأوى اليها الرعاة بعد ان يدفعهم جفاف البادية الى ضفاف الانهر • وفيما فوق البصرة كان يقع برج الدير العظيم ، وفيما فوق القرنة الى صدر الغراف كان يشاهد نهر عنتر والمنصورية وكوت المعمر وهي أكثر المناطق سكانا وأثبتها من بين ما يقارب الف مجموعة من مجموعات المنازل

---

(١) كانت اكثر مياه دجلة تسيل في الغراف منذ أيام الساسانيين حتى سنة ١٥٠٠ ، وكان القليل منها يسير ماراً بالعمارة الحالية فالقرنة • وفي ١٥٧٥ انقسمت مياهه بين هذين الطريقين الى قسمين متساويين ، وفي ١٦٥٠ رجعت المياه كلها الى الطريق الشرقي • ويدعى فرع الغراف الآن شط الحي •

العشائرية المماثلة لهـــا • أما على الغراف فلم يكن أي بلد من البـلدان الحديثة موجودا سوى الحي الواقعة فيما يقرب من واسط القديمة • ولم تمصر حينذاك على دجلة العمارة والكوت والبغيلة (النعمانية) والعزيزية والصيرة • وكان الفرات الاوسط يمر من العرجة والسماوة وللوم وحسكة (الديوانية اليوم) وكثير من القرى المأهولة الواقعة بين بساتين النخيل الى الحلة • وقد كانت تقع الى الغرب ، في أرض تتعرض للفيضان في الربيع ، الرماحية والكوفة والعتبات المقدسة • أما البالاكوباس – أعني – فرع الهندية من الفرات فقد كان جافا مطموراً مهجوراً • وكانت بلدة الكفل (كما هي بلدة العزير على دجلة) من أماكن اليهود المقدسة • ولم تكن طويريج قد مصرت بعد ، والمسيب كانت تكثر فيها الحركة لوقوعها على طريق زوار كربلا • ومن هناك بمراحل ثلاث ومن الحلة بمراحل أربع كان المسافر يصل بغداد عن طريق البر •

على مثل هذا كانت المناظر والبلدان في العراق الجنوبي • وهي وان كانت تشابه وضعها اليوم فانها كانت أكثر اختلافا من المناطق الشمالية • فلم تكن مجاري الانهار مثلها اليوم ، وكانت الاهوار تمتد الى الشمال أكثر مما تمتد اليه اليـــوم وتغمر مساحة أوسع ، وكانت الفيضانات في الربيع مستفحلة بالكلية • وكان في هذه البلاد القليل من الزراعه والاقبال على تربية الحيوانات التي يقوم بها البدو • وكان الصفصاف والغرب اللذان يقل وجودهما اليوم يكسوان ضفاف الانهـــر حينذاك ، كما كانت مظاهر العظمة السالفة ، أقل اندثاراً •

ففيما فوق الفلوجة وسامراء الى ما وراء جبل حمرين كان مستوى الارض يرتفع وطبيعتها تتبدل • فلا يبقى للاهوار والصفصاف من أثر ، ولا للمعـــدان والجاموس ، ولا للانهر الطائشة التي ليس لها ضفاف ثابتة • وكان يستبدل الغرين بالحصباء والصخور ، ويتبدل الانبساط بالتعرج ، ثم تظهر علامات الثروة المعدنية في الارض • وكانت تحل عند الفلاحين القليلين هناك الدواليب المائية والمطـــر الغزير محل الترع الفائضة والكرود ، كما كانت تحل في محل الخيمة والكوخ القصبي الاكواخ المبنية من الطين • وكانت قطعان أكبر من الاغنام والابل تقـــود رعاتها أثناء تجولها في مراع اوسع وأقل شحاً في عشبها •

وكان الطريق الى سورية يعبر الفرات في الفلوجة ، ثم يحاذيه متجها نحـــو

الشمال الغربي ماراً في المراحل المعروفة في كل عصر • وفيما عدا الرمادي ، كانت قرى الفرات الاعلى مثلها اليوم اسما واتساعا وحالة ، كما بقي على حالته هواء البادية النقي والبراري الجافة المرتفعة •

وقليلاً ما كان المسافرون يطرقون دجلة فيما فوق بغداد • فمن قبتي الكاظم وأبي حنيفة الى حمام علي ، ينبوع الموصل ، لم يكن المسافر ليمر ببلدان كثيرة سوى السميكة ، الواقعة على نهر الدجيل ، وسامراء وتكريت • وكان طريق الموصل المستطرق بكثرة ـ الذي لم يتبدل اليوم في تخطيطه ووقفاته ـ يمر بوادي الخالص ثم يعبر جبل حمرين • وفي ضواحي بغداد الشمالية كان يتفرع طريقان بزاوية حادة ، يمر الشرقي منهما في خان سماه الترك أخيراً ـ أورطه خان ـ ثم يصل الى معبر ديالى في بهرز ومن بعد ذلك يحاذي بساتين قرى بعقوبة الانيثة وقلعة شهربان ، ويمر بين تلول منخفضة فيخترقها الى خانقين ومن هناك الى كردستان • وقد كان هذا طريق العباسيين القديم الى خراسان • وكانت في شرق بعقوبة قرية تقع على نهر الروز هي محطة نصف الطريق الى مندلكن حيث يتخلى العرب الى اللر ، ويلتقي جفاف الارض المنبسطة بأنهار التلول السريعة• وكان طريق الموصل يمر بقريتي الاعظمية والخالص ثم يعبر الخالص في بليدة دلي عباس • وبعد ان يمر بالغرفة ومن فيها من البدو يميل الى اليسار فيمتد في الجبل في ثنايا وعرة ومن ثم يشرف على سهول قره‌تبه المتعادية[٢] • وكانت زنگباد الوقفة التالية التي يمر بها الطريق الى موقع كفري القديم ثم الى طوزخرماتو وطاووق وأخيراً الى كركوك • ومن شمال كركوك كان الطريق يخترق سلسلة منخفضة من الجبال ماراً بمجموعة آبار الزيت الخام ومخترقاً سهلاً واسعا الى الزاب الصغير في آلتون كوپري • وكان الطريق يمر من أراضي القمح المتحدرة الجميلة التي يمر بها اليوم الى الزاب الكبير فقوش‌تبه وقلعة أربيل القديمة • وكان هذا النهر يعبر من معبرين ، ومن ثم تأتي الموصل بعد مرحلة أخرى • وعلى هذا القسم من الطريق عدة قرى مسيحية ودير قديم • وكانت الموصل الباب الطبيعي للعراق الشمالى • وكان يمكن الوصول اليها من الشمال ومن الغرب بطريقين

---

(٢) أي المتفاوتة في العلو والخفض غير المستوية وأهل العصر يسمونها « المتموجة » وذلك خطأ •

رئيسيين • فكان احدهما يؤدي الى مدينة ماردين الواقعة فوق قمة التل من حلب عن طريق أورفة ومن ثم يمر بقردير الى نصيبين ويخترق السهل الى دجلة فيما تحت جزيرة ابن عمر • ويمر الطريق الآخر من مدينة ديار بكر العظيمة وقلعتها الى جزيرة ابن عمر ثم الى الموصل عن طريق زاخو والقوش •

وبمثل هذه المسالك كان يمكن المسافر من الاناضول او سورية ان يصل الى الى سواحل الخليج • والبلاد التي كان يمر منها هي عراقية الطبيعة تماما ـ وهي المنطقة العليا والمنطقة السفلى للسهل الطويل الممتد بين النهرين • ولولا الضرورة القاضية بالبيان أولا عن الاراضي المتاخمة للعراق من جميع الجهات لانتقلنا بهذا الوصف الى البيان عن أحوال البلدان والعشائر التي كان بوسع المسافر ان يصادفها في طريقه المذكورة • فان البلاد المجاورة للعراق مصاقبة ، مهما اختلفت عنه في المظهر والمجتمع ، لايمكن أن تختلف عنه من الوجهة التاريخية • ففي قسم منها تمتد الطرق الرئيسية المؤدية اليه • وقد خضع القسم الآخر منها لتابعية حكامه أو ناوأهم فأبى الخضوع لهم • وكذلك كان قسم آخر من هذه البلاد المجاورة جزءاً من ولاية بغداد باستمرار • وكان جميع هؤلاء الجيران على اتصال دائم بسكانه وخاضعين بأجمعهم للتأثيرات الخارجية التي خضع لها العراق نفسه •

وكانت البادية العظيمة في غرب الفرات ـ وهي تختلف عن العراق جغرافيا وثقافيا على عدم وجود حاجز بينها وبينه ـ تقوم بدور ثلاثي بالنسبة للعراق • فانها كانت تبعد التأثيرات السورية عنه ، وتقوم بمقام المادة التي تجهزه بالقبائل العربية لتملأ أية بقعة من المراعي القابلة للاستثمار ، وتجعل الحدود الغربية من جيل لآخر مهددة وغير آمنة • فمن العبث ان نتكهن بأسماء الفروع التي لا تحصى من القبائل التي تجولت في مراعيه او غزت أصقاعه • وليست لنا حاجة تدعو للبحث عن تاريخ هذه القبائل وأحوالها السياسية لان ذلك لا يخرج عن نطاق البحث عن البداوة وأحوال الجزيرة في كل عهد • اما القبائل النائية في واحات نجد والاحساء وسواحل الخليج فسوف يكون من الممكن لنا الخوض في بحثها عندما تدعو الحاجة لذلك في صدد الكتابة عن حوادث السنين المتأخرة • واما الخليج نفسه فقد سبق لنا أن أشرنا بالقول الى دخول البرتغاليين الناجح في المياه التي لم يمخر عبابها غير قرصان البحرين وغواصي اللؤلؤ من سكانه ، والتجار

الساحليين من سكان عمان وموانىء البلاد العربية وفارس الصغيرة • وسوف يذكر بتفصيل أوفى استبداد البرتغاليين الطويل في هذه البحار •

وفي أراضي عربستان المرزغية المنبسطة كانت قبيلة بعد أخرى من العرب زارعي الرز ومربي الجاموس تفرض ضرائب على المواصلات النهرية وترعى حيواناتها من دون معارض على طول حدود أقلقت في الاخير الدول المعظمة في العالم • وكان حاكم هؤلاء والي الحويزة وسليل بيت عربي قديم[3] ، تضاءلت أصوله في الأساطير • وكانت سطوته تمتد الى القرنة والشط من الغرب • وربما كان نشوء دويلته قد أعقب سقوط أتابكي القرن الرابع عشر في خوزستان • وقد عظمت شوكة هذا الوالي بتذبذبه الحاذق ما بين البرتغاليين والفرس وعرب البصرة ، وحافظ على سلطته بوعورة بلاده وفقرها •

وفي الغرب من منطقة الوالي وشرقها كانت القبائل وأمارات الوادي التي انسلخت من مملكة الاتابكيين المنهارة • فكانت خوزستان وديار البختياريين تكون « لوري بزرگ » القديمة أي لرستان الكبرى • وقد تجزأت هذه الآن الى حكومات عشائرية أنائف[4] صغيرة منفصلة بعضها عن بعض ، لم تتبدل علاقاتها بجيرانها والمسيطرين عليها منذ ذلك اليوم الى يومنا هذا الا في النادر • وكانت الاحوال الاعتيادية ترمي الى تجزئة المجموعات الكبيرة الى أ. راء صغيرة تتجمهر أحيانا أما لشخصية رئيس جذابة قوية ، واما لدرء خطر عام شامل • اما لرستان الصغرى الممتدة على طول الحدود العراقية الواضحة ، في جهتي الزاغروز ، فقد بقيت خاضعة للسلالة الأتابكية القديمة التابعة الملك الملوك • وكان حكمها ممتداً الى مسافة بضعة أميال في السهل الكائن في غرب تلولها ضاماً بذلك جصان وبدرة من القرى التي يكثر فيها السكان اللريون حتى الآن •

والى شمال پشت كوه أي جنوب نهر سيروان (ديالى) وبعبر الطريق بين بغداد وكرمنشاه كانت تقطن جمهرات قبائل كلهور الكردية القديمة • وعلى هذا تكون البقية الصغيرة الباقية منها اليوم في البقعة نفسها قد عاشت في مكانها منذ أقدم العصور • وتنقسم البلاد التي في شمال بلاد الكلهور وشمال غربها الى

---

(٣) ربما كان ينتمي الى ربيعة بواسطة فرع « الباوية » •

(٤) الانائف جمع (الانوف) وهي الابية •

مناطق ثلاث : وهي منطقة « البلاد الحارة » بين سلسلة قرهداغ والطريق الممتد بين زنگباد والزاب ، وأودية شهرزور ، وأصقاع اردلان (كردستان الايرانية الآن) • وكان يحد المنطقتين الأولیين من الشمال نهر الزاب الصغير كما كان يفصلهما عن بلاد أردلان جبال الأورمان والحدود الدولية الحديثة • وكانت تحكم هذه القطعة الكبيرة من كردستان في القرن الثاني عشر السلالة القديمة المعروفة بسلالة « بني أردلان » • وتحيط بهذا الاسم أساطير متناقضة • فمن المحتمل أن تكون هذه السلالة قد تفرعت من بيت نبيل في ديار بكر حين هاجر أحد أبناء هذا البيت الى قسم گوران من بلاد الكلهور • فامتدت سطوته بسرعة وسيطر على قبائل شهرزور والوديان التي في شرق الاورمان • فصادقه جنگيز خان على حكمه • وأخذ ابنه كالول أتاوة من أربيل نفسها • وبقيت هذه الدويلة آمنة موحدة على طول عهد أميرين آخرين من الاسرة نفسها • وقد صادف في أوائل القرن الرابع عشر ان كان نهوض الجلائريين في العراق على عهد أمير ضعيف من بني اردلان ، فلذلك اضطر للتخلي عن القسم الشمالي والقسم الغربي من امبراطوريته • وخاب الجلائريون في جميع المحاولات التي بذلوها في الحصول على أكثر من ذلك • وتعزى تلك الخيبة لشجاعة حسن الحاكم الاردلاني التالي ولحكمته • واستعيد بعد ذلك في القرن الخامس عشر ، على عهد حكومة مأمون الحازمة ، القسم الشمالي من الامبراطورية فأصبح الزاب الكبير من جديد الحدود الشمالية ، وحصنت رواندوز • وليس بين جيران العراق ، في حقبتنا التاريخية هذه ، من الامارات ما يمكن مقايسته بأمارة اردلان من ناحية الحضارة أو الحكم الملكي •

ولم يكن في شهرزور حتى هذا الحين سوى عدة من قبائلها وأسرها المتأخرة • فان الزنگنة والهماوند والجاف كانوا لا يزالون في ايران • كما أن مؤسسي الطرق الدينية كالشيخانية والطالبانية والجبارية لم يكونوا قد اصطبغوا بالصبغة العشائرية بعد • وان حملة الفرمانات من تركية الذين استوطنوا أراضي زهاو والداودية لم يظهروا في الوجود إلا بعد هذا العهد بعدة أجيال • وكانت الوديان الواقعة في شرق كركوك بحوزة أخلاط من طبقة الفلاحين الاكراد المتجمهرين هنا وهناك بجمهرات تفرقت منذ مدة وأصبحت منسية في قرى خاملة

الذكر لا يمكن تعيين مواقعها • وان آثار القلاع المبنية على التلال وأسماء المواقع المختلفة لتعيد اليوم ذكرى المعيشة الزاهية التى لم تخل من مدنية ، والانانية القاسية في كردستان القرون الوسطى التي لا تذكر الا قليلاً مع عدم تبدلها كثيراً في هذا اليوم • فقد كانت درنة وپنجوين ، الواقعتان على ممرات الحدود الاخيرة ، وكوي وحرير ورواندوز بين الزابين ، وعقرة على الزاب الكبير ، كلها من الدويلات المحصنة ذوات القلاع •

وقد كان للعمادية ، فيما فوق الزاب الكبير ، تاريخ طويل حتى هذا الحين • فكانت من توابعها عقرة ودير ودهوك وزاخو أحياناً • وكانت تكوّن قسماً من ممتلكات أردلان من القرن الثاني عشر الى القرن الرابع عشر • وقد أعقبت هذه التابعية بتابعيتها للجلائريين حتى انتهى أمرهم هم أيضاً • ومع عدم تحقيق المدونات القديمة لهذا المكان نستدل من السكان الباقين ومن التقاليد على وجود أسرة أرستقراطية مبجلة ـ اسرة الباحدينان ـ بدأت تحكم الاكراد الهكاريين الفلاحين في أواخر القرن الرابع عشر • ومنذ ذلك العهد حتى عهدنا هذا كان يتولى المدينة ابن[٥] بعد آخر وبذا كانت تقاوم جيوش الآق قويونلي المعتدين ، غير انها خابت في التملص من حكم الأردلانيين •

وتقطن في شمال ممتلكات الاردلانيين (في ايران) وفي شرق رواندوز ، وعبر الحدود الحديثة جمهرة قبائل المُكري • ولم تتوفق هذه الجمهرة من القبائل على اعتزازها بعراقتها في القدم لتوحيد قبائلها ولا الى انجاب بيتٍ مالكٍ قوي • وقد كانت تقرن باسم المكري مملكة كردية قديمة ـ ربما كانت في أيام السلجوقيين ـ غير انهم فى هذا الدور لم يكن يربط بينهم الا رابط وهمي وبذا لم يملكوا أنفسهم ان وقعوا في حكم الاردلانيين • وفي زمنٍ متأخرٍ يصل الى حدود سنة ١٧٥٠ نجد ان هناك ذكراً في عدة مناسبات لبگ من بيگات المُكري ، ومع ان هذا اللقب كان ينحصر في أسرة واحدة بطبيعة الحال فلم يرد في المدونات شيء عن حقيقة حكم هذه الأسرة وتسلسلها • وقد كان مقر هذه الجمهرة العشائرية في سَوج بولاق[٥] •

ويضاهي المُكري شهرةً في صفاء عنصرهم وعراقتهم في القدم اندادهم

---

(٥) ان قبيلة البشدر العظيمة وأسرة سوران كانتا من المكري •

الهكاريون • فكان مد هؤلاء يعلو وينخفض في منطقة تمتد شمالاً الى بتليس ، وشرقاً الى منخفضات أرمية ، وجنوباً (شرق دجلة) لمسافة كانت تختلف بحسب حركة نفوذهم • وما تاريخهم القديم الا تاريخ فرع بارز من فروع العنصر الكردي الذي تحكمه اسرة مالكة سلجوقية • وكان أمير بتليس في القرون الوسطى أقوى الأمراد الاكراد • وقد توفق أمراء من هذه الاسرة في أجيال متعاقبة في تكوين سلالات مستقلة في جزيرة ابن عمر وجولمرك • على أن هؤلاء لم يبق لهم نفوذ الامير الهكاري عند انتهاء القرن الخامس عشر • فقد كان لكل منهم سلالة منفصلة ، وكان يطلب كل واحد منهم معاملة خاصة من المسيطرين المتعاقبين عليهم لينشر نفوذ بيگه على أوسع ما يمكن بين القبائل وعلى القرى المحيطة به •

العروق والمجتمع

كانت سهول العراق محفوفة ، على هذه الشاكلة ، ببلاد تختلف عنها جد الاختلاف بوجه أرضها وسكانها • فنظرة واحدة ننظرها الى العرب الخلص من بدو بادية الشام وسكان شواطيء الخليج ، والى اللر والكور في الشرق والشمال ، تؤكد لنا بايضاح سيادة اللغة الواحدة وتناسق الطبيعة في العراق الاصلي • فكانت العربية ، في الحقيقة ، ينطق بها الجميع من الموصل الى كارون • وكانت تقاليد البلاد ، في هذا الزمن ، هي التقاليد العربية ، كما كان الاسلام عاماً تقريباً • وكان يوجد الكثير من وحدة المناظر العامة والحضارة الواحدة • وكانت الانهار تربط الشمال بالجنوب • غير ان التناسق الظاهري في الدم والديانة ووحدة المجتمع كان يضم اختلافات مفعمة بالاهمية •

فلم يكن العراق بلاداً عربية من الوجهة العنصرية • فقد أضافت موجة بعد أخرى من الفتوحات ، من السومرية الى المغولية ، عناصر جديدة الى دمه • ولم تك هذه في فجر تاريخه عربية ولا سامية • وكانت قوميته العربية ذات منشأ متأخر نوعاً ما ، فحفظت هذه القومية ذكرى قسم من الفاتحين الكثيرين • على انها من وجهة أخرى تمثل العنصر الذي غطى على هذه العناصر الباقية منذ زوال عظمة الخلافة • وعلى هذا لا نجد تناسقاً في الجنس ، واذا ما وجدنا جمهرة تدعي الاصل الواحد فيكون ادعاؤها هذا لا أساس له في التاريخ • على

ان البعض من القبائل غير الموطنة وقليلاً من الأسر في المدن يمكنها وحدها أن تفاخر بهذا النقاء العنصري الذي حافظت عليه تقاليد الزواج الاسلامية . وفيمن عدا هؤلاء كان العراقي في ذلك العصر كالعراقي في هذا العصر ، فلم يكن الا وارث شعوب عديدة .

وأكثر من هذا انه كانت توجد عدة طوائف وأقليات في عرض البلاد وطولها لم تقوَ الصبغة القومية العامة أن تسود فيها . فقد استوطن الايرانيون في العتبات المقدسة والهنود والعبيد في البصرة . وكان الصابئة - صاغة الفضة الوادعون في القرى الواقعة على النهر - متفرقين في جنوبي العراق . كما كانت الاسر الكردية والتركية قد سكنت منذ مدة طويلة في الموصل وبغداد حيث يعيش اليهود ألوفاً مكبين على مزاولة الحرف التي عرف بها عنصرهم . اما النصارى فكانوا من أصول وطوائف عديدة . وقد كونوا في الموصل قسماً كبيراً من سكان المدينة وانتشرت قراهم الآهلة في الجبال المنخفضة في الشمال . وتجمعت في أنحاء كردستان مجتمعات مسيحية صغيرة حول دير من الاديرة وحافظوا على كهنوتهم . واستوعب جبل سنجار ، مع الجهات الجبلية شمال شرقي الموصل ، اليزيدية الغلاظ الذين وقفوا في وجه كل انسان وكل حكومة . وكانت بقايا الهجرات القديمة من التركمان متفرقة في تلعفر ، وفي خط طويل من القرى على طريق الموصل من دلي عباس الى الزاب الكبير ، وتمركزت أكثريتهم في كركوك . وكان الاكراد من العشائر والمدن يطلون من جبالهم على منخفضات الشمال من العراق . وكان لربشتكوه منتشرين في القرى القريبة من الحدود الشرقية . وكان البدوي الاصيل ، من الغرب ، يزدري القبائل التي استوطنت الاراضي المرواة والفلاحين ويعدها عنصراً منحطاً مختلفاً عنه .

ولا يتطرق تاريخنا هذا الى النزاع الديني - الخلاف الدائم بين الطائفتين السنية والشيعية من المسلمين - الا بقدر ما يؤثر ذلك النزاع في التاريخ . وسوف يتم البحث في هذه الناحية - الحيوية في السياسة العراقية في الداخل والخارج - في موضوع آخر بعدها كمشكلة دائمة يلاقيها حكام العراق باستمرار . وهناك تباين شديد كثيرا ما يحدث المشاكل للحكومة ، وهو التباين بين المدن والقبائل . ففي المناطق المساعدة - الفرات الاوسط ووادي الخالص

وديالى السفلى وقرى الحدود الكردية وبساتين البصرة ــ كانت هناك جماعات تجمع بين الطرازين من طرز المعيشة ، فقد كانت تتألف من أناس مزارعين من أصل عشائري غير منسي لكنهم ألفوا التوطن وصارت لهم مصلحة به • وفيما عدا هذا كان الفارق بين البلدة والعشيرة واضحاً فلا يتفقان الا في الندرة • وكان رجل القبيلة ينهب قافلة التاجر وحيوانات الفلاح على سواء • ولم يكن يحتاج الى شيء من منتجات البلد وغلاته وثمارها سوى الحبوب والتمر ، فقد كان يحصل عليها سنويا بمبادلة إبله الصغيرة • كما كان ابن المدينة يحتقر البدوي ويخشاه ويعده وحشاً مخرباً • على ان مثل هذه العلاقات لم تعدم في بعض الاحيان شفاعة جماعة من سكان المدن لصديق من القبائل ، أو دعوة القوات العشائرية وجعلها عوناً في ثورة أو فتنة داخل أسوار المدينة •

وكانت المنازل النهرية نصف الدائمة في العراق الجنوبي قبائلية من جميع الوجوه الاساسية ، وكان يسيطر عليها هذا الشيخ الحاكم أو ذاك ممن يعين نفسه بنفسه • اما غير هذه فالبلدان العراقية لها مناشيء مختلفة ولكنها بسيطة • فالتناسق ، الواضح جداً ، في المسافات التي تفصل البلدان بعضها عن بعض يدل على أن أصل أكثر البلدان كانت منازل القوافل • ومنها ما كان قد نشأ في محلات عبور الانهر التي كانت على الطريق الرئيسية • ومنها ما هو ناشيء عن تجمع الناس حول قلعة في مركز عشائري ، وهذه تشير الى قيادة أحد الشيوخ المنسيين أو سخائه • كما ان بلدانا عدة كانت قد نشأت حول مزار أو عتبة مقدسة واتسعت بتوارد الزوار اليها • وقد ساعدت الحاجة لسوق يباع فيها الصوف وثمار البستان والحبوب والجلود في عدة أماكن على تشييد الدكاكين والمناثر (مخازن الحبوب) مع جامع وحمام ومقهى • اما البلدان الكبيرة فبالامكان أن يذكر فيها أكثر من هذا • فبصرة العصر الذي نصفه كانت مع البساتين والارض الغامرة محاطة بسور من الرهص (طين البناء) مرمم ترميماً ناقصاً • ولم يكن في ضاحيتها على شط العرب سوى قليل من البيوت • وكانت البلدة نفسها ثغراً قليل الشأن غير عاطل يضم ما يقارب عشرة آلاف دار ، كانت أغلبها أكواخاً من القصب يعيش أصحابها عيشة ذات صلة واهية بحياة المدينة • كما كان عدد من الابنية الشاخصة تواجه النهر وتبعد بمسافة ميلين عن الشط •

وبعد هـذه المـدة ببضع سنوات ألفـاها رجل انكليزي[٦] (أول انكليزي يزورها تقريباً) « بلدة ذات تجارة عظيمة بالتـوابل والابازير والعقـاقير التي تأتيها من هرمز وفيها أيضاً منثر (مخزن) كبير للقمح والرز ، وينمو فيها التمـر الذي يجهز لبابل وسائر أنحاء البلاد والى هرمز وجميع أقسام الهند » •

وكانت الحلة على صبغتها في الوقت الحاضر سوقاً واسعة للعشائر ومركزاً لمبادلـة منتجاتهم ومعقلاً من معاقل الحكومة • اما بغداد هذا التـاريخ فكانت « بلدة عظيمة بعض العظم لكنها آهلة جـداً بالسكان • وفيهـا حركة متسعة للغرباء بوقوعها على طريق ايران وتركية وبلاد العرب • فمنهـا كانت تخـرج القوافل الى هذه الاماكن وغيرها » • وفيها جسر من الزوارق ، « مربوط بسلسلة عظيمة من الحديد تتحرك بسرعة في كلا جانبي النهر » يصل الجهة الشرقية بالجهة الغربية من المدينة • وقد سوّرت الجهة الشرقية وحُصنت بطريقة خاصة وبقي الكرخ بلا سور • وكانت أبرز الابنية فيها قصر الوالي وثكناته والحمامات العامة والجوامع والاسواق المسقفة • اما بقية المدينة فكانت بيوتاً حقيرة قذرة ذات طبقة واحدة تسوّرها جدران بلا شبابيك فتحجزها عن الطرق الملتوية الضيقة • وكان يجلب اليها التمر والرز من جنوبي العراق ، والصوف من العشائر المتنقلة وراء الكلأ ، والخشب من كردستان ، والحبوب من الموصل • وكانت تجلب البضائع من البصرة ، وبضائع سواحل البحر الابيض المتوسط من حلب عـن طريق عانة ، والبضائع الايرانية من كرمنشاه عن طريق خانقين • ولـم تكن الثقافة معدومة بالمرة ، وكان الامن لا بأس به داخل السور ، والحكومة متقلبة تلعب بها الاموال ، والصناعة والحرف في أحط دركاتها ، والجمل الدينية ترددها الافواه دائماً وابداً •

وقد اعجب الرحالون بكركوك فوصفوها بأنها « مدينة جميلة رائعـة »[٧] حيث كان النطـق السائد بالتركيـة المفككة والكردية الشهرزورية • وكانت القلعة فيها قوية بدفاعها ومسيطرة على مسالكها المبنية بالكلس في أساسها • وكانت

---

(٦) رالف فيتش •
(٧) راوولف •

المحلات الواقعة في شرق المبزل[8] الواسع غير مبنية حينئذ • وكانت أربيل ـ المشابهة بكل وضوح لكركوك بطبيعة بنائها وعنصريتها ـ بعيدة عن قريبتها البلدة العربية[9] بمقدار بعدها عن جيرانها البلدان الكردية • ويقع بالقرب منها دير للنصارى[10] • وكانت الموصل ، العاصمة الطبيعية للجزيرة وقاعدة مدن كردستان الوسطى ، تمتاز بكثرة مواد البناء من كلس وحجر وأخشاب • وكانت أسوارها البارزة متداعية من الخارج لعدم اصلاحها وترميمها من الداخل • وكانت تجارة المنتجات الكردية المهمة ـ الجوز والزبيب والصمغ ـ بيد التجار الاكراد المتوطنين فيها • وكانت التجارة ناشطة غير ان الزراعة كانت مهددة بالمحل والجراد باستمرار • وقد غطت شدة المنازعات بين الطوائف النصرانية على المنازعات المزمنة بين الاسر في الموصل •

ونحن في غنى عن الاشادة بأجوال المدن في هذا الزمن بأوفى من هذا التفصيل لعدم الحاجة اليه من جهة وعدم امكان ذلك من جهة أخرى • فلم يكن في مدن القرن السادس عشر هذه ما يبهر زائر القرن العشرين لها من حيث الميول والافكار واللغة وطبيعة البلاد • وفيما بين القبائل لم يحدث تغيير كثير في الامور الجوهرية • فان الاحوال نفسها كانت تولد الاختلافات نفسها في شؤون السكان المعاشية ودرجة توطنهم واستقرارهم • وكان جل ما يهم هذه الجماعات من أمور الحياة الجمل عند ناس والغنم عند غيرهم والجاموس عند الآخرين • وكان بناء المجتمع العشائري ، بمثله العليا ومعراته ، وبشرائعه واستباحاته المقبولة ، وبتعصبه ضد القواعد والاعراف الاخرى ، وما يزال وسيكون الصعوبة العظمى التي يواجهها الحكام المتعاقبون • وان كانت تلك الصعوبة قد خف شيء منها في القرون الاربعة الاخيرة بتزايد توطن البدو فقد ثقل حملها بتسلحهم بالاسلحة النارية وسهولة حصولهم على الاهداف ـ سكك الحديد والتلغراف وطرق السيارات ـ المعرضة لعبثهم في الوقت الحاضر •

ولو حاول المؤرخ تسمية حتى أعظم الجمهرات القبائلية المنتشرة في العراق

---

(٨) وهو « شاي » كركوك المعروف ـ المترجم
(٩) لعل المؤلف يقصد مدينة الموصل ـ المترجم
(١٠) لاشك انه يشير الى دير عينكاوة ـ المترجم •

في سنة ١٥٠٠ لكان ذلك بلا نفـــع عظيم له • فالضغائن والمحالفـات والغزوات وعصيان هذا أو ذاك وشخصيات الشيوخ واخلاصهم لحكام المدن أو عدوانهـم عليهم قد أسدل عليها ستار النسيان الى الابد • وسوف تزحف أسماء القبـائل الحديثة الى مثل هذا المآل واحداً بعد آخر • فقـد كان بعضها ـ قشعم وربيعـة والموالي ـ حتى في تلك الايام في « ديراتها » الحالية • وفي صفحات متأخرة ـ تتناول أحوال البلاد بعد قرنين ـ سوف نتكلم عن ظهور البعض من أكبر هـذه القبائل لأول مرة • وليس بوسعنا الآن أن نتجاهل الاسماء والاماكن ونؤكد على التشابه العام في القبائل التي أحاطت بالمناطق العراقية المستوطنة ، فعزلتها بعضها عن بعضها وبزتها بعددها •

الماضي القـريب

على مثل هذه الحال كانت البلاد التي يتعقب هذا التاريخ مصيرها منذ فجر القرن السادس عشر حتى آخر القرن التاسع عشر • وواجب مقابلة ما حل بها من الخراب في هذا الوقت بأيام الثروة والغنى في عهد العباسيين يغرينا بأن نلتفت الى الوراء ونلقي نظرة على مجرى التاريخ الاخير الذي سبب خـراب البـلاد وشـللها • وسيكون بالامكان توضيح السهولة التـي وقعـــت البـلاد بســـــببها فريسة بأيدي الفاتحين من الايرانيين والاتراك اذا أسرعنـا بمراجعة تاريخ من تقـدمهم •

فقد بزغ فجر القرن الثالث عشر فوجد بغداد ما تزال مدينة الخلفاء المقدسة ، والعراق ما برح جنة الحبوب والبساتين كما كان في عهد سـرجون وسلوقس والرشيد • ومع ان أمير المؤمنين كان في القرون الثـلاثة الاخيرة ألعوبة بيـــد حرسه وحكامه ، ومع تقلص امبراطورية هـارون الوسيعة واقتصارها على صقع واحد ، كان الخليفة ما يزال فوق الحكام والامراء الذين كانوا يتواطأون مـع امراء المغـول البعيدين على جيرانهم المسلمين • وبقي ممسكاً زمـام الامور لمـا لا يحصى من الترع والانهار والقرى الآهلة بالسكان والثروة الباذخة والثقافة ، ومسيطراً على الصناعة في بلاده ما بين النهرين التي سارت بذكرها الركبـان • ومع تجمع القبائل التركستانية في الشرق ، ونشوء الامارات العديدة في شـمال وغرب القياصرة المضمحلين على ضفاف البوسـفور ، بعـــد تشتت الجيـوش

السلجوقية ، بقيت دار السلام جذابة غنية مهيبة الجانب ، لكنها كانت خائرة القوى وأقرب الى الخيال من الحقيقة لا حول ولا طول بيدها ، تتنعم بعظمتها الخالدة • وسرعان ما عصفت بها ريح الخراب فدهمها سنة ١٢٥٨ (٦٥٦ هـ) هولاكو حفيد جنكيز خان ، فثل عرشها وأطفأ نار الخلافة فيها حتى الابد واستباح غنائمها التي لا تحصى وكنوزها العظيمة ، وذبح شعراءها وتجارها وفرق طلابها وعلماءها وفقهاءها فاستحالت في يوم واحد من مركز السلطة الاسلامية الذي لا ند له الى مركز حقير من مراكز الامبراطورية الأيلخانية • وتقسم فترة القرون الثلاثة الواقعة بين هذه الحادثة المفجعة واستيلاء سليمان العظيم على بغداد الى اربعة أدوار • فقد غدت بغداد حكومة من حكومات أباطرة المغول في ايران مدة ثمانين سنة • وظلت لمدة سبعين سنة أخرى العاصمة الجنوبية لمملكة انفصلت عن الامبراطورية المذكورة على يد أحد ولاتها بعد أن خارت قواها • وفي عام ١٤٠١ (٨٠٤ هـ) وقعت بيد سلالة من سلالات القبائل التركمانية حتى اغتصبها الاقرباء المعادون • وفي سنة ١٥٠٨ (٩١٤ هـ) تشربتها مملكة الصفويين الايرانية التي كانت آخذة فى النمو •

ولم تكن الامبراطورية الأيلخانية ، التي استولى على عرشها مدة قرن واحد أبناء أسرة واحدة ، محبوكة النسج وكانت سيئة الادارة • ولم تكن مؤسسة على الثروة ولا على الوئام بل أسست على حيوية متفوقة لابد من أن تفسح فى المجال لاعظم منها • فقد كان المغول ممن أولع بالفتح وليس بتأسيس الامبراطوريات • ولم يكن لهم الاستعداد للادارة ولا اللباقة بها • ولذا طبعت قوتهم العظيمة بطابع عدم الثبات وعدم الاستقرار • وبانت نقاط ضعفهم هذه بوضوح عند حكمهم فى العراق • ففي حكومات بغداد والبصرة والجزيرة ــ التي أصبحت وحدات مختلفة ــ تدل تعيينات الامراء الملكيين على ان المناصب كانت لا تخلو من الشرف • وقد دل تقدم المقربين الدساسين على الاسس الواهية لمثل هذا الحكم • كما دلت الاعمال الخيرية النادرة ، كفتح الجداول وتعمير المساجد ، على ان الذين تسنموا العرش لم يكونوا مجرد وحشيين • فقد كان غازان ممن أفادوا بغداد عن حب واخلاص • فان اصلاحاته للقانون والحكومة ، وورعه الشيعي ، وتردده الكثير الى العراق كانت كلها من الامور التي تبعث الامل في الاحياء والتجديد • غير ان

هذا الامل قد ضعف وأصبح صعب التحقيق ، لان سطوة الأيلخانيين لم تتعد حدود المدن • فلم يكن تأمين الطرق ممكناً ، وقليل من كان يزرع في أرض دون أن يحصد زرعه منها الآخر • وكانت أعظم الاعمال التهديمية التي ارتكبها هولاكو هي التخريب المتقن في السدود والانهار ونواظم الاسقاء التي كان تشييدها المحكم منذ القدم المنبع الوحيد للثروة في البلاد • وقد تعذر القيام باصلاح تلك التخريبات بسبب استمرار الاضطراب في البلاد وفقدان روح العمل ممن بقـوا أحياءاً من السكان القليلين بعد تلك المذابح والتخريبات الهائلة ، وهو الامر الذي أدى الى اهمال الانهار وتردي الحالة في مجاريها بتراكم الغرين وتكاثر الطمي بحيث غدت الانهر مطمورة لا تستوعب الماء الكافي ولا يمكن ضبطها عند الطغيان • ولـم يعد من الممكن أن تستعاد الحالة الى سابق عهدها في البلاد حتى يومنـا هـذا • وقد أخذت قبيلة بعد أخرى من البدو المنتشرين في سهول نجد والجزيرة تعبر الفرات الى مراعي العراق • وكانت تعين أراضي المرعى لقبيلة دون أخـرى بالحروب القبائلية التي لا تنتهي • فأصبح العراق من جبـال بلاد اللر الى سـنجار منطقة البلدان القليلة الصغيرة ، التي تحيط بها وتمتد ما بينها أصقاع وسيعة تسيطر عليها القبائل وترعى حيواناتها فيها •

وقد سبب موت غازان خان في سنة ١٣١٤ (٧١٤هـ) اضعاف اسرة هولاكو بصورة قاضية • فدب في تلك السلالة الاضمحلال مع وجود الرخاء القليل الذى كان يسببه توارد التجار والزوار الى بغداد • واستمرت بعـد موت أبي سعيد ، آخر الملوك الاقوياء ، الذي لم يخلف ولداً ، حرب أهلية • فقد رشـحت كـل واحدة من الولايات الكبيرة في ايران مرشحها للعرش أي العوبتها بيد الطامعين من رجال الحاشية • وكانت نتيجة عدة شهور من القتال ان أنجلى الميدان لاثنين من المتخاصمين • وفي خلال هذا كان والي بغداد يبعث بالجنود لمساعدة هذا الامير أو ذاك أو يؤاوي الفارين من وجه المنتصر • ولذلك كان مصيره معلقاً في القدر • وفي الاخير وقعت بغداد ، بانقسام الامبراطورية ، حصة لحسن الجلائري وهو أمير مغولي (اسلم الآن) من ذوي المراتب العالية • وغدت في ١٣٣٩ (٧٤٠هـ) العاصمة الشتوية للحكومة الجلائرية •

ولم تكن هذه في أيام عظمتها من الامبراطوريات الحقيرة • فقد كانت بيـد

حاكمها ولايات الجزيرة واذربيجان والعراق والجبال • وكانت تبريز عاصمته الصيفية • وكان حكام هذه السلالة الاولون عسكريين طماحين لكنهم كانوا متدينين وغير جانفين عن الانسانية • فأعادوا للعراق شيئاً من الاحترام الذاتي ان لم يكونوا اعادوا قليلا من الرخاء • ووطدت حكومة حسن الكبير وولده أويس، لاكثر من جيل واحد، السلام والطمأنينة كما شجعت شيئاً من ممارسة الفنون • وكان حسين، ثالث حكام السلالة، أضعف ممن سبقه في الحكم ولذلك فقد لاقى المشاكل العظمى لامبراطورية كان يهددها اعداء طامعون • فأذعن لشغب حصل في بلاطه نفسه ولاغتصاب الملك على يد أخيه علي • على ان هذا لم يكن بوسعه الوقوف ببغداد في وجه السلطان أحمد، الأخ الباقي، فانه أدمجها في ١٣٨٣م (٧٨٥ هـ) بتبريز من جديد فكون حكومة واحدة ومهد لها عشر سنوات من السلم تحت ظل ولاته •

غير ان القدر كان يخبىء أفجع الكوارث النازلة منذ أيام هولاكو • فقد استغل قره يوسف، حاكم مملكة القرهقويونلي التركمانية في وان، موقفه وقوّى مركزه فارتقى من كونه تابعاً من توابع الحكومة الجلائرية الى حليف قوي من حلفائها • وكان تيمور الاعرج « تيمورلنك » آخر المغول واعظمهم، يمر من فتح الى فتح على رأس جيوش جرارة من الشرق • وفي سنة ١٣٩٣م (٧٩٦ هـ) ظهر على أبواب بغداد، فانحنى الجلائري فيها للعاصفة حتى مرت فأعتدل من جديد وطرد الحاكم المغولي • وفي سنة ١٤٠١ (٨٠٤هـ) وقعت الكارثة• فالتجأ السلطان أحمد وقره يوسف الى بلاط يلديرم بايزيد رابع سلاطين العثمانيين، ووقعت بغداد بسهولة بين ذراعي تيمور • فذبح الالوف من الناس، وهدمت الجوامع والمدارس والمساكن• وان كانت المناظر أقل هولاً والخراب أقل شدة في هذه المرة من الخراب الذي جرى من قبل فأزال الخلافة فانما ذلك يعزى الى ان بغداد في ١٤٠١ لم يكن لها بمقدار ذلك الكبرياء وتلك العظمة لتحط وتهان ولم يكن فيها من أهداف العبث والتشنيع مثل ما كان فيها من قبل •

على ان موت تيمور في ١٤٠٥ (٨٠٨ هـ) سبب رجوع الجلائريين والتركمان الى عروشهم بصدف تعد نادرة حتى في الشرق • فنظم العراق من جديد وأعيد تحصين بغداد بأسوار بقيت واقفة بكل سلام حتى القرن التاسع عشر بعد ان

جربت بعدد غير قليل من الحصارات • غير ان تملك تبريز التى كان يحتاج اليها الجلائريون وتركمان القره قويونلي (الخروف الاسود) على سواء كان من الدواعي العديدة التي أدت الى التحاسد أولا ، ثم الى الحرب بين الطرفين • فأضاع السلطان أحمد حياته وامبراطوريته بعد أن انهزم في حرب شعواء ، وبذلك خمد الاسم الجلائري ولم تقم له قائمة • فدخل ابن قره يوسف الى بغداد ، وبالطريقة الخشنة المألوفة حينذاك باع حاكمياتها أو أنعم بها على من يريد وتقبل خضوع القبائل أو تحمل عبثهم •

ولم يختلف سادة العراق الجدد عن الجلائريين من الناحية الحضارية الا قليلاً • غير أنهم أنعموا على الولاية المصابة بالفزع والحيرة جيلاً كان يعد من أجيال السلم • وقد حكم الشاه محمد مدة ثلاث وعشرين سنة ، الا ان آخرته كانت عاصفة بالهزيمة والقتل • وحكم خلفه من بعده عشرة أعوام أخرى حتى عام ١٤٤٤ • وفي السنين الاخيرة من هذه المدة أيدت الحرب التى قامت بين ورثة قره يوسف وامبراطور ايران (الذي ادعى السيادة) تابعية القره قويونلي الى تيمور • غير ان موت الشاه رخ فى ١٤٤٧ أفسح المجال لجهان شاه بتوسيع امبراطورية القرهقويونلي من تبريز الى شط العرب ، وبخلع أية تابعية للتيموريين من عنقه واضافة فارس وكرمان لمملكته • وبذلك أصبحت قبيلة القره قويونلي امبراطورية غنية مترامية الاطراف بعد أن كانت قبيلة مجهولة ، غير انها لم تكن امبراطورية مستقرة • واحتفظت بغداد بمركزها ، أي بكونها عاصمة للعراق العربي الذى كان ولاية من الولايات العديدة الاخرى لا غير •

على ان عهد جهان شاه الذهبي هذا كان قصير الامد ، فقد كلفته حروب الحدود مع التيموريين خسران نفوذه وأراضيه • ولم يكف القواد والتابعون عن الثورة في ولاية بعد أخرى • وحذا ولده پيربوداق ، الذي كافأه بحكم العراق لموالاته ، حذو هؤلاء بعد بضع سنين فاعلن استقلاله • غير ان سنة من الحصار أعادت المدينة الى جهان شاه فى ١٤٦٥ • لكن امبراطوريته المتعثرة كتب لها نفس المصير الذي آل اليه الجلائريون على يد قره يوسف • فقد نشأ عداء من بين سلالة القرهقويونلي وخصم آخذ بالنمو ، يشابهها في الاصل والعنصر ، وهي حكومة الآق قويونلي (الخروف الابيض) في ديار بكر • اذ كان أوزون

حسن ، حفيد المؤسس (ضابط تركي من ضباط تيمور) ، قد ورث طموحاً وحقداً لم يستطيع قمعهما جهان شاه ولا سيده التيموري • وحصل الصدام في ١٤٦٧ فدحر جهان وقتل ، وساء حظ أبي سعيد التيموري فى الحرب والسياسة • فانتشر حكم الآق قويونلي في العراق وايران • وقاومت بغداد مدة قليلة من الزمن وهي بيد حاكم من حكام القره قويونلي ، لانه دحر القائد الذى بعث به أوزون حسن • وحضر حسن بنفسه فوجد أبوابا مغلقة لم تفتح له الا بالحرب والحصار • فقتل الوند ، وعين حسن الحكام للعراق العربي والجزيرة والجبال واختفت سلالة القره قويونلي الى الابد •

ولم يؤثر هذا التبدل فى العراق الا قليلا ، حيث مزقت المنازعات التي كانت تغذيها الاطماع ولايات الآق قويونلي كما مزقت ولايات القره قويونلي من قبل • فقد كان حاكم العراق وقواته فى شغل مستمر بخصومات أبناء أوزون حسن وتطاحنهم فى سبيل العرش • فكان الامير يذهب تلو الامير كما كانت المكايد مع العنف تمزق بالامبراطورية المفككة الثائرة • وشغلت قوات استانبول وديار بكر وأصفهان وسياستها مع هذه الجهة أو تلك لكنه لم يكن بوسع أحد أن يؤمن السلم أو الضبط • وعندما توصل الكل الى اتفاق متقلقل في ١٤٩٩ بين أبناء العم المتحاربين قدر له أن يمزق (الى الابد) ليس بأيديهم بل بيد ملك جديد ظهر في ايران التى اعيدت اليها الحياة •

الاحتلال الايراني والتهديد التركي

لم يتأخر الصفويون[١١] الذين تعاظمت قوتهم بسرعة عن تهديد الامبراطورية

---

(١١) كان جد الصفويين ، الشيخ صفي ، وهو شيعي ورع من أردبيل ، يرجع بنسبه الى الامام السابع وكان تيمور الاعرج يقدر ابنه خاصة • وقد زاد تعبد الابناء المتعاقبين ـ علي وابراهيم وجنيد ـ ووطنيتهم فى سمعة الاسرة • وطرد الشاه جهان الابن الاخير (جنيد) فاضطر للالتجاء الى اوزون حسن فى ديار بكر ، وهناك زوج ابنته هايدو لابن جنيد واصبحت فيما بعد والدة الشاه اسماعيل • وعلى هذه الشاكلة صمدت الاسرة امام الايام العاصفة التي مرت عليها • وأخيرا ، رجع اسماعيل وهو شاب متعلم فجمع شتات أتباع أسرته فى گيلان (١٤٩٧) • فوقعت بيده باكو وشامخاه واصبح ، بعد أن كان رجل دين ، قائدا لجيش مخلص عقدت عليه الآمال • وبذلك بدأت حملاته على مملكة الآق قويونلي

التركمانية المنشغلة بمشاكلها والحلول في محلها . فقد قاد الشاه اسماعيل في سنة ١٤٩٩ الجيوش الى شيروان وألحقها بمملكته . وبذلك اصبح مصاقباً للوند حاكم الولايات الشمالية من مملكة الآق قويونلي . فانكسر التركماني انكساراً تاماً في واقعة نخجوان الخطيرة ، ثم نزل الفاتح على تبريز مركز العرش الذي تسنمته اسرته مدة قرنين ونصف . وفر المدحور الى ارزنجان فبغداد ثم الى ديار بكر حتى أزاله الموت عن طريق الشاه . وما مرت سنة واحدة حتى كانت ايران الغربية بأجمعها الى الخليج للصفويين ، وفي كل بلدة منها قسم من ضباطهم . وفي خلال سنتين اخريين انتشرت سطوته عظيم انتشار في آسية الصغرى . وأخذ مراد ، امبراطور الآق قويونلي المذعور الذى ما برح ممسكاً العراق بيده ، يتشبث بطلب المعونة من جميع الجهات . وفى سنة ١٥٠٧ أندحر وحلفاؤه ، ففر والتجأ لبلاط السلطان التركي . وغدا العراق تحت سلطة قريبه السلطان يعقوب شبه الاسمية . وكان بارك حاكماً فى بغداد . غير ان الشاه الذي كان يعجل بنصر بعد آخر بعث لالا حسين لفتحها ، فكان له ما اراد بسهولة . وبذا خضعت بغداد في أواخر ١٥٠٨ وطويت صفحة أخرى من صفحاتها .

ولا نرى في نفسنا حاجة للتنويه ، بعد كل هذا ، بأن العراق قد مضت عليه مدة طويلة وهو فريسة الاضطراب والفقر وعرضة للانقلابات وسفك الدماء وحكم الاجانب . واستمرت هذه الحالة فيه مدة أجيال ثمانية يغوص في كل عام منها في لجج القلاقل والاضطرابات والاستيلاء الجديد . وكان كل شهر من تلك المدة حافلاً بسقوط السلالات المختلفة والاسر المالكة العديدة . وعلى هذا المنوال كان حكام بغداد يتجددون الواحد تلو الآخر ، وما كان يخلو من عصيان جديد يقطع به اللصوص الطرق أو يغتصب به بعض رؤساء القبائل بلدة نهرية : ولذلك لم يلق لالا حسين غير الترحيب الفاتر الذي بات يتكرر بين يوم وآخر .

وبامكاننا أن نرى نحن ، أحسن من اللالى والتجار فى ذلك اليوم ، أن هذا الحادث كان عظيماً . فلم يكن بوسع الفاتحين منذ دخول هولاكو حتى هذا العهد أن يثبتوا في الحكم أو يستديموا فيه . فقد كانت تلعب بهم كلهم الشئون

كما كان جماعة منهم من رجال القبائل التى لم تتحضر الا قليلاً ٠اما الامبراطورية الصفوية ، الفتية التى ما زالت في دور النمو ، فقد كانت نتاجا ظاهراً لبعث قومي وديني عظيم ٠ وكان هذا البعث دليلاً على خلق ايران الحديثة ٠ فقد كان مبنيا على أيمان شيعي قوي مفعم بالثقافة والمدنية ، ولذلك كتب له ان يدوم تسعة أجيال ٠ ولو لم تجمع الصدف توسع العثمانيين نحو الشرق ونهوض ايران القوية هذه فى القرن نفسه لم يكن لنا من شك فى ان العراق كان يظل ايرانيا منذ ذلك العهد حتى يومنا هذا ٠

ولقد جاء دخول العراق فى حوزة العرش النسيعي الجديد بالشاه مسرعا لزيارة العتبات المقدسة ٠ فوصل الى بغداد وهدم ما كان فيها من قبور أئمة السنـة ، وذبح جماعةً من علمائهم ٠ فسرت على أثر ذلك شائعة فى البلاد التركية بأن مذبحةً عظيمة أصابت السنة في بغداد على يد الصفويين ٠ وعامل الشـاه غـير المسلمين بصرامة أكثر من هذه ، ثم زار العتبات المقدسة فى الفرات ، وأصلح نهراً من الانهر فسماه باسمه « نهر الشاه » ، وشيد بنايةً فخمة على قبر موسى الكاظم ٠ وبعد ان جعل ابراهيم خان حاكماً على العراق عاد الى فتوحات اخرى ٠ وبعد ان ضم الموصل الى امبراطوريته أصبح فى ١٥١٠ سيد أيران والعراق الذي لا يسأل عما فعل ٠

وفي السنين المنحصرة بين زيارة الشاه اسماعيل للعراق ووفاته فى ١٥٢٤ مر على العراق نصف جيل من السلم والهدوء ٠ وكانت تأثيرات العتبات المقدسة القوية تؤيد الحكم الجديد ٠ فتقاطر التجار الايرانيون على بغـداد ، وجـذب نفـوذ الصفويين الديني حتى العشائر النهرية المتمردة ٠ وكان أحد الحكام العرب فـي البصرة يدفع اتاوة سنوية الى الشاه ، ثم نُدب أحد الخانات ليحكم الموصـل ٠ وفي كردستان كان بامكان ايران ان تدعي بولاء جميع الدويلات الجبليـة ذات القلاع ولاء أسمياً لها ٠ وبقيت الحال على هذا المنوال حتى طرق الباب خصم جديد ومدع أعظم ٠

إذ كان خلع السلطان بايزيد الثاني عن العرش العثماني قد وضع حداً لجيل من الهدوء النسبي في الممتلكات العثمانية ٠ فقد خلفه على العرش في سنة ١٥١٢ ابنه سليم ، الموهوب له بما يستدعي العجب والدهش من المواهب المتناقضة كالثقافة

والشراسة ، وبسالة الذكي مع جمود الغبي • وقد أتاحت له السلم التي كانت سائدة أيام نشأته ان يدرس العالم ، وان يرثي للاسلام من الزندقة التى كانت تنال منه ، وان يسمع من بأشوات الحدود أخبار العظمة الجديدة في ايران الشيعية • فأثرت مذبحة العجم للسنيين في بغداد تأثيراً أليماً في نفسه • ولما كان السلطان ما يزال غير حامل للقب الخليفة بعد ، لم تكن تركية تعد اذ ذاك حامية للدين الاسلامي الحنيف ، الا أن كثيراً من الامور كانت متوفرة لخلق الخصومة بين استانبول وتبريز • ولذلك كانت بطولة القضية السنية أول حجة يتذرع بها سليم لاعلان الحرب • ومهما كان الامر فان التصادم بين الدولتين كان لابد منه • فان تقدم الصفويين نحو الغرب من ايران لم يعد من الممكن تجاهله ، ولم يكن لدولة الآق قويونلي الحاجزة أي وجود • وباتت الدويلات الكردية ، والقبائل التركية في جبال طوروس الصغرى ، والاقليات المسيحية في أرمينية ، كلها من ممتلكات الشاه بحسب ادعاء الايرانيين ، فأعلن ساسة استانبول ان ايران قد خرقت الحدود العثمانية بضمها العراق وكردستان وأرمينية زيادةً على انها آوت أخيراً اخوة سليم الفارين نفسه • وكانت عند هذا السلطان الشاب أطماع تناسب معرفته العالم • فخلد الاشهر الاولى من حكمه بالذبح المتقن لجميع الشيعة أينما وجدوا • ومن ثم تدوولت فاتحة الرسائل الخشنة بينه وبين البلاط الايراني حسب الامر المعتاد • فلم يثمر ذلك شيئاً ، وكان لابد من القاء التبعة لاعلان الحرب على الترك • وبعد اعدادات واستعدادات محكمة بدأ سليم بحملته •

وقد أدت الحرب العنيفة التي وقعت في چالديران بالقرب من أرمينية الى انتصار سليم ونكوص الشاه مجروحاً من ساحة القتال • فدخلت القوات الحربية التركية الى تبريز ، غير ان المرض الذى كان متفشياً والاحكام الفوضى السائدة منعاهم من التمسك بها • فأثرت هذه الحملة في حال الاكراد تأثيراً بيناً • فلقد خفت بتليس وأردلان والعمادية وجزيرة ابن عمر والتوابع الصغيرة لكل منها للتعاقد مع سيدٍ مقبل • ومع ان امتلاك الاتراك لكردستان الوسطى وشمال العراق ـ النتيجة الاصمية لغزوة سليم الكبيرة ـ لم يتضمن أكثر من توزيع الخلع والفرمانات وقبول الطاعة والهدايا فان الحكم الايراني هناك كان قد انتهى أمره • فنصب الحكام الاتراك في ديار بكر وماردين والموصل ووضعت حامية ومسالح

قوية في منطقة وان • وفيما عدا ذلك فان انتقـال الحكم الحقيقي ، والوحدات المنظمة ، والاخلاص الثابت ، وغير ذلك من مظاهر الاحتلال والحكم كانت كلها مفقودة • فقد سمعت القبائل المختلفة في الجزيرة الشمالية بالقادمين الجدد الى الموصل والرقة ، وفقدت الموصل الخان ففازت بالباشا • وصار في امكان الامارات الكردية يومئذ ان توازن بين الحضـارة الايرانية والعقيـدة السنية ، وتراوغ متملقة أو زائغة دولتين عظيمتين بدلا من واحدة • وقد حاول الشاه طهماسب ان ينعم بلقب « خليفة الخلفاء » على حاكمه في بغداد فلم يفلح • وكثرت الرسائل من بغداد الى البوسفور حينما كان الخان في تلك اللحظة محافظاً على نفوذه في العراق الاوسط بعض الحفاظ •

وكان آخر دور من أدوار الاحتلال الايراني ، وأحسنها تدويناً ، دور اغتصاب ذي الفقار الملك ، ذلك الذي لم تعرف بوضوح مقدمات تقلده زمام الحكم في بغداد ولا كيفية حدوثه • ومن المحتمل انه كان ينتسب الى أسرة لرية على الحدود ، وانه كان قد حصل على معاضدة الجمهور من قبائل كلهور القوية • فقد حدث أن سار الخان من بغداد[١٢] قاصداً جبال الحدود ليلتحق بالشاه • وفي أول ممر هناك هاجمه ذو الفقار ليلاً فذبحه ، ثم سار مسرعاً الى بغداد فدخلها وحاصر القلعة ، حتى سقطت في يده القوية التى لم تكن غير مرحب بها • ثم اضطلع بسلطات الحكم كلها • وهكذا أضاعت ايران بغـداد بضربة مفاجئة وأصبح ذو الفقـار سيد العراق الاوسط غير المنازع • غير ان هذا الوقت لم يكن ملائماً للحكام الصغار في مواقع معرضة للخطر مثل هذه • فأمر الناس بكل حكمة ، بأن ينطقوا بالتابعية للسلطان في صلواتهم وينقشوها على نقودهم • ووصلت الى استانبول الرسائل مسترحمة السلطان في قبول التابع الجديد وحمايته •

أما طهماسب ، الذي كان ما يزال في السادسة عشرة من عمره ، ولو كان قد تقلد الحكم منذ ست سنوات ، فقد سمع بخبر انسلاخ العراق وأزعجه ذلك كثيراً • وفي سنة ١٥٣٠ سار على طريق كرمنشاه الى بغداد ، فلم تجده هجماته

---

(١٢) اتبعنا هنا رواية گولشن ، غير انها ملأى بالمشاكل • أما المراجع التركية (فردي وبشاوي) التي يتبعها الفون هامر (المجلد الخامس ، الكتاب الثامن عشر ص ٢٠٤) فانها تعد ذا الفقار والياً اعتياديا من قبل طهماسب •

العديدة شيئاً ، فقد كان ذو الفقار جلداً في الدفاع كما كان مقداماً في الاستيلاء . ولكن الخيانة نجحت في مقام خاب فيه سلاح الصفويين . فقد أغرى الشاه أخوي المغتصب به وحقق امكان اغتياله ، فمات ذو الفقار وهو يدافع أعداءه عن نفسه بكل جرأة في بيته الخاص . وبذلك انتهى أمد حكمه القصير وانتهت معه تابعية استانبول . ثم أجزل الشاه الاخوين المكافآت ، وسلم حكومة بغداد الى محمد خان وهو من ولاية تكه في الاناضول . وعين الشاه أيضاً الضباط المخلصين لحاكميات كركوك والحلة ومندلي والجزائر والرماحية ورجع هو الى قزوين .

على ان النهاية كانت باليد . فان السلطان لم ينس عرائض المدينة الذائعة الصيت التي استرحمته لبلوغ حمايته . وبذا كان السلطان القانوني وسيد عصره العظيم قد بدأ بمسيره اليها .

السلطان سليمان[١٣]

ذعر البلاط الايراني في شتاء ١٥٢٥ عند سماعه بالاستعدادات الحربية الواسعة النطاق التي كانت تجري في استانبول . وكان السلطان قد استعمل عبارات الوعيد في أخريات رسائله التي بعث بها لتهنئة الشاه طهماسب الصبي يومذاك . فاتصل المشاورون الصفويون بملك هنغارية وامبراطورها ليعاونهم على العدو المشترك . فرد سليمان على ذلك باعدام نفوس الاسرى الايرانيين الذين كانوا معتقلين في غاليبولي حينذاك . فبات في حكم المقرر عنده توجيه حملة قوية على ايران ، غير ان السلاح التركي قد حول ضد هنغارية بدلاً من ذلك . وبقي العراق ، كما رأينا ، أيرانيا في حكمه (عدا دور ذي الفقار) مدة تسع سنين اخرى .

على ان وصول الصولة التركية الى اوج عزتها العدائية واتساع الشقة في

---

(١٣) المراجع : ان « نشرة » السلطان سليمان تعداهم مرجع لحركاته . أما باقي حملاته في ١٥٣٣ و ١٥٣٤ فقد جمعها الفون هامر (المجلد الخامس ، الكتاب الثامن عشر . ص ٢٠٢) من جلالزاده وپشاوي وفردي . ولا بأس بما كتبه نولز (ص ٦٤٩ ـ ٥٣ طبعة سنة ١٦٠٣) . وأخذت المعلومات في شؤون بغداد الداخلية عن گولشن وهو المنبع الوحيد كما يقول هوار (حاشية ص ٣٨) . وأما المصادر الايرانية التي يرجع اليها مالكولم وسايكس فهي عقيمة ، كما ان الحوادث ذكرت مختصرة في المراجع العراقية القليلة الاهمية .

الخلاف بين الشيعة والسنة ، وبقاء التوسعات الشرقية التي قام بها سليم غير كاملة ، كانت كلها تدل على أن الحرب المزمعة على ايران يمكن تأجيلها لا تركها • أما الاسباب المباشرة فحوادث الحدود كانت تكفل خلقها • وكان خان بتليس قد آثر اطاعته للايرانيين على اطاعته للترك ، حينما كان اولاماه بك ، المذبذب بين الامبراطوريتين ، يقبل في هذا الحين الايدي في استانبول • فعين بگلربكى لحسنكيف[14] • الا أن حكام الولايات التركية المجاورة الذين أمروا بنصبه خابوا في الدخول عنوة الى الولاية أمام جيش شريف البتليسي • والى هذه الاهانة التي لحقت بالقوات العثمانية يمكننا أن نضيف تضرع سنّة بغداد طالبين انقاذ أنفسهم • فكان من السهل الحصول على فتاوى تحل الحرب وتدعو لقتل الشيعة المارقين من دون تفريق •

وفي أوائل خريف ١٥٣٣ سار ابراهيم باشا الصدر الاعظم الى بتليس • وما ان وصل حتى وجد ان المهمة التي جاء من أجلها قد قضيت • فقد توفي شريف بك ، فعين ابن اولاماه حاكماً • ثم رجع الوزير الى حلب ، ومن هناك قوض خيام معسكره في نيسان ١٥٣٤ • وبعد ان عبر الفرات في بيره‌جك وصل الى ديار بكر في ١٤ أيار حيث تريث ستة أسابيع • وبعثت اليه وان مع كثير من القلاع الكردية الاخرى على الحدود بالمفاتيح • وفي أوائل تموز ترك ابراهيم باشا ديار بكر ، وسار السلطان من اسكداري في نفس اليوم • وقد دخل الوزير الى تبريز من دون صعوبة ولا سفك دماء • وثبتت الفتح الحملات على الاصقاع الجبلية من أذربيجان • وفي أواخر أيلول التحقت قوات السلطان بقوات الوزير • وقد خلد السلطان مكوثه القصير في تبريز ببذل العطايا بسخاء ، وتقبل الخانات والبگات الوافدين بعرض الطاعة بحفلة عامة •

وكانت بغداد الهدف التالي • فقد بدأ بالسير اليها في أحوال أيام الخريف الاول • ومر السلطان بميانة الى زنجان ثم السليمانية • وهنا وافته الأنباء تفيد ان القوات الايرانية التي كان يتوقع هجومها قد انسحبت ، وان كثيراً من اتباعها مستعدة للنكوص • فأصبحت المسافة بين الجيش وهمذان خالية من عدو • غير ان برد تشرين الثاني وأمطاره ، والممرات غير المطروقة في المئة ميل الاخيرة من

---

(١٤) الظاهر ان حسنكيف هي المعروفة في كتب التاريخ بحصن كيفا «م • ج •» •

الجبل ، جعلت مرور الجيش صعباً باهظ النفقات • فقد جرفت الجداول الفائضة قسماً من المدفعية ، وتُركت مئات من الحيوانات ، ثم قل الحلم وخشنت الطباع حتى أهين الضباط الكبار • وأُحرقت عربات المدافع فدفنت المدافع نفسها لئلا يستفيد منها العدو • وأخيراً أطل السلطان من بعيد على التلول اللرية ومن ورائها سهول العراق فارتاح لذلك عظيم ارتياح •

أما بغداد فكان يسودها الانقسام • فان اولاماه بك الذي تركه السلطان في الشمال كان قد بعث الى محمد خان « التكلي » برسائل الاغراء والخداع طالباً منه بها أن يستجيب لداعي عنصريته ، ولولاء جديد صحيح ، وان يخشى من بأس السلطان • لكن الخان أجابه بلهجة مهينة وأعد العدة للدفاع • وكان قوي الجنان بعزمه هذا بعد أن وصلت اليه رسالة من الشاه طهماسب ، غير أن عزيمته قد ضعفت بانسحاب الشاه واقتراب السلطان • فصمم على الهزيمة ولكن الى ايران • فتظاهر بوصول دعوة اليه من الشاه وجمع ضباطه فعرض عليهم الخطة • فرفض التكيون ، وهم أنصاره الحقيقيون ، مطلبه وتمردوا • الا أن الخان بقي مؤملاً استعادة ايران بقوة قبيلة اخرى • وهنا وصل رسول من الشاه يحمل اليه أوامر تدعوه للعمل نفسه • فقويت في البلد اشاعة وصول المدد الملكي ووصول الشاه نفسه الى خانقين • فاجتمع التكيون من جديد ورفضوا ثانية مغادرة المدينة • فأوعز محمد خان للمنادين بأن ينادوا ان على الذين يحبون سيدهم أن يتبعوا الخان وعلى الذين يفضلون البقاء لتحصن غير مثمر أن يتأخروا• فتبعته سبعمائة أسرة • أما سواد الشعب فلم يعبأ الا قليلاً بكل خان أو سلطان يذهب أو يأتي • وعندما نوشد التكيون لآخر مرة بأن يتركوا المدينة خلعوا من أعناقهم طاعة خانهم المحتضر ونظموا صفوفهم فاستولوا على المدرسة المستنصرية القديمة وجعلوها قاعدة لهم وحصناً •

وعندئذ رمى الخان آخر قوس في كنانته ، بأن جمع رؤساءهم وصرح لهم بعدوله عن نياته الاولى وبأنه عزم على أن يرحب بالاتراك ويدعوهم ، فكان الجميع من الموافقين والمتشوقين • فغادر الرؤساء المدينة حاملين المفاتيح هدية لسليمان ، وبقي أتباعهم وراءهم من دون قواد • وبذلك نجحت مكيدة محمد خان تمام النجاح • فجمع أمتعته وأثاث بيته بسهولة وعبر الى الضفة اليمنى من دجلة ،

ثم وصل الى الاراضي الايرانية بعد التفاف طويل نحو الجنوب •

وقد وصلت انباء فراره من المدينة التي بقيت من غير مدافع الى السلطان وهو على بعد عدة مراحل من بغداد • فأرسل الصدر الاعظم قبله ، فدخل من دون مقاومة وأغلق الابواب منعاً للنهب الذي قد يحدث ثم أرسل يدعو سيده • وقد خيم الجيش المنهوك في شمال المدينة ، ثم دخل سليمان القانوني الى بغداد بأبهة وسهولة • وبهذا دخل دار السلام خليفة" جديد بعد انتظار طويل •

واضطرته الحاجة الى أن يريح قواته حتى الربيع ، ان لم نقل انه فعل ذلك لتنظيم الولايات الجديدة ، والى أن يبقى عدة شهور في العراق • فأعلن الحاق البلاد الدائم بممالك العرش بصورة رسمية • وعرض له الطاعة جميع الوجهاء ورؤساء القبائل ، ثم أنعم بالمكافآت الجزيلة والترفيعات على ضباط الجيش المنتصر • وعرف أعيان بغداد عن كثب أبهة بلاط السلطان التامة مدة شهور عديدة • فقد كان مقره في المعسكر خارج المدينة ، وكانت الرسوم فيه رسوم مخيم لا بلاط • وصار في إمكان البغداديين القلقين وغيرهم من المستطلعين الوافدين من جميع أصقاع العراق وأطرافه الجبلية أن يقدروا ثروة سادتهم الجدد وآلتهم العسكرية التي لا تقهر من الدانوب الى شط العرب • كما رأوا في إعدام عدد من أعداء الصدر الاعظم مقدار الوسواس والجشع اللذين لم يخل منهما سليمان نفسه •

ومما لا شك فيه ان مثقفي بغداد لم يدخروا وسعاً في إفهام ضيوفهم بما كان لمدينتهم من تاريخ حقيقي مجيد • وان الآثار التي كانت أقل اندثاراً من الآن ، وضفاف القنى ، والأبنية العظيمة المتهدمة ، والخزف المتناثر الدال على مدن عظيمة ، لابد من أنها قد أثر منظرها في نفس السلطان وغيره وذكرتهم بأنهم كانوا يقفون بين أطلال مدينة عظيمة • وقد تنبأت الألسنة المتملقة بأن السلطان سوف يعيد الأمجاد الماضية الى سابق عهدها ويتفوق فيها • وكان الضرب على وتيرة الدين أشد وقعاً من ذلك في النفوس ، لا سيما وان قيام سليم الأول بنقل لعبة الخلافة من القاهرة الى استانبول لم يكن قد مر عليها الا مدة ثلاثين سنة • والحقيقة ان بعث مدينة أسلافه الروحيين وبلادهم بعثاً جديداً كان قد أحدث في قلبه هزة عنيفة •

فلبى داعي الشعور الديني تلبية طيبة ، واتقدت على عهده شعلة الاسلام

اتقاداً لامعاً . ولما كان السابقون له من الصفويين على جانب عظيم من السلطة الدينية كان عليه أن لا يكون أقل منهم في هذا الشأن . فزار باجلال حقيقي ضريح عبدالقادر الگيلاني وقبة موسى الكاظم ومحمد التقي[15] . وأمر باكمال بناء الجامع الكبير الذي بدأ به الشاه اسماعيل ، ثم اوقف مقاطعات مغلة للمقاصد الدينية ، الشيعية والسنية على السواء . ولم يشغله من الواجبات الدينية أمر أكثر من التعرف على موقع قبر أبي حنيفة واعادة بناء ضريحه ، وهو مؤسس أحد المذاهب السنية الاربعة . وكان الفاتحون من الشيعة قد هدموا القبة والضريح ودنسوا الرفات نفسه . غير ان القيم (الكيلدار) القديم اهتدى باعجوبة لمعرفة الجسم المقدس محفوظاً بصورة كاملة . وقد صانته القدرة الالهية من الايدي الشيعية غير المؤمنة . فبنى السلطان في ذلك الموقع قبة فخمة أصبحت مزاراً سنياً عظيماً على مدى العصور .

وكانت عنايته الثانية أن يزور العتبات المقدسة في الفرات الاوسط ، وان يفعل هناك أكثر مما فعله الزائر الصفوي في العهد الاخير . فوجد مدينة كربلاء المقدسة حائرة في حائرها بين المحل والطغيان . اذ كان الفرات الفائض في الربيع يغمر الوهاد التي حول البلدة بأجمعها من دون أن تسلم منه العتبات نفسها . وعند هبوط النهر كانت عشرات الالوف من الزوار يعتمدون على الري من آبار قذرة شحيحة . فرفع مستوى « روف السليمانية » ـ وهي سدة ما تزال نافعة ـ لوقاية البلدة من الفيضان . ثم وسع الترعة المعروفة بالحسينية وزاد في عمقها لكي تأتي بالماء باستمرار ، ولاجل أن تجعل الاراضي الخالية المغبرة حولها بساتين وحقول قمح . وصارت هذه الترعة تنساب في أرض كان الجميع يظنونها أعلى من النهر الأصلي . فاستبشر الجمع للمعجزة واقتسم الحسين الشهيد والسلطان التركي جميع الثناء والاعجاب . وبعد أن زار سليمان قبر الامام علي في النجف قفل راجعاً الى بغداد .

---

(١٥) لا شك ان المؤلف يقصد بهذا الاسم الامام محمداً الجواد لانه لقب بالتقي أيضا ـ المترجم

فقارب مكونه الانتهاء • وعندئذ خف الشيخ العربي[16] الذى كان يحكم البصرة حتى تلك الايام فبعث ولده راشداً يحمل المفاتيح ورسائل الخضوع الى السلطان • فالحقت البصرة ، على هذه الشاكلة ، بالممتلكات العثمانية بسهولة وأصبحت درجتها اسمياً ايالة ، وعين راشد نفسه حاكماً فيها • وأوصي بأن يتلقى الاوامر من الباشا في بغداد ، وان يكون الشرع قانونه في الحكومة ، وان يذكر اسم سيده الجديد في النقود والصلوات العامة • وجاءت وفود مشابهة بالطاعة من منطقة الجزائر ، والغراف ، ومن جبال اللر وأهوار الحويزة ، ومن القطيف والبحرين[17] البعيدتين أيضاً • فأرسلت الحاميات الى أشهر البلدان في الولايات ، وكانت تعرف حينذاك بمراكز السنجق بكي • ومنحت هذه الدرجة ودرجة المقاطعات التي تدانيها ، كل منها بحسب قابليتها الاقطاعية ، الى الجنود الذين أظهروا كفاية في الحملة الاخيرة[18] • وكذلك أمر السلطان بوضع خارطة للولاية الجديدة ، ولجباية ضرائبها الزراعية بصورة معتدلة •

ثم تهيأت وحدات الجيش لمسير الرجوع الطويل وقوضت خيامها • وقد جعل سليمان باشا حاكم ديار بكر السابق أول وال عثماني في بغداد ، وترك معه الفاً من حملة البنادق الخفيفة ومثلهم من حملة البنادق الثقيلة[19] • فغادر السلطان

---

(١٦) ان أوقات وتواريخ تسلم حكام البصرة هؤلاء الحكم مدرجة في التقويم وفي باش أعيان وفي گولشن • وقد وفقنا في هذا الكتاب بين الثلاثة •

(١٧) ويضيف نولز (ص ٦٥٣ من الطبعة المشار اليها آنفاً) ان السفراء «وفدوا عليه من هرمز البعيدة ، مدينة على مصب الفرات (كذا) في الخليج الفارسي» •

(١٨) سوف نرى في غير هذا المجال ان نظام الاقطاع هذا ، الذي أدخله السلطان سليمان في مثل هذه الاصقاع من العراق التي تمكن من ضبطها (الفون هامر ص ٢٢٠) ، لم يستقم كما استقام في ولايات اخري • وقد قسمت بحسب قانون نامه سليمان سناجق بغداد السبعة وهي : الحلة وزنكباد والجزائر والزماحية وجنقولة وقره داغ وسنجق آخر الى وحدات اقطاعية ، وبقيت الاحد عشر سنجقاً الاخرى في الايالة غير مقسمة •

(١٩) لا يمكن التوصل لمعرفة قوة الحامية الحقيقية ، التي كان من المؤكد ان تضم الانكشاريين والسباهيين النظاميين والمدفعية ، من مرجعنا المختصر عن هذا البحث وهو « فردي »

سليمان بغداد سالكاً طريق الخالص وساقالتونان • ولم نر في المدونات الباقية شيئاً عن حوادث هذه الرحلة الطويلة الى مراغة وتبريز • وكانت الموصل خارج خط المسير • على ان ذلك لم يمنع من منح الوحدات الاقطاعية[20] في ايالتها والانعام بحكومتها على رجل مجرب من الرعايا وهو السيد أحمد من أهل جزيرة ابن عمر •

---

(٢٠) ويذكر اوليا افندي ان هذه كانت سبتاً وستين زعامة والفاً واربع تيمارات • وبالنظر لتقسيماته كانت الموصل تضم ثلاثة سناجق فقط •

الفصل الثاني

القرن السادس عشر

آمال العراق ومخاوفه في زمن الحكم التركي

كانت هناك أسباب تدعو الى التفاؤل فى ان يبرهن الحكم الجديد فى العالم العربي ، الذي دخل به العراق وبقية البلاد بقليل من الجهد فى حوزة التوسع العثماني العظيم ، على كونه نعمة وبركة . فقد مرت قرون على هذه البلاد كانت محرومة خلالها من نعم الحكم الامبراطوري. لأن الحكومات المحلية كانت جائرة في وقت قوتها ، وكان لابد من أن يرحب الناس بالسلطان منقذاً ومحرراً . ومع هذا فقد ظهرت للوجود في آسية الغربية امبراطورية عظيمة اخرى ، ولم يعد بوسع الضعيف ، والمتحزب المشاكس أن يؤمل في حكومة أبوية حازمة الا عن طريق الاندماج بها . وبفضل استنارة العاهل العظيم الذي شمل برعايته ملوك أوربة تأسس نظام اداري أحسن ، وأُصلحت القوانين ، ثم منحت حقوق جديدة للناس . كما أصبحت الضرائب معتدلة معدولاً فيها . وعوملت الاقليات غير المسلمة بتسامح وقليل من التعصب . وجيء بالقوات اللازمة لحفظ الأمن والنظام من بين الانكشاريين المشهورين الذين كانوا ما يزالون يعدون أقوى هيئة عسكرية في العالم . وكان انتشار الأسر الكثيرة التي يجري في عروقها الدم التركي في الولايات الجديدة من الأمور التي تضمن الولاء والاخلاص فيها . يضاف الى ذلك ان تقلد سليم المخيف لأقدس المناصب[1] في الاسلام قد أكد للعالم السني أجمع بأنه لا يمكنه أن يتوجه لغير استانبول ما دام سكانه متمسكين بدينهم .

فبمثل هذا كان يمكن للناطق باسم الولايات العربية المحتلة حديثاً أن يعلل لنفسه الوضع الجديد فيها . بيد أنه كانت هناك عوامل على مثل ما ذكرناه من الفعالية والنشاط في الطرف المقابل ، وأسباب تشابه تلك وجاهة ، تبين لنا لم

---

(١) أي تسلمه الخلافة من الخليفة العباسي الذي كان في مصر — المترجم

أصبحت الآمال التي عقدت على الانضمام الى الامبراطورية العثمانية شيئاً مخيباً • وليست بنا حاجة الى التأكيد على أن مجرد فكرة الامتلاك التركي تقضي على المحكومين بالحكم الأناني المتحيز • فقد وجدت الامبراطورية وكان لابد لها من التوسع أكثر فأكثر من أجل أن يحصل السلطان على مجد أعظم ، ونشر الديانة الحقة ، وملء الخزينة ، واستقرار الحال في الوحدات الاقطاعية ، وتجنيد القوات الاقطاعية اللازمة • ولم يكن يخطر على بال القانوني نفسه ـ ولا على بال ولاته الطامعين ـ ان الحكم يجب أن يكون في مصلحة الشعب المحكوم ، وان الوزراء يجب أن يكونوا وزراء حقيقيين •

فبدت في صيف عظمة الامبراطورية ومجدها الشامخ ، في منتصف القرن السادس عشر ، أول علامات خريفها • اذ كان سوء الاستعمال ، الذي قضى على الدولة التركية أخيراً ، معروفاً حتى في هذا الدور • وكان الترفيع بغير هدى لخصي من الخصيان أو لأحد المقربين يعرّض بغداد أو القاهرة لان يحكمها حاكم يعد إمكان لياقة المنصب به ضرباً من السخرية • فجعلت الفرص العديدة للاثراء الذاتي في الباشويات النائية الحكم فيها من المشاريع التجارية • وكانت سلطة جباية الضرائب ، أي حكومة الولاية ، لا تسلم الا الى أعلى المتزايدين • ولذلك كانت الهدايا الثمينة الضرورية للاحتفاظ بالكراسي الوثيرة لا تدفع الا من عرق جباه المحكومين الذين لا يكابدون سوء الاستعمال حسب بل يدفعون المال لشراء الحكم السيىء أيضاً • وبالنظر لبعد الولايات عن استانبول كان تعدي الحكام وجورهم يبقى مستوراً ، كما كان ايصال أخباره أصعب من الكشف عنه • وعلى هذا ما كان الولاء لينمو بسرعة في شعب لم ير من بأس السلطان الا حواشيه ، ولم يشعر الا بوطء موظفيه الخشن • وكان هؤلاء الموظفون أنفسهم يعدون إبعادهم الى العراق أو فلسطين من الواجب المكروه أو الفرصة المؤاتية • ولم يكن بين السكان وحكامهم الجدد ما يجمعهم في صعيد واحد • فقد كشف الاختلاط بينهم عن أعظم الاختلافات في العقلية • فالعرب بماضيهم الطويل بحياة البداوة وعدم صبرهم وثباتهم ما برحوا أقوى الشعوب الخاضعة شكيمة • كما كانت الشخصية التركية ـ غير المدركة وغير المرنة ـ أبعد ما تكون عن تقدير أهوائهم أو فهمها • وكان مجرد مظهر الاغوات من الترك ، وأخلاقهم ولغتهم ،

يبدو غريباً أجنبياً في عيون العرب وآذانهم ٠

وقد كانت هذه الشكوك والمخاوف تنطبق بحذافيرها على العراق ، وكان يعظم تأثيرها بسبب الاحوال الداخلية في الولاية ٠ فقد كان شمالي العراق وكردستان سنيين وكانت بغداد منقسمة ، بينما كانت المناطق الوسطى والجنوبية منه شيعية قحة وجلة من نبات الخليفة الحديث ٠ وكان يشع من العتبات المقدسة نفوذ قوي الوقع ذو حالين : معاد للسلطان وودي للشاه ٠ ولذلك كان العراق مسرحاً طبيعياً لنزعات هذين الخصمين كما أثبتت القرون الثلاثة من بعد ٠ وكان أمل الوئام الديني أو الحدود الهادئة ضعيفاً ٠ وكانت الاحوال في الولاية نفسها على هذه الشاكلة ٠ فجوبه الحكام الحديثون بأقليم قاس غير مألوف وبمشاكل السهول القاحلة والأهوار التي لا مسالك فيها ، وبطرق للمواصلات طويلة غير مخفورة ٠ أما البلدان فكانت تطلب القليل وتنفر بسهولة كما كانت مترددة وغير موالية ٠ وكانت القبائل تعتبر مشكلة الحكومة التي لم يحل ، ولما تحل حتى اليوم ٠ فانها كانت تنتشر في طول البلاد وعرضها وهي قوية بعددها ، تتحرك دوماً ولا تغلب بتراجعها ، لا تصبر على الضيم بطبيعتها وتقاليدها ، شيخية بحكمها وتابعة لنظام البادية الذي لا يتفق مع أي قانون كان ٠ ولذلك لم تهدأ هــذه القبائل في ظل الباشوات ، ولم تتخل عن حريتها المطلقة التي أمسكت بموجبها زمام تسعة أعشار البلاد التي يدعي بحكمها آل عثمان في هذا الدور ٠

داخلية العراق في سنة ١٥٣٤ ـ ١٦٢٠[٢]

هناك أسباب تستدعي أن تعتبر الأدوار الأولى من أدوار الحكم التركي في العراق أكثرها أهمية ٠ اذ كانت الامبراطورية قد بلغت أوجها ، ولم يكن لها في ولاياتها ماض تحيا به بل كان لها من السمعة ما يؤهلها لذلك ٠ وأصبح لها في العراق مجال جديد تقيس به مقدرتها على الحكم ٠ غير انه من المؤسف ان

(٢) ان مصادر هذا البحث شحيحة ٠ وقد اعتمدنا على ما كتبه كلشن وباشي أعيان في اضطرابات البصرة وعدة من الحقائق الاخرى واعتمدنا على ما كتبه الفون هامر (الكتاب السابع ص ٢١٩ ـ ٢٢٠) في حوادث جيغالا ٠ اما الرحالون الذين رجعنا لكتاباتهم بصورة خاصة فهم راولف وسيدي علي وفيتش مع رفقائه وبالبي وتكسيرا (تيثيرا) ٠

لم تتوفر المصادر الكافية التي يمكن أن يستمد منها ما يساعد على اثبات صورة حقيقية لنجاحها أو خيبتها • والمعلومات القليلة المتوفرة التي ستسرد ربما لا تفيد التاريخ اذا ما غيرت النسب فأكدت على ما لا يستحق التأكيد من الحوادث • على ان أحسن الادلة عندنا وأكثرها خطراً الاحوال الثابتة في العراق والاستنتاجات المستمدة من تاريخ تركية آنئذ • فالأخبار البسيطة التي دونها الرحالون لا تسعد المؤرخ الا قليلاً ، والتقاليد التي يمكن أن يستدل منها على بعض الأمور لم يبق منها بعد خسران بغداد واستعادتها فيما بعد الا شيء يسير •

فقد كان الوضع العام في الاصقاع العراقية هو وضع الممتلكات النائية من ممتلكات السلطان • فمصطلحات الحكومة التركية وتشكيلاتها بقيت سائدة ولم تتبدل • وكانت الجرائم يقمعها الجند ويحكم فيها القاضي المعين من استانبول • وكان الذين يحبذون إستنلام العراق الى الحكم التركي بالكلية الطبقة البوروقراطية الجديدة ، والحاميات ، وملتزمو الاقطاع ، وقسم من رجال الدين • وكانت على الضد من هؤلاء القبائل والشيعة والتأثيرات الفارسية والاطماع المحلية التى يؤذن بروقها ضعف الحكومة أو عدم وجودها ، ثم خصائص البلاد نفسها •

وكانت مزية هذا العصر البارزة الخصومات[٣] التي كانت تكاد لا تنقطع بين الامبراطورية وايران ، ذلك الامر الذي أثر تأثيراً سيئاً في الجمهور والحاميات العراقية الى حد كان من الصعب تقديره • فقد أثرت بالتأكيد في توارد الزوار الى العتبات المقدسة ، وتبادل التجارة مع أصفهان وتبريز • كما استدعى ذلك دعوة الانكشاريين وملتزمي الاقطاع أحياناً للمشاركة في عمل الجيوش الامبراطورية في الشمال • وبديء بجمع الحبوب وحيوانات النقل • ومن

---

(٣) ان هذه الاحوال مدونة بإسهاب في التاريخ التركي والايراني العام • وتعرف مراحلها الرئيسة بصلح ١٥٥٥ الذي استقام مدة عشرين عاما ، وبهدنة عقدت في ١٥٧٨ فنقضت بسرعة ، وبصلح آخر في ١٥٩٠ وطال أمده حتى ١٦٠٣ • وأعقبت ذلك خصومات جديدة دامت حتى ١٦١٨ وكانت الاطماع والاحقاد والحجج موجودة لدى الطرفين أبداً وكان العثمانيون حتى نهاية القرن هم المعتدون ، ومن بعد ذلك انتقل الاعتداء الى الصفويين • وقد أثر تعاقب الحكام الضعفاء في تركية وحلول عهد عباس العظيم في ايران تاثيراً بيناً في رجوح كفة النجاح •

الحوادث المعروفة في العراق عن هذه السنين الفزع من خطر يهدد أسوار المدينة، وانقلاب الامراء الاكراد المذبذبين ، والوليمة الملكية المؤلمة لسفير ايراني مر في طريقه الى البوسفور • وان كانت حروب القرن السادس عشر ، عند مقارنتها بالحروب الايرانية العظيمة التي تشبت في القرن الثامن عشر ، لم تستوجب دعوة باشوات العراق ووحداته التيمارية ليسهموا فيها اسهاماً رئيساً فان بعض الادوار المهمة منها كان يثير في البغداديين شيئاً أكثر من الاهتمام الفاتر • ففي سنة ١٥٨٦ تقاطر على المدينة خمسة آلاف من التركمان اللاجئين الفارين من وجه حمزة مرزة الباسل • وبعد ذلك بقليل وقعت حرب عوان بالقرب منها بين فرهاد باشا القائد التركي العام وقوة ايرانية جبارة بقيادة قواد كبار • وتذكر هذه بالرسائل المضحكة المتبادلة بين القواد وبالغنائم الغنية بالغلمان والجواري التي مهد النصر للباشا أن يتحف سيده بها • وفي ١٦٠٤ شن الرئيس الايراني الله ويردي خان غزوة مفاجئة أسر فيها ثلاثمائة أسير خارج أسوار بغداد نفسها ونشر الذعر في داخلها • ثم حوصرت المدينة حصاراً جزئياً في السنة التالية[4] • وفي سنة ١٦١٦ نهبت مندلي قوات[5] ايرانية ، غير ان باشا بغداد استعادها بشدة وسرعة • وسيذكر عن التأثير الذي أحدثته هذه الاحوال في الدويلات الكردية الشيء الكثير في صفحات متأخرة • وتنشأ الميزات الاخرى لهذه الحقبة عن الخطر الايراني من جهة ، وعن الاحوال الداخلية في العراق نفسه من جهة أخرى • فقد جلب له موقعه كولاية على الحدود فائدة وضع الحاميات الكبيرة تؤثر تأثيرها في البلدان والقبائل ، كما عوده ذلك أن ينظر دوماً لمنبع حمايته البعيد • ومن جهة أخرى كان السلطان يرى بغداد عزيزة عليه لعظم اسمها ووضعها المتقلقل • أما في الداخل فقد كان طابع هذا العصر وكل عصر يليه قلق البدو والقبائل نصف المتوطنة وعدم احتمالها الاذعان لاية حكومة من الحكومات• وفي هذه الأيام المبكرة ، على الاخص ، كان سخط القبائل على حكامها شيئاً

---

(٤) ان مالكولم وسايكس يجعلان جميع العراق يخضع لايران في ١٦٠٥ بعد انهزام سيكالا في موقعة ارمية • وهذا حقاً غير صحيح •

(٥) ديلافاله (الرسالة الاولى لسنة ١٦١٧) •

مألوفاً ، بينما كانت هناك في المدن والبلدان الصغيرة حالات وحوادث كافية يستدل منها على وجود حكومات ضمن حكومات ، وعلى ان الحكم الامبراطوري كان غير معمول به في مكان ويشاركه الرؤساء المحليون في مكان آخر . وبينما كانت الموصل وبغداد تمشي فيهما الامور بصورة اعتيادية بكونهما مركزي ايالة فان ولايتي البصرة وشهرزور المنفصلتين قد صينتا لاياً بلأي[٦] من الانفصال التام عن الامبراطورية .

ولا نعلم من خلف سليمان باشا الوالي الاول في بغداد . على ان الحاكم في سنة ١٥٤٦م (٩٥٣هـ) كان أياس باشا . وقد وقع على عاتقه واجب أتعب باشوات بغداد من بعده مدة تمتد حتى القرن السابع عشر ، ألا وهو واجب اخضاع البصرة وقبائلها المتمردة . فأن الحكومة التي قلدها السلطان سليمان راشد المغامس في جنوبي العراق لم تستقم الا عشر سنوات . وكانت علاقته خلالها بزملائه الشماليين باشوات بغداد المتبدلين دوماً علاقة تمشية حال من دون أن يأخذ أو يعطي شيئاً . غير ان الاتصال حصل بالتدريج . فانّ التعرف على حكم السلطان انتج الاستخفاف به . ولذلك كان الهاربون من أواسط العراق يجدون في الميناء ترحيباً ومأوى ، وكان طلب الباشا لهم قد ذهب عبثاً . فأمر السلطان الثاني بتجريد حملة على البصرة والحاقها بالامبراطورية بصورة جدية . وفي ١٥٤٦ ترك أياس باشا بغداد على رأس حملة كبيرة . وسارت أرتال الجيش على طريق دجلة[٧] بينما كانت ثلاثمائة سفينة شراعية تنقل الذخائر والمؤن . وتقدم حاكم البصرة شمالاً حتى منطقة[٨] الجزائر ولكنه رجع مدحوراً تماماً . فدخل أياس البصرة وأعلن الغاء الضرائب التي كان يجمعها الحاكم العربي وأحل مكانها الضرائب التي يأمر بها الشرع . فأثنى الناس على أعماله الخيرية الحكيمة

---

(٦) لاياً بلأي هو المراد بقول العامة من الكتاب « بالكاد » قال الشاعر
فلاياً بلأي ما حملنا غلامنا على ظهر محبوك شديد مراكله

(٧) هذا ما ذكره باش أعيان ، الا أن كولشن يذكر أن المسير كان على طريق الفرات كما يشير الى زيارة الجيش للنجف .

(٨) ان رواية كولشن تقول بأن راشداً بقي في البصرة لاجل أن يفر منها بسهولة اذا خسر الحرب في حين ان الذي ذهب لمقاومة أياس هو شيخ قشعم فأنهزم وذبح .

ثناءاً حسناً وتضرع الجميع بالدعاء للخليفة • ثم بقي أياس في البصرة حاكماً عليها [٩]

غير ان العمل بقي مبتوراً • فقد قطعت قبائل أهوار البصرة جميع الطرق المؤدية للبلدة • وبالنظر لأن باشا البصرة لم يشارك في الحملة التي جردت بعد هذا فمن المحتمل انه كان قد أضاع مركزه • فلقد صدرت أوامر السلطان القاضية بتأديب الثائرين الى علي باشا تمرد ، رئيس انكشاريي بغداد (وربما كان حاكمها) • وأخذ مكانه في بغداد محمد باشا بلطجي ، ميرميران سيواس ، الذي جلب معه جماعة صغيرة لحمايته • وبعد أن أكمل علي باشا استعداداته سار فتوقف في الغراف وانضم اليه هناك علي بك ، وكان سنجق بكي لتلك المنطقة • فنزل الجيش الموحد الى الفرات نفسه ، ثم حوصرت المدينة ، وقد كانت مقر عليان رئيس الثوار • وفتحت المدينة بعد هجوم دام ثلاثة أيام فكسرت حماسة القبائل ، وفر عليان مع أتباعه متفرقين • غير ان هؤلاء لم يتركوا المقاومة وانما استمروا على الغزو وقطع الطرق • وأقام علي باشا الاستحكامات القوية لضبط المواصلات المائية • وفي آخر الامر كملت عملية التهدئة ، اسمياً وموقتاً ، ورجع الى بغداد •

وعندما زار البصرة الاميرال المؤلف الشهير سيدي علي في ربيع سنة ١٥٥٤م (٩٦٢هـ) وجد حكومة اعتيادية في المدينة • الا ان الاسطول كان به حاجة للاصلاح ، فأعطيت له خمس عشرة سفينة قديمة مضعضعة • وكانت العلاقات مع هرمز حسنة بحيث مكنته من محاولة تجهيزها بغير نجاح ، من هناك • وتآزر مع حاكم البصرة مصطفى [١٠] باشا بخمس من هذه السفن على الاعداء المحاربين في أنهر عربستان [١١] • وكان بين جنود حامية البصرة انكشاريون من

---

(٩) يذكر تقويم البصرة في ص ٦٢ ان «الوزير أياس باشا» كان والياً في ٩٥٢ للهجرة • وهذه الرواية تجمع بين روايتي كولشن وباش أعيان •

(١٠) لا يوجد هذا الاسم في قائمة الولاة المدرجة في تقويم البصرة • غير أن القائمة غير كاملة حسب الظاهر لان الاسماء مأخوذة من ذكر بعض الحوادث في تاريخ باش أعيان

(١١) يذكر سيدي علي « جزيرة حويزة » وربما تكون هذه جزيرة بيد هؤلاء

مصر • وقد سبب تقلب هؤلاء فشل الحملة عن الظفر مع خسران مائة رجل •

وكان والي البصرة يعيش في الفترات الهادئة بأبهة مبنية على واردات گمرگه (مأصره)[12] الاكيدة الغزيرة • على ان حكمه ، من جهة أخرى ، لم يتعد خندق المدينة الا قليلاً • وكانت الحاجة ماسة لكثير من القلاع النهرية الساحلية لتحافظ على حركة الشحن من عبث لصوص الحويزة ، ولأن سكان الاهوار في دجلة والفرات الجنوبيين لم يظهر منهم ما كان يدل على امكان التعاقد معهم بصـورة دائمـة • « •••• ومنهم من كان الترك لا يستطيعون اخضاعهم لانهـم كانوا متحصنين في جزر تقع وسط الفرات وليس بوسع الترك أخذها منهم • ولذا كانوا كلهم لصوصاً ليس لهم مسكن معين •••• »[13] • وقد عورض حاكم البصرة ، أكثر من زملائه الحاكمين في أماكن أخرى ، بشيء من الشعور القومي في معرض مقاومة الحكومات حسب العادة • ولم يعارض التجار أية حكومة تستطيع توطيد الأمن ، الا أن رعاع المدينة مع بعض الطبقات الدينية كانوا يعارضون الاتراك ويعدونهم من الاجانب • وقد بذلت المحاولات للتوافق ، ومنح قوم منهم الامتيازات كما استعملت العقوبات المؤثرة • غير ان التأثيرات المحلية هذه ، كما سيذكر فيما بعد ، قضت في الاخير على الحكومة التركية بكمالها بعد حياة مرتعشة قصيرة •

وفي هذه الايام كان أمر انفصال شهرزور واسترجاعها سائراً في طريق مختلفة • اذ كانت الحكومة قابضة على كركوك وأربيل وآلتون كوپري بحزم وقوة • والحقيقة ان حكم السلطان هنا كان مرغوباً فيه أكثر من أي منطقة اخرى في العراق • ولم تكن المعارضة موجودة ، والحكومة اسـمية متقلقـلة ، الا فـي المناطق الشمالية والشرقية من الولاية فقط • وسوف يذكر شيء اكثر عن هذا ، بالنسبة لما يختص منه بالدويلة الاردلانية المجاورة ، عند البحث عن جيران العراق والبلاد المصاقبة له •

ولابد لنا هنا من تدوين بعض الحقائق البسيطة التي بقيت غير مذكورة عن

الاعداء ، الا اذا كان يقصد بالجزيرة معنى آخر واذا كان الامر كذلك فكيف تتعاون السفن اذن ؟

(١٢) الكمرك عند العرب هو « المأصر »

(١٣) هذا ما يذكره رالف فيتج (في هوزتن رايلي ص ٥٣)

حكام بغداد في هذه السنين • وفي صفحة متأخرة سوف نذكر طرد علي باشا تمرد واحلال بلطجي محمد مكانه ، وكذلك انتداب باشا حلب لواجبات الحدود الكردية • فمن المحتمل ان الذي خلف درويش علي ، موطد النظام في البصرة سنة ١٥٦٧م (٩٧٥هـ) ، كان مراد باشا الذي عينه سليم الثاني[١٤] من قبل • وقد خلد اسم مراد باشا بالمنارة الفخمة المشيدة في المرادية المؤرخة بـ ٩٧٨ للهجرة • وكان راولف قد شهد الباشا في ١٥٧٥م (٩٨٣هـ) ، ولم يذكر اسمه ، وهو الذي استهداه هدايا • وبعد سنتين أو ثلاث أخذ المنصب رجل مشهور في زمانه ، وهو الوندزاده علي باشا • فأصابت العتبات المقدسة لكلا الطائفتين أعماله الخيرية• فانه جدد بناء قبة الحسين العظيمة في كربلا وصحن عبدالقادر الكيلاني في بغداد • وأشاد في أيامه بعدل الحكومة وحكمتها • وكتب المؤرخون في حملاته على جيران الولاية المقلقين لها ، وكانت واحدة منها على حكومة الحويزة المجاورة لولايته[١٥]

وقد ذكرت حملة فرهاد باشا العظيم بالقرب من بغداد حوالي ١٥٨٩م (٩٩٨هـ) • ولم يكن هو من حكام بغداد • غير ان المنصب كانت تشغله يومذاك شخصية من أعظم شخصيات العصر ، وهو جغالزاده المعروف في أوربة باسم «سيكالا»[١٦] • ولا يمكننا تدوين سيرته الرومانتيكية هنا ، الا أن المناصب الرفيعة التي تسنمها من قبل في طول الامبراطورية وعرضها تدلنا على أهمية ولاية بغداد التي عين هو حاكماً لها • فقد عرفت أيام تقلده الحكم باصلاحاته المهمة • فهو الذي نبه أولي الامر في استانبول الى الأخطار التي كان يتعرض لها الحجاج عند

---

(١٤) يجب أن ينسب الى هذا الزمن الحادثة المبهمة التي جمعها راولف من أحاديث الدواوين الغامضة وهي غزوة شنها الفرس على بغداد فوقع ابن الشاه أسيراً فيها ثم استنقذ بالفدية • وقد يشير هذا الحادث لبعض قلاقل الحكومة بسبب اللر أو الكرد •

(١٥) ان رسالة تركية تدعى « هنر نامه » لنيازي مما لم يعثر عليها المؤلف تبحث عن هذه الحملة في سنة ٩٩٢ الهجرية (١٥٨٤ الميلادية) لكن خلاصتها موجودة باسم « ظفر نامه » •

(١٦) يرجع في أخبار حاكميته في بغداد الى كتاب الفون هامر ، الجزء السابع ص ٢١٩ و ٤٠٩ والجزء الثامن ص ٣٨ •

اختراقهم البوادي العربية بلا انتظام • فاقترح تنظيم حملات مسلحة مؤيدة لترافق قوافل الحجاج الخارجة من بغداد ودمشق بقيادة حكام المدينتين • وصادف في أيامه أن قل الماء في عتبات الفرات الشيعية وتركها الزوار من أجل ذلك ، لان الجدول الخيري الذي حفره من تقدمه من الولاة قد طمرته كثرة التفن[17] فيه فاستحال من أجل ذلك جريان الماء فيه • فحاول جيغالزاده احياء الانهر وارجاع الماء والزوار الى هذه العتبات • فلم تستصوب مشاريعه لكنها تدل على روح محسنة وعقل راجح • وكونت حملاته في ايران الجنوبية قسماً من النزاع الذي كان قائماً آنذاك فانتهى بصلح سنة ١٥٩٠ م (٩٩٩ هـ) • وقد ساعده نزاع أخوة حدث من أجل حكومة مدينة دسفول على أن يتدخل بصورة حاسمة ، فوقعت بقبضة يده دسفول والقلاع المجاورة لها ودحرت قوات الاقطاع الايرانية • وبقيت سطوته نافذة ردحاً من الزمن في داخل بلاد البختياريين •

وتولى الباشوية في بداية السنوات العشر الاخيرة من هذا القرن سنان باشا جيغالزاده [18] فأغناها بتشييد خان [19] للمسافرين وبنايات أخرى عرفت باسمه مدة طويلة • ولهذا أمتد الوقت الذى كان يقترن فيه اسم جيغالزاده العظيم ببغداد ، على ان ذلك سيجدد فيما بعد • وقد خلدت البنايات أيضاً عهد باشا آخر حكم في هذا الزمن وهو حسن باشا • وكان حاكم بغداد فى السنة الاخيرة من القرن رجل يدعى دلي حسين • وهو مذكور عرضاً بأنه أخو الثائر المشهور عبدالحليم قره

---

(١٧) التفن على وزن شبر هو الطين الذي يبقى في الجدول والمسيل والنهر ثم يجف فيتشقق حتى ييبس فيصير صلصالا

(١٨) يجب لا يلتبس اسمه باسم « فاتح اليمن » • ثم ان گولشبن لا يذكر باشوية جيغالزاده نفسه ، ولم يعلم بأن سنان الكبير كان باشا الموصل فى ١٥٩٤م (١٠٠٣ هـ) •

(١٩) هو المعروف قبل سنوات باسم (خان جغان) وقد جعل أسواقا للصاغة والبزازين وكانت على بابه كتابة تاريخ بنائه واسم سنان باشا المذكور والتاريخ هو (٩٩٩ هـ) وذكره ياسين العمري فى الدر المكنون فى حوادث سنة ١٠١٣هـ (م٠ج) أما اليوم فقد أصبحت الاسواق جميعها للبزازين — المترجم

يازجي الذي أفزعت ثورته في آسية الصغرى الامبراطورية العثمانية • اما مقدار مشاركة دلي حسين في الامر وتوريطه جيوش العراق وتفريطه في مصالحه فذلك شيء مشكوك فيه • ولم يكن سكان الولايات العراقية الا من المتطلعين على بعد الى ثورات الاخ المخطر ، على وجه الاحتمال •

وقد حل القرن الجديد من دون حادث يستحق ان يذكر • وكان الحاكم حينئذ وزير حسن باشا[20] الذي حفر لحماية الكرخ خندقاً عميقا عريضا وأنشاء باشورة « سداً ترابياً » ثم زينه ببضع بنايات • ولا يمكننا أن نعلم بالضبط الباشوات الذين جاءوا من بعده • وفي بداية ١٦٠٤ (١٠١٣هـ) منح المنصب قائم مقام استانبول السابق قاسم باشا • ولم يجاوز هذا بني شهر حتى انضم الى قوات الثوار ، ولم يصل الى بغداد مطلقا[21] • فجاء مكانه مصطفى باشا صارقجي فكانت مدة بقائه فيها قصيرة • وفي خريف ١٦٠٤م وصل الى العراق موكب حكومي مؤلف من خمسة عشر « قبوجياً » ومعه الخلعة والفرمان ، والسيف والسلسلة الذهبية الدالة على تعيين خصي جركسي يدعى يوسف باشا • وفي عهده حدث هياج مهم في كربلا قتلت فيه الحامية التركية ونهب اموالها الاهلون[22]

وأهم الحوادث المدونة في تاريخ هذا الزمن والتابعة لتاريخ تركية العام سلسلة القلاقل الداخلية الواسعة النطاق التي جهز لاستئصالها الصدر الاعظم مراد باشا جيوشه بعد صلح سيتفاتورك • ففي ١٦٠٧م (١٠١٦هـ) أستأثر بالسلطة العليا في المدينة رجل يدعى محمد بن أحمد الطويل أحد الرؤساء الانكشاريين في حامية بغداد في ظروف ما تزال غامضة [23] • فأرسلت الدولة

---

(٢٠) كتاب تكسيرا ص٦٢ من الطبعة المشار اليها ففيها ذكر باسم Acem Baxa

(٢١) يذكر كولشن انه بقي في بروسة وفيها قتل

(٢٢) تكسيرا ص٥٣ من الطبعة المشار اليها •

(٢٣) مذكورة بايجاز في « غاية المرام » وتقويم بغداد وباش أعيان وبصورة مفصلة فيما كتبه الفون هامر (المجلد ٦ ص١٣) وأكثر تفصيلاً في كولشن • وهناك تناقض غير جوهري في المرجعين الأخيرين • كذلك توجد عدة اشارات الى الحادث فيما كتبه ديلافاله •

بالتفصيلات المقتضية لاخضاعه الى نصوح باشا الصدر الاعظم في السابق وحاكم ديار بكر يومئذ • فسار قاصداً الجنوب في ١٦٠٨ م (١٠١٧ هـ) مع ٤٠٫٠٠٠ مقاتل • وفي أول معركة انهزم نصوح باشا بسبب خيانة جيشه اياه ، وذبح والي باشا الذي كان بصحبته • فتلت ذلك هدنة شائنة اعترف بها رسمياً بمحمد كباشا في بغداد • ومع سقوطه بعد أيام قليلة صريعاً بخنجر أحد أعدائه كان توليه الحكم يقتضي أن يخلفه أخوه الأصغر مصطفى • غير ان مثل هذه الوراثة لم يستسغها أحد • وكان محمود بن جيغالزاده الكبير في المشتى في أورفه حينئذ • فمهدت له علاقات أسرته بالعراق ، وولاء ابي ريشة وأسرة سوران الكردية ، وقبيلة قشعم وغيرها من القبائل العراقية ، الامور التي أدت الى تعيينه حاكماً في بغداد • وطلب منه أن يعيدها الى حوزة الامبراطورية التي ازدرتها • فجرد من الموصل حملة غير مقاتلة بارساله الرسائل السرية الى ملازمي الانكشاريين ورؤسائهم في بغداد يناشدهم فيها قلب الحكم ، فعملت الرسائل عملاً حسناً وأثرت التأثير اللازم • فحوصر مصطفى في القلعة ، وأخبر محمود فخف لها بأقصى سرعته حتى وصل الى بغداد في منتصف صيف ١٦٠٩ م (١٠١٨ هـ) • غير ان المدافعين[٢٤] وكانوا المتفوقين قاوموا محموداً بشدة وأظهروا ولاءً غير منتظر لقائدهم • وبعد أسابيع من الشدة والاهوال وصل الطرفان الى توافق ما •فقد وافق مصطفى على تسليم الحكومة الى ابن جيغالزاده ، وتسلم هو نفسه سنجق الحلة الغني • فأعيد السلم والطاعة الى نصابهما • وقد قدر لمحمود جيغالزاده أن يكون حاكماً في بغداد مرتين ، وهو يذكر بأسم البلدة المسماة المحمودية التي أسسها على بعد مرحلة من جنوب بغداد • وكانت مدة حكمه هذه قصيرة • وفي ١٦١٠ م (١٠١٩ هـ) أهديت بغداد الى علي باشا قاضي زاده ومن بعده الى غيره ممن لم يدون سوى أسمائهم أو ألقابهم كدیلاوير ومصطفى وحافظ أحمد ، وسوف نذكر الشيء الكثير من أخبار الاخير فيما بعد •

---

(٢٤) ان كولشن يغالي بتقدير هؤلاء بمقدار ٢٠٫٠٠٠ بين فارس وراجل ، لأن القلعة لايمكن أن تسع نصف هذا العدد •

وتبدأ أخبار الموصل[25] بالالف الثانية من الهجرة فقط • فنستدل من الاصطلاحات التي يذكرها احد الاوربيين في الموصل على أن باشا «قره حميت» (قره عميد[26] ، ديار بكر) كان نفوذه في الموصل نفوذ جار قوي يفوق نفوذ بغداد • ولو صح الامر لكان اتجاه ايالة الموصل في القرن السادس عشر مختلفاً عنه في الثامن عشر لان طمحات الحاكم فيها كانت تتجه شمالاً لا الى الجنوب نحو زميل قوي هو بمقام السيد لـه تقريباً • ويذكر من بين الاخبار زلزال شديد ، حدث في اذربايجان في ١٥٧٢ م (٩٨٠هـ) ، فسرى تأثيره جنوبا حتى الموصل • وفي السنة نفسها ملأ كسوف شمسي السماء بالنجوم في رائعة النهار • كما يذكر ان المحل العظيم الذي حل في العراق الاوسط من ١٥٧٤ م (٩٨٢هـ) الى ١٥٧٦م – بأن مر ثلاثون شهرا بلا مطر – قد أحدث حركةً في المواصلات النهرية بين بغداد والموصل لنقل الحنطة • وأول باشا يذكر هو أمير حسين والثاني پياله باشا • ولم يذكر عن هذين سوى مدة حكمهما بالضبط • وفي ١٥٣٩ م (٩٤٦هـ) تولى حكومة الموصل[27] لمدة عشرة أشهر سنان باشا • وقد جاء بعدهم موظفون لم يحفظ عنهم أي تفصيل • وكانت مدة حكم كل منهم أشهراً قليلة ، عدا حسين باشا ، المعين في ١٥٩٤م (١٠٠٣هـ) فقد حكم مـدة ثلاث سنوات تقريباً • وفي ١٦٠٠م (١٠٠٩هـ) ، اعطيت الولاية الى حسن باشا حاكم العمادية • ولا غرو في ان السلطان سليمان كان يقدر الاسرة البحدينانيـة كثيراً ، ولم تكن نزاعاتهم الداخلية الا من فعل فرهاد باشا • وان كانت الموصل

---

(٢٥) المراجع تقويم الموصل الذي يحوي قائمة بأسماء الولاة ثم « المعلومات التاريخية » • ويذكر حسن توفيق صاحب « المعلومات التاريخية » ان « منهـل الاولياء » يشير الى انه لا ذكر للباشوات قبل سنة ١٠٠٠ للهجرة •

(٢٦) قد تكون لهذه الكلمة علاقة بكلمة آمد وهو اسم ديار بكر القديم – المترجم

(٢٧) ان الوصف المدرج في تقويم الموصل يطابق وصف سنان باشا الكبير ، ويسكت المؤرخون الاتراك عن ذكره • اما التقويم فبعد ان يذكر انه هو فاتـح اليمن ينكر ذلك في الحاشية • على ان الوصف والتعبير يجب أن يقبلا بصـورة عامة •

قد أعطيت في ١٥٥٣م (٩٦١هـ) الى أمير الجزيرة فلم يكن ما يمنع من أن تعطى الى بك العمادية في سنة ١٦٠٠م . فبقي في منصبه أربع سنوات تقريباً . ولا يعرف عمن جاء بعده سوى اسمائهم . وكان من الجائز لموظف ما أن يرجع لنفس الباشوية مرة ثانية أو ثالثة . وفي الاخبار ما يدل على تنقل الموظفين بين الولايات العراقية وتشكيلاتها التابعة لها . فلقد عين في ١٦١٧م (١٠٠٢ ـ ٧ هـ) مجيد باشا ، الذي تولى متسلمية البصرة ، والياً للموصل وبعد سنوات ثلاث انعم بالمنصب ، وربما كان أول مرة ، على مرشح محلي . فقد كانت الاسرة العمرية المعروفة قد جيء بها في هذه المدة لعل قدسيتها تهدىء الزلزال المفجع الذي هز المدينة . على أن بكر باشا لم يكن عمرياً . وقد عين في ١٦٢٠ م (١٣٠٠ هـ) وبقي سنة واحدة ثم نقل لباشويات اخرى . ثم رجع بعد خمس سنوات عندما كان الايرانيون قد دخلوا بغداد . ويدل تعيين أحمد باشا شقيق أحد موظفي بغداد في ١٦٢٣ م (١٠٣٣ هـ) على أن استانبول كانت ملزمة في تفضيل أعيان الولاية نفسها .

الاطـــــراف

هذه هي الحقائق الشحيحة الباقية من اخبار الدور الاول للحكم التركي في العراق الأصلي . ومن المناسب للموضوع البحث ، على حـدة ، عن تاريخ توابعه المنعزلة وجيرانه الاقربين .

فمن جهة البادية ، غربي الفرات وجنوبي غربه ، كانت قبائل نجد بواحاتها ماتزال شديدة الاختلاف وخاملة بحيث لم يكن بوسعها اقلاق المراكز العراقية ، وذلك قبل التجديد الديني العظيم الذي حدث في القرن الثامن عشر . وكان التعرض الوحيد الذي يحتمل حدوثه لا يخرج عن كونه غزوات متعاودة في المراعي الربيعية . وكان بنو خالد في الاحساء (لم يكونوا من القبائل العراقيـة يوماً ما) قد عظم شأنهـم في بلادهم[28] . وبدأوا يتحرشون في بعض المواسـم

(٢٨) ان الواضح في سجلات الحكومة على عهد سليمان هو ان استانبول كانت تدعي بتابعية الاحساء لها (كما ادعت بالحبشة) . ويذكر أوليا أفندي أنه لم يكن هناك أقطاع وبينما كان الحكام يعينون في السابق بصفة بكلربكي صبحوا الآن يحكمون من دون سلطة أو تخويل ، لكنهم كانوا يرسلون الهدايا الى حاكـم

بأبعد الخيام التابعة لقبائل الفرات • غير ان قوات البادية التي يهمنا أمرها أكثر من هـذا كانت لا تخرج عن كونها حلفين بدويين يمـر من مناطقهما المسافرون من الخليج الى حلب بعدة مراحل من طريقهم • فكان المير ناصر ـ أعني ـ ناصر بن مهنا في ١٦٠٤ م (١٠١٣ هـ) « ملك » القسم الجنوبي المتـــد من النجف الى الفلوجة • وكانت بلدة النجف ، ذات العصبية الدينية الدائمة التي أفقرها انقطاع الخيرات عنها منذ موت الشاه طهماسب ، مشرفة بسلطة حاكم البادية هـــذا • وكانت كربلا ، وهي أوسع وأكثر حركةً وليست بأقل من اختها تعصباً مركز « ديرته » • وكان يلاقي المسافرين من بغداد الى الفلوجة ، على بضعة أميال من العاصمه ، وكلاؤه الذين يقبضون الاتاوة « الخاوة » له • وقـد اعترف ناصر ، وهو أحد أفراد سلالة من الشيوخ ـ موالي أو عنزة ـ مسيطرة في ذلك العهد ، بولائه للسلطان • ومن المحتمل ان شيئاً من الهدايا التي كانت يرسل بها بين حين وآخر للباشا يذكره بهذا العبد المتواضع • غير أن أتوقراطيته في البادية ، وجمعه للخاوة ، والشدائد التي كان يصادفها المسافرون المارون من ديرته ، وأرهـــابه للزوار ، كانت تقص لنا قصة أخـرى • وكانت الحاميات التركية الصغيرة تقيـم بحسب العادة في العتبات المقدسة غـير أن مكثهم هنـاك لم يكن الا بسماح من الشيخ • وفي ١٦٠٤م (١٠١٣هـ) كانت عاقبة الحامية في كربلا ـ كما قيل ـ وخيمة[29] •

والى شمال منطقة ناصر وغربها كانـ ـطوة ابي ريشة المشهور سائدة[30] • وربما كانت بين المنطقتين اراض وعرة حـيه واسعة • وكان هذا الاسم وراثيـاً يطلق على أعظم شيخ ، من جمهرة القبائل • وكانت عانة قاعدة حكيه ، كما كانت ديرته ممتدة من هيت الى بيرهجك وأطراف منطقـة العشائر السورية • وكانت

بغداد • وان كان شيخا القطيف والبحرين قد بعثا برسائل يرحبان فيها بالسلطان سنة ١٥٣٤ فان ذلك كان أبعد ما يكون عن الخضوع الحقيقي • وبالاختصار نقول انه قد احتفظ بادعاء غير حقيقي بالاحساء وغير مستند على شيء ، على الطريقـة التركية ، ومن دون ان تدعمه التواريخ •

(٢٩) تكسيرا (طبعة سنكلير وفيرغوسن) ص ٥٣

(٣٠) وقد ذكر ذلك جميع السياح تقريبا،فانظر تكسيرا أيضا (حاشيةص٨٤) للحصول على مراجع فيه • وما كتبه راولف مهم أيضاً •

طية ومسكنة له • فأصبح أبو ريشة بذلك اسماً مخيفاً لباشوات ديار بكر وبغداد وحلب • وقد وجدت سلالته قبل القوات العثمانية في سورية والعراق • فوجد التركي ـ الجاهل لسياسة البادية ـ فيه عدواً لا يغلب وخصماً مغروراً قلما كان يخضع • وفي ١٥٧٤ م (٩٨٢ هـ) كان « ملك بلاد العرب » هذا قد تعرض مراراً لموظفي السلطان • ولما كان قد نصب ابنه في حصن نهري ساحلي في غالانتزا[٣١] قبض عليه جند الدولة وأرسل به الى استانبول فقطع فيها رأسه • على ان هذا لم يخضد من شوكته ولم يعدل به عما تعوده من الغزو وجمع الخاوة • وقدم اليه قنصل البندقية في حلب الهدايا مرة • كما أن المسافرين والسياح كانوا يعدونه ملكاً • وقد اعترف الاتراك بأمارته في عانة فأدخلوه في ضمن طبقتهم البوروقراطية كسنجق بكي [٣٢] لمنطقته • وكانت الرسوم الكمركية المجبية في مراكزه تشاركه الخزينة التركية فيها أسمياً ، كما ان القوة الحقيقية التي كان في امكانها أن تفتك بالمسافرين أو تحميهم كانت قوته وحدها • ولقد تقرر باتفاق عقد قبيل ١٥٧٥ م (٩٨٣ هـ) أن يدفع له السلطان سنوياً ٦٠٠٠ دوكة وأن يعترف بحكمه الوراثي • وفي سني القرن الاول كان الامير المالك أحمد (أو حميد) ، وكان أبناء أخيه الثائرون يمعنون في عبثهم الذي اعتادوه بالامن تهاوناً بسطوته •

وكانت قوافل الجمال تستغرق في رحلتها بين بغداد وحلب خمسين يوماً ، وبين البصرة أو الزبير وحلب سبعين يوماً ، وكانت الاحوال العامة في سفر البادية هي الاحوال السائدة في كل عصر • وكان من الممكن للبضائع أن تصل بغداد واحدة بعد أخرى بقليل من الخطر اذا حصل اتفاق خاص مع البدو في البادية • فقد كان كل رئيس لعشرين من الابل دليلاً متحكماً وحداً كمركياً سياراً • وكان دفع الرسوم المقتضاة لبدوي ما وعرضها على آخر أو عدم القيام بهذين

---

(٣١) الظاهر ان هذه الكلمة هي اسم محل محرف نقله المؤلف من كتابات السياح الاوربيين الذين كثيراً ما كانوا يحرفون الاسماء العربية في كتاباتهم ويجهلون لفظها الصحيح ـ المترجم

(٣٢) يقابل هذا بمعاملتهم لامراء جزيرة العرب بعيد قرون ، فقد اعطوا السنجق حكام نجد والكويت في القرن التاسع عشر كما انعموا بلقب قائم المقام على ابن هذال

الامرين أحياناً من نظم الطريق السهلة الغالية . وقد تمكن الاتراك بالحملات حيناً ، وبالاقناع والمراعاة ، وبحفر الآبار في البادية من عمل شيء لفتح الطريق . غير أن هذا الواجب ظل صعباً عليهم مدة أربعة قرون ، كما كانت السلطات التركية في المراكز النائية شبيهة بالعرب طمعاً ونهباً . وكان التجار النصارى على الاخص ، الذين كانت عدة منهم يتاجرون بين سورية وايران وهرمز حتى الهند ، عرضة « لكثير من الضرائب الجائرة ... والخسران والتلف ، وربما كانوا يعتقلون بسهولة متهمين بالتجسس .

«قد ذكر في صفحات سابقة استيلاء البرتغاليين على الخليج في أواخر القرن الخامس عشر وتأسيس دي البوكرك في ١٥٠٧م (٩١٣هـ) لقلعة هرمز . وفيما عدا هذه القلعة (التي استردها بسهولة في ١٥١٥ ، بعد ان أُجبر على تركها) خلف وراءه خيطاً من نقاط المتاجرة على سواحل الخليج . فلم يكن الأسياد البرتغاليون يخشون شيئاً من سكان تلك السواحل . وانما كانت المعارضة الضعيفة النادرة تدل فقط على وجود استياء عميق من جراء تدخل البرتغاليين وخشونتهم. غير ان خصماً خطيراً كان على أبواب الزمان . فقد استولى سليم المخيف في ١٥٢٠ م (٩٢٧ هـ) على مصر واليمن وأخذ الترك يجدون لانفسهم طريقاً في البحر . وفي ١٥٢٩ م (٩٣٥ هـ) دخل أسطول تركي الخليج فلم يقابل مقابلة ودية ، لأن حاكم ذلك الثغر اتفق مع البرتغاليين بأن سمح لهم في مقابل معونتهم له على خصومه من القبائل . وقد زار ضابط بحري برتغالي البصرة وتوغل شمالا في الانهر . فأبى الحاكم العربي حسب المعتاد القيام بتنفيذ مساومته ، وأحرق البرتغاليون عدة من القرى القصبية ثم انسحبوا . وفي ١٥٣٨ م (٩٤٥هـ) غزا الساحل الهندي اسطول تركي كبير من مصر . وفي ١٥٥٠ م (٩٥٧ هـ) طردت القطيف حاكمها واستنجدت بالاتراك الذين كانوا في البصرة لحمايتها من البرتغاليين . فاحتل مراد بك القطيف غير ان أهل القطيف أخرجوه بعد ذلك وتعقبوه الى شط العرب . فجازاهم الترك على ذلك بأن غزوا مسقط وقشم وهددوا هرمز . فقطع رأس قائد هذه الحركة پير بك في استانبول . ولم يستطع خلفه مراد بك ان ينجز شيئاً . وقد دحر قائد بعده يدعى علي چلبي في موقعة سنة ١٥٥٣ م (٩٦١ هـ) ، على أن التهديدات بقيت موجهة نحو المراكز

البرتغالية • وفي ١٥٥٩ م (٩٦٧ هـ) رسا اسطول تركي ، حاملا الانكشاريين ، في البحرين التي كان يحكمها يومئذ شيخ تابع لهرمز • فسوعد الحاكم المحلي بقوة ايرانية وساعده البرتغاليون ثانيــه من هرمــــز • فاستسلم الاتراك بشروط مهينة • وفي ١٥٨١ م (٩٨٩ هـ) استولى الضابط البحري التركي علي بك على مسقط غير أنه لم يثبت فيها • وعلى هذه الشاكلة ، كانت مياه الخليج غير مفيــدة لحكام البصرة التي لم يقم القبطان باشا فيها بقتال المعتدين على ما يظهر •

وكان الجار العربي الآخر للعراق والي الحويزة القوي • ولم تكن سفارته التي بعثها للسلطان سليمان بالخضوع الا مجاملات احتياطية في تلك الايام • وقد ظلت علاقاته بسيده الايراني ، مدة القرن ، تتذبذب بين العبــودية والاستخفاف وبين دفع الاتاوة وابتزاز المال • وتمادى أتباعه البرمائيون فياللصوصية والقرصنة في شط العرب من دون أن يعبأوا بالقبطان باشا أو بالبرتغاليين • فصار المسافرون في شط العرب يلزمون بالتحرز الشديد تجاه هذه الوقاحة • فيقول أحدهم[٣٣] « أرسينا في قلعة كانت في حكم الاتراك ••• وعندهم قلاع كثيرة غيرها لأجل أن يحموا أرضهم وسفنهم هناك من هجمات العرب » • ولم يكن والي ذلك العهد مبارك ابن مطلب ، أقل انفعالا من جيرانه الترك • فقــد تركت أراضيه النهرية بوراً وضعف الأمل لادعائه بحكم البصرة نفسها رغم اصرار العرب على ذلك • على انه كان ما يزال ينتظر الدور الذي سيلعب فيه بشؤونها •

وشهد القرن السادس عشر وأوائل القرن السابع عشر توثيقاً في علاقات باشوات العراق بالنواحي الكردية واللرية الواقعة في حكمهم • ففي جزيرة ابن عمر لم تطل أيام البيت الحاكم العظيمة أكثر من عمر السيد احمد الذي عهدت اليه الموصل نفسها • وحكم ابنه بسلام وطمأنينة • غير أن النزاعات العائلية التي حدثت على عهد المير ابراهيم ، الذي جاء بعده ، قد أدت حسب المعتــاد لفــــرار الخصوم الى القوات المعادية • فقد فر أحدهم الى فرهاد باشا في وان لينجده ، والتجأ الآخرون الى طهماسب شاه • فتدخل الشاه وقبض على المير فذبحه • غير أن حكم الجزيرة وتابعتها كوركيل كان ما يزال منتظراً توطيده بالفرمانات التركية لان وقوعها على الطريق العام أبقاها في ضمن النفوذ العثماني • على أن الأســـرة

(٣٣) تكسيرا (تيثيرا) ص ٢٧ من الطبعة المشار اليها قبلا •

المحلية الحاكمة كان يندر التدخل في شؤونها طالما كانت تلتزم بحدودها • وقد نُسي أمر خضوعها لبتليس منذ أمدٍ بعيد •

وكانت دويلة العمادية تمزقها الاختلافات والفتن على الشاكلة نفسها • اذ كان حسن ، اميرها البحديناني ، قد خضع للشاه الناهض بصورة مبكرة ونال حظوة عالية منه ، فقضى بهذه المناورة على البقية الباقية من الاعتماد على الاردلانيين• وبنفس الطريقة حافظ البحدينان على وضعهم بانضمامهم للسلطان سليم عند أول ظهوره • واستطاع الامير التالي، حسين ، أن يقوم بخدمة خاصة للسلطان سليمان فحافظت الدويلة بذلك مدة من الزمن على مقام الايالة • غير أن وفاة حسين زوجها في غمرات الحرب الاهلية • فلقد فرّ بيرم أحد الولدين ، قباد وبيرم ، الى الشاه طالباً النجدة • واذ ذاك طردت قبائل المزوري قباداً ونصبت مكانه ابن عمه سليمان • فتدخل يومذاك أمير الهكاريين زينب بك وتوسط لدى الشاه في أن يسرح بيرم • اما قباد فقد فر الى استانبول ونال عطف الصدر الاعظم فأصدر له فرماناً بحكومة العمادية • وفي الوقت نفسه نصب بيرم بك في زاخو وسليمان في العمادية • فوصل قباد والفرمان بيده الى دهوك فشغل نفسه بازالة أعدائه عن طريقه • غير أن سليمان تمكن من القبض عليه وتشتيت أتباعه بقوة من المزوري • فخف بيرم من زاخو الى دهوك وشيع سليمان الى القصر ، في العمادية ، وفيها تسلم الحكومة • وفر ابناء قباد ـ سيدي خان وآخر ـ الى استانبول ، فتولى مراد الثالث قضيتهما • فاعطيت العمادية الى سيدي خان وخول فرهاد باشا الاتصال بباشوات بغداد وكركوك وأمــراء كردستان التابعين ليساعدوه في نصبه • وفي ١٥٨٥ م (٩٩٣ ـ ٩٤ هـ) تمكن فرهاد باشا من تسليم العمادية الى سيدي خان وذلك بتحريك عدو على آخر ، وبالدس والرشوة ، وبمحاكمة مصطنعة بين يدي قاض للشرع • فحكمها سيدي عدة سنين •

وقد أوردنا هذه الحوادث ، على عدم أهميتها ، من اخبار ذلك الزمن لاجل أن نتمكن من توضيح أهم مزايا التاريخ الكردي بصورة مبتسرة • تلك المزايا التي تنطبع بالمنازعات التي لا تنتهي بين الاخوة على عروشهم الحقيرة ، وبالتجائهم السريع الى القبائل والاتراك والايرانيين • ولو توفرت المواد التاريخية وساعد المجال لامكننا ، بدون شك منا ، سرد القصة نفسها ، مع تغيير في الاسماء والاماكن،

فيما يختص بزاخو ودهوك وعقرة ورانية وحرير وغيرها . ففي كل وادٍ وفي كل قرية جبلية كانت نيران نفس الانقسام تشتعل بالاطماع الانانية ذاتها وتشب بالوقود عينه من الدس والعنف . وكان الدور التركي في هذا النزاع دور المنعم بالفرمانات أحياناً والمتقبل للخضوع الاسمي والمساعة العسكرية . وحتى هذه كان بوسع البيكات الاقوياء أن يمتنعوا عنها اذا ما حافظوا على ما كان يقتضيه الحال من الموقف . فلم يكن هذا من الحكومة بشيء ، غير أن التجربة الحديثة تجد من الصعب النزاع على منطقة وعرة اجنبية ليس للسلطان منها فائدة بمثل هذا المستمسك الضعيف . وكانت الخطة التركية العامة المتخذة حيال الدويلات الكردية خطة السكوت عن الاخطاء وقطف ثمار الامبراطورية اذا أينعت من دون جهد . وهي خطة كان على أي حكومة أن تتبعها ان كانت بمثل هذا الحال . وكان في امكانها أن تنجح أكثر من هذا لو كان يدعمها من الخبرة وحسن النية أكثر مما كان يدعمها من قبل ، ولو درس الاباء والتذبذب الكرديان ، وفيما لو لم تكن هناك امبراطورية معادية تحاول باستمرار أن تستعيد متبوعيتها .

وأكثر ما يتضح تصادم الاتراك والايرانيين في تعطشهم للممتلكات (بالنسبة لما يختص بهذه الصفحات) في أودية الشهريزور . فان ما يقف في وجه المطالبات والادعاءات التركية هنا لا ينطوي في استقلال الأمراء المحليين ، ولكن في المطالبات والادعاءات المقابلة التي تدعيها الاسرة المالكة في أردلان . فقد كان نفوذ الاردلانيين في شهرزور مضاعف القوة ، وكانوا يدعون السيطرة عليه قبل أن يظهر الترك والصفويون . وكان الامير الاردلاني تابعاً موالياً لتبريز منذ قيام اسماعيل شاه الا في فترة سليم المخيف القصيرة . إذ كان هذا الامير يدعي بعائدية كردستان الجنوبية الشرقية يومئذ له ولسيده . فقد عمت سطوته الجنوب والغرب الى الحدود من دون أن يصدها شيء ، وسيطر على بلاد شهرزور فالزاب الصغير والاورمان والشهربازار وقرهداغ ، وحتى « البلاد الحارة » كان يشملها نفوذ مأمون المبهم . وكان هذا الوضع لا يتفق مع ادعاءات العثمانيين ووجود الحامية الانكشارية في كركوك ، ومع الحاجة لضبط الطرق المؤدية الى الشرق . ولذلك كان التصادم المحلي مع موظفي الاردلانيين ونفوذهم لابد منه . وكان والي أردلان بنظر السلطان سليمان جاراً قوياً غنياً ومثلا سيئاً لدويلتي العمادية

وبتليس الأليفتين . ومن أجل هذا جرد لحرب مأمون في ١٥٣٨م (٩٤٥هـ قوة بقيادة حسين باشا تضم كثيراً من بگات الاكراد وفي ضمنهم عدد من بگات البحدينان . وكان مقصد هذه الحملة الاستيلاء التام على شهرزور ان لم يكن ذلك على مريوان وسنة أيضاً . فقاوم مأمون[٣٤] مقاومة شريفة . وتراجع أخيراً الى « قلعهي ظَلَم » فتلا ذلك التحصن . ولما وجد مأمون انه قد أضاع كل شيء فر الى استانبول ، فاعتقل فيها وعد أسيراً . فخرب الاتراك ما وجدوه وانسحبوا . وهنا جدد سرخاب ، عم الهارب ، موالاته للشاه وفــر من بقي مــن الاســرة الى تركية . وعندئذ سرح مأمون واقطع الحلة الغنية ثم أرسل لمرافقة جيوش السلطان المحاربة لاعادته .

وفي غضون ذلك بعث علي باشا حاكم بغداد رسوله الى العاصمة ، فاستغرب الجواب الذي ورد اليه . اذ تضمن عزله وترفيع محمد بلطجي ، الذي ذكــر قبلاً ، وكيلاً لحاكم بغداد في ١٥٤٩ م (٩٥٦ هـ) . على ان حملة شهرزور لم تعهد اليه بل عهدت الى عثمان باشا في حلب فبعث لقيادة المشاة النُظاميين والجيوش الاقطاعية من عدة أيالات . فساق بلطجي محمد ، المنصب في سراي بغداد تلك الايام ، جيشاً كبيراً جُهز جيداً بالمدفعية ليلتحق بقائد حلب . وجهز الرؤساء الأكراد الموالون قوات لمساعدة الباشا في الاحاطة بقلعة سرخاب . فخابت مدافع عثمان باشا في إحداث فجوة . وكانت قوته قليلة بالنسبة لمـا يقتضيه الحصـــار الكامل . فمات من التعب والخيبة وتشتت قواته[٣٥] . وهنا يختلف مرجعانا اختلافاً

---

(٣٤) يختلف گولشن خلفا مع الشرفنامة في (١) جعله مأمون مجرد رهينة (١٥٣٥ ؟) أخذها السلطان سليمان من أبيه ليؤمن ولاء شهرزور . وبعـد ان أشتغل مأمون فى الوظائف التركية سكن فى الحلـة وفى (٢) حصر البحث فـى سنة ١٥٥٢ ـ ١٥٥٤ وفى البحث عن « حصارات » شهرزور من وجهة نظر بغداد فقط ، ولم يذكر اردلان قطعاً ، و(٣) فى قوله بأن الشهرزور الحقت بالامبراطورية العثمانية بعد ١٥٥٤ أما البحث فى هذا الكتاب فقد استمد غالباً من الشرفنامة ومن گولشن فى حالة عدم وجود التناقض

(٣٥) هذا ما يذكره گولشن فى حملة عثمان باشا . وتتفق معه الشرفنامة فيما يختص بالقائد التركي وبالنتيجة غير الموفقة . على انها تضيف بأن القلعــة

تاماً • فيمحو المؤرخ التركي خيبة عثمان بحملة موفقة تليها تماماً ، ويجعل شهرزور ولاية تركية على طول النصف الثاني من القرن • وفي روايته هذه خول محمد بلطجي في أستعادة شهرزور • • فسار تاركاً وراءه سهيل بك ، حاكم سنجق الرماحية ، قائم مقاماً في بغداد • وقد كانت أول حملة جردها البلطجي حملة ديبلوماسية ، فامليت الشروط وفتحت أبواب القلعة على مصراعيها وترك سرخاب البلدة بأمان • وبذا اعيدت شهرزور لامبراطورية الخلفاء • فوضع الحرس الكافي مع والي بك المعين حاكماً • وبهذا اعترف بالايالة التي انتظمت أول مرة سنة ١٥٥٤ م (٩٦٢ هـ) في ضمن الممتلكات التركية بمعاهدة ١٥٩٠ م (٩٩٦ هـ) •

أما راوية أردلان فلا يذكر مثل هذا ، فان سرخاب ـ على ما روى ـ يحفظ لنفسه أردلان ، بعد ان ينقذه سيده من ايران ، مدة طويلة كان أثناءها موضع الثقة الغالية للبلاط[٣٦] الصفوي • وكان خضوع شهرزور لتركية ، في هـــذه الرواية ، بادارة حاكم اردلاني متأخر يدعى تيمور • وذلك انه لما تحقق ضعف حكام ايران نقل ولاءه الى استانبول وحصل على الفرمان والخلعة من مراد الثالث • ومنذ ذلك الحين اعترفت مملكته بأجمعها بسيادة الخليفة في حين ان كانت أودية حرير وبازيان وشهرزور تدار أمورها مباشرة من ادارة كركوك • وبذا أخذت شهرزور مكانها بكونها ولاية[٣٧] تركية في العقد الثامن من القرن ان لم يكن ذلك من قبل ، وظلت اردلان من ممتلكات السلطان ذات المقام العالي • وقد كانت هناك منطقة" تمتد لمدة أميال حوالي كركوك يدير امورها منذ البداية السنجق بكي المولي على ذلك المكان •

وما حل عام ١٦٠٠ (١٠٠٩ هـ) حتى تبدلت الرياح من جديد • فقد حاول خليفة تيمور الاستقلال ، غير انه خضع مكان ذلك للشاه عباس • وفي ١٦٠٥ م

المحاصرة هي قلعة الظَلَم وان الحصار قد سبقته حرب وانه دام مدة سنتين وأزيل الحصار بعد ذلك بقوات بعثها طهماسب بقيادة حسين بك ، ومات محمد بك الامير الاردلاني الهارب في اليوم الذي مات فيه عثمان باشا

(٣٦) أرسل ابنــه بهرام حاكما لرواندوز فأسس فيهــا سلالة ثبتت مدة قرون ثلاثة •

(٣٧) ربما لم تكن ايالة الا بعد ذلك في عهد سليمان القانوني

(١٠١٤ هـ) اعتلى عرش الحكومة الملكية في « سنه »[٣٨] خان احمد خان بكونه ملكاً من الملوك التابعين لايران • واستخدمه في الوقت[٣٩] سيده لمضايقة القبائل الكردية التي تميل الى تركية • وكانت أول أعمال أحمد غزو جمهرة قبائل المكري والبلباس وتأديبها • وفي السنين التالية لتلك أخذ رواندوز والعمادية ووضع ضباطه فيها وفي كوي وحرير • غير ان زوال حكم السلالات المحلية كانت مدته قصيرة • وكانت العشرون السنة الاولى من سني حكم خان أحمد خان مجداً اردلانياً عظيماً وحظاً موفقاً • فقد كان يتمتع بثقة الشاه عباس المستدامة وبذا استعاد تقريباً ممتلكات ازدلان القديمة • وكان ، بكل تأكيد ، مصدر خوف وحسد للباشوات في الموصل وبغداد • وينفي المؤرخون الترك والعراقيون بسكوتهم استيلاءه الناجح على الاراضي العثمانية • على ان الحقيقة هي ان الوسائط ، التي نفرق بموجبها بين الغزو والتملك ، مفقودة • فربما لم يكن خان أحمد خان قد سلب من السلطان اراضٍ كانت تدار أمورها رأساً من ادارة كركوك ، وانما كان يعبث بتابعيه الدويلات المذبذبة نصف المستقلة ويبادل الفرمانات بالهدايا امراء كانت موالاتهم لا قيمة لها على كل حال • وكثير من هؤلاء كان يحتفظ ـ ولا نشك في ذلك ـ بكتب السلطان والشاه معاً •

وكانت السنون الاخيرة من القرن السادس عشر في لرستان سني ثورة أدت لسقوط الاتابكيين • فقد كان الاتابكيون في فارس ولرستان الكبيرة « بزرك » قد تخلوا عن الحكم منذ مدة للخانات المحليين • وفي ١٥٨٥ م (٩٩٣ ـ ٤ هـ) كان آخر الاتابكيين في لرستان الصغرى ما يزال حاكماً • وكان هذا شاه ويردي خان الذي هاجمه تيمور خان الاردلاني في تلك السنة • غير ان هذه السلالة لم تقو على أن تعيش امام حكم الشاه عباس الصارم ورغبته الخاصة بتأمين الاتباع المخلصين على حدوده الغربية • فخلع الاتابكي في السنين الاخيرة من القرن ونصب مكانه حسين خان وهو رجل ذو شخصية عظيمة ، ويعد أبرز الرؤساء اللريين • فاكسبته اعماله في الحرب والامور السلمية لقب « بزرك » أي العظيم والكبير •

---

(٣٨) بكسر السين

(٣٩) أي وقت اعتلائه العرش •

الحكـومــة

لقد اشير من قبل الى مشاكل العراق الخاصــة من حيث الحكـم وعلاقتـه بالقبائل والاديان ووضع الحدود . ثم سوئل بأي الآمال والشكوك كان يمكن أن ينظر الى سادته الحديثين . أما وقد قيل ما أمكن قوله في القرون الثلاثة الاولى التي مرت على الحكم التركي فيجب محاولة ايجاد جواب عن هذا السؤال أي نوع من الحكم سوف يأتي به الاتراك يا ترى ؟

كانت الحياة في بغداد آمنة غير ضنك مع فقدان ملطفات الحياة التي نعرفها اليوم من مرافق الانس والمدارس وتنسيق الشوارع والمستشفيات . ولم تفقد أعظم المدن في التاريخ أحوالها الصحية بمرة . فقد كانت الشوارع الضيقـة المظلمة بمقام نصف الاحتياطات المتخذة للاحتماء من شدة القيظ . وكان السكان المواطنون في العراق يعتزون في جميع الادوار بمدنهم وقراهم ، ويودون الاختلاط الاجتماعي المؤنس الساذج . ولم تكن البلديات التي على أحدث الانماط قد وجدت بعد ، غير انه كان يوجد في كل مكان مجلس غـير رسمي مؤلف من السكان البارزين . وكان يمثل الطب السادة الذين كان دواؤهم الوحيد القرآن ، والحلاقون المستعدون بمواسيهم ومباضعهم ، والفألون الايرانيون الذين يصفون للمرضى الاعشاب أحياناً . وكانت التربية يتلقاها الطلاب تحت أقدام الملالي في مدارس الجوامع التي أسسها السلطان ، والتي عانت ما عانت في سبيل البقاء . وكانت واجبات الشرطة على عاتق الحامية الانكشارية التي يساعدهـا الحراس الخاصون ممن يعينهم التجار . وكان القاضي ، وهـو الوحيد للامور الجنائيـة والشرعية ، لا ينظر في حكمـه الا الى القانون الشرعي أعني الفقـه . فلم يكن عجيباً ان يكون التفسخ والحالة هذه عاماً . غير ان ما نسمعه من الرحالين[٤٠] من وجود الشرطة الشهماء الشفقاء يدلنا بلا شك على وجود النادر من القضاة العقـلاء النزهاء . فقد كان اتجاه الخدمات العامة ، في مثل هذه الأمور ، يتوقف الى أقصى حد ممكن على شخصية الباشا المتولي في كل وقت من الاوقات .

وعلى هذا كان الحكم فى المدن ســـلفيـاً (محافظاً) ان لم يكن تقهقريـاً (رجعياً) . وكان الضغط الديني هنا أقل منه في أي مكان آخر في تركية ، وان

---

(٤٠) تكسيرا ص٦٧ في بحثه عن ١٦٠٤

كان قد وجد شيء من الارهاب والاغتصاب فلم يكن ذلك مختصاً ببغداد ولا بذلك العصر • وكان اليهود والنصارى يدفعون جزية معتدلة لملتزم الضرائب • أما المسلمون فكانت ضريبتهم تؤخذ من الگمارك والدخوليات التجارية والرخص ومن حاصلات التمور والاغنام ثم من المكوس ورسوم السوق على الوزن والبيع • ولم يكن الباشا اقتصادياً ولا كانت الضريبة على أية قاعدة من القواعد سوى قاعدة الحد الأعلى العاجل من الغلة •

وليس عندنا الا القليل من البراهين الدالة على وجود الحكومة بين القبائل • على ان تمرد القبائل البصرية مما نجده مدوناً يدل على أحوال تشابه الاحوال السائدة في القرون المتأخرة • وربما كان ذلك أكثر شدة لان الذي كان يحاول ضبطها كان غريباً • وكان المسافرون من سورية يدفعون من الرسوم الى شيوخ القبائل المسيطرة أكثر مما كانوا يدفعونه للحكومة وهم على علم بأن الشكوى كانت شيئاً لا تحمد عقباه • وكان عطف الباشا أو الاغا هنا وهناك ـ بالخلعة أو منح الالتزام أو المعونة بحرب قبائلية ـ يقصده بعض الشيوخ في الديرات النائية • ولم تكن الوعود ولا التمنيات تكلف شيئاً حتى نحو من هو بعيد في السهل أو الهور • غير انه كان من الخطل البحث عن الطاعة النظامية والخضوع بولاء •

وكانت الحاميات العسكرية في هذا القرن تختلف باختلاف سير العلاقات مع ايران • فقد كان التوقيع على ميثاق الصلح في ١٥٥٥م (٩٦٣هـ) وفي ١٥٩٠م (٩٩٩هـ) يتلوه تسريح الجنود المستأجرة ، ورجوع سريات الانكشاريين أو السپاهيين الى استانبول ، وصرف الجيوش الاقطاعية الى مكانها • أما في سني السلم فلم يكن أحد من الباشوات ينفق ما في خزينته في اصلاح الحصون • الا ان القوات المسلحة كانت المعين الناعش للحكومة في جميع الاوقات • ولاجل فرض شيء من السلطة وقمع الحركات العشائرية كانت الحاميات ضرورية لكل بلدة • وكانت البلدان بأجمعها مهما كان حجمها بها حاجة الى سور طيني قوي فيه أبراج مثقبة • وكان عند كل من حكام المدن العواصم الاربع ثلة من المرافقين الشخصيين المسلحين وكتيبة أو أكثر من الحرس المجند محليا والمسلح بالبنادق التي كانت موجودة يومذاك • وكان هؤلاء دائمين ويتقاضون الاجور ، غير انهم

كانوا من الجيش المحلي ولا ينتمون الى الجيوش الامبراطورية[٤١] • وكان يكثر من هذه عند الحاجة اليها رؤساء التيمار[٤٢] • ولاجل تجريد حملة ما كان يجند الجند المأجور موقتاً من العرب المدنيين والاكراد القرويين • وكان على ملتزمي الاقطاع المتجمعين في سنجقهم ان يقدموا المساعدة المفروضة عليهم • على أن قوام كل هذه التشكيلات كان جيش السلطان الذى كان يدير أموره ضباط السلطان نفسه لا ضباط الباشوات • وكان المدفعيون الامبراطوريون هم الذين يعتصمون بأكبر الحصون فيزيدونها قوة كما كان المشاة الامبراطوريون ــ الانكشاريون ــ موجودين في كل سنجق • وكان هؤلاء بنظر العراقيين أقوياء بتدريبهم وأسلحتهم ومكروهين من جراء جورهم ونزاعهم • وكان واجبهم في الولاية أن يدعموا الحكومة • فقد كانوا هم الشرطة في البلد والرسل الرسميين وجباة الضرائب حين تدعو الحاجة للقوة والاخافة ، زيادة على كونهم الجيش الموجود في كل مكان • ولم يجرب الاختصاص المفيد في العمل ، على أنـه لم يكن قد حان بعـد في ذلك العهد اليوم الذي يمكن أن يعيش فيه الانكشاري بأي مكان وجد وعلى أية حالة كانت مع كونه ما يزال منخرطا في سلكه • ومن المحتمل انه كان في بغداد ، في هذا الوقت ، ألف أو الفان منهـم ، وفي مركز الايـالات الاخرى نصف هـذا العدد • وكان يزداد عددهم أو يبدلون أحياناً بالوحدات التي هي أقل منهم منزلة كالصكبانيين وغيرهم • وكانت الجيوش الامبراطورية تتقاضى كالمحلية أجورها من خزينة الباشا ولكن بأسعار امبراطورية •

---

(٤١) ان الأسس العامة للقوات العسكرية التركية تميز بين الجيـوش الامبراطورية والمحلية • فالاولى وهي ال (قپو قولي) كانت وحدة مركزية تعار او تعين موقتاً فى الولايات • وكانت هذه من الانكشاريين من هم أحـط منهم من الصكبانيين والبستانجيين وغيرهم ممن ضـم الى الانكشاريين مؤخـراً • ومن النظاميين (لا الاقطاعيين) كالسباهيين والطوبجية والجبهجية والسقائين أمـا الجيوش البلدية فقد كانت تضم الحرس الشخصي والجنود المأجورة والوحدات العشائرية لاحد الباشوات ، ثم القوات الاقطاعية أيضاً من الوجهة العملية مع أن صبغة هذه أمبراطورية في الحقيقة •

(٤٢) راجع قائمة الكلمات الغريبة فى آخر الكتاب ــ المترجم

وكما كانت الحكومة الامبراطورية ملكية أوتوقراطية متمتعة بالتأييد الديني كانت الحكومة في كل ولاية حكومة مطلقة • وكان في الولايات النائية على الاخص قليل مما يمنع الباشوات الحاكمين من « الحكم حسب ارادتهم وأهوائهم » كما يقول أحد السياح • ولا غرو في ذلك فاذا فقد المبدأ الحكومي الحقيقي الرحيم ، واذا انعدمت الرغبة في حكم شعب خاضع بمصلحته ، فان روادع الحكم الجائر لاجل الغنى الشخصي تكون قليلة • وقد كان في الامكان أن يستعمل تأييد المراجع الدينية سبباً لمعاملة الاجانب معاملةً قاسية • وكان الباشا مسوقاً بدافع نفقاته الباهظة لديوانه الى الضغط على الشعب عامة بطريقة جائرة • على أن هذا لا يعني انعدام الوازع البتة • فقد كان وجود القاضي المعين سنويا ، الراجع الى العاصمة بعد انقضاء المدة ، شاهداً دائماً بأساليب الباشا وطريقته في الحكم • وكان الدفترداريه ، على نفس الشاكلة ، يعينون من استانبول واليها يبعثون بحساباتهم ، الا انهم من حيث العمل كانوا يجدون أنفسهم مدفوعين لمساندة الباشا الذي تكون حياتهم بيديه • ولم تكن استغاثة جماعة من التابعين أنفسهم بالسلطان غيرمجهولة• على ان الديوان كان يستشار أحياناً ولا يستخف به تماماً • فتشير المصادر التاريخية الى أن موظفاً دائماً في بغداد وحلب كان يبعثه السلطان نفسه ليشرف على مصالح التجار ، كما انه كان في امكان تجار البصرة أن ينصفوا باستعداء الوكيل البرتغالي في العاصمة على ظلمهم • وأخيراً فقد كانت حالة الانكشاريين نصف المستقلين تحدد تصرفات الباشا الذي لم يجدوا ما يبعثهم على مجاملته • وكان أقوى هذه الروادع كافة الحد الاقصى الذي كان يصل اليه تحمل الشعب • ولم يكن هذا بعيد على بلاد ملأى من القبائل الشرسة الشابة عن الطوق • وكذلك لم يكن بوسع أي باشا كان أن يقف تجاه ثورة عامة وقفة المقاوم •

وكان تعيين الباشا يتجدد نظرياً في كل سنة ، لكن حقيقة الأمر من الناحية العملية هي أن الموظفين الكبار كان لا يمكن تبديلهم لان قسماً منهم كانوا موالين ومفيدين وقسما آخر كانوا يشترون المناصب لمدة أطول من المعينة • وكان السبب الاخير هو الاعتبار السائد في مثل هذا الشأن • فان تعيين بكلربكي لحكومة كبيرة ـ القاهرة أو بغداد أو تبريز ـ كان أمراً مشرفاً وعظيم الفائدة • وكان يحدث في كثير من الاحايين ان السلطان لا يقوى على مقاومة المرشح الذي يدفع

مبلغاً جسيما من الواردات سلفاً • وبذا كان الانتقال سهلاً من هذه الى الرشوة الصريحة ، وكان تأثيرها في حكومة الأيالة المتكونة عن ذلك لا يختلف عن تأثير الرشوة نفسها • فكان هم الباشا الجديد ، خلال مدة تزيد على الثلاثة قرون ، ان يقسم الاراضي في ولايته الى العدد المعتاد من المقاطعات القابلة للزراعة فيؤجرها أعلى المزايدين • ولم يكن الفرق واضحاً بين الحكام والزارعين ، حتى أنهم أحيانا كانوا يجمعون بين المهنتين • فكان هذا السنجق بگي أو ذاك ، وذلك الاغا أو الضابط ، يأتي بمائة من انكشاريته الى الحلة مثلاً ويؤجر أراضيها وضرائبها ثم يستعمل قوته في أجبار الناس على الدفع أو يضمن الضرائب الى الجباة القاسين •

والواقع ان الادارة في الولاية كانت في دور انتقالي بين أصلها بكونها مجموعة اقطاعية ، ومصيرها الاخير بأنها حكومة اعتيادية • فقد كانت علاقات الحاكم بسيده السلطان من حيث جمع القوات تحت لوائه كعلاقة البگلربگي القديم • فهو يدعو السناجق التابعة له وتدعو السناجق نفسها الزعماء ورؤساء التيمار وهؤلاء يدعون أغوات البلدان الصغيرة والشيوخ المطيعين • غير ان الباشا في هذا العهد كان أكثر من رئيس للجيوش الاقطاعية المؤجرة • فقد كان جابياً لواردات السلطان أيضاً ، وسادن العتبات المقدسه وأوقافها ، وسيد القصر وجماعة الوزراء ، ورئيس مجلس • وهو المسؤول عن جميع الاعمال ، حتى الطفيفة منها ، التي تقوم بها حكومته الملكية والعسكرية • وكان يعيش من أول دخوله المهيب الى حين تبديله أو تحويله عيشة الامير المستقل •

الفصل الثالث

الصوباشي والسلطان مراد

بكر الصوباشي

ان كان قد قُدر للعراق أن يقع في هذا العهد ، بعد مرور سبع وثمانين سنة على فتح سليمان القانوني له ، فريسةً للانفصال السلمي من جهة وللخيانة المنتهية باحتلالٍ فارسي ثانٍ من جهة اخرى فان سبب ذلك يجب أن يُبحث عنه في الولاية نفسها فقط . فان بعده ومشاكله الخاصة به توضح لنا قسما كبيراً من الاسباب . كما ان ضعف الامبراطورية العام لم يكن أقل تأثيرا في تمهيد الامر لذلك الوضع . لان التوقيع على معاهدة الصلح في ١٦١٩م (١٠٢٩هـ) مع ايران لم يعقبه سلم في تركية . وكان السلطان مراد الرابع في تلك الايام ما يزال طفلاً ، بينما كان أسلافه الضعفاء قد سمحوا للفوضوية أن تجمع قواها من كل جهة .

« وكان الثائر أباظة سيد آسية الصغرى وطاغيتها . وكانت القبائل اللبنانية في عصيان علني . وكان حكام مصر وسائر الولايات مترددين في ولائهم . وأصبحت حاكميات البربر في حكم المستقلة ... وظهرت أساطيل القوزاق السلابة ... حتى في البوسفور وعاثت نهباً في ما جاور العاصمة نفسها . وفي القسطنطينية نفسها كانت خزانة بيت المال فارغة ، ودار الصناعة معطلة ، والعملة النقدية لا رواج لها ، والمخازن خاوية ، والسكان جياعاً والجيش مشتتاً »[1] .

وفي بغداد ، الزاوية النائية من امبراطورية في مثل هذا الذهول، كان اغتصاب

---

(١) ما كتبه كريسي ص ٢٤٦ .

الصوباشي للحكم ممهداً لتسليم العراق الى الشاه مدة نصف جيل[٢] . ومن أجل هذا وحده تعتبر هذه الحادثة ، التي ظل الناس يتذكرونها على مدى الأيام ، حادثة مهمة . أما في تاريخ البشرية نفسها فان قصتها قمينة بأن يحجز لها مكان بين قصص الخيانة والغدر الخالدة .

كان بكر من انكشاريي بغداد فأوصله الترفيع الى درجة صوباشي[٣] ، أو

---

(٢) ان الدور الذي قام به الصوباشي هو أشهر الادوار في تاريخ العراق الحديث . وأخباره بكل تفصيل في ما كتبه كولشن وفي المراجع التي استعان بها الفون هامر (الكتاب التاسع صفحة ٥) وهذان المرجعان مستقل أحدهما عن الآخر ويختلفان كثيرا في التفصيل . راجع أيضا كتاب « رحلة الشرق » لمؤلفه ر.ب. فيليب ص ٨٧ـ٨٨ . وفيما يخص ايران راجع « تاريخي أعلاي آرايي عباسي » لمؤلفه اسكندر بك تركمان .

(٣) ان هذا اللقب مهما كان أصله أو معناه الذي يؤدي معنى « موظف ري أو محافظ على ماء » فقد أصبح على ذلك العهد لقباً من القاب الشرطة انظر ما كتبه الاب انستاس حاشية (ص ١٧٩) ، وما كتبه تكسيرا (ص ١٠٣) ، وما كتبه هوار في حاشية ص ٤٨ (المؤلف) قال مصطفى جواد صوباشي تحريف سباشي الكلمة التركية القديمة قال الخوارزمي في كتابه « مفاتيح العلوم » « سباشي هو صاحب الجيش » .

وكان هذا الاصطلاح اللقبي لرئيس الجيش في عهد البويهيين أيضاً قال ابن الاسير في حوادث سنة ٤٠٨هـ من الكامل

« وفيها توفي الحاجب أبو طاهر سباشي المشطب وكان كثير المعروف » وذكره الصفدي في « الوافي بالوفيات » فقال

« سباشي التركي أبو طاهر الحاجب الملقب بالسعيد ذي الفضيلتين مولى شرف الدولة أبي الفراس بن عضد الدولة أبي شجاع الديلمي كان كثير الصدقة متفقداً للفقراء ، قال محب الدين ابن النجار حتى ان أهل بغداد الى يومنا اذا رأوا على أحد ثوباً جديداً قالوا ، رحم الله السعيد ، كان يكسو المساكين وهو الذي بنى قنطرة الخندق وسد بثق الخالص وحفر ذنابة دجيل وساق منها الماء الى مقابر قريش (الكاظمية الآن) وعمل المشهد بكرخ زادويه قرب واسط وحفر المصانع (خزانات الماء) عنده وفي طريقه وله آثار بطريق مكة .. وتوفي سنة ٤٠٨ ثمان وأربعمائة » .

ملازم في الشرطة • ثم صار رئيسا في سريته ، وصار له من بعد ذلك مقام ممتاز في الحامية • وقد اجتمعت ثروته ومحالفاته بطموحه الذي لم يكن يعرف الرحمة فعظم شأنه كثيراً • فكان الف ومئتا عزاب[4] طوع اشارته • وفي ١٦١٩م (١٠٢٩هـ) تعالت سلطته فتفوقت على سلطة الحاكم الضعيف يوسف باشا فأصبح ملك بغداد غير المتوج الذي يوحي بالاخلاص أو بالكراهية ، والمعرض لدسائس الحساد • ودفعت به شؤونه في ١٦٢١م (١٠٣١هـ) مع قوة من العزابين والانكشاريين الى منطقة الفرات الاسفل • في حين ان كان موظفو بغداد يرقبون حركته الى هناك برؤوس منغضة ، وكان لهم متسع من الوقت يتأملون به أطماعه وجوره وحالهم من ورائه • وكان رأس المتذمرين خصم له قديم هو محمد قنبر • وكان في امكان قنبر أن يعتمد على تأييد قوي في كراهية هذا القرظ « الحديث النعمة » • ولذلك دعي الضباط وأشراف المدينة الى اجتماع سري اتفق الجميع فيه على خلع الصوباشي • فنقلت أخبار هذا الائتمار الى كهيته عمر والى ابنه محمد[5] • فلم يكن بوسع عمر أن يعترف بما كان يكنه من ولاء للصوباشي ، فتظاهر بأن يعرض قضية عزله على الباشا • على ان هذه

وللمحقق يعقوب سركيس كلمة أيضا نشرها في مجلة الشهباء الحلبية رد بها قول من قال أن السباشي هو رئيس مزودي المدينة ماء « وابان انها وظيفة انضباطية كوظيفة مدير البوليس (كذا) معتمدا على دائرة المعارف الاسلامية والدكتور والتر الذي طبع كتابه سنة ١٨٦١ وغيرها ، وذكر ان أهل الحلة اليوم يسمون الوكيل في البستان « شوباصي » وهي عندي تحريف « سوباغي » أي رئيس البستان لا من أصل « صوباشي » •

(٤) هذه ثلة من الجند وكلت اليها مخازن البارود أصلاً ، لكنها هنا تدل على قسم من الجيش المستأجر الخفيف الاسلحة والحركات •

(٥) ان الدور الذي قام به ابنه محمد مشكوك فيه • وتذكر الروايات التي اعتمد عليها الفون هامر انه شريك في المؤامرة ثم قائد للهجوم الذي شن على يوسف باشا في قلعته • غير ان كولشن يعتقده موالياً لابيه • وهذه هي الرواية التي اعتمدنا عليها في هذا الكتاب • ومن المحتمل ان ما كتبه الفون هامر كان مستنداً الى خيانة محمد الاخيرة

الاعترافات الظاهرية لم ترج على المتآمرين ، فقد كانوا يشعرون بأن عمر هو يد الصوباشي اليمنى ويجب أن يكون أول من يقضون عليهم • فلازم قنبر بنفسه يوسف باشا وأفهمه بأحزاب بغـداد ، وبأن عمر مع اتباعـه الكثيرين يجب أن يحسبوا من حزب بكر ، وان أطماع بكر لا يمكن أن تقف عند الباشوية بل تجاوزها • فأغرى يوسف باشا به ، غير انه حاول بكل سخافته أن يغنم عمر بأن يدر عليه شتى الانعامات • فأضاع الوقت الثمين ، وجمع حزب الصوباشي أتباعه بقيادة عمر ومحمد ، ثم أغلقوا الابواب وحاصروا الشوارع واستولوا على أبنية ذات مواقع تعبوية • وكابدت قطع جيش الباشوية المخلص ، المتجمعة في الميدان والقلعة ، خسائر فادحة • وأدى خروج رجال الباشا هاجمين الى نشوب معركة حامية في الشارع انتهت بانتصار الثائرين • فشُدد نكير الحصار على القلعة •

واذ ذاك رجع قنبر الى تدبير آخر • فأرسل بصحبة رسول سري مسرع كتاباً لابنه الـــذي كان في الحملة مع بكر ، وطلب اليـــه فيه ان يقتــل بكراً • غير ان الكتاب وقع بيد الصوباشي وكانت حملته على العشائر قد انتهت بالنصر • فسار مذعوراً الى بغداد ، وعبر دجلة تحت وابل شديد من نار القلعة التي ضعفت فيها آمال المحاصرين بالتدريج ، ثم تلاشى رجاؤهم بالكلية عندما قتلت رصاصة طائشة يوسف باشا •

فاستسلم قنبر لخصمه القديم بعد أن وعد بسلامة نفسه • ولم تبق جيوش بكر المتدفقة الى داخل القلعة شيئاً ولم تذر • وفر قليل من جند الحامية الى الشوارع والى البادية ووقع الكثير منهم في الاسر • وأبدى بكر لقنبر وابنيه منتهى الكراهية والأنتقام القاسي • فقد قيدوا بالسلاســل ووضعوا في زورق مملوء من الكبريت والقار ثم أحرقوا فماتوا أشنع ميتة • وبذلك شفى بكر غليله بقتل أعدائه برؤية العين وسمع الاذن حتى غطست آخر ذرة من الرماد في دجلة• ولاقى سائر الاسرى مثل ذلك من سوء المصير • فرددت ألسنة الناس يومذاك اسم هولاكو وتيمور • وكان بين الضحايا البشرية مفتي بغداد الموقر • وغدا الصوباشي سيد بغداد غير المنازع واعتمد على خزائن السراي •

على ان هذه لم تكن النهاية ، فان استانبول لم تسمع بهذه الوقائع • وفي غضون هذا ابرز بكر فرماناً مزوراً وأعلن تعيينه للباشوية • وراسل في الوقت

نفسه حافظ أحمد باشا ، بگلربگي ديار بكر ، والسلطان نفسه • وقد ذكر بكتبه هـذه انه أنقذ بغداد من الانشقـاق والعنف وخلص الامبراطورية من الخائن يوسف باشا ، وطلب حاكمية بغداد مكافأة له • وبينمـا كان رسله ما يزالون مجدين في السير نزلت على المدينة ضربات قوية • فقد سبب الخوف هروب كثير من الفلاحين الى البادية ، وشحت الامطار ، فحلت المجاعة • وتقاطرت من نجد الالوف الجائعة مما زاد في شدة وطأة المجاعة المميتة في أواسط العراق • وتلا نهب مخازن الذخيرة كل أنواع المنكر ، ولم يخل الحال من أكل الناس اللحم البشري • وبعد أسابيع مفعمة بالتعاسة انفرجت الازمة • فقد تزودت بغـداد الطعام من القطعان الواردة من ايران وما حمل على الأكلاك المشحونة من الموصل•

ووصل في ذلك الوقت رسل الصوباشي الى ديوان السلطان • ولم ترج تدابير الصوباشي على الصدر الاعظم المير حسين ، فأنعم بحاكمية بغـداد عـلى سليمان باشا • ثم أرسل رجلاً يدعى علي آغا بوظيفة متسلم ليتسلم بغــداد ويحفظها حتى وصول الحاكم الجديد ، وبعث بالأوامر الى حافظ أحمد في ديار بكر ليساند سليمان باشا بجيوشه • فوصل علي آغا الى بغداد ، غير ان الصوباشي لم يتورع عن قتله •

ووصل في تلك الايام سليمان باشا الى ديار بكر حيث كان حافظ أحمد قد جمع باشوات الموصل وشهرزور ومرعش وسيواس • وكانت قوته مؤلفـة من عشرين الف مقاتل • وانظمت اليه قطعات البگات من الاكراد • وفي مجلس حربي عقد بعد ذاك في ديار بكر شرح ضباطه أوجه الخطر في الحملة • فاستدل حافظ أحمد على فسـاد تلك التحذيرات وأمر بالمسـير • ثم تريث الجيش في الموصل ، فاستعرضت فيها القوات الكردية • ووصلت قطعات العمادية وسيواس ، وانتظر طويلاً وصول قطعات أورفه ومرعش • وبدأ الجيش في الموصل يعانـي وطأة المرض • وبلغ حافظ أحمد ان الناس في استانبول بدأوا يتهامسون بانه نكص عن بغداد خوفاً من المتمرد أو ارتشاءً بذهبه • فلم يسعه ــ والحالة هذه ــ أن يتأخر أكثر مما تأخر • فتحرك الى كركوك ، ومن هناك بعث قبله جيشاً مـع سليمان باشاوبستان باشا[٦] وبصحبتهما رؤساء آل سوران الشرفاء • وبعد وقفة في

(٦) والي الموصل في (١٦١٩م ١٢٩٦هـ) (تقويم الموصل)

بهرز وصل هؤلاء الى سور بغداد وخيموا في شمال المدينة بالقرب من الاعظمية[7] .

أما الصوباشي فقد بقي داخل السور في أول الامر ، ثم هجم هجمة مفاجئة على محاصريه ففرقهم وأزاحهم الى معسكر أبعد من الاول . وانتهت معركة عنيفة وقعت في اليوم الثاني بانتصار الثائر . ثم انسحب الى داخل السور ، وجمعت قوات السلطان شملها فخيمت بالقرب من ديالى . وبعد أيام قلائل انضم اليها حافظ أحمد وقسم كبير من الاتباع الاقطاعيين الذين كان فيهم جميع الحكام الوراثيين للدويلات الكردية . وكبس السردار بهجومه حالاً ، وبخدعة مدبرة استدرجت حامية المدينة الى الفضاء . ثم دام القتال بين الجيشين مدة يوم وليلة تخلصت بعدها الحامية راجعة الى داخل السور بعد ان تركت وراءها في الميدان أربعة آلاف بين قتيل وجريح . وحرض الرؤساء الاكراد قائدهم على متابعة الهجوم الى الداخل حيث امتلأت المدينة من البكاء والعويل . غير انه رفض هذه المشورة الصائبة ورجع الى معسكره . وأظهر صرامة حكمه للمدينة التي حكم فيها مدةً من قبل بذبح الاسرى ذبحاً طائشاً وبقطع رؤوس الموتى . وأضاف الى اشمئزازه الشغب الحاصل بين أتباعه غير النظاميين فأزاله بسخائه بعد شق النفس .

وكانت المفاوضات قد جرت من قبل بين القواد من الطرفين . فلم يقنع بكر من شروط الصلح بغير الباشوية ، ذلك الامر الذي لم يدر في خلد أحد . ثم قل الطعام في بغداد وضعفت الحامية . فالتجأ الصوباشي لدوره الرفيع في الخيانة ، بأن بعث رسلاً الى ايران يحملون مفاتيح المدينة الى الشاه عباس ، فقوبلوا بزائد السرور . ثم أرسل الشاه بالاوامر المستعجلة الى حكام كردستان وأردلان وأفشار التابعين له بالانضواء تحت لواء صفي قلي‌خان حاكم همذان . فكون منهم جيشاً سار به بسرعة فوصل الحدود ، ولم يدخر أي وسع في اغتنام الفرصة ، التي نزلت من السماء ولم تكن في الحسبان ، لاستعادة العراق وعتباته المقدسة .

---

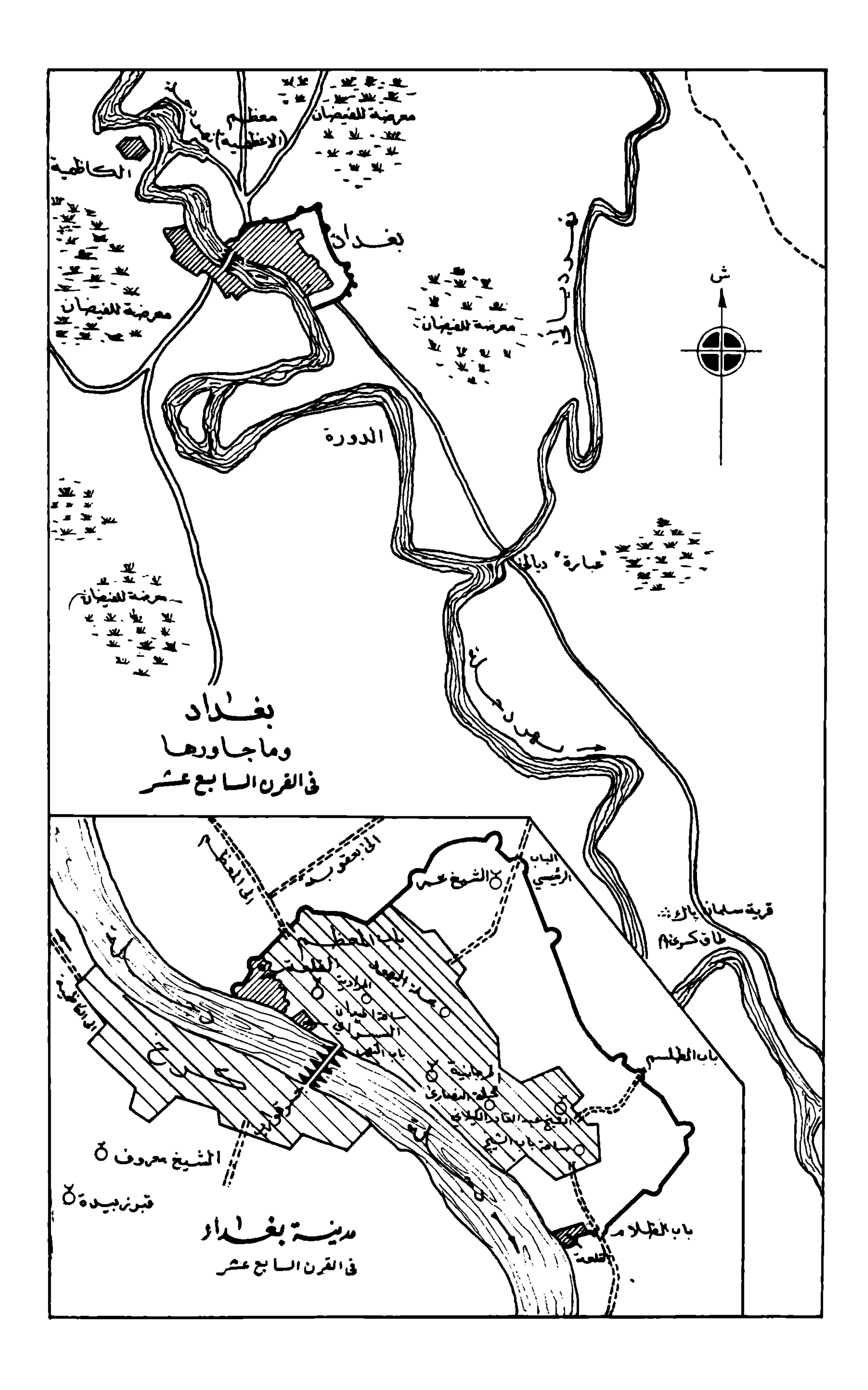
(٧) وفيما يختص بالحركات التالية ترجع رواية الفون هامر (المبنية على روايتي نعيما وپشاوي) على رواية گولشن التي تتضمن أشكالا طوبوغرافية ووقائعية .

وبينما كان أول جيش ايراني على مقربة من شهربان بقيادة قرچغي خان ، ورسول الايرانيين قد وصل بغداد واستقبل فيها ، اتصل الصوباشي بقائد القوات المحاصرة وطلب اليه الاتفاق على دفع العدو عن بغداد وهو العدو المشترك. فتكرر ارسال المتفاوضين بينهما الا انه لم يكن بوسع حافظ أن يعترف بهذا المغتصب كبگلربگي على بغداد ، كما لم يقنع هو بأقل من ذلك . فتأيد الخطر الايراني حينما كانت الجيوش المحصورة في الداخل قد نهكت قواها وتقرحت أقدامها . ثم وصل رسول من قرچغي الى المعسكر التركي معلنا ان « بغداد قد أصبحت ايرانية . فهل للباشا أن ينسحب من جوارها ليدوم السلم بين الامتين ؟ » فرد عليه السردار يقول « ان هذه ليست بأرض ايرانية ونحن نقوم بواجب تأديب ثائر من الثوار » . فعاد الايراني الى سيده مردداً كلمات الوعيد .

وكان لابد من ايجاد حل للوضع المعقد لتقاطر جيوش الشاه الواردة من الشرق . فعقد المجلس واستقرت الآراء على منح بكر الباشوية . ونظم بعد ذلك حافظ أحمد ـ السياسي التركي الصميم ـ فرمانات بمعنى مخالف ، وهي تسمية بكر حاكماً للرقة . غير أن حامل هذه الوثائق الى الصوباشي قوبل بهياج ونكير ، واستطاع بعد لاي أن يهرب ليخبر مرسله بالرفض الشديد . وبقي السردار على امتناعه من الاجابة الى الامر الاخير لولا انه وصلت اليه أنباء لم تطل له فرصة الرفض . فقد جاء جاسوس أو هارب بأنباء مفادها ان بكراً أخذ يسك النقود باسم الايرانيين . فانجلت خيانته وصارت واضحة للعيان ، على ان الوضع لم يكن أقل حرجاً من ذلك . اذ بات من الواجب أن تصد جيوش الشاه. فقلد خائن رذل باشوية بغداد العظمى .

الاحتلال الايراني الثاني

كانت بعثة صفي قلي ما تزال في بغداد . ولما كانت توجس خيفة من العدو المرابط في الخارج أصرت على حصول جواب نهائي من الصوباشي . فما كان منه ، بعد أن حصل على الفرمان بيده ، الا ان أملى رسالة ملأى بالاغراق في التحقير والتهكم . فوصلت الى صفي قلي الذي قرأها باندهاش وغضب . ثم أرسلها الخان الى الشاه الذي دعا قواته من كل ولاية لتوافيه على الحدود . وفي هذه الاثناء كان الصوباشي يصلب الايرانيين منكسين الى أسفل من أسوار



معظم
(الاعظمية)
الكاظمية
معرضة للفيضان
بغداد
معرضة للفيضان
الدورة
عبارة ديالى
قرية سلمان باك
طاق كسرى
بغداد
وماجاورها
في القرن السابع عشر
الى المعظم
الى بعقوبة
الباب الرئيسي
الشيخ عمر
باب المعظم
القلعة
باب الطلسم
الشيخ معروف
قبر زبيدة
باب الظلام
القلعة
مدينة بغداد
في القرن السابع عشر

بغداد بقسوة متناهية . أما حافظ أحمد فقد قفل راجعاً الى الموصل. .

وظهر قرچقي خان أمام الاسوار فطلب الاستسلام . غير أن بكراً أجاب بكل طلاوة ورقة بأنه مستعد لدفع نفقات الحملة الايرانية ليس إلا وليس من الممكن تسليم بغداد . فوصل الشاه الى بغداد والموسم الحار لسنة ١٦٢٣م (١٠٣٣هـ) كان قد بدأ منذ حين . فوجد ان جيش الحامية قد اندحر بشدة عند أول اشتباك . ولم تجد الرسائل اليائسة التي بعث بها الصوباشي الى دياربكر واستانبول آذاناً صاغية . وأخذت المجاعة شكلاً مروعاً في المدينة . فقد أكل الناس لحم الكلاب والاطفال وجثث الموتى . فضغط الحصار بشدة وامتلأ الجو بدوي الالغام المتفجرة .

وبدأ الشهر الثالث للحصار . وكان الهاربون من المدينة الى المعسكر الايراني يتسللون ليلة بعد ليلة ، وكان من جملتهم أقارب الصوباشي نفسه . وبواسطة هؤلاء فتح محمد ابنه ، الذي كان دفاع القلعة مناطاً به ، مفاوضات سرية مع الشاه . فوعد بولاية بغداد جزاء للخيانة الدنيئة التي كان يفكر فيها . وفي الليلة الثامنة والعشرين من شهر تشرين الثاني لسنة ١٦٢٣م فتح الأبواب فدخلت منها الى المدينة الالوف من الجنود الايرانية[٨] . وما حل فجر تلك الليلة

---

(٨) قوله « وفي الليلة الثامنة والعشرين من شهر تشرين الثاني سنة ١٦٢٣ فتح الابواب فدخلت منها الى المدينة الالوف من الجيوش الايرانية » نقول فيه ان ياسين ابن خيرالله العمري قال في الدر المكنون في المآثر الماضية من القرون : « وكان باكير قد ترك بالقلعة ولده محمد بك فلما رأى الغلبة أرسل للشاه عباس يطلب الامان لنفسه ويسلمه القلعة فأمنه وفتح محمد باب القلعة ليلا وأدخل عسكر الشاه اثنين اثنين حتى امتلأت القلعة ولما أصبح الصباح دقت طبول الشاه بالقلعة فأيس المسلمون من الحياة ودخل الشاه عباس بغداد ووضع السيف في المسلمين وقتل الخبيث باكير وأخاه علي أغا القاضي والنائب السيد محمد وقتل من أهل بغداد ما يزيد على أربعين الف نفس ثم نادى الشاه بالامان وجمع كتب أهل السنة والقاها في الدجلة حتى مشى عليها الناس ثم أمر بهدم قبة الامام الاعظم وقبة الشيخ عبدالقادر الكيلاني وملك بغداد ... » .

فقول ـ ـ ن العمري « أدخلهم اثنين اثنين » يستوجب أن يكون ضيقاً وقد

حتى كان كل سطح وكل منارة ترتفع فيها أصوات الطبول الايرانية • فنودي بالشاه ، ووعد بالامان وازيل الرعب ، وفتحت الاسواق •

وان كان أحد يستحق الموت الشنيع فانما هو الصوباشي نفسه • فما ان جيء به مكبلاً بين يدي الشاه حتى رأى ابنه محمداً جالساً بانتصاب الى جنب الشاه فأنصت الى تقريعه وتأنيبه • ولم تترك أية وسيلة وأي نوع من القسوة في تعذيبه وقتله في وقت كان محمد ابنه يرى ذلك رأي العين ويساعد في تنفيذه •

ولم يكن الامان الذى وعدت به المدينة الا خدعة • فقد طلب جميع الأسلحة وقبض على جميع الجنود وآلاف من السكان السنيين ، واستعمل التعذيب للاغنياء • وضحى مئات أو الوف من الناس بأنفسهم في سبيل عقيدتهم • ثم بيع الوف من الناس والاطفال كالعبيد فاختفوا في ايران الى الابد • وتمكن من يعد على الأصابع من السنة ذوي الهمة من الفرار والالتجاء الى تركية[9] • وكانت كراهية الشاه الدينية تزداد كلما ارتوت • وقد صرفت فكره ، عن نياته الوحشية بعدم ابقاء أي سني حياً ، التماسات قيم « كليدار » مشهد كربلا • فقد حصل السيد من دون صعوبة على حفظ حياة الشيعة في بغداد • وعند تقديم قائمة بهم ادخل في عدادهم

أوضح حقيقة الادخال المؤرخ البغدادي أحمد ابن عبدالله البغدادي في تاريخه « عيون أخبار الاعيان ممن مضى في سالف العصور والازمان » فقال « فقام بكر باشا بحفظ القلعة أحسن قيام لكن ابنه درويش محمد بعث خبراً الى الشاه عباس اني اسلمك البلاد ان انعمت بها علي • فوعده الشاه بذلك ففتح له « باب السر » التي في جانب الشط فدخل منها نحو عشرة آلاف شخص وضربوا البوق وقت السحر فلما تمكنوا من البلاد مسكوا بكر باشا وقتلوه أشر قتلة وقتلوا القاضي نوري أفندي وقتلوا من أهل السنة والجماعة خلقاً كثيراً ولقد رأيت جمعاً غفيراً ممن أدرك هذه الواقعة وكانوا يقولون ما سلمها درويش محمد للبلاد طمعاً فيها ، بل لما رأى من القحط والغلاء حيث أكلت الناس الكلاب • ثم ان الشاه أخذ درويش محمد الى العجم وعين له مرسوماً يعيش به فبقي هناك الى أن هلك » فالدخول كان من باب الشط السري ولا تزال آثاره باقية • «م•ج•»

(٩) يعتمد نعيما في تاريخه على روايات هؤلاء • وكان بينهم الشاعر نظمي والد مرتضى مؤلف كتاب گلشني خلفا (هوار ، المقدمة ص١ ، ص٥٨) •

كثير من السنة[10] • وسبب النضال الاخير خراباً في الأبنية ، فأصبحت المدارس اصطبلات وغدت البيوت خرائب ، وهدم مشهد أبو حنيفة ومشهد عبدالقادر الكيلاني •

فساد السلم تدريجياً واسست الحكومة ودب دبيب الحياة في أسواق بغداد وطرقها الضيقة • وبعد أن زار الشاه العتبات المقدسة رجع الى ايران • وترك صفي قلي[11] حاكماً على بغداد • وتقاطر التجار من همذان وتبريز • وقد مهدت لهم في الحال شيعيتهم وجنسيتهم الايرانية ، ومعرفتهم المنتجات الايرانية ،السيطرة على معظم التجارة • وبهذا استعادت التأثيرات الايرانية صولتها ، التي لم تفقدها بالكلية من قبل ، في الفن المعماري وفي بعض الصناعات • بينما ائتمنت العتبات المقدسة الشاه على نفسها لدرجة لم تتوصل اليها من قبل • وقبلت البلدان الحاميات الايرانية ، وتملقت قبائل البادية للقادمين الحديثين وغزتهم كما كانت تفعل بمن تقدمهم في الحكم • وأظهر مطلق ، أبو ريشة هذا الوقت ، شعوراً ما زال يميل ولاءً الى الترك • وكان لهذا التعلق قيمة كامنة لو عادوا ، كما كان التعلق المذكور عذراً يتعلل به عند الاستخفاف بمن جاء بعدهم • أما ناصر المهنا فقد رحب بالايرانيين وعدهم منقذين • على انه كان حاول بعد سنتين طردهم

---

(١٠) لكن هذه الاريحية لم تنقذ حياته من فتك الباشا التركي وتعصبه بعد ذلك فقد جاء في المجلد الرابع من (تاريخ العراق بين احتلالين) قوله

نقيب سادات بغداد السيد دراج كان سادن حضرة الامام الحسين وكان من الاعيان المشهورين ، وهو صاحب قوة ومكنة ، فلما استولى شاه العجم (الشاه عباس) على بغداد أحسن الظن به واعتقد فيه الاعتقاد الجميل ، فرعاه وأكرمه • فكان في مقام الخدمة • يفكر في العواقب ، فلم يغفل أمر العثمانيين وكان في ذلك الحين أراد الشاه أن يقتل أهل السنة قتلا عاما ، فتوسط السيد دراج فقال سأختار محبي آل علي ، وما عداهم فاقتلهم • وبهذه الوسيلة أنقذ خلقا كثيراً من القتل ••• وهذا العمل المشكور كله لم يمنع من قتله بعلة أنه كان شيعياً معروفاً بتشيعه ، فلم يتحمل شهرته ومكانته بل اتخذ ذلك وسيلة للقضاء عليه ، واستولى على أمواله الوافرة •• انتهى (الص ٢٤٠) • وكان هذا الوالي يدعى درويش محمد باشا — المترجم

(١١) هكذا يقول گولشن ، أما نعيما فيذكر اسم صاري خان •

من كربلا • ووضعت الحاميات في السماوة وحسكة والحلة والعتبات المقدسة • وطردت حامية عانة علـى يد أبي ريشـة • ولم يكن الخانات أقل تشـدداً من الباشوات[١٢] في الضرائب • كما كانت حاميتهم أقل انتظاماً ، وعليهـا الصبغـة الأجنبية نفسها • وأعطى الايرانيون خلال نصف الجيل الذي حكموا فيه كثيراً من الاراضي على سبيل الهبة وعدةً من الامتيازات الاجتماعية ، فألغاها بعدهم السلطان مراد •

وسورع بأرسال قرچغي وقاسم خان الى أيالة الموصل وأيالة شـهرزور الشماليتين • ولما لم يجد بستان باشا في كركوك أملا في المقاومة الناجحة تراجـع الى الموصل وما وراءها • وبعد ان دوفع عن الموصل قليلاً قبلت قاسم خان حاكماً عليها • وتحرك هذا الى دياربكر غير انه لم يفلح بأخذها لا بالهجوم ولا بالحيل• وهناك ارتد المد ، اذ بعث حافظ أحمد الالباني الشجاع أحمد الصغير لاسترجاع الموصل • فتراجع الخان على عجل قبل أن يتقدم خصمه ، وبذا أصبحت الموصل عوداً على بدء ملك السلطان • وعين سلمان ، ابن أخي الالباني ، حاكماً في الموصل[١٣] • وبقيت كركوك أكثر من تلك المدة بشهور ترزح تحت حكمٍ كان بغيضاً لسكانها من الترك والاكراد •

حافظ احمد[١٤]

لم يكسب احتلال بغداد الايرانيين الفخر ولا الثروة ، لان حقبتهم لم تعرف بأعمال التحسين ولا العمران • وحافظ انعدام الامن في أواسـط العـراق وفي

---

(١٢) راجع ما كتبه فيليب ص ٣٣ • يظهر ان هـذا القسيس الكرملي الافرنسي هو الاوربي الوحيد الذى كتب في أخبار العراق في هذه السنين

(١٣) ان تاريخ هذا التعيين في تقويم الموصل هو ١٦٢٥م (١٠٣٥هـ) وربما كان ذلك بتأخر سنة واحدة

(١٤) المراجع يستقي الفون هامر (الكتاب الحادي عشر) من نعيما ومن تواريخ ثلاثة خاصة بحملة بغداد كتب اثنين منها عبدالعزيز قره چلبي زاده وكتب الثالث نوري • وما كتبه گولشن مفصل ومهم • ويستقي باش أعيان من گولشن• ثم راجع ما كتبه ثيڤنو « رحلة الى سواحل البحر المتوسط » (١٦٤٥) ص ٥٦٩ ـ ٧٠ ، وتافيرنيه ص ٨٤ ـ ٨٥ ، وبويه ـ لغوز ٣٢٣ ـ٢٥ ، وفيليب ص ٣٨ و ٨٨ ، ٢٨ ـ٢٩ وغيرها من المراجع •

البادية على مستواه الاعتيادي • وبينما كانت الجيوش التركية متمسكة بكركوك والموصل ، وثابتة لعدة سنين حوالي سور بغداد ، كان صفي قلي خان يقل اقتداره في ضبط كل شيء سوى العاصمة وطريق الزوار الى العتبات المقدسة •

وكان طموح البلاط العثماني ملحاً في استعادة بغداد منذ اللحظة التي ا ضيعت فيها • وقد عهد بتحقيق ذلك في ١٦٢٥م (١٠٣٥هـ) الى حافظ أحمد الذي تولى الصدارة العظمى في السنة المنسلخة • وبعد حملة لوثت بالخيبة والشغب وبعدم الروية ترك الواجب • ولم يصادف خسرو باشا في خريف ١٦٣٠م (١٠٤٠هـ) نجاحاً أحسن • وبقيت الحالة على ما كانت عليه حتى قيض الله لبغداد ان فتحها پادشاه مخيف بعد أن سار بنفسه الى العراق مع خيرة القوات الامبراطورية •

وبقي حافظ أحمد مدة طويلة في ديار بكر ولم ينفك عنها منذ تعيينه فيها ، حتى ان براءة الصدارة العظمى التي تقلدها وصلت اليه وهو في ولايته هذه • وفي أيار ١٦٢٥م نصب مخيم جيشه خارج ديار بكر ، فدل ذلك على عزمه في السير الى بغداد • وضربت الضربة الاولى من بعد ذلك عند ارساله جركس حسن لمناوشة الايرانيين في كركوك حيث هزمت قوة صغيرة من الجركس العشرة آلاف من الايرانيين واحتلت كركوك • وبذلك طهرت أودية شهرزور من قوات الشاه ان لم نقل من نفوذه أيضاً • وتولى بستان باشا ثانية حكومة الولاية •

وقضى جيش الوزير الرئيس الصيف في المعسكر حيث وردت أنباء تفيد ان جند حامية بغداد رخص لهم زيارة النجف بمناسبة احدى الزيارات الكبرى ، فظلت المدينة مفتقرة الى معظم المدافعين عنها • وبناء على هذه الاخبار ارسل الياس باشا ، بگلربگي الاناضول ، مع قوة خفيفة ليقطع طريق ما بين بغداد وكربلا بغية منع المدافعين عن الرجوع ، ففشلت المحاولة ، غير انه مما لا شك فيه ان ذلك العمل أضاف الى ضعف ثبات الايرانيين في الفرات وطرد حاميتهم مدة من الزمن • وفي هذه الاثناء عقد مجلس حربي في معسكر ديار بكر فلم يسر فيه تفاؤل الوزير الا قليلاً • فقد صرح قائلاً « ان مفاتيح بغداد بيدي » ، حينما كان جنوده الحذرون مترددين في الثقة بالموسم الذى ستجري فيه الحملة ، وبخفة المدافع التركية ، وبقوة الحامية في بغداد • غير ان المسير قد بدأ • وعلم

في كركوك ان امدادات قوية قد أفلحت في الدخول الى بغداد بقيادة الرئيسين الايرانيين صاري خان ومير فتاح • واذ ذاك بعث القائد الايراني نفسه رسالة يناشد فيها الوزير التركي ، بلهجة تهكمية ، ان يؤخر احتلاله بمقدار الايام القلائل التي سيستغرقها الشاه نفسه للوصول الى ميـدان الحرب فكانت هـــذه الحاسمة • اذ اعيد باشا الموصل ليجمع الذخيرة فيحملها على الاكلاك الى الجنوب• وترك بستان في كركوك وسار الجيش الرئيس فى الطريق المعروف الذى يمر بزنكباد وبهرز الى أسوار بغداد وهو غير مستند الى مدفعية كافية ، ولا مجهز بالذخيرة اللازمة ، ولا مدبر بالقيادة والذكاء •

وبينا كان رتل من الجيش يقوده مراد باشا يكتسح البلاد جنوبا الى الفرات أخذ حافظ أحمد مواقع حصاره • وفي مدة اثني عشر يومـاً كانت الخنـادق والطوابي والمتاريس كاملة بأجمعها • فحشدت الخنادق بقطعان كارمان وروم ايلي والاناضول وسيواس ومرعش ، وصف باشا حلب جناحه على دجلة في حين ان ضغط على المدينة خسرو باشا بحصاره حتى قارب الباب الشرقي • وجد في الحصار مدة شهرين • فانفجر خمسون لغماً فيما وراء السور • غير ان الجيوش الايرانية المتحشدة لم تبرح مكانها في أبراج السور • وكانت فى الليل الالوف من المشاعل تجتاح الظلام ، بينما كان الحراس اليقظون يوالون أغانيهم كل فى مرقبته ولذا لم يجد المهاجمون مجالاً للاستفادة من مدفعيتهم القليلة ولا من جذوع النخل التي كانت ترمى بغيـة عـور الخندق المحيط بالسور • وكانت تحرس الاراضي الخالية الواقعـة في داخل الســور الشـرقي دورية الخيالـة الايرانية • وفي اليوم الثاني والسبعين شن هجوم جريء استبسل فيه الابطـــال وحصل الخسران الفادح من دون جدوى • ووصلت في اليوم التالي أنباء جيش مسعف ، بعث به الشاه اختُلف في تقديره فكـان بين ستة آلاف وثمانـين الف مقاتل • وقد قطع في شهربان الطريق عـلى فريق مؤلف من ثلاثة آلاف تركي ذهب للرعي والعلف • فعقد مجلس حربي ثانية ، وعرضت بايضاح للبحث قضية الرجوع • فلم يرق ذلك الانكشاريين ، وتقرر تجديد الحصار •

وكان الملل يزداد من عدم تبدل الحال كما ضعفت الآمـال وقلت القـوة الروحية • وحـاول طيـار محمد ازاحـة زينل خان (قائد جيش النجدة) عن

معسكره على ضفة ديالى حيث كان نصب جسراً من الزوارق فلم يفلح • ولم يكن مراد باشا أكثر حظاً في القتال من زميله • وأخذ الضبط في الانحلال • فتسنى لجلبي علي ، بن قاسم خان الذي سلم الموصل الى كوجك أحمد من قبل ، بأن يشق طريقاً له ما بين الخطوط التركية الى داخل بغداد • ومن الأعراض الأخرى الدالة على خور العزيمة والتجرد من القوة الروحية قصة عمر باشا ، ضابط إعاشة الجيش ، الذي ترددت الأشاعات عنه في أنحاء المعسكر بأنه باع الذخائر من العدو • ولم تتحسن تلك الروحية حينما نظم المدافعون في الداخل تظاهرات صاخبة ابتهاجاً بما سمعوه عن قرب قدوم الشاه • الا ان دقيقة بعثت على الارتياح مرت عندما وصلت قافلة ايرانية تحمل المال والعتاد الى المعسكر العثماني خطأ لانها ضلت الطريق •

وحدث بعد مرور ستة أشهر على الحصار في صبيحة أحد أيام الصيف لسنة ١٦٢٦م (١٠٣٦هـ)[١٥] عندما كان حافظ أحمد مع هيأة أركان حربه يتمرنون على لعبة الجريد كعادتهم ان علا الغبار في الافق • وبعد دقائق قليلة ركب رسول من الشاه ومعه رسالة الى الباشا • وعند وصوله قرأها الباشا وكان ما يزال راكباً والرمح بيده • ثم استمر اللعب ومن بعد ذلك اعيد الرسول بمهمته يحمل رسالة شفهية يقول فيها « اقدم لتسلم الجواب بعد أن تضع الحرب أوزارها » فاعدت القوة وتهيأت للحرب ، على انه لم ينتج شيء من أول اصطدام بين الجيشين سوى مكابدة اتلاف[١٦] قليلة وأخذ بعض الاسرى • وفي الوقت وصلت عن طريق الماء أكلاك الذخيرة المشحونة من الشمال • ثم بدأ الايرانيون ، الدين قطعوا جميع المسالك في الضفة الشمالية ، يهددون معسكر الباشا ويضيقون عليه الخناق لشل حركته بازعاج جماعات من الجند كانت ترعى الحيوانات وتوردها الماء وسلبهم باستمرار • وقطع طريق عمر الذي كان ارسل الى الشمال لجمع حيوانات نقل ، ثم وقعت قافلة غنية بأيدي الايرانيين الذين كانوا

(١٥) أخطأ الفون هامر (الكتاب السابع ص ٧٢-٧٤) بذكر تاريخ هذا الحادث وتاريخ الحرب الثالثة من وصول الشاة ١٦ كانون الاول ١٦٢٧ و٢٧ أيار ١٦٢٧ على التعاقب لانه يخالف بذلك كولشن والمراجع الايرانية ثم انه يناقض بذلك روايته نفسها •

(١٦) الاتلاف جمع تلف كأطراب ومفردها طرب وأوجاع ومفردها وجع

قد استولوا على رأس جسر الفلوجة أيضاً •

وفي غضون ذلك تبودلت الرسائل بين القيادة الشاهية وقيادة الوالي • وقد طلب الشاه في احداها فصل بغداد عن السلطنة العثمانية رسمياً ليكون منها ولاية لولي عهد ايران • وفي اخرى أنب الترك على فقدانهم الحمية في الحرب والديپلوماسية معاً ، والا أعلنت الحرب أو عقد الصلح • فأخذ الباشا قلمه وكتب : « ان الصقر اذا عقب الحمامة لا يعبأ بالزاغ ولا بالغراب ، وان نباح ابن آوى لا يقلق الاسد » • فوقعت حرب ثانية بالقرب من أسوار المدينة ولم تنتج شيئاً أكثر من سفك الدماء • وخابت محاولة حرق أبواب بغداد الخشبية •

وهناك أصبح الاتراك في غمرة من اليأس • والواقع ان الحالة كانت في داخل المدينة مضطربة أيضاً ، فقد جرد كل شيء حتى النخيل عن سعفها وحيل دون وصول قوافل المؤن عن طريق النهر أو البر • على ان هذه الغنائم اليسيرة ما كانت لتنقذ جيوش الباشا من جوعها • فقد كانت قد أحاطت بها من جميع الجهات قوات الشاه التي صارت حولها كطوق منيع بعدده وروحيته وعدته • وتفشى مرض الروح والجسد معا بين ظهرانيها • فاشتبك الطرفان بحرب عظيمة ثالثة في أواخر أيار ١٦٢٦م • فهجم الايرانيون من جهات ثلاث في وقت واحد • وكان هذا الاشتباك أعنف اشتباكات الحملة بأجمعها • إذ هجم باندفاع أعلى القواد مرتبة من كلا الفريقين على رأس قواتهم • واستوحى الايرانيون الثبات من علمهم ومن وجود الشاه بين ظهرانيهم كما استوحى الاتراك ذلك من شخصيات باشواتهم البارزة وتقاليد كتائبهم المعروفة • فكر مراد وألياس وخسرو مرة بعد أخرى وعبأوا قطعاتهم ، ولم يظهر حافظ أحمد أقل من هؤلاء بسالة ، فأنقذ المعسكر • وابيدت خلال الموقعة « عصبة مقدسة » عن آخرها متألفة من الف وخمسمائة ايراني بعد ان أبلت بلاء حسناً لا يصدق • ثم ارتد الفريقان تاركين في حومة الوغى جثث القتلى مكدسة بعضها فوق بعض •

وبعد مضي اسبوعين اقترح الشاه عوداً على بدء الدخول في مفاوضات • فبعث حافظ أحمد رئيس مرافقيه وجماعة من الضباط الآخرين الى المعسكر الايراني ثم عادوا مع سفير الشاه فجدد الايراني ادعاءه ببغداد ، وفي جلسة متأخرة جلسوها قبل إبقاء بغداد للترك اذا اعطي النجف مكانها • فكان جواب

الوزير ان كل حجر من النجف يعادل عنده الف انسان ، وما بغداد الا حماها • ولم يجد بحث التوافق نفعاً في تقريب وجهات النظر • على أن تحمل الترك كان قد بلغ منتهاه ، فاندلعت نيران الشغب وأدى ذلك لقلع خيمة الوزير الاكبر • وعلى مشهد من السفير الايراني جعل الباشا نفسه سجيناً في قبة أبي حنيفة • وبعد ساعات من الفوضى اعيد شيء يشبه الضبط الى نصابه • ثم نصبت خيمة جديدة وجيء بالوزير اليها • فسألهم « ماذا تعنون بذلك ؟ » ثم صاح « أين أبطالي الذين يفتحون بغداد أو يموتون دون ذلك ؟ » • غير ان صوته غرق في لجة الاصوات المطالبة بالنكوص • ولم يبق بوسع الانكشاريين اليائسين أن ينصتوا للاوامر ولا للاقناع ، فترك أمر ادامة الحصار •

واستطاعت القوة التركية ، لاهمال العدو ، أن تتم مسيرها للرجوع في اليوم الاول من دون تعرض الايرانيين لها • وفي الوقفة الثانية ركب فصيل من الايرانيين في طلب سفيرهم وكان احتفظ به الوزير فسُلم اليه • وفي الليلة الثالثة هاجمت القوات الايرانية المؤخرة فردت بعد شق الانفس • وكان الرجوع عن طريق يحاذي دجلة ، وهو طريق لا يطرق إلا قليلا • ولم يكن من الممكن وجود المؤونة فيه لتشترى أو تغتصب • ولذا فقد أبقى القوة في قيد الحياة شيء من المشحونات المغتصبة من النهر فقط • وغدا القوت يباع في المعسكر السيار بأسعار باهظة من رجل لآخر • ثم قتلت حيوانات النقل وأُكلت • ولم يكن من الممكن أن يحاذي سيرُ القوة نهر دجلة المتعرج دائماً ، فسبب ذلك اضافة العطش الى التعب والجوع • فساد حكم الغوغاء حتى عُبر الزاب الصغير ، وهناك أمكن الحصول على بعض الازواد من الحبوب • وفي الاخير وصل الجيش الى الموصل، والى الرخاء النسبي • فاعطيت حكومتها قره‌بكر وعهدت الحامية الى جركس حسن •

فترة وخيبة ثانية

توجه حافظ أحمد الى مقره الشتوي في حلب • ثم قبلت وفادته الى استانبول وكافأه سيده بخلعة الشرف جزاء له على اخلاصه • غير ان الجو كان متسمماً عند خصومه وحساده بحيث ان مثل ذلك التقدير والاستقبال الحافل كان لايمكن أن يحصل ما لم تتوفر له جميع قوى السلطنة وكل ما يمكن أن يوجد من الالفة

القديمة بين السلطان ووزيره • فحرك ذلك ساكنهم وكادوا له فعزل من الوزارة، إلا أنه لطف بالأنعام عليه بتزويجه من أخت السلطان نفسه •

وقد شغلت خلفه خليل باشا الاضطرابات الداخلية فحالت دون زحفه الى بغداد • وفي أوائل ١٦٢٨م (١٠٣٨هـ) وصل سفير ايراني الى استانبول رسمياً ليطلب بغداد بغية نصب ولي العهد الايراني فيها ، وليطلب عقد معاهدة للصلح • فلم تنتج تلك السفارة شيئاً • وفي ١٦٢٨م أيضاً حل مكان خليل في الصدارة العظمى خسرو باشا ، البشناقي الصارم الذي كان نشاطه المتأجج قد رفعه من مصاف الجنود الأغمار الى هذه المرتبة • ثم تقضت سنة كاملة قبل أن يتحرك الجيش الى الشرق من معسكره في اسكداري •

وعلى هذا تمتعت بغداد وأواسط العراق بسنتين من السلم • وكانت فلول جيش حافظ أحمد المتراجعة قد تركت من الذخائر ما أمكن نهبه على مهل • ثم زرع خلال هذه المدة زرعان وحصدا • واستمر صفيقلي على حكمه الطويل في بغداد • واستعيدت حاميات البلدان الفراتية ، بينما كانت القبائل متمسكة بهيت وما فوقها • وكان نفوذ الخان من الفلوجة الى عرجة في حالة مد وجزر ، وكان قليل من الضبط يسود في أنحاء دجلة الواقعة في جنوب ديالى • وكانت البصرة لعدة سنين خلت حكومة[١٧] مستقلة لا تعبأ بمصاير الامبراطوريات في شمال الاهوار الا قليلاً • ولم يسد في كردستان الجنوبية نفوذ أحد بل كان يتنازعها النفوذ التركي والاردلاني ، وتعمل فيها دسائس البكات الذين كانوا يجاملون الفريقين ولا يخدمون أحدهما على الحقيقة • أما الموصل فقد كانت فيها حامية النظاميين الاتراك • وكان باشا كركوك قد تخلى عن مكانه لخان ايراني من جراء ضغط الجيوش الايرانية في الجنوب وحاكم أردلان المقدام في الشرق •

وقد كانت هذه شهوراً من الانتظار المقلق لزوبعة أخرى كانت تتوقعها مقتضيات الحال • فقد حزن نعي الشاه عباس في أوائل سنة ١٦٢٩م (١٠٣٩هـ) الخان في بغداد وأفرح المعسكرين في اسكداري • وبالغ حفيده وخليفته الشاه صفي في سفك الدماء بغير مراعاة للعمر ولا المزايا ولا الخدمة ، فكان ذلك مدعاة لخراب بلاده واضعاف شأن أسرته • وكان الشاه عباس قد حكم مدة اثنتين

---

(١٧) ان الفصل الخامس من هذا الكتاب يبحث فى هذه •

وأربعين سنة ، وتوفي بعدها في السبعين من عمره • ولو لم تعاجله المنون ، وحكم مدة عشر سنين أخرى ، لكانت قضية بغداد لا تحل الا بنضال عنيف بعد ذلك بين بطلين مغوارين • وبذا تخلص التاريخ من مشهد النضال العنيف الذي كان لابد من أن يقع بين أعظم الملوك من الفرس ومراد الرابع ذي النباهة القاسية •

وبدأ خسرو باشا بزحفه في أيار ١٦٢٩م • فعرف طريق آق شهر وقونية الى حلب بصرامة القائد وشدة بأسه • وقد أمر عند عبوره الفرات في بيره‌جك بصنع الشحاتير[١٨] الكبيرة لنقل التجهيزات الى الفلوجة • وجرت وقفة في ديار بكر فاضيفت فيها الى جيوشه أول قطعات البگات الأكراد • ثم انضمت الى الجيش بعد ذلك في الموصل مدفعيته التي كانت آلاف من الثيران قد سحبتها على طريق آخر •

وكان الموسم[١٩] خارق القساوة• فقد جعلت الامطار والفيضانات من أواسط العراق بلاداً لا يمكن أن تسير فيها وسائط النقل • وتراكم الثلج بعمق عدة أقدام حول ديار بكر ، ولم يشهد شيوخ البلد على طول أيام حياتهم مثل أمطار هذه السنة شدة في الموصل • فلم يدر ـ والحالة هذه ـ التقدم الى بغداد في خلد أحد • على انه أجريت الترتيبات اللازمه في هذه الاثناء للتجهيزات واعدت الاكلاك للنقل • وزحف الجيش الى الشرق والجنوب عابراً الزاب الكبير • ثم عقد مجلس حربي فيما يقرب من أربيل وكان حاكمها الايراني قد فر مع زميله حاكم كركوك الى بغداد • وقد حضر المجلس الحربي جميع قواد الجيش النظامي التركي ورؤساء التيمار والجنود المستأجرة وعدد من البكات الاكراد وعدة من شيوخ العرب من سكان سقي دجلة • فتبين ان الحملة الى الجنوب كانت غير ممكنة نظرا لحالة الطرق الموحلة من جهة ولوجود الضغط الاردلاني المعادي من الخلف • فتقرر أن توجه أول حملة على التابعين الايرانيين في بلاد شهرزور وما وراءها[٢٠] •

---

(١٨) وهي الشحاتير المنبسطة القعر المعروفة على طول العصور ولا تزال تستخدم من بيره‌جك الى المسيب

(١٩) منتصف شتاء ١٦٩٢ ـ ٣٠م

(٢٠) ان المرجعين اللذين يذكران هذه الحملة هما نعيما والحاج خليفة لكنهما لم يصفا بايضاح الطرق ولا أحوالها ولا موقف الاكراد من الحملة مع ان الحاج خليفة نفسه كان بصحبة الجيش

وكان خان أحمد خان الاردلاني حينئذ ما يزال عبداً مخلصاً للشاه[21] • فقد أظهر جدارة في حملات العراق على عهد الشاه عباس الكبير • على انه كان بين أقاربه كثير ممن يمالئون امبراطورية السنة • ولم يضيع هؤلاء وقتاً فتقدموا الى الصدر الاعظم بهداياهم • وعندما توجه الجيش من كركوك نحو الشرق حضر كثير من بكات مملكة اردلان وعشرون من خانات كردستان غيرهم لتقبيل يدي الوزير • وما تقدمت القوة التركية الى المسالك العالية حتى توقفت في گولعنبر[22] وفيها عقد مجلس مهم، بحثت فيه قضية تجديد الحصن القديم الواقع على الحدود الذي كان سليمان القانوني قد بناه فهدمه الشاه عباس من بعده • فتغلبت ... وقضت بضرورة تجديده فتكامل بناؤه بعد عمل استغرق سبعة أسابيع • على أن هذا العمل كان من دون فائدة وفي غير أوانه ، لان مثل هذه الحصون الجبلية المنعزلة في هذه البلاد الوعرة لا يمكنها أن تؤمن حدود السلطان •

وبعد أن أضاع الوزير هذا المقدار من الوقت بعث بطليعة جيشه على بلاد اردلان ، وكان أول هدف له قلعة مهربان المنيعة ، فسقطت في أيدي الجيش ووضعت فيها الحامية • وبينما كان الجيش الرئيس متريثاً في شهرزور كان زينل خان القائد العام للجيش الايراني وخان أحمد الاردلاني قد تحركا بسرعة من همذان مع جيش مؤلف من أربعين الف مقاتل ، وبعد أن صدفا عن سماع المشورة الصائبة القاضية بالسير رأساً الى شهرزور (فيقطعان بذلك الاتراك عن قاعدتهم) بدآ بالحرب فيما يقرب من مهربان ، فجرى نضال طويل وحشي • وقد وصلت الامدادات من خسرو في أحرج الاوقات • فتراجع زينل خان بعد أن بلغت خسائره من الرجال عدة آلاف • وكان ينتظره الموت العاجل في معسكر الشاه

---

(٢١) يقول المؤرخون الاتراك ان (١) خسرو كان يعتبره عدواً له و(٢) انه قدم الخضوع مع أخيه السني للاتراك حينما عبروا الزاب الصغير و(٣) انه فر من قصره في حسن آباد عند وصول الترك ان هذه المتناقضات لا يمكن أن يعتمد عليها غير انه من المؤكد ان خان أحمد أخذ يعادي الشاه لانه سمل عيني ولده في عهد متأخر من هذا الدور

(٢٢) وهي المسماة اليوم خورمال ـ المترجم •

جزاء له عن فشله • فتولى القيادة بعده رستم خان ، وتحرك الشاه في جهة أصفهان •

أما خسرو باشا ، فبعد ان أكمل بناء قلعته وأخمد فتنة كانت قد نشبت أقام مهرجاناً عظيماً للانتصار في مهربان • ثم توغل في أردلان ، فنهب حصن خان أحمد في حسن آباد نهباً فاحشاً • ولم ينج الفارون والمتأخرون من قسوة هذا القائد العثماني • وبعد السير في بلاد غنية آهلة بالسكان وصل الجيش الى همذان في حزيران ١٦٣٠م (١٠٤٠هـ) • ولا يدخل في تاريخ العراق وصف التخريب الشنيع الفظيع ، الذي أصاب هذه المدينة العظيمة • وبعد أن قضى الجيش ستة أيام دموية نارية توجه الى درگزين عن طريق قزوين ، فوصل اليهما وخربهما • وبقي بين هذه البلدة وقزوين المقصودة عشر مراحل لا ماء فيها • غير ان آراء أخرى سادت في مجلس عقد هناك وتقرر الرأي على أن بغداد هي المقصودة أولاً وآخراً • أما قزوين وأردبيل وان كانتا غنيتين ومغريتين بالنهب لما فيهما فانهما كانتا بعيدتين عن الطريق الذي أوصى به البادشاه[٢٣] • وكان الصيف قد حل وتقدمت أيامه ، وكان العراق في مثل هذا الوقت من الممكن تحمله • فولى الجيش شطره نحو الغرب •

ولم يعرف من أخبار هذا الزحف الطويل الامد الى الحدود العراقية حادث يستحق الذكر سوى مناوشات موفقة جرت مع الخانات اللريين • وما وصل الوزير الى سهول ديالى الوسطى حتى وجد أن النجدات كانت تنتظره من الموصل مع المدفعية التي كانت خير عون مرحب به • ولذلك استغرق سير الجيش الى بغداد وتحصنه في مواقع الحصار شهراً واحداً • وبدأ الهجوم في تشرين الثاني •

وقد قدر للهجوم ان يحبط ، ولا يجدينا نفعاً ان نكرر وصف كل وجه مشكوك فيه من أوجه الحصار • فقد كانت نيران المدافع غير منقطعة من الفريقين وتمكنت المدفعية التركية مع الالغام التي انفجرت تحت أبراج السور من إحداث ثلم وثقوب مخطرة ، الا انه لم يكن الدخول من احدها الى المدينة ممكناً • وكانت

---

(٢٣) ويذهب گولشن الى أبعد من هذا ويقول بأن أمراً ملكياً وصل الى الوزير في درگزين «درگوزين» يأمره فيه بالتوجه الى بغداد •

المشاعل تضيء السور في الليل كله • ولا غرو في ذلك فقد قدم عهد صفي قلي وحذق أساليب الدفاع ، وكان بمعيته أمير جمال وأمير فتاح من حكام أصفهان القديمين • فقدم خسرو باشا ، بطيش خال من تروي ، معسكره قريباً من السور بحيث أصبح غير بعيد من نيران المقاتلة •

وفي منتصف تشرين الثاني ١٦٣٠م استنفد معظم عتاد الجيش التركي • وغدا الوضع بحيث ان حملة تقتصر على مجرد الاحتكاك والتنافس لابد من أن تكون في مصلحة المحاصرين في الداخل • وبعد أن رأى خسرو باشا ان السور في كثير من المواقع قد هدم حتى وجه الارض أمر بهجوم عام • وفي اليوم الاربعين من بدء الحصار حاولت طليعة مؤلفة من خمسمائة مقاتل ان تجتاح الخندق من أحد الاماكن وان تعبره على ممر من تراب الطابوق المتجمع من السور المهدوم • فما احتشد فوقه أكثر الرجال حتى انهار من تحتهم فساخ بهم الممر فغاروا وأمطرتهم أسلحة النيران حاصبا من السور ، فمات معظمهم وبينهم أعلى ضباط الجيش رتبة • ولم يفلت أحد من حرس خسرو الذي كانت تبقيه شجاعته الجنونية في الامام دائماً •

وبعد مضي خمسة أيام قرر مجلس حربي كامل النصاب أن ينسحب الجيش • وكان التراجع من بغداد منتظماً بحيث كانت جميع المدافع والذخائر بحالة جيدة • فوصل الجيش الى الموصل في أوائل أيام ١٦٣١ ، ولبث هناك اسبوعاً • وبينما كان الوزير هناك استولى خان أحمد خان الاردلاني على ما كان مستولياً عليه من قبل في كورة شهرزور • وقد فر خمسة من باشوات الاتراك على عجل الى الموصل • وهناك قوبلوا بالبشاشة والهدايا ثم أخذوا الى حجزة ثانية كان ينتظرهم فيها السياف ، فلم يبق على أحد منهم •

وكان الوزير قد بعث ، قبل أن يبدأ بالانسحاب ، رتلاً من جيشه لفتح الحلة • وهذه الفكرة وان كانت عديمة الفائدة وسبباً للتطويح والاسراف ـ كما كانت قضية تشييد الحصن في كولعنبر من قبل ـ فانها كانت ترمي لتأمين قاعدة للجيش في حملته المزمعة الثانية على بغداد[٢٤] • فاحتل خليل باشا حاكم ديار بكر

---

(٢٤) يقول نعيما ان رتلا قويا قاعدته الموصل وقائده باشا طرابلس غزا سقي الفرات الاوسط في أوائل ربيع ١٦٣٠ حينما كان خسرو في شهرزور ، فهددت

الحلة بعشرين ألفاً من الانكشاريين وغيرهم • فأعدت البلدة للدفاع الذي كانت بها أمس الحاجة اليه ، إلا ان رستم خان بعد ان أتم عمله في كردستان ورجعت المياه الى مجاريها هناك أصبح بوسعه معالجة قضية الحلة • فتوجه اليها وخيم بالقرب منها ، ثم بدأت المناوشات الاولى فكانت تدل على خسرانه • فأنهيت انباء ذلك الى الشاه صفي ، فخف الى الموقعة مسرعاً[٢٥] • فصمدت الحلة للحصار مدة أربعة أشهر تقريباً • ورأى خليل باشا بعد ذلك ان قوى غير متعادلة مثل هذه لا يمكنها أن تتحمل النضال • فركب وحده في ليلة ظلماء واخترق خطوط الايرانيين والسيف بيده ونجا بنفسه • فاستسلمت قواته بشروط واستتبع ذلك النهب والقتل فداما ليلة واحدة حتى مطلع الفجر ، وذلك حين نادى المنادون بأعلان الهدنة • ثم رسمت الخطة لتشييد قلعة جديدة وانجز بناؤها بكلفة باهظة • وبعد ذلك رجع الشاه الى بلاده بعد أن زار العتبات المقدسة ، واعيد وضع الحاميات في الفلوجة وغيرها •

وكان آخر جهد بذله خسرو باشا في الموصل ارساله حملة صغيرة من الخيالة لتأديب مطلق أبي ريشة•إذ لم يكن أمير البادية العظيم هذا مكتفياً بالتذبذب بين المصالح الايرانية والتركية، بل كان ينهب الفريقين أيضا ويناوئهما من دون أن يخدم أحداً منهما • فخلع واعطيت الامارة سعد بن فياض من الاسرة نفسها واختص بكر باشا بحكومة الموصل التي وضعت إذ ذاك تحت الاشراف العام لباشا ديار بكر طيار محمد • ثم رمم سورها ، وجيء بالبنائين والعمال من ديار بكر وأورفه خاصة له • وقضى خسرو الشتاء في ماردين •

وقبل أن تهدأ زوابع حملة الوزير على العراق أضاعت بغداد حاكمها[٢٦]

المدن المقدسة وهددت الحاميات الايرانية الصغيرة التي كان يساندها ناصر المهنا• ان غزوة بعيدة منفصلة كهذه ترينا تعبئة تستدعي الاستغراب ولم يشر اليها في گولشن •

(٢٥) هكذا ذكر في گولشن ، الا أن الرواة الاتراك لا يذكرون هذا ، والظاهر ان مجيء الشاه من أصفهان لحملة على الحلة أمر مشكوك فيه •

(٢٦) تافيرنييه (ص ٨٤) يذكر رواية طريفة لكنها غير تاريخية في انتحار صفي قلي متأثراً من تعيين حاكم آخر مكانه •

الحديث المحارب . وكان صفي قلي ، المتعصب العساف بنظر أعدائه ، قد خدم سيده خدمة جليلة . وقد اعتمد الشاه صفي في تعيين خلف له على علم النجوم لا على فطنة البشر . وذلك بأن قرأ طوالع كثير من رجال دولته ، فاستقر الرأي في الآخر على تعيين بكتاش خان الارمني وكان شرسا عنيداً ، وشجاعاً مقتدراً . ودامت ولايته على بغداد بدوام سلطة دولته عليها . فحكم خلال الخمس عشرة سنة التي حكم فيها الايرانيون العراق حاكمـان فقط . وكانا يقابلان في الثبات والقابلية بباشوات السلطان الذين لم يحكموا طويلاً . وفي عام ١٦٣٥ دهم العراق الطاعون فأهلك منه جماعات عظيمة .

السلطان مراد ١٦٣٨

وفي خلال الحوادث الاخيرة كان السلطان مراد قد بلغ أشده . وكان قد قضى صباه في جو مفعم بالدسائس والفتن ، وبكل ما من شـأنه تفسيخ الدولة والقضاء عليها . وقد كان تذوقه المبكر للحكم الفعـال تذوقاً يتصـف بالعنف والاذلال . إذ تمرد السپاهيون في السراي نفسه وطلبوا المحارب القديم حافظ أحمد . فلم ير السلطان بداً من تسليمه والتضحية به . ومنذ ذاك اليوم تسلم مراد زمام حكمه فبرهن على أنه شديد الكفاءة والقابلية والثقافة والصرامة ، وانه المعيد الحقيقي للصحة والحياة في جسم امبراطوريته . على انه كان أيضاً مغروراً لا قيمة للحياة عنده ، وسفاكاً يقتل من شعبه عشرات الالوف بمرة . وسرعان ما اضفت الى مثل هذا الطبع والاستعداد عادات الدعارة وادمان المسكر . بيد انه « ... مع جميع ما اقترفه من سوء قد أنقذ بلاده . فلم يتساهل في أية جريمة غير جرائمه . وتوقف بسيطرته عسف المستبدين المحليين في مختلف الانحاء . وكان ذلك أكثر المصائب شراً ... وكان أسوأ العسف الذي قام به هذا الطاغية وحده أهون شراً على الامبراطورية من الفوضوية العسكرية التي قضى عليها . فأعيد النظام ورجعت التابعية الى نفوذه الحديدي . وحينئذ استتب النظـــام في المعسكرات وحكم بموجب العدالة الثابتة في المحاكم . ثم جبيت الواردات بانصاف الرعية وجرى أمرها بكل عفة »[٢٧] .

---

(٢٧) كريسي ص ٢٥١ ـ ٢٥٣

وبينما كانت امبراطورية عثمان تئن وتزدهر تحت وطأة الحكم المقيد المرعب لم يعد بوسعها أن تحتمل بقاء بغداد خارجة من حكمها . غير ان الحال قد قضت أن تتصرم أعوام سبعة ما بين خيبة خسرو وظفر السلطان النهائي . ففي ١٦٣٣ ركب مراد بنفسه وجوّل في الاقسام القريبة من ولاياته الاسيوية . وبعد سنتين سار من اسكداري الى أريوان فاسترد تلك القلعة العظيمة من الشاه . وأثبت نفسه بذلك انه قائد بالفطرة للجيوش في أثناء العمل ومفتش لا يرحم موظفي ولاياته اذا قصّروا .

وفي التاسع من مارت ١٦٣٨ رفع لواء السلطان في اسكداري ثانية . وفي الثامن من أيار كانت قد أكملت جميع الاستعدادات وعبىء كل موظف ومذخر ورتب حق الترتيب ثم قوض الجيش خيامه ذاهباً للزحف الى بغداد . وقد قسم الطريق الى مئة وعشر مراحل . وكانت أوزان كل نهار وتعريس كل ليلة يجريان بدقة حسب الترتيبات والخطط المرسومة . وكانت عدة أماكن للنزول قد عدل عنها مراعاة للاحوال العارضية التي كانت تتطلب التأديبات أو الاصلاحات أو أفعال الاحسان . وفي حلب ، منتصف الطريق ، استراح الجيش ستة عشر يوماً . وهناك شهد الرحالة الافرنسي تافيرنيه عرضاً مهيباً للجيش . ووجه من بيرهجك بالاحمال الثقيلة من الذخيرة على الماء ليلقاها مراد في أواسط العراق[٢٨] . وقد توفي بيرم باشا ، الصدر الاعظم ، في دولاب فتولى بعده طيار محمد . وأوقف الجيش في ديار بكر ستة أيام حظي الوزير الاعظم الجديد خلالها بالمثول بين يدي سيده بعظيم أبهة . ومن هنا ارسلت قطعات جيش الطليعة والنفائض الى الموصل . وقد كانت مؤلفة من قطعات حلب وطرابلس وقائدها درويش باشا ومن هجانة البادية التابعين لابي ريشة . وكان ينتظر السلطان في الموصل سفير من الهند ومعه هدايا غريبة . وانزلت مدفعية الجيش في الاكلاك في دجلة واحدرت الى الجنوب بعد أن بقي مع جمهرة الجيش عشرون مدفعاً . ثم كوفئت الجنود بأجزال العطايا لهم . وقد نقح نظام المسير لقرب الدخول في بلاد معادية . فجعل باشا مرعش على المؤخرة وتولى باشا ديار بكر أمر الطليعة ووكل الى باشا حلب أمر المدافع . وسار الجيش بحسب جدول الأوقات الموضوع في أول الامر

(٢٨) تافيرنييه ص ٥٩ .

فعبر الزابين الاكبر والاصغر فدخل كركوك واجتازها فسار وانحدر من جبل حمرين الى الخالص ، ثم سار فخيم حول بغداد وذلك في الخامس عشر من تشرين الثاني سنة ١٦٣٨[٢٩] •

وقد كانت هذه آخر زيارة يقوم بها سلطان من آل عثمان الى العراق ، كما كان عمله آخر مأثرة من مآثر آخر الملوك المحاربين العظماء في الأسرة • وكان التقدم العظيم الذى حصل في ممتلكاته وأتمه مراد في هذا الزمن قد طبع الامبراطورية بطابع لم يمح حتى يومنا هذا • فلم يزل اسم السلطان مراد معروفاً ومرعياً لدى الفلاحين والقبائل وفي كثير من أساطير الرعاع ، مع انه نسي كثير من ملوك جاءوا من بعده فحكموا أكثر مما حكم • وقد انتهى الحصار القصير الامد الذى بدأ في هذا العهد بالانتصار ، بعد أن خابت خطط حصارات ثلاثة ، وأمن مستقبل العراق فى القرون التالية •

نصبت خيمة السلطان على مرتفع قليل يطل على دجلة فيما يقرب من تربة أبي حنيفة التي أقسم السلطان أن لا يدخلها حتى يجعل الظفر منه رجلاً يليق بتقديس تربة الامام • وقد قضيت أولى ساعات الوصول في تنظيم وضع القوة ، وفي اختلاط السلطان بالجنود وإثارة حماسة الضباط بالخطب الرائعة • ووزعت ذخائر الحصار كما أخذ كل رزقه وعينت الواجبات • فكان المعسكر وقوات السلطان الخاصة به في موضع يقابل القلعة والجهة الشمالية الغربية من السور • ووضع أغا الانكشاريين مع البكلربكي للروم أيلي في الجهة الشمالية الشرقية أي فيما يقابل الباب الابيض الذي طالما عرف أخيراً بباب الطلسم[٣٠] • ورابط شرقاً فيما يقابل باب الظلمات في الطرف الجنوبي الشرقي القبطان باشا وقائدان عامان من قواد الانكشاريين ثم باشا الاناضول وباشا سيواس • أما المحاصرون داخل السور فقد كانوا بكتاش خان وخلف خان ومير فتاح • ولم تتأخر المدافع

---

(٢٩) يرجع كريسي زيادة على المراجع المذكورة الى كتابات هلم Hulme أما الفون هامر (الجزء التاسع ص ٣٣١) فيرجع الى رحلات دولوار (باريس ١٦٥٤)

(٣٠) باب الطلسم كان في الجهة الجنوبية.الشرقية فلعله أراد الباب الوسطاني « م.ج. » •

الموزعة بين قواد كل جبهة عن اطلاق النار ، واذ ذاك ربكت المدافعين ربكاً عظيما بنارها غير المنتظرة قوة ارسلت لتعبر النهر فتقصف القلعة من الجانب الايمن .

وكان السلطان بين رجاله لا يفارقهم في كل خندق ومترس . وكان يراقب كل وجه من أوجه الحصار من برج اقيم أمام خيمته . وكان يؤاسي الجرحى ويهدي اليهم الهدايا . وكانت خطبه المتوالية تشجع الضباط الذين كان كل منهم يخاف سيده أكثر من خوفه جميع جيوش ايران الف مرة . وكانت تدابير الحصار واعلاف الحيوانات وتوزيع الارزاق والاستخبارات تنال كلها القسط الاوفر من عنايته الخاصة . وقد شجعت روحية حب الانتصار وتعظيم هذا القائد المخيف الجنود الذين كانوا يشيدون المشيدات الترابية في غبار غير منقطع ، ودفعت هؤلاء الاغمار الى أقرب ما يمكن من الخندق المحيط بالسور . وكان الرمان المجلوب من بساتين شهربان والمؤن العظيمة التي جيء بها على ابل أبي ريشة التي يقدر عددها بعشرة آلاف بعير تشدد منهم العزائم . أما الايرانيون فقد قويت معنويتهم بالاخبار التي تؤذن بقدوم الشاه . فانه كان قد وصل في الحقيقة الى خانقين مع قوة ضئيلة قوامها ١٢٠٠٠ مقاتل ، وكان يتحرى الطريق في سيره مخافة أن تصيبه كارثة تقضي عليه بين حين وآخر وهو يتقدم نحو بغداد . ففصل السلطان عن الجيش باشا طرابلس وباشاحلب مع المقاتلة غير النظاميين من البادية وبعثهم للقاء الشاه الذى كان في طريقه . فتراجع الشاه ووصلت اذ ذاك الى معسكر مراد مدافع جديدة على الماء في دجلة .

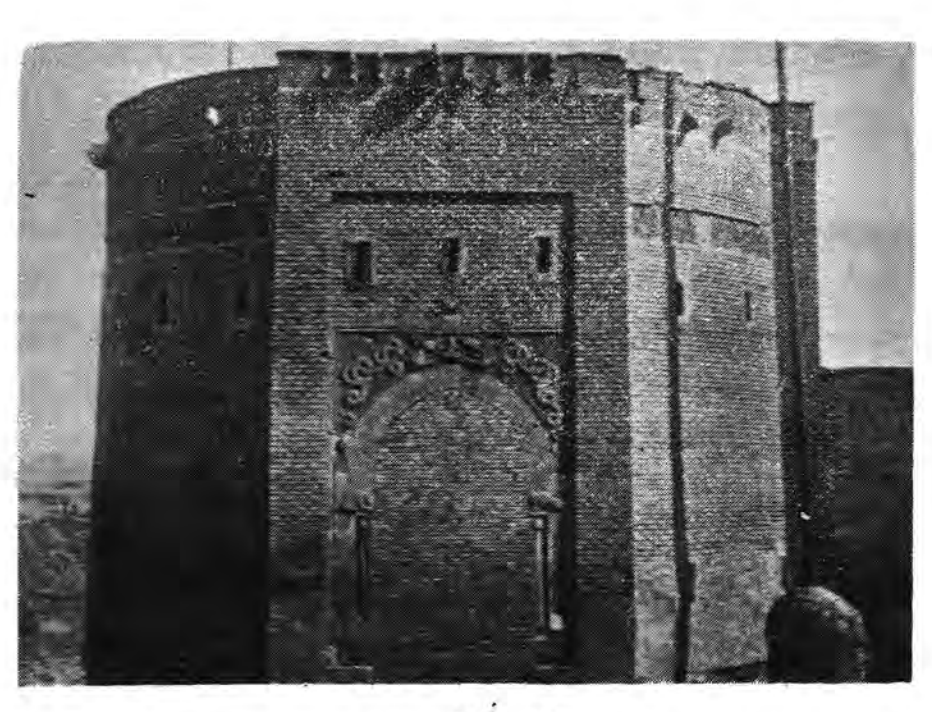
وكان برج الباب الابيض أول برج خضع لمدفعية الصدر الاعظم . ثم دكت أبراج أخرى في تلك الجهة من السور حتى وجه الارض بسرعة . وأحدثت فجوة عرضها عدة ياردات كشفت عن داخل المدينة ، غير ان الارض كانت مملوءة من الخنادق والحواجز وهو الامر الذي أخر القيام بالهجوم المزمع العام . فووصل تهديم الاسوار بقصف كل البطاريات لها حتى امتلأ بالتدريج ذلك الخندق الوسيع من انقاض الابراج المتهدمة وبأكياس الرمل التى كان يلقيها جنود مقدمة المهاجمين .

واقتربت النهاية ، فشن هجوم عنيف في اليو م الثالث والعشرين من كانون

الاول • فصد ، الا ان السلطان رأى الخندق قد امتلأ ولم يبق ما يحول دون الهجوم العام ، وأنب وزيره على تأخيره • فأجاب طيار محمد بكلمات تنم عن روحية الولاء الحقة قائلاً « ان يشأ الله ان تؤخذ بغداد لكم فسيتم ذلك بسهولة مع تقديم حياة عبدكم طيار لخدمتكم » • فأمر بالاستعداد للهجوم في اليوم التالي لذلك ، وما تبين فجره حتى شن الهجوم • وكانت فجوة طويلة مفتوحة بين أيدي المهاجمين في وسط الجهة الشرقية من السور • فهجم الصدر الاعظم تتبعه خيرة الجيش التركي فأردى بحسامه المسلول أول من صادفه من الايرانيين ؛ واستمر على الهجوم حتى أصابته كرة مدفعية فأردته قتيلاً في الحال • فحمل الى سيده فكان حزنه عليه صميماً ومراً • وعندئذ تسلم خاتم الصدارة العظمى مصطفى باشا ، وفي اللحظة التالية حل محل طيار في قيادة الهجوم • فوقع عن يمينه وعن شماله رجال الحاشية والضباط الكبار • وضغط بالهجوم حتى استولى على الفجوة وبدت المدينة مكشوفة من ورائها •

وتقبل السلطان مراد في يوم عيد الميلاد من سنة ١٦٣٨ (المصادف لليوم الاربعين من الحصار وهو اليوم الذي تقضت فيه مائة سنة على فتح سليمان القانوني جزيرة رودس) خضوع المدينة العظيمة التي في حدود امبراطوريته والموطن القديم لعظمة الاسلام ، وغاية النضال الذي دام خمس عشرة سنة بعظيم المرارة والخسارة • فبعث بكتاش خان رسله لعقد شروط الاستسلام وأوفد السلطان الضباط الكبار الى بغداد ليقتادوا الخان الى حضرته • فاقتيد بين سماطين من الحرس الاشداء مصطفين من خيمة الصدر الاعظم الى الديوان الذي جلس فيه مراد بكل ما له من مظاهر العظمة والابهة • فقبل بكتاش خان ما بين يدي السلطان وطلب العفو عن مقاومته الطويلة • فلم تعدم روح الفتوة من نفس السلطان • فعفا عنه بسهولة وأنعم عليه بالهدايا الثمينة على أن يسلم المدينة في الحال • فكتب بكتاش الى ضباطه ليتركوا مواقع الدفاع والمدينة على الفور ، ولكل منهم أن يذهب حيثما شاء • وحذر الوزير من وجود بعض الالغام التي لم تزل مدفونة مخشياً انفجارها •

على ان الهدنة التي قصد بها تحقيق الفتح من دون سفك للدماء قد اُخل بها بسبب جهل البقية من الحامية الايرانية وولائهم الشديد • فدخل الجنود الاتراك



باب « الطلسم »
وقد بنيت فتحتها بأمر من السلطان مراد الرابع

ولكن اطلاق النار لم يخمد • وسادت الفوضوية في باب الظلمات حيث تقاطر الايرانيون الى الخارج زرافات زرافات • وكان يطلق النار على غير هدى من أعلى السور المقهورون الحقد[31] • فبعث هذا على مقابلة الشر بالشر • ولذلك لم يمنع التأمين العام الذي أزمع عليه السلطان مع كل المجهود الذي جهده الوزير انتشار العسف والنهب بسرعة • وأزهقت في معارك الشوارع أرواح عديدة لكبار الضباط على مرأى من الوزير • وكان غير قليل من الجند الاتراك يلتهبون بالانتقام ، هذا لاخ وذاك لابن مفقود • ورفض مير فتاح والضباط الذين كانوا معه الجلاء والاذعان • ونصبت المدافع على آخر مترس من متاريسها حتى ذبح عشرون الفاً من الحامية فهدأت في الاخير المدينة وهي مضرجة بالدماء ومخضبة بها وبذا أصبحت في حكم الصدر الاعظم[32] •

اعلن العفو والامان بأمر من السلطان لجميع السكان المدنيين • وعقد مراد ديوان ظفره في جامع الاعظمية ثم بعث رسله الى أوربة • ومات بكتاش خان فجأة بالسم • وأسندت حكومة المدينة الى حسن باشا (كوچوك ـ الصغير) • ووضعت حامية مؤلفة من ثمانية آلاف جندي[34] بقيادة بكتاش أغا • ورسم للمفتي

(٣١) الحقد جمع حقود •

(٣٢) لم يكن من السهل للتحقيق التام يومئذ أن يميط اللثام عن مجرى الحادث والقاء التبعة على مسبب معارك الشوارع هذه والمجزرة البشرية بعد الاستسلام • والرواة الذين شهدوا الحادث بأعينهم مجمعون على نيات مراد السلمية • غير أن أزمة الحملة تبعها اختلال النظام عند الفريقين وكانت العوامل للعسف والفوضوية كثيرة مثل اشتداد وطيس الحرب والكراهية العنصرية والمذهب وحب النهب وضيق الطرق في بغداد ونفسية الجماهير وموقفها في اراقة الدماء • أما كولشن فيؤكد ان السبب كان استمرار مير فتاح على المقاومة في غير محلها •

(٣٣) هذه هي الحادثة التي يؤكدها تاڤيرنييه أما نوري والفون هامر (التاسع ص ٣٤) فيعزوان هذا الموت بالسم الى زوجة الخان ، ويعزوها كولشن للانتحار

(٣٤) ان الوصف الاتم الذى يصفه كولشن هذا نصه « وجند جنداً محلياً نظامياً يكفي للدفاع عن الولاية والف لحامية المدينة جيشاً يتألف من سبعين فصيلا تقريباً انتقاه من بين السپاهيين النظاميين وانكشاريي العاصمة ومن مدفعيي

يحيى ان يعيد بناء قبة الشيخ عبدالقادر الكيلاني واوقفت لها أوقاف كثيرة ، معظمها من أملاك الشيعة ، لتنفق على ادامتها . وأدى فيضان فجائي في دجلة الى تدفق الماء في الخنادق خارج السور ، وبذا انمحت آثار حصارات أربعة . وبقى مراد ناصباً ديوانه حيث نصبه من قبل في ضاحية المدينة الشمالية مدة ستة أسابيع ، وجدد فيه جامعها الكبير .

على أن حادثة مفجعة حدثت فجددت المشاهد الدموية ، فى المسكر وفى المدينة ، بعد ان استعادت حيويتها وتراءى للجميع انتهاء تلك المشاهد . فقد احترق مخزن البارود فى بغداد وانفجر فجأة . فسبب أضراراً وضياع نفوس كثيرة وكان بين الموتى من ذلك الحادث والخسائر الحادثة منه ما أصيب به الاتراك خاصة . فأمر مراد بذبح جميع الايرانيين[٣٥] أينما وجدوا وكان الكثير منهم قد التجأ الى المعسكر العثماني . فقتل الجميع وكان بين المقتولين ثلاثمائة زائر كانوا قد عبروا في تلك الايام لزيارة الكاظمين . وجيء بألف من الاسرى التاعسين بين يدي السلطان ، فأمر بقطع رؤوسهم فقطعت حالا . ولم يترك أي ايراني حياً لا في المسكر ولا فى حواليه ولا فى المدينة نفسها . ومن المحتمل ان هذه المذبحة لم يفرق فيها جيداً بين العرب والفرس لان عدد المقتولين كان عظيما يقدر بثلاثين ألفاً حسبما كتبه مؤرخو الباب العالي . وبهذا روت هذه المذبحة الاخيرة ، مع ذبح عدة من رؤساء المدينة مشكوك فى أمرهم ، عطش السلطان الفاتح للدماء .

وترك السلطان مراد بغداد فى السابع عشر من شباط ١٦٣٩ قاصداً الى تبريز . وخرج مع جيشه من باب الطلسم وأمر باغلاقه فبنيت فتحته . وبقي على حاله حتى القرن العشرين ولم يشرفه بالمرور منه أي سلطان آخر .

الجيبه‌چيه » وان التفريق بين الجند الامبراطوري لحماية المدينة والجند المحلي للاشتغال في الخارج مهم .

(٣٥) ان ما ذكره كريسي (ص ٢٥٦) في خبر « مذبحة في سكان المدينة » يقودنا الى غير الحقيقة . فان أكثر المراجع الاصلية تنص على أن أوامر الذبح كانت موجهة نحو الايرانيين مع أن غيرهم ربما كان قد تضرر بها .

الفصل الرابع
القرن السابع عشر

خصائص التاريخ العراقي في ١٦٣٩ ـ ١٧٠٤

ظل اسم بغداد قبلة الانظار في السياسة الامبراطورية منذ أن اغتصبها الصوباشي حتى استعادها السلطان مراد بتوفيق عظيم . ثم عادت فخمل ذكرها وأصبح تاريخها ، في القرون التي يبحث فيها هذا التاريخ ، ظاهر التشابه في حوادثه ووقائعه . وفي كل مائة سنة كانت الوقائع العظيمة والحوادث الجسام ، التي كانت تجري في النضال الواقع بين السلطان والشاه ، تعيد العراق الى الظهور فوق مسرح السياسة التركية . وقد حلت بعد استيلاء السلطان سليمان القانوني الاول في ١٥٣٤ ، فترة تسعين سنة من الزمن يسودها الخمول والهدوء . ومنذ ١٦٣٩ الى زمن تحارب الايرانيين والأفغان والأفشار تقضت فترة أخرى طولها ثمانون سنة ، كان تاريخ العراق خلالها ساكناً ليس فيه ما يستحق الذكر . ومرت مدة ، بين آخر الحروب مع نادر شاه ونهاية القرن التاسع عشر ، والعراق لا يخرج من عزلته التاريخية فيحتل الموقع الاول في الامبراطورية الا في الربع الثاني من القرن حين اتجهت الانظار لاصلاحه كما أصلحت بقية أنحاء الامبراطورية . اما اولو الشخصيات البارزة الذين كانوا يشيرون الى أهم الادوار من هذه القصة فهم السلطان سليمان والصوباشي ومراد الرابع ونادر شاه وأحمد باشا وداود باشا وعلي رضا .

رأينا في آخر ما ذكرنا ، ان بغداد قد احتلت ثانية . وفي أثناء المدة التي استغرقتها الحملة كانت كل عين في تركية وآلاف من العيون في أوربة كلها ترمق من بعيد جيش السلطان متجهاً الى العراق . وبعد هذه المسيرة التاريخية بأربعين يوماً أحرز السلطان انتصاراً مبيناً . فرجع بعده الى عاصمة ملكه فاستقبلته استقبالاً رائعاً يشير الى ظفره العظيم . وقد ظل الصدر الاعظم في بغداد بضعة

أسابيع بعده ليشرف على ترميم السور والابنية الحكومية ، ثم تبع السلطان الى العاصمة وترك البلاد وشأنها • ومنذ ذلك الحين حتى ستين سنة بقي تاريخ العراق لا يلمع بحوادث جسام ولا بشخصيات تاريخية شهيرة • ونحن لا يمكننا ان نبحث عن تاريخ هذه المدة الا بذكر بعض تفصيلات تاريخية في سيرة حكام بغداد ، وفي تمرد القبائل وهجرتها ، وفي انفصال البصرة • غير ان عدم وجود خصم قوي أو عدم ظهور متمرد جبار يستدير الى نفسه الانظار في هذا الدور جعل المدونات التاريخية شحيحة بتفصيل الاحوال •

وفي امكان المؤرخ العام ان يدرك ان هذا الدور لم يكن الا دوراً خاملاً أدى الى تثبيت تقاليد سوء الحكم التركي في العراق • فأن اطراد الامور في ديوان الباشا ، وشكل الحكومة وأسماءها ، والجيش المحلي والامبراطوري ، والطبقة البوروقراطية التركية القليلة الخاملة بتفكيرها وثقافتها التي كانت تمسك سكان الامور من أجلها وبواسطتها أصبحت كلها في العراق شيئاً اعتيادياً بحيث لم يبق من يفكر في نوع آخر من أنواع الحكم ، وذلك لبقاء مثل هذه الظواهر ثابتة غير متبدلة مدة سنين عديدة • وكانت هذه المدة هي التي مهدت للحكم التركي ان يمد جذوره ، وهو المؤيد بالتصديق الديني المدعوم بالسلفية المتأصلة • وكانت الحكومة الامبراطورية يومئذ تعتبر الولايات العراقية ممتلكات بعيدة غير مثمرة قد تكون في بعض الاحيان منبعاً للانباء المزعجة • حتى ان فخر امتلاك بغداد قد صيره مر الزمن شيئاً تافهاً ، لا سيما انه لم يكن هناك أي خطر ايراني • ولم تكن مشاكل الولاية الخاصة مجهولة عند أحد وهذه العصيانات المتكررة في جنوبي العراق تذكر الناس بها • على أن عراق هذا العصر ، مع أحواله هذه بأجمعها ، أصبح أسهل حكماً من مصر وسورية ونصف ولايات آسية الصغرى • حتى انه لم يكن مقلقاً بقدر العاصمة نفسها التي كانت تتمخض بالعنف والشغب • ولم تفتأ باشويات العراق ومحاكمه العدلية تحكم بحسب المنفعة أو المحسوبية أو الرشوة •

وكان المقيم في العراق يرى الاجيال يتلو بعضها بعضاً من غير خطة معينة للحكم ، لان مثله العليا لم يكن لها وجود • وكان الذي يؤيد الحكم الاخلاص الطنان للدين والدولة الذي كانت تستقي منه الحكومة سلطتها ، ولم تكن تدانيه في الاهمية الثقافة ولا حسن النية ولا الخبرة في الحكم • يرى ذلك كما كان

يرى الجوامع تؤسس من دون ان يرى فتح طرق ولا تأسيس مدارس ولا تشييد المستشفيات • وكان يرى كذلك ان الضرائب تزاد أو تعدل بلا قانون عام تجبى بموجبه • وكان يرى أيضا تعيين القضاة والضباط من دون أن يرى من يهيمن عليهم أو يراقبهم في أعمالهم • وكانت تحل مشكلة بعد أخرى من مشكلات العشائر بالعنف الشديد أو الاستسلام الناشيء عن الضعف • ولذلك لم يكن هناك من يجرؤ على درس مشكلة العراق الاساسية وهي مشكلة ادخال العشائر في حظيرة الدولة • وكانت هذه وامور كثيرة غيرها مثل نزاع الموظفين الكبار الذين يستندون الى القوة العسكرية ، والاصلاحات المالية والاجتماعية التي لم يقصد بها الا طبقة خاصة ، وشخصيات الحكام المختلفة المعينين بتأثير المؤثرات النفعية في استانبول ، كلها من الظواهر التي كانت غير خافية على رعايا السلطان في العراق •

هذا وستقتصر فصول متأخرة من كتابنا على البحث في حكم العراق الطويل الذي حكمت به العراق أسرة انفصلت بحكمها تقريباً عن الامبراطورية نفسها • ونحن نعجب كيف لم يؤد سير الاحوال حسبما ذكر وما يأتي – من استبداد محمد الاحمد وبكر وعصيانهما في بلاد نائية متفككة – الى الانفصال التام أو العصيان • غير أن شيئاً آخر غير الاحوال العامة المؤآتية في امكانه ان يؤدي الى نتيجة ما في التاريخ • فقد تكون الفرص مؤآتية على حقارتها أو تفاهتها ، ولابد لاولي الشخصيات من اغتنامها دائماً • فالابراج الماثلة تبقى طويلاً قبل سقوطها ، ويظل المريض يعارض من أجل الحياة ويقاوم الاوجاع قبل أن يموت • بمثل هذه العبر والاقوال المأثورة يمكننا تفسير ارتباط هذه البلاد بالامبراطورية مدة طويلة في عصر كانت فيه هذه الامبراطورية واهنة ضعيفة مضطربة نائية عن العراق موطن السكان الاجانب عنها الذين لا يقر لهم قرار ولا يخضعون لحكومة ، وكأنهم قد أجمعوا على منابذة تركية •

الخارطة القبائلية في القرن السابع عشر

حاولنا في صفحات متقدمة من الكتاب ان نراجع بايجاز جغرافية العراق في أيام الصفويين الاولى ، فبحثنا فيها بصورة عامة عن أحوال القبائل • على أن ذلك البحث لم يتوغل بالتفصيل الى الاسماء والامكنة • وفي الفترة الواقعة ما بين ذلك القرن ونهاية القرن السابع عشر حدث عدد عظيم من التبدلات في ديار القبائل

وتجمعها أو تفرعها وفي تشتتها واندماجها مما أدى لتعديل الخارطة القبائلية ٠ فكم من فقير أو مجازف قد التفوا حول سيد أو حول صبي من أبناء الرؤساء فكونوا قبيلة تسمى باسمه ٠ وربما زادت في عدد خيام هذه القبيلة والاحوال أو الحرب أو عقد الصلح أو قوة الشخصية أو كل هذه العوامل فأدت لتوسع القبيلة وانقسامها الى أقسام ينتمي كل منها الى ولد أو أخ من أبناء المؤسس الاول أو أخوته ٠ وقد تدخل الاساطير لتؤكد الاصل أو تقوم الفتن والاحقاد فتولد عداوات ومحالفات جديدة ٠ وكانت المراعي الجديدة والمجاري المتغيرة وضغط المجاورين كلها من العوامل المؤدية الى النزوح والهجرة التي لم تكن عواقبها لتستقر وتكمل ٠ ولذلك فقد يجري في موضع حلف يضم عناصر مختلفة من الهور والبادية والاراضي المزروعة ، وقد يفرق في موضع آخر انفصال طويل ، أو تصادم الشخصيات ، بين الفروع التي تمت الى أصل واحد أو أسم واحد ٠ وقد تحمل اسم قحطان العظيم أو تميم جماعة من الرعاة ، أو قد تتكون قبيلة قوامها عشرة آلاف خيمة من وحدة كانت تتألف بالامس من قبائل عدة ٠ وما كانت تمر سنة دون أن يتعدل خلالها انتشار القبائل أو تجمهرها ، على انه مع ذلك كله كانت القبائل كلها غير مختلفة في جوهرها ومصالحها وعقليتها ، وكانت مدنيتها وسياستها وقواتها واحدة ثابتة ٠ وهذا هو الذى يسمح للمؤرخ ان يتغاضى عن الخوض في البحث عن مثل هذه التبدلات العديدة فضلاً عن سماح فقدان المصادر لـه ٠ وما أشبه جسم القبائل بالجسم الحي الذي يبني أبداً ويهدم دوما ٠ وليس بوسعنا الا أن ندرس أمثال تلك العملية معينين الاسم والتاريخ للقليل من الخلايا التي لا حصر لها ٠

رأينا قبلاً كيف كان نفوذ ولاة الحويزة مطلقاً لا منازع له ٠ الا ان قوة جديدة غيرها ظهرت للوجود في أواخر هذا القرن ٠ فقد كان بنو كعب من قبائل عربستان السفلى[٢] التي تزرع الرز وتربي الحيوانات ٠ ومن المحتمل ان يكون ظهور هذه القبيلة قد سبقه تبدل في ديرتها ، وليس في الامكان الجزم بأن

---

(١) راجع لتاريخ بني كعب ما كتبه نيبور (الرحلة ، والتفصيل) ، وكتابات راولينسن ، وكتاب لايارد (ولاية خوزستان) ٠

(٢) عربستان عند القدماء من وصاف البلدان « خوزستان» « م٠ح٠ »٠

موطنها الاول كان في شرق شط العرب أو غربه[3] أو ان تابعيتهـا الاصلية كانت ايرانية أو تركية • عـلى ان أقدم مقر لها عقيب ظهورهـا كان في قبان • وكان ضعف الوالي وظهور شخصية قوية فيَ بني كعب قد أديا الى سرعة التوسع في نفوذهم • بينما كان الفريقان موجودين جنباً الى جنب عدة سنين •

وشهد الفرات الاسفل في أوائل القرن تكون اتحـاد قبائلي قوي • فكانت القبائـل السائدة في الغراف الجنوبي ، وهو النهر الرئيســي جنوبي السماوة ، وحوالي بحيرة الحمار ، بنو مالك والاجود وبنو سعيد • وكان مع هـؤلاء وتحت سيطرتهم مئة من الفروع من الجمّالة ومربي الجاموس • على ان هذه الجمهـرة كلها لم يكن لها اسم عام ولا رابطة معنوية تربط بين أجزائها سوى تشابه الحال بين الجميع وقرب بعضهم من بعض • فنشأ عن قدوم شريف من أشراف مكـة ملتجئاً من الحجاز ، وعن تحكيمه في النزاع الذي كان محتدما بين الأجود وبني مالك ، وعن قتله فيما بعـد وفرار بني مالك بابنه وهو طفل الى الباديـة ، وعن رجوعهم به بعد ان شب وكبر واصبح رئيسهم للقضاء على خصومهم ، من تاريخ كهذا بل اسطورة مثـل هذه[4] ظهرت اسرة آل شبيب المالكة التي قـدر لهـا ان تحكم مـــدة قرنين جمهرة القبائل المتحـدة الآن المسماة بـ « المنتفك » الاســم الشهير • وبوسع القبائل الاخرى في العراق ان تباهي هـذه القبائل بأصل أنقى او بتمسك أشد في نظم البادية ، الا انها لا يمكنها ان تدانيها في رهبتها لحكامها ، ولا في خضوعها لحكومة واحدة نشأت من بينها مدة طويلة ، وفي اشتهارها في العالم •

وفي السنين المتوسطة من القرن حدث جَيَشان عشائري عظيم في الجزيرة الواقعة في غرب الفرات وهو هجرة القبائل التي يمكننا ان نذكرها بايجاز ، مع ان هجرتها جرت بصورة تدريجية واستغرقت مدة طويلة • فكانت أحوال البـادية كأحوالها في جميع العصور • غير ان الذى يعرف حياة البادية اليــوم ويعلم ان الرئيس

---

(٣) قال القلقشندي في « نهاية الارب في معرفة أنساب العرب » ص ٣٢٩ ما صورته « بنو كعب بطن من عامر بن صعصعة والى بني كعب هذا العدد والعدة » فهذا يدل على أن موطنها كان في غربي شط العرب « م• ج » •

(٤) جمعت من المعلومات المحلية المأثورة ومن « مرآة الزوراء » •

الذي يبلغ عـدد خيام اتباعه الالف لا يملك السجاد ، ويجلس عــلى أرخص الحصر ، وليس عنده من الوسائل سوى رحال الابل ، قد يعجب اذا قرأ ما كتبه الرحالة تافيرنييه من وصف البذخ الذي كان عند عدة من القبائل فيهذا العهد • وكان يلقب كل من رؤساء البادية الشهيرين بلقب الامير أو السلطـان • وكانت « الـكجاوات المغطاة بقماش قرمزي مزركشـة حواشيه بالحرير » والخــدم والخصيان ، « والعدد العظيم من الخيول الجميلة المسرجة بأحسن السروج » ، ثم « الخيـام المصنوعة مـن القماش القرمزي الغليظ المزين بالقياطين الغاليـة الزاهية » ، كلهـا تدل على مقـدار الثروة يومئذ بالنسبة لمقدارها بين القبائل في العهود المتأخرة • وكان الامراء العرب في الفرات الشمالي قـد استوطنوا في امكنتهم منذ أيـام سليمان القانوني • وكانت في هــذا الحين عانة ودير الزور تابعتين لهم • على ان أهم حادث في هذا القرن كان هجرة شمر • فلا يخفى ان تاريخ العالم العربي هو تاريخ موجات بشرية متتالية تحركت من قلب الجزيرة ، وان هذه الموجات هي السبب في وجود القبائل العربية في العراق • وعلى هذه الشاكلة جرت هجرة قسم كبير من شمر في ١٦٤٠م (١٠٥٠ هـ) من نجد الى الشمال ، وكان قائدهم الشيخ فارس •

وكان من السهل عليهم في أثناء هجرتهم ان يهددوا الحاميات القليلة فـي البلدان الفراتيـة فيطلبوا المال منهـا • وقـد خربت تدمر ، واخضعت القبائل الصغيرة بسهولة • ثم استمرت الحرب مع الموالي الاقوياء مـدة عشرين سنة • وغدا المستولون سادة في المراعي الخصبة • ويروى في هذا الحادث ان المدافعين عن أنفسهم ــ وهم الموالي ــ قد اقترفوا أعظم عار في عرف البادية ألا وهو قتلهـم رسل أعدائهـم الشمريين في خيمة الضيوف نفسهـا • فانتهى أمر الموالي ، بأن تراجعوا الى الحدود السورية ، ولم يعودوا من القبائل السائدة • اما عنزة التي لم تكن في بادىء الامر أشد من غيرها وقوفاً لمضادة الدم الجديد المتدفق من نجد فقد استعادت عزتها وجمعت قواها فحفظت موقعها وهي تشن الغارات المقابلة على العدو مدة قرن تقريبا • وقد وفقت في النتيجة للظفر ، ودفعت شمر عبر الفرات الى الجزيرة • وما تزال الاساطير تروى في خيم الضيوف مخلدة الفتح الشمري العظيم •

وكانت القبائل في سقي دجلة الوسطى والجنوبية تتحرك على الشاكلة نفسها الى مواطنها الحالية • وفي هذا القرن ورد في الروايات تأسيس قبيلة البو محمد التي أسسها زائر جاء من ديرة أخرى • وفي هذا العصر أيضا ، أو في حدوده ، تخاصم حافظ ـ وهو حفيد لام الاصغر ـ وبراك سيده من سلالة الحويزة (وهم بطن من ربيعة) فأسس قبيلة بني لام في أراضيها الحالية التي احتقرت الزراعة فيها ، وخاصمت جيرانها اللريين ، ثم حصرت ديرة ربيعة في مفترق الغراف عن دجلة •

وكان آخر مثال يدل على نمو القبائل وتبدل عالمها في هذا العصر تأسيس سلالة كردية • وهذا التأسيس يفوق قابلية القبيلة الواحدة ، ويتعدى بنفوذه حدود السهول العراقية • فقد سبق ان ذكرنا شيئاً عن أسرة البيگات السورانيين القديمة النبيلة في كردستان الجنوبية ، حيث كانت تنتسب هذه الاسرة الى جمهرة قبائل المكري قليلاً ، الا انها كانت تمت بالصلة القريبة الى قبيلة پشدر • وكانت بلادها في الاودية الواقعة الى شمالي كوي سنجق وشرقها • اما صلة الاسم « بابان » بسوران وپشدر فغير واضحة • غير ان الواضح هو ان رجلاً اسمه احمد الفقيه (فقي أحمد) ظهر في أوائل القرن السابع عشر في بلاد البشدر فحمل أسم بابان لاسرته، وأورثه سلالته من بعده • وقد جمع حوله في أيام حياته أتباعاً كانوا ينهضون باظهاره حق الاظهار بين جيرانه • وقد ساعدت ابنه ماوند دعاواه المختلفة في شرف أصله ، ومهدت له شخصيته ونجاحه توسيع نفوذه على شهربازار والاصقاع المجاورة • على ان المؤسس الحقيقي لمآثر أسرة بابان العظيمة هو سليمان بك بن ماوند • فما حل النصف الثاني من القرن حتى كان هو صاحب الشخصية البارزة الوحيدة في شهرزور • وكانت فرصة وجود والي أردلان الضعيف المنهمك في اللذات قد مهدت توسيع حكمه • اذ استولى سليمان بك (الذي شحذت أطماعه قصص طيش سنه وتفسخها ، وكان وهو في أوديته النائية لا يعبأ بالسلطان ولا بالشاه) على أردلان في ١٦٩٤م (١١٠٦هـ) واحتل عدة مناطق ، وقتل اثنين من الحكام المحليين • على ان قوة ، قيل انها تعد ٤٠,٠٠٠ مقاتل ، أرسلها الشاه في السنة الثانية لمساعدة الامير الاردلاني تمكنت من دحره بعد ان خسرته ألوفا من رجاله بين قتيل وأسير • فالتجأ

سليمان بك[*] الى استانبول وفيها قوبل بحفاوة بالغة ، واعطي سنجق بابان الذي ضم رسمياً الى پاشوية كركوك ، وكان مقره الخاص في قرية قرەچولان ، وقد جاء في أساطير أيامه حادثة تعرض جرت في أحمد كلوان واشتهرت طويلاً فيما بعد ، لان اثني عشر رجلاً - بحسبها - من أتباع البابانيين قضوا على قوة من الايرانيين تبلغ عدتها آلافاً .

ووقع قسم كبير من ولايته بعد وفاته في أيدي الزنگنة والقبائل الاخرى وترك قسم منها لابنائه ، فتنازع فيهـا هؤلاء وآل النزاع الى ان يتولى بكر بك بعد تيمور خان ، على ان ذلك لم يحدث قبل ان تؤدي مشاحنات الابناء الى حلول سنوات شعر الجميع خلالها بصرامة الحكم التركي الذي جاء به باشا شهرزور ، ثم تلاشى النفوذ التركي هذا ، فظهر بكر وأصبح نفوذ آل بابان سائداً بين ديالى (سيروان) والزاب الصغير ، في جميع البلاد الهضابية الكائنة في شرق كفري - آلتون كوپري ، وبذا صار بوسع البك البـاباني أن يضاهي حكام أردلان ، وان يرحب بقبيلة الجاف ويحميها معتبراً أياهـا قبيلة تابعة له عندما هاجرت مـــن جوانرود الى منطقته ، وقد نمت هذه الدويلة ، التي كان يتولاها البك الحاكم ، بازدياد ما كان عنده من قوة ومنعة ، لاسيما وقد كانت هناك بطبيعة الحال علائم تدل على ما كان يتصف به أحفاده من حضارة متفوقة الى جانب الاخلاص الملهم وقوته النادرة .

---

(٥) ذكرت عدة من المدونات التاريخية ان اندحار سليمان بك (أي « بابا سليمان ») كان بتأثير القوات التركية والايرانية معاً ٠ وذكرت مدونات أخرى ان الاتراك اكتفوا بارسال « ايلچي » للامير الكردي يلح عليه بلزوم التعجيل في عقد الصلح مع الايرانيين قبل أن يستفحل أمرهم فيتوغلوا فى الاراضي العثمانية ٠

وربما كان تعديه الى داخل ايران قد حدث بعد ذلك فى سنة ١٦٩٤ م ، وكان اندحاره على أيدي الايرانيين سنة ١٦٩٥ م (١١٠٧ هـ) ومن المحتمل ان حملات الترك عليه كانت بعد هذا الحين أي فى ١٦٩٨ م و ١٦٩٩ م وكان سببها بلا شك خوف الاتراك من استفحال أمره وعدم احترام جيرانه الترك ٠ فعين والي بغداد « سر عسكر » وأخذ معه باشا ديار بكر وحلب ٠

وان مجرى هذه الحوادث غير واضح غير ان نجومه الاول وتحديه لايران وتأديبها له ، واعتراف الاتراك به ، وظهور نفوذه بعد ذلك ، واضح تماماً ٠

بغداد وحكامها في ١٦٣٩م (١٠٤٩هـ) - ١٧٠٤م[٦] (١١١٦هـ)

كان الهم الأول لحسن باشا الصغير ، عند تعيينه حاكماً لبغداد بعد سقوطها في يد مراد ، ان يرمم العتبات والابنية الحكومية ، وان يجتذب الى بغداد السكان الذين التجأوا فزعاً الى القبائل ، وان يعتني ببساتين القصر ومرافق الانس فيه . وكان الباشا ألباني الإصل مشهوراً بالشجاعة .غير ان الصدر الاعظم قره مصطفى، عندما ترك بغداد في أوائل مايس ، كان يرى فيه غير الشخصية القاسية التي تحتاج اليها مثل هذه الولاية . فحل محله في الحكم درويش محمد ، فلم يستحسن اندفاعه ولا قوته حتى في الامور التي استحسنت فيها الطمأنينة الناشئة عن تأديباته العاجلة . وكان هذا الرجل عجيبا في طوله وقامته ، كما كان شارباه العظيمان متدليين الى ما يقارب المحزم . وكان اشباعه لرغبته في الترف باختلاس الاموال أقل من اشباعه لها بالمضاربة في بيع الحبوب والحيوانات بمقياس واسع، وكان منصبه كحاكم يساعده في الحصول على أرباح طائلة بهذه الطريقة . وقد حدث في أيامه الاولى ان قام مهنا شيخ الخزاعل في منطقة السماوة فنشر الفوضوية في كل فج الى ما وراء الجزائر وذلك بسلطة الشاه التي كان يدعي بها . فبعث له درويش محمد كهيته علي أغا ، ففرق جموعه من الثائرين معه بسهولة وقتل منهم خلقاً كثيراً ، ثم بعث الى بغداد بستمائة رأس من رؤوسهم . ونحن غير مخطئين اذا تصورنا ان حوادث مثل هذه كانت عديدة خلال السنوات الثلاث التي قضاها درويش محمد في الباشوية ، وان الامن كان مستتباً أحسن الاستتباب نسبياً .

وتلاه في الحكم حسن باشا نفسه فحكم مرة ثانية ، وهو المتوثب المتحمس والمحبوب الرحيم . فحكم سنتين لم تضطرب البلاد خلالهما ولم يحدث فيهما ما يستحق الذكر ، سوى زيارة امام قلي ملك تركستان لبغداد وهو في طريقه الى الحج في مكة . وقد عززت مراكز الدفاع في قلعة بغداد بأبراج أكثر منعة . وأعقب حسن الصغير حكام لا يعرف عنهم شيء الا نبذ عن صفاتهم وسجاياهم .

---

(٦) راجعنا في سبعة أثمان معلوماتنا في هذا البحث كولشن ، ومن النقاط ما راجعنا فيه كتاب تافيرنييه واوليا أفندي وغودينهو وثيفنو (الرابع طبعة ١٧٢٧ م) وسور دوفال ، وذكرت مراجع البصرة على حدة .

فقد حكم حسين باشا ، وهـو رفيق السلطان مراد المرح المسمى « المجنون » لشذوذ طباعه ، مدة خمسة أشهر . فكان يعرفه من جـاء من بعده بأنه مشيد[7] جامع قمرية ، كما عرفه معاصروه بجولاته الليلية متنكراً في الشوارع والازقة ، ومتجسساً عـلى كل عابث ومخالف ليعاقبه هو بنفسه . وبذا انتشر الرعب في الخارج ، ولكنه كان رعباً مؤدياً الى سلامة الاسواق والجوامع المكتظة . وكان خلفه محمد أغا رابط الجأش من أغوات الانكشاريين ، فحكم سنة واحـدة . وقوبل تحمس خلفه موسى باشا ، المعين في ١٦٤٥ م (١٠٥٥ هـ) والذي حكم سنة واحـدة ، وعدلـه بالثناء الحسن والاستحسان . وسوف نبحث عن تاريخ الصدام الذي جرى له مع أمير البصرة فيما بعد .

وكان ابراهيم باشا ، المعين في خريف ١٦٤٦ م (١٠٥٦ هـ) ، جذاباً بصباه وشكله الا انه كان مغروراً عنيداً ، فسببت له سجاياه هـذه الفتن والقلاقل . إذ دب الخلاف بينه وبين أغوات الحامية ، وقربت الأزمة عندما انتشـر نبأ وفاة صالح باشا الصدر الاعظم الذي كان يستند اليه باشا بغـداد هذا . فلم يصدق ابراهيم بالاشاعة ، غير انه صالـح الانكشاريين وواصل سيرته الهادئة . وظهر على حين غرة وكيل خلفه ، أي متسلم أو مندوب موسى باشا السمين[8] . غـير ان وحدات الجيش المحلي تجاهلت هذا العزل وأيدت الباشا الذي سجلهم في الخدمـة ودفع لهم الارزاق . ورجح الانـكشاريون الامبراطوريون ان يتبعوا نيات سيدهم السلطان ويمنعوا وقوع النزاع بين الخصمين في بغـداد . فالتقوا في الميدان . وارسل ابراهيم ، وقـد طلبوا حضوره ، نائباً عنه غير انهم أصروا على وجوب حضوره بنفسه . فأذعن الابله الاخرق لهم وأجاب طلبهم ، فأحاطوا به واعتقلوه . الا أن القوات المحليـة بقيت تأبى الاعتراف بخلعه ، وبقي الحـال معقداً ثلاثة أشهر يتخللها عراك في الشوارع وفوضوية منتشرة . فوصلت أخبار هذه الاحوال الى الباب العالي ، فكانت حجة مترقبة لمناوئي ابراهيم الاقوياء للقضاء

(٧) الصحيح انه مجدد بنائه لان هذا الجامع بل المسجد كان من مباني الدولة العباسية في أوائل القرن السابع للهجرة « م.ج » .

(٨) استقيت القصة التالية من گولشن ، ويؤيدها بصورة عامة الفون هامر (الكتاب العاشر ص ١٤٠) .

عليه فأوفد رسول سلطاني الى بغداد يحمل حكم الاعـــدام • فأعدم ابراهيم ، ووضع نائب في منصبه حتى يصل الباشا الحديث • وكان موسى باشا ، وهو من خصيان البلاط الامناء ، قد اشتهر بالبدانة المفرطة • ولما كان غير قادر على الحركة وعرضة لمزاج حاد أحاط نفسه بأحط أنواع المشاورين • وكان يحكم بالاعدام – على ما جاء في المعلومات نصف الصحيحة – على اناس زعم انهم اعوان ابراهيم ، كما أخرج جمعاً غفيراً من المدينة • وهرب الكثيرون ، من مجرم وبريء ، الى منفى وبيل في ايران مخافة أن يصيبهم غضب الحاكم العصبي السمين • واتخذت الخطوات في الفترة نفسها لزيادة الحامية في بغداد ، لأنها لم تبرهن على كفاءتها في المنازعات التي حصلت أخـــيراً ، لا من حيث النوعية ولا العـــدد • فتسلم باشوات ثلاثة من الولايات المجاورة الاوامر ببعث قسم من قواتهم للعراق • ومما بقي طويلا فى ذاكرات الناس في بغداد بهذا العهد سفارة محمد قلي سفير الشاه الذي قدم في ١٦٤٨ م (١٠٥٨ هـ) ومعه عدة فيلة هدية من سيده الى السلطان• ثم عزل الباشا السمين في الايام الاول مـــن سنة ١٦٤٩ م (١٠٥٦ هـ) عندما تسلم خصمه القديم مراد باشا منصب الصدارة العظمى •

وتولى الباشوية من بعده لسنة واحـــدة أحمد باشا وكان ورعاً محبوباً ، يلقب « الملاك » • فقد جاء الى بغداد من ديار بكر ، وتركها بعدئذ ليصبح صدراً أعظم • وصار بوسعه أن يقوم وهو في منصبه الاخير بالخدمات الجلى للعراق • فقد علم ، عندما كان حاكما في الولاية ، خطأ طريقة الضرائب وسوء الاستعمال في تطبيقها • فأمر وهو الصدر الأعظم بوجوب تطبيق طريقة الجباية المقطوعـة « الضمان » ، واعطاء الضرائب بالمعاملة والالتزام • وكانت النتيجة الاولى لذلك ازدياد الواردات فاستفادت الخزينة الامبراطورية منها فوائد عظيمة • غـير ان جمع هذه الواردات – على عكس ما توخاه الوزير من رحمة – أدى الى ظلم أشد مما قبله كان ينزله في الناس مئون من الجبـاة العاسفين الذين كان واجباً على السلطة الملكية تأييدهم • وقد حكم بغداد لاقل من سنة واحدة مالك احمد (١٦٤٩)   وكان كاتبه المدعو غني محمد حقوقياً وحاسباً ذائع الصيت •

وقصر أمد حكم أرسلان باشا الحازم الممتد ستة أشهر بوفاته بداء المغص • فدفن تحت القبة في تربـة أبي حنيفة • ثم تلاه في الحكم شاطر حسين باشـا ،

فكان شبيهاً بمالك أحمد شخصية وسلوكاً • وقد جلبت له عنايته بالامور الدينية وبالاعمال الخيرية احترام الجميع ، وكانت شخصيته المؤنسة حديث الناس في الانـدية • فمات في البـاشوية وهـو في ريعـان شـبابه ، ودفـن في جامـع الشيخ عبدالقادر الگيلاني • وكان العرف ، في كل حادثة تتضمن موتاً فجائياً ، ان ينتخب « متسلم » من ديوان الباشوية ليقوم باعباء الحكومة حتى يصل الخلف الحديث بعـد شهرين أو ثلاثـة • وعـين في صيف ١٦٥١ م (١٠٦١ هـ) قره مصطفى باشا • فقدر له ان يتقلد الباشوية ثلاث مرات لما كان يتصف بـه من جاذبية شخصية وتواضع وثقافة وذكاء • فألغى خلال تقلده الباشوية للمـرة الاولى ـ وقد دامت سنتين ـ التدابير المالية السيئة التي أمر باتباعها مالك أحمد •

وكان مرتضى باشا شخصية بارزة من شخصيات هـذا القرن • فقد عين لبغداد في ١٦٥٣ م (١٠٦٣٠هـ) بعد ان حكم ولاية دمشق وولاية ارضروم • وكان منبع شخصيته خياله الحي • فكان طوال مـدة حكمه صديق الفقـراء والجهال بتحمل مفرط وعطف حي ، لكن مزاجه العنيف في أوقات أخرى لـم يسلم منه البشر ولا الحيوان • وكان يشبع ولعه بالبذخ والتجمل النزق ، غـير المصحوب بالاتزان والوازع الاخلاقي ، باقامة الاحتفالات الدينية ، وبتوزيع العطايا بصورة جذابة للنفوس ، وبعرض الوان مخزية مـن الفحشاء • الا أن أمن الولاية كان مستتباً • فقد أضاع في أيامـه الموظفون الكبار حياتهم لادنى شـك يشك فيهم أو أقـل ريبة يرتابها بهم ، وكان يعقب أقـل تلويح بالفتنـة ببطش وتمثيل • وكان يحدث في عهده من جهة أخرى ان كل رجل من قبائل البادية كان بوسعه أن يدخـل القصر من بين الحراس النيام فيقلق راحة الباشا بقصة مهيجة لخطأ طفيف ، فيجد منه اهتمام الاب الشفيق • ونرجيء البحث عن حملته عـلى البصرة وتوفقه فيها بعض التوفق الى صفحات غير هـذه • وبعد عودته منها وجد الفوضوية قد ضربت أطنابها في المدينة وفي جميع أواسط العـراق • وكان في نيته ان يجدد الحملة على البصرة ، غير ان الباب العالي لم يؤيده في ذلك فبقي في بغداد يقضـي أيامه مفعمة بالكآبة والغم • وبعـد سنتين[٩] نحي عن

(٩) يذكر كولشن ان حكمه انتهى فى ١٨ تموز ١٦٥٥ م (١٤ رمضان ١٠٦٥ هـ) غير ان اوليا أفندي (ص ٣٩٢ من الجزء الرابع الطبعة ١٣١٤) وصل بغداد فى ربيع الاول ١٠٦٦ فوجد مرتضى باشا فيها •

حكومة بغداد ونقل الى حلب .

وكان محمد باشا الابيض ، الذي حكم بغداد سنة وأربعة أشهر ، مقداماً رياضياً ، لكنه كان عليلاً في صحته . وأتاحت له فتنه وقعت بين الجيوش المحلية ان يلقي درساً مفيداً في الطاعة . فقد استدرج بخدعة الخبيث الفاسق رأس الفتنة الذي قاد هؤلاء الى الحضور بين يدي الباشا ، فلم يبق رأسه على مقيله دقيقة واحدة كاملة . غير ان أحلافه اجتمعوا للانتقام له والثأر به . ففكر الباشا ، وهو الباشا الابله ، ان يفرقهم بظهوره بمظهر غير الخائف . فخرج يوم الجمعة على حصان له ومر في الشوارع الى الجامع ، ثم وصل الى الفضوة التي كان المتمردون مجتمعين فيها . فرماه الاوغاد الذين كانوا كامنين في المقاهي بالحجارة ورموا حاشيته معه . فقتل جنديان من اللاوند ، وقمعت الفتنة بسهولة . وعلى هذا نال الباشا بشجاعته الصريحة لقب « آق » أي أبيض .
وهناك حادث آخر يذكر عن هذا العهد نفسه فيدل بايضاح على حالة الموظفين الاتراك ، وهو قدوم آغا حديث من أغوات الانكشاريين الى بغداد ووصول خطاب من الباب العالي بعده يأمر باعدامه . فنفذ الحكم في الحال ، واعيد الآغا السابق .

وهنا يمكننا ان نقطع البحث عن الباشوات المتعاقبين لننظر نظرات أخرى الى عاصمة ولايتهم . فان عدد الاوربيين الذين مروا ببغداد قد كثر ، وترك قليل منهم مذكراته لزيارته هذه . فقد وجد مسافرون افرنسيون فيها سنة ١٦٤٩م و ١٦٥٢ م و ١٦٧١ م و ١٦٩٥ م ، كما وجد النديم التركي اوليا أفندي سنة ١٦٦٦ وجزويني برتغالي في ١٦٦٣ . ولم ينعدم وجود جماعة من الافاقين « المشردين » الاوربيين بين الاغوات أنفسهم . وجيء الى اسقفية بابل الكاثوليكية الافرنسية المؤسسة في ١٦٤٨ م بالرهبان ، وكان أيضا واحد أو اثنان من تجار الولايات الايطالية يقيمان في بغداد ويترددان الى البصرة وحلب . وغدت مراكز دفاع المدينة في سني القرن الوسطى هذه بحالة خراب مألوفة في زمن السلم . كما صارت المدافع ، الصغيرة والقديمة ، على كثرتها غير مخيفة . وبقي الجانب

الايمن غير محصن . وكانت الحامية في القلعة ، كما وصفها سائح[10] لبق :

« متألفة من ثلاثمائة انكشاري وقائدهم الاغا . ويحكم المدينة باشا يكون غالباً ذا درجة وزير . وداره على جهة النهر ، ولها منظر جميل . وفي تصرفه في أي وقت كان ستمائة أو سبعمائة خيال . وهناك أيضا أغـا يقود ستمائة أو سبعمائة سپاهي . وعندهم ما عـدا هـذه صنف من الخيالة يسمى « جنگوليلي » أي رجال الشجاعة يقودهم أغوان اثنان . وفي المدينة والبلدان المجاورة بحسب العادة ثلاثة آلاف من هؤلاء . وتعهد مفاتيح أبواب المدينة وباب الجسر الى أغا آخر في امرته مائتان من الانكشاريين . وهناك أيضا ستمائة من الرجالة الذين لهم اغـا خـاص بهم ، وحوالي الستين مدفعياً كان يترأسهم في ذلك الـــوقت (١٦٥٢ م) (١٠٦٣ هـ) فني مختص كان يدعى السنيور ميكائيل ، وكان يعـــد تركياً على كونه مولوداً في كاندي . وكان قد وضع نفسه في خدمـة السنيور الكبير عندما ذهب لحصار بغداد في سنة ١٦٣٨ م (١٠٤٨ هـ) » ... « امـــا حكومة بغداد المدنية فليس فيها غير قاض يقضي كل الامور ويتوكل حتى عـن المفتي ، مع دفتر دار يتسلم واردات السنيور الكبير . ويوجد فيها خمسة جوامع اثنان منها حسنا العمارة مزدانان بالقباب المغطاة بالآجر[11] المصقول بشتى الوانه. وهناك أيضاً عشرة خانات كلها غير عامرة الا ان اثنين منها كانا أحسن من سائرها . والمدينة من حيث الحكم العام غير عامرة خالية من مظاهر الجمال عدا الاسواق المسقفة بالطوق ، ولولا ذلك ما أمكن التجار أن يتحملوا الحرارة . وهذه يجب ان ترش أيضاً ثلاث مرات أو أربعا في اليوم ، ويؤجر لذلك جماعات من الفقراء تدفع لهم الاجرة من الحساب العام . والمدينة ملأى بالتجارة ، وأقل من امتلائها منها في عهد ملك ايران ، لأن الترك عندما تسلموها قتلوا كثيراً من أغنياء التجار . ومع هذا ففي المدينة مجتمع عظيم لناس من جميع الجهات ، ولا أدري هل ذلك من أجل التجارة أو للتدين . وفيما عدا هذا أنه على كل من يرغب في الحج الى مكة على طريق البر أن يمر ببغداد ففيها يجبر كل حاج على دفع أربعة قروش الى الباشا » . وكان هذا من أهم أسباب الاصطدام مع الشاه . على ان معظم المسافرين

(١٠) تافيرنييه ص ٨٤ من الطبعة المشار اليها آنفاً .

(١١) لعله أراد الكاشي « م. ج » .

والتجار كانوا لا يعتدى عليهم الا قليلا ، كما ان منهم من كان يثني على أساليب رجال الكمرك المتقنة .

وقد عاش النصارى واليهود في ظل نظام كان التساهل فيه يزيد على ما كان منه في الولايات الاخرى . فان بغداد كانت عالمية (والمذاهب الاسلامية نفسها مفترقة جداً) الى حد انها لا تشجع شيوع التعصب . يضاف الى ذلك ان هذه الاقليات كانت تسلك سلوكاً حسنا ، كما كان الناس قد الفوهم نظرا لطول اقامتهم ولعدم وجود ما يمنع اختلاطهم بباقي السكان . الا انه كان من المنتظر أن يكون بينهم ما يفرقهم عن غيرهم كما كان الامر في دمشق والقاهرة . فربما كان من المحذور عليهم أن يمتلكوا الرقيق الابيض أو يركبوا الخيل ، لأن حصتهم من هذه الاصناف كانت العبيد والزنوج والحمير . على ان التحقير الاعظم ، الذي كان يقضي بعدم الركوب مطلقا أو بالنزول عند مرور سيد من السادة ، كان لا يؤتى الا قليلا .

وكانت الطوائف النصرانية هي نفسها كما وجدت فيما بعد . فقد كان للنسطوريين كنيسة خاصة بهم وكانت « الأخويات » الدينية ممثلة بالكبوشيين والكرمليين . ولم يتدخل الاتراك في ترددهم الى الكنيسة ولا في أقامتهم للشعائر النصرانية بأكثر من فرض رسم للدخول عند ذهابهم لكنائسهم ، أو أن يتدخلوا مضطرين في شراء أطفالهم عبيداً أرقاء عندما كانت نفقات مأتم كبير تفقر عائلة ما لهذا الحد من الافقار . على ان أثقل حمل كان يثقل كاهلهم - ويشترك في ذلك في الحقيقة القس مع المسلم العامي والزائر الايراني مع الراعي أو الحمال - هو التجاؤهم الى استعطاف الحكام العابثين الجهال الذين كانوا يلتهبون بحب المال وبالتعصب الديني تجاه الاقليات الضعيفة الغنية .

وجاء بعد محمد الابيض محمد باشا الخاصكي في أواخر ١٦٥٦م (١٠٦٧ هـ) بعد أن تولى حكومة مصر وحكومة دمشق . ولم يغط سخاؤه بلاهته الصبوية[١٢] التي كانت تظهر فيه في تصريف الامور ، ولا الاساليب البالية وحب الابهة .

وعلى هذا سرعان ما انحل أمر الضبط بين الجيوش المحلية وتسربت الخمرة والنساء الى الثكنات العسكرية . وشبت في خريف ١٦٥٧ م (١٠٦٨ هـ) ثورة

---

(١٢) الصبوية منسوبة الى « الصبي »

عشائرية في منطقة الجزائر فاقتضى ذلك ارسال رتل من الجيش للتأديب • غير ان الفتنة نشبت بين أفراده قبل الوصول الى الجهة التي اتجه اليها ، فهب الجنود القدماء لقمعها واعادة الضبط بين الافراد فلم يفلحوا في مسعاهم وماتوا شـهداء واجبهم • فترك أمر الحملة وتشتت الجيش ورجع الى بغداد • اما خاصكي محمد فقد أزعجته أنباء ذلك ، ودعا كبار الاغوات من انكشاريه الذين كان جل تعويله عليهم • فقرروا أن يسدوا أبواب المدينة في وجه الفلول الراجعة حتى يسلموا اليهم رؤوس الفتنة • فاغلقت الابواب ثلاثة أيام وخيم المتمردون في أثنائهـا في الخارج وما كادت الخطة تنجح حتى حدث ما نقضها من أساسها • فقـد هيـج المتذمرون من الانكشاريين أنفسهم خلسة في ليلة ظلماء جميع أحلافهم ، وأعدوا قوتهم فكانوا على استعداد عند الفجر فاقتُحم السراي وطلب الثوار ثلاثة مـن الموظفين الكبار في مقابل انسحابهم • فقبض على أحد هؤلاء السيئي الطوالـع واعدم في أول يوم جرت فيه معارك الشوارع • وصرخوا مطالبين بدم الثاني ، وهو رجل بريء تماماً ، في اليوم الثاني • فلم يستطع الباشا تسليمه ولا حمايته ، فطلب اليهم أن يفتشوا عنه بأنفسهم • فوجد وذبح في الوقت الذي تعالى فيه صوت المؤذنين من كل مأذنة يدعون فيه الناس للصلاة • أما الفريسة البشرية الثالثـة المأمول افتراسها فقد فر من بغداد والتجأ الى العشائر ، فنهب الرعاع بيته مـع بيوت كثيرة أخرى •

إلا أن الشدة قد انتهت واستطاع كبار الانكشاريين ، الذين خابوا في الحيلولة دون حدوث التمرد أولاً ، تهدئة الثورة في هذه المرة • وكان الباشا قد فر الى خارج المدينة • كما كانت مطاليب العصاة الاولى قد وقعت بأيديهم • فتجهم لهم الرأي العام • ونظم أغوات الانكشاريين استعراضاً للقوة ، فرجع الكل الى مراكزهم وكونوا وحدات مخلصة • أما الجيش المحلي ، الذي أصبح الآن متشوقاً للانضمام الى الانكشاريين في العرض فقد رفض وطرد أفراده من ساحة العرض • وأما الباشا في الخارج فقد خف الى بغداد عند سماعه بتحسن الحال من الكاظمية ، وكتب بلهجة شديدة الى الانكشاريين الذين أصبحوا الآن من المخلصين بتسليم كبار المحرضين • فسلموهم أخيراً فأعدم أكثرهم اعداماً مستحقاً وعوقب الآخرون بقطع الرواتب وبحرمانهم الامتيازات • فانتهى بذلك دور تعس

بعد أن دام أربعين يوماً .

وكانت حاكمية خاصكي محمد تذكر بحوادث أخرى أقل أهمية من حوادث سوء الحكم . فقد مرت من بغداد قافلة حسين آغا سفير السلطان الى البلاط المغولي في الهند . وشيع رسول ايراني ، بعثه الشاه عباس الثاني مع هدايا نفيسة الى استانبول ، عند مروره بالعراق . وعاد اسماعيل آغا بعد ان رد الزيارة الى أصفهان بسفارة ملكية ، ثم مات في بغداد . وعرفت سنة ١٦٥٦ م (١٠٦٧ هـ) بالفيضانات . فانتشرت المياه كالبحر في سهول العراق ، وخربت ضفاف الجداول القليلة وملأتها بالغرين والتقن ، ثم جرفت منازل القصب والطين بأجمعها . كما تصدع سور المدينة تصدعاً عظيماً عندما امتلأ الخندق المحيط به ماء وتسرب الماء الى أسسه . فلم يدخر الباشا في ذلك مالاً ولا جهداً . فعزي الفضل اليه مدة طويلة من بعده في اصلاح ابراج السور وانشاء المسالك المتقنة على طول الطريق الموحلة . ولأجل ترميم مواقع الدفاع في بغداد ــ وقد دل التاريخ العاصف على عدم امكان بقائها من دونها بالنسبة للمدن الاخرى ــ أصدرت أوامر السلطان الى باشوات الموصل وديار بكر وكركوك بارسال القطعات . فبقيت مخيمات هؤلاء تحيط بالمدينة حتى أمروا بالرجوع على وجه السرعة لمحاربة وزير الاناضول السارق اباظة حسن . وكان خاصكي محمد ، وهو المتدين من الطراز القديم ، قد بعث بالذهب الى المدينة لتحسين حالة القبة ، ثم أضاف منارة الى مشهد النجف ، وقوبل بثناء أعظم عندما هدم كنيسة نصارى ليشيد في موقعها جامعاً[١٣] . وانتهى حكمه الممتد لثلاث سنين في منتصف صيف ١٦٥٩ م (١٠٧٠ هـ) . وتلاه مرتضى باشا الذي تسلم حاكمية بغداد ثانية .

وكان مرتضى ، منذ أن ترك بغداد ، قد أبلى بلاء حسناً في قتال الثائر أباظة حسن . أما الآن فقد قدر بغداد بتفضيله الخدمة فيها عوداً على بدء على خدمته في ديار بكر ، وقبل حكومتها على شروط معلومة وهي : اعادة حفر الدجيل الذي تراكم فيه الغرين ، وجمع الواردات الرئيسية لخزانة الدولة ، والارسال

---

(١٣) يعني بذلك « جامع الخاصكي » المعروف اليوم ببغداد ولا نشك في أن ارض الجامع هذا كانت من دار الامامة العباسية ومباءة الخلافة الهاشمية ــ بحسب علم الخطط ــ والقديم على قدمه « م. ج » .

بمأتي كيس من الذهب سنوياً الى استانبول مع كمية من البارود • فادر وهو في مخيم سلفه خارج بغداد ، الى فحص حسابات الايالة • وأعلن دين الحكومة الباقي في ذمة محمد خاصكي فكان ستمائة كيس ، فصادقت استانبول على المبلغ • غير ان تضرعات المديون خفضت ذلك الى خمسمائة كيس ، لكن مناوئة الصدر الاعظم محمد كوپريلي له حالت دون التمادي في التنزيل • وبعد أن دفع شيئاً من الحساب أولم له خلفه وليمة ملكية • ثم انصرف مرتضى للقيام بواجبه الثاني وهو تطهير الدجيل • فأنجزه بالعمل المنظم خلال ثلاثة أشهر • وتلت ذلك اصلاحات مالية مهمة • فقد شطبت بعض الهبات الحكومية المقطوعة والغيت العائدات شبه الرسمية التي كان يتقاضاها موظفو المالية علاوة على رواتبهم • وبعد ذلك اجريت الترتيبات الثابتة لتلافي مسؤولية بغداد الجديدة نحو العرش ، وهي دفع الجراية السنوية الى الخزانة الامبراطورية مع مقدار من البارود • غير انه لم يجمع من الديون المعلقة الا القليل ، لان تفسيراً بارعاً للتقويم أظهر عدم وجود كثير من الدين[14] • وأمن الباشا على مركزه هو بالهدايا الوفيرة للسلطان في استانبول •

وكان حكم هذا الوالي الشاذ محموداً لتوطيده دعائم الامن باخماده العاجل للحركات القبائلية ، وبطوافه الليلي في انحاء عاصمته بين حين وآخر • على أن هذا الحكم كان ممقوتاً بسبب التشدد الذي كان يقوم به جباة الضرائب ، والفقر العام الناشىء من ارتفاع الاسعار ، والتفسخ الاخلاقي الذي كانت أعماله هو خير مشجع له • وقد فاقت ثروته ومظهره كل شيء يتذكره الاحياء • فانعدد حرسه الخاص وعددهم كان يذكر الشعب الساذج بجيوش الفاتحين الشهيرين • وبقي مأثوراً ادعاؤه بعلم الغيب ، والحوادث التي كانت تؤيد ذلك ، وظلت تتناقله الافواه مدة طويلة • وبعد سنين ثلاث نقل في ١٦٦٢ م (١٠٧٣ هـ) الى كريت • ومن المحتمل ان ذلك كان سبباً في تأثره نفسياً ، ففكر في ان ولايته الصغيرة الجديدة كانت بمثابة فخ يصطادونه به ، ففر ملتجئاً الى الاكراد الجبليين • ولكن

---

(١٤) يقول گولشن ان ذلك تم عن طريق الفرق بين التقويم القمري الاسلامي والتقويم الشمسي الروماني ـ اليوناني ، أما كيفية تدبير ذلك فليست معروفة عند المؤلف •

صادفه التوقيف بدلاً من أن يجد هناك ملجأ يحتمي به . وبأوامر من السلطان سجنه والي ديار بكر ثم نفذ حكم الاعدام فيه ، فقضى بعد ان كان الحاكم المهيب .

وانتقي خلفه على بغداد انتقاءً جيداً ، فقد كان جندياً محترماً[١٥] خدم فيها مذ جيل وهو رئيس من رؤساء الجيش الانكشاري . وقد تضاعفت قيمة حكومته الحازمة الهادئة بعد الاضطراب الذي كان سائداً على عهد مرتضى . ووجد منه المفترون والمتقمون فتوراً وابتعاداً . لكن الفلاحين وعامة الشعب استحسنوا منه الغاءه للرسوم البغيضة ورفع امتيازات الموظفين . ومع اعتداله وثباته في الحكم ، وهو رجل مسن ، كان هو نفسه من مدمني الخمرة ، وعرضة لاستشاطات نفسية وحشية . وقد حكم ما يقارب السنتين ، وكان الفرق بيناً من جميع الوجوه بينه وبين خلفه وهو شاب شرس عديم البصيرة . فقد بقي عقلاء بغداد مدة ستة أشهر ينغضون رؤوسهم بسبب مشاوريه ولهوه وجشعه الذي لا رحمة فيه . وفي الاخير أزال الموت مصطفى باشا بداء المغص غير مأسوف عليه ، ودفن في صحن الشيخ عبدالقادر .

ثم جاء قره مصطفى باشا لهذا المنصب ثانية ، بعد ان قضى دهراً كانت سيرته فيه سيرة المجازف الذي يصيبه التقدير والخسران ، وتتناوب عليه الهزيمة والرفعة ، وهذا هو الامر الذي أوصله الى منصبه هذا في العراق الذي سيحكم فيه مرة ثالثة أيضاً . وتردد ذكرى السنين المتأخرة ، من باشويته في هذه المرة ، الافراح المسرف فيها المقامة في يوم ختان ابنه . وجاءت السنتان اللتان تقلد خلالهما ابراهيم باشا الطويل زمام الحكم بحملة أخرى على البصرة سوف يذكر الكثير منها في بحث آخر ، وانتهت بتعيين قره مصطفى مرة ثالثة . وفي هذا العهد أيضاً تملأ أخبار القلاقل في جنوبي العراق التاريخ الذي لا يحفظ غيرها من الاخبار على طول العهد الممتد أربع سنين . ثم مات في البصرة بعد سنة . وكان الحاكم الذي جاء بعده ، حسين ، قد تورط في المشكلات الناشئة عن العداء المستعصي بين كبير ملازميه وكبير ملازمي قره مصطفى . وهذه وحدها مع أعمال خيرية وتحسينات يسيرة أخرى ، قد سجلت في اخبار عهده . فان عدة جوامع وسوقاً واحدة بنيت أو رممت بايعاز منه . ثم أصلحت التخريبات التي سببها

---

(١٥) عبدالرحمن باشا

الفيصان في الاعظميه باشرافه وبالمبالغ المرسل بها من استانبول • وقد تقلد الباشوية من ١٦٧١ م (١٨٠٢ هـ) الى ١٦٧٤ م (١٠٨٥ هـ) •

وكان سقوطه لحد ما نتيجة الاخطاء التي ارتكبها الموظفون الذين كان يعتمد عليهم اعتماداً أعمى ، والرعب الخاطيء الذي دب في استا: حاصة • فقد تفشت شائعة بصورة مفاجئة ـ قد يكون سببها اعتداءات الا‍ر على الحدود التركية ـ هي أن خطراً جديداً أصبح يهدد بغداد • وكان ذلك كافياً لتجديد الفوضوية في حاميات العراق ، وحافزاً لاولي الامر في أوربة للتعجيل بايفاد أغا مجرب من أغوات الانكشاريين يدعى عبدالرحمن باشا • فأعاد هذا الاداري الفطن المعتدل النظام بين جيوشه ، ورد على التخويف الايراني باصلاح نقاط الدفاع • ثم ملئت مخازن الحبوب والسلاح ملأً جديداً ، وأعيدت الثقة ، وأعقب الوالي هذه باصلاحات في جهاز الضرائب وبضربات نظامية أنزلها بأسوأ الحكام المحليين • ومن الاشغال العامة التي قام بها اعادة بناء قبة الشيخ معروف الكرخي والاستمرار في الاشتغال بسدة الفيضان العظيمة التي بدىء بها قبله • غير انه مع الكلف الباهظة ومشاق عمل السخرة لم تدم السدة من بعده • وحل محله في الحكم بعد انقضاء عشرين شهراً قبلان مصطفى باشا ، فكانت حكومته أشبه بحكومة سلفه نزاهة وحكمة واحساناً • واستطاع الحاكم الحديث أن يصمد بجدارة لهياج آخر قام به الانكشاريون المتعسفون الذين بدأوا يسيئون استعمال قوتهم من دون خجل في كل ولاية من الامبراطورية • ومما دل على تدين قبلان الفطن انشاء رصيف باهظ الكلف في الاعظمية ، وترميمات اجراها في قبة محمد القدوري[١٦] ، وزيارته لكربلا •

وكان عمر باشا الذي تلاه في الحكم قد حكم من قبل في ولايتين هما مصر وديار بكر ، ودام حكمه في بغداد أربع سنوات تقريباً • وتذكر الاخلاف من بعده مختلف المشاريع التي قام بها وهي التحسينات التي أدخلها في تربة أبي حنيفة وقبر أبي يوسف ، وجعل مدرسة ملحقة بجامع قمرية ، ثم بناء خان للقوافل ومخفر في خان أزاد • وفي آخر سنة لحكمه في بغداد شبت فتنة أخرى بين

---

(١٦) الظاهر انه « احمد القدوري » الفقيه الحنفي المشهور في عهد بني العباس وقد دفن بالجانب الغربي من بغداد ـ كما في الوفيات ـ « م٠ ج » ٠

الانكشاريين كان يقودهم فيها أناس وصلوا حديثا من استانبول ، ودبرت حملة ناجحة على بني لام • وفي ١٦٨١ م (١٠٩٢ هـ) نقل من ارضروم الى بغداد ابراهيم باشا ، وهو آغا عسكري قديم • فأثني على همته ثناءً حسناً في قمع عصيان حدث في حاميته ، وفي تأديب شرطة المدينة المتفسخة الجائرة • وكانت خدماته العمرانية العامة انشاء رصيف وجامع وسكة يدوية على جسر الزوارق • وبعد ثلاثة أعوام ونصف رجع عمر باشا الى المنصب ثانية فاستقام فيه ثلاث سنين • وتولاه أحمد باشا سنة واحدة ، ثم تلا ذلك رجوع عمر مرة ثالثة • وبذا تصل بنا الأخبار (التي أصبحت شحيحة في مرجعنا) الى سنة ١٦٨٩ م (١١٠١ هـ) •

وأقلقت حكم حسن باشا[١٧] الهادىء المجاعة الشديدة التي كانت ممسكة بخناق أواسط العراق عند توليه الحكم • اذ ملئت أزقة بغداد بجثث الموتى • وقصد رجال القبائل من الكرد والعرب تجار المدينة للحصول منهم على الخبز بعد ان خابوا في الحصول عليه من حقولهم هم أنفسهم • وتبع المجاعة الطاعون حسب المعتاد ، فقضى على آلاف كثيرة • وتعاونت الفاجعتان وسارتا في سيرهما حتى اضعفتا بغداد وأفقرتاها • ولم يكن فزع الباشا من فراغ الخزانة بأقل من فزعه من أنباء كردستان السيئة • فقد جار مير سليمان[١٨] ومير حسن ، الرئيسان الكرديان ، في شهرزور على رعاياهما الحقيقيين بحيث اضطر ديلاوير في كركوك أن يتدخل في الامر • فأفقدته الحملة حياته من دون أن ينجز شيئاً • وعندئذ خطت ولاية شهرزور خطوة ذات أهمية في توجيه نداء الى الباشا في بغداد استرحم فيها ارسال حاكم لهم • فأوفد متسلم ، وكانت هذه المرة الاولى التي تعترف بها كركوك أو الموصل بسلطة بغداد معتبرة اياها أكبر من ولاية جارة نديدة ، ثم تنحى حسن باشا عن الحكم برغبة منه في ذلك غير ان قضايا نشأت عن حساباته أدت الى اعتقاله في القلعة • ومات خلفه احمد بن كان مريضاً بعد

(١٧) يعد نيبور (الرحلة ص ٢٥٣) في قائمته لاسماء الباشوات حسن باشا هذا نفس حسن باشا الذي حكم في ١٧٠٤م (١١١٦هـ) (أو كما يقول ١٧٠٢) ويقبل ذلك منه اوليفييه (ص ٣٤١) • غير أن هذا يجب أن يرفض تماما بالنظر لمعلوماتنا الحقيقية في سيرة حسن باشا الاول •

(١٨) من الصعب أن يكون هذا غير سليمان بك بابان •

أشهر قلائل ، فاغتنم سكان بغداد الفرصة وسرحوا حسن باشا الذي كان ما يزال معتقلاً . فترك الباب العالي هذا الحادث يمر من دون تعقيب ، لكـــن الولايــة اعطيت الى أحمد كهية عمر باشا الوالي الاسبق . فمات في أوائل ١٦٩٤ م (١١٠٦ هـ) .

واضطر خلفه ، وهو حاج وسمي لسابقه ، أن يهتم لتفاقم الحالة في المنتفك بقيادة مانع . وقد أفرز أمر البحث عن هذه القلاقل وغيرها مما يختص بأواسط العراق في فصل مستقل . وأبدى علي باشا المعين في ١٦٩٦ م (١١٠٨ هـ) صرامة في معالجة قضايا القبائل الكبيرة الاخرى . فقد قضى على شرذمة من شمر كانت تغزو عبر الفرات بالقرب من الفلوجة ، وبعث شيخ الموالي بمهمة تأديبية أخرى ، وانتقم هو بنفسه من زبيد وبني لام . وفي ١٦٩٨ م (١١١٠ هـ) عين لبغداد اسماعيل باشا حاكم مصر السابق . فكانت ، لسوء الحظ ، قابليته للحكم الحر العـــادل ممزوجة بمزاج اندفاعي حاد . وكان قد تقلد من قبل مناصب عاليــة مثــل أغـا الانكشاريين ، وحاكم الروم ايلي ، ونائب الصدر الاعظم . وقد تبع فتنة نشبت في حامية كربلا نهب المدينة المقدسة ، الامر الذي حدا الشاه ، من حيث انه بطل الشيعة ، أن يعجل بأخبار استانبول بالامر . فنقل اسماعيل الى وان بعد شــهرين من حكمه . غير انــه أدرك ان تحويله هذا كان يهدد سلامته فأدهش الجميع بفراره الى ايران وفيها مات سنة ١٧٠٠م (١١١٢هـ) . وكـــان حاكــم بغــداد الحديث ، دلتبان مصطفى ، صربياً عنيفاً مستبداً ، وأمياً لكنه كان مندفعاً . فرفع بعد حملته على البصرة وأصبح صدراً أعظم خلفاً لحسن كوبرلي العظيم . ولــم يذكر ما يستحق الذكر عن حكم خلفيه في بغداد يوسف باشا وعلي باشا .

وفي السنة الخامسة من القرن[١٩] الجديد عين حسن باشا لايالة بغداد . وبذلك يكون قد حكم قبله في سراي بغداد منذ احتلال السلطان مراد سبعة وثلاثون

---

(١٩) هذا ما يذكره گولشن ، اما نيبور (ص ٢٥٣) فيذكر ذلك في سنة ١١١٤ الهجرية (١٧٠٢ م) جاعلا مدة ٢١ سنة تنتهي في نهاية ١٧٢٣ . ويتبعه بهذه الفون هامر (الكتاب ١٤ ص ٧٦) وكذلك أوليفييه . اما صاحب حديقــة الوزراء فيذكر السنة ١١١٧ الهجرية اى بتأخير سنة واحدة ، غير ان گـــولشن أهم المراجع

باشا في مدة خمس وستين سنة • ولم ترنا هذه الفترة في العراق الاوسط الا القليل من الشخصيات اللامعة او الحوادث التي تسترعي انتباه العالم • فأن نظرة واحدة تنظر الى شمالي العراق وشمال شرقيه لا تدلنا على أكثر من ذلك ، لان المدونات التاريخية شحيحة في اخبار هذا العهد • الا ان الحالة في المناطق التي هي أكثر انبساطاً وحرارة ، الواقعة في شمال الخليج ، كانت تتمخض بتاريخ حافل بالاطماع والخيانة وأخذ الثار •

العراق الشمالي[٢٠]

كانت باشويتا الموصل وشهرزور (وعاصمتها كركوك) على طول هذه المدة مستقلتين عن الباشا في بغداد ، الا عندما كانت تصدر الاوامر السلطانية بالتعاون والتآزر • كما كان نفوذ ديار بكر على الموصل ، الذي لم تؤيده بعض الادلة في القرن السادس عشر ، قد زال • وكان تدخل بغداد في شؤون كركوك محصوراً في حادثة واحدة وقعت في ١٦٩١ م (١١٠٣ هـ) • فقد حدث مرة واحدة ـ ١٦٤٠م (١٠٥٠ هـ) ـ ان كان باشا واحد يمسك زمام الحكومتين في العراق الشمالي • وتدل العلاقات الاخيرة فيما بين الولايات العراقية على ان موقف كل منها كان يتطور تطوراً مستمراً ، خاصة في ظهور الشخصيات الفذة بين الحكام الذين كان ينتشر نفوذهم بحسب شخصياتهم وفعاليتهم • اما الاسس العسكرية في الادارة فكانت تقضي بأن كل وزير أو بكلربكي كان بوسعه قيادة أي ميرميران أو أي سنجق بجواره • وكان مجرد حكم الولاية دليلاً على أن ذلك بمقام مكافأة لخدمته المرتضاة ولذلك كان يتحتم على الولايات وسكانها احترامه واثراؤه ، ثم ترضيه وترضي البادشاه معاً •

ومع هذا فبينما كانت الوحدات الكبرى منحلة على هذه الشاكلة كانت الوحدات الصغرى في طور التبلور • فكلما كان استقرار القبائل في أماكنها الحالية يزداد شيئاً فشيئاً بالتدريج ، عن طريق الهجرة والتوطن ، والنهوض والسقوط ، وتتضح القيمة الادارية للحدود الطبيعية ، كانت الأيالات تتجزء الى وحدات يعهد بكل منها الى متسلم ، اوسنجق بكي ، أو ضابط بحيث يزداد شبهها

(٢٠) المراجع تقويم الموصل، تافيرنييه ، أوليا أفندى ، سليمان الصايغ

شيئاً فشيئا بوحدات القرن التاسع عشر • وبذلك أصبحت حدود البقاع القبلية المعروفة منذ القدم ، او المقاطعات الوراثية ، أو الوديان الطبيعية ، أو الحـــدود الفاصلة بين الانهر ، حدوداً للنواحي والاقضية المقبنة • وصار يعترف بها حتى في تلك الايام ملتزم الاقطاع وأغا الحامية ، والدفتردار مع ضامني الضرائب التابعين له •

وكانت الاصقاع التي تشتمل عليها الايالتان تضم مناطق تحكمها الحكومة نفسها ، وحكومات كردية محلية في المدن ، وقبائل تحكم بنفوذ ضئيل • ولم يبق لنا شيء من السجلات مما يدلنا على تاريخ الاقسام المسكونة والمحكومة من ولاية شهرزور • على ان مدينة كركوك الجميلة لم تتبدل كثيراً في القرنين الاخيرين ، كما لم يتبدل خط القرى التركمانية الممتد على طوال الطريق الاعظم ، ولا القرى العديدة التي يقوم سكانها بالزراعة الديمية « الديم » • وكان النفـوذ التـركي يتغلغل في الاماكن التي يكثر فيها الدم التركي وتنتشر فيها اللغة التركية والمذهب التركي أكثر مما كان يتغلغل في سهول العرب وجبال الاكراد • ولم يبق مـــن المدونات شيء في أخبار الباشوات المتعاقبين ولا عن حوادثهم وأيامهم •

وكانت الانطباعات النفسية في الزائرين الاوربيين القليلين عن حال الموصل سيئة • فقد كانت عناصرها المختلفة والعداوات مـــن الاسباب الثابتة لايقاد نـار الفتنة واثارة المنازعات المرة في المدينة • ولم يتبدل سورها وبناياتها الحقيرة ، ولا شوارعها القذرة منذ أن أنذرت البلاد غزوة السلطان سليم بالفتح التركي • وبقيت التجارة تتناول المنتجات الـكردية المصدرة الى حلب وديار بكر ، واللوح والقمح الذي كان يؤتى به جنوبا الى بغـداد على دجلة ، كمـا كانت تتناول بيع المأكولات وملابس القبائل العربية المجاورة لدرجة ما • أمـا القماش الموصلي « الموسلين » المشتهرة صناعته في الموصل فقد اوشكت حياكته فيهـــا أن تنقطع • وكان المسافرون يلتجئون الى خانين غير عامرين • وكانت فيهـــا أربـع طوائـف نصرانية تختلط وتتنازع بعضها مع بعض • وظلت جماعة من الاخوان الكبوشيين في بناية تطل على النهر حتى أخرجهم منها الباشا لعلة من العلل • اما الجـــانب الآخر ، الموصول بالاول بجسر من الزوارق ، فكان يوجد فيه جامع النبي يونس كعبة الزوار القاصدين اليه • وكانت تتالف الحامية في ١٦٤٤ • (١٠٥٤هـ) من الانكشاريين والخيالة الاقطاعيين ، ويبلغ مجموعها كلها ٣٠٠٠ رجل • (٥٦)

ومن السهل تصور المشاكل الرئيسة التي كانت تجابهها حكومة الموصل ـ يزيديو سنجار الساخطون ، وجماعات الاكـراد الغازية من سفوح الجبال ، والجراد ، والمحل ، والبدو غير المتدلين ـ لكن المدونات التاريخة أبخل من أن تجود بما يفضي الى البحث المسهب عنها • فلا يمكن أن يعرف الا الشيء القليل من أحوال الباشوات الذين حكم منهم ثمانية وأربعون في الفترة المنحصرة بين ١٦٣٨ م (١٠٤٨ هـ) ونهاية القرن • فقد كان عدد منهم من الوزراء ، كما كان اكثرهم ممن هم برتبة ميرميران وهي أدنى من الوزارة • وان قسما منهم كانوا قد نقلوا اليها من ايالات أخرى مثل وان وقارص والبصرة وبغداد وديار بكر • ويظهر ان منزلة ايالة الموصل كانت مشرفة ، وكان بوسع الباشا الذي يحكم فيها أن يقود قوة لمساعدة زميله في جنوبي العراق • واعتلى المنصب فيها مرشحون من الاسر الموصلية في بعض الاحيان ، وذلك مثل محمد امين بن بكر باشا المذكور من قبل • فقد امسك بزمام الايالة لبضعة أشهر في وقت كانت فيه بغداد خاضعة للحكم الايراني • وكذلك كان زيني باشا في ١٦٧٤ م (١٠٩٥ هـ) الذي حفظ التاريخ من تقلبات أطواره وخشونته عدة اسطورات • وتقرن باسم كل مـن الباشوات الآخرين حادثة واحدة على الاكثر ، كالاسر الطـويل الـذي قضاه مصطفى باشا « الاسير » في أوربة ، وصرامة علي باشا (والي بغداد فيما بعد) مع عصابات اللصوص ، والنزاع المر الحادث بـين ابراهيم باشا وزعيم العمريين يومئذ وما أدى اليه الأمر من موت الاثنين • وكان هؤلاء الولاة الثلاثة قد تولوا الحكم في ١٦٩١ م (١١٠٣ هـ) و ١٦٩٧ م (١١٠٩ هـ) و ١٧١٢ م (١١٢٤هـ)• وجاء في الاخبار من حوادث السنة الاخيرة ثورة رشوان زاده خليل باشا ، الذي جمع قوة من الاوباش وادخل الرعب في المدينة والطرق • فأمر والي الرقة ، طوبال يوسف باشا ، بأن يعيد الامر الى نصابه • فزحف الى الموصل واشتبك مع الثائر فذبحه ، ولاجل ان يسبغ رونقاً خاصا عـلى مهمته قطع رأسه فبعث به الى استانبول •

وفي البلاد الجبلية الواقعة في شمال الاصقاع الداخلة في حكـم الايالتين وشرقيها كان صلح ١٦٣٩ م (١٠٤٩ هـ) قـد آل أخيراً الى انقسام الاكراد بين السلطتين الشيعية والسنية • فظلت قبائل الكلهور وأردلان تتجـه بصورة أكيدة

الى ايران • وانقسم المكريون فوقعت شهرزور في ضمن الممتلكات التركية • وترك أمر عدد من المراكز ـ ساقز وزهلو ودرنه ـ لتتنازع عليها الاجيال المقبلة • وكانت هجرة القبائل التي كانت ما تزال يومئذ في طور البداوة ، والغزو المتبادل بين الاعداء على جهتي الحدود مما يجعل الحدود شيئاً مجهولاً • ولم تضيع السلطتان أية فرصة في الحصول على نفوذ في شؤون جارتها ، كما لم يتردد المتعادون في ضمن الولايات والقبائل الكردية في تقديم المساعدات الممكنة للجهة التي كانوا يطمعون فيها • على ان القرن السابع عشر بوجه عام قد شهد رسوخ النفوذ التركي في تلك الجهة من كردستان التي يعود البحث عنها لتاريخ العراق •

والى أبعد من هذا شمالاً ، كانت العمادية والجزيرة قد حافظتا على وضعهما فى الاستقلال غير الكلي • ولم تكن الجزيرة فى الحقيقة ، وهي بلدة صغيرة غير عامرة ، الا سوقاً مهمة يلتقي فيها التجار ، ومرحلة من مراحل الطريق العام ، وموقعاً لجسر من الزوارق • ولم يعترف البك فيها بأية سلطة عالية تسيطر عليه سوى تابعيته التركية • اما العمادية فقد صانها موقعها الطبيعي الدفاعي وبعدها عن الطريق العظمى من التدخل التركي • وكان بوسع البك فيها في ١٦٦٠ م (١٠٧١هـ) ان يجمع ثمانية آلاف الى عشرة آلاف من الخيالة ، ومن الرجالة قوة أعظم من أية قوة يمكن أن تجمعها بلاد مجاورة لها • وكان من شروط تابعيته أن يقوم بخدمة عسكرية عند الطلب • وعلى هذا شاركت قواته في ١٧٠١ م (١١١٣ هـ) قوات الموصل وديار بكر في اخماد العصيان الذي حدث في جنوبي العراق ، وكان الرئيس يومئذ ربّاد باشا • وكانت رتبة الميرميران[21] تمنح أحياناً ، ان لم يكن اعتيادياً ، الامير الحاكم في العمادية ، كما منحت في الاخير الى البابانيين •

وكان لكوي استقلال مشابه في حكم بيكاتها السورانيين • اما البلدان الصغيرة مثل زاخو ودهوك وعقرة ورانية فقد كانت تبذل شيئاً من الطاعة لبيكات جيرانها الذين هم أكبر منها • وكانت رابطتهم الحكيمة هذه تتضمن المساعدة

---

(٢١) وهذا يحمل لقب باشا

العسكرية ، وتأدية بعض الجراية أي حقوق الارض ، ووجوب تقديم قضايـــا المنازعات للبت فيها . على ان فعالية هذه الواجبات كانت تتوقف علـى شخصيات الساعة ، وفرص الحصول على استقلال أوسع ، وأمل المساعدة في هذا الشأن من الجيران الترك أو الاكراد .

وكانت أيام العز لخان احمد خان ، فيما وراء الحدود في أردلان ، قـد انتهت بعد وفاة الشاه عباس . لان الشاه صفي اضطره الى الارتماء في أحضان الترك على أثر معاملة قاسية عومل بها في معرض اصرار الشاه على الفتك بأحسن مؤازريه . فقابله السلطان عثمان بترحيب عظيم ، ويظهر انه استوطن الموصل[22] . فأخذ مكانه في أردلان سليمان خان المنتسب للعائلة نفسهـا ، وذو الزلفى لدى البلاط الايراني . وقد ذكر تحرش أردلان الآخر بممتلكات السلطان ، في السنين الاخيرة من القرن ، في معرض البحث عن نهوض البابانيين .

---

(٢٢) تقول الرواية الاردلانية انــه « حكم » الموصل وكركوك وشهرزور سبع سنوات .

الفصل الخامس

أمير البصرة

اسرة افراسـيـاب[1]

م يذكر اسم البصرة في هذه الصفحات الا قليلاً منذ بحثنا عن جدها العاثر في القرن السادس عشر • فقد رأينا زوال حكم تابع قبائلي فيها وحلول باشا أيالة في محله ، وحيرة هذا الباشا بدوره تجاه العصيان الذي كان سائداً في البر والنهر خارج أبواب مدينته ، مع تبرم الناس في داخلها من حكومته الأجنبية • ورأينا في مناسبات غير هذه سيطرة البرتغاليين على ما وراء مصب شط العرب من اليم ، ومحاولة الاتراك الجريئة لاحلال رايتهم محل الراية البرتغالية • وفي القرن السابع عشر نرى ان تاريخ البصرة تظهر فيه تلك الظاهرة نفسها ولكن بترتيب مخالف • وسنرى كيف وقفت البصرة نفسها موقف المتفرج في حين ان تنازعت السلطات الاجنبية النفوذ في الخليج • فتحل من جديد حكومة تركية من الطراز الاعتيادي محل أسرة محلية في الحكم • فيجد الحكام الترك عوداً على بدء ان مهمتهم في الحكم شاقة وأصعب من ان يستطيعوا حل مشكلتها • ومن حقنا ان نسأل كيف تمكنت البصرة ان تقف معتزلة ، وهي في منطقة لم تنفصل رسمياً عن الامبراطورية ، في أثناء النزاع التركي الايراني على امتلاك بغداد مدة خمسين سنة ؟

شهدت السنون الاولى من القرن السابع عشر ضبط الباشوات الاتراك لحكومة البصرة يتضاءل شيئاً فشيئاً • فكان عصيان محمد الاحمد الطويل في

(١) المراجع تافيرنييه ، « زاد المسافر » للشيخ فتح الله الكعبي ، مالكولم ، بيترو ديلافال • أما بحث الخليج فالمراجع فيه كالسابقة •

بغداد قد قرب العصيان في البصرة من أذهان الناس فيهـا • اذ كان فيها النبلاء العريقو الانساب ورؤساء القبائل الاشداء وفي نفوسهم أطماع كثيرة واحترام قليل لموظفي السلطان • وفيما يقارب منتصف السنوات العشر الثانيـة من القرن تولى الحكومة رجل من سكان البلد يسمى أفراسياب • فقد دُوّن في السجلات ان الباشا الـذي كان يحكم يومذاك وافق على ترك البلدة وشأنها بسلام بعـد ان اضطرته لذلك غزوات القبائل المستمرة واشتباكها مع الحامية اشتباكاً دائما • وبلغ الامر في الاخير الى أن السكان العرب في البصرة لم يستطيعوا بعد ما مضى احتمال وجود الحامية الاجنبية في القلعة •

« وكما ان الحامية كانت تركية وسكان البلد من العرب الذين لا يتحملون الاستعباد كان هؤلاء السكان في نزاع وكان النزاع كثيراً ما يؤدي الى الاصطدام مع الترك • فيخف اذ ذاك عرب البادية لاسعاف السكان ، فيحاصرون الباشـا في الحصن • ولم تهدأ الحالة في الاخير ولم يتفق الفريقان عـلى شيء • ومل الباشا ـ واسمه « ايود[٢] » ـ مـن الغزوات والتأديبات فعزم على بيع حكومتـه الى أحـد أغنياء المدينة بأربعين الف قرش • وتمت الصفقة ، وجهز ذلك الغني المشتري اجنـاداً لتهدئة الناس • وسمي هـذا الرجـل العظيم باسـم افراسياب باشا ... » •

وقد تمكن « أن يخلع النير التركي عن بلده ويلقب نفسه امير البصـرة • اما الباشا الذي باع حكومته فقد شنق ساعة وصوله الى القسطنطينية • » وليس في هذا الوصف[٣] ما لا يحتمل وقوعه • ويشرح قيام افراسياب مصدر آخر[٤] ، ولكن باختلاف في التفصيل فقط • فكان افراسياب على هذه الرواية[٥]

« كاتباً للجند المحافظ في البصرة فاتفق رأي أهل البصرة على هجر الحاكم الرومي وكان اسمه علي باشا فقلت مداخله وعجز عن ارزاق الجند المحافظين

---

(٢) هكذا ورد في النص الاجنبي Aiud ـ المترجم
(٣) تافيرنييه
(٤) زاد المسافر
(٥) اقتبسنا النص الاصلي بجمله من كتاب زاد المسافر ص ١٧ من طبعة مطبعة الفرات ببغداد سنة ١٩٢٤ ـ المترجم

معه فباع البصرة من افراسياب المذكور بثمانية أكياس رومية والكيس ثلاثة آلاف محمدية على أن لا يقطع الخطبة من اسم السلطان ... » .

على أن المعلومات التي تصف حال أفراسياب بأحسن من هذا غير واضحة. فان علاقته بالسلطان وبالوزير في بغداد ، وماهية قواته من حيث كونها تركية أو محلية ، ومعاضدته أو مناوءته كلها غير أكيدة . فقد قيل[6] ان أباه كان من دم سلجوقي قديم ، وان امه كانت امرأة عربية من الدير[7] . وكانت قدرته على جمع القوة تدل على مؤازرة القبائل له ، لان مجازفة تقلد المنصب وتحمل المسؤولية بهذه الصفة لم يكن بوسع أحد أن يتحملها ان لم يكن من رجال القبائل الاقوياء . كما ان أخذه لقب الباشا ، أو الانعام به عليه من حكومة كانت تتشوق الى الابقاء على ولائه مما يدل على حال أقل من الاستقلال . ولا شك في انه كان يصرح في رسائله الى استانبول بولائه للخليفة ، الذى لا بد من انه كان يتساهل بانفصال البصرة الجزئي عن الدولة على عهد افراسياب الوالد بمثل ما اعترف بالابن وبعث له بالفرمان والخلعة مؤخراً . ومن المؤكد ان افراسياب وحكومته لم يدفعا الجراية ولم يبذلا الطاعة لبغداد ولا لاستانبول . ولذلك لم تكن البصرة في حوزة الحكم التركي ، لكنها ما كانت خارجة عن منطقة نفوذه . وعرفت حكومة افراسياب بالامن والقناعة .

وقد استطاع افراسياب أن يوسع حكمه ويوطد دعائم النظام في خارج المدينة وضواحيها ، حتى شمل ذلك قبان والدورق وغيرهما من جزر شطالعرب ومواقعه . وفيما عدا ذلك كانت علاقاته الخارجية تنحصر في أمور ثلاثة . فقد استنجد به والي الحويزة التابع لايران ، منصور بن مطلب ، طالباً مؤازرته ومعاضدته في التخلص من ولائه للشاه . وأظهرت قبائل البادية والاهوار ، حتى لحاكم محلي مثله ، أكثر المشاكل التي كانت تسببها لمن كان قبله ولمن جاء بعد . اما في الخليج فقد تميزت السنين الاخيرة من حكمه بوقوع حوادث

---

(٦) زاد المسافر

(٧) وهذا نص زاد المسافر . وذكر عبد علي بن رحمة الحويزي في كتابه « قطر الغمام » انه من آل سلجوق ملوك الروم وأن أهل الدير اخوال لافراسياب ـ المترجم

جسام فيها .

اذ كانت منزلة البرتغاليين الممتازة قد أخذت بالتدهور منذ سنة ١٥٨٠ (٩٨٨ هـ) حيث قدر للبرتغال نفسها أن تكون هدفا لحكومة الاسبان المتصبة الطامعة مدة ستين سنة . وبغضتهم الى الناس في كل جهة من جهات الخليج قسوتهم وخشونة طباعهم . ولما أخذ وصول الامداد الى حامياتهم يقل شيئاً فشيئاً صار بوسع البحارة من الايرانيين والعرب أن يقوموا ثانية برحلاتهم ، وتجرأوا على اغلاق موانيهم وكلاءاتهم[8] بوجه « الدوم » . وفي هذه الاثناء بدأت عيون أوربية أخرى تنظر نحو الشرق . اذ كانت انكلترة قد أرسلت أيلدرد ونيوبرى وفيتش ، قبل واقعة الارمادا ، ليرتادوا طريق الفرات ويدرسوا وضعه ، ثم شكلت بعد ذلك في ١٦٠٠ م (١٠٠٩ هـ) شركة الهند الشرقية اول مرة . كما كان الهولانديون قد دخلوا المياه الهندية ، لا الايرانية ، في السنين الاخيرة من القرن . وعلى هذا شهدت العشرون السنة الاولى من القرن السابع عشر البرتغاليين وقد دب الوهن والضعف الى حالتهم المسيطرة . ولم يذعن ملك ايران القوي مطلقا لاحتلالهم موانيه ولا لجورهم على رعاياه . وفي ١٦٠٢ م (١٠١١ هـ) أخرجتهم قواته من البحرين ، وفي ١٦٠٨ (١٠١٧ هـ) تمكن من الضغط بشدة على قلعة هرمز العظيمة . وبعد ذلك بأربع سنين احتل البرتغاليون بندر عباس[9] ، وهي محطة أسسها الشاه لتضاهي هرمز وتزاحمها . غير ان القوات الايرانية طهرت المكان في ١٦١٤ م (١٠٢٣ هـ) من البرتغاليين فلم يسترجعوه من بعد .

على ان الضربة القاضية على سطوتهم في هذا المكان لم تكن لتأتيهم من الخصوم المحليين ، بل كانت من اوربة . فقد وقعت حادثة في ١٦١٦م (١٠٢٦هـ) قدر لها ان تضعف نفوذ هرمز أكثر مما كانت تضعفه العراقيل التي كان يضعها الايرانيون أو العمانيون . فقد رست الباخرة « جيمس » التابعة لشركة الهند الشرقية في جشك ، حيث جاءت الشركة في هذه المرة ، بعد ان اصبحت ثابتة

---

(٨) الكلاء على وزن شداد مرفأ السفر ومنه كلاء البصرة وهو العشار الحالي .

(٩) المعروفة لدى الاوربيين طوال القرن باسم غومبرون . Gombroon

المركز في سوراة ومتصلة بالشاه عن طريق السفارات ، تجرب جدها في التجارة بالحرير . فأدى مجيء هذه البعثة الى الخليج الى حصول نتائج مهمة . فقد قبضوا فرماناً مملوءاً بالجمل الملائمة مكافأة لجهود المستر أدورد كونوك رئيس الشركة الذي لم يكن له سند . ثم وصلت الى جشك في أواخر ١٦١٧ م باخرة ثانية للشركة . واستمرت المفاوضات مع الشاه ، فحصل شيء من النجاح بتعيين الجهة من المتاجرة بالحرير الى السفن البريطانية ، وتبادل المراسلات المطنطنة بين ملكي انكلترة وايران ، وبرواج الطرق والاساليب الانكليزية وتقدمها على البرتغالية . وعلى هذا اخذت السفن الانكليزية تتوارد بكثرة على جشك من عام ١٦١٨ م (١٠٢٨ هـ) الى ١٦٢٠ م (١٠٣٠ هـ) .

واذ ذاك قضي على هرمز بالاضمحلال . فقد كان الشاه في أوج قوته وكان العداء التجاري مثيراً للاصطدام الدائم بينه وبين البرتغاليين ، وغدا أمر هرمز مثل شوكة قديمة في جنبه . غير انه كان يعوزه وجود اسطول . وكانت الشركة راغبة في تجهيزه اليه بشروط وضعت بتحرز . ثم حسمت قضايا امتيازات سابقة ولاحقة في اجتماع عقد بين وكيل الشركة وحاكم فارس . وفي كانون الثاني ١٦٢٢م (١٠٣٢ هـ) احتل الاسطول الانكليزي حصن قشم البرتغالي المنيع ، وبدىء بالهجوم على هرمز في أوائل شباط . فاحتلت قوة ايرانية البلدة بسهولة وبدأت بمحاصرة الحصن ونسفه بالالغام . غير ان الدفاع كان عظيماً ، مع ان قوات الشاه كانت ضعيفة خائفة . واغرقت في الميناء البواخر البرتغالية واحدة بعد أخرى ، وكانت بواخر الشركة تنزل الى الجزيرة جماعات المدد المقوية المخاطرة . ومع امتداد الحصار الى نيسان لم تكن نتيجته الا واحدة . (فقد سلم) البرتغاليون بشروط ، وتخلوا عن البلدة فنقلوا الى مسقط . وتخطف غنائم الحصين ، خلافاً للشروط المتفق عليها ، أول القادمين من الحلفاء غير المطيعين لها .

وقد تحمل البرتغاليون بهذه ضربة ساحقة ولكنها ليست مميتة اماتة تامة . فحصل الانكليز على سوق أكثر ملائمة من جشك ، وحظوا برعاية الشاه الذي سمح لهم بالنزول في بندر عباس من دون أن يحصنوها . غير انهم سرعان ما علموا انهم لا يمكنهم أن يحصلوا من الايرانيين على العدل ولا على التعويض .

ولم يجدوا أنفسهم قادرين على عدم الاجابة الى طلبات الشاه باستنجاد الاسطول لمكافحة بقايا البرتغاليين والاتراك في البصرة • الا ان هذه المحن كانت شيئاً طفيفاً بالنسبة لظهور قوة أوربية جديدة ، تحت ستار الحلف لمضادة العدو المشترك • إذ كان الهولنديون ، في ذلك العهد ، قد نفذوا من المحيط الهندي الى هـــذه البحار الضيقة • فحطوا في بندر عباس في الوقت الذي حط فيه الانكليز ، وبنوا هناك معملاً شامخاً ، وضموا سفنهم الى سفن الشركة لتعمل معاً في مضـــادة البرتغاليين • وكان البرتغاليون في هذه الايام وهم ثابتون في مسقط أقوياء بحيث كان بوسعهم أن يشنوا غزوات قرصنية ، بقيادة اميرال ذي جسارة خارقة • فجرت مصادمات في شباط ١٦٢٥ (١٠٣٥ هـ) في مياه بندر عباس كابدت فيها القـوات الثلاث الهولاندية والانكليزية والبرتغالية خسرانات فادحة • وعقد في السـنة نفسها صلح بين البرتغال وأيران تنازل فيه البرتغاليون عن جميـع مطاليبهم فـي منازلهم القديمة في الاراضي الايرانية •

اما افراسياب في البصرة ، فقدكانت علاقات البرتغاليين به ضعيفة حتى سقوط هرمز • ومنذ هذا الحادث كثر اتصالهم بالبصرة ، وكانت الحماية التي يقوم بها حاكمها لهم سبباً في امتعاض الشاه منـه • ومما يذكر هنا ان البصرة لم تهددها الجيوش الايرانية التي طهرت بغداد من الصوباشي ، كما لم يهددها قرچغي خان من بعد ذلك • لانها لم تكن تضم بين جدرانها عتبة شيعية ، ولا أرضاً قابلة للزرع • الا ان تابعيتها للسلطان وحمايتها للتجارة البرتغالية كان يجب أن يوقفا عند ذلك الحد الذي بلغاه • فأصدر الشاه في ١٦٢٤ م أوامره الى خان شيراز امام قلي خان بمعالجة هذا الازعاج الذي نقض حركة بندر عباس التجارية جهاراً • فطلب الى افراسياب أن يتخلى عن تابعيته التركية ويتقبل التابعية الايرانية • وان يسك النقود باسم الشاه ، ويذكر اسمه في الصلاة (وذلك خير دليل للولاء) ويتخذ الازياء الفارسية في الملبس • ويكون في مقابل ذلك والياً وراثياً لا يقدم شيئاً من الجراية ، وله ملء ما تسع الصلاحية المحلية •

فرفض ذلك افراسياب وكان يدعمه البرتغاليون • فسيق اليه جيش من شيراز عن طريق ششتر • وفي قبان ، تابعة البصرة ، قصفت البواخر البرتغالية الجيش المهاجم فصدته وفي الفترة التي تبعت هذه الموقعة توفي افراسياب فخلفه

ابنه علي باشا[10] .

فأخبر استانبول بتوليه الحكم ، وأعلن ولاءه لها ، ثم طلب المعونة . الا ان أمله للمعونة كان ضعيفاً لان الايرانيين كانوا قد قطعوا طريق دجله والفرات . ولكنه وصلت اليه قوة غير منتظرة تتألف من خمسة آلاف من اتباع والي الحويزة الفارين من امام قلي . وما حل مارت ١٦٢٥ م (١٠٣٥ هـ) حتى كانت البصرة تنتظر هجوم الخان وهي عالمة بزحفه من الحويزة . وكانت قوة علي باشا صغيرة حديثة . فأعار البرتغاليون للباشا خمس سفن مسلحة بعد ان دفع لهم ما أرادوا . ثم أعلن التجنيد العام في المدينة ، وكانت قد تعالت أصوات الوطنية فيها . وجند أشراف البلد القوات المتطوعة فمشت الى معسكر الباشا وفي عدادها الصابئة المسالمون أيضاً ، وقسمت القوة البحرية ، فرافقت ثلاث سفن منها علي باشا الى القرنة حيث كان من المتوقع ان يحاول الايرانيون العبور ، وانحدرت اثنتان الى الجنوب لوقف أي تقدم قد يحدث من تلك الجهة . غير ان مخاوف هذه الحملة القصيرة والاستعدادات لها انتهت بصدفة غريبة . فقد انسحبت القوة الايرانية فجأة تاركة كل شيء حتى آلات المعسكر من دون أن تطلق طلقة واحدة . ومن المحتمل ان يكون سبب الانسحاب حدوث اضطراب في شيراز أو ورود أمر من أصفهان . فانقذت البصرة على كل حال . وبعد أيام قلائل (مايس ١٦٢٥ م) وصل الى علي باشا من استانبول على طريق البادية ، الفرمان مع الخلعة والسيف . وبذلك ثبته انتصاره وشهرته في حكومته . فأعيد بناء مراكز الدفاع في القرنة وهي المركز الطبيعي لطليعة الجيش . وفي ١٦٢٩ م (١٠٣٩ هـ) حاول امام قلي محاولة أخرى . فلم يبق من الممكن في هذه المرة توقع المعجزة التي أنقذت المدينة من قبل . ولذلك اضطر علي باشا لطلب المساعدة من قبائله ، ثم استعملت في الدفاع خدعة رأى التاريخ تكرارها عدة مرات من بعد . فقد كسرت السدة التي تحفظ المدينة من الغرق ، وغمرت بالماء البطاح المنبسطة اميالا عديدة حولها . وفي الوقت

---

(١٠) يذكر الشيخ فتح الله ان حكومة علي باشا استمرت ٤٥ سنة ابتداء من ١٦٠٣م غير انه من المؤكد ان افراسياب عاش حتى سنة ١٦٢٤ ومن المحتمل ان عليا كان يقوم بمهام الدولة في حياة والده حتى مات . ولم يتول افراسياب نفسه حكومة البصرة الا حوالي ١٦١٢ .

نفسه سمع الايرانيون ، وهم ضعيفون في المواصلات النائية وممتحنون بهذه الاحوال الغريبة ، بوفاة الشاه عباس فانسحبوا • فترك علي باشا حراً في تسيير سكان حكومته الحرة الرحيمة • وكانت القبائل الشديدة البأس في منطقة الجزائر ، التي لم تكن خاضعة للحكم التركي منذ مدة طويلة ، قد عقدت حلفاً كانت البصرة وبغداد عاجزتين عن عمل شيء مضاد له كائناً ما كان • كما كانت قبائل الفرات الاسفل ودجلة السفلى ، الشرسة الطباع المزدرية للموت ، مكونة دولة في داخل دولة ، حتى ان أفراسياب كان يتحاشى اثارة العداء على شجاعتهم العنيفة ومناعتهم العظيمة • غير ان علي باشا ، في هذا الحين ، أخذ على عاتقه الواجب • فزحف بجيشه طولاً وعرضاً مخترقاً الاهوار الموحشة وبذلك خضد شوكة سكانها الذين صار خضوعهم منذ ذاك الحين مضرباً للأمثال[11] » • وأخذت كوت معمر من حكومة بغداد • وأصبح بلاط علي باشا يقايس ببلاط هارون الرشيد نفسه • فازدهرت الفنون والعلوم برعايته ، ووجد المعلمون ملجأ وملاذاً عنده ، كما أدى الاقتصاد الحكيم والعدل المصون الى سكينة لم يكن يتوقعها الا القليل من الناس • وكان أديب ذلك الزمان والمكان الشاعر الشهير الشيخ عبدالعلي الرحمة[12] •

وفي غضون ذلك كان قد حدث تبدل في الحويزة حيث كانت دسائس منصور غير خافية على سادته الايرانيين • فكان أمام قلي ، عند سيره من شيراز للانضمام الى الشاه في بغداد سنة ١٦٢٣ م ، قد طلب خاصة مؤازرة القوات الحويزية ، وبقي ينتظرها ، فلم يأت شيء منها • وكان الشاه قد طلب حضور الوالي الى أصفهان مرات عديدة فلم يكن ذلك الطلب إلا مردوداً • وفي الاخير اتضح عدم إطاعته ، بعد ان لم تخفه رسائله الملأى بالخضوع • وعلى هذا عرج امام

---

(١١) هذا ما يقوله فتح الله الكعبي • ولا يعرف شيء عن هذا المثل ، كما ان اخلادهم للسكينة لم يدم طويلاً

(١٢) نذكر فيما يلي نص رواية الشيخ فتح‌الله بجملته « وكانت أيام علي باشا شبيهة بأيام هارون الرشيد من بني العباس في الرفاهية وطلب العلم والآداب والشعر وأمن السبل فهابته الملوك وانقادت له • وفتحت في أيامه الجزائر بعد أن عجز عنها عسكر السلطان • وفتح كوت معمر من يدي حاكم بغداد ••• وقد مدحه الشيخ [illegible] لي بقصيدة ••• » ـ المترجم

قلي ، خلال زحفه الى البصرة في مارت ١٦٢٥ م ، على الحويزة لطرده منها • فهرب مع كثير من أتباعه الى البصرة ، فنصب الخان ابن أخيه محمد بن مبارك • ولثقته بولائه لم يترك امام قلي حامية في الحويزة • فرحب علي باشا بمنصور في البصرة واختصه بأقرب الاراضي من موطنه القديمة •

الخليج في ١٦٢٢م (١٠٣٢هـ) ـ ١٧٠٠م (١١١٢هـ)

ظلت السطوة البحرية في الخليج العربي مدة أجيال ثلاثة ، بعد سقوط هرمز ، منقسمة ، مريبة ، ومفعمة بالروح العدائية • وكانت الاطراف المعنية في هذا الشأن الهولانديين والانكليز والبرتغاليين وعرب عمان • ولم تكن تخرج فيه الى عرض البحر أية سفينة تركية ، كما لم يكن للايرانيين أي نوع من البحرية • وتساعدنا مراجعنا في تاريخ هذا الدور على أن تتعقب أوجه الحياة في الخليج بتفصيل كثير • غير انه لا يمكننا هنا أن نحاول شيئاً من ذلك أكثر من استخلاص أخبار التسابق بين هؤلاء المتزاحمين لما بقي من القرن •

فقد كانت جهود البرتغاليين منذ ١٦٣٠ م (١٠٤٠ هـ) منحصرة في تثبيت أقدامهم في عمان ، وفي محاولة استرجاع مركزهم في هرمز • وقد نجحوا في تثبيتها في عمان مدة عشرين سنة تقريباً ، لكنهم خابوا في الحصول على أمنيتهم في هرمز • فلم تردعهم معاهدتهم التي عقدوها مع الايرانيين في ١٦٢٥ م (١٣٠٥ هـ) ، ولم تردع الايرانين أيضاً ، عن تعقيب غاياتهم وأطماعهم • وفي ١٦٣٢ م (١٠٤٢ هـ) طلب ضباط الشاه بالحاف المساعدة البريطانية ليهجموا على مسقط • على ان ذلك لم يجر ، ورد البرتغاليون على تلك المحاولات بالتمادي في التحصين • وكانت مسقط والشحر من مواقعهم الموقتة الوحيدة ، عدا ما كان لهم في البصرة من محطة ـ وكانوا يرمقونها بعد سقوط هرمز ـ ومركز في كونك • وتضاءل شأن رايتهم فأصبحت غير محترمة بل مكروهة أبداً • وفي ١٦٤٣ م (١٠٥٣ هـ) اسلموا الشحر لقوة عمانية • وفي ١٦٥٠ م (١٠٦٠ ـ ١٠٦١هـ) عقدت مسقط نفسها شروط الاستسلام • وكانت كونك تحتضر كما كانت البصرة ـ التي كانت دائماً مركزاً نائياً أكثر منها قاعدة ـ بعيدة وغير مسندة ولم تكن ، على كل حال ، تغني التجارة الايرانية فتيلاً • وكانت المصالح البرتغالية تنحصر بعد ١٦٥٠ م في كونك وفي رحلات اسطول گوا نصف القرصنية • وكانت علاقات البرتغاليين بالايرانيين علاقات متنافرة بقدر ما يقتضيه جشع الموظفين الايرانيين وعدم

اخلاصهم • اما علاقاتهم بالساحليين وقرصان عمان فقد كانت لا تخرج عن كونها صراعاً وكفاحاً • أما الانكليز فقد عقدوا معهم صلحاً رسمياً في الحقيقة سنة ١٦٣٤ م (١٠٤٤ هـ) ، وتأيد ذلك الصلح في گوا سنة ١٦٣٦ م (١٠٤٦ هـ) • غير ان عداءهم للهولنديين ، والدسائس المتقابلة بينهم ، في البصرة بقي كما كان في السابق • وكانوا يعتقدون ان غزوات القرصان العرب كانت بتحريض من البريطانيين ان لم تكن بقيادتهم هم أنفسهم • وتمكنوا من اثبات ذلك في ١٦٨٩ م (١١٠١ هـ) عندما سلبت معملهم في كونك سفينة بريطانية خاصة • وبمثل هذه الحقارة قضت نحبها قوة البرتغاليين البحرية في الخليج غير مأسوف عليها •

ومن الممكن الاطلاع بامعان على تصرفات الشركة في تلك المنطقة من سجلاتها الغزيرة • على انا هنا لا نعبأ بذكر تجارة الشركة في غير العراق • فقد حافظت على معملها في بندر عباس وعلى فرعين له في شيراز وأصفهان • وكانت الوفيات بين مستخدميها عالية • وكانت تتردد القوافل بين الخليج وسوراة ، ولو كان ذلك بمقدار قليل • وكانت الصعوبات التي تلاقيها الشركة في أثناء اشتغالها مؤدية ـ ولا ريب ـ الى تقليل سيطرتها وأرباحها[١٣] • وكان جمع كل تومان ، من نصف واردات كمارك بندر عباس المتفق عليها ، يستدعي مشقة وعناء ، وكان لابد من بقاء المبالغ الجسيمة متأخرة في هذه العملية • وكانت الامتيازات والحقوق المكتسبة هناك بها حاجة الى أن يجددها كل شاه حديث • وكان طلب الحرير في انكلترة مختلفاً ، كما كان تجهيزه في ايران يتأثر بمقدار الكميات المصدرة على طريق تبريز أو الموصل •

وقد أظهر الهولنديون مهارة في التجارة أكثر من مهارة البرتغاليين بأساليب

---

(١٣) كانت الاختلافات واضحة بين التجار البريطانيين ومعروفة في العالم. وفي العقد الخامس من القرن قاوم احتكار شركة الهند الشرقية التجار المتفرقون من الانكليز • وقد ألفوا جمعية لم تتورع من تحريض الشاه على الشركة ، ولا عن منافستها بالمزايدة في بندر عباس ، على ان الاتحاد قد ساد بينهم في ١٦٤٩م • وأقلق المجازفون من التجار الشركة عودا على بدء من ١٦٥٤ الى ١٦٥٧م حتى أمر كروموبل بايقافهم عند حدهم • وفي السنين الاخيرة من القرن تشكلت شركة جديدة عملت على اكتساب جميع امتيازاتها الاولى • وبعد نزاع مر في الهند والوطن ادمجتا احداهما بالاخرى في ١٧٠٠ •

ليست محمودة ولكنها غير عنيفة • فقد هاجموا السوق الايرانية بكل سلاح اقتصادي يتضمن الرشوة والدعاية والمضاربة المغرية • وجازفوا بتحمل أوائل الخسرانات في سبيل المنافع المتوقعة التي كانوا يأملون الحصول عليها • وكانت ارسالاتهم بمقدار أوسع وسفنهم أحسن من السفن البريطانية وأوسع منها • وكانت في بندر عباس ، والحالة هذه ، أسباب غير منقطعة للاصطدام • فأصبحت الحالة خطرة بحيث بعث الوكيل البريطاني في ١٦٤٥ (١٠٥٥ هـ) ببضائعه الى البصرة في وقت اجتاح فيه الهولنديون قشما وحصلوا من الشاه امتيازات جديدة • وفي السنين التي تلت ذلك باتت تجارتهم أكثر توسعاً • واستولت قوافلهم المرسلة الى البصرة على تجارة الايراد والجلب الى شط العرب ، وقد أدى طرد البرتغاليين في ١٦٥٠ م (١٠٦٠ هـ) من مسقط لزيادة نفوذهم • وبقيت حالة الهولانديين في تعال مطرد حتى نهاية السنوات العشر من العقد التاسع من هذا القرن حين طرأ بعض الهبوط على نفوذهم التجاري وظهر الفلاح في جانب البريطانيين •

وسارع البرتغاليون بعد ١٦٢٢ م الى تأسيس بيعة برتغالية في البصرة (أهم ما يهمنا في هذا التاريخ) ، والى مساعدة الباشا في دفاعه وصده الهجمات الايرانية • وكان أول ظهور التجارة الانكليزية هناك وصول سفينة صغيرة بحمولة قليلة في ١٦٣٥ م (١٤٠٥ هـ) لما كانت الخصومة البرتغالية تسمح بالمبيعات بصورة معتدلة • على ان هذا التزاحم أصبح بعد مرور خمس سنوات شيئاً كثيراً بالنسبة الى مجازفتهم الثانية • فقد وصل اسطول برتغالي من مسقط ، فأنزل حمولته وملأ منها الاسواق قبل وصول احدى سفن الشركة البريطانية تماماً • وفي ١٦٤٣ م (١٠٥٣ هـ) أسس معمل ثابت صغير ، ونجح مدة وجيزة انتهت بوصول أيدي الهولنديين الطويلة الى الشط • فقد نقل في ١٦٤٥ م ، كما لوحظ سابقاً ، وكيل الشركة بضائعه المخزونة في غومبرون الى البصرة ، وفي أواخر السنة نفسها ، حينما كانت الحرب التجارية معلنة ، تبين أن اسطولاً هولندياً مؤلفاً من ثماني سفن ، انزل حمولته في المناوي[١٤] فتدهورت السوق البريطانية في يوم واحد ، ووهنت التجارة • واذ ذاك أهينت الشركة ، التي كانت قد تحررت من تدخل البرتغاليين ، لاستهانة مزاحيمها التجار بها ، ثم تغلب عليها الهولانديون فباعوا

---

(١٤) ضاحية البصرة المطلة على النهر في رأس نهر العشار

متاجرهم بأقل من أسعار تلك الشركة • وفي ١٦٥٧م (١٠٦٨ هـ) أغلق الباشا معملها بعد أن بلغته قصص مؤذية بافلاسها • غير ان عدة من السفن بقيت تتردد الى البلد قادمة من بندر عباس وسوراة ، ولكن المعمل لم يعد تأسيسه في هذا القرن • ولم يتضح لنا في التاريخ بقاء الهولنديين في البصرة باستمرار خلال هذه السنين ، ولا مقدار محاولتهم لنشر التجارة في العراق •

وكانت الامتيازات الشهيرة قد امضيت في استانبول عام ١٦٦١ م (١٠٧٢ هـ)، فقدر لها أن تنقح وان يصادق أصحابها عليها بعد أربع عشرة سنة • وبذا عينت الضريبة الكمركية على البضائع الانكليزية فأصبحت ثلاثة بالمائة • غير ان وصول الوزراء والايلچيين والاتفاقات المدونة كانت تقتضي سفرة تستغرق نصف سنة من ضفاف البوسفور الى الخليج • وحلت نهاية القرن فلم تقطف ثمرة تلك الامتيازات في تحديد الضرائب الكمركية ولا في العلائق الاخرى • ولذلك كان التجار الاجانب مضطرين يوماً بعد يوم ، عن طريق الهدايا أو التملق أو أية طريقة أخرى تنفعهم نفعاً آنياً ، الى الاتفاق مع الحكام المتعطشين الى الذهب والاعتبار ، السريعي التهيج والتضليل ــ العتاة الطامعين أو المشفقين تبعاً لما يتمخض به اليوم من حظ أو طالع •

سقوط اسرة افراسياب[١٥]

كوفيء علي باشا ، أمير البصرة منذ ١٦٢٤ م (١٠٣٤ هـ) ، على مقاومته للخطر الايراني مرتين بحكم مزدهر دام مدة خمسة وعشرين عاماً • فكانت منزلته بالنسبة للسلطان مختلفة التقدير • فقد كان يعد نفسه أميراً مستقلاً ، قانعاً بالاعتراف الرسمي الذي كان يأتيه من الخليفة الاسطوري البعيد • وكان يأمل التجار الانكليز في البصرة أن يحتموا بالراية التركية • في حين ان كان المسافرون بطريق البر الى هناك يعتبرون أنفسهم مارين بأرض تركية • وقد رضي الاتراك بهذه الحال حقيقة ، كما رضوا بها في كردستان من قبل • ومع ان البصرة بحالها هذه لم تفدهم شيئاً فانها لم تكن لتكلفهم شيئاً أيضاً ، أو برهنت على قابليتها للدفاع عن نفسها • وكان ما تستند اليه أسرة أفراسياب محلياً ضئيلاً بالنسبة لتحقيق

---

(١٥) المراجع تافيرنييه ، زاد المسافر ، بوليلگوز، غودينهو ، سورسيوز دوفال ، ثيفنو ، وتفصيل كثير في كولشن ، فون هامر (الجزء العاشر) • والظاهر ان الوصف في كتابات باش أعيان وفي غاية المرام مستقى من كولشن •

استمرار الحكم • فقد كانت قوتها العائلية التي تستند اليها قليلة ، ولم يكن لهـا تقاليد النبلاء نصف المقدسة • بل كانت حكومتها حكومة صدفة تمكنت من تسيير الامور الاعتيادية للبصرة وتجارها مدة نصف قـرن ، وتحقيق السـلم بشرف للسلطان •

ولم يساعد[16] أمير البصرة الجيوش التركية في كفاحها خارج بغداد حقبة من الزمن • ولم يشارك في حملة السلطان مراد الاخيرة أيضاً ، على أن السلطان لم يفكر في ورود المعونة منه • وقد راجت اشاعة في البصرة ـ التي مر منهـا امبراطور المغول ـ حاصلها ان الامطار الهاطلة في منتصف الشتاء هي التي انقذت البصرة من جيوش مراد • على ان ما نرجحه نحن هو ان شروطاً خفيفة للتابعية كانت قد عرضت فقبلت • ذلك لان البصرة النائية المغرية للشاه ، كانت بها حاجة لمعاملة رقيقة ان كانت النية متجهة الى عدم تكرار الحوادث المماثلة لخيانة الصوباشي وانفصاله المعلوم[17] •

وعلى هذا المنوال استمر حكم علي باشا من دون خصم له ولا سؤال عنه طوال مدة الاحتلال الايراني لبغداد ، ولمدة اثني عشر عاماً بعدها • على ان ذلك لم يكن ليخلو من وجود اصطدام مع الباشا المجاور • فقد وصلت منذ ١٦٤٠ م (١٠٥٠ هـ) عريضة لبغداد من سكان عرجة ، وهي بلدة كانت تحت يد أمير من عرب البادية ثم أخذها أمير البصرة ، على حدود امارة البصرة طالبين فيها الانضمام لباشوية بغداد • ففكر درويش محمد في ان تلك البلدة تستحق أن ترسل لها قوة تضمها ، فكان ذلك ، ووضعت فيها حامية بأمرة حاكم تابع له • وفي ١٦٤٥ م (١٠٥٥ هـ) أخذ علي باشا قلعة على الحدود تدعى قلعة زكية[18] • فبعث اليهـا

---

(١٦) يذكر كولشن ، في بحثه عن حصار حافظ احمد لبغداد ، ان مدفع حصار ضخم كان قد أمر الوزير بصنعه في البصرة • وهذا يطابق ما ذكره نعيما ان قوات بقيادة قره بكر كانت قد ارسلت شمالا للنجدة (حاشية ص ٦٣) • ولا يوجد أي شيء آخر مما يدل على المساعدة •

(١٧) يذكر بولي لگوز في ١٦٤٩ ان هذا كان مفتاح السياسة التركية مع أسرة افراسياب (ك ٢ ص ٢٩٧) •

(١٨) هذا ما يذكره زاد المسافر ، اما كولشن فيدعوها قلعة دكة

موسى باشا الصغير حملة منظمة ، مع مدافع ووسائل نقل نهرية ، فرقت حامية البصرة واحتلت الموقع وغيره من المواقع فيما وراء الحدود[19]

وكان تولي حسين باشا البصرة بعد وفاة والده في ١٦٥٠ (١٠٦٠-١٠٦١ هـ) مدعاة لتعقد علاقات البصرة • لان حسين باشا لم يكن له مثل الكياسة التي كانت تحبب والده ، لكنه ورث شخصيته القوية وطموحه عنه • فسبب له عنفه ، وجوره في بعض الاحيان ، وجود كثير من الاعداء • وبتساهله على التجار الاجانب والاقليات النصرانية الضعيفة نفر أبناء بلاده • ثم ازدرى باشا بغداد وبدأ بجمع « الكودة » عن أغنام القبائل المعترف بتابعيتها لبغداد وجاموسها ، كما ابقى موظفيه في أوسع قراها • وفيما يلي وصف وصفه تافيرنييه لحالة السلم التي كانت سائدة قبل حملاته التي قضت بها أطماعه

« تحالف أمير البلصرة[20] مع عدة أمم غريبة بحيث أصبح يرحب بكل من يأتي اليه • وكان في البلدة من الامن والحرية ما يجعل التجوال في شوارعها غير مخطر طوال الليل • وكان الهولانديون يأتون الى هناك بالتوابل كل سنة ، كما كان الانكليز يأخذون الفلفل وشيئاً آخر من التوابل • اما البرتغاليون فلم تكن لهم تجارة قط • وكان الهنود يأتون بالاقمشة والنيل وسائر أنواع البضائع • والخلاصة كان في البصرة تجار من جميع البلاد • فمن استانبول وأزمير وحلب ودمشق والقاهرة وجميع انحاء تركية كان التجار يتواردون لاشتراء البضائع المستجلبة من الهند فيحملونها على الابل التي كانوا يشترونها من البلد نفسه أيضاً ، اذ يأتي بها العرب من البادية لبيعها • اما من كان يقصد البصرة من ديار بكر والموصل وبغداد والجزيرة وبلاد آشور فكانوا يبعثون ببضائعهم على ماء دجلة ، لكن ذلك كان يطوقهم نفقات ويكلفهم مصاعب • وكانت رسوم الكمرك في البصرة بمقدار خمسة بالمائة • وكان في الامكان التسامح بصورة عامة من الكمرك أو من الامير نفسه بحيث لا تتعدى الرسوم

---

(١٩) يقول هوار : ان حصن «قصر تابع» الحصين بجانب البصرة قد أخطأ گولشن بترجمته ب « بعد طرفنه قصر نام قلعه » ، أى أن كلمة «قصر» فقط هى الاسم الحقيقى •

(٢٠) هكذا كان يكتبها السائح – المترجم

أربعة بالمائة . وكان امير البصرة حسن التدبير ، حاذقاً بحيث كان يوفر ثلاثة ملايين ليرا في السنة . وكانت أهم موارد ماله أربعة أشياء : النقود والخيل والابل والنخيل . اما النخيل فكان مصدر القسم الاعظم من ثروته » .

وكانت ضريبة التمر « ثلاثة أرباع اللارين أي تسعين سنتاً افرنسيا » . وكانت الفائدة من الدراهم تحصل عن طريق تبديل « ريالات » جميع التجار الغرباء في البصرة بـ « لارينات » فيستفيد من ذلك بمقدار ثمانية في المائة .

وكانت تجبى رسوم الكمرك البرية على الحدود ، وفي القرنة عن طريق النهر ، وكذلك في الميناء . وكان الذي يمارس الاحكام العدلية قاض لا يعين من استانبول بل يعينه الباشا نفسه . وقد كانت في البصرة أقنيات نصرانية . فقد بقي دير الكرمليين الايطاليين ، وتركت بيعة البرتغاليين « اوستن فريرز » عند انقطاع التجار البرتغاليين عن البلد . وعين رئيس الكرمليين في ١٦٧٩ م (١٠٩٠ هـ) قنصلا افرنسياً على كونه غير افرنسي الجنسية .

وحكم حسين باشا في هذه الاحوال المؤاتية مدة أربع سنوات جاءت له بعدها بالمشكلات والقلاقل الخارجية أفعاله التعسفية في الداخل . فقد أساء معاملة أحمد بك وفتحي بك ، اخوي والده عي باشا ، ففرا الى استانبول وحصلا هناك فرمانين بتعيينهما لسنجقين من سناجق ايالة البصرة[٢١] . فتسلحا بهذين الفرمانين ورجعا الى البصرة وفيها قابلهما بكل تأدب رسمي ابن أخيهما . على انهما سمعا بعزمه على اغتيالهما فدافعا عن أنفسهما دفاعاً مجيداً حتى اكتفى بنفيهما الى الهند . فأبحرا اليهما ، الا أنهما نزلا في القطيف على أحد معارفهما القدماء محمد باشا ميرميران الاحساء[٢٢] . فكتب المنفيان من هذا الملتجأ الى الباشا في بغداد يصفان حالهما الحرجة ، وهذا الازدراء للباشاه .

---

(٢١) ان عجز السلطان عن مثل هذا التعيين لم يكن شيئا مهماً فياستانبول التي كان أولو الامر فيها لا يرغبون في الاعتراف بانفصال البصرة . ويذكر ثيفنو (ص ٥٦٧) ان أحد العمين قد عين باشا للبصرة وعين الآخر باشا للقطيف والاحساء

(٢٢) كانت تعد بلاد الاحساء في هذا الزمن تابعة لامارة البصرة لكن ذلك كان اسميا فقط

فبادر مرتضى باشا ، وكان والي بغداد منذ ١٦٥٣ م (١٠٦٤ هـ) لدعوتهما بالحضور عنده . ولما حضرا لم يكن كلامهما في مصلحة ابن أخيهما بطبيعة الحال بل على الضد من ذلك ، فكانت الفرصة سانحة لمرتضى . فجمع جيشه وبعثه جاعلاً عليه الكهية رمضان اغا قائدا ، ثم تبعه من بعد ذلك بنفسه وانضم الى القوة في عرجة . فسقطت القلعتان القريبتان ـ الجلوجية[٢٣] وعقارة ـ بسهولة . وناصرت القبائل الجيش الذى جاء ينقذها من حاكم قوي كان يحكمها . فاعتمد في النقليات والتجهيزات والادلة والجواسيس وحسن النية على قبائل الجزائر . وسقطت القرنة من دون ان تضرب . وفر حسين باشا الى ملتجأ في عربستان[٢٤] . فدخل مرتضى البصرة وجعل أحمد حاكما فيها .

وعلى هذه الشاكلة أعاد زحف موفق حقاً البصرة الى الامبراطورية بعد شبه انفصال دام مدة نصف قرن . وقبل ابن من ابناء افراسياب المنصب فبقي العوبة بيد الباشا في بغداد . ولاح ان ايام امير البصرة قد أخذت في الافول . لكن الحقيقة هي ان حسين باشا كان من حظه أن يحكم اربع عشرة سنة أخرى، وذلك بفضل شخصيته النافذة ونقاط ضعف مرتضى الكثيرة . فقد تقبل مرتضى ، بعد ان أصبح سيد المدينة ، هدايا الاشراف الثمينة الدالة على الزلفى ولم يكتف بها . فأمر بالتضييق في حراسة أموال الاسرة المالكة وبإثباتها في قائمة . فكان ذلك بمقام أول مرحلة للنهب الذى لم يستبق أحداً من أغنياء البصرة حتى خزائن الحكومة . ثم جرى اعدام البارزين من الاشراف بعد ان صودرت أموالهم . وبذلك انغمرت البصرة في لجة من الحزن والخوف بعد ان فرحت باستقبال المنقذ . فهبت المدينة والعشائر معاً من هدوئها وولائها وهاجمت ثائرة لاعدام أحمد وفتحي الفجائي . وثارت قبائل الجزائر فهاجمت القرنة ، فعجل مرتضى بارسال المدد الى هناك من البصرة . وكانت المناوشات غير المنظمة التي وقعت في الاهوار وبساتين النخيل تدل على ثبات القبائل أكثر منها على ثبات جيش الباشا . وكابدت أفواج بغداد أفدح الخسرانات . فبدأ الارتداد التدريجي ، وتراجعت سرية بعد أخرى الى بغداد ، ووجد مرتضى باشا نفسه غير قادر على

---

(٢٣) قد تكون الصليبچية ـ المترجم

(٢٤) يقول صاحب زاد المسافر انه التجأ الى بهبهان ـ المترجم .

حفظ موقفه في البصرة • فتركها فجأة صفر اليدين[٢٥] ، وانضم بقسم من جيشه في عرجة، ثم وصل الى بغداد بعد مروره في مناطق العشائر التي أصبحت معادية عاتية • وعندئذ عاد حسين باشا الى حكومته في الحال فاستقبل استقبالا تجددت فيه حرارة الولاء في نفوس أتباعه الذين كانوا قد عرفوا قدره بعد ان جربوا غيره • فتابع حكماً رحيماً ومنوراً بصورة عامة ، كثير العضد للتعلم ، وحكيماً بالخضوع الاسمي للسلطان[٢٦] ، ولكنه كان ملوثاً بأخلاقه السمجة وطعمه الجشع • وقد وصف مسافر جزويتي برتغالي[٢٧] البصرة فى ١٦٦٣م (١٠٧٤هـ) بأنها « أعظم سوق تجارية فى هذه البحار » واعجب « ببيوتها الجميلة خارج البلد ، وبجنائنها وبساتينها ، وبسهولها الزاهرة التي كانت تسقى بعدد كبير من الترع » •

غير ان تصادماً قاضياً آخر مع الامبراطورية المسيطرة كان ضرورياً لايحتمل تأخيره عدة سنين • وكانت الفرصة المؤدية لذلك التصادم اطماع حسين باشا ومنافسته لزملائه انصاف المستقلين في الخليج • فقد كان نصب نائباً عنه في القطيف من قبل • وبادر الآن (١٦٦٣ — ٤ م) بارسال قوة قبلية — بني خالد ورئيسهم الامير براك — لاحتلال الاحساء • فلم يجد براك صعوبة في تسلم الحكومة من محمد باشا ، غير انه رأى من المناسب ان يحفظ الاحساء لنفسه بدل ان يرجع • وبحملة بحرية سريعة احتل حسين الولاية الثانوية التي كان يطمع فيها ، مع ان محمد باشا هرب الى استانبول[٢٨] • فاجتمع تجبر حسين

---

(٢٥) يقول كولشن انه ترك غنائمه وفر وحده ، ويذكر الفون هامر (ص ٣٧٧) انه اخرج من البصرة ، ويذكر ثيفنو (ص ٥٦٨) انه ترك بعد ثورة عامة مع اكثر ما تمكن من حمله •

(٢٦) يذكر زاد المسافر ما نصه « ثم انه ارسل هدية الى السلطان واشترى تاج الوزارة » — المترجم

(٢٧) غودينهو

(٢٧) ان هذه القصة موجودة فى جميع المراجع ، ويذكر صاحب زاد المسافر وكولشن ان الفظائع التي ارتكبها رجال حسين في الاحساء هيجت غضب السلطان • (المؤلف) • وهاك نص رواية زاد المسافر : « ثم وجه عسكراً الى الاحساء ففتحها وكان فتحها عنوة بالسيف وقتلوا منها خلقاً كثيراً واستباحوا بها فروجا واموالا • وكان هذا الفتح هو السبب في غضب السلطان عليه لان حاكم الاحساء المعروف بمحمد پاشا بن علي پاشا انهزم الى السلطان وشكى حسين پاشا ••• » — المترجم •

الى قصص العنف المروية عن الاحساء فأثار الغضب الملكي • فاعتمد على ابراهيم « الطويل » ، باشا بغداد الحالي المحترم في استانبول ، فكانت جميع الاحوال مناسبة لايقاف البصرة عند حدها • وأنصت الى محمد باشا بكل انتباه ، ثم اصدرت الاوامر بأعادته الى منصبه • فعهد هذا الواجب الى ابراهيم الذي اخبر بأن يجمع جيشاً من نواحيه ومن قطعات ديار بكر وحلب والموصل والرقة وشهرزور فيسير به لعقاب آل أفراسياب • فتحشد الجيش في الحلة ، وكانت أول خطوة خطاها الباشا هي ان يتوجه بخطاب رسمي الى حسين يدعوه فيه الى الاستخذاء والاسترضاء • فكان الجواب عن ذلك جواب رجل سليط •

ولقد اُنذر امير البصرة بهذا أنذاراً طويلاً • اذ كان قد قوى التحصينات في عاصمته ، وفي القرنة ، وانشأ ستاراً عسكريا في الكميت ، وكان منذ أشهر خلت يخرج السكان العاجزين عن القتال كلهم من البصرة • فأثارت هذه العملية مقاومةً تغلب عليها بتهديداته وشراسته ، وتضمنت مناظر ومآس تتشقق لهـا القلوب • فقد كان ضباطه ، المماليك والاحرار ، لا يرحمون مسناً ولا ضعيفا فى الاخراج • وفي المناطق المحيطة بالمدينة ، اتخذت خطوات مماثلة لتحرير البلاد من كل ما يستفيد منه العدو ، وتجعل من الصعب على الباشا الطويل الوصول اليها •

وبدأت قوات السلطان بزحفها الى البصرة في تشرين الثاني ١٦٦٥ م (١٠٧٦ هـ) • ومع أن رايات باشوات سبعة وما يقارب العشرين من البكات التابعين كانت ترفرف في الفضاء فان الترتيبات والتحضيرات المقتضاة كانت قد اهملت • والا لما تمكنت مراكز دفاع حسين أن تصمد في وجه مدفعية المحاصرين • لكن ابراهيم الطويل ، المتطرف في الثقة بنفسه ، انخدع بالمشورة السيئة وصار يتوقع استسلاماً عاجلاً بحيث ظلت عيونه ترنو الى الطريق كل يوم بانتظار تلك الرسل فى طريقهم اليه • فبلغ الجيش الرماحية ولم يصل اليه شرط من الشروط التي ظن انها ستعرض عليه ، ثم تجوهل انذار أخير وجه به الى حسين • فدخل الجيش ولاية البصرة وخيم في المنصورية • وهنا بدأت بمقاومته قوة من قوات حسين غير النظامية مع عدة قبائل ، لكنه شتتها من دون جهد وسار في طريقه ، ثم نصب جسر لعبور النهر في المنصورية ، فعبر عليه

الجيش متوجهاً الى القرنة حيث كان حسين يدير امور الدفاع بنفسه • فتطاولت الايام الى أشهر ولكن القلعة بقيت صامدة للهجوم •

وفي غياب حسين عن البصرة أضاعت لـه الفتن عاصمته بصورة وقتيـة • فقد وجـد ابراهيم باشا الوسائل لتوهين اخلاص البصريين الأقويـاء وولائهم • وحدث في أواخر حصار القرنة ان اضطر حسين مـن قلة الارزاق (او دفعته مطامعه المحيرة) لاغتصاب سفن مشحونة بالمؤن من شـط العرب • ولم يعـد الى أصحابها الا قشور سفن مهشمة فارغة • فسارع هؤلاء بدافع الغيظ للانضمام الى الناقمين • واجتمعوا فبعثوا بكتاب الى الباشا الطويل في خطوطه الحربية في القـرنة يخبـرونه بأن البصرة أصبحت في فوضوية من الحكم والاضطراب ، ورجوه ان يرسل حاكماً عنـه لينقذ الميناء من سيدهم • فأرسـل سولاق حسين مندوباً عنه • غير ان الشيوخ والتجار كونوا حينئذ سلطة موحـدة وفضلوا أن يحتفظوا هم أنفسهم بالحكم على أن يسلموا المدينة الى غريب لا سند له • وفي كلتا الحالتين اضاع حسين المدينة •

فعرض عليه معتمده القديم ، محمد بن بوداق، ان ينظم حركة معاكسة لهم على شريطة ان يجهزه حسين بما يقتضي لذلك • فكان جوابه له ان يمضي في الامر ، ووعده بامداده بالرماحة من العرب • فجمع محمد أتباعه المخلصين له ، وان كانوا اقلاء ، وهاجم البنايات التي كانت تشغلها الحكومـة الموقتة • وجرى بين الفريقين نضال انتهى بانكساره وموته ، وتسنى بذلك لسادة البصرة الوقتيين أن يطوفوا فرحين في شوارعها الهادئة المضرجة بالدماء • غير انهم سهوا عن أيسر الاحتياطات ، وهو تركهم الابواب مفتحة • فدخلت منها الى المدينـة القوة التي بعثها حسين للمدد ، وتمكنت في بضع ساعات من تغيير الحال ، فانحلت حكومة أشراف المدينـة • ونهبت جماعة منهم ، كما اعدم اثنان واجبر الآخرون عـلى الاستتار أو الهـروب • واعترفت البصرة ، عـلى قدر التماسك الـذى تمكن مواطنوها المشتتون الفزعون من ابدائه ، بحكم أميرها عوداً على بدء •

ثم تطاولت أيام الحصار في القرنة ، وصد حلفاء حاكم البصرة من القبائل حلفاء ابراهيم باشا عنهم • ولم يتوصل الانكشاريون الواصلون مدداً من بغداد لتحسين الحال الحرجة • اذ لم تنفك المقاومة ، ولم تنفع هجمات القوة الهاجمة

المتفوقة في العدة ولا اغراءاتها • بـل حوصر المحاصرون هـم أنفسهم محاصرة نصفية مـن جانب العصـابات المنتشرة المؤلفة مـن عشائر الاهوار الذين ظلوا يزعجون الخطوط الحربية بلا هوادة • فقلت التجهيزات وأدت أشهر الخيبـة الى هبوط القوة الروحية • وفي الاخير ، فاوض باشا ديار بكر الامير ، من دون أن يشاور القائد العـام ، فنظمت الشروط بسهولة • وكان مفادهـــا ان تبقى حكومة البصرة بيد الاسرة نفسها ، على أن تنتقل من حسين الى ابنه أفراسياب ، وعلى أن ينسحب حسين نفسه الى مكـــة • وان يرفع الى السلطان الاعتذارات الرسمية ، ويعاد محمد باشا الى الاحساء ، وترجع الغنائم الى السكان ، وتدفع جراية التابعية في الحال ثم مسانهةً الى الخزينة الامبراطورية • وقد أرضى هذا الاعتراف التـام بضعف الاتراك حسيناً حـــق الارضاء • فرضي ابراهيم باشا بالمفاوضات ، وأعيد محمد الى الاحساء ، وتراجعت جيوش ابراهيم وزملائه •

عاقبــة حسين باشا

لقد نجا حسين باشا النجاة الثانية بفضل دهائه ومتانة سياسته • ورجع الى البصرة في حكم ابنـه الصغير بالاسـم ، أو لتوليه الامارة بصورة عملية مـــرة ثالثة • على ان التسوية الاخيرة هذه لم يكن ثمة ما يدله على انها ستصبح تسوية دائمة • فقد كانت ما تزال هناك نواة قوية للمعارضة : لأن تقاليد هذه الحكومة المستقلة قـــد تحملت صدمات عنيفة مدة نصف قرن ، وظل اخلاصه وطاعتـه لاستانبول شيئاً مشكوكاً فيه •

ثم ارسل يحيى أغا ــ وزير حسين وقريبه ــ الى أدرنة مع الكتب والاكياس• فلقي فيها وفداً من البصرة على غير اتفاق • وكان ذهابه الى هناك لمصلحة حسين ، اما وفادتهم فكانت غايتها افهام البادشاه بجوره وعتوه • غير أنه تبعت ذلك اللقاء محادثات خاصة ، واذ ذاك كانت الخيانة وليـدة الاطمـاع أيضاً • فقبـل يحيى معروضات الوفد البصري على أن يكون هو المرشح للولاية • فهيج السلطان بتجسيم خطر حسين فى نظره ، وبالوعد بارسال جراية اكبر من جرايته • وعلى هـــذا وصلت الاوامر الى قره مصطفى باشا ــ الذي كان يحكم بغداد يومئذ مرة ثالثة ــ بالقضاء على أسرة أفراسياب ، وبنصب يحيى • فاعطي قيادة قوات شبيهة بالقوات المذكورة من قبـــل ، وانضمت الى معسكره الجيوش مـن ديار بكر وشهرزور والموصل والرقة وكثير من القوات الاقطاعية • وقد بعث طليعة الجيش مع الامتعة

والمدفعية الثقيلة على دجلة الى الجنوب ، ثم ترك قره مصطفى بغداد مع جيشه الرئيس في الرابع والعشرين من تشرين الثاني ١٦٦٧م (١٠٧٨هـ) • وتخللت سيره البطيء وقفة للزيارة في النجف ، ووقفة أخرى في عرجة • وانضمت اليه في كوت المعمر ثلة قوية من المنتفكين[٢٩] •

وكانت القرنة أول هدف للجيش ، فكان عليه أن يعبر ما لا يحصى من الجداول قبل أن يصل اليها • وفي دار بني أسد[٣٠] اصطدم الجيش وثلة مؤلفة من خمسة آلاف مقاتل من أتباع حسين المدججين بالسلاح ، فكسرت شر كسرة وكابدت خسائر فادحة بعد قتال دام عدة ساعات • فتفرق رجال القبائل بمشاحيفهم بين آجام البردي العالية في الهور • وشيد قره مصطفى منارة من رؤوس قتلى العدو تشديداً لعزم رجاله • ثم استؤنف الزحف الصعب ، وفي أواخر كانون الاول من ١٦٦٨م (١٠٧٩هـ) أصبح الجيش محيطاً بقلعة القرنة ، فرتب ترتيبات الحصار[٣١] •

وقد تلقى حسين باشا أنباء هذه الخيانة ، وهذا الخطر الذي بات يهدد عرشه ، بكثير من التهيج والغضب • فصب جامات غضبه من دون رادع على رعاياه المذبذبين ، وعقب في المدينة جماعة من المشبوهين ولم يسلم من ذلك أحد حتى سكان البصرة المحترمون والحرم والمصونات • وبعث بنسائه وعياله الى ملتجأ في عربستان ، ثم خرب قصره[٣٢] • وبعد أن اتخذ جميع الاحتياطات رمى بنفسه في قلعة القرنة المنيعة ، التي كان قد حصنها من قبل •

غير أن مقاومته الناجحة في الحملة الاخيرة لم يكن من الممكن أن تتكرر • فبدأ الحصار سريعاً في شباط وطال مدة شهر ، وقد نفذ هذه المرة بحذق أوفر وفطنة أكثر • وكانت أحسن مدفعية الحصار يدير أمرها مدفعيون جاؤوا من

---

(٢٩) كان المنتفكيون مع حسين في الحملة السابقة

(٣٠) المظنون ان ذلك كان في المحل الحالي للعشيرة المذكورة حول الجبايش•

(٣١) ان رواية كولشن لاخبار هذه الموقعة هي رواية شاهد عيان

(٣٢) ويضيف كاريه (ص ١١٣) قائلا انه عرض حكم البصرة على الايرانيين (وربما كان عرضه اياها على والي الحويزة) طلباً لمساعدتهم له ، فرفض طلبه

استانبول • وقربت المدافع من القلعة شيئاً فشئاً ، فأفزعت نارها الفجائية المدافعين • وقد أحاط اذ ذاك باشا ديار بكر مع ثلة من الجيش بجهة من جهات القلعة لم تكن سهلة المنال من قبل • فكان الخطران شيئاً حاسماً • اذ فر حسين باشا ليلا الى المكان الذي أعده لتراجعه في بلاد الحويزة • وانتقض الدفاع ، فهرب الجند والقبائل الذين كانوا في الحامية كل على رسله وبقدر ما يستطيع ، فمنهم من التجأ الى الاهوار ومنهم من قصد الالتحاق بحسين في مكان آخر • ففتحت القلعة واحتلت ، ثم أعلن فيها العفو عن البائسين الباقين من الحامية • ودخل بعد ذلك الجيش الامبراطوري البصرة من دون مقاومة ، بل صادف أحسن ترحيب ، مع ان بعض شاهدي العيان[٣٣] يذكرون التأديبات القاسية التي أنزلت بالمدينة جزاء لها على خياناتها الطويلة • ثم رفع يحيى الى الباشوية ، وعوهد بأوثق العهود وابقى في الحامية الف وخمسمائة انكشاري ، وسجل ثلاثة آلاف من الجنود المرتزقة • ورممت القلعة مع خزانة الاسلحة وأعيدتا كما كانتا ، وكذلك نصبت ماكنة الايالة الرسمية • وبذلك نبذت البصرة امتيازاتها الخاصة وتخلصت من الاخطار التي كانت تهددها فدخلت في حظيرة الادارة الامبراطورية •

وعلى هذا قدر لحسين أن لا يعود لبلاده مطلقاً ، وحاول بلا جدوى في شيراز أن يقنع الشاه بشد أزره •

« ومن بعد ذلك سافر الى الهند مع ابنه علي بك ، الى بلدة « اوجين » وهناك وكل اليه ملك البلاد ادارة مقاطعة ما • ومن ثم وقعا معاً في حومة الوغى دفاعاً عن الملك وحفظاً لمصالحه ، ولكن بعد أن لحقت بهما نساء اسرتيهما من الدورق التي مايزال نسلهما يقيمون فيها »[٣٤] •

وهكذا اختفت عن العرش وعن البلاد امارة بيت أفراسياب •

جيل من التقلبات

مايزال أمام البصرة ، التي استرجعت للسلطان على هذه الشاكلة ، جيل من الجد العاثر • فقد قدر لها أن تخضع ايضاً لمستبد محلي • اذ كُتب لها أن ينهكها

---

(٣٣) الشيخ فتح الله الكعبي

(٣٤) ذكر الخبر مينيون نقلا عن الشيخ فتح الله ، غير ان قسما من هذا يكاد يشبه الاسا

الطاعون فتقع فريسة بيد مغتصب من العشائر يسلمها ، بعد أن يحكمها ردحاً من الزمن ، الى تابع من تابعي ايران • وتبقى على تلك الحال حتى يطلع فجر القرن الجديد فتقع ايضاً بيد باشا يعين لها على جاري العـــادة • وكانت الحكومة التي سمحت بهذا الانفصال المتكرر ، ولم تحسن استعمال رأس الجسر هذا المؤدي الى الطريق البري بين سورية وبلاد الهند ، غير معنية يومئذ بمناضلة ايران ولا باستبداد حكامها في بغداد • على اننا اذا ما أردنا ايضاح تساهلها في هذه الامور فيجب علينا أن لا ننظر الى أبعد من المشكلات الاصلية : كوعورة المسالك وبعـد المسافات ، وشراسة السكان من العشائر ، ومستوى الضبط المنحط ، وسوء الادارة المزمن ، مع الانحطاط العام الذي طرأ على الامبراطورية اذ ذاك •

فقد كان انضمام البصرة ينطوي على قيود لم تستطع اطماع يحيى الشخصية احتمالها • حيث كان بوسعه أن يحتمل وطأة الجيوش الامبراطورية ، والقاضي الذي يعين من استانبول ، لكنه سرعان ما اصطدم بشدة مع الدفتردار • وانتهى النزاع ، المألوف بين كبار الموظفين ، بتجبــر يحيى العلني • فأمر المحاسب بأن لا يتدخل فيما لا يعنيه وامتنع عن دفع رواتب الانكشاريين • فثاروا ، وفر يحيى الى خارج البلد • وتبين أول وهلة ان الموظفين الامبراطوريين قد افلحوا ، ولكن ذلك كان شيئاً وقتياً • فقد باغت يحيى المدينة بعد أن عجـــل بجمع جيش من الجنود الاجيرة وأفراد العشائر ، وأحكم اثارة الشعور على الاتراك بين القبائل ، وطرد آخر جندي من جنود السلطان ، وآخر كاتب من الكتبة ثم تسلم الحكومة بسلطة مطلقة •

وتبع ذلك تسابق في الاستيلاء على القـــرنة • اذ سبق ان استولى عليهـا الانكشاريون الذين أمدهم باشا بغداد على عجـــل بسريات من الجنـود النظامية وبقطعات اكراد بجلان وتركمان البيات • فوصلت هذه القوة الى القرنة وأنقذت المعتصمين بهـــا ، الذين خاب المجهود العظيم ليحيى في محاولته زحزحتهم عن مواقعهم • فرجع شذاذ جيش يحيى وانتقم لخيبته من سكان البصرة البائسين • وكان السلطان في غضون ذلك قد عين حاكماً حديثاً للبصرة ، وهو مصطفى باشا رئيس الحجاب ، وطلب من سميه في بغداد أن ينصبه فيعيد المياه الى مجاريها • وعبئت الجيوش من الأيالات المجاورة مرة أخرى • وبينما كانت هذه الجيوش

تنتظر برد الخريف سار المصطفيان معاً بعدة سرايا من الجنود الاجيرة في أحر أيام تموز • فكانت في ذلك الكفاية ، فقد فر يحيى وأبحر الى الهند[35] • وبذلك اختفى عن المسرح خائن عظيم آخر • فرجعت قطعات الأيالات الاخرى الى أهلها• ثم تقدم قره مصطفى الى البصرة ونصب سميه في الحكومة وترك له ما يحتاج اليه من الجيش والمال •

غير أن رئيس الحجاب ، غير المجرب بالحكومة ، الملزم بواجب جمع الواردات في ولاية تفسخت فيها القوة الروحية وتعودت عدم الدفع ، استقال من منصبه • فطلب الى والي بغداد أن يزور الميناء ثانية من غير أن يضيع ولايته الحالية • فوصل الى شط العرب في ١٦٧٠م (١٠٨١هـ) ، وتوجه وكلاؤه لكل سنجق وكل ديرة قبيلية لتدقيق النظر في حسابات الايالة جمعاء • وبعد أن ختمت السجلات بختمه ترك نسخة منها في خزينة البصرة وأرسل أخرى الى استانبول• وبهذا اضيفت البصرة الى بغداد كمتسلمية ، وسرعان ما عين لها قره مصطفى نفسه ، وعين مكانه في بغداد (كما رأينا آنفاً) حسين باشا • وكان تعيين قره مصطفى للبصرة كأيالة مستقلة ، فمات فيها سنة ١٦٧٢م (١٠٨٣هـ) •

وتلت ذلك عشرون سنة من الحكم الاعتيادي • فتعاقبت فيها الباشوات واحد بعد آخر في فترات طول كل منها سنة أو أكثر[36] • وحدث ثلاث مرات أن تقلد وال واحد الولاية مرتين • وعين عبدالرحمن باشا ، الذي كان في بغداد سنة ١٦٧٥م (١٠٨٦هـ) للبصرة في ١٦٨٢م (١٠٩٣ – ٤ هـ) ، فحبيت الحكومة للناس ثقافته وديانته وحسن نياته وعزتها • وبعد سنة تعين في مكانه رجل مناقض له في شخصيته ، يدعى حسين باشا • لكن تذمرات الناس من جشع القادم الجديد وأطماعه أدت الى أن تعمد استانبول الى اعادة عبدالرحمن الى منصبه السابق من جديد • وكان خلفه دفترداراً سابقاً في بغداد رفع في هذه المناسبة الى رتبة الوزارة •

وفي ١٦٩٠م (١١٠٢هـ) تفشى في البصرة طاعون وبيل أخمد فيها الحياة

---

(٣٥) راجع كاريه في سيرته في الاخير (ص ١٢٥) ، غير ان باش اعيان يذكر انه مات فجأة أول فراره من البصرة •

(٣٦) ا   ءم وتواريخهم في تقويم البصرة •

وأخلى شوارعها المكتظة • فقد كان الناس يموتون بمقدار خمسمائة في اليوم ، وتكدست الجثث في الازقة وبقيت غير مدفونة • وعانت الويلات من وطأته جميع الطبقات ، غنيها وفقيرها ، حتى الحامية الاجنبية فيها • فاغتنمت القبائل في خارج المدينة هذه الفرصة ، مع أنها لم تكن أقل تأثراً به [٣٧] • فجمعت قبائل المنتفك والجزائر ثلاثة آلاف خيال تحدت بهم الحكومة وأشرفت على المدينة • لكن احمد باشا لم يكن بوسعه الا جمع خمسمائة مقاتل قابل بهم القبائل الغازية وقاومها ، في حرب طويلة في موقعة الدير ، فأفنوا الا القليل منهم ، وكان الباشا نفسه بين الموتى • ولم يبق بين أسواق البصرة والعرب الفائزين شيء • غير أن الساعة انجبت رجلاً • فجمع حسن آغا الكهية جميع السكان القادرين على القتال، وجعل واليا بالاجماع ، فنظم مقاومة عنيفة بحيث لم يستطع رجل واحد من القبائل الدخول الى البلد • وقتل هو أيضاً ، فانتخب في مكانه رجل يدعى حسين جمال • وهكذا استقامت الحكومة التركية في البصرة سنة أخرى •

بيد أن سطوة المنتفكين برآسة مانع بن مغامس قد عظم شأنها في تلك الايام ، وأخذت شكلاً يهدد البصرة ويعد خطراً الى حد ما بالنسبة لبغداد • فسقط الميناء بيد مانع في ١٦٩٤م (١١٠٦هـ) • ولم يحصل في هذه المرة مصادقة ملكية على الاغتصاب • وفي السنة نفسها توجه من بغداد جيش منتقم يقوده خليل شقيق احمد باشا الوالي • وجيء بالجند حسب المعتاد من كركوك والموصل ، فاشتبكت الحملة[٣٨] مع الجيش القبائلي في منطقة الجزائر • وهنالك خذلت وتفرق

---

(٣٧) ان مراجعنا لاخبار ١٦٩٤ ـ ١٧٠٠ م هو ما كتبه بايجاز الكابتن الكسندر هاملتون (ص ٨٢) • وهو يذكر ان احتلال الايرانيين للبصرة كان قبل تفشي الطاعون ويجعل تفشي الطاعون في سنة ١٦٩١ م • وهذا ما قاله : (فشا في ١٦٩١ الطاعون بشدة بحيث مات ثمانون الفاً من الناس ، وفر من بقي منهم الى خارج البلد فبقيت البلدة مدة سنوات ثلاث بعد الطاعون بلقعاً تسكنها الوحوش الضارية التي اخرجها من البلدة في الاخير العرب الشرسون المجاورون) •

(٣٨) يذكر الفون هامر (ص ٣٩٦) وينحو نحوه هوار (ص ١٣٧) اخبار وسائط النقل النهرية المنشأة بأمر السلطان مصطفى الثاني ، ومهمة حسين باشا في الرقة بالمسير الى البصرة • غير ان الظاهر ان حسيناً مات ولم يتحقق شيء في الحملة النهرية •

الجيش ، ونزع رجال القبائل الخشن بدلات الانكشاريين • وأعقب مانع انتصاره هذا باقتراح شروط للهدنة ، فأعفي من كل شيء بشرط أن يعد الدولة بالولاء في المستقبل • وأصبح خليل والياً[39] • غـير ان مانعاً لم يكن قادراً على امساك نفسه في التهام هذه الفريسة الهينة ، فطرده ثانية واتخذته البلدة والقبائل والياً • ولـم يدر بخلد أي باشا غريب أن يأمل نفوذاً شاملاً مثـل نفوذه • فقد امتلك قسماً من عربستان ، وكان مسيطراً على ما بين دجلة وعربستان من سهول وأهوار، وأطاعته بدرة وجصان ومندلي • وقد غطت سطوته يومئذ على سطوة الحويزة ، اما على الفرات فقد استولى على العرجة والسماوة والرماحية •

ويكتنف الغموض الاحوال المحيطة بانتقال منطقة البصرة الى أحضان نفوذ الحويزة • ففي ١٦٩٧ م (١١٠٩هـ) بلغ عداؤهما حـده الاعلى • ودحر فـرج والي الحويزة في موقعة ما رئيساً كبيراً من رؤساء المنتفك • وقدم أشراف البصرة ، الذين ملوا من تقلبات الحكم العشائري ، عريضة الى بغداد طلبـوا فيها ارسال وال أصولي اليهم • وكان حسن باشا ، المرشح للمنصب ، في بغداد فتحقق بواسطة وكلاء خاصين الموقف المناسب في الميناء ، ثم تحرك اليه • فاحتلت القرنة ، غير انه لسبب من الاسباب خاب فى التقدم الى البصرة ، ففشلت الحملة • وهنا وجـد الباشا في بغـداد طريقة سهلة لحل المشكل • فقد وصل اليه رسل فرج الله خان يطلبون رخصته في اخراج مانع من البصرة ، فصودق على الفكرة على كل حال • فطارد الخان القوات المنتفكية من البلدة واحتل القلعة فيها ثم احتل قلعـة القرنة • غير انه (على عكس اتفاقه مع بغداد) أرسل بالمفاتيح الى الشاه • فبـادر الشاه حسين ، المعتلي حديثاً على العرش ، بارسالها مع الهـدايا الفاخرة الى السلطان ، فقوبلت تلك الوفادة بكل تقدير ، وأرسل وفد جليل في مقابل ذلك الى أصفهان •

وقد استمر حكم الحويزة في البصرة عدة شهور • وظل التجار المحليون يذكرون هذه الفترة بكل خير[40] • اما العلاقة السياسية بشيخ المنتفك فقد كانت

---

(٣٩) لكنه غير مدرج في قائمة الولاة •

(٤٠) يقول الكابتن هاملتون (ص ٨٢) « وبقيت البصرة عدة سنين بيد الايرانيين الذين شجعوا التجارة فيها ، فانجذب كثير من التجار الاجانب للنزول فيها وخاصة من سوراة في الهند » •

علاقة نزاع وحسد تتخللها فترات من التحالف • وظهرت في الاشهر الاولى من القرن الجديد عناصر جديدة للفوضوية بحـــدوث فيضانات عظيمة في الفـرات الجنوبي • فعزلت البلدان ، وجرفت القبائل عن منازلها • وهب الكثير من الرؤساء ليستربحوا ما يمكن استرباحه في هذه الكارثة • فاستولى أحدهم وهو ابن عباس ، لعله كان من الخزاعل ، على الرماحية وحسكة وضواحي النجف • وأمسك مانع النهر من السماوة الى القرنة • اما شمالاً ، فقد حاصر سلمان الحلة وأفزع عباس بني عمير بلاد الجزائر ونهبها • وزادت في الطين بلة الخلافات الناشبة بين خانات الحويزة • فدعا الاتراك ثانية فرج الله ، الذي كان في حرب مع المنتفك ، غير أن الشاه عزله بعد ذلك فصالح مانعاً ، وجاء بعده في البصرة داود خان •

ولم يبق السلطان جاهلاً بالاحوال في جنوبي العـراق ، وبكونها أصبحت اسوأ مما كانت عليه في عهد حسين ويحيى • وبات اخـــراج الإيرانيين وتأديب القبائل من الواجبات المستعجلة • فعهد بهذا الواجب الشاق الى دلتبـان مصطفى باشا حاكم بغداد الحديث ، العنيف الصارم • فجمعت القـــوة اللازمة وانضمت القطعات الكردية الى قوات التيمار الاقطاعية المرسلة من نصف أيالات تركيـــة الشرقية • ثم أنشيء أسطول من وسائط النقل النهرية في بيرهجك وعهدت قيادته الى علي باشا الحاكم المرشح للبصرة • وأرسلت المدفعية الثقيلة على طريق النهر في دجلة الى الجنوب ، ثم سار الجيش ببطء ماراً بالحلة وخسكة الى الرماحية •

ولم يشهد العراق الجنوبي قوة عظيمة مثل هذه منذ جيل • فخف الرؤساء الذين كانوا لصوصاً بالامس لتقبيل أيـدي دلتبـــان ، متذرعين لذلك بمختلف الذرائع • ثم جرى الاشتباك مع جمهرة من القبائل كانت ما تزال معـــادية في جنوبي الرماحية في أواخر كانون الاول ١٧٠١م (١١١٣هـ) فدحرت تماماً • وقد كونت رؤوس ألف من العصاة المقطوعة هرماً كالح اللون ، وبقيت رابيـة أشلائهم ظاهرة للعيان[41] بعد أربعين سنة •

وسمع مخيم مانع ، الذي كان قد التجأ اليه فرج الله ، بعظم الجيش الزاحف وقساوته ففزع كل الفزع • وعهد الى شيخ أدنى رتبة بأجراء المفاوضات بالخضوع

(٤١) أوتر (ص ٢٠٠) ، سستيني (ص ٢٣٥) •

السلمي ، وانتهى القتال . وسار مع الجيش الادلاء الخاضعون الى القرنة التي لم تقاوم . وسلم فرج الله نفسه ، ثم أعفي مانع أو أهمل . كما تخلى خان البصرة عن التفكير في المقاومة وهرب . ورحب وفد من رجال الدين والشريعة بدنتبان في البصرة التي كان قد أنهكها الطاعون والفوضوية وتبدل السادة ، ثم تولى الأيالة في أوائل مارت علي باشا . فانقضت بذلك عشرة أعوام من الكفاح والضنك على ما يبدو .



الفصل السادس

حـروب العمالقـة

حسن باشـا

يدخل تاريخ بغـداد في دورٍ جديد منذ تعيين حسن باشا في باشويتها عام ١٧٠٤م (١١١٦هـ) • ومما يبعث على الارتياح أن نلتفت بالبحث الى حاكم حديث يمكننا أن نسهب في وصف شخصيته واعماله مدة تزيد على عشرين سنة ، بعـد باشوات القرن الاخير الذين لا نعرف عنهم الا القليل • فما من حاكم ، ممـن تناوله هذا التاريخ ، أشغل مثله منصب الحاكمية مـدة طويلة بمرة واحدة الا سليمان الكبير • ولم يكن الذكر المشرف الذي يستحقه في تاريخ العراق مستنداً الى مجرد حكمه الطويل القوي غير المنازع ، ولا الى اصلاحاته وتدينه والامن النسبي الذي نشر لواءه في البلاد ،بقدر ما كان يستند الى احتلاله الموفق للبـلاد الايرانيـة ، وتأسيسه لسلالةٍ من السلالات الحاكمة • فقـد قدر للباشوية أن تنتقل الى ابنه اولاً ، ولاختانه[2] على بناته بعد ذلك ، ممـن كانت سيادة الحكم

---

(١) المراجع لحوادث ١٧٠٤ م (١١١٦ هـ) ـ ١٧٤٧ م (١١٦٠ هـ) هـي « حديقة الوزراء » وهـي أقـدم مرجع محلي ، وقد اعتمد عليه رسول حاوي افندي في كتـابه « دوحة الوزراء » وكذلك سليمان بك في « حـروب الايرانيين » • وتقل قيمة كولشن في البحث عما يتعدى ١٧٠ من التاريخ • اما شؤون الموصل فاغلب المراجع ثانوية « كالتقويم » و « تاريخ الموصل » لسليمان الصائغ وأوراق وشروح في الكتب • ويرجع الفون هامر في بحثه عن هذه المدة الى ما كتبه راشد حتى سنة ١٧٢١ م وچلبي زاده ل ١٧٢٢ ـ ٢٨ وصبحي من بعد ذلك حتى ١٧٤٤م وعزي ل ١٧٤٤ ـ ٥٠ • وكتب من الايرانيين مرزا مهدي « جهان كوشه‌ي نادري » بصورة مفصلة • وليس ما كتبه هانووي مهما ، ويرجع اليه الاب كروسنكي ، وكذلك رجعنا الى مالكولم وولسن وسايكس • ومن أهم الرحالة الذين كتبوا لهذه المدة هاملتون واوتر •

(٢) الاختان هنا جمع ختن على وزن قلم بمعنى « زوج البنت » •

المملوكي قد توطدت بشخصيتهم وثبتت على عهدهم بحيث لم يعرف العراق خلال قرن واحد حكاماً من عنصر آخر غير عنصرهم . فلم يكن مضمار الباشوية المبتدىء من حسن باشا المنتهي بداود باشا سوى مضمار سلالي ينحصر أولاً في سلالته ثم في عبيده ، أي مماليكه . وكان تعيين حسن باشا بالنسبة الى استانبول آخر تعيين تمكن من تنفيذه السلطان طوال مائة وثلاثين سنة . لأنه هو وابنه ، وهما خادما الخليفة المخيفان في ولايتهما ، كانا قد رسما خط الانشقاق الواضح عن الامبراطورية .

وكان مصطفى بك ، والد حسن سباهيا في جيش مراد الرابع . وتثقف الابن ، المولود في أوربة في حدود ١٦٥٧ م (١٠٦٨ هـ) ، بثقافة مدارس السراي . فأعجب به الصدر الاعظم ، وبانت عليه منذ الصغر شجاعته في العمل . وفي ١٦٨٣ م (١٠٩٥ هـ) بدأ بسيرته الرسمية في وظائف القصر . ثم رفع الى مرتبة وزير في ١٦٩٧ م (١١٠٩ هـ) فتولى ايالة قونية وحلب واورفة ، وترك في كل منهما آثار العمل العظيم المفيد . وفي ١٧٠٢ م (١١١٤ هـ) عين حاكما لديار بكر ، ثم خلف علي باشا في بغداد سنة ١٧٠٤ م (١١١٦ هـ) .

ويعد تاريخ باشويته نموذجاً للعناية الشاملة التي كان يقوم بها وال من ولاة بغداد . فلم تذلل حملاته العشائرية الاصقاع البعيدة التي تفصل القبائل غير المذعنة للحكومة ، ولا نكوصها بعد تأديبها بنجاح فحسب ، بل ذللت أيضاً التأثيرات الخارجية التي كانت قد أخذت من قبل شكلاً معقداً غير محلول . فقد كان لبني لام علاقات غير منقطعة من حلف أو حرب مع القوة المجاورة في الحويزة . وكانت الجهتان تغري الجاف والبلباس وغيرهم من قبائل الحدود الكردية والايرانية بالوعد أو ترهبهم بالوعيد . وكان يقلق قبائل الفرات نصف المتوطنة اخوانهم بدو البادية كذلك . ومن أجل هذا سنستعرض حملاته العشائرية استعراضاً سريعا قبل ان نلتفت الى أمور أخرى أكثر دقة من أمور الحكم .

فقد عرفت سنته الاولى بتأديبه الصارم للصوص في نواحي الزاب الصغير . وانتهت حملة في الموصل بموقعة حامية جرت فيما يقرب من خان النقطة ، وتلا ذلك توطن القبيلة التائبة . وسمح الوقت في السنة نفسها لأول حملة

تأديبية جردت على بني لام . وكانت أكبر حملات ١٧٠٥ م (١١١٧ هـ) موجهة على سلمان ، رئيس الخزاعل، الذي انضمت اليه بعض جماعات من شمر وعنزة ، فنهب قرى بغداد وهدد الحلة . ولم يكن جيش هذا جيشاً قبلياً هيناً ، لأن شيئاً من الادارة كان موجوداً فيه فأدى لسرعة توسعه . فسار الباشا الى لقائه ماراً بالحلة الى حسكة ، فتفرقت قواته وطلب العفو . ولما طلب استسلامه بنفسه فر الى خيام مانع شيخ المنتفك .

وفي ١٧٠٦ م (١١١٨ هـ) استدعى حال شمر العقاب . فعبر الباشا الفرات من جنوب الفلوجة ، وبعد تعقيب شديد انزل بهـا خسرانات فادحة وسلب امتعتها . وجردت الحملة التالية على قبائل الفرات الاوسط كالحميد والسعدة والرافع ، وقد سيقت هذه الحملة تلبيةً لتذمر شبيب شيخ قشعم ، وبمساعدة قطعات قبائلية كبيرة . فانتهت الحركات بخضوع العدو . وتلت ذلك حملة على زبيد فطلبوا العفو ساعة وصول الباشا واسلموا اليه رؤوس العصيان . غير انهم سرعان ما استأنفوا الاخلال بالامن لما قفل الباشا راجعاً عنهم .

لكن أهم وقائع ١٧٠٦ م ــ التي وصلت أخبارها بأول رسالة تسلمها الصدر الاعظم الحديث في استانبول[٣] ــ كانت ثورة مغامس المانع والمنتفكين . وكانت الاسباب المباشرة للثورة أمور تتعلق بحقوق الارض في جزر الفرات ، ونزاعات لسبب الضرائب ، والمنح التي كانت تطالب بها القبائل . وقبل أن يتولى خليل باشا منصبه في البصرة في ١٧٠٥ م تنازع نائبه مع رؤساء المنتفك . فقابل خليل وكهيته قوات القبائل أربع مرات وتغلب عليهم ، ثم عزل الثائر واعترف بالشيخ ناصر شيخاً رسمياً . غير ان مغامساً جمع الاكثرين حوله وشن هجوما مفاجئاً ناجحا على خليل . فارتمت بذلك ولاية البصرة بأجمها الى ما يقرب من أسوار المدينة في أحضان فوضوية جديدة . فاستنجد خليل ، ولم يكن ذلك للمرة الاولى ، ببغداد . وأمر السلطان كالمعتاد بجمع القوة من الباشوات المجاورين ــ في كوتاهية وديار بكر وكركوك والموصل ــ مع الخيالة من البكات الاكراد .

وفي الاسابيع الاخيرة من سنة ١٧٠٨ احتشد جيش عرمرم في بغداد .

---

(٣) علي باشا كورلي (الفون هامر المجلد الثالث عشر ، ص ١٧٤) ، تولى الوظيفة في اليوم السادس من شهر مايس ١٧٠٦م

وتقدم بعد ذلك الى الحلة ومنها الى العرجة ، ومن هناك الى البصرة من دون أن يلقي مقاومة خطيرة • فقد جرى اشتباك خفيف مع العدو فكانت بينهم موقعة غير حاسمة • اذ انسحب مغامس واختبأ ، وانسحبت قواته الى منازلها العاصمة • فعين حسن باشا سمياً له حاكماً في البصرة ورجع شمالاً على طريق بلاد الجزائر فأخذ الرماحية ثم غزا داخل ولاية بغداد بمساعدة من عنزة • فأعد حسن باشا جيشا في الحلة ، وفي الحركات التي تلت ذلك عبث رجال القبائل الخفاف بالجيوش النظامية • وكان مغامس يبتعد دائماً عن لقاء الجيش حتى اختفى من غير ان يترك أثراً ، وبقي الحال غير محاول • على ان حسن باشا قد اعطي أيالة البصرة رسمياً باقتراح منه على الارجح ، وكان يحكم عنه فيها متسلم • فدل هذا الحدث على مرحلة مهمة من مراحل الحكم الذي سيتطور بعد هذا •

وفي ١٧١٥ م (١١٢٧ ـ ٨ هـ) والسنة التي تليها أخذت الحملات التأديبية الباشا من أعالي ولايته الى أسفلها ، والى خارجها أيضاً • فعلم البلباس ، وهم أكراد جبليون غلاظ في شرق أربيل ، درساً في الخضوع • وكان بكر بك ، ابن سليمان بك بابان أو ابن أخيه ، قد أثار حسد أصحاب السلطة في كركوك • وفي هذه المرة أزيح عن موقعه ثم اعتقل واعدم • وبذلك رجعت المناطق البابانية الى حوزة النفوذ التركي ، وبقيت كذلك حتى ظهور خـانة باشا فـي ١٧٢٠م (١١٣٣هـ) • وتعد في الحقيقة ، حركات حسن في ايالة شهرزور مهمة ، لانها تتضمن عملية امتصاص وادماج كما كانت حركاته في البصرة من قبل • ثم أعيد النظام الى نصابه في حرير بعد أن أدى اختلاف وقع بين الاسرة السورانية الى سفك الدماء • كما ابيد مكمن لليزيدية اللصوص من سنجار بحملة أفقدت الباشا كهيته وكثيراً من الرجال • وفي السنة نفسها طلب بنو لام ، الذين استولت عليهم قوات عظيمة لعبدالله خان والي الحويزة ، مساعدة الجيش التركي • وفي ١٧١٧م (١١٣٠هـ) استولى أكراد ايران على منطقة بجلان فأسرع حسن الى الموقع ، ولكن أوقفه عن تعقبه للمعتدين خوفه من تخطي الحدود الى أراضي الشاه • وفي ١٧١٨م احتاج الامر لحملة أخرى تجرد على بني لام ، لان شيخهم الذي سجن بعد عزله من قبل ، فر من السجن والتجأ الى الحويزة • وعند تقدم جيش بغداد اعتذر عبدالله خان من ايواء الملتجيء وقدم الترضية باكرامه جميع

الضباط بسخاء . غير ان القلاقل استمرت بين القبيلة وتولى شيخ بعد آخر ، حتى اضطر عبدالله خان نفسه في ١٧١٩م لمؤازرة بغداد في الامر . وكانت السنة نفسها مفجعة بتفشي الطاعون الذى فتك فتكا ذريعاً بالناس في أزقة العاصمة المكتظة .

وليس في الامكان معرفة شخصيات كل مجموعة من القبائل في هذا الاوان، ولا الاحوال المختصة بها . ولذلك كان مجرد عد الحروب القبائلية يعد مملاً قليل الفائدة . على ان الحياة الحقيقية في البلاد ما كانت تخرج عن هذا الوصف ، ولا توجد الا أخبار من هذا النمط . وبمنظارها هذا ينبغي ان ننظر الى الحروب الاجنبية والحوادث التاريخية الحادثة في هذا الزمن . فقد كانت النتيجة المباشرة لهذه الحملات العديدة الارتفاع الظاهر في مستوى الطاعة للحكومة من سنجار الى الفاو . ووجد لاول مرة استمرار الضبط ، فسادت العدالة الخشنة ، وتوفرت الصرامة التي كان يعول عليها الناس عند الحاجـــة . وهكذا نالت « الدولة » ، التي كانت القبائل تتجاهلها وتزدريها في العادة ، احتراماً موقتاً ان لم نقل حباً قليلا. وربط الباشا ـ وهو حاج عابد ـ الديانة بالحكومة بتأسيس الجوامع ومنح الاراضي والاموال للاغراض الدينية . ولهذا عرف حتى اليوم بأبي الخيرات أي المحسن . وكان يعنى كذلك بأمور الزيارة لعتبات الطوائف جمعاء . وقد برهن على تساهله في هذا الشأن فسمح في ١٧٢١م (١١٣٤هـ) بتأسيس دار للبعثة التبشيرية الكرملية. كما أثبت ترميمه للخانات عنايته بالزوار والمسافرين . وضاعف العمل في شـــق الجداول رغبةً منه في اسكان العشائر . وزاد على ذلك ان أنفق مالاً كثيراً عـلى تعمير الجسور في آلتون كوبري وغيرها ، وصرف عليها مبالغ عظيمة لم تكـــن تستغني عنها جيوب الباشوات الآخرين . ولم تتحقق علاقاته الحسنة باستانبـول الا بأرسال الواردات الى العاصمة بصورة منتظمة . فكوفيء على ذلك ، كما مـــر بنا ، بالحاق البصرة بأمرته ، وبسيادة غير مدونة على شهرزور ، وبضم ماردين ، وهي حكومة « الويووضة » المستقلة الى باشوية بغداد . على أنهذه التغييرات المهمة كانت تغييرات شخصية تختص بحسن باشا وحده ، ولاشك أنها كان يقصد بها أن تكون غير دائمة .

وكانت زوجته عائشة خانم ، وهي بنت رجل من رجال حاشية مراد الرابع يسمى مصطفى ، قد دفنت سنة ١٧١٧م (١١٣٠هـ) في تربة زبيدة زوجة هارون

الرشيد . واستخدم أخاه علي بك مدة طويلة من الزمن في عدة وظائف غـير كبيرة . وكانت فاطمة احدى بناته قد تزوجها عبدالرحمن باشا (حاكم كركوك في ١٧٢٢م) (١١٣٥هـ) ، كما تزوج صفية ابنته الاخـرى قـــره مصطفى باشـا طرابزون[٤] . اما أحمد ، ابنـه الوحيـد ، فسوف يذكر عنه هـذا التاريخ الشيء الكثير . فقد ولد في حدود ١٦٨٥م (١٠٩٧هـ) في جفلكه بالقرب من استانبول ، ورافق والده في مختلف الوظائف التي أسندت اليه . ولذلك أهمل تثقيفـه ، غير ان ذكاءه وشخصيته وقابليته الرياضية قد جعلت من سيرته شيئاً خطيراً . فبعد ان عاش في بغداد احدى عشرة سنة عين باشا لشهرزور في ١٧١٥م (١١٢٨هـ) ، ثم نقل الى قونية ، وأخيراً (ربمـا في ١٧٢١م) الى البصرة [٥] .

---

(٤) وكانت خديجة خانم ابنة صفية خانم ولية أمر مؤلف حديقة الوزراء بصورة من الصور .

(٥) ان كتاب « غاية المرام » يجعل أورفة اول ولاية عين فيها ، ويسجل قصته مع والي الموصل ، الذي كان الحصول على عفوه أسهل من الحصول على عفو والده في بغداد . وكان الحاج مصطفى باشا (بطل القضة) باشا الموصل منـذ ١٧٢٠م (١١٣٣هـ) . ولذا وجب أن يكون تعيين احمد للبصرة قد حدث بعد هذه المدة . ويعتمد على ما كتبه هاملتون في اخبار البصرة لسنة ١٧٢١م . وهو يذكر الكثير عن سوء الحكم الذى لا يمكن أن يكون قد حدث على أيام احمد باشا هذا . فقد كان باشا البصرة يومئذ رجلا قد تزوج امرأة من أسرة السلطان ، وكان هذا طماعاً جشعاً . ولما لم يجد معه كل شيء نفعاً رأس المفتي خمسين الفاً من سكان المدينة فمشى اليه وخيموا على شط العرب ، وقطعت الارزاق عن البلد . وتبودلت بين المفتي والباشا لغة الشرع ولغة الدولة بشدة ، حتى أذعن الباشا الى التفاهم . فطلب الهائجون أن لا يرجعوا ما لم يسلم اليهم عدة من الموظفين الذين كان يتخذهم آلات بيده في سوء الحكم . فسلموا وعفا عنهم المفتي ما عدا واحداً . والقصص الاخرى التي يذكرها هاملتون تختص بالقضاء على جماعة من الانكشاريين جامعي الضرائب وخلاعة الآباء الكرمليين . ومن المحتمل جـداً ان تعيين احمد باشا جاء بعد هذا الحادث .

قال مصطفى جواد ان مؤلف غاية المرام هو المصيب فقد ذكر ياسين بن خير الله الخطيب العمري في حوادث سنة ١١٣٤هـ (١٧٢١م) من كتابه « الدر المكنون في المآثر الماضية من القرون » ما نصه : « وفيها ولي مدينة أورفة أحمد باشا بن حسن باشا والي بغداد وهذا أول منصب وليه » وقال في حوادث سنة

وبلغت حوادث حكم حسن باشا الطويل الامد أوجها في خريف ١٧٢٣ م (١١٢٦هـ) ، وفي ذلك يتعدى جريانها من العراق الى ايران • ومنذ هذا العهد تستغرق تاريخ العراق لعشرين سنة حملات على ايران كان يقودها ابن الباشا • وهنا نتجه بالبحث التاريخي نحو الحوادث الواقعة في امبراطورية الشاه المؤدية لاعلان الحرب •

الحملات الاولى[٦] : سني ضد سني

كان قد بدأ صلح طويل بين الشاه والسلطان بالمعاهدة التى أمضاها في العراق قره مصطفى ، الصدر الاعظم للسلطان مراد الرابع ، في العشرين من شهر مايس ١٦٣٩م (١٠٤٩هـ) ، فبقيت ايران مدة أجيال ثلاثة هادئة ثرية لامعة • وكان الفجور والترف المتفشيان في البلاط مما يدل على الرفاهية الآمنة ، كما كان الفن والعمران مما يزين الثقافة والتقى • فسلم الشاه صفي الى عباس الثاني ، وهذا الى سليمان ، وهذا الى حسين ، جلال العرش الصفوي ونقاط ضعفه المميتة •

ولم يكن سقوطه ناشئاً عن جوع الاتراك للتملك ، وحقدهم الديني ، ولا عن جشع العاهل الروسي الذى كان يتربص الفرص في الشمال النائي •

١١٣٥ « وفيها عزل من اورفة أحمد باشا بن حسن باشا وقدم الى الموصل ورحل الى بغداد ونزل بالدجيل فأقام هناك خمسة عشر يوماً »
وقال في سنة ١٣٣٦هـ « سار بالعساكر والي بغداد الوزير حسن باشا وتوجه الى بلاد العجم ونزل على مدينة كرمانشاه وحاصرها ونهب رساتيقها ثم فتحها وتمرض ومات فأخفى موته كتخداه محمد كاهية وارسل الى البصرة يستدعي ولده القسور والليث المظفر احمد باشا فقدم على خيل البريد وتولى أمر قيادة الجيش ••• » •

فهذا يدل على أن أحمد باشا تولى البصرة بعد ولايته لاورفة ، وبذلك تتضح مشكلة تاريخية حلها مؤلف التاريخ هذا •

(٦) الرواية المذكورة هنا في تاريخ الحملات الايرانية ـ التركية في ١٧٢٢م (١١٣٥ هـ) ـ ٤٥ هي من وجهة النظر العراقية تماما • وقد جرت حركات الحملات في قسم واحد من جبهة تمتد من الخليج الى بحر قزوين

وانما نل ذلك العرش على يد فاتح وحشي جاء من بلاد الافغان الجبلية • فقد كان محمود خان بن ويس من قبيلة الغلزاي قد استولى على كرمان في ١٧٢٠م (١١٣٣هـ) فروّع ايران وألقى الرعب فيها • وبعد شهور قلائل عصفت العاصفة •

فقد ترك محمود قندهار في أوائل أيام ١٧٢٢ • وسار بجيشه ماراً بكرمان ويزد فوصل الى گولناباد ، وهي من أصفهان على اثني عشر ميلاً • وتدل الحرب المشؤومة التي وقعت هنا بايضاح تام على حيوية الافغانيين المتفوقة • فحوصرت أصفهان وجوعت حتى استسلمت • وتخلى الشاه حسين عن عرش ايران الى خان الغلزاي ، وبقي هو في أسر رُفه فيه عنه • وهكذا سلم الخلف العاشر للشاه اسماعيل امبراطورية ايران الى الفاتحين البرابرة • فأصبح السلطان والباشا بازاء شاه أفغاني سني • بينما ظهر مدع صفوي للعرش ، هو طهماسب بن حسين،بعد أن فر حسين نفسه الى الشمال ليجمع حوله الاتباع•فأوحت الاسابيع الاولى من الحكم الافغاني الآمال الجسام ، غير ان شراسة محمود تغلبت في أواخر ١٧٢٣م على الرأفة التي كانت السياسة تتطلب منه أظهارها من قبل • فقد كشف اسرافه في الفتك منذ هذا الوقت حتى تاريخ موته في ١٧٢٥م عن كونه رجلا مجنوناً •

وكانت معاهدة پاساروڤيتز في أوربة ، التي حررت الاتراك من كثير من المسؤوليات ، قد جعلتهم قادرين على مداقة أعدائهم أو فرائسهم الحساب في الحدود الشرقية • وقد أثار الصفويون المتقلقلون والافغانيون المحتلون الحرص والخوف في استانبول ، غير ان هذا الشعور لم يستبن في الحال • فبقيت السفارات[7] السلمية المفخمة لمدة ما تأتي بالزيارات بين بلاط الشاه حسين وبلاط السلطان أحمد الثالث ، فيرقبها البغداديون بعيون محدقة • ووصلت أنباء خطر مير محمود الأخيرة الى استانبول بيد أسرع الرسل الذين بعثهم حسن باشا قبل سقوط أصفهان • لكنه تسلم في مقابل ذلك أوامر تقضي باعداد مراكز دفاعه على الوجه الاكمل من دون أن يحتاج اليها فنظف خندق بغداد وأصلح ، ورمم السور المتداعي وألح وكلاؤه في التردد بين أصفهان وبغداد ، مع انه كان يبعث بكتب التهنئة الى الفاتح الافغاني

---

(٧) ترك دوري افندي وصفا لسفارته حين مر ببغداد مرتين • اما سفارة مرتضى قلي فيمكن أن يراجع لاخبارها ما كتبه الفون هامر (ج ١٤ ص ٧٩) •

بطلاقة تهكمية • لكن محمود كان يرد عليه بالتأكيد على عقيدته السنية وابـداء الاحترام للخليفة الحقيقي • فلم يكن هناك أي لون آخر من الدبلوماسية يخجل الوزراء الذين كانوا يضمرون العداء في استانبول أكثر من هذا •

ولا يسمح المكان في هذه الصفحات للبحث في المناظرات والديبلوماسيات ـ الايرانية والروسية والافغانية والتركية ـ التي جرت في ١٧٢٢ ـ ٢٣ • فقد احتلت القوات العثمانية وجيوش بطرس الاكبر بلاد الكرج وداغستان في وقت واحد ، وذلك قبل سقوط أصفهان • وكان السفراء يذهبون ويرجعون بين باشوات الحدود واستانبول ، وبين موسكو والولايات القزوينية • ثم أعلن الاتراك الحرب في أوائل ١٧٢٣ على جارهم المتدهور ، وأثاروا الحماسة والشراسة في جنودهم بفتاوى رجالهم الدينيين الفظيعة • ووافق الروس في خريف تلك السنة على نصب طهماسب الصفوي في العرش في مقابل أخذهم نصف مملكته • وكانت الدولتان ـ السنية والنصرانية ـ قد تحالفتا على الصداقة الدائمة والحلف قبـل ثلاثة أعوام وأخذتا الآن تحكمان ذلك بتجزئة ايران على اتفاق بينهما •

وتبع وصول الانباء الى العراق عن اعلان الحرب على ايران وصول الاوامر بجمع القوات من كل باشوية حتى أرضروم • فأطاعت الحامية والجيوش الاقطاعية في الموصل الأوامر ، غير أن حسن باشا وابنه في البصرة فكرا في شيء آخـر • وطلبا من سيدهما ان يعلم ان أواسط العراق ان لم تكن لقمة سهلة للأفغاني فهي أحسن القواعد التي يمكن اتخاذها لمهاجمته • فوصلت جواباً عن ذلك الاوامر باحتلال ايران عن طريق كرمنشاه ، وعهدت القيادة الى حسن باشا • وقد توج هذا التعيين سيرته ، وهو في السبعين من عمره الذي تعود خلال العشرين سنة الأخيرة منه ان ينظر نحو الشرق على الدوام[9] • وبعد ان انضـم اليـه صهره

---

(٨) هانووي ص ١٧ • ان اوجه حال الاتراك عند اغتصاب الافغان العرش يومئذ ثلاثة وهي الخوف من ظهور فاتح حديث يهدد العراق والامبراطورية ، وأمل في الحصول على فرصة يستفاد منها فوائد عند شيوع الفوضى الداخلية في ايران ، والانزعاج من ان سادة ايران الحديثين اصبحوا من السنة

(٩) تؤكد المراجع العراقية ان مخاوف حسن من ايران منذ ١٧٠٤ ربما كان سببها التصريحات الشيعية غير الحصيفة التي كان يتفوه بها سادة ايران •

عبدالرحمن مع قوة كركوك سار بكل أبهة في طريق ايران ماراً بخانقين مع مدافعه وألويته وقواته التي قضى سنين عديدة في تحسينها ، ولقيه بكات القبائل الكردية ودويلات المدن مع قطعاتهم ، فوصل جيشه كرمنشاه ، وسلم اليه الحاكم الايراني عبدالباقي خان مفاتيح المدينة من دون مقاومة له ، فاحتلت المدينة وأصبحت منذ تلك الساعة من ولايات السلطان .

وهكذا أضاف حسن ايالة الى الامبراطورية ، وقد اتيح له أن يضيف اليها ايالة اخرى فيما بعد ، وينال شرف فتح ايالة ثالثة ، وكان والي أردلان علي قلي خان[10] قد كاتب بغداد من قبل فأداه خلع سيده الى أن يطالب الاتراك بأسناده ، على ان الجواسيس أخبروا حسناً بأن مخابرات جرت بين سنة والافغاني أيضاً ، ومعنى ذلك ان حيلة مزدوجة كانت قد احتيلت في وقت واحد ، فبعث خانه باشا بابان لاحتلال اردلان ، واستسلم علي قلي مع معظم أتباعه ، فأصبحت أردلان من ممتلكات السلطان ، وجردت حملة أخرى لقتال والي كردستان علي مردان خان الذي تعهد بتأييد طهماسب ورفض الاذعان للحكم التركي ، فاستولى عبدالرحمن باشا مع علي بك ، شقيق القائد العام ، على منطقته ودحره دحراً شديداً ، ففر ، غير انه استسلم بعد ذلك للمعاملة السخية .

وقضي شتاء ١٧٢٣م في كرمنشاه ، لكن حسن باشا توفي[11] قبل حلول الربيع ، نظراً لتعبه وتقدمه في السن ، فأبنه الجيش بأجمعه ثم ارسل بجثته الى بغداد فدفنت في جامع أبي حنيفة ، وقد كانت الحاجة شديدة لخلف له ، وكان الباشا مع أسرته يشغلون مكانة فوق الجميع ، فاسترحمت الرسل المستعجلة الواصلة الى استانبول تعيين أحمد باشا ، فصودقوا على ذلك ، وبعد أن أقام مراسيم العزاء سار الى كرمنشاه ، واسترجع بدهائه وسخائه أتباعه المذبذبين وجيشه المتنازع ، ولم يكن بوسعه أن يعير الاهمية اللازمة التقارير التي كانت ترد اليه في وصف الفوضوية التي ضربت أطنابها في العراق .

وفي ربيع ١٧٢٤ م (١١٣٧ هـ) سارت قواته الى همذان ، وركب الرسلية

(١٠) يجعل چلبي زاده الاسم عباس قلي ، وتختلف روايته عن هذه العلاقات قليلا عما نذكره هنا .

(١١) وأنعم عليه بسبب وفاته هذه بلقب «فاتح همذان» .

قبل الجيش يطلبون تسليمها • فكان كثير من السكان يفضلون الحاكم التركي على الافغان ، ورأى الكل المعاملة الطيبة التي لقيها أهالي كرمنشاه عند الفتح • فكتب الحاكم الايراني الى أصفهان مستأذناً بالاستسلام ، لكنه لم يحصل على جواب وبدأ الحصار[12] التركي • وكانت المدينة قد خزنت كثيراً من التجهيزات الحربية ، كما كانت محصنة باتقان فدوفع عنها ببسالة • وجد الجيش في حفر الانفاق ، الا انه أصيب بانفجار الالغام • فنالت البسالة الايرانية الثناء الحسن من الناس حتى ثناء العدو • فقد أحدثت ثلاث فجوات في السور جرى منها الهجوم فدام القتال في الشوارع ثلاثة أيام بلياليها • وحل عيد الاضحى فكانت ضحاياه النفوس التي أزهقت في هذه المجزرة البشرية • ثم انتهى القتال بهدنة كان من شروطها ان تصبح مدينة همذان وولايتها للدولة العثمانية يحكمها قره مصطفى باشا[13] ، وان يذكر في الصلاة العامة اسم الخليفة[14] • على ان عدة أرتال من الجيش ، كان يقودها الكثير من رؤساء الجيش والتابعين له ، تمادت في حركاتها لأن المعارضة لم تكن لتخمد بعد • فهزم الله ويردي خان بعد أن أحرز شيئاً من الانتصـــار ، وأذاقه والي مرعش خسراناً عظيماً • ثم صد أبراهيم وخانه باشا هجوماً آخر شنه لطيف مرزا الصفوي ، فأسر لطيف هذا وتشتت قواته •

واستمر أشرف خان الافغاني ، خلف محمود ، يرسل وفوده الى السلطان لتحتج بكل أنفته على هذه الحرب المستعرة بين السني والسني • فكانت حجـة الافغاني قوية بهذه ، كما كان الرأي العام في تركية مجمعاً على التأييد • وعرض أحمد باشا ، كغيره من كبار الموظفين ، على استانبول أمر دعاية خطرة من هـذا النمط كانت تبث في جيشه • ومن أجل هذا كانت جيوشه مع جيوش زملائه في الشمال النائي تدنى قوتها الروحية وتقل طاعتها ساعة بعد ساعة • وفي هذا

---

(١٢) دوحة الوزراء ، حروب الايرانيين ، چلبي زاده •

(١٣) كان قد جيء به الى شهرزور من طرابزون بعدما حول عبدالرحمن من كركوك الى البصرة في أواخر ١٧٢٣ م ، وحل مكانه في شـهرزور عثمان باشـا دفتردار بغداد

(١٤) لبست استانبول حلة قشيبة بالافراح عند وصول انباء الانتصار ، وكتب الخليفة بيده كتاب شكر الى أحمد باشا •

العهد ، أواخر ١٧٢٥م (١١٣٨هـ) ، توجه قواده الى فتح لرستان[15] السهل • ففر الوالي اللري بعد دفاع غير مجد ، وقبلت قبائل الزاغروز الرئيسة تابعية الخليفة بالاسم وغمرت ممثله بالهدايا • وفي خلال الشتاء توغل رتل من الجيش كان يقوده والي الموصل جنوباً في بلاد البختياريين • وبعد أن كان على ثلاثة أيام من أصفهان ناوش هناك أفغان الحامية السنيين القتال ، وعلم بأن اللريين من ورائه كانوا قد عبروا الحدود العراقية للتآزر مع بني لام وزبيد ، فانسحب بقواته المضعضعة الى همذان[16]

وفي صيف ١٧٢٦ م (١١٣٩ هـ) حملت شؤون مستعجلة أحمد باشا على العودة الى العراق ، وذلك بعد ان تلاشت العداوات وتوارد رسل أشرف على المعسكر ، وبعد ان وردت الى الشرق أنباء المناوشات والفتاوى في العاصمة • ثم حل الخريف فجاء بأكثر الحملات طمعاً وأقلها نجاحاً • فقد كانت الخطة التركية اغراق شكوكهم الدينية بالظفر • ومن أجل هذا وصلت الى أحمد باشا تجدات عظيمة مؤيدة تعيينه سر عسكر لها • وعبئ مرافق تركية الشرقية باتمها من ديار بكر الى همذان فالبصرة ، وهيأت لقيادته[17] • فكانت جيوشه المجهزة على أحدث نظم العصر لا تقل بعددها عن مائة الف رجل ، مع انه كانت جيوش أشرف تعد بمقدار خمس هذا العدد • وكان يضم الجيش الافغاني قليلا من المحاربين القندهاريين الذين كانت ذخائرهم غير كافية ومدفعيتهم خفيفة • على انهم كانوا متفوقين بذخيرة الدبلوماسية فقط • فما تقدم جيش أحمد باشا من همذان متجهاً الى عاصمة ايران حتى توجه اشرف الى مكان هو من أصفهان على اثني عشر ميلاً • وفي العشرين من تشرين الثاني كان الترك قد تركوا همذان بمسافة ثمانين ميلاً ، كما كانت مسافة اثني عشر ميلاً فقط تحجز بين الجيش

---

(١٥) ومن المحتمل ان أحمد باشا نفسه وقد رجع الى العراق في أواخر ١٧٢٤ م كان مشغولا بتأديب العشائر هناك وقد أخطأ چلبي زاده بذكره كينونة أحمد باشا مع الجيش حيال تبريز في صيف ١٧٢٥ م •

(١٦) يذكر ذلك بالتفصيل هانووي (ص ٢٣٢)

(١٧) يشير الفون هامر (ج ١٤ ص ١٣٥ ج ١٥ ص ١٥٠) مرتين الى ان سر عسكر همذان كان عارف أحمد باشا أو عارف باشا فقط ، ولم يكن هذا الشخص مع جيش همذان قط

اللجب والجيش الضعيف • واذ ذاك بعث أحمد قوة خفيفة امامه لتجر العدو الى الحرب فطوقت بالحصار وقطعت عن الجيش الرئيس قبل ان يخف لاسعافها • وكان هجوم اشـرف بسلاح أمض ، فقد اندس وكلاؤه بين البيكات الاكـراد فأفسدوهم بوعودهم بالترفيع والهدايا وبالملك والامارة • وتناقلت الايدي منشوراته الكتابية المنطوية على استنكار الحرب بين الاخوان مـن السنة • وكانت الرشوة قد جعلت في اماكنها المناسبـة • وفي الاخير حضر بحضور الباشـا أربعة علماء محترمين • وبينما كانوا يقرعون الحجة بالحجة تعالت الاصوات بالآذان تدعـو الناس الى الصلاة • فنهض الشيوخ الافغانيون بصمت وأخذوا يصلون في وسط أعدائهم ، فكان لذلك وقع عظيم فى النفوس • ولما رجع الشيوخ الى معسكرهمـا ترك قسم كبير من الاكراد معهم •

وكان هم الباشا الوحيد أن يبدأ الحرب توا • وكان جناح الجيش الايمن يقوده أحد البابانيين ، وجناحه الايسر يقوده محمد باشا واثنان من الكوپريليين • وكان أشرف يقود جيشه وهو على ظهر فيل • فتقدم الجيش التركي مع بزوغ الشمس بعد ان آذنت بذلك عشر اطلاقات من المدفع • واذ ذاك ظهرت نتيجـة الدعاية الأفغانية بأشد مظاهرها • فلم يهجم الا الجناح الايمن لجيش الباشا فصد في كل هجمة هجمها ، ولم يشتبك جيشه مع العدو مطلقا • فأمر بالتراجع العام بعد الظهر ، بعد ان ترك في الميدان اثني عشر الف قتيل • وزاد عدد التاركـين والمتمردين والمهدئين علىهذا العدد • فقد ترك الجيش الاكراد بأجمعهم تقريباً ، وانتشروا راجعـين لمواطنهم • وتراجـع احمد نفسه الى كرمنشاه تاركاً امتعتـه الثقيلة • اما أشرف فقد « رافق الجيش التركي حتى باب المدينة » • وهناك سرح بكل دهاء وعقـل الاسرى الاتراك مع جميع لوازمهم من دون ان يطلب اليـه ذلك •

وأردف الافغاني هذه الافضلية الروحية والمادية بمعروضات صلح سرية • لان الحرب كانت منذ البداية حرباً جموحاً لا حاجة لها • بيد ان وجود حزب حربي فى استانبول ، ورغبة أحمد في أن ينتقم لنفسه ويتلافى خسرانه ، حالا دون انعقاد الصلح • فوصلت قطعات حديثة الى بغداد ، وكان قد تراجع اليهـا أحمد من كرمنشاه ، وزاد في عـــدد الانكشاريين والمتطوعين المتوافرين لديـه الجنود الواصلون من وحـــدات التيمار الاقطاعيـة • وفي أواخـــر ١٧٢٧ م

(١١٤٠هـ) صار بوسعه ان يستعرض جيشاً حديثاً يبلغ عدده ستين الفاً • غير ان تصدته بكرمنشاه في أيلول وتقدمه منها نحو همذان لم يكونا نحو حرب وانما كان ذلك فاتحة السلم • فقد وصلت اليه أوامر سلطانية تقضي بفتح باب المفاوضات ، ووصل الدبلوماسيون من استانبول لمساعدته • وقبل أن تضرب أية ضربة كانت عشرة أيام من المداولة والمفاوضة كافية لوضع شروط الصلح والتوقيع عليه •فقضت بأن تكون همذان وكرمنشاه وأردلان ولرستان من حصة السلطان• واعترف بكون أشرف ملكاً على ايران خاضعاً لسيادة الخليفة الروحية • ورجع أحمد باشا الى الاحوال المضطربة في ولايته ، بعد ان بقيت الحاميات التركية في الممتلكات الجديدة • وأما أشرف فقد عجل بالرجوع لتهدئة العواصف التي لم يكن بوسعه التغلب عليها •

نادر قلي وحصار بغداد

كان الافغان قد ظفروا بالتاج بفضل سرعتهم وحيويتهم القبائلية ، وبضمحلال الصفويين • ولاجل المحافظة عليه كانوا بحاجة الى ايران لا قابلية لها في توليد الخصوم ، والى الاتصال بقواعدهم التي يستمدون منها قوة الرجال في أفغانستان • فلم يتوفر لهم هذان الامران • واقتربت النهاية ، بعد أقل من عشر سنوات مرت على اغتصاب الحكم ، على يد آخر فاتح آسيوي عظيم عرفه الشرق •

ولد نادر قلي في خراسان سنة ١٦٨٨ م (١١٠٠ هـ) من اسرة « لم تكن نبيهة ولا حقيرة »[١٨] وكانت تنتمي الى قبيلة الافشار • فقضى صباه المفعم بالمجازفة راعياً وقاطع طريق ، ثم ضابطاً في الجيش غير النظامي • وكان قبل ان ينضم الى طهماسب قد بلغ مكانة رفيعة في عشيرته ، فصار له كثير من الاتباع المخلصين • وفي ١٧٢٧ م (١١٤٠ هـ) كان وراءه خمسة آلاف محارب من الافشار والكرد لنصرة المدعي بعرش الصفوي في فرح آباد • فلما عهد اليه أمر استرجاع خراسان نجح نجاحاً باهراً ، ثم حصل في عدة أسابيع على القيادة العامة لجيوش طهماسب قلي خان ، ووقع على عاتقه واجب عظيم هو واجب انقاذ بلاده من الافغان

---

(١٨) جونز (ص ١)

المتعصبين • فقهر هؤلاء قهراً شديداً مرتين في سنة ١٧٢٩ م (١١٤٢ هـ)[١٩] • واستعيدت أصفهان ، وكان موقفهم الاخير فيما يقرب من شيراز • وهناك تشتتوا بالكلية ، وقبض على أشرف فذبح ، وتلاشت بذلك أسرة الغلزاي من ايران حتى الابد • فاعيد الصفوي للعرش ومن ورائه الافشاري الطامع من دون رحمة •

وأردف طهماسب توليه العرش بايفاد سفير الى استانبول يطلب اعادة الولايات الغربية • وعلى ضفاف البوسفور هناك كان الوزير العظيم يفاوض الوفد الايراني يوما بعد يوم • وفي بغداد كانت الانباء التي تردها من الشرق والغرب تؤذن بدنو الحرب •

وكان نادر في ايران لا يرغب في تجنب الحرب ولا يتصور أمكان ضرب الصفح عنها • وفي ربيع ١٧٣٠م (١١٤٣ هـ) اشتبكت جيوشه مع الجيوش التركية المستندة الى همذان بسرعة • واضطر عثمان باشا أن يتقهقر الى الحصن حيث انضمت قواته الى قوات تيمور باشا وان • « فقتل نادر قلي الباشوين ، واستولى على مدفعيتهما مع غنائم جسيمة ، ثم دخل مدينة همذان من دون أن يلقى مقاومة واستقبله الاهلون بفرح منهم عظيم ••• »[٢٠] وعندئذ انسحبت الحامية التركية الى كرمنشاه بعد ان خسرت امتعتها ، ثم عبرت الحدود القديمة من هناك الى زهاو وخانقين •

ووصل الى أحمد باشا ، وقد بوغت بهذه الصدمة الفجائية ، في الوقت نفسه تقريباً نبأ اعلان السلطان أحمد الثالث للحرب فوجد نفسه سرعسكر مرة ثانيه[٢١] • وبعد ان جعل زهاو قاعدته ومركز احتشاد قواته تقدم الى كرمنشاه فاستعادها من دون حرب • كما رجعت على نفس الشاكلة أردلان الى حوزة الولاء التركي • وكان نادر يومئذ بعيداً عن هذه البلاد في خراسان[٢٢] فوقع

(١٩) يستحيل علينا تصديق ما ذكره جهان كوشا وجونز بأن جيشاً كبيراً من الترك بقيادة حاكم همذان كان فى نصرة الافغان •

(٢٠) جونز الصفحة ٣٢ •

(٢١) ان الفون هامر (ج١٤ ص ٢٥٣) وهو مستند الى أخبار صبحى فى هذا البحث يذكر ان علي باشا حكيم زاده كان سرعسكر الجيش • ولا تؤيد المراجع العراقية ولا الايرانية هذا الخبر ، كما لا يتفق ذلك مع روايته فى ص ٢٥١ •

(٢٢) ان ما يذكره صبحي ويستند اليه الفون هامر (ص ٢٥٤) انه كان حاضراً مع الشاه غير صحيح •



نادر شاه

واجب مقاومة الجيش الغازي على طهماسب الضعيف الحسود • فخف مسرعاً الى أريوان في الجنوب ليلاقي الخطر • وكان أحمد باشا مخيماً قرب همذان ، فتراسل قواد الفريقين مراسلات رنانة غير مجدية • ووقعت الحرب في كوريجان، وهي من همذان على مسيرة يوم واحد ، في السادس عشر مـن ايلول ١٧٣١ م (١١٤٤هـ) • فاضاع الشاه نصف جيشه باجمعه ، بينما كانت خسائر الترك لا تزيد على الف رجل ، وتركت جميع المدفعية الايرانية وجميع الاصقاع التي استردها نادر قلي من قبـل • وكان حاكم تبريز وحاكم شـيراز الشريفان بين القتلى • ثم احتلت همذان من دون عنف فعهد الى بيك العمادية وويوضة ماردين قيادة الازتال المسرعة لجمع الذخائر المتروكة والاسرى المتفرقين ولتثبيت الحكومة التركية • وعندئذٍ لم يحاول طهماسب محاولة أخرى للمقاومة ، كما لم يحاول أحمد التقدم • ووصلت لاحمد باشا رسالة شكر وتقدير من السلطان الجـــديد محمود الاول •

غير ان أزمات التنازل عن العرش والفتنة والخلع ، التي مرت بهـا عاصمة الامبراطورية في أواخر تلك الايام ، حدت الصدر الاعظم على ان يعجل بالصلح قبـل أن يهدد نادر شاه الدولـة بساعده القوي تهديداً ثانياً • ووصلت تعليمات ذلك الى أحمد باشا في مخيمه بهمذان في خريف ١٧٣١ م • وكان نادر قلي ، الذي كان وحده يأبى الصلح ، غير حاضر لمعاكسته • فاستغرقت الاشهر الاخيرة من سنة ١٧٣١م والايام الاولى من سنة ١٧٣٢م المفاوضات في همذان • وفـي اليوم العاشر من كانون الثاني امضيت المعاهدة • فكانت المطاليب العثمانية معتدلة• فقــد بقيت تبريز وأردلان وكرمنشاه وهمــذان والحويزة كلها في حـــوزة امبراطورية الشاه • وصودق على ديبلوماسية باشا بغداد هـذه بعـد ان نوقشت بديوان حافل في العاصمة ، وانسحب هو الى حدود مراد الرابع القديمة •

وان كان بوسع أحـــد ان يأمل ان معاهدة كهذه سوف تحدد اطمـــاع الافشاري ، فان ذلك الامل كان قصير الامد • لانه لم يكن الا في بدء عـمله •

« ليكن معلوماً لديكم ، يا باشا بغداد ، اننا نطالب بحق لا نزاع فيه في زيارة قبور الائمة علي والحسين والمهدي وموسى • ونطالب بجميع الايرانيين الذين اسروا في الحرب الاخـيرة •• نحن سائرون حالاً على رأس جيشنا المظفـــر

لنتنسم هواء سهول بغداد العليل ، ولنستريح في ظل أسوارها » •

بمثل هذه اللهجة خاطب نادر أحمد باشا في الوقت الذى كان فيه الصيف قد انتهى وتقدم خريف ١٧٣٢ م وقد وقع الكتاب بصفته الوصي الجديد على العرش بروح الفاتح الحقة • فقد انتهى أمد طهماسب ، لان اندحارات حملة ١٧٣١ م ، وضياع همذان ، وعقد معاهدة حقيرة ، كلها أعطت نادراً الفرصة لذلك • فنقض عهد الصلح لاسباب دينية وسياسية • وانذر السلطان بتهديد جاف مقتضب ورد فيه انه يحاربه ان لم تعد الولايات الايرانية الباقية في الحال • ثم خلع طهماسب عن العرش ، وجعل الصبي عباس ميرزا شاهاً لأيران ، على ان يكون الوصي عليه نادر نفسه • وبذلك اصبحت بينه وبين العرش الايراني خطوة واحدة في امكانه أن يخطوها متى شاء •

اما أحمد باشا فقد احتل ممرات الحدود في درنة ومندلي وبدرة ، وعزز حامياته في زهاو وقصر شيرين • هذا زيادة على اصلاحه مراكز الدفاع ومخازن الحبوب بكل عناية • كما اُخبرت استانبول بسرعة دنو الخطر • وتحشد أتباع نادر قلي وأشراف مملكته وقواته في همذان ، فكانت قوتهم تتألف من مئة ألف مقاتل • فسار بهذه القوات الى كرمنشاه[٢٣] ، وبعد ان ترك مدافعه الثقيلة وأمتعته في ماهي دشت تقدم مسرعاً طاوياً الخبره الى نقطة زهاو • فدهمها متدرعاً ظلام الليل ، فصارت في يده عند الصباح • ثم سار من هناك بجميع قوته فعبر الحدود الى العراق لعلمه باستعداد أحمد في بغداد • وبما انـــه لم يكن يتوقع حصول مقاومة شديدة في شمال العراق فصل قسماً من جيشه فبعثه لتدبير أمر كركوك والموصل ، ولقطع اتصالهما ببغداد • فتقدم هذا الجيش ومر بطوز خرماتو وعاث مفسداً بقرى كركوك[٢٤] ، غير انه خاب في محاولته فتح القلعة • وصد الحاج حسين باشا الجليلي بسهوله قوة صغيرة بعثت لاستكشاف أمر الموصل ، فانضمت

---

(٢٣) أعيدت كرمنشاه الى ايران بموجب معاهدة ١٧٣٢م غير ان هانووي (ج ٢ ص ٧٦) يذكر انها كانت لا تزال تركية ويشرح اخبار حصارها وتسليمها ، ومن المحتمل ان الاتراك لم يكونوا قد سلموها حتى ذاك التاريخ •

(٢٤) لقد أخطأ صبحي في بحثه عن احتلال أربيل ، لأن روايته لاخبار الحركات تدل على جهلة بطوبوغرافية البلاد •

تلك القوة الى الجيش الرئيس في الجنوب •

وعبر نادر قلي ديالى من بهرز في أول اسبوع من كانون الثاني ١٧٣٣ • فجرت له مناوشات طفيفة مزقت فيها قوة تركية ضعيفة شر ممزق • كما اندحر اندحاراً تاماً قسم استطلاعي قوي من الجيش كان قد بعث لتعرف حقيقة العدو وقائده باشا كوي الذى قتل في المعركة ، وتلا ذلك تطويق بغداد التام • وكان عشرة آلاف ايراني قد عبروا من قبل الى الجانب الايمن لدجلة من شمال المدينة ليستولوا على ضواحي العاصمة الغربية ، وليقطعوا طريق قوافل الحبوب الواصلة من الحلة والجنوب • وأُرسلت على هذه القوة ، التي لم يعرف مصيرها بالضبط ، قوة من جنود ديار بكر وحلب[٢٥] • وبينما كان نادر يحتل في الجانب الايسر مواقع الحصار كان أحمد باشا يحاول متمادياً منع عبور العجم الى الجانب الايمن • وفي العشرين من كانون الثاني احبط حملة البنادق الخفيفة الذين كان يقودهم الباشا اول محاولة جرت للعبور • فتمكن في أثناء الليل قسم من الايرانيين من العبور ، الا انهم ردوا عند انبلاج الصبح • وألح نادر على قطع النخيل وجد في فتل الحبال من خوصها قصد استعمالها في انشاء جسر للعبور ، ولاجل ان يهيىء الوقت الكافي لذلك عرض معروضات الصلح • (وهذه انهيت الى استانبول ، وأدت بعد نقاش طويل لارسال طوپال عثمان) • وقد أنهى المهندس الاوربي الذى اُسند اليه انشاء الجسر على بعد عدة اميال من شمالي بغداد مهمته • فعبرت عليه قوة يقودها نادر ، كما عبرت قوة أخرى بالزوارق فتألف من ذلك رتل قوي زحف الى الكرخ • وتمكنت جماعة من كشافة جيش أحمد باشا أن تنجو بنفسها بعد لأي لتخبر سيدها بالامر • فصار من المنتظر ان ترتفع الاسعار في بغداد لانقطاع قوافل الفرات عنها • وأرسل الباشا قوة متألفة من ثلاثين الف مقاتل الى الجانب الايمن يقودها نسيبه ووالي أورفه • فكانت للمدافعين الارجحية بمدفعيتهم التي لم ينقل مثلها نادر الى مقره هذا • وجدت بعد ذلك مناوشات تلتها حرب عنيفة • فرجحت كفة الاتراك مدة من الزمن حتى خاف الوصي على حياته ، الا ان نجدات ايرانية عبرت بسرعة مفعمة بالجرأة

(٢٥) وهذه رجعت الى بغداد بناء على طلب أحمد باشا لها أثناء الصيف ، اذا كنا نثق برواية صبحي

فغيرت الحال • وانسحب القوة التركية الى المدينة بعد ان كابدت خسراناً • واذ ذاك أمر أحمد باشا بالانسحاب العام الى الجانب الايسر • فخف نادر لاحتلال رأس الجسر في جانب الكرخ • وبعد ان تمتع بالتسهيلات المتوفرة في البلد بعث قسماً من ضباطه للاستيلاء على المدن الفراتية ، ولتأدية التحية للعتبات المقدسة• واحتفل بعيد النيروز « رأس السنة الايراني » ـ ١٩ مارت ١٧٣٣م (١١٤٦هـ) ـ بأفراح عظيمة في المعسكر • ووصل شيخ الحويزة وشيخ بني لام ليقدما واجبات الاحترام لنادر • فاستقبلا بلطف وبشاشة وأمرا بمهاجمة البصرة ، الا انهما رجعا الى أوطانهما فتجاهلا ما أُمرا به من التعليمات •

وقد أصبحت بغداد مطوقةً من جميع جهاتها ، وظل الباشا محصوراً في داخل السور يخشى كثيراً من السكان الايرانيين ان ينتصروا للعدو انتصاراً لا شك فيه • حتى ان شائعة راجت تؤذن بأن وجوه المدينة كانوا قد استفسدوا بذهب نادر • ومر الربيع ثم انسلخ الصيف بعده فخفتت همسات الانقاذ الذي كان مأمولاً من الخارج • اضف الى ذلك ان الحامية كانت قليلة العدد فلا تستطيع القيام بهجوم فجائي الى الخارج ، وكثيرة بالنسبة للارزاق المحدودة المقدار • وقد جعل ضعف الايرانيين في المدفعية الاستيلاء صعباً بالهجوم وسهلاً عن طريق الحصار الطويل • وكان مع أحمد باشا صهره وكهيته سليمان باشا ونسيبه قره مصطفى وغيرهما من الباشوات ذوي الرتب العالية ، لكن عبء القيادة الذي كان على عاتقه لم يشاركه فيه أحد من هؤلاء • وكان يبين للناظر من أسوار بغداد ما يشابه المدينة من الابنية المقامة في خطوط المهاجمين • فان كثيراً من الضباط الايرانيين كانت ترافقهم عوائلهم فبنوا لها دوراً متقنة البناء • وكان سوق المعسكر ملآن من السلع الرخيصة بأسعارها ، وكانت مقايسة هذه الحال بالمجاعة المتزايدة في الداخل مما يؤثر تأثيراً سيئاً في نفوس المحاصرين • كما كانت آمالهم تزداد خيبةً بالنجدات التي كانوا يشاهدونها كل يوم تدخل في معسكر نادر ، وهي نجدات لم تكن في الحقيقة الا من أرتال الجيش الاصلي التى كان يبعثها نادر ، على سبيل الخدعة ، لترهب حراس السور في الليل • وعلى هذا لم يكن مستغرباً ان يتسلل قسم من السكان اليائسين الى الخارج زحفاً من الثُقب أو رمياً بأنفسهم من أعلى السور •

وكان نشاط الباشا قد استخدم كله ، ليس في الحرب بل في سبيل ادامة المقاومة • فكان يبعث رسلاً مخادعة فيأتون من الخارج الى بغداد بأخبار سارة مكذوبة تنبىء بقرب وصول النجدة • وقد عجب وفد من العلماء الايرانيين دخلوا بغداد لمحاجة علمائها حين رأوا الكثير من الخبز معروضاً للبيع بأسعار يستدل منها على رفاهية بعيدة عن الضنك • ولم يكن ذلك سوى تدبير مخصوص دبره الباشا ، بأن جمع كل الخبز الموجود في بغداد وعرضه بهذه الصورة ليخدع العدو • ولما ارسل نادر حملاً من الرقي على سبيل الاستخفاف بجوع السكان بعث اليه أحمد بهدية نفيسة من أفخر الخبز • على ان هذه المداعبات ومعروضات الصلح ، أو التراضي غير المقصود ، لم تكن لتخفف من ويلات المجاعة[٢٦] الفظيعة التي أنشبت أظفارها ، ولم تبعد كثيراً دنو أجل الانقاذ الذي أصبح على قاب قوسين أو أدنى في منتصف الصيف •

وحل تموز فأوشكت الآمال أن تفنى • فبقي الباشا وحده رابط الجأش قوي العزم • غير انه هو أيضا كان متردداً بين الامل لوصول جيوش طوپال عثمان التي تأخرت طويلاً ، والقنوط من وصولها • ولو كان هذا القائد العظيم قد تأخر عدة أيام أخرى من ميقات وصوله أو كان ضعيفاً عند الوصول ، أو كانت بغداد تنظر في محنتها هذه الى قائد أقل شخصية وشهرة من أحمد باشا ، أو كان نادر قد أظهر في هذه الحملة فطنة تناسب ما أبداه في فتوحاته الاخرى ، لكان تاريخ بغداد والعراق وتركية قد سلك حقاً مسالك اخرى • فلم يكتب لاية مدينة مهددة أن تفلت من عدوها كما كتب لبغداد ، كما لم يكن وصول أي منجد في الوقت المناسب للانجاد مثل وصول طوپال عثمان •

المنقذ الأعرج

لم تظهر على مسرح العراق الحديث شخصية أكثر رومانتيكية من شخصية عثمان باشا الأعرج • فقد ولد في اليونان ، وتثقف في « سراغليو » باستانبول ، وترفع بسرعة الى أعلى المناصب حتى أصبح في الاخير قائداً عاماً في اليونان ،

---

(٢٦) يقول جوزيف أمين (ص ٥) ان المسيحيين كانوا يعيشون عيشاً حسناً بذخيرة الطعام التي ادخروها بحكمتهم مع انه كانت الاكثرية المسلمة تأكل الكلاب وأدنى من ذلك

ثم والي الروم ايلي . وكانت الجروح الممضة قد شوهته فبان كأنه مسن ، وقد أثر أحد هذه الجروح في رجله فصار يلقي صعوبة في المشي عليها ، ولذلك لقب بـ « طوپال » أي الاعرج . وكان يتحلى فوق الشجاعة والخدمة باخلاص ، بسجايا نادرة . فكان سخياً شريفاً غير مطعون عليه رقيقاً متواضعاً . فلم يكن له أعداء ، بل كان كل جندي صديقاً له . وقد حدث ، بعد تقاعده عن منصب الصدارة العظمى تواً ، ان شاع الخطر المحدق ببغداد في استانبول . فعين سر عسكر في آسية ليرد الخطر . وخوّل السلطة التامة في جمع القوات واستخدام الموارد المختلفة في الايالات الشرقية . فزحف بجيش كبير[٢٧] . واستغرق مسيره نصف سنة تقريباً . وربما دل تأخره عن ميقات الوصول على جهله بحرج الموقف في بغداد . وقد وصل الى الموصل في أوائل حزيران ، ثم تسلم في كركوك كتاباً بعث به اليه نادر بلهجة الازدراء الصلف . فقد تمنى له الوصي رحلة سريعة نحو حتفه ، وهدده بالقبض عليه كما يقبض على « الطفل في مهده » تعريضاً له بالعاهة التي كانت تضطره للركوب في محفة . وكانت تبين على طول البلاد التي مر بها الى بغداد آثار السيف والنار التي أضرمها العدو عند مجيئه . وتأخر جيشه في عبور الزابين . وقبض قرب كركوك على جاسوسين أو منهزمين ، وبعد أن استحلفهما للاخلاص بعثهما الى أحمد باشا مع كتاب يذكر فيه التريث ، والانتظار الطويل قبل وصول النجدة . فنفذ الايرانيان ما كان يقصده القائد بعينه وهو ايصال الكتاب الى نادر قلي قصد أيهامه بتأخر وقت وصول الجيش .

وسلك في سيره من جنوب كركوك طريق العظيم . وعند وصوله الى دجلة وافاه كتاب من نادر قلي يطلب فيه أن يختار موقعاً لمعسكره وان يستعد للقتال . فاحتبس الرسل والجواسيس من الايرانيين ، ثم سرحهم في الاخير لينقلوا الى سيدهم أخباراً غير حقيقية دبر أمرها خديعة . وكانت برودة عثمان وحكمته وطول اناته مما يبعث الثقة ، في وقت كانت سذاجته توجب النقد . وقد بقي مطلعاً على كل شيء بواسطة جواسيسه ودوريات الجند التي كان يرسلها للتعرض الخفيف . فرجعوا اليه في السابع عشر من تموز وأخبروه بأن نادراً كان قد

---

(٢٧) ان القوات التي كان قد تألف منها الجيش مذكورة بالتفصيل فيما كتبه صبحي (الفون هامر ج ١٤ ص ٢٨٦) . ولم تتعد القوة مائة الف ، كما ان المعلوم انها وصلت الموصل وعدتها ثمانون الف مقاتل .

ترك معسكره في بغداد وتقدم عشر مراحل الى الشمال • وعلى هذا كان يحتمل وقوع الحرب في اليوم التاسع عشر من الشهر • فدعى طوپال ضباطه وأبلغهم آخر تعليماته المفصلة • فوقف الجيش في اليوم الثامن عشر مع ان الايرانيين كانوا يكدحون مشياً نحو الشمال للقائه •

نهض طوپال من نومه الهادىء في ليلة الحرب وطلب من أطبائه جرعة تزيد في قوته في يوم الايام هذا ، ثم صلى كعادته • وقد وصفه طبيبه بما يأتي :

« وبعد أن انتهى من صلاته امتطى صهوة جواده ، بعد ان لم يكن يركب من قبل طوال مدة سير الجيش لانه كان يحمل في محفة منذ أن ترك ديار بكر • ولايمكن أن أعزو القوة التى أظهرها الآن الى شيء سوى روحه العسكرية والنار التي كانت تتأجج بين أضلاعه •••• وقد رأيته راكباً كأنه فتى يافع وبيده السيف ، فكانت سيماه تبعث في الناظرين الحماسة والنشاط ، وعيناه متألقتين حين يصدر أوامره بخفة تعجب وفكر يقظ » •

وبدأت الحرب مع طليعة الجيش التركي في الساعة الثامنة من صباح اليوم التاسع عشر[٢٨] وكان الضبط متساويا عند الفريقين ، ولم تدع أساليب الحرب يومئذ وانبساط ساحة القتال سبيلاً لاتخاذ الخدعة إلا فيما ندر • أما عدد الجيوش فقد بان فيه شيء من الرجحان بجانب الاتراك • فاصطدم الفريقان ، وارتدت خيالة الاتراك فقط أمام جيش الايرانيين الرئيس المؤلف من خمسين الف مقاتل بقيادة نادر نفسه • غير ان مشاة الاتراك كانوا من وراء الخيالة المتقهقرة كالبنيان المرصوص • فقد وقع ثلاثمائة رأس من الايرانيين أمام السر عسكر ، ولاح ان الظفر كان بين يديه • إلا ان ارتداد الفين من أكراد جيشه عكس عليه الحال فصعد مد الايرانيين وأخذت المدافع من پولات پاشا وابراهيم باشا ، وأحدثت قسراً ثغرة في خط الاتراك بجانب دجلة • فدعا طوپال عثمان جيش احتياطيه المؤلف من عشرين الف بعد ان طوى كشحا عن مشاوريه الذين أشاروا عليه بالرجوع ، فاستعيدت الارض والمدافع التي خسرها من قبل • وبذا طغى مد

---

(٢٨) ان التفصيلات العسكرية الاخرى موجودة فى هانوي (ج ٢ ص ٨٦) ، وفى نيكوديم (فون هامر ج ١٤ ص ٥٢٢) ، وهاتان الروايتان تتفقان بصورة عامة فقط •

الاتراك بقوة مرة ثانية ، وتقدم الانكشاريون من قلب الجيش على طول خطهم .
ولم يعد بوسع نادر أن يجمع رجاله بعد ان كلفه تعرضه من دون وجل للمخاطرة فقد حامل لوائه وفرسين من تحته . وبعد تسع ساعات من حرب دامية سجال غربت الشمس على الايرانيين وهم مندحرون متراجعون متفرقون ، فأحرز الباشا الاعرج نصراً مبيناً .

وملأت ساحة الحرب الواسعة جثث آلاف القتلى والجرحى من العدو . وكانت الغنائم تشتمل على جميع المدفعية الايرانية بحجومها المختلفة ، وجميع خيامهم وأمتعتهم ، وجميع مؤونتهم بما فيها الثمار الطازجة والحلويات ، وكذلك أعلامهم وآلاتهم الموسيقية وكراعهم (حيوانات النقل) . وبهذا إغتنت قوات الباشا المنهوكة الفرحة . أما الباشا نفسه فقد بكى ، في مجلس عام يضم قواده وضباطه ، من فرحه وتعبه الممض ، شاكراً كل قائد على المجهود الذي بذله وحامداً لله على الانتصار[29] . وقد خسر الايرانيون ثلاثين ألف قتيل وثلاثة آلاف أسير . وكانت خسرانات الاتراك أقل من ذلك بقليل . وقضي يومان في تنظيف ساحة الحرب ودفن الموتى ونقل الجرحى الى الموصل . وقد وجد بين الجرحى الايرانيين حمو نادر قلي وابن أخيه ، فعوملا بالحسنى ثم ارسلا الى الوصي . وارسلت رسائل الظفر من محل الموقعة الى السلطان ، والى بغداد ، والى كثير من حكومات الامبراطورية . وجاء جماعة من الهاربين بأنباء مفادها عبور نادر الى ايران من الحدود .

وفي ساعة الانتصار أمر أحمد باشا بهجوم مفاجىء الى الخارج من أبواب بغداد ، فجرى ذلك وانقض الاتراك على القوة ــ المؤلفة من ثمانية آلاف ــ التي تركها نادر لتديم الحصار ، فأبيدت عن آخرها ولم يسلم منها انسان . وفي الثاني والعشرين من تموز وصل دفتردار بغداد الى طوپال عثمان بكتاب التهنئة . وفي مساء الثالث والعشرين ، عندما بان الجيش المنقذ من أعالي السور ، ركب أحمد باشا الى المعسكر . فكان اللقاء قصيراً رسمياً على صبغته الدراماتيكية في تاريخ العراق . وقابل في اليوم التالي طوپال عثمان الزيارة بالمثل ، ولما كان يستهجن المراسيم بعد انتصار كان سببه قوة خارقة ركب من دون حاشية ولا أبهة ، فدخل.

---

(٢٩) نيكوديم (الفون هامر ج ١٤ ص ٥٣٢)

المدينة التي كان أخذ منها الجوع مأخذه ، وفتك بها المرض ودوى فيها صوت الموت • فانه لم يصل الطعام اليها على اكتظاظها منذ كانون الثاني حتى أواخر تموز ، وقد ما تمن الجوع ما يزيد على المئة الف أنسان • فرميت جثث الالوف منهم في النهر ، وبقيت جثث الباقين تملأ الهواء بعدواها فجاءت بالمرض أثر المجاعة• وقد بلغ الوهن والضعف بمن عاش من السكان الذين شهدوا دخول أشرف رجل في عنصره ـ وكان مؤثراً في تواضعه ـ حداً لم يستطيعوا معه أن يتذوقوا النجاة والرفاه المقبل[٣٠] • ثم رجع الباشا الاعرج الى معسكره الواقع على بعد عشرة أميال من شمال بغداد ، واستراح ثمانية أيام •

والى هذا الحد كانت حملته مقترنة بالنجاح التام المستحق • وقد جعله انقاذ بغداد بيوم واحد ، و شهير المحترم ، معبود العراق الناجي من الكرب واستانبول على حد سواء • وقد كان من مصلحته أن يموت بعد هذا الظفر ميتة نيلسون ، لان الاندحار والموت ، على العكس مما كان يأمله ، كانا ينتظرانه في الاراضي العراقية نفسها • فقد انجز مهمته ، فأنقذ بغداد حقيقة • لان نادر شاه لن يكون بوسعه فتحها على تخييمه حيال أسوارها مرتين فيما بعد •

وبينما كانت بغداد تتماثل يوماً الى الشفاء انسحب عثمان الى الشمال • وقد قل جيشه (برغم قلته من قبل ووصول حده الى خمسين الفاً) شيئاً فشيئاً بتسريحه الجيوش الاجيرة الى ولاياتها العربية والكردية • ولم يكن بوسعه أن يقيت حتى البقية الباقية من الجيش النازلة قرب بغداد • وقد طلب في كتبه الى استانبول جميع أنواع النجدة والتجهيزات ، غير ان انباء انتصاره قوبلت في العاصمة بأفراح بالغة • وانهالت عليه الالقاب والتفويضات الا أن العدد والتجهيزات التي طلبها لم يبق منها شيء ، ولم يعف من القيادة بحسب ما كان يرغب فيه • فخيم في كركوك خائفاً وجلاً ، غير مجهز • أما أحمد باشا (الذي كان من المأمول أن يتخلى له عن الجيش) فقد توقع مثل طوپال ان الوصي لا محالة معيد الكرة • فرمم سور المدينة وأصلح الخندق والقلعة ، ثم ملأ مخازنه من الحبوب التي

---

(٣٠) يصف نيكوديم ذلك بقوله « ••• وصل الفاتح العظيم ، ذو البأس الشديد طوپال عثمان مع جيشه المنتصر الى بلد الامام الاعظم ، فتوافد عليه الاهلون من جميع الطبقات شيباً وشباناً يقبلون أقدامه ويمسحون عنها الغبار » •

جمعها من فضلات الحصار السابق ٠

وكان استرداد نادر لقواه دالا على عظمته بوضوح[٣١] ٠ فقد وقف بعد تركه العراق في همذان ليعيد تنظيم جيشه ويزيد عليه ، فتقاطرت القطعات من كل ولاية ايرانية ٠ وما مرت أسابيع قلائل حتى أصبح المتشردون القليلون جيشاً قوياً دبت فيه الحياة ٠ فسار الى كرمنشاه ، وكانت وجهته الاولى جيش عثمان لا بغداد ٠ لانه ليس من الممكن ان ينجح أي حصار كان وفي ساحات الحركات جيش يقطع على الهاجمين اتصالهم بقاعدتهم ، وعلى هذا سار بجيشه شطر كركوك ٠

وما زالت طلبات عثمان لجند حديث وعدد جديدة غير مجاب اليها ٠ على انه نجح في جمع قطعات صغيرة لا من استانبول بل من الولايات المجاورة كسورية والموصل وديار بكر ، ومن شيوخ العرب ٠ وكانت الشائعات الواصلة الى معسكره بالقرب من كركوك لم تبخس قوات الوصي المنتظرة حقها من حيث العظمة ، ولم تستهن بعددها ٠ فأرسل پولات پاشا مع ستة آلاف مقاتل ليقف في الحدود فيصد العدو ، الا انه فشل في مهمته وتركها وانسحب ٠ اما الحركات التالية لذلك فكانت غامضة الامر ٠ وانما المعروف ان طوپال عثمان حصن معسكره من جهة ، ومن جهة أخرى كان يبعث بالقطعات الصغيرة من جيشه لتناوش العدو القتال لانه أخذ يتقرب شيئاً فشيئاً ، فنال بذلك نجاحاً بين بين ٠ وفي الاخير كان سهل ليلان ، الممتد من كركوك جنوباً وشرقاً بين الجبال الواطئة الى نهر طاووق، ساحة قتال في الحرب الاخيرة ٠ وفي السادس والعشرين من تشرين الاول ١٨٣٣ م (١١٤١ هـ) كان الجيشان قد تصافا وجهاً لوجه للحرب ٠ وكان جيش نادر الجديد على مثل ما كان عليه جيشه المدحور قبل ثلاثة أشهر من العظمة ، وأكثر استعداداً منه ، اما هو فقد أضاع في هذه المرة ثقته المفرطة بنفسه ، لكن طوپال عثمان كان على أسوأ حال ٠ فقد قل جيشه عما كان عليه من قبل ، مع استراحته ، عدة آلاف ، وكانت حركاته حركات المدافع للابقاء على

---

(٣١) ان أحسن المراجع للحملة التالية هو هانووي (ج٢ ص ٩٣ ــ ١٠٠) ٠ ولا تستحق أخبار جهان كوشا التصديق ، كما ان صبحي لا يذكر منها الا القليل ولا تضيف المراجع العراقية الا بعض النقاط ٠

جيشه لا لانقاذ مدينة عظيمة . فدحر الجيش التركي اندحاراً تاماً في الحرب التي وقعت ، ولم ينج من الجند الا القليل . ولم يكن بوسع ذلك الباشا الأعرج أن يجمع جنده ، مع ما اوتي من حذق وبسالة . واضطر هو نفسه أن يترك محفته فيمتطي جواده ثم يخر منه قتيلا . فتلاشى جيشه وانعدم . ووقعت في يد الايرانيين جميع الامتعة والمدفعية ووسائط النقل ، واسر الكثير من جيش الباشا، وجيء بجثة طوپال عثمان الى محضر الوصي « الذى وقف صامتاً مدة من الزمن وهو يتأملها بخشوع تام » قبل ان يبعث بها محروسة الى بغداد .

وان بين هاتين الشخصيتين المتناقضتين ما يدعو للمقايسة . فقد كانا يتفقان في خدمتهما لبلادهما فقط ، وكان أحدهما قد تبدل حب الناس اليه لقساوته الساخطة وجشعه المكروه ، كما كان الآخر سخياً رقيقاً جداً . وكان احدهما يقود رجاله بكبرياء « جسمه المتناسب ، ومظهره الانيق ، وصوته المدوي ، وشجاعته الفائقة مع عزمه ... وذاكرته المدهشة وحيويته الغزيرة ... »[32] ح ان الثاني كان رؤوفاً غير صارم ، ومتقدماً في السن ، لا يستطيع الركوب الا بصعوبة يجدها . وكان نادر ظاهر التفوق بنباهته وقوة مفاجآته وطموحه ، كما كان عثمان پاشا متفوقاً باخلاصه لبلاده ولمثله العليا بالروحية المثلى .

وقد أحدثت أنباء الهزيمة العظيمة رعباً متساوي المقادير في استانبول وبغداد . وكان الهياج عظيما في العاصمة الى حد ان وضع فيها حرس اضافي منعاً لنشوب الثورة . وكان رجال الديوان الاماثل يفضلون أي صلح كان على متابعة الحرب بازاء قائد نصف ساحر ، بينما كان الآخرون يلحون في نجدات أخرى ، فصوت على المال والرجال ، ثم عين عبدالله كوپريلي سرعسكر في آسية ، وأمر حكام الولايات بالانضمام اليه .

اما بغداد فلم تكن لتتوقع شيئاً ، فجددت التحصن ولها أضعف الآمال في النجدة . ورفض أحمد باشا ان يسمح لجماعات المنهزمين من جيش عثمان لتشتت بالدخول الى المدينة ، لان قوته الدفاعية كانت كافية وكان فى البلدة كثير ممن « يأكل ولا ينفع » . وقد سمح للجميع من رغب في ترك المدينة أن يتركها ، وبعث هو بعائلته الى البصرة . ولم يتأخر في انجاز التدابير لدفع ما كان يخشاه

(٣٢) سايكس ج٢ ص٢٧٣ .

من الامور • وقد تقدم العدو المنتظر عن طريق الخالص الى بغـداد وأقبل على ترميم بنايات الحصار المحكمة • وكان قد بعث من قرەتپه قبل وصوله قوة عبر دجلة لتحقيق خضوع المناطق الفراتية وتجهيزاتها • ولم يخش الايرانيون في هذه المرة قدوم جيش منقذ من الشمال ، ولم تزعجهم حـرارة الصيف التي لم يألفوها • على أن الامل الوحيد للمحصورين في الداخل كان في قائدهم وتدابيره التي اتخذها • غير أن الرياح تجري بما لا تشتهي السفن • فقد حدث ما لم يكن في الحسبان • لأن نادر قلي ، وهو اللامع الجذاب ، كان قد أطال الغياب عن بلاد لم تخضع الا بعد لأي ولن تهدأ وفيها الاتباع الطامعون • فوافته الانباء بنبـأ ثورة خطرة شبت نيرانها في فارس لمصلحة الصفويين • ولذلك لم يكن بوسعه أن يستغني عن الاسابيع التي كان يحتاج اليها لاخضاع بغداد • فكان الصلح لدى الباشا نجدةً نزلت من السماء • فتبودلت الكتب بينهمـا ، وكانت الشروط تلك التي كان يرجع اليها المتبارزون الكادحون من الترك والايرانيين في كل فرصة • وهي لا تخرج عن اعتبار حدود السلطان مراد والتسريح العام للأسرى • فعقـد الصلح وسرح الاسرى ثم تهادى القائدان الهدايـا • وارسل أصل المعاهدة الى استانبول للتصديق عليها • وبعـــد أن زار نادر قلي العتبات المقدسة رجع لتدبير شؤونه المستعجلة في ايران •

نهاية النزاع

أيد الرسل الذين جاءوا بالمعاهدة الى استانبول أنفسهم انسحاب جيش نادر قلي التام من العـراق • وكان يومئذ عبدالله كوپريلي على رأس جيش قوي في أرمينية ، كما كان اسمه يوحي الثقة الى النفوس عندما تعالت أصوات الاستثار للبطل الصريع لدى وصول جثة طوپال عثمان الى استانبول • فتغلب رأي الحرب في ديوان السياسة • وتركت المعاهدة ، المعقودة في وقت الضيق ، جانباً وانتعشت الآمال عند ابتعاد الخطر • فأبقيت القوات التركية في الشمال على مرابطهـا في شرقي الحدود • ثم نقل أحمد باشا من بغداد ، فدل ذلك على عدم اعتبار المعاهدة التي عقدها • فتسلم حاكمية أورفة[٣٣] متقبلاً أوامر سيده لاسباب معقدة •

وشهدت سنة ١٧٣٤م (١١٤٧هـ) بعد قضاء نادر على الثورة التي رجـع

---

(٣٣) كان تحويله الى حلب في أول الامر ثم نقل الى اورفة بطلب منه

أجلها من بغداد ، هجماته الجديدة الموفقة على قلاع الحدود التي كانت ما تزال بأيدي الترك . فقد حوصرت تفليس وأريوان وگنجه . وفي حزيران ١٧٣٥م كان المسرح مهيأ ليلتقي فيه بموقعة حاسمة نادر والسر عسكر التركي الذي عززت قواته بكثرة ، وكان مستريحاً منذ مدة . فوقعت بينهما معركة مخيفة في بغاوند ، بالقرب من قارص ، أضاع فيها عبدالله كوبريلي حياته وجيشه بأجمعه تقريباً . ثم احتل نادر المدن التي كان قد حاصرها من قبل وتوجه لفتح داغستان وبلاد الگرج السهل عليه .

واذ ذاك ندم أولو الامر في الباب العالي لرفضهم معاهدة كانون الاول ١٧٣٣م . فعين أحمد باشا ، الذي كان حينئذ في أورفة ، سر عسكر برتبة ممتازة في آسية وخول المفاوضة من أجل الصلح . فتحرك الى ارضروم ، وسار السفراء فوق العادة بين الفريقين . لكن نادر اشتط بمطاليبه في هذه المرة ، وطلب الدية زيادة على معاهدة بغداد السابقة . فلم يتوصل الفريقان الى نتيجة ما مدة أشهر عديدة . ورأى نادر أن يترك أمر علاقاته بتركية ، فأكمل استعادة الولايات القزوينية من روسية فقلد وسام « شرف ايران » في الحادي عشر من شهر مارت ١٧٣٦م (١١٤٩هـ) . وأوضح في الاحتفال الذي أقيم لذلك اصلاحاته المهمة التي نوه بها من قبل في كتاباته الى البلاط التركي . فأعلن تمسك الشيعة بالعقائد الدينية الاصلية وانضمامهم اليها باسم المذهب الخامس ، وهو المذهب الجعفري . وقد كان يرمي بهذا الى تسهيل معاملاته مع تركية وايجاد أهمية لعائلته السنية ، ثم توحيد العناصر التركمانية والكردية والافغانية التي في جيشه ليعادل بهم العناصر الشيعية التي فيه وما زالت مقيمة على ميلها الى الصفويين . فحيا السلطان بارتياح ظفر الديانة الحقة . ثم أمر أحمد باشا في هذه المرة بأن يعجل في عقد المعاهدة . واستمر البحث ، فكانت مطاليب الشاه النهائية تنحصر في تعيين أمير ايراني خاص بالحج ، وتسريح الاسرى ، والاعتراف بالمذهب الجعفري الجديد باعتباره مذهباً أصلياً . فبحثت في ثماني جلسات رسمية من جلسات الديوان الملكي النقاط الدينية والديبلوماسية . وفي النتيجة عقدت معاهدة تحتوي على الجمل الضرورية . على أن تكون فيها الحدود تلك التي عينت في ١٦٣٩م (١٠٤٩هـ) ، وعلى أن يعترف باسلام الايرانيين الصحيح .

وهكذا انتهت لفترة ما الحرب الناهكة المبيدة التي أضرمها الشره التركي والارتباك الايراني في ١٧٢٣م (١١٣٦هـ) ، وتوقفت بصلح قصير الامد في ١٧٢٧م ، فجددها معيد العظمة الايرانية في ١٧٣٠م ، ثم هدأت بضعف آخر الصفويين في ١٧٣٢م • فقد حنث الايرانيون بتلك المعاهدة فشنوا حرباً ضروساً حتى الايام الاخيرة من سنة ١٧٣٣ ، وسرعان ما أبطل السلطان الصلح الذي عقد في تلك الايام • وفي النهاية ، عقد في السابع عشر من تشرين الاول ١٧٣٦م صلح كان الأمل قوياً بدوامه • فأزيل الخلاف الديني وأعيدت الحدود الى خطوطها التقليدية ، ونال نادر مكافأة أطماعه المتعاظمة • ثم توجه الآن من ظفر الى آخر في الهند ، بينما رجع بطل بغداد الى الحكومة التي رحبت به بعد سنتين[٣٤] قضيتا في الحكم الضعيف •

وكان السبب في تجدد الحرب ، التي لا تريدها تركية ولا تحتاجها ايران، يعود الى اصرار الشاه الجموح على شروط كان من المستحيل على تركية أن تقبلها — وقد كان ذلك اصراراً يدفع المرء الى الشك في وجود خلل عقلي ناشىء عن طموح اشبع بأكثر مما يجب واقترن بالقسوة الحنونية والجشع اللذين عرف بهما الشاه في سني حياته الاخيرة • فقد بعث الى السلطان من قندهار في ١٧٣٨م (١١٥١هـ) بكتب أريد بها بوضوح أن يبقى باب العداوات مفتوحا على مصراعيه في المستقبل • فطلب ديار بكر وأرمينية والح على أن يتخلى السلطان عن حلفه مع المغول في الهند وان يهد ما اصلح من سور بغداد ، فلم يجبه السلطان • وفي ١٧٤١م (١١٥٤هـ) ذهبت سفارة ايرانية طالبة الاعتراف الرسمي بالمذهب الجعفري • فرفض الطلب وأعلن مروق الجعفريين وكونهم مباحين لابناء السنة • واذ ذاك التقى الرسل من الترك والايرانيين على الحدود ، ثم عززت الحاميات في بغداد وأرضروم • فرددت الألسن من أقاصي تركية الى أدانيها أطماع الشاه وولاء أحمد باشا الغامض في بغداد ، الذي ما كان هو ولا غيره راغبا في حرب أخرى وتحصن جديد •

---

(٣٤) حكم في هذه المدة الحاج اسماعيل باشا فنجح قليلا مدة سنة واحدة • ثم خلفه محمود باشا الاعرج سنة ١٧٣٥م فوجدت في أيامه القبائل الحرة والحاميات المتمردة مجالا واسعا للعبث

وقبل اعلان الحرب في تموز ، عبرت الجيوش الايرانية الحدود العراقية في مندلي وشهرزور وأفزعت بغداد بالخطر الداهم لها • فبذل أحمد باشا جميع مجهوده في تموين عاصمته وترميم سورها وحصونها وسد ثغرات الحصار من جهة ، وساير الوكلاء السريين الذين أوفدهم العدو من جهة أخرى • وبينا كان الزرع أخضر عالياً في المروج في ربيع ١٧٤٣م وصل رسل الشاه الى بغداد • على أن احترام الشاه وتقديره لاحمد جعلاه يرغب في استمالته بدلاً من تهديده مباشرة • فكانت رسالة الشاه اليه كما يأتي « لست راغباً في ضررك ولا في انزال الضرر ببغداد ، انما أنا أنازع السلطان ، فسلم الي ولايتك وسوف لا تندم على ذلك » • فشرح الباشا حاله هذه للسلطان ، وأطال في جلساته ومفاوضاته لسفراء الايرانيين حتى حصدت الحبوب من المزارع • ورد في الاخير بجواب مبهم كان فحواه « خذ الموصل أسلم اليك بغداد » • لكن الوقت لم يسمح بالضرب على هذه النغمة •

ومع هذا فأن أعظم الضربات المنتظرة وقعت في شمالي العراق لا في أواسطه • فقد تقاطرت القوات الى كركوك على طريق شهرزور وحاصرت حصونها • وفر ضباط الحامية الكبار الى الموصل وما وراءها عندما اخبروا بكثرة عدد القوات الايرانية البالغ عدد المقاتلين فيها ٣٠٠,٠٠٠ مقاتل ، وتبعتهم القوات النظامية • فغمر جيش الشاه الريف وعاث فساداً فيه ، واعتصمت شراذم التركمان والكلدانيين من سكان المدينة بقلعتها العالية ، وحوصروا فيها مدة أسابيع ثلاثة • ثم استسلموا بشرط أن يؤمنوا على أرواحهم وأموالهم • على ان المدينة كانت قد روعت أشد الترويع ، فقتل خمسمائة من المدافعين عنها ثم زحف الجيش الايراني فعبر الزاب الصغير واحتل أربيل ، ومن هناك سار الى هدفه الثاني مدينة الجليليين •

وكانت الموصل على أتم استعداد • فقد أعد لها الحاج حسين وسميه المحافظ عدة الدفاع اعداداً روحياً ومادياً • فكانت الخنادق العميقة مهيأة وكان قسم من السور قد بني بحجارة جديدة وسدت الثلم والثغرات فيه • ثم أعدت آخر الاستعدادات فعينت المراكز للمدافعين ، وملئت المخازن من الحبوب • وتقاطر

سكان القرى الى المدينة[٣٥] • وكانت الموسيقى العسكرية ودورات الباشا بين كراة[٣٦] الخندق وبناة السور المشتغلين باستمرار تلهي الجميع وتحبب اليهم العمل • فتضافرت بذلك مجهودات الجميع من الجليليين الى الشحاذين • ورفض بكل اباء ممكن وفد ايراني ، قدم طالباً الاذعان بالطاعة للشاه ، وهنا كان الفصل الحامي قد انتهى •

وقد شوهد العدو على بعد ثلاثة أميال في الايام الاخيرة من أيلول ١٧٤٣ م (١١٥٦ هـ) • فدوت الاصوات الداعية للاستعداد ، ثم عرضت ثلة قوية من الخيالة المعدة لهجوم فجائي الى الخارج • فخفت وعبرت الى الجانب الثاني من المدينة فهاجمت ، بشجاعة عظيمة ، جناح الجيش الايراني المزدحم ، ووقع الكثيرون من أفرادها عند الهجوم • ثم فُرقوا واحيط بهم ، غير ان رئيسهم أبدى شجاعةً خارقة فانتشل رجاله ورجعوا تحت وابل من رصاص الايرانيين ، فعبروا ثانية ودخلوا داخل السور • واذ ذاك سدت الابواب واتخذت أسباب الدفاع بحذافيرها •

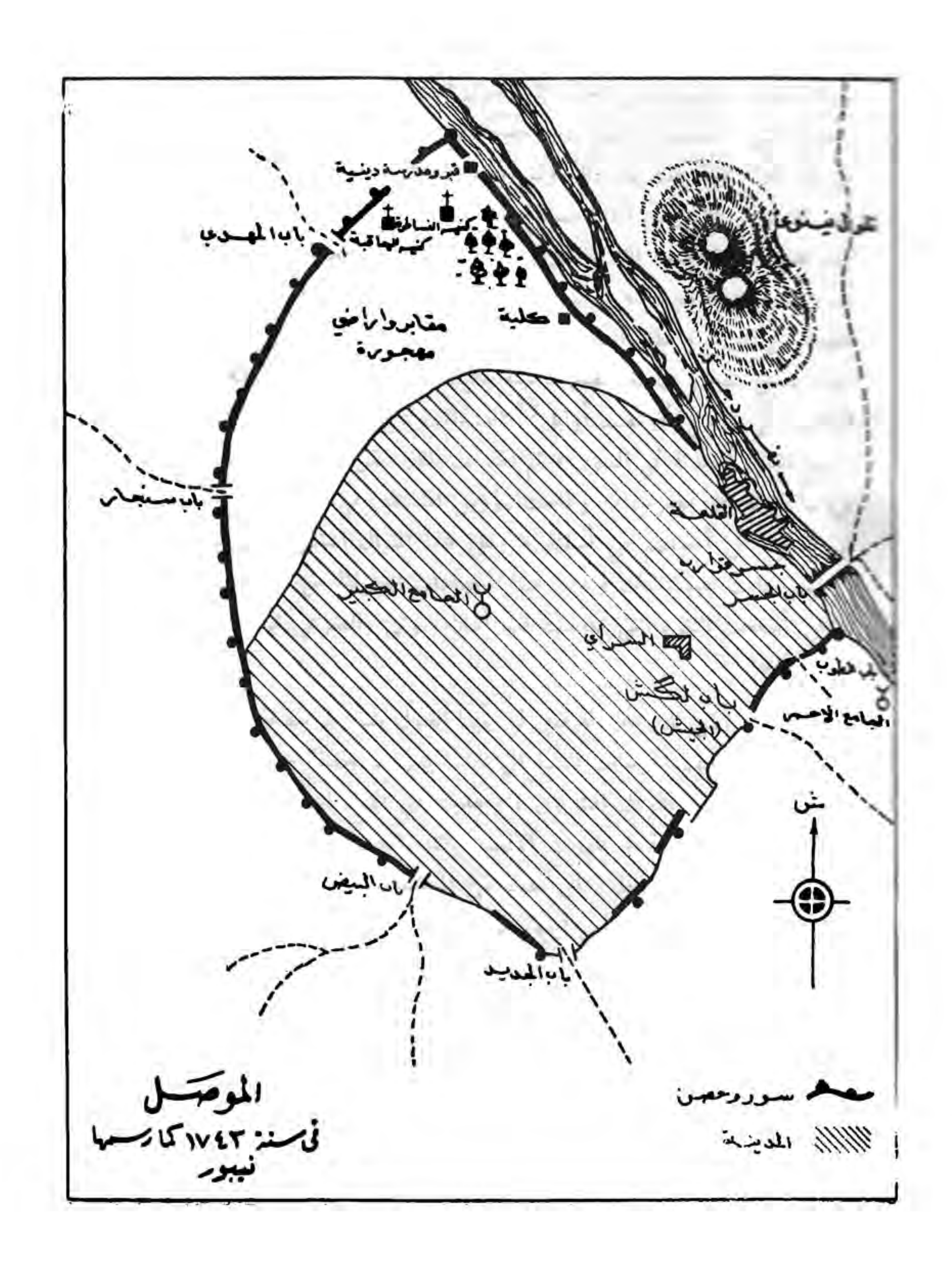
وظل نادر شاه مخيماً في يارمجة خمسة أيام ، ثم عبر وطوق المدينة بجيشه • وبعد استطلاع الحال عزم على الهجوم من أثني عشر مركزاً في وقت واحد ، أعني – على جميع الابراج التي في سور المدينة • وشيد من التراب في كل مركز من مراكز الهجوم اماكن تحتمي بها مدفعيته • وفي أوائل تشرين الاول بدأ قصف شديد من مائتي مدفع على المدينة • وتنصف وطنية المؤرخين المحليين بوصفها أهوال الاطلاق الناري ، فتقول أن الشظايا المتطايرة كانت تظلم السماء في النهار وتنيرها في الليل كما تنيرها الشهب • وأُزهقت الانفس عسراً والاموال بشدة ، الا ان ذلك لم يؤثر في العزائم والقوى المعنوية • وكان الحاج مع ابنيه مراد وأمين ، يخفون بلا مبالاة الى مواقع الخطر بالليل والنهار •

فتقرب نادر ، وكان بقي مقره في يارمجة ، الى المدينة • وانزعج من مقاومتها فأمر بمضاعفة المجهودات فكانت النتيجة ان حدثت فجوة في السور ، فلم تضبطها الحامية الا بعد لأي • وبينما كانت المجهودات العظمة تبذل في سد

---

(٣٥) المراجع لحصار الموصل تقويم الموصل ، وكتابات صبحي فى فون هامر (ج١٥ ص ٧١) وغيرها

(٣٦) الكراة جمع كار للذى يكري المجاري



قبر ومدرسة دينية
باب المهدي
مقابر واراضي
مهجورة
كلية
نبي يونس
باب سنجار
القلعة
جسر قوارب
باب الجسر
الجامع الكبير
السراي
باب الطوب
باب لكش
(الجيش)
الجامع الاحمر
ش
باب البيض
باب الجديد
سور وحصن
المدينة
الموصل
في سنة ١٧٤٣ كما رسمها
نيبور

الفجوة هذه وجمع القوة اليها بانت أولى علامات الفزع ، وصار مصير المدينة في ميزان القدر • ولم يحسن الحال الا وصول الباشا بنفسه • فتمكن بجسارته وحيويته التي لا تنضب ان ينفخ روحا جديدة في النفوس الهلعة ثم سدت الفجوة • على ان كارثة ثانية حلت بعد ذلك ولم تتحسن الحال فيها الا بشق الانفس • فقد حفر المشاة من الايرانيين أنفاقاً عميقة تسربوا فيها الى السور • ثم انفجرت أربعة ألغام عظيمة ، فضعضعت الثلاثة الاولى منها السور وتركته مصدعاً ، اما الرابع فقد سبب سقوط قطعة كبيرة منه مهشمة على الارض • وعزز هجوم ايراني عاجل بقوة عظيمة من الوراء • فكان الهجوم قد أحكم تدبيره ، وقرب به الفوز • واذ ذاك أيضاً يضيق المجال ويتعلق مصير المدينة بخيط واه ، ثم تنجلي الازمة فتنجح الحامية في الدفاع بأن تصب أوابل[37] القذائف على الهاجمين الذين فشلوا في توسيع الثغرة المحدثة في السور • ثم اضرمت النار بالقرب من الابواب الخشبية فردتها الريح على مضرميها • وطاحت رؤوس المشتغلين في السلالم التي انشبت في السور على أخوانهم في أسفله • وعلى هذا المنوال استمرت معركة حامية الوطيس دامت عدة ساعات وبذلت فيها المجهودات الجريئة من الفريقين • وفي الاخير أصلحت الثغرة التي تكدست فيها أشلاء الموتى والصرعى ثم سدت سداً محكماً •

وعندئذ أيقن نادر بأن المدافعين لن يأبوا القبول بشروط خفيفة • فلم تنجح سفارته الاولى اليهم ، وجاءت الثانية الى الباشا بشروط خفيفة مغرية بحيث لم يتمكن من ردها • فتبودل المنتدبون ، وأهديت الى الشاه أجمل المهار العربية رداً على هداياه الثمينة • فلهجت الالسن بالثناء الحسن على الحاج البطل • وانتهت الحملة ، التي انقلبت الى حملة من المجاملة والسخاء ، برحيل الجيش الايراني • وكما جرى لمدافعي أيليوم من قبل ، تدفق المدافعون عن الموصل من الابواب الى الخارج وحفروا القبور لموتاهم وكانوا خلقاً كثيراً ، ثم ابتهلو بالشكر لربهم الرحيم •

وبينما كانت الموصل تحافظ على كيانها ببسالة على هذه الشاكلة ، شوهدت

---

(٣٧) الاوابل جمع وابل

الجيوش المعادية في الجنوب • إذ كانت قوة ايرانية قد هددت البصرة[٣٨] لترجع عنها بعد ثلاثة أشهر من الحصار الفاتر • وكان أربعون ألفاً من جيش العدو يعيثون فساداً في السواد حوالي بغداد ، فعطلوا الحملات العديدة التي جردت لتأديب القبائل، في الوقت الذي كانت قوة نادر الرئيسية في الموصل • وكان أول تأثير لذلك ارتفاع الاسعار في بغداد ، واشتد هذا الارتفاع وضوحاً عندما قطع الشاه في الشمال طريق شحن الحبوب الى الجنوب• وقد استقامت هذه الاحوال المزعجة الى ان خاب حصار الموصل • وهنا رد نادر جيشه الرئيس الى كركوك وفيها بقي مخيماً •

وكان الباب العالي قد عين أحمد باشا من قبل سر عسكر مع اثنين آخرين لقيادة الحرب • الا ان نادراً رفض أن يفاوض غيره ، فخولته البعثة التي بعثها السلطان السلطة التامة في المفاوضة ، وكان معها عند قدومها اليه هدية من المال وخلعة سلطانية • وكانت المحادثات قد بدىء بها من قبل ، ومع ان مدار الحديث كان أمر الاسرى وضرائب الزيارة وحالة الحويزة كان الخلاف الرئيس خلافاً دينياً • وقد ترك نادر جيشه وتوجه بنفسه جنوباً الى المعظم[٣٩] ، ومن هناك قصد زيارة العتبات المقدسة • ولم تثمر المناقشات الطويلة مع العلماء في النجف شيئاً • وفي الاخير أضطر الشاه ، وقد انتبه لاستفحال السخط والفتنة في بلاده ، وللاستعدادات التركية في الشمال ، الى عبور الحدود والرجوع من دون أن يضرب ضربة ما أو يوقع على شيء من العهود • وقد مر بسنه بعد ان ترك بعض قواته في كركوك ، فهاجمه الاتراك ودحر بشدة بالقرب من الموقع السابق

ولا يعود أمر البحث عن الحملات الاخرى والمناقشات الديبلوماسية التي

---

(٣٨) بريسى ص ٢٤ مقطع ٥٧ واوتر القسم الثانى ص ٣٨٠ • يذكر الاول ان عدد الجيش كان ١٢٫٠٠٠ ، ويذكر الثانى انه كان ٣٠٫٠٠٠ من الايرانيين

(٣٩) يبحث صاحب جهان كوشا عن تفصيلات المركب الفخم الذي وضعه أحمد باشا لخدمة نادر ، وعن الهدايا المتهاداة بينهما

(٤٠) الفون هامر (ج١٥ ص ٧١ والحاشية) • ان هذه الموقعة ، التى أهمل ذكرها هانووي وجهان كوشا لايمكن أن تكون عظيمه بقدر ما يجعلها الفون هامر ، كما يستبعد حضور أحمد باشا لها مع مائة الف مقاتل على ما يذكر

دامت سنتين كاملتين بعد ذلك الى تاريخ العراق • لان مد الحرب بـدأ يعدو من العراق ويتجه الى الشمال • فقد التحم الاتراك والايرانيون في ساحات القتال السنوية في أرمينية وأذربايجان ، حيث كانت جيوش تركية قوية ثلاثة تقف في وجه جيوش ايرانية ثلاثة • وتلا حصار الايرانيين لقارص انتصار مبين قضى في صيف ١٧٤٥ م (١١٥٨ هـ) على يحيى باشا • فأعقب الشاه هذا الانتصار بشروط صلح لا تطاق • فقد طلب الاعتراف بالمذهب الجعفري ، وتسليم وان وكردستان والعراق بأجمعه وفي ضمنه العتبات المقدسة • ثم تنازل عن قسم منها في مداولات أخرى جرت في أوائل ١٧٤٦ م ، لكنه أصر على مطالبته بكربلا والنجف • ولم تصل بشائر الصلح ، المعقود مع الشاه في معسكره بالقرب من قزوين ، الى استانبول حتى شهر ايلول • وقد أهملت فيـه المطاليب الدينية ضمنياً ، واعترف بالحدود التقليدية ، واتفق على تبادل السفراء •

ومن المحتمل ان يكون الموت وحده هو الذي حفظ الامبراطوريتين من انشقاق قاض آخر متأت عن نقض هذه المعاهدة فيما بعد • على ان هذه المعاهدة قوبلت في جميع أنحاء تركية ، وفي بغداد خاصة ، بالحمد والثناء • وعهـد الى أحمد باجراء ما يقتضيه تبادل السفراء • وكان الرسول الذي انتخبه السـلطان قيصريه‌لي أحمد باشا أحد رجال الحاشية ومن الديبلوماسيين المعروفين • وكانت الوفود من الفريقين هذه المرة تفوق في عددها وهداياها الوفود المتبادلة من قبل • على ان حاشية السفير الفخمة وموكبه المؤلف من ستة آلاف خيال ما تركت بغداد وعبرت الحدود الى أردلان حتى سمعت بنبأ اغتيال الشاه • فقد لاقت بربريته (العطشى الى الدماء المبدلة عبادة الشعب له نفوراً منه وفزعاً) حتفها الذي سلمت منه منذ مدة طويلة في الثالث والعشرين من شهر حزيران ١٧٤٧ م (١١٦٠ هـ) • فعاد قيصريه‌لي أحمد على طريق سنه وقره جولان الى بغداد • وترك وراءه ايران مقبلة على دور تخبطت فيه بالفتن والقلاقل الداخلية من دون أن تكون لها مـدة جيل كامل القدرة الكافية لازعاج الامبراطورية العثمانية •

العراق في زمن الحرب ١٧٢٢م (١١٣٥هـ) ـ ١٧٤٧م

كانت مدة ربع قرن قد تقضت بين حملة حسن باشا الاولى على ايران ووفاة نادر شاه • وان البحث عن ذلك الجيل الحافل بالحوادث ليبقى مبتوراً ان لم

نذكر فيه شيئاً عن أحوال العراق في الداخل ، وعن الباشا العظيم الذي كان يحكم العراق حينذاك .

ومع ان العراق كان ساحة حرب وهدية عظمى للفائز في ذلك النضال الطويل فانه لم يكن « أمة مسلحة » . كما لم يكن من الوجهة الدينية مشايعاً بالكلية لاحد الفريقين المتحاربين ، ولم يكن مهتماً من الناحية العنصرية بالنزاع بين الترك والآريين[41] ، علاوةً على انه لم يكن يتحسس بكليته بالولاء لحكامه يومذاك . على أن حركات الجيوش الاجنبية الظاهرة للعيان ، وجشع الدوريات والقطاعات ، والمجالس ، والخدع الحربية المشاهدة والمنقولة أخبارها ، كانت كلها من الامور التي ألقت دروساً بليغة عليه . اذ تحرك جيشٌ وبطل قومي للذب عنه . ولم ير العراق نفسه على ضوء التابعية العثمانية في وقت من الاوقات ، منذ زحف السلطان مراد عليه ، مثل ما رأى نفسه به في هذا الدور . فالى جانب العمليات الحربية ، كان بعض الاعتزاز المدني فيه يمكن أن يشهد مرور السفارات البهية الفخمة في ذهابها والاياب . وكان الباشا نفسه ، وهو ذو الشخصية البارزة في العراق والمعروفة في تركية ، سلسلةً قوية تربط بين الشعور المحلي والشعور الامبراطوري . كما كان استقرار الموظفين الاتراك المتزايد ، وازدياد التجنيد الامبراطوري محلياً ، والاختلاط الحاصل بالتزاوج - كل هذه كانت تعمل على وحدة المصالح . ولم يكن مثل هذا النجاح ، الذي حصل عليه السلطان في عراق أيام الحرب ، يعني ان العراق قد دخل في حوزة المواطنة الحقة واكتسب حقوقها . كما لم يكن ينطوي على ازدياد التوثق في التابعية بين الولاية والامبراطورية . وأقل حتى من ذلك ما كان يولده ذلك النجاح من تقبل لحكم السلطان والخضوع له . والواقع ان أهوال الحرب ومصائبها المعروفة - كالمجاعة والطاعون والتخريبات - بينما كان من الممكن لها أن تنفخ في الناس شيئاً من روح الالتفاف حول الحكومة والتعلق بها ، فان عوامل داخلية أخرى كانت تعمل غير ذلك بالكلية وتذكر الجميع على كل حال بدرجة الوهن الذي كان ينطوي عليه التسلط التركي وضآلة النجاح الحاصل مع مقدار تقلقله . فكانت القبائل ، التي هي أبعد ما يكون عن الالتفاف حول راية السلطان ، ترى في الخطر الذي

---

(٤١) يقصد بذلك الايرانيين - المترجم

تتعرض له الامبراطورية فرصة للعبث والازدراء لها • وقد تكون سلسلة التمردات القبائلية والتأديبات المملة المرسلة عليها عديمة الاهمية بالنسبة للاجيال المتأخرة ، الا انها تدل بوضوح على تاريخ العراق حينذاك وعلى الواجبات الشاقة الملقاة على عاتق حكامه • وفي تلك السنين كان الاعتداء الخارجي ، الذي يوحد سكان المدن ويجمعهم حول حكامهم ، يهييء للقبائل فرصة أحسن تمتنع فيها عن دفع الضرائب، ويغزو بعضها بعضاً ، وتهاجم الحكومة المنشغلة أو تتجاهلها •

فبعد عدة أسابيع من زحف حسن باشا على كرمنشاه عمت الفوضى في أواسط العراق • وبرزت الاطماع المنشودة بين القبائل الطليقة ، وكان من الطبيعي أن تتكون « حكومة عشائرية » من المدن المقدسة الى ديار بكر • على ان هذه الفوضوية قد ازيلت بزيارة عاجلة للعراق قام بها أحمد باشا من الجبهة في ١٧٢٤ م • فعوقب بنو جميل بشدة ، ثم صفح عنهم صفحاً حكيما • وكذلك أدب بنو لام وطوردوا من دجلة الى الشامية • ثم شتت شمل القبائل المتجمعة في الفرات الاوسط بواسطة فرقة قوية من الجيش تحركت بسرعة من قاعدتها في الحلة • فعين الشيوخ الموالون وحددت « الديرات » وعادت الحاميات الى البلدان المختلفة • وفي أوائل ١٧٢٦ م كانت الحالة في دجلة الوسطى تنذر بالخطر • اذ انضمت القوات اللرية الى بني لام فأخذوا يعيثون بالبلاد سلباً ونهباً حتى سور بغداد • وكان باشا البصرة ـ زوج فاطمة خانم ـ مشغولا بتعقب القبائل المتفككية • فاستطاع تهدئتهم بصورة وقتية • الا ان سليمان باشا (الكهية[٤٢] اذ ذاك وهو صهر أحمد في المستقبل) أنزل بهم ضربات قوية في ١٧٢٩ م عندما قام بحركات موفقة واسعة النطاق كان تأثيرها محموداً •

وكان لظهور نادر قلي في الاراضي العراقية وحصار بغداد الطويل ، الذي قام به ، أثر سيء في حكومة البلاد • وما زال خطر ذلك حتى أدبت شمر بعدما تحالفت مع الايرانيين فجهزتهم بالادلاء ، وقد قامت بتأديبهم فرقة من الجيش سريعة الحركة في ١٧٣٦ م (١١٤٩ هـ) • وفي السنة التالية شتت البو حمدان

(٤٢) ان سلف سليمان في منصب الكهية كان محمد باشا ، وهو زوج خديجة ابنة أخت أحمد • والظاهر انه خلف عبدالرحمن باشا في حاكمية البصرة •

(قبيلة قوية في جنوب الموصل الغربي) فأضاعت أميرها . ثم هوجم الزبيد في جنوب بغداد في سنين متعاقبة ، وكان ذلك قبل نقل أحمد باشا من الولاية وبعده . وعند عودته كانت حاجته لتأديب بني لام - مناصري الايرانيين العلنيين الاقوياء بتحالفهم مع اللرين - قد قادته الى ديرتهم . وقد عرفت هذه الحملة بالنجدات التي جاء القبطان بها من البصرة على طريق النهر ، وبالمبارزات الفردية الهوميرية التي قام بها أحمد باشا[43] . وعند رجوعه من هناك ترك وراءه قوة خاصة لجمع الواردات ، وقد ساعدها هو عند زيارته للمنطقة ثانية في ١٧٣٩ م عندما كـان قادماً للصيد . وفي الاشهر نفسها أدبت ربيعة بعدما كانت ممتنعة عن دفع الواردات مدة طويلة من الزمن ، وزادت في الطين بلة بقتلها أغا ذا رتبة عالية . فأسفرت النتيجة ، التي لا تختلف عن نتائج مثل هذه الحملات ، عن اندحارها ودفـــع التعويضات الثقيلة الى الكهية .

وقد كتب شاهد عيان افرنسي[44] في البصرة « ان المنتفكين وبني لام كانوا يسببون كثيراً من الاتعاب للباشا » . وبقيت قبائل المنتفك هادئة نوعا ما منذ عام ١٧٢٩م حتى ظهور زعيمها العظيم سعدون[45] . وقد عثرنا على اسمه في التواريخ أول مرة في ١٧٣٨ - ٣٩ م عند حضوره اجتماعاً للشيوخ عقد بدعوة من الكهية في حسكة . فسلم كل من الشيوخ هدية ولطفوا بالحديث ، عدا سعدون الذي اوقف وأخذ مخفوراً الى قلعة بغداد جزاء لطموحه العدائي الذي كان يرمي لـ « سلطنة العرب » . وعين مكانه أحـد أقربائه المدعو منيخر . ثم سرح سعدون بعد ذلك ورجع لمشيخته بعد ان أخذت منه التعهدات الشديدة . وفي أوائل ١٧٤١ م (١١٥٤ هـ) قام المنتفكيون من جديد فأحاطوا بالبصرة وافزعوا أهلها ثم حاصروا البلدان الاخرى ونهبوا القرى من القرنة الى النجف . فاستطاع يحيى آغا ، متسلم البصرة ، أن يحافظ على المدينة حتى انقذها في نيسان أحمد باشا بعد ان رجع بسرعة من حملة كان قد جردها على كردستان . وبدلا من ان يقاتل

---

(٤٣) دوحة الوزراء سنة ١٥٠هـ .

(٤٤) أوتر وهو المرجع المهم عن العراق الجنوبى فى هذا الزمن .

(٤٥) ابن محمد المانع ومؤسس اسرة السعدون من آل شبيب .

سعدون[٤٦] عقدت شروط معه ، فكان ذلك مشجعاً له على العصيان بدلاً من أن يكون زاجراً له • فحاصر البصرة بحيث لم يستطع أحد الخروج من سورها بسلام • ولم يسلم حتى وكلاء الشركات الانكليزية والافرنسية من طلبات مخجلة وتهديدات بالعنف • فبعث سليمان باشا بجيش للتأديب ، وعندما وجدهم هاربين الى البادية النائية دفعته رغبته في انتقام شخصي له بتعقيبهم بمسيرات سريعة • فدحر سعدون ثم قبض عليه وقطع رأسه ، فكان حادث قتل آغا مملوك لهـذا الشـيخ الباسل بدم بارد يذكر طويلاً فيما بعد • على ان تأثيره الحسن لم يدم أكثر من خمس سنوات • اذ قامت قبائل المنتفك في ١٧٤٧ م من جديد فكسرت السـدود واغرقت سور البصرة فأفزعت الاهالي أهوال الطاعون والغـرق والاشـتغال بـ (السخرة) • وما كانت الامور في الفرات الاوسط أحسن حالاً • فقد ادبت في ١٧٣٣ م (١١٤٦ هـ) فرقة من الجيش قبيلة قشعم ، وفي ١٧٣٨ م سار الكهية فمر بهذه المنطقة من جديد • وشغلا هو وسيده في السنة التي تلتها بأمور الشامية والبادية الغربية • وكانت الفوضوية قد ضربت أطنابها في ١٧٤١ في ضواحي كربلا والحلة ، فأعاد الامن الى نصابه سليمان باشا ، وكان قد أصبح حذقاً بهـذه الحملات •

على أن تاريخ العراق الداخلي في هذه السنين كان يتضمن أموراً أكثر أهمية من هذه الحوادث ، ومئات مما يشابهها من حوادث العصيان والتأديب • فقد ثبتت في الجنوب أمة أوربية جذور علاقاتها التجارية الى أمد طويل • ونشأت في كردستان سلالة بين الاودية فأصبحت قوية منيعة • واستطاعت أسرة واحدة في الموصل ان تبـز غيرها من الاسر فتمسك الباشوية بيدها ملكاً لهـا مـدة قرن واحـد •

---

(٤٦) ان هذه وغيرها من المناورات المريبة فى العراق الجنوبى أدت الى حكم عام (حسب رأي أوتر) بأن أحمد كان يستخدم سعدونا لاثارة القلاقل قصدا لأجل ان يثبت للسلطان ضرورة بقائه فى الحكم ويؤكد اوتر وهانوي انه لـم تجر حرب فى هذه الموقعة ، لكن صاحب « دوحة الوزراء » (سنة ١١٥٠ هـ) يذكر عن حرب فى الاهوار انتهت بعفو الباشا عن سعدون بعد ان بعث له ولده الاصغر للمفاوضة فى المعسكر

فكان وكلاء شركة الهند الشرقية قد زاروا البصرة من جديد في أوائل العشرة الثالثة من القرن ، وفتح معملها محلاً دائما له فيها • وكانت مشاكلها ـ زيادة على أوهام موظفيها ووفاة كثير منهم ـ ناشئة عن جشع الحكومة المحلية وتعصبها ، تلك الحكومة التي كانت غايتها الوحيدة الحصول على ربح مباشر من الاجانب أولاً وآخراً • فقد فرضت في ١٧٢٧ ضريبة مغيظه على خدام الشركة الايرانيين • وفي ١٧٢٨ م اوقف مترجم الشركة بدون سبب مبرر • وكان الحكام المتعاقبون يعطون الفرمانات أو يمزقونها متى شاؤوا ، وكذلك كانت تطلب الهدايا والديون وتفرض الامتيازات وتبدل الضرائب الكمركية لادنى حادث • وعندما هدد الايرانيون البصرة في ١٧٣٥ م[٤٧] ـ من دون نتيجة ـ لم يستطع وكيل الشركة التزام جانب الحياد الا بشق الانفس • وقد تكررت هذه الحال في حصار البصرة عام ١٧٤٣ م • واضطر الوكيل في كثير من الازمات التي كانت تحدث في رصيف الميناء الى استعطاف أحمد باشا في بغداد ليحول دون جشع المتسلم الجنوبي ، فكان استعطافه عبثاً في كثير من الاحيان • اما المعمل الهولاندي فقد استقام حتى سنة ١٧٥٢ م (١١٦٦ هـ) •

وحدثت في الموصل قبل وقوع الحرب (وفي الحقيقة كان ذلك اعتيادياً) فتن داخلية عنيفة • وكانت هذه تدور في ١٧٢٥ م حول شخصية المفتي الشهير علي أفندي العمري • وكان سبب هذا التصادم حسد الوالي له ، لانه كان يتمتع بنفوذ خاص به في المدينة • فاستشرى النزاع وانتشرت أحاديث الثلب والهجاء ، ثم تطورت الى مشاجرات ومصادمات • وبعد ستة أشهر ، كثرت خلالها السرقات وحوادث القتل ، اعيد السلم الى نصابه فتلته نكبات الوباء وهجمات الجراد • وظهر من بين هذه الاحوال المحزنة شخص يحمل اسماً شهيراً • فقد حدث في أواخر القرن السابع عشر ان استخدم في بيت الباشا مسيحي[٤٨] من الموصل اسمه عبدالجليل • وتتبع المعجبون به من بعده نسب الاسرة الجليلية فوجدوها تتصل باسرة حاكمة قديمة جاءت من ديار بكر الى الموصل في حدود

(٤٧) لم يعرف ذلك الا من رسائل وكيل الشركة الى غومبرون •

(٤٨) سليمان الصائغ (ص ٢٧٣) أنه يهمل وحده الاشارة الى ديانته ، وقد شوهد قبر عبدالجليل في الكنيسة مدة طويلة من الزمن

١٦٠٠ م (١٠٠٩ هـ) • وكانت سجايا عبدالجليل العالية ومواهبه ظاهرة من دون انقطاع في نسله من بعده • وكان ابناؤه في الوقت نفسه يتمتعون ـ كالعادة ـ بنفس الثقافة التي كانت عند مستخدمه • فعظم شأن جماعة منهم ، ان لم نقـــل كلهم ، ونشأوا على الاسلام • وقد برز اسماعيل ، وهـــو أكبـــرهم ، بسرعة ، فاندمجت له الثروة والشهرة بالقابليات التي عرفت لدى الجميع • وفي ١٧٢٦ م تقلد باشوية الموصل وقد تقدم في السن ، وكانت مدة حكمه القصـيرة معروفـة بالاصلاحات المختلفة وبنشاطه في الحرب • فتأصلت بذلك جذور الأسرة الجليلية بعد ان لم يقف بوجهها أي خصم مدة تزيد على القرن • وتسلم الحاج حسين باشا ، أكثر الجليليين شهرة باشوية الموصل في ١٧٣٠م تلك الباشوية التي اتيح له أن يتسنمها ثماني مرات •

وتلى تعاظم نفوذ الاسرة البابانية ظهور شخصيتين شهيرتين في أوقات سهل فيها نمو المآثر بسرعة • فقد تولى خانه باشا ، بن بكر بك ، الحكومة في قرهچولان في ١٧٢١ م • وعند احتلال اردلان نصب هو لحكمها ، وبقي أخوه خالد باشا وراءه ليصادق على توليه في سنجق بابان • وكان نفوذ الاسرة حينذاك يمتد من كركوك الى همذان ، ويختلف باختلاف قوتها • ويظهر ان حكم خانه في أردلان استمر سنوات ، ثم تولاه من بعده أبنه ، وكان يذكر الاثنان بكونهما من الحكام العادلين العقلاء • على ان تقدم نادر قلي في ١٧٣٠ م قد انهى سطوتهم في ايران • وحكم حكام غيرهم في شهرزور عندما احتلها الايرانيون (١٧٣٠ ، ١٧٣٣ ، ١٧٤٣ م) • وبالرغم من ان حكم هؤلاء الحكام الاجانب لم يكن طويلاً بحيث يقطع استمرار الحكم الباباني ، فان نشوء البابانيين المالين الى ايران قد بدأ في مثل هذا الوقت • وغدا الشاه وأتباعه على الحدود ملجأ للمدعين بالحكومة البابانية ومظنة أمل لهم • وقد قبـــل نادر نفسه أول هؤلاء المدعين وهو سليم باشا ، فنصبه في قرهچولان في ١٧٤٣م • وبقيت ولاية ايرانية سنة واحدة • ولذلـك فليس من العجيب ان نرى أحمد باشا في بغداد يساعد ، في آخر حملاته ، في اقصاء المرشح الايراني منهم خلال النزاعات الحاصلة بين سليم وسليمان باشا بن خالـــد •

وفي هذه السنين ازداد تصادم البابانيين وجيرانهم الشماليين في رواندوز ،

تلك الامارة الصغير التي مددت سيطرتها في ١٦٠٠م الى ما وراء فتحتها الشهيرة في سهل حرير • وحافظ بگات سوران في كوي على استقلالهم الى سنة ١٧٣٠م حين أصبحت على عهد خالد باشا الطويل من توابع البابانيين • وفي نفس المـدة نظمت العلاقات بين بك العمادية والاتراك • فقد حافظت اسرة الباحدينان ، التي كان يقدرها السلطان مراد كثيراً ، على منزلتها الخاصة بها مدة طويلة • غير أن أحوالاً غير مدونة أخبارها حدثت في هذه السنين فحدت أحمد باشا على أن يوفد كهيته فيحاصر العمادية ويأخذها ، فيعقد معها شروطاً بعد تأديب عنيف • ومنـذ ذاك الحين كان يرسل اليها من بغداد سنوياً بالفرمان وبخلعة الحاكمية • وكان أعظم حاكم من حكام العمادية بهرام باشا ، الامير الذي يحدثنا التاريخ كثيراً عن مآثر ذريته •

هذا وقد ذكر شيء كثير عن الحاكم[٤٩] الذي حكم العراق خلال هذه المدة الطويلة الحافلة بالتجارب والتبدلات والقلاقل • اما هنا فنقول انه لم يكن عظيماً بتفوق ، على أن تواريخ حياة من كان أقل منه شأناً تستوعب مجلدات تملأ عـدة رفوف • فكان يعتبره رعاياه اولاً ابناً لوالد شهير فعال وحاكماً ضرورياً للبـلاد مدى الحياة • وقد عبر اعداؤه عن عظمته المخطرة بتبديل لقبه بلقب « پادشاه » • وما كانت حاشيته مع خدمه وحراسه لتـدل على شيء أقل من ذلـك ، لهـذا استطاع أن يحافظ على أبهـة العثمانيين في المراسيم والاحتفالات عند مقابلته للدبلوماسيين الايرانيين • وبالرغم من أنه كان أمياً فقد كان يتذوق سماع الشعر• كما كان ذكياً ، متساهلاً رحيماً بالرغم من حسده وكبريائه وسرعة تهيجه أحياناه ولم يدون عنه أي عمل منالاعمال الهمجية ، وانما دونت عنه أعمال صفح ورحمة كثيرة • فكان بوسعه أن يتآخى مع الصياد أو الفقيـه أو التاجـر الانكليزي • وكانت أعمال الخير والاحسان التي قام بها لا تقل كثيراً عما قام به أبوه المسمى « أبا الخيرات » ، هذا ان كانت أعماله تلك لا تصل الى ما وصل اليه تبذير نادر في النجف • وكان يعد أول رياضي في البلاد لبراعته في ركوب الخيل والصيد ورمي المجريد • وكان سخاؤه نادراً في الباشوات ومعروفاً في بلاد يمدح فيهـا

---

(٤٩) المقصود هو أحمد پاشا بطبيعة الحال ـ المترجم

السخاء أكثر مما يعمل به، ومقنعاً في البادية التي يعد الكرم فيها أحسن الفضائل[٥٠] .
وقد أثبت أحمد باشا في تصرفه ، خلال سلطته المطلقة في الولاية الوسيعة ، على مؤهلاته التي قلما كانت تتوفر في الحكام الشرقيين . اذ كان صارماً من دون فتك ، متروياً من غير ضعف . وكان يطلب من جيشه الامبراطوري ، المخيف لاسلافه الباشوات ، الضبط والنظام كما كان يحافظ على سيادته بخلق قوة محلية فادية ، وبضربات شاطرة سريعة عند الشغب والفتنة . على انه كان أعظم عـدو للعـدل ولكن من دون طمع . ولم تصل أطماعه حد المبالغة بالرغم من حبه للشهرة والظفر وتعوده الحكم .

ولم يكن منزهاً عن الخطأ في علاقاته مع استانبول . فما كان يرسل من بغداد بالاموال الى العاصمة الا قليلاً ، أو ما كان يرسل بها البتة . وكان يرفض أحياناً مرشحي السلطان للوظائف . ولذلك ما كان يروق اولي الامر في الباب العالي اعترافهم بعدم امكان تبديله . وكان علي حاكم زاده ، خصمه اللدود الصدر الاعظم مرتين ، واحداً من حزب كبير في استانبول كان يعتقد ان أحمد باشا كان يتعدى بموقفه هذا حدود أحد الرعية التابعين . وكان يشاركهم في هذا من في العراق وايران أيضاً . فقد رويت فيما يختص به قصص عن وفود سلطانية كانت ترسل الى بغداد[٥١] فتختفي عن الانظار . ويقول بعض المطلعين ان الحروب والفتن العشائرية التي لم تنقطع في جنوبي العراق لم تكن الا من صنع يده ، وكانت بمقام حيلة مدبرة للاحتفاظ بأيالة البصرة[٥٢] . وقد ذهب مناوئوه بعيداً في الظن فتصوروا انه لم يكن يرغب في الانفصال عن الامبراطورية حسب بل كان يتواطأ مع ايران ليصبح تابعاً لها أيضاً . غير انه ، والحق يقال ، كان بامكانه الحصول على أكبر امارة لو أراد تبديل الولاء والطاعة للسلطان ، وهو والي بغداد وبطل

---

(٥٠) ان هذا السخاء مبني على أمور اخرى تجب الاحاطة بها (أوتر ج ٢ ص ١٨٥) وهانووي (ج ٢ ص ٢٣٤) . فقد كان المال الذى يصرف بسخاء من أموال الدولة ، وكان يجمع أيضاً من الغرامات المفروضة على القبائل ومما يستوفى (كما يقال) من اليهود وغيرهم من التجار

(٥١) راجع أوتر على الاخص (ص ٢٦٠) وكذلك هانووي (ص ٢٣٠) .

(٥٢) أوتر (ص ١٤٤ ــ ٤٧ ، ١٨٣) .

الحروب والتحصينات والحصارات الشهيرة من البلقان الى الهند ، والرجل الذي كان بوسعه في أي وقت من الاوقات أن يسلم كل شيء الى الشاه من ماردين حتى الخليج . وكذلك كان يروى ، عن علاقاته الشخصية بالشاه وعن اعجاب نادر العظيم ببسالته واقدامه ، عدد من القصص .

وقد كرس أحمد باشا حياته الطويلة للدفاع عن ولايته وصد ايران عنها ، ولذلك لم يقدم على أي عمل عام من شأنه أن يبعث الريبة في النفوس . على ان هذه الريبة كانت موجودة بشكل أمل عذب في ايران ، وبشكل خوف وخشية في استانبول . ومن الممكن تصور ان الباشا ربما كان يفضل أن يبدل تابعيته على أن ينقرض أو يمحى . ولم يكن الذين راموا هتكه وفضيحته على حق في تلقيبه بلقب « نظام الملك » ـ خائن شهير اشتهر في حملة نادر على الهند ـ لان الحقائق المدونة لا تثبت ذلك . كما انه برهن على طاعته للسلطان عندما نقل من بغداد في ١٧٣٦ م .

وقد حذا حذو أبيه في داخل العراق ، فاشتغل في توحيد البلاد . فكان أقرباؤه في زمنٍ ما يديرون أمور البصرة والموصل وكركوك . وكانت البصرة تابعة له مباشرة في كل شيء ، فاضطر الباب العالي الى المصادقة على هذا الترتيب بعد محاولة عكس ذلك مراراً . غير ان الموصل لم تكن راجعة له ، وانما ورث عن أبيه ماردين وحكم العمادية وكردستان الوسطى مباشرة ، ووطد دعائم الامن في سنجار . فتضاءلت أيالة الموصل أمام نفوذه هذا ، وقلما كانت ترد رغائبه . الا انه لم يعط كركوك الا قليلاً من الاستقلال . وكان تقلده القيادة العسكرية العليا مراراً ولمدة طويلة من الزمن مما سبب ان ينظر هؤلاء الى بغداد في أوامرهم وان يهدموا مبدأ المساواة القديم بين الولايات الاربع .

وتوفر لديه متسع من الوقت ، عند مغادرة نادر للعراق في المرة الاخيرة ، ليعيد شيئاً من النظام ويتذوق طعم الراحة وقلة العناء ، وليتهيأ للسنين الهادئة . على ان شيئاً من ذلك لم يكن . فقد سلم في حروبه مع الأفغان والصفويين والافشار ، وتوفرت للعراق ثلاثون سنة انعدم خلالها تخوفه من الشرق . وقام بالواجب الملقى على عاتقه ، ولم تطل سيرته الطويلة أكثر من سيرة خصمه العظيم نادر شاه الا بمقدار ستين يوماً . فقد توفي في حملته على سليم بابان ، فنقلت جثته الى بغداد حيث دفن الى جانب والده تحت قبة أبي حنيفة .

الفصل السابع

المماليك[1]

أبو ليلة

أظهر موت أحمد باشا الفجائي وضعاً في سراي بغداد لم يشر اليه هذا التاريخ حتى الآن الا قليلا • فقد أصبحت الفرصة مؤاتية للسلطان محمود ومشاوريه ــ بعد ان مات نادر شاه وشغلت ايران عن التهديد ــ بأن يعيدوا التوازن بين الولايات في العراق ، فيفصلوا ماردين والبصرة وينصبوا فيهما وفي بغداد الموظفين الموالين من العاصمة • فكان وقع هذه العزمة الجديدة في العراق شيئاً محتملاً ، اذا لم يكن غريباً ، لانه لم يتذكر فيه الايام التي مرت قبل ان يتولى والد أحمد باشا الحكومة الا المتقدمون بالسن في أيام حياتهم الاخيرة لكنها كانت بالنسبة الى الاقلية البوروقراطية من المماليك أمراً لم يكن بالحسبان • اذ لم يخلف أحمد باشا أبناً ولا حفيداً • غير انه كان قد ملأ قصره بالمماليك ذوي العيون السود والبشرة البيضاء ممن كان يضع جل اعتماده عليهم • وكانت اسرته لهم هي السيد والوالد وهي من جاء بهم الى الوجود •

وكان المماليك القوقاسيون قد عرفوا منذ أقدم العصور في تركية • اذ كانوا قد أسسوا في مصر الاسرة الشهيرة التي أزالها سليم الثاني عن الحكم واستعادت عزتها على عهد خلفائه من بعده • وقد ظهروا في مختلف الازمنة في سرايات استانبول والمدن الصغيرة الاخرى • اما في ايران فقد كان منهم من ارتقى المناصب

---

(١) المراجع عن ١٧٤٧ ــ ٧٤ ان أهم المراجع المحلية في الدرجة الاولى « دوحة الوزراء » وما كتبه ثابت في التركية • وأهمية « غاية المرام » تأتي في الدرجة الثانية • والكتاب الاول استند اليه جودة باشا فيما كتبه عن هذه الفترة في العراق كما استند اليه ثابت أيضاً وكذلك ما كتبه واصف افندي وهو المؤرخ الرسمي عن المدة ١٧٥٢ ــ ٧٤ بعد عزي ، ورجع اليه الفون هامر فيما كتبه (ج ١٥ ، ١٦) وكذلك هوار (١٤٨ ــ ٥٤) • أما مراجع الموصل فكما سبق ذكره • وأهم السياح الذين كتبوا هم أيفز ونيبور وبارسنز • ونيبور أحسن منْ كتب عن العراق في جميع الادوار من السياح •

الرفيعة بالرغم عن عدم أسلامه في بعض الاحيان • وكانوا عنصرياً من سكان منطقة تفليس التابعة لبلاد الكرج • على ان قسماً من الانسال القوقاسية الاخرى والعشائر الهمجية القريبة ـ اللاظ والاباظة وغيرهم ـ في موطنهم الاصلي كانت قد انضمت اليهم • وكان جميع هؤلاء من الفروع الفعالة القوية ، لا الغنية المسالمة ، المتشعبة من الاقوام القوقاسية • وقد برهنوا جميعهم فيما بعد على قابليتهم في الاضطلاع بالشؤون الجسام • لكن معظمهم تلوث بالرذائل التي منعت تكاثرهم في بلادهم الجديدة ، وقطعت دوام السلالة التي أسسوها في العراق •

ولما كان حسن باشا قد نشأ في بلاد العثمانيين وألم بدرجات الموظفين التي لا عد لها ، من الاحرار والمماليك ، فقد تمكن في أثناء حكمه الطويل في بغداد من اتقان الحياة في قصره على ذلك النمط • اذ وجد عند مجيئه الموظفين ، العامين والخاصين ، الاعتياديين الذين تربطهم الروابط الواهية • ثم وجد بلا شك قسماً من العبيد الجركس والزنوج • فبدأ يؤسس بالتدريج درجات متتالية من الخدم مرتبين على شكل جماعات ، فكان منهم الخواص وأمناء الصندوق ورجال المخزن • ولذلك كان بامكان شاب من هؤلاء أن يصبح ، بعد ترفيعه من صنف لآخر أو من درجة لاخرى ، شخصية من شخصيات السراي • ولما كان بهؤلاء حاجة لتدريب خاص ، كما كان يجري في العاصمة وكما تدرب حسن نفسه ، فقد دبر تجنيد الابناء وجمعهم في مختلف الجماعات والدرجات • فأخذ جماعة منهم من أبناء الموظفين الاتراك في العراق وغيرهم من أبناء العراقيين المعروفين ، الا أن أكثريتهم كانت تؤخذ من المماليك القوقاسيين الذين كانوا يزدادون بسرعة بدافع هذا الطلب الجديد لهم •

واستمر اتقان الـ « ايچ دائره سي » أي الديوان الداخلي بالتدريج • وكان شراء الكرج واستخدامهم أمرين غير محصورين بالباشا وحده • على أن تدريبهم الخاص ومزايا تعليمهم وتثقيفهم قد جعلت منهم موظفين مدنيين يمتازون على الاتراك والعراقيين الاعتياديين بكثير • وكان الكثيرون منهم أبناء أمهات مقدمات جميلات ، لان أسوق تفليس كان يمكن ان يشترى منها الرقيق الابيض بجنسيه • فتكاثروا بالتدريج لكن أقلية صغيرة منهم كانوا من تولد بغداد • وقد نمت ، في خدمة الباشا وخدمة ضباطه ، صلة قرابة وعلاقات تناسب العبيد والمعتقين على

الاخص • ولذلك كانوا يرتقون من الخدمة البيتية عند سادتهم الاماثل الى مجالي الحرية ـ أي الى حيث يساوون الغير بسرعة ، ويتفوقون على الجميع عدا سيدهم القديم • « فلم يكن من المستبعد عليهم أن يزوجوا بناتهم عبيدهم الذين كانوا يعينون أحياناً حكاماً في مختلف الاماكن • على أن شيئاً واحداً كان يطلبه السيد منهم ، وهو الوقوف بحضرته عند حضور أناس مجلسه »[٢]

وكان بامكان الاوربي أن يفسر لدرجة ما استئثار أكثرية من المماليك بالحكم ، أو قيام فئة فادية من أجرائهم بانقلاب ما • الا انه كان من المستغرب جداً له أن يرى المماليك المستجلبين من الخارج يتسلمون السلطة المطلقة في الولاية على مشهد من السكان وبموافقتهم تقريباً • أما في نظر التركي فان أهمية النسب كانت أقل من أهميته في أي بلاد من البلاد الاخرى ، فلم يكن النبل ولا المنصب وراثيين • ولذلك فقد ارتقى الكثيرون من أحط دركات الخمول الى أرفع المراتب • اذ كان جميع المسلمين (الذين دخل المماليك في زمرتهم بسرعة) متساوين بين يدي السلطان • وكان الرق ، في الوقت نفسه ، بين العراقيين يعني معنى مختلفاً عما نعرفه نحن • فقد كانت أحوال الرق في جميع العالم العربي ، وفي جميع الادوار ، يسودها التساهل وقد يحسد الارقاء على حظوتهم • وفي الاماكن التي ما يزال نظام الرق معمولا به اليوم يعتمد على العبد أكثر مما يعتمد على الحر ، وقد يكون العبد أكثر تأثيراً من غيره • ولما كان هو جزءاً من سيده فانه يعد لسانه المعبر عنه ، وموضع أسراره •

وكان بين الكرج الذين اشتراهم حسن باشا وتعهدهم بالتربية مملوك يدعى سليمان آغا • وقد حصل هذا المملوك على حريته بخدماته الجلى لابن سيده العظيم ، وبشجاعته التي أظهرها في الحصار • ثم تزوج عادلة خانم (البنت الكبرى لاحمد) سنة ١٧٣٢ م (١١٤٥ هـ) ، وغدا كهية للولاية سنين عديدة يتمتع بشهرة واسعة ما بعدها الا شهرة الباشا • وقد حببت قسوته ، التي أخضع بها القبائل ، شخصيته لسكان بغداد الذين كانوا يرحبون بالاستقرار • ولما مات سيده في ١٧٤٧ م كانت درجته باشا وميرميران ، بعد ان كان ساعد سيده

(٢) أيفز في ١٧٥٨ • وهو يقول ايضا « حدث ان ارتقى مملوك « عبد » لأحد صانعي الازرار بالبصرة فأصبح حاكماً عليها ، وبقي المملوك الحاكم متمسكاً بتلك التقاليد لسيده القديم » •

الايمن مدة خمسة عشر عاماً • وعلى هذا كانت تدل القـرائن بأجمعهـا على انه سيكون الخليفة المصطفى بعد سيده •

غير ان السلطان محمود ومشاوريه في استانبول كانوا على علم من هـذا التخليف المقصود ، كما كانت وفاة أحمد باشا ينتظرها الكثيرون • فقـد كانت لكثير من الناس بمقام أخبار سارة لانها كانت فرصة حان فيها رجوع العـراق الى الخضوع التام ، لا سيما وقد كانت الامبراطورية العثمانية في أوربة تتمتـع بهدوء طويل بدأ منذ عقدت معاهدة بلغـراد في ١٧٣٩ م • ولذلك صـدرت الفرمانات بتعيين والي ديار بكر ، الصدر الاعظم السابق ، الحاج أحمد باشاً والياً على بغداد ، وبتعيين قيصربه‌لي احمد (الذي كان ما يزال منتظراً في بغـداد) الى البصرة • ولما لم يكن من المناسب تخطي سليمان باشا ولا غض النظر عنـه فقد طيب خاطره بتعيينه لايالة آطنة ، فرحل اليها وعيونه ترنو الى بغداد •

وتولى باشا بغداد الحديث منصبه في أحوال لا تبشر بالنجاح • فقد كانت جبهة المماليك المتراصة ، وجماهير الشعب في بغداد ، تتمنى تعيين سليمان • ثـم أجل القيصريه‌لي سفره الى البصرة • ووجد الحاج أحمد عند سـفره لتأديب العشائر في الجنوب شعباً فاتراً ونظاماً منحلاً وخزينـةً خاوية على عروشهـا • فبادر بفرض ضرائب جديدة للحصول على واردات للخزينة ، الا ان ذلك كان سبباً لاعلان العصيان بين العشائر التي وجدت ان أمد إخلادها الى السـكينة قد طال ، وان دور الخضوع قد انتهى • وأخذ الانكشاريون يضجون مطالبين بأجورهم بصلافة ، فرفضت معاذير الباشا وبدأ الصخب واطلاق النار في الشوارع• فخضع لم طالباً أمهاله مدة ستين يوماً ليحير بتدبير المال اللازم ، فلم يتوفق لذلك وأعلنت الفتنة عن نفسها • ولم تجد تحفظاته نفعاً ، فهوجم السراي ونهب بعـد ان عمت الضجة والصخب واضطر للفرار الى الجانب الايمن • فأعلن الانكشاريون خلعه • وبينما كان الجميع ينتظرون أوامر السلطان في هذا الشأن تولى رجب باشا الولاية بالوكالة •

وأذعن اولو الامر في الباب العالي لطرد مرشحهم من ولاية بغداد ، فنقلوه الى أيشيل التي نقل متسلمها الى الموصل ثم نقل الحاج حسين الجليلي باشـا من الموصل الى البصرة ، كما نقل القيصريه‌لي من البصرة الى بغداد • وبعث السلطان

بشيء من المال لدفع رواتب الانكشاريين في بغداد ، بعد ان جمعه من استانبول ومن أملاك أحمد باشا[3] . فهدأت العاصفة في بغداد لكن الحاكم الحديث ، الديبلوماسي البلاطي ، لم يكن بوسعه ان يعمل شيئاً تجاه معربدي القلعة . وفي نهاية ١٧٤٨م (١١٦١ - ١١٦٢هـ) أظهر استياءه[4] منهم بعزل ترياكي باشا ، الضابط الانكشاري القديم ، وعين في مكانه شخصا آخر ، وبذلك أعاد شيئاً من النظام خلال الاشهر القليلة التي حكم فيها .

وهنا كان الوضع مشابهاً تماماً للوضع الذي حصل ما بين تحويل أحمد باشا في ١٧٣٦م (١١٤٩هـ) ورجوعه بعد سنتين . فقد حاول الحكام المتعاقبون ، الذين كانوا يجهلون الشؤون المحلية ولم يظهروا كفاية بعد اولئك الحكام الشهيرين ، مدة من الزمن ان يبعدوا المصير القهري الذي وقع فيه العراق في أحضان السلالة التي تأصلت جذورها هناك . وعلى هذا حاول حكام أربعة تثبيت حكومة السلطان في المدة الواقعة بين وفاة أحمد باشا وتولي صهره الحاكمية فلم يفلحوا بذلك . وعلى الشاكلة نفسها خاب اسماعيل وطوپال محمد منذ ١٧٣٦ الى ١٧٣٨ . وكان سليمان باشا وهو في آطنة يلح مطالباً بالعراق ، وكانت مطالبته تزيد تأثيراً بخيبة من حكم في مكانه من بعده . وقد ورطت مكايده في العراق الباشوات وأحرجت موقفهم . ولذلك أضطر القيصريه‌لي ، قبل نقله ، لقطع رأس كهيته بتهمة التآمر مع سليمان . اما سليمان فقد التزم بدفع بعض ديون الحكومة من ماله الخاص ، وبتهدئة عشائر المنتفك وكعب المتمردة ان عهدت اليه ايالة البصرة . فقبلت معروضاته ورفع الى درجة وزير ، ثم ترك آطنة فوصل الى بغداد ودفع ما التزم به من الدين . الا ان العداوة بين سليمان وترياكي ظهرت في الحال ، وتمكن سليمان قبل أن يترك بغداد ويتوجه جنوباً الى البصرة من أن يلم

---

(٣) بعث مصطفى بك أحد رجال الحاشية فى الباب العالي الى بغداد كالعادة لمصادرة ممتلكات أحمد باشا .

(٤) يذكر الفون هامر (ج ١٥ ص ١٤٧) ان « مجرد شيوع ترشيح القيصريه‌لي لبغداد دفع أمير العرب ، والد زوجة احمد باشا ، الى مهاجمة بغداد ومحاصرتها بالنظر لعدم ترشيح سليمان لها » . ويستبان من هذه الرواية أن أحمد باشا كان قد تزوج امرأة من القبائل .

شعث أتباعه وأنصاره القدماء في بغداد بصورة شبه علنية .

فتبينت في الحال لدى الباب العالي مزاياه الممتازة . إذ اخضع القبائل بحملات سريعة عرف بها ، وقادها الى الطاعة التي لم تعرفَ منذ أن ترك العراق الى آطنة . فدانت له قبائل المنتفك وقبائل بني لام وعشائر الحويزه وعربستان ، وقضى على عصابات بني كعب في منطقة الشط . ثم أوفد الرسل المسرعة بالظفر من البصرة الى البوسفور . الا ان بشائر الظفر هذه سرعان ما ارسل في مقابلها من بغداد باخبار مفادها ان سليمان باشا انما توفق لذلك تواطؤاً مع القبائل العاصية هناك . ولما كان أولو الامر لم تغرب عن بالـــهم بعد أيـــام حســـين ويحيى أرسل بالاوامر الى باشوات سيواس وديار بكر والموصل وحلب والرقة ومرعش وماردين للسير الى ايقاف الثائر عند حده . غير ان سليمان لم يقنط بل أكد براءته وألح على الباب العالي بذلك . فأوقف سير الجيش المؤدب ، ثم ارسل رسول ملكي لتدقيق النظر في الامر . فما وصل الرسول حتى برأ ساحة سليمان ، ولم ينتج هذا الا نتيجة واحدة . فقد صمم ترياكي على مقاومة دخول عدوه سليمان الى بغداد بكل ما أوتي من قوة . فتحرك سليمان من البصرة نحو الشمال حتى وصل الى حسكة حيث وجد معاضدة بالمال والرجال من علي آغا الذي سيذكر عنه أكثر من هذا فيما بعد . وسار ترياكي الى الحلة مع أربعة عشر الف رجل ، فدهمه سليمان بثمانمائة مقاتل . ولم تسفك في هذا الهجوم الدماء إلا قليلاً لان انكشاريي بغداد انقلبوا بالجملة مع سليمان ففر ترياكي وحده الى بغداد التى وجد أبوابهـا موصدة في وجهه . وبذلك دخل الكرجي المعتق المدينة التي بالغت بالترحيب به . وأصبحت بغداد والبصرة مع ماردين وجميع ممتلكات أحمد باشا تحت أمرتـه لوحده .

وقد استقام في هذا المنصب العظيم مدة اثنتي عشرة سنة . وكان منذ أول يوم توليه هذا المنصب معروفاً لدى الجميع ، ومهيب الجانب . ولذلك لم تحدث الفتن أيام حكومته إلا قليلاً . وكان في معظم حملاته السريعة الحاسمة (وكان تخفيه في الليل وخروجه قد جلب له اسم ابو « ليلة ») [٥] هو المعتدي . ولـم

---

(٥) يذكر صاحب دوحـة الوزراء انه كان يسمى أيضاً « أبو سمرة » و « دواس الليل » وسمع نيبور انه كان يسمى « سليمان الاسد » .

يتهاون بأي تعد قبلي كان يحدث ، ولم يعرف عنه انه فشل في القضاء على مثل هذه التعديات ، بل كان يخرج فيعود غانماً مظفراً من كل حملة سريعة يجردها. ولا غرو فقد ألف هذه الصعاب وتعودها منذ ان كان كهية يقود الحملة تلو الاخرى طوال المدة التي بين سنة ١٧٣٣ م (١١٤٦ هـ) و ١٧٤٧ م (١١٦٠هـ) . ولم تخل أيام باشويته من حملات كهذه في كل بقعة من بقاع ولايته . حتى اننا يمكن أن نقول ان الحكم التركي في العراق كان في عهده على أحسن ما كان عليه من التدبير ، والاغتنامية القاسية ، والاطلاع التام على الامور ، والتنفيذ الحازم ، والحصول على النتائج المحدودة المباشرة . على ان ذلك كان مصطبغاً بالمكر لا بالحكمة . فكانت تعوزه المثل العليا ، ولم تكن تسيطر عليه الا بعض مبادىء الاسلام والانسانية . كما انه كان فاقداً لنظم الحكومات ونظرياتها الاساسية ، ومشوباً بكثير من الطيش وسوء الاستعمال والاجحاف . على ان حالة هذه لم تؤثر في سطوته وتلقي الناس له باعجاب واستحسان عند القضاء على المشاكل العديدة من غير بعد نظر . ومن وراء هذا كله كان سليمان « أبو ليلة » الحاكم القوي ، الناجح المهيمن على ولاية مترامية الاطراف صعبة المراس . ولم يعكر صفو مملكته ظهور أي عدو كان .

وكان البعض يعيرونه بسيرته الخاصة المطبوعة بحقارة عنصريته ، ولذلك كان هدفاً لنظرات العطف من جهة والسخرية من جهة أخرى . لان حياته البيتية ما كانت الا « حكماً في ضمن حكم » ، وكان له بسبب ذلك المرتبة الثانية في بيته الخاص به . فقد كانت سلطة زوجته عادلة خانم أخص الاحاديث في بيوت بغداد . وكانت هي تستقبل في بيتها الزائرين من الجنسين ، ثم وسعت تدخلها فأوصلته لشؤون الدولة ، وأسست جمعية منظمة لاتباعها المقربين الذين كانوا يعرفون بشارات حريرية خاصة بهم . يضاف الى ذلك أنها كانت صارمة في امور اسبقيتها الشخصية . فقد ذكر في غير هذا المقام مشاركتها في قتل سليم بابان ، وعداوتها المرة لعلي باشا خلف زوجها . كما يعتقد ان قتل زوج اختها عائشة بريئاً كان بتحريض منها .

اما استانبول فقد كانت علاقات ابي ليلة حسنة بها على ما يظهر . إذ كانت ترد في كل سنة مواكب « القبوجيين » حاملة فرمانات الحاكمية التي كان يبعث بها السلاطين ، واحدا بعد آخر ، مضطرين لانهم عجزوا عن الاهتداء لغيره في

هذا المنصب • وفي سنة ١٧٥٢م (١١٦٦ هـ) أهدى اليه سيده هدية من أنواع الفرو الفاخر لنجاحه في حملة سنجار ، وارسل كذلك بهدايا أخرى لكثير من رؤساء القبائل من أتباعه • والواقع هو انه قد برهن في كثير من واجباته على انه من الولاة غير المخلصين • كما كان غير قابل للتبديل ولا التحويل • ولم يبعث بالواردات لسيده ، وانما كانت نفقاته السنوية على الجيش والتحصين والحكومة بصورة عامة تزيد على واردات الحكومة من الضرائب • وكانت تشيع حسب العادة قصص عديدة عن مكايد السلطان له • فكان يهمس بأن رسلاً متعاقبين كانوا يتوجهون من استانبول مأمورين بقطع رأسه غير ان رؤوسهم كانت تقطع بدله •

وقد ازداد على عهد ابي ليلة استخدام الكرج المعتقين في الوظائف المهمة ، وبدأ سيل المماليك يتدفق بزيادة من تفليس في بلاد الكرج الى بغداد ، لان حاكمها كان منهم • ثم احكمت ماكنة تثقيفهم -ربيهم ، فكان مائتا صبي[٦] محررين للتدريب المنتظم • وكان المدرسون من مختلف الدرجات يقومون بتعليم القراءة والكتابة والفروسية والسباحة • وكان الشاب المتخرج في هذه المدرسة يصبح من المرشحين لوظيفة من وظائف الـ « كيديكلي » ومن ثم يجوز له أن يكون من أغوات الحاشية • ولم يكتف أبو ليلة بتشكيل قوة صغيرة يعتمد عليها من المماليك المدربين ، بل أكثر من استخدامهم في وظائف الحكومة فكان منهم الكتبة والجباة وقواد الحاميات كما كانوا في حاشيته أيضا • فأدى ذلك ليس لحرمان الاتراك حسب بل لحرمان الاسرة الكبيرة في بغداد حصتها المهمة في شؤون الحكومة أيضا • وليس من الممكن ان يذكر ما ولده ذلك الحال من التذمر والسخط في دواوين البغداديين ، لكن ذلك ولد شعوراً ظهر علانية بعد ثمانين سنة في مضادة المماليك •

وقد اضطر سليمان ، عند أول توليه الحكومة في بغداد ، ان يترك البصرة للقبطان • وكان يؤمل ان هذا الضابط سيقاوم تعين غيره في مكانه بعد ذلك ،

---

(٦) ان نقطتين متعلقتين بالموضوع غير واضحتين للمؤلف ، الاولى أكان هناك مدرسة واحدة أم عدة مدارس ؟ ، والثانية : هل كان هذا التعليم مختصاً بالمماليك ؟• فمن المحتمل أن أقلية صغيرة من الترك والعرب كانوا يشاركونهم فيه•

الا ان المخاوف لم تتحقق ، فنصب بسلام متسلم في أوائل ١٧٥٠ م (١١٦٤ هـ)،
وبعد سنة جازف هـذا المتسلم (أو القبطان) باعلانـه استقلال البصرة وضمن
لنفسه ما وعد به من تأييد جماعة من رؤساء المتنفك ، ثم حصّن ضواحي المناوي .
وكانت في هذا الزمن معظم قوة أبي ليلة في كردستان وعندمـا رجعت أرسـل
الكهية مع ثلة من الجيش الى البصرة . ولما كان المتنفكيون ما يزالون يذكرون
بطش أبي ليلة بهم قبـل سنة اختفت قواتهـم بمجرد ظهور القوة ورجعت الى
منازلها . فزحف الكهية عـلى البصرة ، وأعطى مصطفى باشا مجالاً واحـداً
للتوبة ، ثم طارده مـن المدينة واستولى عـلى اسطوله النهري بأجمعه . فالتجأ
العاصي الى بوشهر . وعهدت البصرة الى ابراهيـم باشا ، وانتهـى أمر العصيان
الجنوبي غير المثمر .

وبقيت قبائل دجلة هادئة منذ تأديبها في ١٧٤٧ . كما ظلت قبائل المتنفـك
التي كان يرأسها عبدالله ـ أخو سعدون ـ تحت اليد . ولم يبق الا بنو كعب ،
الذين لم يعاقبوا من قبل ، يقلقون ويهددون . فقـد بقي ولاؤهم للايرانيين أو
الاتراك مبهماً ، ولم يدفعوا الجراية للفريقين كما لم يحترموهما . وفي العشرة
السادسة من هذا القرن كان رئيسهم الشيخ سليمان شيخاً نشطاً ذا فكر ثاقب .
وقد بدأ ينشيء اسطولاً في حدود سنة ١٧٥٧م (١١٧٠هـ) ، فأصبح ذلـك
الاسطول في ١٧٦٠م يضاهي السفن التركية البالية التي لا تتحرك . وبلغ عدوانه
وسلاطته في ١٧٦١م (١١٧٥هـ) حداً استدعى معه التأديب العاجل . فأمر أبو
ليلة متسلمه في البصرة بالهجوم . فبدأت الحركات ولكن من غير ان يضغط
فيها ، وبذلك اشترى الشيخ صلحاً سهلاً .

وكان نفوذ المناء على حسكة ضئيلا ، ومحتقراً في بعض الاحيان ، الا
انه على كل حال كان أكثر من لاشيء . فقد أنتج نفوذ أبي ليلة القوي ، ووجود
أغا حازم فوق العادة في الحسكة ، شيئاً يشبه الحكومة في منطقة الفرات خلال
تلك السنين أي حكماً واهياً صورياً لدرجة غير يسيرة ، لكنه أحسن بكثير مـن
الازدراء والمقت اللذين كانت تبديهما قبائل الاهوار في الصادة لحكم سلطانها .
فكانت البلدان الصغيرة والقرى القصبية تدير شؤونها بالطرق المألوفة من جمع
الخوة ، وأخذ الثار والخضوع العام للعرف العشائري الذي تأصلت جذوره.

الطليقة الحرة في البادية والاهوار على مدى العصور • وكان الشيوخ مرتبطين في الحكم بأقرب آغا ومسؤولين بين يديه عن سلوك قبائلهم تجاه الموظفين والعابرين للبلاد ، وكانوا هم الذين يجبون الضرائب و « الكودة » في ضمن ديرتهم • وكان هذا الشكل الحكومي يعتمد على قوة الحكومة في توطيد دعائم الامن والنظام وتعقيب العابثين بضربات شديدة عاجلة • كما كان أبو ليلة في بغداد مستعدا لمثل هذا على الدوام •

والحق ان عدم احتياج الحكومة لتجريد حملات بنطاق واسع على القبائل ، الا في الندرة ، طوال الاثنتي عشرة سنة من حكم ابي ليلة كان فضله راجعاً اليه • وسوف نرى في مقام غير هذا كيف جردت حملات مهمة على كردستان وسنجار في السنتين الاولى والثالثة من عهده ، وكيف سحقت في أوائل ١٧٥٦م (١١٧٠هـ) فئة من شمر تصدت للغزو فكان سحقها شيئاً يذكر في مدى سنين طويلة ، وتلته مجاعة[7] مبيدة في تلك السنة • وكانت وطأة المجاعة على أشد ما يكون في اراضي « الديم » من بلاد آشور • فقد خاب الزراع في ديار بكر والموصل في حصد زروعهم ليس مرة واحدة حسب بل مرتين • وامتدت مخالب المجاعة جنوباً فكادت تصل الى بغداد ، فتقاطرت الى الجنوب الاف من الجياع يحملون معهم البؤس والفاقة والجرائم • ثم أمر اثنا عشر ألف ايراني من المقيمين ببغداد بأن يتركوها قبل ان يشتد القحط بيد ان هذا الامر لم ينفذ لانتفاء الحاجة لذلك وانتهاء الازمة • فأصبحت الموصل واهنة القوى لكنها منتعشة بعض الانتعاش في ١٧٥٧م (١١٧١هـ) • وكانت ديار بكر ما تزال تعاني أشد حالات النزع •

علي وعمر

توفي في الرابع عشر من أيار ١٧٦٢م (١١٧٦هـ) سليمان أبو ليلة عن عمر يناهز الثماني والستين سنة ، ولم يترك ما يتضح منه تعيين خلف له • وعاش بعده ضباط سبعة كان قد نصب كل منهم في وقت ما في منصب الكهية • وكان أحد هؤلاء عمر آغا زوج عائشة خانم ، وكان الآخر علي آغا (فارسي المولد) الذي ساعد مساعدة جليلة في تعيين أبي ليلة للباشوية من قبل وتولى سناجق عديدة

(٧) ايفز ص ٢٥١ ، ٣٥٤ ، ٣٢٩ •

منها سنجق البصرة بعد ذلك • فسلمت الولاية موقتاً الى الدفتر دار عثمان العمري بصفته قائم مقام ريثما ترد أوامر السلطان بالتعيين ، ومن بين تلك الاوامر تعيين أمين باشا الجليلي (الذى كان فى كركوك) محافظا لبغداد • وما كاد يصل الى العاصمة حتى وصل الفرمان بتعيين علي آغا للايالات الموحدة وبترفيعه لرتبة وزير، وربما كان تعيين علي بتأثير الصدر الاعظم راغب باشا أو ببذل المال • فترك الباشا الجديد البصرة وخيم قريباً من الحلة ينتظر وصول فرمانه ، ثم دخل بغداد متولياً عنها • ورجع أمين الى كركوك • وقد صودرت املاك الدفتردار ، الذي لم يطغ تدينه على نقاط ضعف مهنته ، كما صودرت أملاك أبي ليلة ، وحبس الدفتردار نفسه •

وبدأ الحكم الذى تسلمه باستحقاق ، ان لم نقل اشتراه ، كما كان يبدأ به غيره حسب المعتاد • فقد أعدم أكثر الانكشاريين شراً وأقصى كثيراً غيرهم • وفي ١٧٦٢م (١١٧٦هـ) حدث هياج عسكري اضطره ان يترك بغداد فيخيم فى الجانب الايمن من دجلة • غير ان الثائرين تنازعوا بينهم ، وبعد أيام قلائل تمكن من الدخول الى المدينة ثانية ، ومن اعادة النظام الى نصابه • وقد كان بالرغم من شخصيته القوية لا يملك الخصال التى يستوجبها منصبه • فما زالت عادلة خانم موجودة في بغداد ، ولم يكن بوسعها ان تتحمل الحكومة التى يرأسها خادم آخر من خدام أبيها الا بشرط ان يشاورها فى كل شيء • لكن علي باشا وقد عرفه الخانم صبياً من أصل فارسي مجهول تصدق والدها عليه فرباه ، فشل فى اتباع هذه الطريقة • وعلى هذا دفعها سخطها المفعم بالحسد الى ان تكثر من الكيد له ، ذلك الكيد الذي كان الباشا معرضاً له على كل حال •على ان سخاءه وظرفه قد حبباه للناس ، لكنهما لم يمكناه من الوقوف امام سيل الفوضوية الجارف الذي أخذ يجرف فى طريقه كل شيء حتى وصل الى القبائل والحاميات معاً ، ولا فى وجه مؤامرات الناقمين عليه شخصياً والدعاية الماكرة التى كانت تبث عن ايرانيته التى لا تجعله الا شيعياً خائناً •

وعلى هذا كانت مدة حكمه القصيرة ملأى بالحوادث • فقد ذكرت حملته الكبيرة الاولى على البابانيين في مقام غير هذا • وفى خريف ١٧٦٣م (١١٧٧هـ) استولى على منطقة بني لام فاخضعهم واستوفى منهم غرامة جسيمة • وعند زيارته للبصرة ، وكان يعرف مشاكلها عندما كان متسلما فيها ، وجد ان بني كعب الذين

كان يرأسهم الشيخ سليمان ما برحوا مستقلين ، ومستمرين على السلب والنهب • فطلب من المقيم البريطاني ، في مقابل مساعدته عند السلطان ببعض الامتيازات ، ان يسعفه بمعونة سفن الشركة له لضرب الاسطول الكعبي • فكانت مصالح الشركة نفسها هي التي اقنعت المقيم بارسال سفينتين ، وعندئذ اذعن الشيخ مفضلاً الصلح على متابعة القتال ، بعد أن أفزعه تقرب جيش الباشا منه •

وفي ربيع ١٧٦٤م (١١٧٨ هـ) جردت الحملة على الخزاعل حيث كان (كما في دجلة) الهدوء الطويل الذي وطد دعائمه أبو ليلة قد انتهى • فلم ينجز علي باشا في هذه الحملة شيئاً ، حتى انه (كما قيل) دحر أيضا • فوصلت أهازيج النصر التي كانت ترددها قبائل الاهوار الى بغداد • وسرعان ما أشاع الكهيات المعادون الدساسون و « الام ـ الملكة » عادلة ان قوات الباشا الايراني الاصل ، القاسية على الاكراد السنيين ، كانت قليلة ورحيمة تجاه الخزاعل الشيعة • فهمس المرجفون باسم الصوباشي ، ومات على حين غرة ضابط كبير • فنطقت الخانم بكلمة « السم » وأضافت الى ذلك قولها « أنه لن يكتفي بحياة شخص واحد » ، فزاد الخوف الخصومة وتعالت نيرانها التي لم تستطع اخمادها الهدايا الكثيرة التي بذلها الباشا ، ثم تسربت روح الفتنة الى الخارج ، وكان رأس الناقمين عمر باشا • وبعد ان أخذوا القلعة بيدهم أخذوا يقصفون السراي بالقنابل • على ان حذق علي ولطفه اناله نصراً موقتاً • وسرعان ما اتبع الامان والتفاهم اللذين اعلنهما بمعاقبة رؤساء الانكشاريين عقاباً صارماً • فكلفه هذا الخطأ تجدد الثورة واشتدادها ثم انتشارها ، وقد أقسم الكهيات يمين الاخلاص لعمر • ثم استحكم كل شارع ونصب كل مدفع في غرف القصر وحجره • ولما أيقن الباشا بأنه قد اضاع كل شيء انسل من مقره متنكراً • غير ان جاسوساً من الجواسيس ظفر به ، فسحب الى السجن وفيه أعدم ، وهو الشجاع السخي المهذب الذي ذهب ضحية للحسد والضغائن الشخصية •

وبينما كان الجند والاهالي راجعين الى بيوتهم في المدينة التي خلدت الى السكينة انعقد ديوان كبير لانتخاب الخلف • فكانت مؤهلات عمر والاحوال المحيطة به هي الحاسمة • فقد كان قائد الثورة الناجحة وزوج أبنة سيد المخاصمين أجمع • فدبج الديوان كتابا الى السلطان محشواً بالاكاذيب الملفقة عن الباشا

الأخير ، يسترحمون فيه تعيين عمر . فلم يجد السلطان مصطفى الثالث بداً من مصادقتهم على ذلك ، وتولى عمر باشا الحكومة في ربيع ١٧٦٤م (١١٧٨هـ) .

ومرت بين تعيين عمر باشا وارتقاء سليمان العظيم حقبة ستة عشر عاماً . فكانت هذه المدة متألفة من سنوات عشر من الحكم الضعيف السلمي الذي لم تحدث خلاله غير الحروب القبيلية وتضاؤل النفوذ الحكومي ، ومن خمس سنوات كان يسود فيها النضال بين حكام بغداد المعرضين للاستبدال بسرعة الذين لم ينفعوا بشيء ، بينما كانت البصرة تعاني حصاراً طويلا تلاه احتلال أجنبي . ومن سنة التحرر من الحكم الايراني والحكم الداخلي السيء معاً ، بينما كان الباشا العظيم في طريقه من الاسر الى تسلم الحكم في البلاد . وكانت منزلة الچراكسة المعتقين من أخص خصائص الحكومة في بغداد بعد أن زاد عددهم واستتب الاستقرار العام بنفوذهم . وقد بلغ تكاثر هؤلاء المماليك درجة أصبحوا معها يستخدمون حتى في الوحدات الحكومية التي لم تكن قد أصبحت تابعة لبغداد رأساً بعد ، ولذلك ما كانت العيون لتنظر الى غير الباشا المملوك في بغداد . وخابت محاولة السلطان في أقصاء هذه السلالة كما خابت منْ قبل ، فقادت أعظم المماليك قاطبة الى منصب حسن باشا .

وقد حكم عمر عشر سنوات كانت سلطته خلالها تأخذ بالتضاؤل . فأخذ على عاتقه في أول سني حكمه واجب تهدئة القبائل . ولما كان شيخ الخزاعل متمادياً في مناوأة الحكومة جرد عمر باشا أولى حملاته عليه . فدمرت لملوم وهي المنزل الرئيس وعين شيخ رشحته الحكومة ، ثم أعدم عدد من الرؤساء . وفر الشيخ حمود ثم ظهر ثانية وأعيد للمشيخة ، بعد أن أعطى العهود التي لا قيمة لها بتحسين الحال . وكان تدبير أمر بني كعب أصعب من ذلك . فقد تآزرت في الحركات عليهم المجهودات البريطانية والايرانية أيضاً . وفي ١٧٦٥م (١١٧٩هـ) دبر الوصي على عرش ايران ، كريم خان ، حملة مشتركة عليهم . الا ان القوات التركية تأخرت عن اللحاق بالميدان في الوقت المضروب فتمكن الشيخ من النجاة والخلود الى السكينة موقتاً . وقاد بعد ذلك متسلم البصرة رتلا مستقلا من الجيش في الجانب الايمن من النهر . على ان الهجوم كان قد بدأ من جانب الشيخ سليمان ، وكان قد استولى على ثلاث سفن من سفن القبطان ، ثم

اشترى الصفح عنه في الحاضر والمستقبل بمبلغ زهيد • لكن شيخ كعب لم يكن وحشياً ساذجاً ، فقد التفت الى الفريق الثالث الذي لم يشمله التفاهم هذا مع الترك • فاستولى على سفن بريطانية ثلاث واحتفظ بها بعد أن سرح ضباطها • وعندئذ ارسلت حكومة بومبي ، وقد أغاظها الحادث كثيراً ، اسطولاً مؤلفاً من ست سفن ، وكان ذلك في كانون الثاني من سنة ١٧٦٦م • ثم وصل من بغداد في الصيف محمود آغا ، كهية عمر باشا ، مع قوة من الجيش • فكانت أول حركات الحملة المشتركة مفجعة • فقد أحرقت سفينتان بريطانيتان وتسع سفن تركية ، ثم صد هجوم من البر • ورجعت في الاخير قوات الفريقين بعد أن تسلمت من كريم خان كتاباً يناشدها فيه أن تنسحب من الاراضي الايرانية • ولم يثأر لهذا الهجوم الكعبي على السفن ، في الأوان ولا فيما بعد ، لكن الضغينة تلاشت بالتدريج •

وفيما عدا الحملة نصف الجدية التي وجهت على عبدالله في المنتفك سنة ١٧٦٩م (١١٨٣م) ـ لاسباب اعتيادية ، ولكن تفصيلاتها ونتائجها غامضة ـ لم يدون شيء عن حملات أخرى قام بها عمر باشا في جنوبي العراق • غير أن نفوذ حكومته كان يقل تدريجياً • اذ فقد حتى قدرته على عزل الشيوخ الرسميين وخلقهم ممن كان أسلافه يحكمون العشائر بواسطتهم ، وكذلك قلت قيمة فرامينه شيئاً فشيئاً • وغدت الحكومة لا تأثير لها بالكلية من القرنة الى حسكة من جهة الفرات والى منطقة زبيد من جهة دجلة • وغدا الدس ، الحقيقي أو عن الشبهة ، موجهاً على الباشا • وفي عام حملة المنتفك اوقف عبدالله بك الشاوي[8] فجأة ثم

---

(٨) ان الذي ذكره ياسين العمري في « الدر المكنون فى المآثر الماضية من القرون » لحوادث سنة ١١٨٣ من تاريخ العراق هو قوله

« وفيها عصت عرب البصرة بنو لام والخزاعل فسار اليهم بالعساكر والي بغداد الوزير عمر باشا وحاربهم وقتل منهم جماعة ونهب أموالهم وأغنامهم وجمالهم وعاد » •

وقال في اخبار الشاويين :

« وفيها غضب والي بغداد الوزير عمر باشا على الامير عبدالله بك الشاوي وقتله • ثم قتل ولده سلطان باشا وأقام ولده الاكبر الحاج سليمان مقام أبيه ، وكان المترجم من الاجواد الجياد له صدقات وداره محل الضيوف » « م• ج » •

شنق ، وهو من اسرة مشيخة العبيد الكبيرة ومن وجوه بغداد حينئذ فجمع ولداه سليمان وسلطان قوة من العصاة ثم قطعا كل طريق تؤدي الى المدينة • فساق عمر باشا قوة من البصرة الى الدجيل عليهم فقطعت مسافة عشرين مرحلة في ثمانية أيام • فشتت معركة قصيرة شمل العصاة ، وفر سليمان • اما سلطان فقد قبض عليه وقتل في محضر من الباشا ، وكذلك قتل غيره • كما أقصي آغا الانكشاريين الى كركوك وشنق • وزيادة على الفتنة والشغب ، ظهر نفوذ جديد في ديوان الباشا ببغداد فأدى ، لدرجة ما ، الى انحلال الامور في أيامه الاخيرة • فقد استطاع رجل من أصل فارسي حقير ، يدعى محمد العجمي (عجم محمد) أن يستحوذ بالكلية على الباشا الضعيف • فكان يستخدم جميع فنون « القيادة » ويصرّف نفس سيده بأخس العواطف ، وبذلك تمكن من الدخول الى أجل المجالس ، والحلقات • فغدا نفوذه ممتازاً عند عمر •

فبمثل هذا الضعف وبمثل هذه الخيبة في الحكم كان المملوك المتق عمر وبينما كانت الحكومة على عهده في أواسط العراق وجنوبه آخذة بالانحطاط والتدني شيئاً فشيئاً كانت الموصل والولايات الكردية تكوّن تاريخها الخاص الذي طالما عرفت به • فقد كان الدفاع المجيد الذي دافعت به الموصل عن نفسها من أخص الحوادث التي عرف بها عهد خامس باشوية تقلدها الحاج حسين الجليلي • وفي ١٧٤٧م (١١٦٠هـ) نقل منها ثم رجع اليها ثانية بعد سنة • وكان خلفه التالي محمد الترياكي ، الذي عين اخيراً لبغداد ، وطرده منها أبو ليلة • وفي عام ١٧٤٩م رجع الحاج حسين للمرة السابعة • ومما يذكر هنا ان الحملة التي جردها أبو ليلة سنة ١٧٥٠م على بلاد الاكراد ساعدته فيها قوات الموصل وعاضدته في القيام بأعبائها • وبعد سنين ثلاث استدعت غزوات اليزيديين وعنفهم في جبل سنجار تجريد حملة واسعة النطاق عليهم • فقد جاء ابو ليلة بقوة عظيمة الى الموصل ، وعاضده في حملته هذه أمين باشا بن الحاج حسين بخبرته واخلاصه •

وعين امين باشا بتأثير أبي ليلة لحاكمية الموصل ومن ثم عين الى كركوك • وفي ١٧٥٨م (١١٧٢ هـ) تعين الحاج حسين[9] في الموصل من جديد حيث تبّين

---

(٩) قول المؤلف « وفي ١٧٥٨ تعين الحاج حسين في الموصل من جديد »

ان عدة سرقات ناجحة جريئة كانت تدل على ضعف حكم ، وقلة موارد ، الباشوات الذين حكموا في الفترات الواقعة بين حكم الجليليين . وأصبحت حتى المدينة ، التي فرقت بين سكانها الأحقاد والانقسامات العنيفة حسب المعتاد، غير آمنة . فرجع الحاج المحارب القديم ليعيد النظام الى نصابه والسلطة الى محلها . الا انه ما بدأ بادارة دولاب الحكم في عدة شهور حتى عاجلته المنون في مدينته . وبالرغم من عدم خلوه من الاخطاء – كحب المال وعدم التيقظ في الحكومة – فقد كثّر لدرجة كبرى من نفوذ اسرته ، وهو يذكر الآن في الموصل بكل خير وبأنه بطل الدفاع .

وتولى على باشوية الموصل عدد من الحكام – ليس كلهم من الجليليين – حكم كل منهم بضعة شهور . وفي تعيينهم هذا لم يكن وكلاؤهم في استانبول أقوى نفوذاً في رغباتهم من رغبات الباشا في بغداد . والواقع هو أن تقاسم النفوذ في شمالي العراق بين حكام بغداد والموصل كان مختلفاً وعلى غير انتظام . على انه كانت منزلة الباشا الجليلي في داخل المدينة (وكانت الحكومة في داخلها فقط فعالة تماماً) تنافس منزلة زميله في بغداد . وقد حدثت في عهد مصطفى باشا شاهسوانزاده[10] سنة ١٧٦٠م (١١٧٤هـ) اضطرابات عنيفة . وانقسم الجليليون

فيه خطأ في التاريخ لأن سنة ١٧٥٨م تقابل ١١٧٢هـ مع ان ياسين بن خير الله العمري الموصلي ذكر في الدر المكنون في حوادث سنة ١١٧٢ ما صورته « سنة الف ومائة واثنتين وسبعين ولي مدينة الموصل امين باشا ابن الحاج حسين باشا الجليلي الموصلي » . وذلك بعد قوله في حوادث سنة ١١٧١

« وفيها ولي حلب الوزير الحاج حسين باشا الجليلي الموصلي ثم عزل ... وولي الموصل ... ودخلها .. وتمرض ومات ومدة اقامته بالموصل سبعون يوما .. وتسلم البلد امين باشا واخرج عمه وأولاد عمه من السجن وصادر امراء الينكيجرية وأطلقهم » « م. ج » .

(١٠) ان قول المؤلف « عهد مصطفى شاهسوانزاده في ١٧٦٠م » غير مستقيم فقد ذكر ياسين العمري في حوادث سنة ١١٧٤هـ ما نصه « سنة الف ومائة واربع وسبعين ولي الموصل الوزير سليمان باشا الجانكي ... ثم عزل عن الموصل .. ووجهت الموصل للوزير مصطفى باشا شاهسوار اوغلو وتسلم له البلد فتاح بك الجليلي الى أن قدم اليها » .

وقال في سنة ١١٧٥

بين معاد له ومناصر ، ثم تطورت الحال فانقلبت الدسائس الى عصيان علني وحل محل الاهانات اطلاق النار • فكانت تدوي في شوارع الموصل الطلقات والقنابل اليدوية مدة أربعة أيام ، وانقطعت صلاة الجمعة في الجوامع ثلاث جمع • وما انفرجت الحال الا عند عودة أمين باشا للمرة السادسة •

وكان المتسلم في ماردين ـ أي الويووضة ان كان لا يزال يدعى كذلك[11]ـ عرضة في بلدته الجبلية الى فتن ليست أقل عنفاً من فتن الموصل ، والى الاحوال السياسية بين قبائل طي والملي في السهل والجبل ، والى البغضاء العنصرية بين العرب والكرد والتركمان ، والى المشاكسات الدينية بين أتباعه المسيحيين • وكانت هذه الولاية الثانوية ، التي لا تدخل شؤونها التاريخية غير المدونة الا قليلا في ضمن هذا التاريخ ، ماتزال معتمدة على بغداد لكونها من بقايا البناء الامبراطوري الذي شيده حسن باشا من قبل • وكانت نصيبين وديره تابعتين لها ، كما كانت الرقة وديار بكر من الولايات ذات الشأن المجاورة لها •

وحافظت الاسرتان النبيلتان الحاكمتان في حسنكيف « حصن كيفا » والجزيرة على حكومتيهما بعزة واستمرار محليين • فكانت علاقاتهما بحكومة السلطان كعلاقة العمادية وقره چولان ، ولكن بمقياس أصغر • فقد استمر حكم

« وفيها وقعت فتنة في الموصل بين المدن (محلة بالموصل) وأهل باب العراق ثلاثة ايام واتفق الوالي مصطفى باشا وفتاح بك مع المدن فضعف اهل باب العراق وهربوا وانطفت الفتنة » •

فهو مصطفى باشا شاهسواراوغلو لا شاهسوانزاده ، نعم يجوز أن يقال « شاهسوار زاده » •

اما « القنابر اليدوية » فغريبة لأن الذي ذكره ياسين العمري قوله « وامتدت الفتنة اربعين يوما وأمر مصطفى باشا بضرب القنبر والمدافع وتعطلت الجمع ثلاث مرات ••• » « م• ج » •

(11) نعم كان يسمى كذلك قال ياسين العمري في حوادث سنة ١١٨٠هـ (١٧٦٦م) « وفيها ارسل والي بغداد عمر باشا الامير الحاج سليمان باشا ويوضة ماردين الى الموصل وجعل يسوق بعض الرعية الى شهرزور وبغداد » وذكر ويوضة ماردين في حوادث سنة ١١٨٥ ايضا •

بهرام باشا الطويل الهادىء في حسنكيف حتى سنة ١٧٦٩م (١١٨٣هـ) • اما في الجزيرة فسيدعونا التاريخ البابانى الى أن نبحث من جديد ـ لأننا لم نبحث عنه منذ وفاة نادر ـ عن جار العراق من الشرق •

باباني وايراني

كان قتل الشاه الافشاري قد زج ايران في أحضان سنين عديدة من الفوضوية • فقد تقاتل من أجل العرش خصوم عديدون • وتلت تتويج أحدهم ثورة في الحال ، وظفر عن طريق الفتك والقتل ، ثم اندحار بالمكر والخديعة • وليس من شأن هذا التاريخ أن يخوض في البحث عن مختلف أنواع الاطماع والبربرية التي كانت عند هؤلاء الامراء والقواد • لكننا نقول ان عدد المتنازعين قد قل حتى بقي منهم في الاخير رئيس من التركمان القاجاريين ، وقائد افغاني من قواد نادر ، ورجل من قبيلة الزند يدعى كريم خان • فوقعت الفريسة أخيراً بيد كريم خان ذي الاصل الوضيع والشخصية المحبوبة • وكان هذا قد دحر مرات عديدة خلال النزاع الطويل على العرش ، وفاز في النهاية بحسن طالعه وشخصيته المحبوبة ، فغدا في ١٧٥٧م (١١٧١هـ) الحاكم الذي لا ينازع • وقد نصب في العرش شاه اسمي من الصفويين اسمه اسماعيل كألعوبة بيد الوصي • واستمر كريم خان يمارس السلطان والنفوذ بكونه وصياً على العرش مدة عشرين سنة جاعلاً شيراز عاصمة للدولة • والحق ان هذا الوصي كان بمقام ملك ينشد السلم ويرغب في اسعاد شعبه ، ولم يفكر في مباشرة الحرب مع العراق حتى السنين الاخيرة من عهده • ولذلك لم تحدث أية مشكلة مع ايران على طول أيام أبي ليله في الباشوية • بل كان الامر على العكس من ذلك ، لأن الخان كان يتحف المماليك بين حين وآخر بهدايا فاخرة • وفي السنين الاولى من عهد عمر جرى تآزر ، غير مثمر ، مع الايرانيين في تأديب القرصان من بني كعب كما مر سابقاً •

غير أن أسباب الاحتكاك والتصادم كانت تعمل في طي الخفاء • فقد أثارت ، منذ سنين خلت ، حفيظة الشيعة الايرانيين المعاملات القاسية التي كان يعامل بها زوار العتبات المقدسة في الفرات • وسمح في درنه الواقعة على الحدود لنبك ـ وهو تابع عثماني ـ ان يجمع « الخـوة » الجائرة ، وكانت في العتبات نفسها أخطار السفر قد وصلت اوجها بالتعديات المزعجة والتكاليف الجشعة التي كانت

تفرض على الزوار • فاحتج الوصي اولاً ، ثم هدد ، فلم يرد عمر باشا على ذلك بشيء • وقد حاولت حكومة شيراز استعادة مائـــة أسرة ايرانية كانت تقيم في البصرة الى ايران فلم تفلح في المحاولة • وزاد في الجفاء عدم اكترات الاتراك بالجواب على المطاليب والاحتجاجات • ثم زاد في الطين بلة انحراف التجارة عن ميناء بوشهر وميناء بندر عباس الى البصرة • وأحس الوصي ، في الوقت نفسه ، بوجود تذمر في جيشه لا يعالج الا بالخدمة الفعلية التي انشيء الجيش من أجلها• هذا زيادة على الحنين الى كربلا والنجف اللتين كانت ذكرياتهما لا تغرب عن بال كل شيعي • يضاف الى ذلك كله ان قرەچولان كانت مسرحاً مناســـباً للاتراك والايرانيين يمثلون عليه أدوارهم متى شاؤا فيبعثون أسباب الحرب من مكمنها •

وكان سليم ، المرشح الايراني للحكومة البابانية ، قد استعاد حكومته من سليمان باشا (بابان) عام ١٧٤٩ م (١١٦٣ هـ) ، وحفظها بالرغم من حملة أحمد باشا الاخيرة المنتهية بموته ، وبقي مـدة عامين يهزأ بحكومة بغداد ويغزو كثيراً من الاصقاع العراقية • فمشى اليه ابو ليلة بنفسه في ١٧٥٠ م ، والتقت القـوات التركية والكردية على بعد اربع مراحل من شمال بغداد ، وانتهى الصدام بفرار سليم باشا وتفرق أتباعه • فتسلم سليمان باشا بابان حكومة سليم ، وبقيت في حكمه زهاء أربعة عشر عاماً تخللتها بعض الفترات • وسليمان هذا من عظماء أسرته ، وحينما أصبح تابعاً لبغداد صار جيشه الاقطاعي تحت تصرف الباشا فيها ورهن أشارته في الطاعة • وظل يتمتع بتأييد دائم من جانب أبي ليلة الذي أنقذه من أشد أعدائه في ١٧٥٨ م (١١٧٢ هـ) • اما سليم باشا فلم يصفح عنه ، ولم تنس موالاته العلنية للايرانيين ، ولا غزواته وسرقاته ، ولا مراوغاته • ولشفاء غليـل عادلة خانم ، وما كان يدور في خلدها من روح الانتقام ، قدمت له الشروط المغرية وطلب اليه بلطف وبشاشة الحضور الى بغداد ، حيث كان ينتظره الموت المـروع والخيانة المزرية • وعندئذ لم يبق من ينازع سليمان في قره چولان ويهدده إلا محمد باشا بن خانه باشا الذي تمكن من الاستئثار بالحكومة في ١٧٦٠ م • فدحره على نهر النارين جيش أرسل لقتاله من بغداد ، وأخيراً اعدمه سليمان • وتسلم أحمد ، أخو سليمان ، الحكومة مرتين مدة شهور قليلة ، غير انه خاب في التمسك بهـــا •

وقد أزالت وفاة أبي ليلة الضغط الذي كان يجبر الحاكم البابانى عـلى الاخلاد الى السكينة ، فانتهى أمر الطاعة لبغداد ، وبدأت الغزوات . وكان انذار علي باشا له أولا شيئاً بلا فائدة . ثم جرد عليه حملة فسار البابانى للقائها وبمعيته ستة آلاف فارس مع مدافع وثمانية آلاف من المشاة . فوقعت الحرب بالقرب من كفري ، وانتهت بفرار سليمان باشا مع ثمانين من اتباعه من ساحة الحرب الى ايران . فاستعاد من هناك حكومته بمساعدة جيوش كرمنشاه . عـلى ان هـذه التقلبات لم تحرمه النجاح في حكمه . فقد وسع نفوذ البابانيين الى ما وراء ديالى جنوباً ، ولم يسمح لحكومة رواندوز أن تتمتع بالسلم . وكانت رانية وزهاو تابعتين له ، اما كوي فقد كانت من محمياته بالرغم من بقاء الاسرة المالكة فيهـــا حينئذ . وبينما كان منهمكا في الاستيلاء على أردلان في ١٨٦٣ م (١١٧٧ هـ) كسرته قوات الوالي شر كسرة . الا أنه تمكن في السنة التالية من نيل عطف كريم خان عليه في شيراز ، فأعيد لحكومة سـنه . وبعد عام من ذلك التاريخ اغتيل ، فخلفه في أردلان ابنه علي بوساطة الوصي في ايران ، ثم عين أخوه محمد باشا في قره چولان بالوساطة نفسها .

لكن المنازعات العنيفة بين الاخوة في شهرزور بقيت مستمرة . فقد كان أولاد خانه باشا الثلاثة ، محمد وأحمد ومحمود ، يجمع كل منهم أتباعه ليحارب من أجل امارة كوي وامارة قره چولان . وكانت صلة هذه المطاحنات بالعلاقات العامـة بين ايران والعـراق تزداد تقـرباً ووضوحاً كل سـنة . وفي ١٧٧٤ م (١١٨٨ هـ) تمكن محمد باشا ، بعد هدوء العاصفة البابانية ، من القبض على أخيه أحمد (وكان يحكم في كوي اوانئذ) ثم طرد محموداً ففر ملتجئاً الى بغداد . وتمادى في حيله وحذقه في اثارة حكومة العراق . وأخيراً اوفد عمر باشا كهيته لنصب محمود في حكومة قره چولان . فكانت مهمته سهلة ، لان محمداً فر الى سنه واطلق محمود لنصب أخيه أحمد . وكانت هذه الحوادث للوصي الايراني المترقب في شيراز — الذي كان يوجه الانذارات الى عمر باشا[١٢]، ويرهب البصرة بموقفه — فرصة سانحة ينفذ فيها ما يريد . فارسل جيش عدده أربعة عشر الف مقاتل من الايرانيين بقيادة علي مردان الى كردستان وعبر الحدود لاعادة محمد باشا ، الذي كان مع الجيش ، الى مكانه . فوهنت جيوش الكهية ،

---

(١٢) پارسنز ، ج ٤ ، الص ٣٤٣ .

وقوات الباباني الحاكم أوانئذ ، امام القوات الايرانية في بادىء الأمر ، إلا أنها جمعت شملها ثانية فهاجمت العدو ومزقته شر ممزق • فطردت قوات الشاه من شهرزور ، وأُخذ على مرادن أسيراً الى بغداد فرده عمر باشا الى سيده الشاه بادب عظيم • وهكذا بدأت الحرب مع الايرانيين من دون أن تعلن رسمياً •

الانسان ذئب يفترس اخاه الانسان

ما كانت الحرب لتصيب من الولايات التركية هذه المرة غير العراق ، ولم تجر هذه الحرب في العراق الا في ميدانين من ميادين القتال هما ميدان أودية شهرزور وميدان مدينة البصرة ، وسيترك البحث عن محنة الميناء لصفحات متأخرة • وبينما كان الميناء يئن من آلام الحصار والاحتلال كانت بغداد تنوء بخمس سنين من الفوضوية والتعاسة •

فقد رأينا ان سنة ١٧٧٤ م (١١٨٨ هـ) قد حلت على عمر باشا وهو مصادف سرايا خالياً ، وخزانة أكثر خلواً[١٣] ، وجيوشاً قليلة لا يعتمد عليها[١٤] ، وأملا خائباً كان يعلقه بمساعدة السلطان له ، وجاراً ايرانياً يلح في احداث الاشتباك الحربي • وأصبح نفسه منحطاً في شخصيته فعاش في شبه عزلة • ثم رويت القصص في اعتماده على أسوأ المشاورين وعن اعتراف مبتذل بأنوا ع الجميل • وكان كل يوم يأتي بالتضرعات من البصرة المهددة ، وبأنواع الاحاديث عن تعديات الايرانيين في شهرزور وتدخلهم بخلع هذا الباباني أو ذاك عن العرش ، حتى قيل ان كركوك كانت في خطر أيضاً • وفي مثل هذه الأحوال ـ والتحذيرات اللافحة قبل عاصفة ما كان يأمل أن يتغلب عليها ـ تقاعس عمر عن انجاد البصرة[١٥] فأستحق اللوم على ذلك من شط العرب والبوسفور على حد سواء •

---

(١٣) ومع هذا هبطت الاسعار مرة ثانية في ١٧٧٤ ـ پارسنز الص ١٢٩

(١٤) كان الخور العام في العزائم الذي سببه الطاعون قد حل بعده الارتباك والفوضى • فقد اُعدم في أشهر حزيران وتموز وآب أربعة ضباط و ٢٧ جنديا من الفيلق الانكشاري » پارسنز الص ١٣٣ـ٣٤

(١٥) الحق انه نجح في ارسال ٢٠٠ انكشاري ولم تصل القطعات المطلوبة من بكات الاكراد كما ان قوة سارت بقيادة الكهية وصلت بطريقها للجنوب الى الخزاعل وجليحة فقط ولا نرى موجبا لما يذكره پارسنز بحق عمر باشا وخيبته في اسعاف البصرة بقوله ان فشله ذاك « كان غير وارد وغير مغتفر » •

وفي ١٧٧٥ م ، ـ أعني ـ بعد معاهدة قينارجي المذلة وبعد ثلاثة أشـهر من انتهاء حصار البصرة ، استطاع السلطان أن يوجه نظـره نحو الشرق • فقد أدرك الجميع في استانبول ضرورة تخليص العراق من المماليك ، كما فكروا في ان ابعاد عمر قد يهدىء الحالة في كردستان وفي البصرة من دون أن تضرب أية ضربة • فعين مصطفى باشا الاسبيناخجي ، والي الرقة ، لقيادة حملة الى العراق • فكان بصحبته والي شهرزور سليمان الجليلي[١٦] ووالي ديار بكر أوزون عبدالله باشا « الطويل » • وصدرت بعد ذلك الفرمانات الملكية بتعيين مصطفى لبغداد وتحويل عمر الى ديار بكر •

وقد وصل القواد الثلاثة الى بغـداد على أحسن حال فنصبوا معسكراتهم منفصلة بعضها عن بعض خارج المدينة • ثم سار مصطفى الى بغداد وقدم فرمانين ، فامتثل عمر الأمر • فافرغ الخزانة هو وخدمه ، وترك المدينة فخيم في الجانب الأيمن منها[١٧] • ولم تكن لديه أية قوة ، كما لم يكن مستاء من نقله المشرف هذا • على ان المرجفين لم يتقاعسوا عن اثارة الخوف والطمع في خلفه • وبينا كان عمر منهمكاً بنقل خزائن بيته ، من دون أن يعارضه معـارض ، أمـر الاسبيناخجي بهجوم فجائي على مخيم عمر وهو أعزل • فركب الوالي الخائب (عمر) للفرار ، الا ان حصانه كبا به في الظلام فوقع وكسرت رقبة فارسه[١٨] فهرب مؤيدو عمر من بغداد ، ثم رجع سليمان الجليلي الى كركوك• وقد

---

(١٦) ابن امين باشا وقد مات فجأة •

(١٧) قال ياسين العمري « وفيها (١١٨٩) عـزل من بغداد عمر باشا فخرج الى البر ونصب خيامه خارج السور » وهذا يدل على انه كان خيم فى الجانب الايسر • « م• ج » •

(١٨) قال ياسين العمري « فاظهروا الفرمان بقتل عمر باشا ووافقهم عليه كتخداه الحاج سليمان الخائن وصاح به الى أين تهرب والسلطان أمـرنا بقتلك ؟ وكان عمر باشا شجاعا فكر على كتخداه وقتله فجاء بعض امراء مصطفى باشا الاسبيناخجي وقتل عمر باشا ونهبت خيله وخيامه وقطع رأسه وأرسلوه الى الدولة وبقيت جثته على الارض يومين ثم دفنوه في بغداد ثم دفنوا الحاج سليمان وكان ظلوما » • « م• ج » •

أردف الاسبناخجي استصفاء ثروة عمر بالتضييق على أغنياء البلد • وكان عجم محمد ، قوّاد عمر ، موضع اعتماد الوالي الحديث أيضاً • ومرت مدة لم تبن فيها علائم الاستعداد للسير الى البصرة • وكتب الى استانبول بأن البصرة أصبحت تابعة له ، وقد لاذ الايرانيون بالفرار منها • اما المماليك ، الذين أدركوا نيات الوالي الحديث وعلموا بالتعليمات التي تزودها ،فقد تسللوا تدريجاً من بغداد والتفوا حول الكهية السابق عبدالله اغا وقد أخذت تزداد قواته الثائرة يوما بعد يوم حتى استولت على القرى وأصبحت تحاصر بغداد تقريباً • فكانت محاولات الاسبناخجي الضعيفة في اخماد هذا العصيان غير مجدية • فأخبر السلطان بتمرد عبدالله وتجبره ، غير ان الوزراء في استانبول كانوا ينتظرون أخباراً تختلف كثيراً عن هذه • فبدلاً من أن يقوم وكيلهم المنتقى بانقاذ البصرة ومطاردة المماليك أصبح يعيش عيشة لهو وقصف مضاهياً بذلك المماليك أنفسهم • فوقع اختيار اولي الامر في استانبول على والي كوتاهية عبدي باشا ليخلفه وليحقق ما يبتغون • فوصل الى بغداد والفرمان بيده • ولم يبد مصطفى اية مقاومة ، بل هرب الى الموصل ومنها الى ديار بكر حيث كان ينتظره القبوچي الذي أخذ رأسه بيده الى استانبول بعد بضع ساعات •

وحكم عبدي باشا مدة اسبوع واحد ، لان عبدالله باشا قد تعاظم أمره فأصبح مسيطراً على أواسط العراق جميعها • ولم يعدم انصاراً في استانبول بالرغم من كونه ثائراً ومملوكا • وكانت البصرة قد سقطت أيضاً ، فأذعن السلطان للضرورة الماسة من جديد ، واصدر فرمانه بالانعام ببغداد على عبدالله باشا • وما كاد يتولى حكومته التي كانت تنتظرها الايام البيض حتى صدر تعين جديد لشمالي العراق • فقد أدمجت ايالة كركوك وايالة الموصل احداهما بالاخرى وعين لهما حسن باشا حاكم ماردين وكهية ابي ليلة السابق • فتولى الحكم ووجد الحالة في شهرزور بانحطاط مؤسف • لان اندحار علي مردان في ١٧٧٤ م (١١٨٨ هـ) كان قد أثر في الايرانيين فحفزهم للانتقام له بالتعديات العامة في مناطق البابانيين وغيرها من أقطار الحدود • فقاست درنة وبجلان أهوال هذه التعديات والجور من الايرانيين • ثم اكتسحت شهرزور واعيد محمد باشا بابان ، حليف الايرانيين ، الى منصبه وهددت كركوك ، ثم استولى خانات الحدود على

بدرة ومندلي • وفي الحملة التي جردها في هذا العهد المذكور حسن باشا ، بأمر من السلطان[19] ، اعتمد على الاخوين البابانيين (محمد في قره چولان واحمد في كوي) بالرغم من انهما كانا قد بدلا تابعيتهما مراراً عديدة قبل ذلك • فاستقرت الآراء على أن يسير أحمد الى كرمنشاه بطريق زهاو ، وان يسير محمد من قره چولان على سنه • فدخل الاخير الى ايران وقضى على قوة اردلانية وجعلها تكابد خسائر جسيمة ثم نهب بانه • وفي موقعة ثانية اندحر والي سنة خسرو خان مضرجاً بالدماء بعد كفاح طويل هرب منه الى جباله واعتصم بها بعد شق الانفس •

• وكوفئت هذه الانتصارات بتشكرات السلطان وهداياه • واذ ذاك أصبح محمد باشا مرتبطاً بالاتراك • اما أخوه ، المحافظ على سياسة أسرته ، فقد رجع الى مكانه القديم تحت حماية ايران والتحق بالجيش الحديث العرمرم الذي بعثه كريم خان لمواصلة قتال الاتراك بقيادة كلب علي المري • فتقهقر محمد ، وعجل حسن باشا بطلب النجدة من بغداد • وبذلك نصبت القوات الايرانية الداخلة الى شهرزور أحمد علي عرش آل بابان • وهنا حافظ على وضعه ضد الجهود الفائقة التي ظل يبذلها أخوه للقضاء عليه ، بمساعدة غير مجدية من پاشا كوي وحاكم كركوك • حتى اختار لحظة انتصار مناسبة خاطب فيها حسنا بكتاب متواضع يعتذر فيه ويكفر عن خطيئاته ، وعند ذاك ضمن مصادقة الاتراك والبابانيين على تولية پاشوية بابان • ومع جميع ما كان عند حسن باشا من حيوية ونيات حسنة فانه لم يتمكن من أنجاز شيء •

وأكثر منه خيبة كان عبدالله باشا في بغداد • فقد فارقه نشاطه الذي كان يتدفق فيه أثناء الثورة عندما تولى الحكم • وكانت سياسته الوحيدة ترسيخ همنة المماليك ، كما كانت لذائذه الفريدة ان يباهي بأبهة منصبه وسطوته وان

---

(١٩) لقد أعقب اعلان الحرب الرسمي على استانبول تعيين عبدالله وحسن في منصبيهما فأمر كلاهما بأن لا يدخر وسعا ولا جهداً في اخراج الايرانيين من العراق ويورد جودت (ج ١ من المجلد ٢ ، الص ٤٣) التفصيلات التامة عن الجيش اللجب الذي صدرت الاوامر بتشكيله وجمعه لهذا الغرض لكن هذا الجيش لم يجمع منه شيء على ما يبدو

يبتز أموال الموسرين • فأضيفت قبائح شهواته الى اعتلال صحته • وعلى هذا لم تبعث النجدة الى شهرزور في ساعة الحاجة اليها • وكان أنكى من ذلك كله نسيان الواجب الاول الذي القي على عاتقه ، وهو واجب انقاذ البصرة •

وقد وجد غيظ استانبول منفذاً له بتعيين سليم سري أحد رجال الحاشية الاماثل الذي كان يلح في طلب التعيين • فقد عرض سليم نفسه للخدمة في العراق ، ووعد ان يأتي بمفاتيح البصرة • اما أهالي بغداد ، الذين سئموا حكم الحكام الضعفاء الذين لا يرتجى منهم نفع ، فقد تلقوا نبأ قدوم شخصية وجيهة من البـاب العالي بكل سرورهم • الا ان الآمال المسؤولة التي علقت على قـدومه سرعان ما تلاشت • فقد كان مولعاً باللهو ، فأصبح ألعوبة بيد عجم محمد وبلغت سطوة القوّاد الايراني على عهده الذروة • وكان هذا الاخير قد اسـتولى على الباشوات بالتعاقب وفاز بالاتباع ، وتمكن من جمع ثروة وفيرة عنـدما كان أميناً للصندوق على عهد عبدالله باشا • وعلى هذا كان يطمح أولاً لمنصب الكهية (الذي كان بيد اسماعيل آغا اوانئذ) ، ومن بعد ذلك كان يرى نفسه سـيد الباشـوية نفسها• وقد اشيع منذ مدة خلت انه كان قد كاتب شيراز سراً ، وبالنظر للوعود التي حصلت منه أخذ الوصي على عرش ايران يجهز جيشاً يسير به الى بغداد • على ان اسماعيل الكهية عمل ما كان بوسعه أن يعمله لاحضار القوات العراقية ، لكن عبدالله وسليم لم يكونا ليستسيغا الحرب • فبعثا بدلا من ذلك رسولا الى العاصمة الايرانية ، وهو محمد بك الشاوي • فتوجه الرسـول وقـوبل بترحيب ودي هناك ، الا ان التخلي عن البصرة كان منوطاً بشروط ثقيلة • وقد أنكر كريم خان تهديده لبغداد مدعياً بأن جيشه كان قد وجه لتأديب عشائر الحدود المقلقة • فرجع محمد بك الشاوي الى بغداد مع مندوب ايراني يحمل كتاباً الى الباشا • وما وصلا الى الحدود حتى سمعا بوفاة عبدالله بداء الحبن •

وقد أدى هذا الحادث في أوائل شتاء ١٧٧٧ م (١١٩١ هـ) الى تطور الخداع والدسائس الخفية الى منازعات علنية عنيفة • فانتُخب سـليم أفنـدي قائممقام ريثما يصل تعيين جديد من استانبول ، غير ان أوامره لم يُعبأ بها • وكان آخر ما فعله عبدالله قبل وفاته عزل اسماعيل آغا عن منصب الكهية وتعيين عجم محمد في مكانه • وعندئذ التفت الاحزاب والفئات حول الكهية المعزول

والكهية الحديث ، ثم تلا ذلك عراك علني في الشوارع بين الفريقين • وقد انقسم الانكشاريون الى فريقين ، وتبعت الجيوش المحلية من كان يدفع لها مالاً أكثر من الثاني • ثم سعى الفريقان لاجتذاب الرعاع ، كل الى جانبه • وانضم المماليك الى اسماعيل بصورة عامة ، غير ان عجم محمد استطاع ان يفسد عليه كثيراً منهم كما انه ازداد قوةً بمعاضدة سليم أفندي العلنية له • وبعد صراع دام عدة أيام وأدى لاحوال لا تطاق عين سليم أفندي سليماناً الشاوي ليقضي على الفوضوية عنوة ، وليرجع النظام الى نصابه ، فتمكن سليمان من ذلك لاحترام الفريقين له • بيد ان الحال سرعان ما انقلب ولم يدم الهدوء • فانحاز سليمان الشاوي نفسه الى اسماعيل آغا ، واستطاع عجم محمد أن يحافظ على التوازن ، في مقابل هذه الفعلة من سليمان ، بمساعدة أحمد آغا الخليل وهو رئيس عصابة متألفة من العصاة وقطاع الطرق والجنود الاجيرة غير النظامية • وكان مع أحمد الخليل وعجم محمد أكثرية اللاوند أيضاً • كما استطاع اسماعيل من جهة أخرى أن يستفيد من رجال قبيلة عقيل الخفيفين المتأهبين بتأثير الشاوي ، فاستمرت هذه الحرب الاهلية خمسة أشهر كان الجميع ينتظرون خلالها من ينتخبه السلطان لهم • وقد كان يسعى للباشوية الشاغرة في هذا العهد الفريقان المتنازعان ، وحسن باشا في كركوك • وكانت في غضون ذلك الشوارع مستحكمة والاطلاقات تتطاير والاصطدام العنيف يحدث كل يوم • وكانت في خارج المدينة من الجانب الايمن مخيمات عقيل ، واجتمع في الجانب الايسر الشذاذ من أتباع أحمد الخليل • وعلى هذا لم يبق شارع من شوارع المدينة آمناً ، ولم تراع الحرمات ، فانقطع السير في الطرق • وأخيرا وصل الفرمان في نيسان ١٧٧٨ م (١١٩٢ هـ) بتعيين حسن باشا ، فخمدت العواصف واستعد اسماعيل آغا والشاوي لاستقبال الحاكم صاحب السلطة • واذ كان حسن باشا متأخراً في الوصول بسبب نزاع الاخوين البابانيين حكم ذلك النبيل العربي في مكانه ببغداد •

ودخل حسن باشا دخولاً رسمياً الى بغداد في اليوم الرابع من أيار ١٧٧٨ م ، ففتحت الدكاكين وانتعشت الاسواق من كسادها وتبودلت الزيارات • وعرض أحمد الخليل طاعته فعين لوظيفة شرفية • اما عجم محمد فقد انحنى خاضعاً في أول الامر ، ثم أُهين في القلعة وقد بقي معتصماً فيها بثورة علنية •

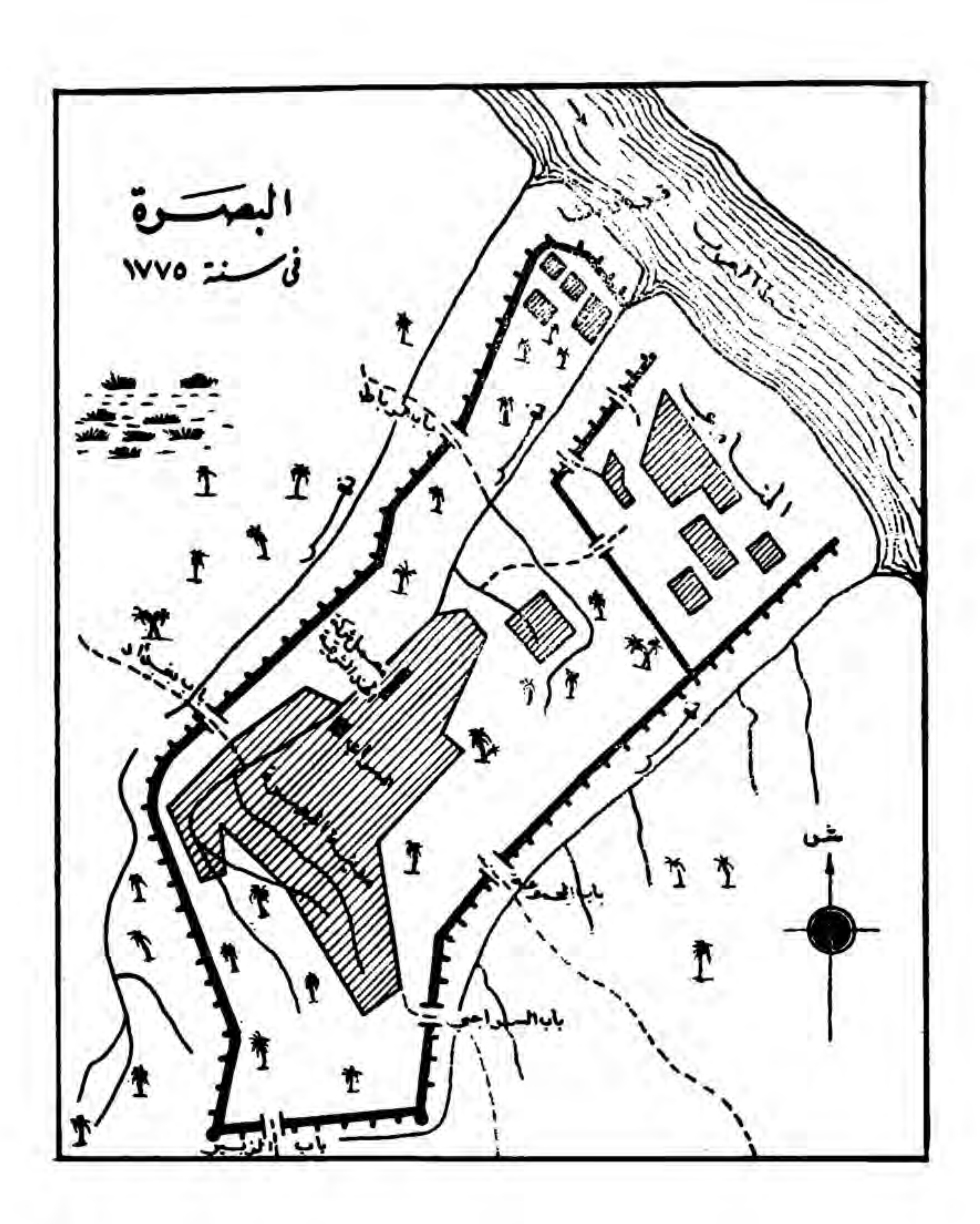
وبعد أسبوع واحد فر ليلاً من حصن القلعة ولحق بقوته في الخارج ، ثم تبعه أحمد الخليل ، الخائن من جديد ، الذي منحه لقب الباشا .

وقدر لحسن أن يحكم سنتين من الحكم المضطرب التاعس . فقد كانت نفقات ديوانه الزاهر وحرسه الخاص تستدعي الجور في فرض الرسوم على اليهود والنصارى ، وكانت المدينة هادئة ، الا ان الريف في الخارج كان يعج بالفوضوية المستفحلة . فلم تكن قوات عجم محمد وحليفه العاصية لتستأصل شأفتها . وكان أول عمل عمله حسن عند توليه المنصب تجنيد العبيد أتباع الشاوي ، وتوحيد انكشاريه الخواص مع اللاوند ، وأغراء أتباع العدو بالانفضاض عنه . على ان احمد الخليل قهر رتلين من جنود الباشا عند أول اشتباكه معهم . وعندئذ أرسل بخبر الى أحمد باشا بابان ـ وكان ما يزال ثابتاً على حكم قره‌چولان بالرغم من جميع محاولات أخيه وباشا سوران في كوي لعزله ـ يامره بأن يسرع في النجدة الى بغداد . فسار أحمد امتثالاً لذلك ، لكنه مات قبل أن يصل بغداد . فخلفه بمهمته محمود أخوه الاصغر وقاد جيش البابانيين للالتحاق بعثمان الكهية . فمكن حسن باشا من القضاء على ألف من الرعاع العاصين وأسر بضع مئات غيرهم بقوة المدد هذه . فلم يبق لعجم محمد واتباعه شأن يذكر ، ولم يعد من المزاحمين للباشوية . الا انه وأتباعه تمادوا في قطع الطرق والاخلال بالامن ، مرة بالقرب من سور بغداد وأخرى في جبال لرستان . اما سليم أفندي الذي سئم الشغب والفتنة فقد ترك البلاد الى استانبول حيث كان الموت ينتظره .

وهكذا انقضى صيف عام ١٧٧٨ م وشتاؤه . على ان مركز حسن باشا كان يزداد تقلقلا يوماً بعد آخر . فلم يعاد الامن الى نصابه في أواسط العراق ، وكانت القوة التي يستند اليها مختلطة مشكوكاً في أمرها ، وظهر الخصوم في الميدان . فقد نشأ حزب جديد وأخذ يتسع ويلتف حول الكهية السابق اسماعيل آغا . وفي آذار ١٧٧٩ م بعث حسن نعمان آغا لحكم البصرة وقد تخلى عنها الايرانيون فجأة . واضطر في تشرين الاول أن يترك بغداد لشدة المظاهرات القائمة عليه . ثم فر الى الموصل وفيها أخبر بتحويله الى ديار بكر التي توفي فيها .

وكان السلطان قد عزم ـ رافضاً عرائض اسماعيل واحتجاجات حسن ـ على اعادة توحيد الايالات الثلاث ، شهرزور وبغداد والبصرة ، الى حكم قوي

مؤثر لا بد من أن يُقبل وهو حكم بطل البصرة الذي كان أوانئذ قد سرح من الاسر • وبينا كان مماليك بغداد قد جعلوا اسماعيل قائم مقام فيها طلب السلطان من سليمان الجليلي ـ المرسل ثانية الى الجنوب عند الازمات ـ ان يتسلم المدينة ويكون محافظاً فيها • فاستبدل الباشا الموصلي اسماعيل هذا بالشاوي النيل وجعله قائم مقام • وباتت جميع الطبقات ، وهي بين منفعل وفرح أو متحمس للقتـال ، تنتظر حاكمها الجديد • وكانت الغريزة الصادقة تؤذن بان عهداً طويلاً على وشك أن يبدأ •


البصرة
في سنة ١٧٧٥
باب السراجي
باب الزبير
ش

الفصل الثامن

سليمان الكبير

حصار البصرة[1] واحتلالها

لم يكن بين المماليك المعتقين ، الذين تذكرهم عهود طفولتهم بحاشية حسن باشا وحصار بغداد العظيم الذي كانوا في وقته صغاراً ، بحيث لم يستطيعوا المشاركة فيه ، أمثل في منظره الجميل وظرفه الاجتماعي وأدبه الجم من سليمان آغا . فقد تأيدت في عهد أبي ليلة مواهبه التي كان يتوسمها فيه الجميع . فنال الحظوة والترفيع في عهد الباشوات المتعاقبين من بني جنسه ، حتى عين في ١٧٦٥ م (١١٧٩ هـ) لاعظم منصب في الباشوية (عدا منصب الكهية) وهو متسلمية البصرة . ثم نقل بعد ذلك بثلاث سنين وأعيد في سنة ١٧٧١ م (١١٨٥ هـ) فكانت عودته بشرى للبصريين الذين كابدوا من عسف المتسلمين بعده ، عبدالرحمن والحاج سليمان ويوسف ، شيئاً كثيراً .

وبقيت الأحوال هادئة في الميناء بصورة عامة منذ ان أخمد أبو ليلة الثورة فصارت حابطة في سنة ١٧٥١ م (١١٦٥ هـ) . وقد كان السكان والتجار الاجانب قانعين بالامن في داخل المدينة بعد ان كان فقدان الامن في الطرق البرية أجمع ، وشيوع القرصنة في الشط ، معدودين من الامور الطبيعية . على إن التذمر من الجباية القاسية والعدل المهان وأخذ الهدايا كرهاً كلها كانت لا يخلو من ذكرها كتاب عن ذلك العصر . وكذلك كانت حتى هذه الاحوال ، وان قلت إزعاجا في عهد بعض الباشوات دون غيرهم ، عرضة للاستئناف في ديوان بغداد . ثم أصبحت التجارة رابحة سنة بعد أخرى . فكان للوكيل

---

(١) المراجع : اوليفييه (ج ٤ ص٣٤٣) ، يوسف امين (ص ٤٥٠) پارسنز (ص ١٥٤ ــ ٦٢) ، كيبر (ص ٢٢٢) ، ايرون (ص ٣٧٩) ، والمراجع العراقية لبقية العهد .

الافرنسي ـ وهو قس في بادىء الامر وعلماني فيما بعد ـ محل ثابت في البصرة من بعد ١٧٥٥ م (١١٦٩ هـ) ، ورحل البرتغاليون عنها نهائياً • ثم انتقل الهولانديون الى جزيرة خرق سنة ١٧٥٢ م • وكان عدد من الايطاليين يترددون الى الميناء ويقضون مآربهم التجارية ، وصار بوسع الارمني واليهودي ان يعامل هناك الفارسي والهندي • واشتغل العرب اليمانيون بجلب القهوة من اليمن والرجوع الى بلادهم مستبضعين تمراً • وكانت شركة الهند الشرقية تستجلب من الخارج اللوازم المعدنية والاقمشة الصوفية فتستبدل بها الحرير الايراني والنقود • وقد قوي شأن ممثلها ، فرفع من رتبة مقيم الى رتبة وكيل في ١٧٦٣ م ، وعين قنصلا لدولته فأصبحت له صبغة قنصلية أيضا • فكان هذا حادثاً يذكر بالنسبة لما حصل عليه الوكيل الافرنسي من قبل • على ان الدرجة التي حصل عليها الوكيل الانكليزي لم تكن من باب الطمع السياسي ، بل كان ذلك تعزيزاً لمركزه في مؤازرة رئيس المعمل والدفع لجور الاغوات ، ومزاحمة منه للاطماع الافرنسية هناك • وقد تلا ذلك تعيين وكيل آخر بالدرجة نفسها وللمقصد عينه ، في بغداد بصورة شبه دائمة • فتولى هذا المنصب سنة ١٧٥٥ م رجل أرمني ، ثم أشغله بعد عشر سنين شخص انكليزي •

وقد كان رواج الحركة التجارية في البصرة واستقرار الامور فيها من جملة الاسباب المؤدية لتوتر العلاقات بين الباشا في بغداد والوصي في ايران • ولو كانت هذه هي الاسباب الوحيدة لكان من الممكن أن يقتنع بها كريم خان ، لان قليلا من الرخاء بقي بعد حدوث الطاعون المروع في ١٧٧٣ م (١١٨٧ هـ) • فقد كانت بقية هذا الوباء حسب وصف وكيل الشركة عند عودته في تشرين الاول من بومبي ، وكان قد التجأ اليها مع معمله في نيسان ، حامية قليلة العدد وأبنية معطلة ، وجرائم متزايدة وركوداً في التجارة ، وقليلاً من السكان الضعاف الذين تخطاهم المرض •

وما خفت وطأة الطاعون وزال شره حتى أخذ خطر الاحتلال ينمو ويتجسم • فقد شاعت الاخبار بتوقع هجوم ايراني على البصرة ، ولم يعدل الوكيل عن رأيه في افراغ خزائنه على وجه السرعة الا بوعود المتسلم وبراعته في الاقناع • وتمادى بنو كعب ، الذين لم تكن سفنهم مفيدة للفريقين ، في تبين

خيانتهم المفصمة بالتذبذب . فبعد ان وعدوا الاتراك بالعدول عن محالفة الايرانيين والتخلي عنهم عادوا فأسروا سفينة تركية ، فأنقذتها منهم سفينة بريطانية ، ثم استعادوا رجالهم من البصرة متهددين . فانقضت بمثل هذا الجو الملبد بالمخاوف سنة ١٧٧٤ م (١١٨٨ هـ) .

وفي منتصف الشتاء ، أظهرت غزوات العصابات من بني كعب بوضوح الضعف المفضوح للبلدة . وعند حلول السنة الجديدة تجددت اشاعات الخطر الداهم ، فبدىء بعقد اجتماعات يومية يجتمع فيها سليمان آغا والقبطان واشراف البلد والوكيل تداركا لما قد يقع من الحوادث . وقد كان في الحامية أوائذ خمسة عشر الف مقاتل ، الا ان الجنود الاجيرة الجديدة وقوة القبائل لم تكن تبلغ عشر هذا المقدار . وكان معظم المدافع غير قابل للاستعمال ، وكان السور متداعياً والاستخبارات مقتصرة على المخبرين الاعتياديين . وقد بقيت احتجاجات الانكليز غير مسموعة حتى انقلبت المخاوف الى أخطار محدقة ، وعندئذ ذهب المتسلم لاعداد العدة بكل شدة ونفخ روح الدفاع . فجمعت الذخيرة من المؤن والعتاد واحضرت للحاجة ، ثم رمم السور ووزعت الواجبات . وقد كتب شاهد عيان أجنبي انه « لم يكن المتسلم شجاعاً جداً حسب بل كان فعالاً ومنفذاً . فقد كان طول يومه ممتطياً صهوة جواده وعاملاً على الاستعداد للطوارىء . فكان مشغولاً في مراقبة ترميم السور وعربات المدافع وفي نصب المدفعية ... » . وكان الجميع يلومون الباشا في بغداد على تأخره في ارسال النجدة .

وفي السادس عشر من آذار وصل الى شط العرب ، بالقرب من مصب نهر السويب ، العدو الذي طالما توقع وصوله البصريون . فتخلت قوات المنتفك ، وكانت قد جعلت على الضفة اليمنى من النهر في جنوب القرنة لمقاومة العدو ومنعه من العبور ، عن واجبها الذي نيط بها وتراجعت من غير انتظام . وتقدم الايرانيون بذلك من دون أن يلقوا مقاومة الى الضفة الغربية . وقد وصلت في الوقت الى السلطات التركية والانكليزية كتب من صادق خان ، شقيق الوصي الايراني ، طالباً فيها ايفاد مندوبين اليه للبحث عن فرض دية مناسبة ، فلم يجب بشيء . وبعد اسبوع وصل وفد من الخان يخبر بوجوب دفع مبلغ من المال قدره لكان من الروپيات في مقابل سلامة البصرة ، فلم يرد اليه ثانية أي جواب كان .

وفي خلال هذه المدة وصلت الى الجيش الايراني سفن من اسطول بني كعب على الشط فالتحقت به ، وبذلك اتاحت لـه التسهيلات التي كان بأمس الحاجة اليها • وللوقوف في طريقها وصدها جمع الباشا عـدداً من الزوارق الكبيرة ، وربط بعضها ببعض بالسلاسل ، وحصرها في صدر نهر العشار • ثم ازدادت ثقة المدافعين التي أرسخها هذا الصنع في نفوسهم عند وصول قوة مؤلفة من مائتي انكشاري ارسلوا من بغداد ، وعند اخبار النجدة لهم بخبر نجدة ثانية مرسلة بعدها في الطريق • هذا عدا ما حدث من رجوع قسم من شيوخ المتفك للانجاد كالشيخ ثامر ، وقد ابقي في البصرة ، والشيخ عبدالله وقد اضطلع بحماية الزبير•

وفي السادس عشر من نيسان جعل الايرانيون معسكرهم على بعد ثلاثة أميال من شمال العشار ، وانبثت دورياتهم حول المدينة • وهاجموا بعد ثلاثة أيام القسم الشمالي من البصرة في ليلة حالكة الظلام • وقد جربوا مدة ساعتين ان يتسلقوا الدور ولكن النجاح لم يكن حليفهم البتة • وابلى البصريون (ولا سيما المتفكين أتباع ثامر) بلاءً حسناً في الذب عن المدينة ، خاصة وكانوا يسمعون هلاهل[٢] نسائهم وصرخاتهن داعيات لهم بالتشجيع • وضبط القبطان بكل قواه صدر النهر ، فخاب الهجوم ، وما طلع النهار حتى شوهدت رؤوس الايرانيين معلقة على أبواب السور • وقد كان رجال البلد على الاطلاق مشاركين في الدفاع ، وكانت المدفعية مؤلفة من الارمني والزنجي والانكشاري والعربي على حد سواء • حتى ان بعض الرهبان الكرمليين كانوا في ضمن قوات سليمان آغا هذه • على ان روح الدفاع والعنصر الفعال فيه كان المتسلم الذى لم يركن الى الراحة طول مدة الدفاع •

غير ان الهجوم الليلي كبد الحامية شيئين • فقد فرت القبائل المتفكية من الزبير ، وانسحب الوكيل البريطاني مع حاشيته مبدياً بذلك أقل ما يمكن من الرفعة وسمو النفس[٣] • وكان عملهم ذاك مخجلاً وغير لائق ، لانهم زاغوا عن

---

(٢) الهلاهل جمع هلهلة وهي جمع مصدر هلهل الصوت أي ردده ترديداً ورجعه ترجيعا •

(٣) لقد أخطأ اوليفييه بذكره ان جلاء البريطانيين كان قبل الحصار وقد بقي وكيل الشركة الافرنسية مع بعض الطليان الذين كانوا بحمايته ، في البصرة حتى النهاية •

خطة الحياد التي كان يجب عليهم اتباعها بحق . فبمجرد ظهور الجيش الايراني سارت سفينة بريطانية الى الشمال فاتصلت بصادق خان . هذا مع العلم بأنالوكيل ورجاله كانوا بصحبة المتسلم من قبل على الدوام ، يركبون معه فيطوفون حول السور ، ويتداولون وأياه ، ولا يألون جهداً في التحذير أو المشورة ، بالاضافة الى ان موظفي الشركة حاولوا من دون جدوى منع الاسطول الكعبي منالانضمام الى الايرانيين ، وأبدوا المساعدة الجلى في انشاء الحاجز الذي وضع في صدر العشار ، ثم طاردوا الاسطول الايراني الصاعد من بوشهر الى شط العرب في اليوم الذى سبق ليلة الهجوم . وبعد ظهور الشركة بهذا المظهر واتخاذها هذا الموقف الجلي أصبح اتصال الانكليز الذين كانوا في السفينة الانكليزية التي اتصلت سراً بالايرانيين يعد نهايةً مؤسفة[٤] . وقد تعرضوا في توجههم[٥] الى شمال شط العرب الى قصف مدفعي شديد من سفن الايرانيين .

ولم يهيىء ارتداد اسطول الشركة للايرانيين السيطرة التامة على النهر . فقد حاولت مجموعة السفن التي وضعت في الشط دون المواصلة بين شمال الشط وجنوبه ، وكان للقبطان عدد من السفن التي كانت قادرة على مشاغلة سفن الاسطول الكعبي بمقدار عددها هي . وكان لدى الانكليز في بوشهر قوة[٦] لا يستهان بها عندما كانوا يفاوضون كريم خان . وبعد أربعة أشهر حصل اتفاق بين المتسلم وامام عمان . اذ كان كريم قد طلب قبل سنة معاونة الاتراك له على الامام المذكور ، فلم يمنوه بما أراد . ولاجل ان يظهر امام عمان امتنانه من ذلك سارع في مساعدتهم ووعد بدفع الجراية لهم . فأمسكت سفنه الاجيرة عنان الشط وضبطته طول صيف ١٧٧٥ م (١١٨٩ هـ) ، فتسنى بذلك امداد البصرة بالتجهيزات .

---

(٤) بارسنز (ص ١٨٦) ان تصرف الوكيل ، المستر مور ، في هذا الموقف كان ، بلا شك ، عرضة للانتقاد بوجه عام

(٥) كان الارمني المجازف ، جوزيف امين ، يقود السفينة « سكسيس » (بارسنز ص ٤٥١)

(٦) كان بين سفن الاسطول في بوشهر السفينة «سي هورس» التي كان فيها نلسون ضابط صف بحريا . ويظهر من هذا انه كان زار البصرة مرة .

هذا ما يوضح بعض الايضاح المقاومة الطويلة التي كان بوسع المدينة ان تبديها • والحق ان حصار العدو لها لم يكن كاملاً قط • كما ان طريقة الدفاع الشائعة ، المتضمنة كسر السدود واحاطة الماء على البلد ، لم تستخدم الا في نيسان ١٧٧٥ م • وقد مكنت مؤازرة جماعات من المنتفك وبني خالد ، في خارج المدينة ، القوافل من الوصول الى المدينة المحاصرة بالرغم من تحالف المهاجمين من الخزاعل واستفادتهم منها في مقابل ذلك • على ان الضيق داخل المدينة كان آخذاً بالاشتداد ، ولم يقف سليمان آغا بوجه الحصار طويلاً ويثبت امام العدو حتى نهاية شتاء ١٧٥٥ م الا بشق الانفس • وما بكر الربيع حتى كانت الطبقات الفقيرة على آخر دركات اليأس • فقد باعوا كل ما يملكون للحصول على قوتهم ، ولم يكن هناك أي عمل يشتغلون به ويتقاضون اجوره • فيأس الجميع من أمل المساعدة التي كانوا يتوقعونها من بغداد • وبقي صادق خان ، مرابطاً ينتظر الاستسلام بكل صبره[٧] ولما تلحق مدفعيته بالسور الا قليلاً من الضرر •

وفي منتصف نيسان ١٧٧٦ م لم يبق في قوس الصبر منزع • فقد استهلكت الذخائر والمؤن ونفدت الحيوية في داخل المدينة المحصورة • وكان يبدو لهم ان المقاومة أصبحت من غير جدوى ، وانها كانت مؤدية لهلاك المئات من نفوس الجائعين • وقيل ان الآغا تسلم كتاباً من بغداد يشار عليه فيه بأن يستسلم لعدوه ، فتلاه على أعيان البلد المجتمعين ثم اضطر ان يرمي آخر قوس من كنانته • فأوفد الى مخيم الخان من يبحث معه في شروط الاستسلام • فدخل بنتيجة ذلك الايرانيون بكل انتظام الى البصرة يقودهم علي نقي وعلي محمد خان في صباح اليوم الثاني • ولم يسمع حصول أي عنف ولا فوضوية عند الدخول ، الا أن بعض الحوادث الطفيفة[٨] قد وقعت حقيقة • وبعد اسبوع كامل دخل أخو الوصي الى البصرة دخولاً رسمياً • فوضعت في البلد حامية مؤلفة من ستة آلا جندي ، ثم ارسل بالمتسلم مع جماعة من أعيان البلد مأسورين باعتقال جميل الى شيراز •

---

(٧) ان اوليفييه (ص ٣٤٧) يلوم صادقا عن تأجيل الهجوم الذى اعتمد به على مشورة المنجم • وكان يدير مدفعيته اناس أوربيون •

(٨) وهذا يعني عدم اعتبار ما يذكره كتاب « مطالع السعود » وكتاب « دوحة الوزراء » عن الفظائع المرتكبة على الطريقة المألوفة •

وكانت الدلائل الاولى تدل على اعتدال الحكم الجديد ، فعجلت الشركة بالرجوع الى معملها • غير ان الايام السود كانت ما تزال في طي الزمن ، لان الايرانيين لم يكتفوا بالفتح الذي تم على يدهم ولم يكونوا على استعداد لنبذ أساليبهم الخاصة بهم • فقد جاء جمعهم لمبلغ عظيم من المال على سبيل الغرامة بالنتائج المتوقعة ، اذ التزم الاغنياء بجمع المال مع انه لم يدفع ذلك المال في الحقيقة الا الفقراء • فعم الجور وسوء الاستعمال وتعاظما ، وكثر الناس الذين كانوا يعدون الوكيل حامياً لهم • وبذلك تنوسيت الاعمال المؤسفة التي قامت بها الشركة من قبل لجر المغنم لها • اما صادق خان فقد احتفظ بالحاكمية وأظهر من التساهل والروحية الطيبة ما يليق بأخ للوصي مثله • غير ان الحكم كان بيد محمد خان الشرس الذي لا ينفع في الغالب خلال غيبات صادق الطويلة عن الحكم •

وقد عانى سكان البصرة أوانئذ تفشي الطاعون المروع والخدمة العسكرية الصارمة ، وأهوال المجاعة ، واحتلال الجند الاجنبي للبيوت • ولو لم يكونوا منحطي القوى وخائري العزائم لحدثت ثورة عامة تقضي على الحكم الايراني • وعلى هذا لم يبق في نفوس أهل البصرة الا بصيص أمل كان معلقاً بالقبائل المجاورة • لان الحاكم الايراني لم يكن بحوزته سوى المدينة نفسها وعدة من البساتين المجاورة • وكان المتنفكيون في هذه الاثناء يقفون بالمرصاد لضعف أو وهن يستغلونه في الايرانيين • اما الخزاعل فقد كانوا يجلون فرمانات الخان ولا يخضعون لها قلبياً • ولم يتأثر البو محمد ولا بنو لام بحصار البصرة أو باحتلالها • وقد انسحب بنو خالد الى واحاتهم ممعنين نحو الجنوب •

اما الزبير فقد حافظت على حرية متقلقلة لبضعة أشهر • وفي أوائل ١٧٧٨م (١١٩٢ هـ) سئم علي محمد من حوادث الاغتصاب السهلة ومن السرقات المتكاثرة التي كانت تجري فيها ، فشن على البلد أجمع غارة هوجاء خلوا من الرحمة[٩] • وحدث خلال المذبحة السهلة التي جرت في سكان البلد العزل عن الدفاع ان قتل جماعة من أتباع الشيخ المتنفكي • وقد تعزى لهذا الحادث كراهية المتنفكيين الشديدة للايرانيين (مع حزازات أخرى غير مثبتة) • وتشير بعض المصادر الى موقعة قوبل فيها السخاء القبيلي بخيانة فظيعة • وقد أدى بعض

(٩) كيبر الص ٢٢٤

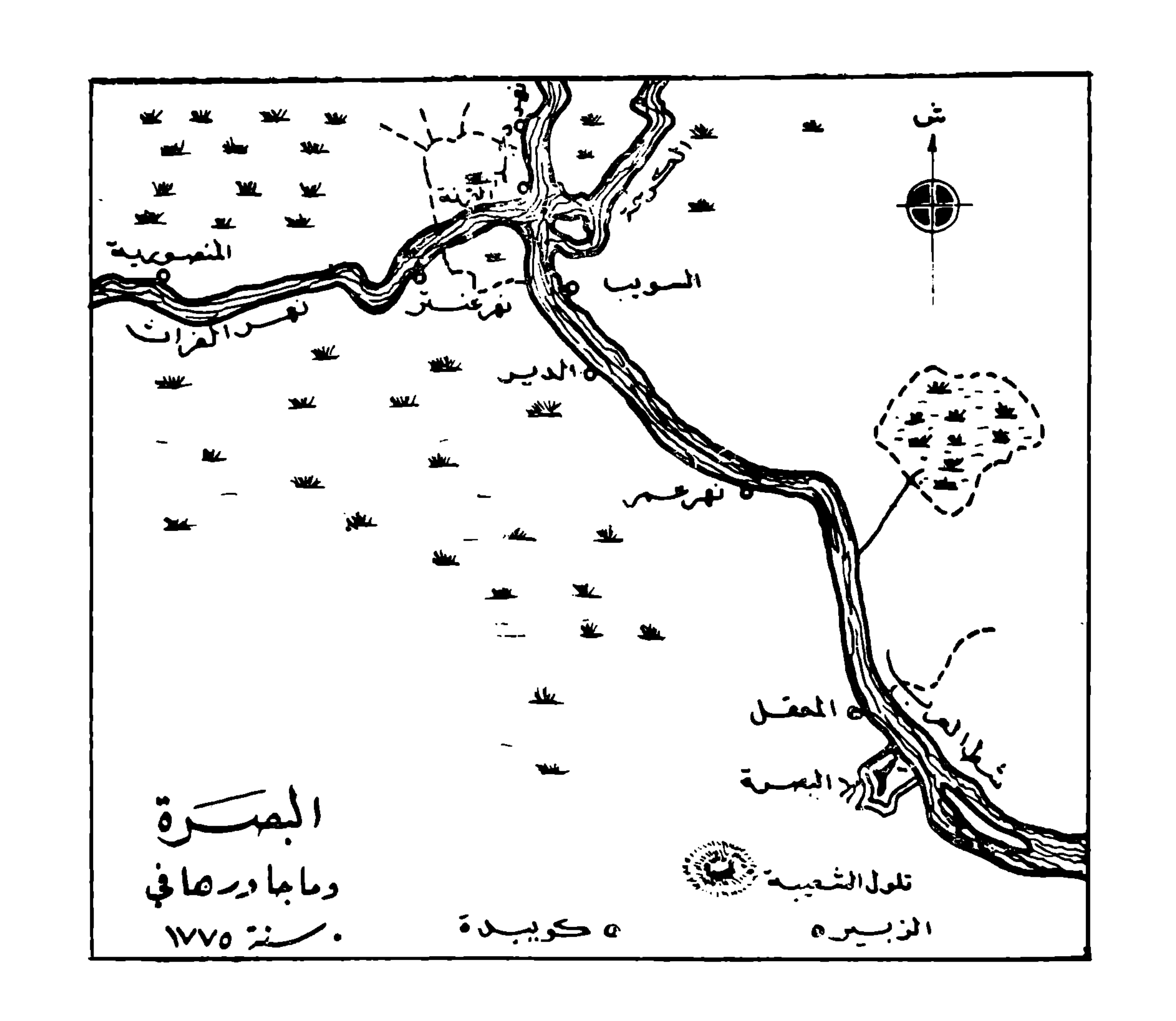
الشيخ ثامر للايرانيين ومقته لهم ، وليس ولاؤه للعثمانيين ، الى أقدامه على تدبير الخطط وحبكهـا لتحرير البصـرة ، فكان الاصطدام الاخير بينهم بلغ مبلغاً لا يستهان[10] به • فقد توغل الايرانيون عـدة أميال في بلاد المنتفك • وكانت قوة علي محمد متألفة من ستة آلاف فارس ، ومن مقدار ذلك من المشاة مع ثمانية عشر زورقا نهريا تحمل المدافع • وقد ترك محمد حسين خان محافظا في البصرة مع الفي بندقية واعتصم الشيـخ في الفضيلة وهي من العرجة على عـدة اميال • واستطاع المنتفكيون تدبير حيلة تراجعوا فيها عن العـدو فكانوا يعقبونهم بصورة متمادية حتى دخلوا في الفخ وهم لا يعلمون • فأصبح الايرانيون في فسحة من الارض المنبسطة قد اكتنف جانبها عاقول[11] لنهر الفرات واحاط بها من الجانب الثالث هور منيع غير مخترق • اما الجهة الرابعة التي دخل منها الايرانيون معقبين عدوهم المنهزم فقد كمن فيها قسم من قوات ثامر ، وما انتهوا من تعقيبهم الا وقد وجدوا أنفسهم في أرض مرزغة تجافى عنها العرب • وبعد ان انتشلوا أنفسهم من هذه التهلكة ، وكابدوا المصاعب والخسران فيها ، توجهوا الى طريق الخلاص فوجدوه مسدوداً دونهم • فهلك المئات منهم عندما حاولوا الفرار سباحة ، وقتلت مئات أخرى كان بينها علي محمد نفسه • واستمرت المذبحة فيهم حتى أفنوا عن آخرهم ، ولم ينج من الجيش بأجمعه سوى ثلاثة أنفار فروا راجعين الىالبصرة• وقد استغرق تنظيف ميدان المعركة بعد ذلك عدة اسابيع • وظلت عظام القتلى ، وكانوا كثيراً ، تشير الى هذه الموقعة الرهيبة مدة جيل واحد •

وعندئذ عززت حامية البصرة عاجلاً من شيراز ، ولكنها لم تعزز الى الحد الذي كانت عليه من قبل • وفتح صادق خان باب المفاوضة مع المنتفكيين من جديد ، ودعاهم الى الاذعان بشرف للنير الايراني • فرفضت معروضاته وكان في ضمنها جمل دينية منطبعة بالطابع الشيعي • وكان ثامر في هذه الاثناء يخبر بالتمام عن

---

(١٠) ان هذه الحادثة مستقاة من مطالع السعود ، لكنها مذكورة فى دوحة الوزراء بصورة مختصرة ، وقد نقلها جودت باشا عنها • راجع ايضاً ماكتبه كيبر• ولقد تجاهلنا فى سردها تجاهلا جزئياً الكثير من الاخبار المتناقضة ، ووفقنا بين غيرها

(١١) العاقول منعطف الوادي والنهر


ش
الكرمة
الدينة
السويب
المنصورية
نهر عنتر
نهر الفرات
الدير
نهر عمر
المعقل
شط العرب
البصرة
تلول الشعيبة
الزبير
كويبدة
البصرة
وما جاورها في
سنة ١٧٧٥

شؤون البصرة التي قل سكانها حتى اصبحت وكأنها قرية كبيرة لا غير • وقد خمدت فيها الحياة التجارية ، فأدى ذلك لسد معمل الشركة الانكليزية • وكانت اشاعات النجدة من بغداد والصلح المعقود مع ايران من منابع الامل الوحيدة • وفي أيلول ١٧٧٦ م (١١٩٠ هـ) وصلت أخبار مفيدة بأن مبالغ جسيمة وصلت بغداد لتدبير حرب مع ايران • وفي الربيع التالي كان الجميع يتوقعون وصول جيش منقذ من الشمال في كل يوم ، وبعد سنة قيل ان وفداً وصل الى شيراز • وعلى هذا الحال تطاول احتلال الايرانيين للبصرة فبلغت مدته أربع سنوات كان الاحتلال خلالها باهظ الكلف وشيئاً غير مشرف للوصي ، ومهيناً للاتراك ان لم يك مهدداً لهم ، ومشؤوماً على سكان البصرة •

وفي أوائل ١٧٧٩ م (١١٩٣ هـ) عاد صادق خان من زيارة أخيه في شيراز ، فشرع في بناء حصن منيع على الضفة اليسرى من الشط مقابل العشار • ولم يك هذا الا ظلاً لحادث منتظر • فقد شيد هذا الحصن لاخفاء انسحابه ان قضى أخوه نحبه ، لأنه كان ينازع الموت في شيراز ، ووجبت عودته هو نفسه بجميع قواته الى ايران • وفي منتصف آذار وافته الانباء التي كان يتوقعها ، فبان شبح النزاع على العرش متمثلاً امامه وبذلك لم يقو صادق خان على التأخر في البصرة • فدعى أعيان البلد واستأمنهم على حكومة المدينة الوقتية ، ثم وعدهم بتسريح سليمان آغا وكان قد أخذ أسيراً الى شيراز ـ كما مر ذكره ـ فقبل البصريون المرعوبون الحال الجديد من دون اضطراب في وقت كان الايرانيون فيه يجلون عن البر والنهر من دون أن يلقوا نظرة الى وراء ، وغير ملوين على شيء •

تبوء الباشا الكبير : الرجل والزمن[12]

كان سليمان آغا قد قضى أربع سنوات في ايران • وكان خلال تلك المدة

---

(١٢) ان المدة الواقعة بين ١٧٨٠م (١١٩٤هـ) و١٨٠٢ (١٢١٧هـ) والفترة التي حلت بعدها وانتهت بسنة ١٨٢٦ م (١٢٤٢ هـ) موفاة الحق في البحث • وأهم مواردها « دوحة الوزراء » ثم « مطالع السعود » ثم كتابات ثابت أفندي • ويتعرض كتاب « مرآة الزوراء » لهـذه المدة عرضا ، ويشتمل « غاية المرام » على ناحية خاصة من تاريخ هذا الزمن • ويلخص جودة باشا ما هو مذكور في

قد سمح له بأن يكون على اتصال مستمر مع البصرة بواسطة اصدقائه ، والخوجة يعقوب الصراف اليهودي الذى لم يكن يستغني عنه ، وأحمد آغا خادمه الخاص المترفع • وقد جعلت له نباهته وحكمته أصدقاء كثيرين في شيراز ، فتآلف على الاخص مع زكي خان ، أخي كريم خان لأحد والديه ، الذي يرجع اليه الفضل في عودة سليمان (لا الى صادق) الى حكومة البصرة • اما صادق خان ، أحد المدعين الصرحاء بعرش ايران ، فقد تخلى عنه أتباعه وفر ينشد النجاة •

وتوجه الآغا مع زملائه الاسرى راجعاً الى الحويزة حيث وقف متأملاً بما يخبيء له القدر • اذ كان عدوه الشيخ ثامر مستولياً على المدينة ، وكانت بغداد قد بعثت قبل ذلك نعمان آغا متسلماً بالرغم من طلبات البصرة الملحة بتعيين أغاهم المحارب القديم الذى بعثوا يستعجلونه بالعودة كذلك • فطلب من نعمان تسليم الحكومة لـه ، غير انه لم يكن بوسعه ان يتقدم لتسلمها ما دامت قوات المنتفك مسيطرة على البصرة ، فرفض المتسلم ذلك • وانحلت العقدة بموت ثامر في حرب بين القبيلة ، وبوقوع الشيخة من بعده الى ثويني العبد الله صديق سليمان (اوانئذ) ، فطلب الى الآغا ان يدخل المدينة • ووصل في الوقت عينه الفرمان بتعيينه للايالة جميعها برتبة ميرميران • وفي الاسابيع القلائل التي بقي فيها عادت الحياة الى الطرق والاسواق في البلد وقد خيم فيها الفقر • على ان فكره كان متجهاً الى ناحية أخرى • فقد أصبح يشعر بأنه الرجل الاول في العراق ، ولم يضع أية فرصة كانت في افهام السلطان بذلك • وكان ساعده القوي في مشروعه هذا الوكيل البريطاني المستر لاتوش[13] المحبوب • فعاضد الوكيل مرشحه لانه كان صديقه ودائنه في الوقت نفسه ، زيادة على انه كان وسيطه الخاص في تحويل المبالغ العظيمة الى استانبول • ولذلك لم يكن بوسع البادشاه ان يصم أذنيه

دوحة الوزراء ، واهم الرحالين الذين كتبوا عن هذه الفترة سيستيني (١٧٨١) وفرانكلين (١٧٨٧) وهاول (١٧٨٨) واوليفييه (١٧٩٦) وجاكسن (١٧٩٧) وميرزا أبو طالب (١٧٠٢) • وما كتبه ريچ عن البابانيين لا يثمن

(١٣) ان الدور الذى قامت به الديبلوماسية البريطانية فى تحصيل هذا المنصب لسليمان باشا كان شيئاً معروفاً بالتمام فى ذلك الزمن بريجز « الوهابية » (ص ١٨٧) سيستيني (١٦١) ، اروين (٣٣٩) •

عن هذه التوسلات ، وقد تذكر تتابع الخيبة التي منيت بها حكومة بغداد ، فأذعن للضرورة الماسة بتعيين مملوك آخر • وانعمت الوزارة مع حكم الولايات الثلاث على المرشح السخي الذي تمكن استرجاعها وحده •

وبعد ان عهد سليمان آغا بمتسلمية البصرة الى القبطان ، غادرها في ربيع ١٨٩٠م بقوة جسيمة من المتفكيين يقودها ثويني ، وقطعة من جيش الزبير • وكان اسماعيل آغا قد توجه جنوبا الى عرجة ليرحب به • فقاطع سليمان مجاملاته في الحال بقطع رأسه • ثم قتل ثلاثة من « أمناء الصندوق » كانوا في حاشية اسماعيل آغا ، وعومل الموظفون الصغار بالحسنى • وتوجه بعد ذلك الى كربلا فزار فيها الضريح المقدس وصرف ثويني الى موطنه • وقد استقبله سليمان الشاوي في الحلة استقبالاً رسمياً ، واقيمت في جسر المسعودي[١٤] مأدبة رسمية ، حضرها جميع الاعيان والوجهاء ورجال الدين ، ابتهاجا بقدوم الباشا الحديث • وبعد ان خيم خارج بغداد مدة يومين سار تواً لقتال عجم محمد وأتباعه من العصاة مخترقاً بذلك بغداد • فعبر ديالى وفاز بعد ذلك بظفر مبين ، فقد تشتت شمل المتمردين وقتل أحمد الخليل ، ثم فر الايراني الممقوت الى لرستان • ولم يتسلم الباشا المملوك عاصمته رسمياً الا في تموز ١٧٨٠م حين هدأت مملكته •

ولا يعد سليمان باشا الكبير في عداد ابطال التاريخ ، فلم يكن فاتحاً ولا مقننا ، ولم يقرن اسمه بأي حادث عالمي خطير ، ولا يحكم امبراطورية عظيمة • وكان يتحلى بصفات معجبة ، لكنها لم تكن من الصفات التي يندر وجودها في الرجال • ولم يتفوق على مستوى العصر والبلاد ثقافة وتهذيبا • ومع ذلك كله فأن لقبه لم يكن في غير محله • فلم يتسن لباشا غيره في بغداد ، مدة ثلاثة قرون ونصف ، ان لا يلقب الا بكلمة « الكبير » • والذي يقنع أكثر من المبالغات الشرقية في الاطراء والمديح في هذا الشأن ما كتبه أحد الانكليز[١٥] وكان متصلاً به في عدة مناسبات خلال سنين عديدة :

« ••• وربما كان سليمان أحسن نموذج وجد لباشا تركي • فقد ولد

---

(١٤) جسر المسعودي هو جسر الخر الكائن اليوم بقرب منطقة الحارثية • — المترجم

(١٥) هارفورد جونز ص (١٩٠ — ١٩١)

مملوكاً ، فكان على جانب عظيم من جمال الرجال ـ وكان في قوامه ووجهه من المعاني المؤثرة والمنظر الخلاب للالباب ما يبعث فى النفس الهيبة ـ ولا سيما عندما كان يلبس اللباس التركي المألوف • وكان بارعاً بجميع الحركات العسكرية والرياضية براعة المتخصصين • كما كان مخلصاً في عمله متحمساً في القيام بواجباته الدينية بالرغم من تساهله أكثر ما يمكن ان يتساهل به على من يدفعه ايمانه الى عدهم كفاراً • وكان متقناً في أموره مقتصداً فى نفقته الخاصة بحيث كان يتهم بالبخل • اما ديوانه فقد كان زاهراً ، وكان بيته وما فيه كأنه بيت أعظم السلاطين • وقد نال في أوائل أيام سيرته تقديرات كثيرة ومساعدات جمة من الانكليز ، فظل معترفاً بها آخر لحظة من حياته » •

ويذكر الكاتب نفسه أمثلة طريفة على ظرفه وخفة روحه • وقد وصفه أحدهم[١٦] بأنه « رجل ظريف ، ذو سيماء مبهجة مفرحة ، ويعد شجاعاً حقاً » • وكتب عنه كاتب نقاده[١٧] وصل في سني حكمه الاخيرة ، فوصف حكومته التى تقايس بكل وضوح بحكومات من سبقه فى الحكم قائلاً[١٨]

« انه كان يتعهد الطبقات الفقيرة من الشعب بالرعاية ويلاحظ الموظفين الكبار لئلا يرتكبوا بينهم ما لايتفق والعدالة ، أو ما يعد من الاعمال الجائرة • ولم يصبر على القلاقل التى كانت تسببها القبائل فى الملاحة على النهرين • وقد كان يشجع التجارة ويحميها بجميع الوسائل •• اما شجاعته فيقدرها الجميع حق قدرها ، وكانت معرفته بشتى الفنون الحربية مما يزيد في قدره كثيراً • وقد حبب نفسه للناس بالسلم الذي وطده والامن الذي مهده ، حتى أصبحت لحكومته هيبة كبيرة • وقد أظهر في جميع الاحوال والعهود شتى ضروب الجسارة والنشاط • فكنت تراه معنياً باستمرار بكل صغيرة وكبيرة من أمور الادارة ، سامعاً بنفسه شكايات البائسين فيعطيهم حقهم ويحكم لهم بالعدل •• » •

وبدخوله الى بغداد يبدأ العصر الذهبي لحكومة المماليك في العراق • فقد كانت ظاهرة وقوع السلطة المطلقة بأيدي المماليك المعتقين المجلوبين من الخارج

---

(١٦) سيستيني (ص ١٦٣)
(١٧) اوليفييه (ج ٤ ص ٣٥٠ ـ ٣٥٢)
(١٨) ترجم عن النص الافرنسي المدرج فى الكتاب ـ المترجم

تزداد وضوحا ، وتتقرب من الحقيقة طوال مدة تزيد على ثلاثين سنة . ثم قدر لحكم العراق أن يقع لمدة خمسين سنة أخرى بيد الباشوات المتتمين لهذا الدم الاجنبي وخدهم ، والسلطان في حال يضطره على السكوت على ذلك . وليس في التاريخ ما يشير الى ظهور أي خصم كان على طول العهد الطويل الذى حكم فيه سليمان باشا . اما المنازعات التى تلت وفأته فقد كانت فى الغالب منازعات بين المماليك المتخاصمين . ولم تسنح الفرصة لزوال آخر الحكام المماليك من بعد الا بمصادفة انتعاش العالم اثر وقوع الثورة الافرنسية،وسريان الروح الغربيةفيالاتراك الى حدٍ ما ، ووجود سلطان مصلح ، وتدني الحالة في العراق بسبب ضربات القدر الخارقة له .

اما مصر المماليك ، فقد حكم فيها الجراكسة قبل زوال ملكهم نهائياً زهاء قرن واحد وليس للراية التركية عليهم الا ظلها وللحاكم التركى الذى يبعث كل سنة من استانبول الا اسمه . واما العراق فقد كان الحاكم المملوك فيه هو الباشا العثماني بنفسه ، الذي يعين ويصادقه على تعيينه البادشاه كل سنة . وعلى هذا فقد كان يحكم باسم السلطان ، وان كانت فائدة السلطان من حكمه ضئيلة وكان بين موظفيه وقواته أتراك من استانبول . على ان الحكومة المركزية لم تنقطع عن محاولتها لتعيين الحكام من الخارج الا عند تبوء سليمان الكبير . فكان ظهور ابي ليلة وتعالي شأنهشيئاً مقحماً عليها . وقد صمد للجهود التى كانت تبذل في تنحيته حتى تغلب عليها . ولم ينح عمر باشا لانه كان رئيساً للمماليك بتاتاً . لكنالمشاكل الخاصة التي تطبع الحكم فيالعراق، ووجود المماليك الاقوياء ، وانشغال الحكومة المركزية بنضال طويل عنيف ختم بالخسران فى أوربة ، كل أولئك أدى في الأخير الى استتباب حكم السلالة المحلية حتى تبدل كل شيء بظهور قوات جديدة فى الخارج والداخل .

ومن الاهمية بمكان ان تعرف العلاقات الشاذة التى كانت حينئذبين حكومات العراق المتعاقبة والامبراطورية . فقد كانت أعم ظاهرة فى هذا الدور ، من أدوار الانحطاط العثماني ، العصيان التام . فيذكر التاريخ التركي ان نفوذ السلطات «كان لا يعترف به الا بعد لأي ، ولو اسمياً ، في كثير من أحسن ولايات الامبراطورية التي يدعي السلطان نفسه بتابعيتها له » . ثم يستأنف التاريخ التركي

وصف بلاد العرب الوهابية ومصر المماليك بمثل مايلي :-

« وفي سورية ما كان الدروز ومتاولة لبنان والبلاد الجبلية من فلسطين الا قبائل مستقلة لا سلطة لاي حكومة عليها • وكذلك الحال في البلاد التى فى شمال اليونان • اما سكان الجبل الاسود والهرسك ومولدافيا ووالاكيا فانهم كانوا قد وجعوا لحوزة النفوذ التركي ، الا ان ذلك لم يكن الا شيئاً ظاهراً لانهم في الحقيقة كانوا خاضعين للنفوذ الروسى •• هذا وكثيراً ما كان الباشوات في مختلف أنحاء الامبراطورية يشقون عصا الطاعة ويتمردون على السلطان فيحاربون جيوشه • ومن هؤلاء أحمد باشا الجزار الذى اعتصم فى عكا فأبى دفع الاتاوة للسلطان وقتل رسول السلطان اليه • وعلى هذا المنوال نهج باشوات طرابزون واخالزيك • وقام فى ودين بصوان أوغلو الشهير وناوأ السلطان وقواته بضع سنوات كأنه خصم أجنبي مستقل • فهذا قليل من كثير من حوادث العصيان والتمرد العديدة التى عرفت فى هذا العهد[19] » •

ومن بين أوجه الانشقاق والثورة العديدة هذه عن الدولة ، كان انشقاق العراق أكثرها استدعاءً للانتباه • فلم ينبذ الباشوات المماليك فيه ولاءهم للسلطان في أي وقتٍ من الاوقات • إذ كانت التابعية الصادقة له تتجلى باكملها في الدعاء أثناء الصلاة ، وعند سك النقود ، وتقديم التقارير الدائمة ، وارسال الهدايا في بعض الاحيان ، ودفع الأتاوى في القليل النادر ، وفي مظاهر الحياة العامة جميعها • كما كانوا يضاهون ، بأحسن وجه ، أي حاكم من الحكام الذين كانوا يشترون حكم الولاية من استانبول ، في توطيد الأمن الذي كانت تسير فيه القوات الامبراطورية جنباً الى جنب مع جيوش الحرس الباشوية من الكرج • وكان هم هؤلاء المماليك حماية البلاد من الايرانيين والوهابيين ، وتحاشى الحرب مع الجيران بقدر المستطاع ، ثم تجنب شن الحرب على الجيران فى داخل الامبراطورية[20] • ولم يكونوا ليقصروا عن الارسال بالمال

---

(١٩) كريسي (ص ٤٤٧ — ٤٨) ، راجع أيضا ما كتبه لين پول فى « اللورد ستراتفورد دي ريدكليف » (١٨٩٠) الص ١٩٩

(٢٠) ان نيبور (ج ٢ ص ٢٥٨) يذكر مثلاً من باشوية أبي ليلة ، لا توجد اشارة اليه فى أي موضع آخر ، وهو « ٠٠ انه قصد دمشق مرة وغزاها »

لتسيير الحروب التي كانت تشنها الدولة في مختلف الاوقات والاماكن[21] . غير انهم مهما كانوا يظهرون من الحب والحماسة لدولتهم ، وللامبراطورية التي كانوا تبعاً لها ، فقد كان كل ذلك في سبيل توطيد مراكزهم واجتذاب القلوب الى أنفسهم لانهم كانوا دخلاء . فأن أكثرهم كانوا قد ولدوا نصارى ، ولم يكن أي أحد منهم تركيا . وكانت سلطتهم تستند الى أخوة عنصرية تجمع أهل البلد الواحد في بلاد غريبة كانوا يبقون فيها عبيداً لو لم يتسن لهم حكمها . وفي نصف القرن التالي كانت سلطة الباشا المملوك المستندة الى المؤسسة الملكية العسكرية الوحيدة في البلاد ، تضاهي سلطة الملك المستقل . وبذلك أصبحت سلالة نصف وراثية ، غير تركية ولم تساعدها في ايصالها لهذا الحد الحكومة التركية ، متأصلة الجذور الى حد بقي السلطان معه مدة خمسين سنة لا يعد العراق الا جاراً متحرماً . وهكذا كان يظهر الحال للمقيمين في استانبول[22] . على ان الفرمان شبه المقدس كان يتنافس عليه المماليك المتخاصمون بصورة جدية بقدر ما كان بيديه السلطان من عدم الاهتمام في الانعام به على هؤلاء الاجانب الحقيرى المولد المغتصبين الذين لم يرهم قط . وكان هذا العجز الفعلي ، الذى كان يبدو من السلطان في الهيمنة على ممتلكاته ، يزداد امتعاضه منه كلما كانت روحية الاصلاح في أوربة تتسع ويتعاظم شأنها ، وكلما كانت تمر الحقبة بعد الاخرى من دون أن تستعاد بغداد خلالها الى الحظيرة . ومع هذا لم يكن انحراف العراق عن الامبراطورية انحرافا تاما ولم يشعر أحد بدوامه ، كما لم ينفك مطلقاً عن كونه ملطفاً بكل اعتبار خارجي . لان كثيراً من الولايات الاقرب منه كانت قد ذهبت لابعد مما ذهب اليه هو من الانشقاق المخطر والخيانة المسيئة .

القبائل والاتباع ١٧٨٠ ـ ١٨٠٢ م

كان سليمان باشا قد نيف على الستين من عمره عندما تقلد زمام الحاكمية في بغداد . وكان امامه حينذاك عهد من الحكم يناهز الاثنين والعشرين عاماً . ولم يبد فيه الوهن الذي يقعد عن العمل الا عندما قارب عهده الانتهاء . ومع هذا

---

(٢١) وابرز مثل على ذلك ، كما يقول بريجز (ص ١٩١) ما كان يبعثه بيوك سليمان نفسه ، فقد حول ما لايقل عن نصف مليون پاون استرليني الى يوسف باشا الصدر الاعظم خلال حملته في مصر ضد الفرنسيين .

(٢٢) ايتون (ص ٢٧٠) .

فان من يحكم في بلاد تمتد من منطقة الاكراد المليين فيما وراء ماردين شمالا الى نهر كارون في الجنوب ، تلك البلاد التي أضعفها الطاعون الفتاك أخيراً والحروب الداخلية ودخول الجيوش الاجنبية ، المشحونة على الدوام بأنواع الانقسام والاضطراب ، لابد له من أن ينهي مدة حكمه فيها وقد أعياه التعب ونهكته الحوادث الجسام بالرغم من مدى قوته وبأسه . وقد قدر للحاكم الشيخ ان يشهد اغتصاب الحكم وفعل الدسائس المخطرة في البصرة ، وان يكون له حليف بمقام العدو في شهرزور ، وان يجد الاتحاد العشائري العظيم في الفرات الاوسط قد تعاظمت قوته التي لم تكن بجانبه ، وان يرى اشتداد الخصومات في الموصل وحاجة ذلك الى الردع ، والهياجات في ماردين وضرورة تهدئتها . وقد كانت الحوادث في سنجار أو بني كعب ، وفي العمادية او العتبات المقدسة ، كلها تشغل الحاكم الشيخ ومشاوريه وتتعبهم حتى في وقت كانت فيه حالة الاعداء الحديثين في بلاد العرب تنذر بالخطر . كما قدر له أن يرى رجال حاشيته يصيرون ثواراً وان يشهد سفك الدماء بأم رأسه . وعلى هذا كانت الجهود المتواصلة شيئاً ضرورياً للاحتفاظ بأقل احترام للباشا أو للخليفة . على ان الامن كان مستتباً في كثير من أصقاع العراق . كما كانت التجارة برواج اعتيادي ، وكانت الحياة في داخل المدينة مؤنسة هادئة لا غبار عليها . وكانت في حامية بغداد قوة كبيرة مخلصة . ولذلك كانت الواردات ، المستوفاة من غير عنف ، كافية لاحتياجات البلاد وللارسال بالمبالغ الكثيرة الى استانبول لتعزيز جيوش السلطان في مصر . والحقيقة ان هذا الدور الذي نحن بصدده قامت به باشوية عظيمة بطول أمدها وبثروتها واعتدالها في الحكم ، غير انها ، لو نظر اليها عن كثب ، لوجد انها كانت تعيبها الامراض المتوطنة ، المعروفة في هذا العصر وهذه البلاد .

وقد رحب المماليك وسائر السكان على سواء بالعهد الجديد الذي كان يدعو الى التفاؤل . الا ان التباعد بقي موجوداً بين الطبقتين . فلم يكن مرضياً عند وجهاء بغداد القدماء ان يشاهدوا ان الاغوات الكرج يستأثرون بالمناصب الكبيرة والمزارع المغلة . وما كان يدعوهم للسكوت والقناعة والرضا بالحال الا تفضيلهم وجود حاكم حازم على حاكم متحيف جائر يبعث من استانبول . ولذلك تلاشت الفوضوية من الشوارع بفضل الحزم والشدة ، فعاد التجار من ايران أو خرجوا

من مخابئهم • ثم انتعشت بغداد وسرت فيها روح جديدة • على ان الريف المحيط بالمدينة لم تتسرب فيه الحياة بسرعة • وكان للفوز الذي أحرزه الباشا في منتصف صيف ١٧٨٠ في استحواذه على الموقف وقع كبير تلاشت امامه كل مقاومة قوية • بيد ان الجرائم لم تستأصل مرة واحدة ، بل قضي عليها بالتدريج • وكانت مشكلة الباشا الآنية عدم وجود ما يكفي من القوة المخلصة • فان الانكشاريين المتفككي السيرة الذين لا يعرف ولاؤهم كان خطرهم أكثر من نفعهم ، كما كانت سريات المماليك قليلة ومبعثرة • ومع ذلك كان لابد له من أن يجعل جل اعتماده عليهم • فبادر بكل سرعة لجمع أول رعيل منهم ، فجمع ـ من الداخل ومن الخارج ـ الف مملوك وأخذ يدربهم تدريباً متعباً • ثم عين للانكشاريين ضباطاً اختارهم بنفسه • وخاطر من بعد ذلك بتوزيعهم على مراكز الفرات الاوسط والخالص بدلاً من أبقائهم متجمعين في بغداد في وقت بقي فيه مركزه مهدداً لعدم اتمام تدريب المماليك بعد • وأعدم عدداً من رؤساء الانكشاريين بقسوة علنية لارتكابهم جرائم صغيرة ، كما كافأ المخلصين المفيدين بكل بذله وسخائه • وأقصى قسماً منهم الى خارج العراق فالتحقوا بوحدات دمشق والحجاز •

وقد حضر أكبر رؤساء القبائل في العراق الاوسط لتقديم الطاعة بنفسهم في خريف ١٧٨٠ م فاعتيق قسم منهم بتعيينهم في وظائف شرفية ، وكان الوسيط بينهم وبين الباشا الحاج سليمان ـ شيخ العبيد رئيس الاسرة الشاوية ـ المعروف بكونه مشاوراً وديبلوماسياً • ولم يدون من تاريخ قبائل الفرات الاعلى وديالى ودجلة الوسطى مما يختص بهذه السنين الا النزر اليسير • فقد ظلت هذه القبائل هادئة من غير ان تحتاج الحكومة لتجريد الحملات عليها مدة طويلة من الزمن ، مما اضطر تجار البصرة ان يستريحوا (كما يذكر الوكيل) الى اتخاذ طريق دجلة على ما كان يطوقهم من التأخر والكلف ، لانه كان أكثر أماناً • ولم تضطر الحكومة لتأديب قبيلة زبيد الا في ١٧٩٧ م (١٢١٢ هـ) ، وذلك حين دعت الحاجة لارسال قسم من الجيش بقيادة الكهية لتأديبهم جزاء قطعهم الطريق البرية والنهرية وتأخرهم في دفع الضرائب • ثم سار الجيش لتأديب قبيلة ربيعة في السنة نفسها • وفي سنة ١٨٠٠ م (١٢١٥ هـ) عزل شيخ بني لام فكان لعزله تأثير سيء من دجلة الى لرستان ، أدى لاشتعال نار الفتنة • وقد كتب الوكيل البريطاني عن هذا الحادث

ان « الشيخ المعزول هاجم الشيخ الحديث الذي عينه الباشا وزجت البلاد في أحضان اضطراب شامل من الكوت الى جصان فما حول الحويزة ••• وفي عدة مناسبات عاملت الحكومة عرب شمر بكل قسوة ••• » • ويدل ذكر شمر على أن حادثاً قبلياً ذا بال كان يجري اوانئذ ، وهو هجرة شمر من غرب الفرات الى شرقيه بتأثير ضغط عنزة عليها • فقد انتشرت نواقل هؤلاء في انحاء السهل الواسع الواقع الى شمالي المنطقة التي بين الدجيل والدليم فسنجار وما وراءها ، وعبر فرع منهم وهم شمر طوقة نهر دجلة فاحتل ضفته اليسرى من ديالى الى ما يقرب من الكوت • وكان لهذه الحركة تأثير عظيم سرى فعله الى ديرات مئات من القبائل التي استبدل قسم منها بمكانه مكان غيره • ومن جملة ما حدث بتأثير ذلك انتقال العبيد وعبورهم دجلة من الجزيرة الى الحويجة متخطين بذلك جبل حمرين •

أما الفرات الاوسط فقد كانت تبعث اليه أرتال الجيش واحد بعد آخر ، في كل سنة تقريباً ، لتأديب الخزاعل • وكانت عدة شهور تقضى في التأديب تدل على ان محاولة توطيد دعائم الامن في هذه المنطقة كانت بلا فائدة • لان شيخ الخزاعل حمد الحمود أبى الخضوع اباءاً باتاً وامتنع من الانقياد لكل نظام أو تحديد • ولم يعبأ بما كان يراه من الاستعدادات الحربية ولا بوصول الانذار النهائي اليه الملزم بالخضوع • فاضطر سليمان الى أن يقود جيشه بنفسه ، والتقى بالخزاعل فانتصر عليهم انتصاراً باهراً • فالتجأ الشيخ حمد الى كسر السدود والسكور وغمر الاراضي بالمياه ،فكان تأثير ذلك في العدو غير قليل • الا ان الباشا قابل هذا العمل ببراعة • فقد سارع في سد الكسرات الشمالية وقطع بذلك تدفق الماء الفائض ، فنزل مستواه ومن ثم أمكن تقدم الجيش • وعندئذ هرب حمد الى غربي الفرات • فأمكن جمع الضرائب المتبقية من تلك القبائل واستيفاء الغرامة المفروضة عليهم جزاءاً للعصيان الاخير • ثم أعلن العفو ورجع السلم الى نصابه في تلك الديرة • وتكرر مثل هذا الحادث العصياني التأديبي في منطقة شبيهة بتلك هي منطقة الشامية ، وكان ذلك في ١٧٨٢م (١١٩٧هـ) و ١٧٨٤ • فترك بسبب فقدان الامن طريق الفرات النهري هذا • وكذلك تورط الخزاعل في اضطرابات المنتفك الحادثة في عام ١٧٨٧ م (١٢٠٢ هـ) • وبعد خمس سنوات بدأت من جديد سلسلة الحركات التأديبية المتعبة ، واستمرت الى ما بعد ابتداء القرن الجديد •

وكان هؤلاء أسوأ المكدرين لصفو العراق الاوسط ، لكنهم لم يكونوا الوحيدين من نوعهم . فان العداوات التي امتدت حركاتها مدة طويلة مع العبيد ، وكانت بسببها حتى ضواحي بغداد مهددة غير آمنة مدة سنوات خمس ، كانت تدل على كون سلطة الباشا محدودة . وكان منشأ هذه العداوات في هذه المرة تصادم الشخصيات لا الاسباب الاعتيادية التي كانت تسبب اضطراب القبائل . فقد ذكرنا سابقاً أحمد آغا خادم سليمان الخاص . وقد تطورت سيرة هذا الخادم فارتقى من موضع القيام بأحقر الواجبات الى أن أصبح معتمد سيده وخله الوفي ، وغدت وظيفته وظيفة المهردار (حامل الاختام) المهمة . ولذلك أصبح بطل المماليك (الذي وقف يذود عنهم في السنين المقبلة) والشخصية البارزة التي كتب لها أن تكون الشخصية الثانية بعد الباشا خلال مدة تناهز اثنتي عشرة سنة . وقد نال في ١٧٨٥ م (١٢٠٠ هـ) شرف تعيينه برتبة ميرميران في منصب الكهية ، وهو ذو الوجه الجذاب للقلوب والقامة المشوقة ، المهيب ، الاديب ، المترف ، المؤثر في جميع الناس بحنوه واعتداله . فكان لتعيين هذا الحقير المترقي وقع سيء في نفوس المرشحين من الاشراف وذوي الايام المشهودة ، وخاصة الحاج سليمان الشاوي . وقد كان بين هذا العبد المعتق والعربي الارستقراطي من الحقد المر ما نشأ من قبل وتأصل . فكان كل منهما يسمع الباشا ما يريد ، الا ان الحاج كان أكثر متعة وقوة وكان أحمد أكثر تحبباً . فملأ أحمد عند ترفيعه اذني سيده بقصص عن خيانة الشاوي ومخابراته ومخاطراته في هذا الباب وعن أطماعه الخطيرة . ولما اقتنع سليمان باشا بكل هذا أمر بمصادرته على كل املاكه ، وأمره بمغادرة بغداد . ففر الى قبيلته واُعلنت لأجله الثورة في الحال ، فأرسل أحمد في أوائل ١٧٨٦ م قوة لقمع الثوار . فتراجعوا أمامه من منازل العبيد الى تكريت ، ومن تكريت الى الخابور . وما رجع الكهية حتى عاد الحاج سليمان . ثم زاد في الطين بلة حدوث بعض العوارض الطبيعية المؤلمة . فقد كانت زيادة ماء الانهر في ربيع ١٧٨٦ م (١٢٠١ هـ) قليلة جدا ، كما لم تهطل الامطار فخاب الزرع والحصاد في كل مكان . فارتفعت الاسعار وبلغت حد أحداث المجاعة ، فبادر الباشا بتوزيع حبوبه المدخرة . ثم التجأ الكثير من الناس الى الارياف ، ومات ناس أكثر منهم جوعاً ومرضاً ، فخيم البؤس وأصبح خطراً على الحكومة . وتجمهر الناس في

بغداد وأخذوا يشتمون الباشا لكونه سبب المجاعة • وانتشر العنف في جو اليأس والخرافة المهيأ ، حتى اضطر الباشا في الاخير التوقيف رؤساء الجموع وتفريق المتجمهرين بقوة الجيش • فأعيد النظام الى نصابه على هذه الشاكلة حتى أزالت الطبيعة سبب الكارثة •

وظل الشاوي يعيث فيما بين الخابور وضواحي بغداد فساداً • وقد انضم الى جيشه القبيلي كل متشرد أو هارب كانت تلفظه القرى والمدن • فأصبحت الطرق والبساتين حول بغداد غير آمنة • وأرسل الكهية من جديد للقضاء على خصمه غير انه باء بالخسران المبين • ثم ضغط العبيد ومن يتبعهم بالتضييق على بغداد بعد أن سكروا بخمرة الظفر ، حتى استدعت الحال تنظيم أمور التحصن • وكان التجار والموظفون في الموصل والبصرة يترقبون أخبار الثورة بكل اهتمام • وفي هذا الظرف الزماني العصيب اذهل الجميع خبر شاع عن تعيين الحاج الثائر في منصب البكلربكي للولايات الثلاث • فصدق الاشاعة الحاج سليمان نفسه ، وطلب تدخل وكيل الشركة في الامر • إلا ان الحكاية كانت غير حقيقية ، وبقيت الفوضوية مستفحلة والامن مفقوداً لحد لم تتمكن الحكومة من المحافظة على الكاظمية والكرخ معه الا بوسطة عقيل والا بشق الانفس • وأخيراً انفرط عقد الاتباع عن الشاوي الذي بات يخشى التصادم مع جيوش الباشا ، ففر هاربا الى الشيخ ثويني في سوق الشيوخ •

وكان شيخ المنتفك العظيم هذا قد تمكن من ابقاء عشيرته موالية هادئة مدة أعوام ستة ، كما انه ساعد متسلم البصرة مساعدة جمة في الحركات التي دبرتها الحكومة على بني كعب في ١٧٨٤ م • على انه كان قد اختبر في تلك الحملة مقدار ضعف الاتراك ومقدار اخلاص اتباعه له • فحان للشاقول أن ينحرف ، وبانت البصرة في الاذهان ملوّحة بخيراتها للقبائل العطشى الى المال وقد عيل صبرها • وأخذ الشاوي الثائر يشارك في مجالس القبائل المتداولة لهذه الشؤون • فكان أول المنضمين للمنتفكيين حمد شيخ الخزاعل • وعلى هذا تقدمت قواته الى الزبير وفيها قبض على ابراهيم بك ، وقد كان متسلماً فيها منذ ١٧٨٥ ، مع حاشيته دون انذار ولا مراسيم وبقي معتقلا اعتقالاً ضيق عليه فيه • وارسل ثويني في اليوم التالي قسماً من خيالة المنتفك ، فدخلت البصرة واستولت على السراي ثم فرقت

الحامية وشتت شملها • ومع ذلك كله بقي البلد سالماً من الاضطراب الى أن دخل ثويني مع خمسة آلاف من رجاله في اليوم الثالث • فعادت حكومة البصرة عربية قبلية • ثم اعتقل رؤساء الدوائر الحكومية وضباط الاسطول وصودرت أملاكهم وأموالهم ، كما فرضت على سكان البصرة غرامة قدرها ستة آلاف تومان •

وبينا كان الشيخ معداً سيفه للكفاح كان قلمه مشغولاً أيضاً • فقد سهل عليه أن يحصل من سكان البصرة وهم مذعورون عريضة ممضاة بالامضاءات الكثيرة ، يطلبون فيها اعتراف السلطان بحاكمية ثويني عليهم فارسل بها الى استانبول بعد أن قدمها تقديماً قوياً ومتواضعاً فيه معاً • وفي الوقت عينه غادر بقواته المدينة وخيم على الفرات منتظراً الجيش المنتقم الذي كان يتوقع قدومه من بغداد • وبقي أخوه نائباً عنه في البصرة •

أما سليمان فقد بعث على حسب العادة الى أكراده في درنه وبجلان ومنطقة البابانيين • ثم استعار جماعات الانكشاريين من الجليلي ، وكتب الى شيخ بني كعب يناشده المعونة • وانحاز اليه حمود الثامر خصم ثويني • فدخل الجيش ديرة الخزاعل ، ونزل في أواخر تشرين الاول ١٧٨٧ م (١٢٠٢ هـ) الى ام العباس في بلاد المنتفك وفيها وقعت موقعة حامية دامية انكسر فيها ثويني وقواته ورجعوا هاربين من مراكزهم متفرقين ، فاسترجعت البصرة من غير معارضة • وقد عين حمود الثامر شيخاً للمنتفك ومصطفى آغا متسلماً في البصرة • وجمع الباشا من المدينة غرامة جسيمة ، ثم ضاعف الرسوم الكمركية للمدة الباقية من السنة • وبعد ان ترك في البصرة حامية من اللاوند غير النظاميين عاد الى أواسط العراق[٢٣] • وبعد مرور عدة أشهر بعث الحاج سليمان الشاوي

---

(٢٣) قال ياسين العمري في حوادث سنة ١٢٠٢ « سار بالعساكر والي بغداد الوزير سليمان باشا الى جهة البصرة وحاصر عرب المنتفك وفيهم الحاج سليمان بك (الشاوي) وعملوا مصافا فقتل من العرب نحو الف نفس وقتل من العسكر نحو خمسمائة نفس وهرب الحاج سليمان والامير ثويني وتبعهم الامير خالد آغا ونهبت الخيام والاموال ، وجعل فى البصرة والياً نعمان افندي الدفتردار وعاد الى بغداد واستولى على أملاك الحاج سليمان بك ثم أرسل الحاج سليمان بك يعتذر الى الوزير من تقصيره فعفا عنه وأعاد اليه أملاكه ثم قدم الامير ثويني وطلب الامان فعفا عنه وأمنه وتركه فى بغداد مكرما ثم قدم الامير خالد آغا فعفا عنه وقبل عذره واستخدمه وقربه » (م٠ج)

يطلب الصلح بالعفو على شرط عدم اقامته في بغداد .

على ان اضطرابات البصرة لم تكن لتنتهي اذ ذاك . فبعد ان هدأت الحال فيها مدة سنة واحدة اكتشفت فيها مؤامرة مخطرة دخل فيها أكبر الضباط في العراق الجنوبي وحكام شهرزور . فان المتسلم الكردي الحديث في البصرة ، المنساق على وجه الاحتمال ببعض الشعور العنصري زيادة على الطمع ، خدع حاميته المؤلفة من جنود اللاوند وكتب الى عثمان باشا بابان لتدبير ثورة تضرم نارها في وقت واحد ويستهدف بها استقلالهما كليهما ، وكذلك اجتذب ضباط البصرة الى جانبه بالرشوة والهدايا . ثم بعث على الثائر ثويني وكتب في الوقت نفسه الى بغداد بأن لا قبل لحمود الثامر بالمشيخة ومن الواجب اعادة الشيخ السابق الى مشيخته . غير ان سليمان باشا كان قد اطلع على كل شيء . فصادقه حقيقة على اعادة ثويني ، الا انه نقل في نفس الوقت قائد خيالة البصرة الى بغداد وبعث محمداً الشاوي الى البصرة يحمل تحذيراً عاماً للمتسلم ورجاء خاصاً الى القبطان باشا ـ وكان مفاد الرجاء ان يخلع المتسلم بضربة فجائية . على ان القبطان مصطفى الحجازي أساء تدبير الامر ، فكلفه ذلك عقوبة قطع رأسه . فتطايرت الانباء الى بغداد ، وبات الكل ينتظرون حملة تأديبية .

وبقي ديوان بغداد جاهلا بمكيدة شهرزور حتى أماطت أوراق مصادرة اللثام عن طمع الباشا البابانى في ولاية بغداد نفسها . فما كان أسهل على الكردي ان يزحف نازلا على بغداد العزلاء لو سار سليمان مع جيشه الى البصرة ! عندئذ سارع سليمان في توجيه كتاب فيه وعود مغرية الى العاصمة البابانية : فقد دعي عثمان باشا الى بغداد حيث زوجت ابنته ، مع المجاملات الكثيرة ، الى أخي الكهية . وبهذه الوسيلة عزل البابانى عن قواته وعن تأثير حليفه في البصرة . ثم تحركت في شباط ١٧٨٩ م (١٢٠٤ هـ) قوات بغداد ، فكانت الحملة غير دامية . فما وصل الجيش الى البصرة حتى انهارت المعارضة . وفر مصطفى بسفينة الى الكويت[٢٤] وقصد ثويني البادية[٢٥] . فأعيد حمود الى مشيخة المنتفك ، وعين أغا

---

(٢٤) اما عاقبة مصطفى الفار الى الكويت فقد ذكرها ياسين العمري في حوادث سنة ١٢٠٧هـ (١٧٩٢م) قال : « وفيها قدم الموصل مصطفى آغا متسلم البصرة سابقاً وكان قد عصى في البصرة فارسل والي بغداد يامر قبودان باشا

مملوك آخر ـ عيسى المارديني ـ لحكومة البصرة ، ولم يذكر عنه ولا عمن جاء بعده شيء مهم • وبقيت الاحوال بحالة اعتيادية في البصرة لما تبقى من عهده الضويل • وأدى ضعف العلائق في ١٧٩١ م (١٢٠٦ هـ) مع قبيلة كعب الى تشييد قلاع نهرية ، وازدياد القرصنة ، واصطدام غير حاسم بين الاسطول التركي والاسطول القبائلي • وبعد مرور سبع سنوات كادت مطاليب السيد سلطان، حاكم مسقط ، المهملة بتسوية بعض الادعاءات القديمة ، أن تؤدي الى هجوم القوات العمانية على البصرة • فطلب الى الوكيل البريطاني التوسط ، الا ان الفريقين توصلا من غير مساعدته الى حل ما فانفرجت الازمة • وحافظ حمود الثامر ـ بطل الاساطير القبيلية لشذوذ شخصيته ـ على رآسة المنتفك ست سنوات • اما عهد ثويني (المعاد في ١٧٩٦ م (١٢١٢ هـ)) الاخير فيعود البحث عنه لصفحات متأخرة •

مصطفى بقتل العاصي « مصطفى آغا » فبلغه ذلك ، فاستدعى مصطفى باشا وقتله صبرا وهرب الى مسكت « مسقط » ثم الى الروم واتصل بخدمة ابراهيم باشا والي اورفه ولما قدم والي بغداد الى نواحي اورفه لمحاربة تمر باشا هرب مصطفى آغا واتصل بوالي المعدن يوسف باشا فتشفع فيه عند مخدومه فعفا عنه فقدم الى الموصل فأرسل كتخداه والي بغداد خفية يأمر بقتله فقتلوه فبلغ ذلك الوزير سليمان باشا فشتم كتخداه على ما فعل » ـ « م• ج » •

(٢٥) التجأ ثويني الى الكويت ولم يكن بوسع سليمان باشا تعقيبه الى هناك ، ورحل بعد ذلك الى الدرعية عاصمة الوهابيين • وأعفي من بعد ذلك في ١٧٩٢م (١٢١٧هـ) « سنة المراحم » فعاش خمس سنوات في بغداد • (المؤلف)

ومن اخبار ثويني ما ورد في حوادث سنة ١٢١١هـ (١٧٩٦م) من الدر المكنون ونصه « وفيها انعم والي بغداد الوزير سليمان باشا على امير المنتفك ثويني واطلقه وولاه امارة عشيرته واعطاه خمسين الف قرش ومائة ناقة ومائة فرس ومائة خلعة وكان مقيما ببغداد مكرما فما خرج من بغداد حتى انفق الجميع لكرمه وسخائه » •

وقال : « وفيها سار بالعرب الامير ثويني بأمر والي بغداد الى حرب الوهابي فانتصر وغنم من عرب الوهابي نحو مائة الف رأس غنم وارسل الى بغداد يستمد عسكراً فبعث له عرب العقيل وعساكر العراق مع أحد اتباعه احمد آغا ابن العراقي فسار بهم واجتمع بالامير ثويني » • « م• ج » •

وعلى مسيرة أسابيع كثيرة من شط العرب تقع البلاد الجبلية التي للبابانيين الذين كانوا قد اتفقوا مع حاكم البصرة على الثورة • وفيما عدا هذه الحادثة لم يكن بين البصرة وشهرزور شيء من العلاقات الوثيقة • على ان علاقة شهرزور ببغداد كانت على أوثق ما يكون في هذا العهد • فقد كان الشبان من نبلاء الاكراد يعيشون في بغداد كالعادة ، وكانوا يجدون فيها ما يوسع شقة الخلافات بينهم ويزيد في اشتدادها • وكانت ثروتهم وكثرة اتباعهم مما يجعل الوالي ووزراءه ينظرون اليهم على الدوام • فكان هؤلاء يشتركون بالدس مع رجال الحكومة في بغداد وكان يسعى كل واحد منهم بهذه الواسطة الى الحصول على حظوة له أو لاحد أقربائه في الجبل • وعلى هذا كان الباباني في ديرته لا يشعر بالاطمئنان ما لم يكن له في بغداد أو في كرمنشاه ولد ذو حظوة عظيمة • وكانت قوات شهرزور ذات أهمية كبيرة بالنسبة لحاكم العراق الذي كان لا يأتمن الانكشاريين ، ولما يتم تدريب مماليكه الحديثين بعد • ولا غرو في ذلك فقد كانوا أقوياء يعدون بالآلاف ، كما كانوا رهن اشارته في الطاعة يدعوهم متى شاء لقمع ثورة أو لمطاردة ثائر • ومما كانوا يطعمون على أحسن وجه ويركبون بأحسن حال ، ويقودهم رئيس من بيت مالك ، فقد كان مستوى تجهيزهم وخبرتهم بأمور الحملات أعلى بكثير مما كان عليه الامر لدى القوات العراقية ، أما في المدينة ذاتها فقد كان لباس البكات الاكراد الحريري وزينته المزركشة وعدتهم الباذخة مما يزين قصر الباشا فيها ويسبغ عليه رونقاً جذابا • على ان نزاعاتهم الداخلية وتدخل القوات الاجنبية في شؤونهم ، من جهة أخرى ، كان مما يجعل تابعيتهم مخطرة ومذبذبة •

وقد وصلنا من قبل بتاريخ امبراطوريتهم (البابانية) الى البحث عن حكم محمود باشا غير الثابت وكونه قد ورث أخاه محمداً في ١٧٧٨ م (١١٩٢ هـ) وجاء بالقوات لمساعدة حسن باشا خارج بغداد • وفي العهد الجديد هذا كانت حظوة ابن أخيه ابراهيم تفوق حظوته هو ، وقد عرف بطرده عن الحكم بسبب الدسائس التي كان يحوكها فعجلت بانتهاء حكمه • وكان حاكم كركوك يومذاك عثمان بك كهية حسن باشا الاسبق وصديق البابانيين القديم ، وكان سميه عثمان بك بابان (ابن محمود) قد اتصل به ليقوما معاً بعصيان وثورة ، فوافقه على ذلك وصادقه على الخطة محمود نفسه • فأعلنا العصيان ومشى اليهما بيوك سليمان « الكبير »

فوصل كركوك وفيها انضم اليه جيش من الموصل • ثم انحاز الى جانبه الخصوم والطامحون ، فاختار حسن بك بن سليمان باشا من بينهم ليخلف عمه • فتولى حسن العرش أياماً قلائل حتى أعرب محمود عن خضوعه وقبل الشروط المفروضة عليه فأعيد الى مكانه • ومع ان كوي كانت قد انعم بها على محمود بك سوران فانها كانت على هذا العهد من توابع الامبراطورية البابانية التي لم تعرقل توسعها ، على حساب جارتها رواندوز ، الفتن الداخلية •

الا ان الشروط التي كان قد انقاد اليها محمود سرعان ما رميت عرض الحائط ، وهوجمت كوي • فجردت حملة ثانية من بغداد انتهت بتجديد الخضوع والتفاهم • وفي ١٧٨٣م (١١٩٨ هـ) عاد الكردي المذبذب وحنث باتفاقه فاكاً عن عنقه نير الولاء ، ثم نهب جيرانه • فمشى اليه سليمان باشا بنفسه من بغداد وجمع جيشه في طريقه ، والتحق به من كوي ابراهيم باشا • فتخلى عن محمود كثير من أتباعه ، ثم طرد من مراكز دفاعه فلقي حتفاً غير ممجد في ايران • غير ان ابنه عثمان حظي بالعفو في بغداد ، وتولى ابن أخيه ابراهيم حكومة البابانيين •

واحسن ما يذكر به ابراهيم باشا اتمامه انشاء بلدة السليمانية التي كان قد بدأ بها من قبل محمود باشا في ١٧٨١م (١١٩٦هـ) ، وسميت بهذا الاسم تمجيداً وتخليداً لاسم الباشا الكبير في بغداد • وقد عزز ادارة مملكته واضاف الى امبراطورية السليمانية أراضٍ واسعة تابعة لمناطق زهاو وقصر شيرين وخانقين • وقبل ان يطول به الامد خسر تأييد الرأي العام له بتفضيله سكنى المدن ، وظهر له ـ كالمعتاد ـ خصم حديث • وقد طلبت معونته في جنوبي العراق سنة ١٧٨٧م (١٢٠٢هـ) فكان بطيئاً في تلبية الطلب ، فعزل وحل في مكانه عثمان فأبلى بلاء حسناً في موقعة ام العباس • الا ان هذا لم ينشب ان اصبح من المغضوب عليهم لمشاركته في ثورة البصرة في ١٧٨٨ م ، ولم يعش طويلا بل مات في السجن • على ان الارجوحة في السليمانية مضت على عادتها • فقد عاد ابراهيم وحفظ مركزه الجديد سنة واحدة ، وتلاه لسنة أخرى عبدالرحمن باشا أخو عثمان • ثم فر عبدالرحمن الى ايران عندما علم بموت أخيه، الا ان علاقته الوثيقة المتصلة بالكهية القوي قد ضمنت له الامان والترفيع • ولو لم يثبت عبدالرحمن صلابته وتفوقه على أطماع خصومه الثابتة لكانت خطورة حاله تزداد حرجاً ولكانت مهمته في الحكم اصبحت شاقة تماما • فقد كان متحلياً بجميع

سجايا الحاكم القوي الناجح • ومع ذلك كله فقد انقطع عن الحكم ثلاث مرات في المدة التي بين ١٧٨٩م (١٢٠٤ هـ) و١٨١١م (١٢٢٦هـ) بتدخل من أحد أقربائه• وروّعت مدة حكمه الثانية بتفشي الطاعون وروعت بحدوث الزلزال • وفي ١٧٩٢م (١٢٠٧ هـ) استخدم الباشا قواته في تعقيب الشاوي الثائر • وفي ١٧٩٤م غزت هذه القوات جبل سنجار ووصلت الى ما يقرب من أورفه • وفي ١٧٩٩م (١٢١٤هـ) شارك ثلاثمائة من الخيالة البابانيين في غزو اليزيديين • وبعد هذا كله لقيت توسلات ابراهيم اذناً صاغية في بغداد • فوجد عبدالرحمن نفسه مخلوعاً وفي مكانه ابن عمه ، وقد عوض عن ذلك بكوي وحرير[26] • وفي اوائل ١٨٠٢م (١٢١٧ هـ) استدعته حكومته الاخيرة ونفي مع أخيه سليم الى الحلة •

ولا نرى بنا حاجة لان نذكر الا الشيء القليل عن الولايات الكردية الجنوبية والوسطى غير هذه • فقد وقعت أخيراً كوي سنجق في حوزة البابانيين ، ولو ظل حكامها السورانيون يحكمون فيها أحياناً بفضل الباشا في بغداد • وكثيراً ما كان الحكم في هذه الولايات يعتبر خطوة تمهيدية يتخذها الباباني المسطير للاستيلاء على حكومة السليمانية الكبيرة • وقد حافظت رواندوز على منزلتها ، ولكن بتقلص ممتلكاتها ، فيما وراء الفتحة التي تمد خط دفاعها وحاجزها الكمركي • وانتهت في العمادية مدة حكم بهرام باشا الطويلة بموته في ١٧٦٧م (١١٨١هـ) • الا ان ابنه اسماعيل الذي ورثه حكم في مكانه مدة عهد كامل ، ولم يتهدد مركزه الا مرتين أولاهما عند أول تسنمه الحكم وأخرى عام ١٧٨٧م (١٢٠٢هـ) • وقد أثار موته أطماع الخصوم العديدين وجلهم من أسرة الباحديناني ، وهم اولاده وأبناء أخيه • فانتهت الحرب الاهلية المستعرة بين الاقارب بارسال مراد بك الذي بعثه الحاكم الباباني تنفيذاً لاوامر بغداد • اما دويلات العمادية ـ عقرة ودهوك وزاخو ـ

---

(٢٦) ان سرعة تبدل الحكام والامراء البابانيين كان شيئاً طبيعياً بالنسبة للاحوال التي كانت تحيط بالموقف • لان التعيين كان يصيب كل من يظهر ببأسه وشجاعته وشهرته ، ولو في مدة يسيرة • وكانت تؤثر أيضاً الدسائس الايرانية ، زيادة على وجود كهية قوي في بغداد تضارع قوته الباشا نفسه • لكن الذي كان ظاهراً للعيان هو سياسة بغداد القاضية باطماع الاماثل من البابانيين لضبطهم واتقاء شرهم •

فقد قسمت بين رؤساء الاسرة البحدينانية الذين اعترفوا بسلطة البك الاكبر عليهم . وكانت في هذا الحين جزيرة ابن عمر تتمتع بأيام عز ورخاء أقلقها في عام ١٧٨٢ م (١١٩٧ هـ) نشوب خصام عنيف على السلطة . وقد تمكنت قبل هذا بسنة من الاحتفاظ بكيانها أزاء تعديات حاكم بتليس[٢٧] .

ولم يحدث في كركوك والبلدان المتعلقة بها فى التابعية ما يصح أن يسمى تاريخاً . ولم تعد أيالة شهرزور ، الند الاكبر لبغداد فيءيوم من الايام ، أغنى توابعها وأكثرها تقديراً . فقد وقعت كفري في حكم بغداد مباشرة ، وغدت دويلات الاكراد الجبلية من ديالى الى الزاب الاكبر تتعاطى في أمورها مع المتسلم فى كركوك أقل مما كانت تتعاطاه مع سيده المملوك . فلم تفقد هذه المدينة منزلتها الأيالية مطلقاً ، وهي التي كان ينعم بها السلطان نفسه أبداً ودوماً على مرشحين لا تقل رتبهم عن رتبة مير ميران ، وتحتفظ بديوان لا يقل عن ديوان الباشا الكبير في بغداد . تلك كل ذلك فان المناطق المحيطة بالموصل من كل جهة أصبحت تنظر في أمور التأديب أو المكافأة الحسنة الى بغداد أكثر مما تنظر الى الموصل . على ان قسماً من هؤلاء ربما كان يتخذ موقف غير المهتم بالجهتين ، الا ان الجميع ، ومنهم الجليلي نفسه ، كانوا يعتبرون بغداد مرجعاً أعلى لهم .

ولقد حافظت أسرة عبدالجليل على منزلتها الخاصة بها مدة طويلة . فلم يجرؤ الا باشوات قليلون ، من غير هذه الاسرة ، على تولى حكومة الموصل . وقد بلغ عدد الحكام الذين حكموا الموصل في المدة التي بين وفاة الحاج حسين وأيام بيوك سليمان « الكبير » عشرين حاكماً ، كان منهم ثلاثة عشر حاكما من الجليليين . ولا تبحث الحوادث المتكدسة عن هذه الاسرة فى تاريخ العراق العام وانما تبحث كلها فى التاريخ المحلي . فلم تعبأ الا قليلاً بما كان يجري خارج سور الموصل كحصول هذا الابن أو ابن الاخ ذاك من أبناء الحاج حسين علي فرمان قصير الامد أو ما أشبه ذلك . على ان الجليليين قد قاموا ، أكثر من مماليك بغداد ، بدور مهم في شؤون تركية العامة . فكثيراً ما كانوا يترددون الى استانبول . وقد قضى أمين باشا ، الذي تولى حاكمية الموصل سبع مرات ، عدة أعوام أسيراً فى

---

(٢٧) اوليفييه (ج ٤ ص ٢٥١) ، سيستيني (ص ١٢) .

روسية ، كما توفي ابن عمه فتاح أثناء قيامه بواجب خاص في سورية ، وتولى سليمان كثيراً من المناصب العالية في الامبراطورية • وعلى هذا فليس من المستغرب أن يتكرر تعينهم للباشوات في الموصل وغيرها لان ذلك كان تقديراً لاعمالهم الباهرة فى الخارج ، ولخدمتهم الجلى فى العاصمة ، أو لمجرد حظوتهم عند المملوك في بغداد • ومن أكثر ما يذكر من المنازعات التي ولدتها الاحقاد الاخوية في مدينتهم كانت تلك التى اعقبت وفاة فتاح فى ١٧٧١م (١١٨٥ هـ) ، ثم العراك العنيف في الشوارع بين أتباع عبدالباقي وأتباع سليمان (الذي كان محافظاً في بغداد مرة) في ١٧٨٤م (١١٩٩هـ) • ولقد حسم النزاع الاخير فى ديوان بغداد ، فكان ذلك في مصلحة عبدالباقي الذى بتر أمد حكمه ، وما يزال قصيراً ، بعد سنة من توليه ، وذلك بوفاته في أثناء قيامه بحركات على اليزيديين في سنجار • ومن بعد ذلك أدت سنوات أربع هادئة الى حلول العهد السلمي الطويل الذي حكم خلاله محمد باشا الجليلي ، ذلك العهد الذي كان يثني عليه فيه رعاياه ثناء حسنا ويشيد بذكره الناس حتى المسافرون الاوربيون [٢٨] • فكانت مدة حكمه ثماني عشرة سنة •

وكان ادخال ماردين في ضمن باشوية بغداد منذ قرون ثلاثة قد جاء معه اليها بمشاكل الجزيرة الشمالية • فقد كان هذا الصقع يجمع بين الأكراد الجبليين والبدو العرب ، بينما كان التركمان النازلون هناك يفلحون الارض بين العنصرين المذكورين • وكان الاكراد في مثل هذه الاصقاع التي تختلط فيها العناصر هم المسيطرين • وكان هؤلاء ــ مع عدم وجود الدم الكردي الخالص في عروقهم وعدم انضوائهم الى وحدة سياسية واحدة ــ يعرفون أنفسهم انهم هم فرع المليين من العنصر الكردي ، وكان بوسع جميعهم أن يلتفوا حول زعيم من الطراز اللائق بهم • والحق انهم كانوا محتاجين لهذا وحده ليؤلف من النصوص جيشاً خطيراً ويقلب الاضطرابات الى خطر مهدد • وقد ظهر مثل هذا الزعيم في أوائل العشرة التاسعة من القرن الثامن عشر ، وهو تيمور باشا الكردي الشريف المولد الذي

---

(٢٨) اوليفييه (ج ٤ ص ٢٦٦) وميرزا أبو طالب (ص ٢٨٩) (المؤلف)• ان الذي ذكره أبو طالب هو ان الناس كانوا يحترمون محمد باشا الجليلي كثيراً وكان متكبراً جداً بحيث لا يكلم أحداً من نواب باشويته مشافهة » • « راجع رحلة مرزا أبي طالب ،الترجمة الفرنسية ص ٣٧٤ ــ ٥ ، طبعة باريس » • « م•ج »

كان يشغل منصباً كبيراً في استانبول ، ثم هرب من العاصمة الى الاصقاع الوسيعة لاقاربه المليين على أثر سقوطه من المنصب بصورة فجائية .

« وقد دعا الى خيمته هناك العصاة وقطاع الطرق من كل جهة . حتى كوّن من حوله قوة كثيرة العدد متكونة من مادة تناسب أغراضه . ولم يكن غيره أكثر ليقاً بالحياة التي كتب له أن يحياها عاصياً مستقلاً ، وقد نجح في الحال في أن يعترف به سيداً لهذه الاصقاع وان يخيف حتى باشوات ديار بكر وحلب الثابتين » [29] .

فأصبح وجوده خطراً مخصوصاً على مواصلات الموصل ، وفشلت جهود الجيش في القضاء عليه . وعلى هذا طلب السلطان الى سليمان الكبير نفسه أن يزيل هذا الأزعاج ، فسار شمالاً الى الموصل في أوائل ١٧٩١ م (١٢٠٦ هـ) . وجمع هناك ثلاثين الف فارس ثم توجه الى ماردين . فلم يكن بوسع تيمور ان يقف امام جيش مثل هذا . فانحلت قواته ، وفر هو نفسه ، ثم أدب سليمان المليين بشدة . ولم يتملص ويبوضه ماردين نفسه عما كان يحوم حوله من الريب ، فغرم وعزل . وقد شنق اثنان من أجل اتباع تيمور فى ماردين ، ثم عين أخوه ابراهيم رئيساً أعلى للمليين .

ولا تشجع هذه المراجع التاريخية العقيمة ، ولا تساعد العناية بهذا المجال ، على البحث بالتفصيل في شؤون ماردين . فقد كان الويبوضة أي المتسلم يأتي في الدرجة الثالثة ضمن باشوية بغداد التي كانت تحكم هذه الولاية الثانوية مباشرة [30] . وكان عنف المنازعات الحزبية والشخصية يفوق ما كان موجوداً منها فى الموصل نفسها . فقد عزل المتسلم فى ١٧٩٤م (١٢٠٩هـ) قسراً ، ولم يسلم خلفه من مثل هذا أيضاً . وأدى الشغب الحاصل في ١٧٩٦م الى فرار رئيس حملة البنادق ثم الى الارسال برأسه الى بغداد . وطرد بعد ذلك الويبوضة نفسه ، فعين في مكانه أحد مرشحي الجمهور الصاخب .

اما التأييدات والاختلافات القبلية ، والهدايا التي كانت تقدم الى الموصل

---

(٢٩) بكنيغهام « بين النهرين » (ج ١ ص ٢٩٣) .

(٣٠) وهذا ما كان يسبب استغراب المسافرين الذين كانوا يجدونها قريبة كثيراً من ديار بكر

أو بغداد ، وموازنة التركي والمملوك بالملي ، والقتال الذي كان يجري في شوارع ماردين ، والخصومات والدسائس والتكتلات والرشاوى وحوادث القتل التي كان يقوم كل منها بدوره في السياسة الغامضة العنيفة المعقدة لهذه الزاوية المتطرفة من الباشوية ، فمن الاحسن ان يقتصر على تصورها في المخيلة بدلاً من سردها على الورق . وقد سور المدينة سليمان باشا [٣١] . وأعاد تيمور باشا الى بلاده وجعله والياً على أورفة في ١٨٠٠ م (١٢١٥ هـ) .

الوهابيون

واذا انتهى مؤرخ العراق من بحثه في الاضطرابات والفتن غير المنقطعة في الفرات والجزيرة وكردستان ، والتفت لناحية أخرى يجد عدواً جديداً للباشوية ، ذلك العدو الثابت في مبدئه على كل ما عنده من تنقل ، المهدد مع كل ما يستحوذ عليه من فقر ، والمخطر الذي لا يقل خطره على الاراضي المسكـــونة في غربي العـــراق في هـــذا اليوم عن خطـــره عند اول ســـاعة من ظهوره . فقد حدث في الجزيرة العربية ، التي كانت قد انجبتالنبي (ص)وبعثت مئة من الهجرات البعيدة المدى ، اندفاع ديني آخر تفجرت ينابيعه من واحات نجد .

ففي السنوات الاولى من عهد أحمد باشا كانت مدارس بغداد الدينية تضم بين جدرانها طالبا من طلاب العلم ، يدعى محمد بن عبدالوهاب ، وقد تدرجت به

(٣١) قال ياسين العمري في حوادث سنة ١٢١٥ هـ (١٨٠٠ م) ما صورته:
« وفيها ارسل والي بغداد الوزير سليمان باشا الى الدولة يطلب الـوزارة الى تمر باشا الملي . فاجابوه بالقبول وقدم البشير الى بغداد في رمضان ثم قـدم القابجي (البواب) بالفرمان والخلعة في شوال ولبس تمر باشا الخلعة وصار وزيرا وولي مدينة اورفه . ثم ان الوزير سليمان باشا اعطى تمر باشا خيلا وبغالا وجمالا وخياما وأموالا فاستخدم العساكر وخرج من بغداد وقدم الموصل منتصف ذي القعدة ، وخرج الى استقباله الوزير محمد باشا وأرسل معه أربعمئة تفنكجي بامر والي بغداد » فاقام تمر باشا سبعة ايام ورحل ونزل على جبل سنجار (موئل اليزيدية) وحاصرهم وطلب منهم « أموال القافلة » فاعطوه ثمانين بغلا وفرسا وحمارا وبعض المال

اما القافلة المذكورة فيقال في ذكرها «وفيها قدمت قافلة من ديار بكر ونزلوا بالجربارات (كذا) وخرج عليهم قطاع الطريق ونهبوا القافلة وراح لهم ستون حمل كتان سوى القماش » « م. ج » .

الامور بعد ذلك حتى قدر له ان يجلب اخطاراً عظيمة على البلاد التي أقام فيهـا هذه • وكان قبل ان نجده في دور الكتب وخزائنها الباردة المطلة على دجلة قد درس في مكة ودمشق والبصرة • وكان خلال جولاته التجارية قد شاهد مدن كثير من البشر وتأمل الاسلام من عدة نواح • فكان واجبه في الحياة « الاحياء » أي الرجوع في صفاء التعاليم الاسلامية الى منبعها ومحاربة الترف والدجل ، والذنوب الشائنة • وعندما غادر بغداد ذهب للحج فأقام في المدينة مدة من الزمن • ولما توفي أبوه عبدالوهاب من بعد ذلك اوقف سني حياته الاخيرة للدعوة الى عقيدته المنطوية على اليسـر والعـود الى جوهر الدين ، وذلك في قريته « عوينة » بنجـد • وعندما اضطر الى الفرار منها التجأ الى أمير مجاور له في الدرعية ، وهو محمد بن سعود • فاستقام عنده واستولى على لبه سنة بعد أخرى ، فكان من ذلك ان اتحدت قواهمـا الدينية والدنيوية ، فولد ذلك وحدة وروحاً في هذه الدويلة الصغيرة التي نشرت عقيدتها بالفتح • ومات الامير في ١٧٦٥م (١١٧٩هـ) تاركا مملكته الناهضة لابنه (من بنت المصلح الديني نفسه) عبدالعزيز بن سعود • وما حلت سـنة ١٧٧٥م (١١٨٩ هـ) حتى كان ابن سعود هذا ذا قوة عظيمة في الجزيرة •

فأصبحت منذ ذلك الحين تعرف امبراطورية ابن سعود النجدية بالعقـيدة الوهابية • وقد وسع معتنقو هذا المذهب الأيقوني الضيق ، الغـلاظ المرتدون ، دويلتهم بمحاربة من جاورهم من المسلمين الذين فسدت عقائدهم • وكانت كل غزوة لها فتوى دينية • وكان ازدراؤهم الفائر للمرتدين المترفين المحيطين بنجد من كل جهة قد حداهم لا الى استعمال العنف الشديد بل الى ارتكاب أفعال خيـّل معها للكثيرين من الناس انهم يقصدون بها مهاجمة الدين الاسلامي نفسه • والحقيقة ان أخشن رعاياهم ، أو أوحشهم ، من القبائل والمقاتلين كانت لا تعرف من القرآن والسنة الا النزر اليسير • كما كان انفعالهم من تعاليم الدين المحرفة يزيد كثيراً على ما يضمرونه من حنق على اليهـود أو النصارى • وكانوا يضمرون للخليفة وكل شيء تركي استهانة لا تحتمل •

وكانت أول حروب الوهابيين الخارجية مع بني خالد في الاحساء • فلـم يصادفهم كثير من النجاح هناك • الا ان غزواتهم الدينية توسعت في جميع الجهات •

وقد أصبح العراق قبل ١٧٩٠م (١٢٠٥هـ) يحس بوجود جار حديث غير مستقر، لان جماعات متعصبة وسمت أبلها بشارات بارزة وهي تحمل رقاعاً دينية غريبة غزت غزوها المألوف واحتلت مراعي الضفير والمنتفك والشامية • ثم صارت تعرف ماهية هذا الخطر ببطء • فقد أضاف هذا العدو الجديد الذي ظهر في حدود العراق الى خداع قوات البادية المألوف ما يستفز السلطات الحاكمة فيه • ولا غرو في ذلك فان الملالي الوهابيين قد ينتشرون في خيم الضيوف عند العشائر الفراتية فيخطبون فيها، مشعلين نار السخط الكامن على الباشا والسلطان ومستعملين الخرافة والمال ــ وبذلك قد يكونوا سبباً مهماً لنزع قبيلة بعد أخرى من آخر بقايا النفوذ العثماني عليها • وبقي مدى انتشار هذه الحمى في العراق أمراً مشكوكا فيه مدة طويلة من الزمن • فقد كانت الحدود التي نهكتها الغزوات والحروب من قبل، عرضة للاذعان الى الخوف أو الحجة بقدر ما كان يؤمل منها ان تقف مناضلة بجانب الولاية التي تكون هي نفسها قسما مهماً منها • فازداد خضوع الجزيرة لسلاح الوهابيين واستمالتهم • غير ان العقيدة الجديدة لم تلق الا رواجاً قليلاً في العراق • فقد قوبلت الجيوش الوهابية، المزعومة للنور والانقاذ، كما يقابل المرتدون واللصوص • لان قبائل العراق، السنية والشيعية، ما كان يمكنها ان تستسيغ تبديل العقيدة بفعل التهديد بالنار وغزو الماشية •

وكان الشيخ ثويني أول عراقي صد العدوان وصمد له حينما اعيد في الايام الاخيرة الى موطنه ومنصبه[٣٢] في ١٧٩٧م (١٢١٢هـ) • فقد كانت القبائل التي تنتجع الكلأ، والقرى غير المحصنة في جنوبي غربي العراق، معرضة منذ عشر سنوات للغزوات السريعة القاسية • وكان هؤلاء يدافعون العدو عن أنفسهم

---

(٣٢) وفي تعليق لبريجز (الص ٢٧) على الهدنة التي أعقبت حملة علي باشا التي جردت سنة ١٧٩٨ ــ ٩، يضيف قوله « •• وقد القى الاتراك اللوم في مخالفة الوهابيين لهذه الهدنة على ثويني »، أي أنه يعتبر ثويني قد عاش الى ما بعد هذه الحملة • لكن المراجع المحلية تؤكد على ان حملة ثويني قد سبقت حملة علي باشا • راجع « رحلة جاكسون » الص ٥١ التي يقول فيها ان ثويني أرسل لصد الوهابيين في حزيران ١٧٩٧ ــ المؤلف

ذكرنا في حاشية سابقة التعليق ان ذلك كان سنة ١٢١١هـ (١٧٩٦م) •

بشتى الطرق من الهزيمة أو السلاح أو تبديل العقيدة من غير أن تظهر امارات النجدة من الحكومة • وقد ساءت الاحوال في ١٧٩٢ ـ ٩٥ م لان الوهابيين تمكنوا من اخضاع بني خالد • وسمع العالم الاسلامي بأجمعه بالخطر الجديد الذى بات يهدد الحجاج في طريقهم الى الحج • وبادر شريف مكة بشرح التهلكة للسلطان • وكان أولو الشأن في الباب العالي يطلبون بصورة متكررة من تابعهم المملوك في بغداد ، في ١٧٩٥ ـ ٩٧ م ، ان يحمي الامبراطورية ويعاقب الوهابيين • غير ان الباشا كان قد بلغ من الكبر عتياً وغدا فاتراً في همته بحيث أودعت أكثر شؤونه في أيدي موظفيه ، فارتبكت أحواله وكثرت نفقاته من غير أن يهتم بحدوده في البادية[٣٣] •

وبعد ان وصل ثويني الى موطنه قضى ثلاثة أشهر في جمع القطعات القائلية في جهرة ، وفي جمع الرصاص والبارود ، وارسال اسطول يحمل الذخائر الى القطيف • وقد رافق الاسطول ناس من عرب عقيل بغداد ، وما يزيد على كتيبة واحدة من الجنود الاجيرة اذ ذاك • ثم تقاطرت الارتال من الكويت والبحرين والزبير • وفي خلال هذا كان عبدالعزيز بن سعود قد خيم مع جيوشه في الطرف بالاحساء • فجرت الحركات بين الفريقين بتؤدة • ولم يعارض تقدم ثويني الى الاحساء أي معارض ، على صعوبة المسير في ارض لا ماء فيها • وكان وصوله الى أسوار الدرك في بلاد بني خالد شيئاً ينذر بالسوء للقواد النجديين

---

(٣٣) يذكر برخارت ان أسباب خمول سليمان باشا في هذا الشأن هي « انه كان لا يملك المال الكافي للحملات ، كما أن سلطته كانت ضعيفة في مملكته » • الا ان القسم الاول من هذه الجملة يفنده بريجز (ص ١٧) والقسم الثاني صحيح عدا الحملات التأديبية التي جردت في كل جهة أما الاسباب الحقيقية فهي ان الخطر لم يتجسم في ذهن اولي الامر ببغداد كما كان متجسما في النجف والسماوة الا مؤخراً • هذا عدا ان الباشا كان في دور شيخوخته (المؤلف)

قال مصطفى جواد ومما يؤيد قول المؤلف في شيخوخة الوزير سليمان الكبير وعجزه عن مباشرة الامور ويؤكده ، أنه أرسل في سنة ١٢٠٨ هـ (١٧٩٣م) الى الدولة في اصطنبول يستعفي من الحكم لضعفه عنه ولكبره ، ورجا أن يكون مكانه كتخداه أحمد باشا ، فلم يقبل منه ذلك ولا اجيب اليه ، ذكر ذلك ياسين العمري في الدر المكنون وسوف يشير اليه مؤلف هذا التاريخ الجليل في بحث « نهاية الباشا الكبير » •

الذين خيل اليهم ان امبراطوريتهم في الاحساء قد تنقلب عليهم • وكان التقدم الاخير الى الشبيك ، فوصل اليها الجيش في مساء اليوم الاول من تموز ١٧٩٧ م (١٢١٢هـ) • وهناك قتل ثويني ، وكان قاتله عبداً زنجياً • ولما كان الجيش لا رابط له ولا نظام سوى شخصية الشيخ ثويني نفسه فقد تفرق في الحال شذر مذر ، وانقسم الى خمسين قطعة من القطعات التي كانت كل قطعة منها تواقة للرجوع الى الوطن سالمة • فانتهى على هذا المنوال آخر عمل قام به شيخ المنتفك العظيم[34] وأحسنه ، بالخيانة والهزيمة المروعة ، وأول ضربة مقابلة حاول العراق انزالها بالوهابيين •

ومرت سنة وأسابيع قلائل أكثر منها قبل أن يهب باشا العراق وقد استفزه اندحار قبائله هذا واستحثه سلطانه للاستعداد لضربة مقابلة[35] • فكان الكهية الجديد علي باشا طوال صيف سنة ١٧٩٨م (١٢١٣هـ) منشغلاً بجمع الحملة جمعاً خارقاً • فكانت تشتمل على خمسة آلاف انكشاري ، وعدد من الجنود الاجيرة غير النظامية ، ومدفعية وافرة ولكن غير مؤثرة ، وقطعات من قبائل عقيل والعبيد وشمر وغيرهم • ورافق الكهية محمد بك الشاوي مشاوراً في شؤون البادية • فوصلت هذه الجيوش الى البصرة[36] في اليوم الثاني من كانون الاول •

---

(٣٤) ان ما يذكره مؤلف « مرآة الزوراء » هو ان الشيخ ثويني توغل في حملته هذه في نجد حتى حاصر الدرعية ، الا ان هذه الرواية لا يمكن قبولها •

(٣٥) يمكن الاهتداء لتفصيلات اخبار هذه الحملة فيما كتبه بورخارت وبريجز وفي كتابي « دوحة الوزراء » و « عنوان المجد » •

(٣٦) قال ياسين العمري في حوادث سنة ١٢١٣هـ المذكورة ما نصه :

« فيها أرسل والي بغداد الوزير سليمان باشا كتخداه الكبير والشهم الخطير علي باشا بالعساكر فكانوا نحو عشرين الف فارس ، وسار بهم الى البصرة وجمع العشائر والقبائل فكانوا الوفا وسار بهم الى مدينة الاحساء وحاصرهم وملكها • وحاربه عبدالعزيز المعروف بالوهابي فانتصر علي باشا وانكسر عسكر الوهابي وقتل منهم خلق كثير وعاد علي باشا منصوراً ؛ ثم بعد عودة علي باشا قدم الوهابي وملك الاحساء وقتل من أهلها جماعة وبث فيها اعتقاداته الفاسدة » انتهى كلام العمري – « م• ج » •

وهناك أضيفت الى الجيش قطعات من قبائل الضفير والمنتفك وبني خالد ، وبذا بلغ عدد القوات العشائرية ما يزيد على عشرة آلاف مقاتل • وبعد أن ترك الزبير وجه علي باشا سيره نحو جهرة • وقد نقلت الذخائر بواسطة « المهيلات » البحرية • وكانت عشرة آلاف بعير روايا تحمل الماء مع سائر الحاجات ، الا ان هذا العدد كان يتناقص بسرعة • وكانت مشقات السير تستدعي وقفات كثيرة مدة أيام عديدة • وأخيراً وصل الجيش للهدف[37] الاول وهو قلعة الهفوف وقلعة المبرز • وكانت المدفعية التي جاء بها الباشا مما يصلح لمراكز الدفاع المبنية من الرهص ، الا ان الهجوم الذي شنه لم يكن محكماً ولا جدياً • وعلى هذا كان كل يوم يقضيه الجيش في المعسكر يتضمن نصباً ومشاق مضاعفة • وكان ضياع الابل بمثابة أنذار للجيش بفقدانها أجمع • وقد نفدت قوة الحملة قبل أن تتوصل للغاية التي كانت تقصدها ، فضج الجيش جميعه ونادى الكثيرون منهم بالرجوع • وأصبح ذلك شيئاً ضرورياً حقاً عندما وردت أنباء تؤذن ان ابناً لابن سعود كان قد قطع طريق المسير من شمال الهفوف ، وكان يرمي الملح في الآبار هناك • واذ ذاك بدأ علي باشا بالرجوع من حيث أتى ، وقد اتلف كثيراً من متاعه الثقيل • فتراجعت امامه قوات ابن سعود وكانت تخشى مدفعيته • فأضافت الى خسران الجيش وتعاسته عاصفة هبت في الشبيك وكان قتل فيها ثويني من قبل • وفي وتج كان معسكرا الفريقين يقابل بعضهما بعضا واستمر ذلك مدة ايام ثلاثة كان يتطلع خلالها الفريق نحو الثاني • فأرسلت الرسل بينهم وتكررت حركتهم ذهاباً وأياباً ، فكانت مطاليب علي باشا اخلاء الاحساء ، ومعاملة الحجاج العراقيين بالحسنى ، وارجاع المدافع التي استولى عليها الوهابيون ، ثم الغرامة • فلم يطلع سعود ، سيد ديبلوماسية البادية المتصل سراً بعشائر الجيش العراقي ، أباه على هذه الشروط الا بصورة غامضة • وعادت القوات التركية الى البصرة موفورة ، وبذلك انتهت الحملة من غير أن تنجز شيئاً • ثم وصلت الى بغداد في تموز ١٧٩٩م (١٢١٤هـ)• ولم يبق سوى اقامة المراسيم لتصديق الشروط المذكورة للصلح فزين من أجلها سراي بغداد وزخرفت جدرانه • ولأجل التأثير في وكيل ابن سعود ، وكان قدم

---

(٣٧) يلوم يورخارت ومؤلف دوحة الوزراء علي باشا لعدم جعله هدف الجيش الاول الدرعية •

بغداد لامضاء عقد الصلح ، بذلت جهود كبيرة لالباس القصر وشخص الباشا جميع ما يدل على الجلال والثـــروة • وبينما كان جميع الحرس والجنــد مصطفين لاستقبال السفير العربي ، وهم سكوت عليهم الحلل المزركشة والالبسة المزينة ، ظهر العربي بمظهر بدوي ذي أسمال يمشي بخطا سريعة • وما وصل الى حيث كان يجلس الباشا حتى ترك الباشوات ، الذين حضروا للاحتفاء به ، جانباً وجلس القرفصاء بين يدي سليمان • ثم قدم له وريقة وسخة ، وأخـذ يخطب بلهجتـه النجدية العربية بخطاب[٣٨] جاف مهين •

على أن صلحاً كهـذا يكتنفه التعصب العـدائي من جهـة والتحدي لعرف البادية من الجهتين لا يمكن أن يؤمل دوامـه • فقـد هاجم الوهابيون بعد سنة حجاج الخزاعل بالقرب من نجد ، وفي فرصة للوهابيين أخرى هوجم الحجاج الايرانيون ونهبوا في الموضع بعينه • وفي صيف سنة ١٨٠١م (١٢١٦هـ) أرسل عبدالعزيز الشاوي بمهمة سياسية الى نجد ، الا انه رجع مخبراً بعـدم وجـود رغبة في الصلح في نفوس النجديين • وما كاد يخبر بظهور القوات الوهابية قرب شفاثة حتى سارع الكهية وخيم بالقرب من كربلا • فاشتبك محمد الشاوي ورئيس شمر فارس الجربا مع العدو بمعركة توقفت أخيراً بعطش الفريقين •

على أن الفاجعة الكبرى كانت على قاب قوسين أو أدنى ، تلك الفاجعة التي دلت على منتهى القسوة والهمجية والطمع الاشعبي ، واستعملت باسم الدين • فقد حدث في أوائل ١٨٠١م أن تفشى الطاعون في بغـــداد ، فاضطر الباشا وحاشيته للالتجاء الى الخالص حيث ابتعد عن منطقة المرض • وما استتب حاله هناك حتى فوجيء بنبأ من المنتفك علم به ان الجيوش الوهابية تحركت للغزو المختص بالربيع • فأرسل الكهية الى الهندية ، الا انه ما كاد يغادر بغداد حتى وافت أخبـــار هجوم الوهابيين على كربلا ونهبهم أياها ، وهي أقدس[٣٩] المدن الشيعية وأغناها •

اذ انتشر خبر اقتراب الوهابيين من كربلا في عشية اليوم الثاني من نيسان عندما كان معظم سكان البلدة في النجف يقومون بالزيارة • فسارع من بقي في

---

(٣٨) بريجز « الوهابيون » (ص ٢٣ ـ ٢٧)

(٣٩) قول المؤلف « اقدس المدن الشيعية » فيه نظر لأن البلد الاقدس هو النجف الاشرف كما هو معلوم ـ « م. ج » .

المدينة لاغلاق الابواب • غير أن الوهابيين وقد قدروا بستمائة هجان وأربعمائة فارس نزلوا فنصبوا خيامهم ، وقسموا قوتهم الى ثلاثة أقسام • ومن ظل أحد الخانات هاجموا أقرب باب من أبواب البلد ، فتمكنوا من فتحه عسفاً ودخلوا • فدهش السكان[٤٠] وأصبحوا يفرون على غير هدى بل كيفما شاء خوفهم • اما الوهابيون الخشن فقد شقوا طريقهم الى الاضرحة المقدسة وأخذوا يخربونها • فاقتلعت القضب المعدنية والسياج ثم المرايا الجسيمة • ونهبت النفائس والحاجات الثمينة من هدايا الباشوات والامـراء وملوك الفرس ، وكذلك سلبت زخارف الجدران وقلع ذهب السقوف وأخذت الشمعدانات والسجاد الفاخر والمعلقات الثمينة والأبواب المرصعة وجُمع ما وجد من هذا الضرب ، وقد سحبت جميعها ونقلت الى الخارج • وقتل زيادة على هذه الافاعيل قراب خمسين شخصاً بالقرب من الضريح ، وخمسمائة أيضاً خارج الضريح في الصحن • اما البلدة نفسها فقد عاث الغزاة المتوحشون فيها فساداً وتخريباً ، وقتلوا من دون رحمة جميع من صادفوه كما سرقوا كل دار • ولم يرحموا الشيخ ولا الطفل ، ولم يحترموا النساء ولا الرجال فلم يسلم الكل من وحشيتهم ولا من أسرهم[٤١] • ولقد قدر بعضهم عدد القتلى بألف نسمة ، وقدر الآخرون خمسة أضعاف ذلك •

ولم يجد وصول الكهية الى كربلا نفعاً • فقد جمع جيشه في كربلا والحلة والكفل ونقل خزائن النجف الاشرف الى بغداد ، ثم حصن كربلا نفسها بسور

---

(٤٠) ان مرزا أبو طالب (ص ٣٦٢) يلوم في هذا الحادث عمر آغا حاكم البلدة ، وهو سني متعصب لم يعمل شيئاً لحمايتها ، وقد قتله أخيراً سليمان باشا (المؤلف) • وقد قال المرزا المذكور أن الناس يتهمون عمر آغا وكان من الخرافيين بمكاتبة الوهابيين ومواطأتهم على فعلهم ، ولكن الثابت هو انه هرب الى قرية قريبة من كربلا أول ما علم بالخطر ، فلم يدافع قط » • (ص ٤٠١ - ٢) من الرحلة - « م• ج »

(٤١) ذكر الميرزا ابو طالب في رحلته (ص ٣٩٩ من الترجمة الفرنسية) « انه لقي بكربلا عمته المسماة « كربلاي بكم » ونسوة من حاشيتها وكان الوهابيون قد سلبوهن كل ما كن يملكن فأعانهن أبو طالب بكل ما استطاع من المعونة » ثم ذكر انهم قتلوا خمسة آلاف انسان وجرحوا عشرة آلاف •

« م ج »

حل مساء ذلك اليوم حتى اقيمت حفلة زفاف علي آغا الى خديجة خانم ، وتلا ذلك ترفيعه الى رتبة ميرميران ونصب في وظيفة الكهية بسرعة • اما ثروة أحمد المكتنزة فقد اضيفت الى ثروة سيده الباشا ، الا انها لم تؤاسه ولم تعوضه عن فقد وزيره المحبوب المقدر[46]

وتدل الحملات الاعتيادية التي سيقت في السنين الاخيرة من عهد الباشا على قبائل الزبيد والخزاعل وعفك على أحوال غريبة غير آمنة • كما تدل الواردات والهدايا الثمينة المرسل بها الى استانبول على ان الباشا كان ما يزال موالياً ولو قلت قيمته بنظر البادشاه • وقد أثارت الضربات المهينة التي أنزلها الوهابيون سخط العالم الاسلامي على الباشا •

ولم يبق من حياة الباشا غير المرحلة الاخيرة • فقد شفي من مرضه المنذر بالموت في ١٧٩٦ م بعد ان ابتهل له اليهود والنصارى والمسلمون الى ربهم على سواء • غير ان حيويته المعجبة التي استفرغت كلها مدة ثمانين حولا لا بد من ان تأخذ بالوهن والتضاؤل بمرور الزمن • وفي أوائل ١٨٠٢ م (١٢١٧ هـ) أصبح عليلاً لا قوة له أبداً • ولم يتداول أرباب الدولة في تعيين من سيخلفه لا في

« وفيها أواخر شعبان خرج الى الصيد والي بغداد الوزير سليمان باشا وأقام في البر بين بغداد وكركوك الى أواخر شوال ثم عاد الى بغداد وغضب على كتخداه احمد باشا بن الخربندة فقتله أواخر شوال ، قيل انه أراد الغدر في مولاه ، فلما حضر بين يديه نظر اليه وهما كما قيل

وللغدر عين لا تزال عبوسة   وعين الرضا مكحولة تتبسم

فأشار الى أحد أمرائه ـ وقد اعتمد على شجاعته وفروسيته ـ الامير المكرم علي باشا فضربه بالسيف على رأسه ، جرحه جرحاً بالغاً ثم ضربه اخرى ، فرق بينه وبين جثته ، ثم ضربه ثالثا على خاصرته ، قده نصفين ، ثم اجتمعت باقي الامراء وضربوه وقد مات من أول ضربة والقوه في حوش السراي واستولى الوزير على أمواله ومماليكه ثم جعل الوزير سليمان باشا كتخداه الامير المذكور والشهم المنصور آصف زمانه علي باشا ثم صادر الوزير سليمان باشا عبدالله بك أخو (كذا) كهية أحمد باشا وأخذ منه أموالا وأهمله •

(٤٦) بريجز (ص ١٨٣)

استانبول ولا في بغداد • فقد كان أولاد الباشا اذ ذاك صبية صغاراً ، وكانت خديجة احدى بناته زوجة علي باشا الكهية ، وكانت قد زوجت ابنة أخرى سليم آغا الذي صار متسلم البصرة فيما بعد • وكانت البنتان الاخريان قد خطبتا لداود أفندي ولناصيف أغا رئيس الحجاب • وهؤلاء جميعاً همالذين يجب أن يعدوا مرشحين لان يخلفوه • كما ان رؤساء الاسرة الشاوية ، ومتسلم البصرة ومتسلم ماردين ، والدفتردار وآغا الانكشاريين ، ربما كانوا جميعاً يفكرون تفكيراً خطيراً في هذه الشأن • وعلى مثل هذا كان الجميع يترقبون بعاطفة وطمع حياة الباشا العظيم الأخذة بالانطفاء • وكان جميع هؤلاء من صنف المماليك عدا الشاوية العرب والآغا الانكشاري • وما حل شهر آب حتى كان سليمان في الموتى • وكانت آخر الضربات ، التي ركس بعدها ، انزعاجه من الطاعون الذي كان قد أخرجه من بغداد والرعب الذي أصابه من فاجعة كربلا • وكانت وفاته قبل ظهر اليوم السابع من شهر آب لسنة ١٨٠٢ م[٤٧] •

---

(٤٧) يلخص كتاب دوحة الوزراء أعمال سليمان باشا بما يلي كان قد أصلح سليمان باشا سور بغداد وحصن جانب الكرخ ، فبنى له السور وحفر له الخندق وأضاف قسما من الابنية الى السراي وكذلك بنى المدرسة السليمانية « بجميع مرافقها » وأصلح بناء جامع القبلانية والفضل والخلفاء وعين فيها المدرسين وطلى قبة أبي حنيفة بالذهب ، وبنى سوق وخان السراجين ثم انه أعاد بناء دلي عباس وشرمان (ربما كانت شهربان) ، وبنى أو أصلح سور مندلي والحلة والبصرة ، وشاد جسر النارين ودار الاسلحة في الكوت (؟) والبصرة وجصان وكذلك حصن الزبير وماردين وأسكي موصل • ثم انه بنى الخانات في الاسكندرية وكربلا • ومن الاعمال الاخرى التي أشرف عليها حفر الهندية من جنوبي المسيب وذلك لسقي النجف •

الفصل التاسع

المماليك الاواخر

ثلاثة عهود قصيرة

ما كاد بيوك سليمان يلفظ نفسه الاخير حتى انفجر شغب عنيف تفكر فيه المدبرون له طويلاً[1] . وقد انسحب أضعف المرشحين لتولي الحكم وسايروا أحوالهم عند اقتراب الازمة ، ولم يبق من المتنازعين الا علي باشا الكهية وأحمد آغا رئيس الانكشاريين[2] وسلم آغا وحدهم . فكان أحمد قد دعا قبل وفاة الباشا بأيام قلائل المقيم البريطاني الى مجلسه وطلب منه كتاباً الى السفير في استانبول . وبادر الآن (وربما كان ذلك قبل الوفاة بساعة) بجمع من استطاع جمعهم من الرعاع والسوقة واستولى على القلعة ، فتحصن بها وأخذ يضرب السراي . وتحققت في هذه الاثناء وفاة الباشا ، فتولى المنصب علي[3] باشا قائماً مقامه . وقد لعب ناصيف

---

(١) اتبعت في هذا رواية بريجز (ص ٢٠٤) لانه كان شاهد عيان محايدا وفضلت على دوحة الوزراء ، ويتفق الاثنان بشيء من الرواية .

(٢) بريجز (ص ٢٠٥) كان الباب العالي يأمل في الحصول على كنوز الباشا الشيخ عن طريق أحمد آغا .

(٣) ان لياسين العمري ــ وهو متعصب لعلي باشا ــ خبراً متفرداً في جنسه ، خاصاً بتولي علي باشا فقد قال في حوادث سنة ١٢١٧ هـ (١٨٠٢ م) ما هذا نصه

« وفيها سابع ربيع الآخر يوم الجمعة وقيل يوم السبت توفي الوزيرالكبير والشهم الخطير سليمان باشا ، ملك بغداد نحو خمس وعشرين سنة ، وكان له سعادة واقبال فلم تكسر له راية . وكان قبل مماته أحضر جميع الامراء وأشار عليهم بأن يتولى بغداد كتخداه علي باشا ، فحلفوا له ثم توفي ودفن في المعظم وتسلم البلد باشارة الوزير والمرحوم القاضي والمفتي والامراء آصف زمانه حاتم اوانه رشيد أقرانه علي باشا كتخداه الوزير المرحوم وصهره الضيغم المعلوم ... » ــ « م. ج »

دوراً ثنائياً ، حيث كان يتصل سراً بالقلعة والسراي معاً • أما المدينة فقد كان فيها لدوي المدفعية واطلاقها من القلعة تأثير كبير • فأغلقت الحوانيت والمخازن وامتلأت الشوارع بالاهالي المسلحين الخائف أكثرهم ، ثم تألفت الجماعات والاحزاب فانحاز القسم الاغلب منها الى علي باشا المرشح المشروع والحاكم الفعلي الحقيقي للمدينة • غير ان آغا الانكشاريين في القلعة لم يكن بوسع أحد اخراجه ولا اقناعه ، وبقت الحال متقلقلة يوماً بعد يوم كما ظلت النتيجة معلقة •

ولاجل حل العقدة الحاصلة انسحب في الاخير علي باشا من قائممقاميته متنازلاً للاغا الانكشاري وقبع في بيته • الا ان أحمد أغا بقي غير مقتنع بحسن النية في هذا الانسحاب ، وكان محقاً في ذلك • فقد عبر علي باشا في ظلام الليل الى جانب الكرخ وحث الاهلين وعشائر العقيل وجماعات من الانكشاريين المنشقين وقادهم ، فهاجم بهم الرصافة في الزوارق والسفن بعد ان قطع الجسر • وبعد مقاومة قليلة ازداد عددهم بمئات فتمكنوا من الاستيلاء على السراي والميدان • غير ان الآغا الانكشاري ما فتىء حافظاً للقلعة ، لكن مسعاه في هذه المرة قد احبط • فقد دبر له علي باشا ، الذي كان بيديه الاصفر الرنان ، المكائد فانفض أتباعه عنه خلال ساعات معدودة • ثم لاذ أحمد آغا بالفرار واختفى في احدى دور بغداد • فخلفه سعدالله في قيادة الانكشاريين الذين عادوا الى السكينة ، وأعيد الامن والنظام الى كل مكان • وبعد ذلك جيء بأحمد فقتله الحرس المماليك ، وشنق أربعة عشر من أتباعه من بعده • ثم عهدت حكومة تكريت الى سلمآغا • وقد لخص شاهد عيان[٤] هذه الحوادث بما يلي

« دام العراك وانتشرت الفوضوية في المدينة مدة تراوح بين الاسبوعين والثلاثة أسابيع وكان استهلاك البارود والقذائف (انكرات) والقوان فاحشاً • غير ان جميع القتلى والجرحى من الطرفين لم يتجاوز عددهم خمسة أشخاص • على ان هذا العدد قد ازداد كثيراً بعد أن استتب الامر لعلي باشا ونصب المشنقة فكانت ضحاياه كثيرة » •

ونظمت بعد هذا عريضة وقعها البغداديون قاطبة فبعثوا بها الى السلطان

---

(٤) بريجز (ص ٢٠٩)

طالبين بها مصادقته على تعيين علي باشا • ثم ارسل الى استانبول بمبلغ يساوي ستين الف باون للغرض نفسه مع شيء قليل من لوازم سليمان باشا الثمينة • واستولى علي باشا والمماليك على بقية ما خلفه سليمان باشا • وبعد مضي أربعة أشهر صدرت ارادة ملكية بترفيع الباشا الى رتبة وزير ، وعهدت اليه حكومة الباشا العظيم بأجمعها •

وتكون مدة الجيل(٥) الكامل المتقضية بين تبوء علي باشا الحكم ونهاية حكم المماليك في العراق من باشويات علي باشا نفسه وأربعة آخرين من بعده • على أن نهاية هؤلاء جميعها لم تكن نهاية هادئة • وكانت المدة التي حكم فيها علي باشا ، البالغة خمس سنوات ، أطول مدة حكم بها مملوك من المماليك الاواخر عدا مدة داود باشا الذي كان آخر مملوك حكم العراق • وكان العراق خلال المدة المذكورة يشابه سائر ولايات الامبراطورية باستقلاله الذاتي وسوء استعمالاته ، وبحكم المستبدين المحليين الذين لم يوحدوا حتى حكومة الولاية • وكانت مقدرات العراق ، طوال هذه المدة ، تلعب بها في استانبول القوى المختلفة ، والشخصيات المتعددة ، التي كانت تتزاحم من أجل الحصول عليه • على ان ما تمتاز به هذه المدة من الوجهة التاريخية أمور عديدة أهمها شخصيات بغداد ودسائسها ، وعصيان القبائل المستمر كالعادة ، وتهديدات نجد الاخيرة ، وسياسة الاكراد التي كانت آخذة بالتورط شيئاً فشيئاً مع الجيران الايرانيين • وسوف يبحث عن هذه الاوجه التاريخية بالتعاقب •

فأول عمل قام به علي باشا كان سيره لتأديب أكراد البلباس الذين سار

---

(٥) المراجع حتى ١٨٣٠ دوحة الوزراء (الى ١٨٢٥ فقط) ثم كتابا سليمان بك مع كتاب ياسين العمرى ومطالع السعود ويقف غاية المرام ببحثه في ١٨٠٣ م ويقف غرائب الاثر في ١٨١١ م (١٢٢٦ هـ) وأهم السياح هم دوبري (١٨٠٧) وبكينغهام (١٨١٦) وهود (١٨١٧) وبورتر (١٨١٨) وريج (١٨١١ ـ ٢٠) وويلستد (١٨٣٠ ـ ٣١) ويذكر كتاب شانيزاده التركي شيئا من المصادر أيضاً

(٦) ان اول الاعمال التي قام بها علي باشا هو ما ذكره ياسين العمري بعد ذكره وفاة سليمان باشا من سنة ١٢١٧ قال « ثم ظهر فساد بعض عرب

لتأديبهم حسن باشا قبل قرن • فأجرى في هذه الحملة ابراهيم باشا بابان الهجوم بحسب خططه ، ولحق علي باشا بقواته التابعة في أربيل • فأذعن البلباسيون من غير مقاومة منهم كثيرة ودفعوا غرامة كبيرة من حيواناتهم • ثم عبر علي باشا من هناك الى الموصل فوجد ان مدة حكم محمد باشا الجليلي الطويلة كانت توشك أن تنتهي • وعزز هناك قواته بجيوش الباشوية هذه فسار للقضاء على لصوص جبل سنجار فأدت أساليب الحصار ، والضغط المتوالي ، الى طرد اليزيديين من كهوفهم ولاضطرارهم الى الاستسلام بشروط قاسية • وكذلك ضربت قبائل الجزيرة التي كان من السهل الوصول اليها وادبت • ومات في هذه الحملة ابراهيم باشا بابان فخلفه عبدالرحمن ، وكان فضل تسريحه من الحلة والعفو عنه بعدئذ راجعاً للفوضوية التي سبقت تسنم علي باشا كرسي الحاكمية في بغداد • وزحف الجيش من سنجار الى تلعفر ، وفيها حكم على محمد بك الشاوي وعلى أخيه بالاعدام وعلى ابن عمها الاصغر بالسجن • وكان سبب اعدام محمد بك ، وهو أعظم عربي بين رعايا الباشوية ، الحسد والخوف ، ثم ذكرى الخيانة التي اتهم بها في الحملة التي سيقت على نجد عام ١٧٩٩ م (١٢١٤ هـ) واسندت اليه فيها تهمة مخابرته العدو ومخامرته لهم • ففر ابنه جاسم الىالعبيد ، وتلا ذلك قتال بينالعبيد والاكراد الملين ، أتباع تيمور باشا ، الذين ربما قاموا بعملهم هذا سعياً وراء ارضاء حكومة بغداد وذلك ليقبضوا على المنهزم • فخاب تيمور في مسعاه هذا كما خاب بعده رتل من جيش علي باشا جهز للغرض نفسه • وفي غضون هذا العهد حدثت فتنة في

العراق فأمر ولي النعم رب الشيم صاحب السيف والقلم علي باشا بالمسير الى تلك الفرقة الباغية فساروا اليهم ونزلوا عليهم وأذلوا كبيرهم ونهبوا شريرهم وعادوا الى بغداد منصورين » ولكن هذا الابهام من ياسين العمري لم يترك للخبر قيمة تاريخية

ثم قال « وفيها أرسل والي بغداد الوزير علي باشا الى الموصل يأمر محمد باشا ليأمر سليم بك واخوته ومن معهم بأن يحاربوا أولاد حسن بن محمد الذياب (رئيس عرب الشمامك من طي) فركب سليم وأخوته وساروا الى حمام علي فوجدوا الارض بلقعا وقد هربو في البر ثم استولى على أغنامهم سليم بك وهي أربعة آلاف رأس غنم وعاد منصوراً » ــ « م • ج »

بغداد اضطرت علي باشا الى الرجوع • وقبيل وصوله اليها كانت وطأة الطاعون فيها قد خفت بعد فتك الوباء بالناس فتكاً ذريعاً •

اما حوادث الباشوية الاخرى فقد كانت تتعلق اما بالوهابيين واما بالاكراد الذين خصصت للبحث عن كل منهم جملة من الصفحات المستقلة • ومما يذكر هنا ان عدداً من الاغوات الاماثل (ومنهم داود أفندي) لم يكن بوسعهم ان يجدوا مكاناً مريحاً في ديوان علي باشا الوبيل ، فتركوه الى البصرة وغيرها[7] • وأدى الارتياب بتآمر خالد آغا الكهية مع البابانيين الى عزله واعدامه ، فخلفه في المنصب سليمان بك ابن اخت علي باشا • اما الحملات العشائرية فأهميتها قليلة • وقد حالت دون القيام بمحاولة أخرى للقبض على جاسم الشاوي في ١٨٠٤ م (١٢١٩ هـ) حادثة خطيرة فجائية حدثت في كردستان • الا ان قبيلة هيجت على أخرى ، فطارد فارس الجربا مع رجاله من شمر العبيد والغرير وحمدان وأدبهم بشدة عند عبورهم الفرات • وحاولت الحكومة في ١٨٠٥ م اخضاع العبيد من جديد • وفي أوائل ربيع سنة ١٨٠٦ م قاد الكهية الشاب قوة وسار بها الى بني لام ثم الى ديار ربيعة والمقاصيص • وفيما عدا هذه كانت سائر بلاد العراق هادئة بحسب مقاييس الهدوء لذلك الزمن • غير ان هذه الحال لم تبق الا قليلا ، فقد كان موت الباشا الفجائي القاسي ناشئاً عن أحقاد ذاتية • اذ كان مداد بك ، الاباظي الاصل مثل علي باشا (وكان ابن رجل قوقاسي خدمه علي في صباه) ، قد وصل الى بغداد قبل ثلاث سنوات • وقد سنحت الفرصة التي كان يترقبها منذ مجيئه ، وهي انه ظفر بعلي وهو يصلي فانقض عليه مع خدامه بالخناجر وقتلوه في الحال • وبعد ان فروا الى الخارج أخذوا يلتجئون من مكان لآخر طلباً للمؤازرة أو التخفي • وقد خدعوا جند الكهية وهربوا تحت جنح الظلام الى الجانب الايمن من المدينة • ولم يحاول استغلال الحادث لنفسه ولا لمصلحة القتلة الا ناصيف آغا • غير انه لم يرد عليه أحد ، وبعد ساعات قليلة جيء بجثتهم وجثته وعرضت

---

(٧) قال ياسين العمري « وقبض علي باشا على اولاد صبغة الله أفندى الحيدري (العلامة الماورانلي البغدادي الشافعي المتوفى سنة ١١٨٧) ونفاهم الى البصرة ، وكان على ما قيل ان الوزير (كذا) يعرف الغدر ظاهرا من عيونهم (كذا بهذا السخف من التعليل العليل) » ـ « م. ج » •

في رأس الجسر ٠

ولم يكن أمر تعيين خلف للباشا في هذه المرة شيئاً عسيراً ٠ فكانت ، بعد علي الجريء المتعصب الشديد غير المحبوب ، شخصية ابن أخته سليمان باشا الجذابة مما يرحب بها الجميع ٠ وكان سليمان باشا ، وهو في الثانية والعشرين من عمره ، مندفعاً غير متساهل ولا خال من الطمع ولكنه كان ذا صفحة بيضاء وفكر مستنير ونيات حسنة وتفكير في الامور العامة[8] ٠ وكان له الحق في تولي الباشوية لكونه كهية الباشا وسليل بيته زيادة على كونه سيد بغداد الحقيقي ٠ فبقي وكيلا عن الحاكم مدة مديدة حتى عين الباب العالي ، بكل عقم ، يوسف باشا (وهو صدر أعظم سابق) للوظيفة الشاقة التي لم يكن بوسعه القيام بأعبائها ٠ وبعد تأخر طويل وصل الفرمان بتعيين سليمان ـ المعروف بالصغير ـ وذلك في أواخر ربيع سنة ١٨٠٨م (١٢٢٣هـ) ٠

وفي خلال عهده الممتد ثلاث سنوات كانت سوية الامن فوق المعدل بوجه عام ٠ ومع ان البصرة والموصل كانتا ممزقتين بأنواع الشغب ، فان الحملات العشائرية كانت قليلة ولم يقلق بغداد أي عنف وفتنة ٠ وقد خصص صيف ١٨٠٨ م بحملة كردية وأخرى وهابية ٠ وفي ١٨٠٩ م (١٢٢٤ هـ) استدعت الحال تجريد حملة أكثر مشقة ، فسارت يقودها الباشا الشاب الى أقصى حدود ولايته وذلك لقتال القبائل في أيالة أورفة ٠ فكان نجاحه فيها أمراً يكتنفه الشك ، وقبل انتهاء الحركات الحربية اضطر الباشا للذهاب من رأس العين الى ماردين على أثر حادث مستعجل دعاه لذلك ٠ فأعادت مساعدات تيمور باشا والشيخ فارس وغيرهما من الاتباع ، التي جاءت في الوقت المناسب ، المياه الى مجاريها ، ولكن مع تعد وخيم العاقبة في داخل أيالة ديار بكر[9] ٠ وعندما عاد سليمان من ماردين الى الموصل وجد فيها حرباً أهلية قد تعاظم اوارها ٠

فقد ترك محمد باشا الجليلي حكومته لابنه محمود بعد ان حكم مدة ثماني

---

(٨) ريج (ص ٢٥) ٠

(٩) كان هذا التجاوز للحدود يعد سبباً من أسباب سقوط سليمان الصغير بصورة عاجلة ٠

عشرة سبة توفي في نهايتها • غير أن معارضة عنيفة قد بدأت بزعامة أسعد بك بن الحاج حسين باشا القديم • ومن نزاعات هذين الشخصين وقع الحكم لقريبهما نعمان باشا ، الرجل الضعيف في صحته الجائر في حكمه • فكان هذا ممكناً احتماله ، الا ان تعيين أحمد أفندي فيما بعد وهو مجرد كاتب « سكرتير » لنعمان لا غير قد أثار عاصفة من احتجاجات الجليليين • وقد حاول سليمان بلا جدوى أن يقف الى جنب مرشحه • وكانت مقاومة الجليليين العنيفة بزعامة أسعد قد تعدت حدود مدينة الموصل ، فزجت الموصل وما حولها من البلدان في اتون من الفوضى التي كانت تلائم الكثيرين من أبناء الاسرة • فكان لا بد من ارسال نجدة من بغداد الى أحمد الهارب ـ وكان ما يزال الوالي الاسمي ـ وقد دبر قوة لا يستهان بها فضرب بها بشدة لاسترجاع حقوقه • لكنه ما قارب الظفر حتى قتل ، فأمسك الجليليون من جديد زمام الامر وانفرجت الازمة بالانقياد للضرورة • وأصبح محمود باشا والياً ، وتلاه في الولاية ثمانية حكام آخرون من نفس الاسرة •

أما البصرة فقد كان فيها سليم آغا (صهر سليمان الكبير) متسلماً في ربيع سنة ١٨١٠ م (١٢٢٥ هـ) • وكثيراً ما كان يخالج نفسه الطمع في الباشوية فاستفزته من أجل ذلك أنباء وصول وفد سلطاني الى بغداد للتفكير في استغلال الفرصة وتحقيق الاماني • وقد وصلته في هذه الاثناء أوامر بغداد وهي تقضي بالتخلي عن المنصب • ولما كان معتمداً على قوة المنتفكين معتداً بنفسه أبى الاذعان لهذه الاوامر • وكان سيده في بغداد قد أوعز للمنتفكين أنفسهم بالسير اليه لاخضاعه وتنفيذ أوامر عزله ، فما كان منهم الا ان لبوا نداء الباشا فساروا لما أمرهم به • وبينما كان هؤلاء يسيرون سيراً بطيئاً من الشمال ، والاتراك يتقدمون عن طريق دجلة الى البصرة أغلق سليم أبواب البلد وجمع أمتعته وأشياءه في سفينة صغيرة • ولما أيقن ان حلفاءه الذين كان جل اعتماده عليهم هم أعداء له في الحقيقة ترك البصرة مبحراً الى بوشهر • وبذلك انتهى أمر العصيان ، ودخل البصرة أحمد بك ، أخو سليمان الصغير بالرضاعة ، وصار متسلماً فيها •

وعلى هذا عم نوعٌ من السلم في طرفي الباشوية • غير انه لم يُقدر للحاكم الحالي ان يتمتع طويلاً بهذا السلم • فقد تسنم عرش آل عثمان سلطان قوي

(١٠) يراجع أبو طالب (الص ٢٩٠) ، ودوبريه (الص ١١٨) •

حديث • وكان هذا قد سمع من قبل بالاستيلاء المشؤوم على ديار بكر ، كما كان بوسعه أن يطلع بكلمة واحدة على مقدار ما كان يقدمه العراق من واردات • ولم يكن في الحقيقة من الممكن له انزال ضربة قاضية حينذاك ، وانما ارسل ممثلاً ذا رتبة عالية وهو « رئيس أفندي » حالت محمد سعيد[١١] الى بغداد • فقابل الباشا الصغير وطلب اليه أحد أمرين : أما دفع الواردات بصورة منتظمة واما التخلي عن المنصب • ثم رجع صفر اليدين الى الموصل وفيها انهمك بجمع قوة كبيرة لا تغلب • فخف الى ممثل السلطان وتلبية ندائه محمود باشا الجليلي وعبدالرحمن ، رئيس البابانيين المعاصر ، وكثير من كبار الشيوخ مع قسم من المماليك المعزولين والمغضوب عليهم • فأعلن لهم خلع سليمان الصغير • ثم سارت نحو الجنوب قوة قوامها خمسة عشر الف مقاتل ، فكان اشتباك واحد كافياً للحصول على الامر المروم • فقد وقعت المعركة بعد ظهر اليوم الخامس من تشرين الاول ١٨١٠ م وانتهت بغروبه • وكانت النتيجة ان تخلت عن سليمان معظم قوته فاندحر اندحاراً تاماً ، ثم فر وحده فعبر ديالى الى الجنوب وهناك قتلته قبائل شمر طوقة[١٢] •

ونشأت في الحال قضية تعين خلف له • فوجب أن تكون الكلمة الاخيرة في هذا الشأن عند حالت أفنـدي الذي كان حاملاً معه فرماناً خلواً من الاسم ، ومخولاً كتابة أسم من يريد تعيينه فيه • بيد ان أعظم قوة مباشرة كانت بيـد الباباني الذي جاءت به الى بغداد أطماعه وولاؤه كمنصب للملوك[١٣] • فقد كان هو الذي قتل الاغوات الذين كانت تحوم حولهم الريب ، وهو الذي سعى بترفيع عبدالله آغا التوتونچي[١٤] الى الباشوية بعد اقناع حالت أفندي • فصودق على تعين التوتونچي باشا للايالات الثلاث ، وقرىء الفرمان وتسلم الباشا وظيفته ، فرجع

---

(١١) وزير الخارجية ، راجع عن سيرته تاريخ جودة (ج ١٠ ص ٥) •

(١٢) ان ما كتبه ريچ يكاد يطابق المراجع الشرقية •

(١٣) ان المدونات التي تراعي جانب البابانيين تنص على أن حالت افندي عرض على عبدالرحمن الحاكمية فرفضها • وتقول مراجع أخرى انه طلبها فرفض طلبه • والمرجح ان الرواية الثانية هي الصحيحة لان تعيين الباباني لو كان قد تم لكان يعـد خيبة تامة وعملا خطرا ، ولكان قابلـه السلطان محمود نفسـه بالرفض

(١٤) لا تعرف أسباب تسميته بهذا الاسم

حالت أفندي مملوء اليدين الى استانبول .

وكان عبدالله آغا ذا شخصية شاذة . فقد كان مملوكاً[15] اشتراه سليمان الكبير في البصرة ، وكان على عهد سيده قد اتفق مع علي آغا على قتل احمد . ثم تقلد وظائف عديدة ما عدا حاكمية البصرة وحاكمية ماردين . وكان المقيم البريطاني يساعده في ان يخلف سيده الباشا الكبير . وقد أقصاه علي باشا الى البصرة وفيها بقي حتى أمر باعدامه سليمان الصغير . إلا أن سليم آغا ، أحد أقاربه وزميله ، ساعده على الفرار الى كردستان وهناك بقي حتى مجيء حالت أفندي الى الموصل . اما طاهر آغا ، رفيقه في جميع هذه الاخطار ، فقد أصبح الصديق الثقة للباشا والكهية فيما بعد . وقد كان لعبدالله جلد في العمل وفكر متوقد وثقافة تؤهله للتحدث مع الاوربيين . وكذلك كان حراً في الديانة ، وجذابا للقلوب ، وكثير السؤال في حديثه ، ومقتدرا في الادب كاقتداره في شؤون الدولة . وقد حصل على سمعة حسنة نادرة في وظائفه التي تولاها سابقا . فكثرت الواردات في أيامه من غير عسف وعم الضبط بغير عنف . وكان أيضاً سخياً من دون تبذير ، وعادلاً في الحكم ، وسهلاً وصول الجميع اليه . غير ان مزاياه هذه لم تفده الا قليل فوائد في الحكم . فقد كان حزب سعيد ـ بن سليمان البالغ من العمر ثمانية عشر عاما ـ وغيره من الفئات الصغيرة التي يؤازر كل منها أحد الاغوات المتنفذين ، دؤوباً في المعارضة مصراً عليها ، كما كانت التبدلات العديدة التي اُجريت ما بين الموظفين الكبار تدل على وجود تبرم مشوب بالحسد بين جدران السراي .

اما علاقاته بعبدالرحمن باشا ، الذي صيرته الثورة قوياً مخطراً ، فقد ركت وساءت . والحقيقة هي ان الحملة التي سيقت على البابانى في أوائل ١٨١٢ م (١٢٢٧ هـ) كانت أهم حملاته . فعززت انتصاراته في كفري موقفه كثيراً . وكانت هذه في نفس الوقت ظفرا للدفتردار داود أفندي الذي سيذكر عنه الشيء الكثير . وبعد موقعة كفري تقدم التوتونجي الى كركوك والموصل لتأديب سكان البلدان غير الموالين ممن عاضد البابانين، ولتطهير الدولة من أسوأ الموظفين،

---

(١٥) ان قول هارفورد جونزبان عبدالله آغا من الاسر الكبيرة المحترمة في بغداد غير صحيح .

ولعقاب العشائر في طريقه • وقد تمكن سعدالله باشا الجليلي في الموصل أن يقلب غضب زميله القديم عليه رضاً ، بمأدبة ملكية فاخرة • ورجع عبدالله الى بغداد في خريف ١٨١٢ م •

وقد قضي الشتاء في الاستعداد لحملة كردية أخرى • ثم صرف عناية الباشا عن ذلك خبر سيء يفيد ان سعيد باشا ظهر في المنتفك فاستقبله استقبالا حسنا حمود الثامر الذي حاول عبدالله باشا عزله دون أن ينجح • فاشتغل الديبلوماسيون بين بغداد وسوق الشيوخ • وكان تصريح حمود فى هذا الشأن بأنه لا يقصد أي سوء وغاية ما عمل هو ايواء « ابن أفندينا القديم » • وقد اشار الكثيرون على الباشا بعدم الاقدام على عمل تكون عاقبته حمل المماليك على ان يختاروا بين ابن سيدهم القديم وخادمه من قبل • غير إن الكهية طاهر آغا أصر على الحرب التي كانت فى الحقيقة أمراً لايمكن تأجيله • وفي كانون الثاني ١٨١٣م سارت قوات بغداد الى بلاد المنتفك • أما حمود والقسم الاعظم من قبيلته ، وأتباع سعيد الخاصون به ، وجمهرة المخاطرين ، والعصاة المتمردون الذين كانوا قد لجأوا فى أوقات مختلفة الى الاهوار ، فقد تجمعوا فى مكان على عدة اميال من البصرة • فكان عددهم قليلا بالنسبة للقوة التي سارت اليهم • الا ان عدداً كبيراً من جند العدو خمروا وانضموا اليه فتوسعت قوته توسعاً كبيراً • وفي التعرضات الاولى جرح برغش بن حمود جرحاً بليغاً • وربما كان الحظ قد ساعد الباشا فيما قصده ، الا ان فرار الجند من جيشه زرافات قد حال دون ذلك • فقد تخلى عن الباشا حرسه من المماليك وحلفاؤه من القبائل على سواء ، وانضموا الى سعيد وحاميه العظيم الخشن •

وقد ترك عبدالله وطاهر وبعض الاتباع وحدهم فباتوا فى حال الملتجئين • فارسل حمود ، وهو المنتصر بغير دماء ، أخاه ليعرض عليهم سلامتهم ، فلم يجدوا بدأ من الاذعان • فسلموا وارسلوا أسرى الى السوق وفيه كانت حياتهم معلقة على حياة برغش الذي كان يكافح لحياته ويقاسي آلام جروحه • وأخيراً مات فانتهى بذلك أجل الباشا وحاشيته • فقد شنقوا جميعا ودفنوا ، ثم نبشت قبورهم وأخرجت جثثهم من جديد فقطعت ارباً اربا • وبذلك مات حاكم كانت صفاته نادرة المثال ، وكان مستقبله زاهر المآل ، ميتة حقارة وذلة بعد ان أصابه فشل

مروع وخيبة ممضة . وما كان ذلك الا ليفسح في المجال لآخر بعده يقل عنه قدراً مئة مرة .

الوهابيون ١٨٠٢م (١٢١٧هـ) – ١٨١٠م (١٢٢٥هـ)

ان غضضنا الطرف برهة عن شواغل السياسة وعنفها في العاصمة فيجب علينا أن ننظر نظرة الى الاوجه الاخيرة من الخطر الوهابي . فقد بقيت الغزوات تشن كل سنة على القرى والمسيمين[16] في غرب الفرات ، وتعدت في بعض الاحيان فعبرت الفرات الى الشامية فبلاد الزبيد . غير أن اسوار الرهص أخذت تحمي القرى ، كما أخذت الحاميات المعززة تحمي البلدان الكبيرة . وتعود المسيمون سوق قطعاتهم بخفة والابتعاد بها عن مواطن الخطر عند دنوه ، والالتجاء الى أقرب آغا ومن يتبعه من اللاوند . فلذلك لم يزد عدد المنتقلين الى الوهابية من العراقيين .

وقد اعتقد ناس ان قتل عبدالعزيز بن السعود الشيخ الهرم في ١٨٠٣ م (١٢١٨ هـ) كان بتحريض من باشا بغداد . على ان القاتل كان « ملا » أفغانياً كان يقيم ببغداد ، وقد قتله انتقاماً لابنائه المذبوحين في غزوة كربلا . وكان الغزو الوهابي للنجف في الايام الاخيرة من تلك السنة بقوة أشد من القوى الاعتيادية ، غير ان قبة علي بن أبي طالب بقيت ثابتة داخل سورها المنيع . فخف علي باشا بتعبئة جيوشه – الراجعة حديثاً من سنجار – واستعان بالقبائل التي كانت مستعدة أكثر منه لمقاومة القوة . وكان فارس ، شيخ شمر ، حليفاً ومشاوراً . فتقدمت القوة التركية الى الحلة ثم اجتازتها ، الا أن الغزاة هربوا فاختفوا عن الانظار . وفي ربيع ١٨٠٤ م (١٢١٩ هـ) – الذي اجتذب فيه موسم الرعي قبائل الشامية الى البادية كالمعتاد – دهم الوهابيون القبائل هذه وعاثوا في المراعي فساداً من غير ان يردعهم رادع حتى أشرفوا على سور البصرة ، ثم قضوا على مقاومة المتفكين الذين وقفوا في طريقهم وقبضوا على أفراد الاسرة السعدونية . على انهم لم يكونوا كفاة للتغلب على دفاع المدينة حتى في الزبير التي استطاعوا عزلها وتجويع أهلها ، ولم يتقدموا أكثر من ذلك الى ان وقع حادث استوجب تسليم البلدة اليهم . فقد كان

---

(١٦) المسيمون جمع « المسيم » اسم فاعل من اسام الماشية يسيمها ، أي أخرجها الى المرعى ، قال تعالى « فيه تسيمون » .

حصن من حصون السور ، الذي احتشد فيه سكان البلدة اوانئذ ، يستعمل اذ ذاك مخزناً للبارود أيضاً ، فحدث انفجار فيه أدى ليس لتدمير الحصن وحده بل الحامية بأجمعها تقريباً . وتلا انسحاب النجديين العام ظهور حمود الثامر مع النجدات المنتفكية التي جاء بها ، فانضمت الى قوات المتسلم ابراهيم آغا . وتلقى علي باشا في هذه الاثناء أمراً من السلطان بتدبير هجوم مقابل ، فجمع في أواخر ١٨٠٤ م (١٢١٩ هـ) قواته في الحلة . ثم تقدم جيشه الرئيس فقارب قاعدة العدو . وتوغل رتل صغير منه في داخل منطقة العدو ، غير ان العطش اضطره الى الرجوع[١٧] فرجع ومعه من الغنائم أربعمائة جمل . وبقيت قوات ابن سعود بالقرب من حدود العراق . وقد عززت حامية البصرة .

وفي ربيع سنة ١٨٠٦ م شن الوهابيون غارتهم السنوية مما يقابل نجداً الشمالي . كما ظلت جماعاتهم الغازية متمادية في غزو قرى الحدود من الطف ولكن من غير ان تنال نجاحاً في ذلك . وكان سكان البلدان من الزبير الى السماوة مع حلفائهم من القبائل يصدون هجاتهم بكل سهولة . وقد اوشكوا ينجحون في غارتهم المفاجئة على النجف لولا ان عاجلهم النجفيون من السور فكسروهم شر كسرة . ثم هددت الزبير مرة ثانية ، وانتشر الهلع في البصرة نفسها . غير ان السهول المغمورة بالمياه عرقلت سير الابل ، ولما كان الوهابيون قد انهكهم الركوب خلال عدة أسابيع ، كانوا يحملون فيها جرحاهم معهم ، فقد تخلوا عن الضغط في الهجوم . ولما علم بنو كعب والمنتفكيون خورهم وضعفهم هب الفرسان منهم لطردهم بعد أن أنزلوا فيهم خسراناً ، ثم استنقذو القرى التي كانوا قد احتلوها .

وفي آخر سنة من عهد علي باشا وافت أنباء الهجوم السنوي الوهابي المعتاد . فسار الباشا وعسكر في الحلة ، الا ان الغزاة لم يصلوا في هذه المرة . وتعاظم خطر التهديد في السنة التالية على عهد سليمان الصغير (كوچوك سليمان) . فقد وردت أخبار تنبيء بظهور قوة عظيمة من الوهابيين حوالي كربلا . فسببت هذه الاخبار ، المبالغ بها ، هلعاً ورعباً في بغداد نفسها وتسلح أصحاب الدكاكين والتجار بأجمعهم . الا ان الوهابيين لم يعبروا الفرات ، وكانت الحقيقة ان قسماً منهم استولوا على شفاثة وغزوا القرى والمرزات « حقول الرز » الى الحلة في عبر قناة

(١٧) كان قائدهم أحمد افندي سكرتيرا (وباشا المستقبل) بالموصل

الهندية الصغيرة ورجعوا بمجرد وصول الباشا الى الحلة . على ان هذا لم يكن آخر التعديات الوهابية ، وانما أخذت جهودهم في هذه الناحية تتضاءل بالتدريج فقل الخوف منهم . وبقي رعاة الفرات وغنامته لا يشعرون بالأمن والطمأنينة الى ان هجم المصريون[18] على الوهابيين فخضدوا شوكتهم . وفي ١٨١٠م (١٢٢٥هـ) وصلت عصابة وهابية سالبة ، يقودها عبدالله بن سعود ، الى ما يقرب من بغداد . وكان الوكلاء الوهابيون يجبون « الخوة » من الرعايا العراقيين في مستنقعات كربلا عدة سنين خلت من هذا العهد . وقد تطورت الحال فاصبحت تكتنفها العداوات غير المستقرة ، والغزوات غير المشروعة ، والفزع المتكرر ، والمحالفات وتبدلات العقيدة على حدود يستحيل الاتفاق عليها . وأصبحت نجد جاراً صعب المراس لا يرتاح اليه العراق ، كما كان خوفه من هذا الجار يختلف باختلاف الحاكم عليه . ومن سنة ١٨١٠ م أخذ الامراء الوهابيون يسمحون بالتدريج بمرور القوافل الواردة من المناطق التركية الي واحات نجد ، كما سمحوا باستعمال العملة التركية . ولما كانت شراسة الوهابيين في البادية وعدم تساهلهم لم تقل وطأتهما (ولم تقل حتى الآن) بقي ينبوع الخوف والخطر على الفرات هذا شيئاً ثابتاً ، وان الحوادث التي وقعت من هذا القبيل في القرن العشرين لتؤيد ، ومصداقها منير ، ما وقع على عهد المماليك .

شهرزور في ١٨٠٢م ـ ١٨١٣م

لقد وصف من قبل الدور الذي كان قام به عبدالرحمن بابان بكونه ناصباً للولاة في بغداد . وقد كتب لابنه من بعده ان يعيد الدور نفسه بعد بضع سنوات . وتعد هذه القدرة على نصب الحكام وعزلهم في ولاية تركية عظيمة من ميزات الحكومة البابانية التي تسترعي انتباهنا . على ان اموراً أخرى من هذا الضرب يجب ان تسترعي انتباهنا أيضاً وهي تأثير دسائسهم المستمرة ونزاعهم الدائم في العلاقات بين ايران والعراق ، وفي طمس الحدود التي لم تكن مدة القرن الواحد

---

(١٨) استرجع الحجاز من الوهابيين محمد علي باشا في ١٨١٢ ـ ١٣م . وفي أوائل ١٨١٥م كسرهم محمد علي في وآقعة « بيسة » المشهورة . واستولى في السنة نفسها طوسون على القصيم . وانتهت حركات جيش محمد علي في نجد بعد حملة شاقة باستسلام عبدالله بن سعود .

بعد هذا كافية لتعيينها بالضبط .

فقد بقي البابانى الموالي ـ الذي رجع لحكومته ثانية في ١٨٠٢ ـ يساعد سيده في بغداد باخلاص مدة من الزمن . فقضت قواته على الاضطرابات في العمادية، وخدمت مع الحاميات التركية في الفرات . غير ان طاعته هذه لم تستمر . فقد قتل في ١٨٠٥ م (١٢٢٠ هـ) بكل شراسة زميله وخصمه في كوي محمود باشا ـ الذي كان شاركه في تأديب الشاوي الثائر ـ وأثبت من بعد ذلك بعدد من حوادث قطع الطرق والمظالم ان ولاءه لبغداد قد انتهى امره . فعهدت مهمة خلعه الى علي باشا الجليلي فكسر الكردي الثائر في آلتون كوبري قواتـه الموصلية والمساعدة شر كسرة . وقد نهب عبدالرحمن البلدة ، وبعد أن تأمل جثث عشرين من القواد الاتراك انسحب لتحصين موقع له في الدربند استعداداً لمقابلة الجيش الذي كان لا بد من أن يسير اليه من بغداد . وقد وصل الجيش حقاً ، لكنه خاب في الصمود له ولم ينقذ حياته الا الفرار العاجل وحيداً الى سنة . ثم تفرق أتباعه واعطي عرشه الى خالد أحد أقربائه .

ولم يكن الايرانيون قد تركوا ادعاءهم بشهرزور كما لم يكونوا صادفين عن العطف على البابانيين . ولما أخبر الشاه من سنة بالامر أقطع عبدالرحمـن مقاطعةً ما ، وكتب الى الباشا في بغداد يرجو منه اعادته الى منصبه . فلم يكـن الجواب عن هذا وعن طلب ثانٍ ذا فائدة . وانتشرت اشاعة في بغداد تؤذن بأن جيوشاً ايرانية كانت اذ ذاك محتشدة على الحدود وهي مستعدة لاحتلال الولايـة وفرض ارادتها على العراق بصورة عامة . فعزم علي باشا أن يكون السابق الى الميدان . وقد ترك بغداد في أواسط صيف ١٨٠٦ م (١٢٢١ هـ) والتقى بحلفائه الاكراد في شهربان . ثم عبر الحدود وتقدم نحو كرمنشاه بالرغم من تحذير ضباطه الذين أبانوا له ان الاستيلاء على ايران يجب ان يكون بمصادقة مـن السلطان . ولم تصل أوامر السلطان الجازمة بالكف عن هذه الحملة الا بعد ان نهبت عدة قرى . اما الشاه فقد أمر ابنه الاكبر محمدعلي مرزا حاكم كرمنشاه بحراسة الحدود ، وطلب الى والي أردلان مؤازرة البابانى الملتجىء . فترك علي باشا الحملة بعد أن أبقى الكهية (سليمان الصغير) لمساعدة خالد . ألا أن الكهية دخل أردلان بجنةٍ هائلة فاشتبك جيشه التعب مع الجيش الايراني واسر هو .

بينما اخترق محمد علي مرزا الحدود فيما فوق خانقين ، وتوغل مسافة بضعة أميال في داخل أيالة بغداد ، ثم دخل في الوقت نفسه عبدالرحمن الى السليمانية مع الجيش الايراني .

وكان اسناد باشوية بغداد الى سليمان علامة لتمادي البابانى المتمرد في ارتكاب الشناعات الاخرى . فقد هاجم كوي ، وقاد غزوة الى الخالص عن طريق كفري ، فأعلن عزله من جديد . وقاد سليمان الصغير في أوائل صيف ١٨٠٨م جيشه من جديد لتأديب عبدالرحمن ففشل في الثبات مرة ثانية في الدربند ، وفر هارباً فالتجأ الى ايران ثانية . وقد نصب سليمان باشا في السليمانية ، في حين ان حرد خالد في كركوك أول الامر ثم عبر الحدود الى ايران مع ستمائة من اتباعه وهناك انضم الى عبدالرحمن . فلم يفسح ارتداد مثل هذا في المجال لباشا بغداد بشيء سوى التسليم بالواقع ، فسمح بعودة عبدالرحمن وعوّض سليمان مقاطعات في مكان آخر . وفي هذه المرحلة ، التي كان فيها لعبدالرحمن السلطة العليا في شهرزور ، وقعت وفادة حالت أفندي وما كان من أمر المساعدات التي لا تثمن التي قدمها له البابانى . ونحن على يقين من ان امارات الاخلاص والولاء التي ظهرت على الامير الكردي الذي كان قبل عدة سنين خلت تارة متمرداً وتارة مستقلا وطوراً محالفاً صريحاً للجيوش الايرانية على السلطان ، كانت صريحة وصحيحة .

وقد كلفه الغرور ، وثقته المفرطة بصداقته لرجال تركية ، حلفه مع الايرانيين . اما سياسة الحدود ـ والنزاع في سوج بولاق والخصومة في زهاو ـ فأن والي أردلان وجد ان التوتونچي في بغداد أكثر فائدة له فيها من البلباني في السليمانية . وكان عناد البابانى سبباً في اشتداد البغضاء بينه وبين سنة في الوقت الذي كانت فيه علاقاته الحسنة ببغداد وشيكة الانبتات . وبذلك أضاع معونة الفريقين . وكانا كلاهما راغبين في نصب خالد واحلاله محله . وأخيراً انتهت الحركات والدسائس بنصب خالد في السليمانية وعبدالرحمن في كوي . وما رجعت القوات الايرانية حتى أزيل ما قامت به ، فدخل عبدالرحمن الى السليمانية من جديد ، وأخذ يزدري حكومة العراق فيغزو قرى أربيل وكركوك . وفي شتاء ١٨١١م أعلن في بغداد عزله من جديد ، ثم التقى في حزيران ١٨١٢م بجيش قوي كان يقوده عبدالله باشا في كفري . فكان الظفر في بداية اليوم حليف



موكب الپاشا عند خروجه



سوق في الموصل (سنة ١٨١٦)

ذلك الكردي الذي هاجمت خيالته المدافع وتمكنت من ازاحة العدو عن الخط الامامي • غير ان المماليك الذين كان يقودهم داود أفندي الدفتردار بكل بسالة كروا بهجوم مقابل فاكتسحوا كل ما كان في طريقهم • ففر عبدالرحمن على فرسه من حومة الوغى وبنى المنتصرون منارة من رؤوس الاكراد • فكان لهذا الفوز وقع عظيم وفرح في بغداد • وأخيراً ، اسان ان الباشوية فرضت حقوقها على الاكراد العنيدين غير النافعين ، وصار بامكانها ان تستع بثروة أوديتهم الباردة الخصبة •

وبينما كان خالد يحاول مرة ثالثة تنظيم ولايه أخذ عبدالرحمن يتوسل من جديد الى الايرانيين • ومع أنهم لم يكن له في أنفسهم أي عطف كان ، فقد رحبوا بفرصة جديدة يؤيدون بواسطتها مطالبتهم بشهرزور • فطاب محمد علي مرزا الى بغداد ان ترجع الهارب الى مقره والا تكن الحرب جزاءاً للسكوت عن اجابة الطلب • وكان معنى عودته خسران الثمار التي جنتها الحكومة العراقية في موقعة كفري الشهيرة • ولم يبق بد من مقاومة اعادته قسراً • وكان الميرزا قد اخترق الحدود بقوة مؤلفة من سبعة آلاف مقاتل ، وبينا كان الباشا متهيئاً لسلوك الطريق اعرض عن ترك بغداد بسبب فرار سعيد بك الى المنتفك • وبذلك اعيد عبدالرحمن بسهولة لحكم السليمانية وكوي وحرير • وبعد سنة قضاها بالسلم مات سنة ١٨١٣ م (١٢٢٨ ـ ٩ هـ) فخلفه ابنه محمود •

سعيد باشا

سمع قاضي بغداد بنتيجة الحملة على المنتفك فأعان الباشوية لسعيد ، وكتب الى استانبول لتصادق على ذلك بحسب العادة • ودخل سعيد باشا الى بغداد دخولاً رسمياً ، يصحبه حمود الثامر ، في السادس عشر من أيار ١٨١٣ م ، ووصل فرمانه في أواخر حزيران • وكان سعيد حينئذ في الثانية والعشرين من عمره ، ولم يك قد اضطلع بالمهام العامة بعد • غير ان ما كان يأمله الجميع هو ان شخصيته المحبوبة وأخلاقه الدمثة ربما كانت تنم عن قابليات تليق بسمعة أبيه • وأعتلى منصب الكهية الدفتردار الاديب داود أفندي • فكانت علاقته بابن سيده القديم علاقة زوج الاخت وعلاقة المعتمد ، والمرشد ، والوزير الاكبر • ومع انه لم يشغل وظيفة الكهية الا زمناً قصيرا ، فانه حفظ رتبة الدفتردارية لنفسه ، وأدى في ١٨١٣ و ١٨١٤

امور سلسلة من الحملات العشائرية في دجلة والفرات • فأعاد لرآسة الزبيد شفلح الشلال ، ومر بالخزاعل ، ثم أزال الحصار القبائلي عن كربلا فى موسم الزيارات وفى حملته على قبائل عفك في ١٨١٤ م (١٢٣٠ هـ) حصّلت له سطوته وضبطه للجيوش النادر المثال على الغاية التي سار من أجلها من دون أن يضرب ضربة ما • وفي ١٨١٥ م أدب الخزاعل بصرامة • وبعد سنة قضى على التحالفات القبائلية الكبيرة في العراق الغربي • وقد استنجد شيخ الخزاعل المعزول بشمر والزبيد طالباً اليهم المعونة ، فرد الباشا على ذلك بطلب المساعدة من المنتفك والضفير والعبيد • ومع ان جانب الحكومة كان هو المنتصر في هذه الحملة وغيرها فقد كانت القلاقل وحوادث التمرد آخذة في الازدياد • فتطور النزاع العريق في القدم بين حزبي مدينة النجف ـ الزغرت والشمرت ـ وانقلب الى عراك علني • وأخذ سكان البلدان يطردون الحكام الذين كان يرسلهم سعيد • وحدثت اضطرابات خطيرة في كركوك فاستقامت عدة شهور •

وكانت الحال في بغداد تتطور آخذة شكل ثورة من الطراز المعروف في التاريخ الشرقي • فلم يكن مشاورو الباشا ، في غياب داود أفندي وبعد سقوطه، غير أم مجنونة ، وصديق لا قيمة له ، ورجل مضحك • وكان قد سبب له توزيعه للوظائف في أول الامر استياء من كثير من الذين كانوا يميلون اليه ، وزاد في الطين بلة اسرافه المفرط • على ان حب الناس له لم يتبدد فوراً • فقد ازدهرت التجارة وكانت الاختلاسات نادرة ، وكانت أهواؤه للشهوات غير مصحوبة بطبع العاتي المستبد • وعلى هذا كان اعتداله بالذات السبب الرئيس في سقوطه • وقد حوفظ على الحالة الملكية المترفة في الديوان • ولاجل المحافظة عليها ، ولدفع نفقات الحرس من المماليك كانت تؤخذ القروض من أناس من الشعب فتسدد ديونهم بكل التدقيق بحوالات على واردات الكمارك • غير ان الاختلال الآخذ بالتفشي في ثروة البلاد وقوتها وأمنها الداخلي كان ظاهراً للعيان • وقد انحطت ادارة الامن والنظام في بغداد الى حالة مؤسفة • فكثر الشجار العنيف بين العقيل ، وتفشت سرقات العصابات من اللصوص من غير ان يقتص لها • وكان الوجوه من الناس بين محرضين على هذه الارتكابات ومستفيدين الفوائد من الاسلاب •

وكان داود أفندي يومئذ الرجل الثاني في الباشوية • فقد بدأ بالخدمة وزيراً مخلصاً فعالاً ، غير ان أسباب تنفير الباشا عليه كانت تعمل عملها • فكان حسد الخصوم يثير في الحاكم المخنث المخاوف بوضع قصص المؤامرات لقتله • ووضعت فكرة مقابلة الشر بالشر على بساط البحث ، وسرعان ما وصل حديث ذلك الى سمع داود • فتوسعت شقة الخلاف بالحماقة الممزوجة بالخرف التي كانت تتصف بها نبي خانم أم الباشا ، وكان منضماً إليها خليل الباشا وصفيه حمادي آغا • على ان داود من جهته لم يقصر في الاتصال بصديق له في استانبول وهو حالت أفندي • فنقلت اليه أوفى التفصيلات من أخبار انحطاط الحالة في العراق ، ورويت له الحوادث ـ وكان قسم منها من نسج الخيال ـ التي كانت تظهر سعيداً بأكثر الالوان كدرة • فعزمت الدوائر العليا ، ان لم نقل أعلاها ، في العاصمة على جعل داود مكان سعيد •

وكانت الحال المؤدية لذلك سوء تدبير الباشا الشاب في قضية البابانيين • إذ كان سلفه في الباشوية قد ترك محموداً في السليمانية ، وسليمان باشا (الابن الاكبر لابراهيم) في كوي • وقد بقيا على هذه الحال مدة سنتين هادئتين • على ان مدعيين عظيمين بالعرش البابانى كانا يترددان الى بغداد • فحصل أحدهما ، وهو خالد المحارب القديم ، على حكومة أربيل أولاً ، وعلى حكومة كوي بعدها • ففر سليمان باشا حسب المعتاد الى المرزا في كرمنشاه • وفي ١٨١٦ م (١٢٣٢ هـ) عين سعيد من دون روية المقرب الآخر له عبدالله باشا أخا عبدالرحمن حاكماً للسليمانية • فاستجار محمود بايران ، واستعد سعيد لتأييد مرشحه وتمكينه بالسلاح • ووصل في هذا الوقت مندوب من استانبول ـ ندب لكشف حالة الحدود وتقديم تقريره بمشكلتها من حيث وجهها العام • فأقام مدة ما ادرك خلالها ضعف سعيد ، ومقدار تدخل الايرانيين ، وسوء الادارة الشائن في العراق • وبعد أسابيع قليلة تبين ان سعيداً قد عزل •

وبقي عبدالله باشا بابان في كركوك • ومن بغداد ترك جماعة من الاغوات المتقدمين سفينة الباشوية المشرفة على الغرق وتجمعوا في كرمنشاه • ثم انحاز عدد من الرجال الاماثل الى جانب داود أفندي (الذي كان خارج وظيفة الدفتردارية) وبينوا ارجحيته للمنصب الاعلى لمن كان مستعداً لسماع ذلك • ولما غادر بغداد

في أيلول ١٨١٦ م[١٩] تبعه كثيرون من الموظفين الكبار السابقين والحاليين الى السليمانية على طريق زنكباد ، وهناك لقي من محمود باشا بابان ترحيب تملق وهتف به حاكماً مقبلاً للعراق • وكان محمود باشا مستعداً لاعلان انشقاقه النهائي على ايران اذا تأكد بأنه سيخدم باشا في بغداد مستأهلاً للاخلاص • ولذلك حدث تجمهر عام للمنفيين والناقمين • وقد صحب هذه الجماعة المهاجرة من كرمنشاه سليمان باشا (الذي كان أخيراً في كوي) • وأرسل من السليمانية بعريضة داود الرسمية الى استانبول لتعيينه لباشوية العراق • وبعد أربعين يوماً تحرك الى كركوك وخيّم في قرية على مسافة ميلين منها • وكان قد أصدر أمر التعيينات للوظائف المختلفة ، فأعطى كل آغا حصته من الغنيمة •

وقد تلا عزل السلطان لسعيد ترشيح لم يكن يتوقعه الا القليل من الناس • فقد أنعم بالايالات الثلاث علي أحمد بك ـ أخي سليمان الصغير بالرضاعة ومتسلم البصرة أخيراً ـ وكان داود قد رفعه لمنصب الكهية • ألا ان الامر هذا قد الغي بعد أيام قلائل ، لكن هذا الالغاء لم ينفذ حتى وصلت منه نسخة اعتماده فقبلته أكثرية السكان والحامية ممن هتفوا لداود من قبل • فطلب اليهم داود ، قلقاً مستريباً ، الوفاء بوعدهم الاول والثبات على موالاتهم له • فكان جواب ذلك هجوم أحمد على مخيمه • وتمايل اشراف كركوك بينهما لا يعلمون الى أي الفريقين ينحازون ، فلم ينحازوا الى أي جهة كانت • وظل داود على حال أحر من الجمر متوقعاً مصيره ومترقباً وصول الـ « قپوچي » من استانبول في كل لحظة • وبعد أن قاسى كرب وضعه المقلق وصل الحجاب السلطانيون يحملون رق تعيينه بيك البيكات « بكلربكي » لبغداد والبصرة وشهرزور ، ودخلوا المخيم في قرية طوقماقلو في تشرين الثاني • وبعد اسبوعين تقدم الباشا الحديث نحو بغداد بطريق طوز وكفري •

وكان سعيد ، السيء الطالع ، قد بقي يتخبط في لجج الحيرة بعد فرار زوج أخته من بغداد • فقد بدل الموظفين في كل وظيفة ثم استبدلهم ثانية محاولاً ارضاء

---

(١٩) الموافق ١٢ شوال ١٢٣١ للهجرة (دوحة الوزراء) « المؤلف » وقد تقدم ان سنة ١٨١٦ الميلادية توافق سنة ١٢٣٢ هـ ، وأولها ٢١ تشرين الثاني يوم الخميس ـ « م • ج » •

الجميع وقاصداً الحكم براحة ولو مدة قصيرة • وبعث الرسل المستعجلين الى حمود الثامر • فأسرع في تلبية الطلب وجاء بقوة منتفكة ، وكذلك قدم عبدالله باشا من كركوك ، وبعده خالد باشا من كوي ، وبعض القطعات • فكونت هذه مع جموع اللاوند في النقر العام ، والحامية الانكشارية ، والعقيل ، والمشاة من التفنكجيين والبرطلين والقلباقلين جيشاً يستطع الوقوف في وجه داود وأكراده الذين أشرفت جموعهم على سور بغداد • على ان ما كان يفزع سعيداً أكثر من كل شيء أشد الاعداء : المجاعة والفقر • فقد ارتفعت أسعار الطعام والمأكولات بسرعة • وكان من الضروري اطعام القوات العربية والكردية التي خفت للانجاد • غير ان الخزانة كانت قد أصبحت فارغة منذ مدة • وتمادت الجيوش النظامية والاجيرة في المطالبة بالرواتب الحالية والسالفة المتأخر دفعها • وكان قلق القبائل يزيد في كل يوم يمضي على غيبتهم عن مواطنهم •

غير ان النجاح الاول كان لهم [٢٠] • فوقع الاشتباك الاول في اليوم السابع من كانون الثاني لسنة ١٨١٨ م (١٢٣٤ هـ) • وكانت مقدمة جيش داود مجتمعة من غير خيام في مدى رمي مدافع القلعة • ففاجأهم خمسمائة فارس منتفكي وأدهشوهم قاطبة ففرقوهم • وكاد ان يهلك داود نفسه ، فتراجعت قوته الى مكان أبعد من ذاك بغية الانتعاش والاستراحة وجمع الشمل • وقد تسرب الغرور الى نفس سعيد فوجد فيها مسوغاً لصرف القوات التي لا قبل له بأبقائها ، ثم رخص لقوته المنتفكية بالانصراف • ولذلك رجع حمود منتشياً نشوة الظافر • اما بغداد ، ففي أيام الفرج هذه [٢١]

« سادت فيها الطمأنينة بصورة غير اعتيادية حقاً • ثم فتحت أبواب المدينة بعد ان بنيت فتحاتها » ••••« وكان الشيوخ عامة غير عارفين للطريق التي يسلكونها •••• فأنسوا في أنفسهم قناعة كافية يميلون بها الى نشدان الآمال المعسولة المعلقة على سعيد الشاب • ولم ينتهز الباشا نفسه فرصة النجاح الحاصل لشيء ••• وفي الحقيقة لم يبق ما يذكره بتلك المعارك الدموية التي وقعت قبل

---

(٢٠) هود (١٧٤) ، لكن كتاب « دوحة الوزراء » الذي يطنب في مدح داود دائما يتجاهل هذه الواقعة •

(٢١) لدينا عن هذه الواقعة رواية هود وهو شاهد عيان

اسبوع تحت السور سوى الاشاعات غير الاكيدة بالخطر المهدد ، وعزل جماعة من الموظفين ثم تعيين غيرهم ، والهمسات التحذيرية بين حين وآخر من تعاظم قوة داود واقتراب رجوعه » .

وقد عظم صوت هذه الهمسات وكثر وضوحها . فأخذ عدد من الرجال الكبار يتسللون بهدوء من المدينة ، ولاقت دعوة سعيد في جمع الجنود الاجيرة مقاومة . ولم يكن وكلاء داود خاملين ، فان كتائب المماليك سبق لها ان فسدت نياتهم بعض الفساد ، وأخذ كثيرون منهم يفرون جماعة فجماعة . وبدأت ثورة علنية في محلة باب الشيخ الذائعة الصيت . وبقي سعيد في ضعف حال لا يستطيع معه التصميم على شيء . فلم تكن جهوده منظمة ، ولا ثابتة ولا جدية في التغلب على العصيان والجرائم . وقد ملأ الأزقة الضيقة المظلمة في بغداد النزاع غير المجدي ، وغير المنظم ، الذي استمر خمسة أيام كانت مفعمة بدوي المدافع وقرقعة البنادق ، وبأهازيج الحرب العقيلية ، وأناشيد الانكشاريين (گلبندات)[٢٢] ، وأنين الشهداء المجندلين في هذا النضال الذي لا أمل فيه . فانتهت تلك الفترة باقتراب جيش داود المتكاثر الرصين وشوهد من أعالي السور . وعندئذ انسحب سعيد مع بضع مئات من العقيل الى القلعة .

فدخل داود دخولاً رسمياً في العشرين من شباط بعد أن دعاه لذلك وجوه المدينة وأشرافها . فردد اسمه في الاسواق ، وتلي فرمانه في السراي . وأخذ يدعو من في القلعة الى الاستسلام في كل يوم ويقوي مركزه في المدينة ، فأعيد نظام مشوه وملئت الوظائف كلها ، ثم دخل جيشه الرئيس الى المدينة . ولعلاقات سعيد الرحمية بزوج أخته ، ولموقفه السلمي فقد هدأ شيء من روعه .

---

(٢٢) قال ياسين العمري في حصار طهماز نادر شاه للموصل سنة ١١٥٦هـ (١٧٤٣م) « ذكر لي كثير ممن كان في حصار الموصل ان أهل الموصل كانوا يقرأون في الليل على السور شيئاً باللسان التركي ويسمى گلبند كما هو عادة الينكجرية فاذا تم ، صاح كل من حضر بأجمعهم « الله الله » . وحكى من كان في عسكر طهماز ان العساكر اذا سمعوا ذلك وقع في قلوبهم الرعب » والشيء بالشيء يذكر — « م . ج »

وأمر أتباعه من العقيل[٢٣] بترك القلعة .

« وفي ليلة الانسحاب نفسها ... أبرز آغا الانكشاريين الحديث بسكوت ختم توليه السلطة في أبواب القلعة ... فعرف مقصد ذلك ، وانسحب الحرس ... وعندما طلب الدخول من باب القيطون « المخدع الخاص » ، الذي كان الشاب السيء الطالع قد انسحب اليه ، كانت الام القلقة (المتشائمة بالسوء) واقفة تمنع الداخلين وهي وجلة . على أن الساعة المقتربة وحضور السيد[٢٤] المنتقم قد سبق انذارهما لها بالصدق المميت . وبينا كانت الام تعانق ابنها وتفديه بنزع مضطرب وهي تصرخ متضرعة طالبة للرحمة ... انزلت ضربة قدوم حرب « بلطة » بالفريسة ، فبقي بيد الام الثكلى الجسد وحده مجرداً عن الرأس[٢٥]. » .

المملوك الاخير

ليس بين الشخصيات التي ورد ذكرها في هذه الصفحات شخصية يصعب الحكم عليها مثل شخصية داود . فقد ولد في تفليس سنة ١٧٦٧ م (١١٨١ هـ) ، وجيء به الى بغداد عام ١٧٨٠ م ، فبيع أول مرة ثم بيع ثانيةً واعتنق الاسلام ، حتى انتهى به الامر الى دار سليمان الكبير . وسرعان ما بانت مواهبه الادبية الى جانب مهارته في استعمال السلاح التي كانت عنده من قبل ، وأظهر اقتداراً في ممارسة أمور الدولة الرسمية . فقد صار في بادىء الامر كاتباً خاصاً ـ لأنه كان يجيد الكتابة بالعربية والايرانية والتركية جميعاً ـ ثم جعل أميناً للمفاتيح ، وحامل الاختام من بعد ذلك . وقد أثار زواجه بأبنة سليمان الحسد والريبة في نفس علي باشا ، الذي كان داود في ايامه ملاً مجداً يسكن عند عتبة الشيخ عبدالقادر الكيلاني ثم صار دفترداراً في عهد عبدالله التوتونچي ، وكهيةً ثم دفترداراً في عهد سعيد ، وقد ذكر شيء من سيرته بعد ذلك المنصب قبل هذا .

وكان عند توليه الحكم قد بلغ الخمسين من عمره . وكان بشوشاً في سلوكه غير متصنع في معاملاته ، كما كانت ظرافته تستعبد أشد مناوئيه وتجذبهم

---

(٢٣) ان تحيز صاحب « دوحة الوزراء » الحزبي حداه على ان اتهم سعيدا بالتحريض على ثورة مقابلة في هذه المرحلة .

(٢٤) السيد عليوي (٢٥) هود (ص ١٦٩ ـ ١٧٠)

اليه . اما مظهره فقد كان مظهر الرجل الجميل الملتحي ذي الطول المعتدل الذي، تجلله الحشمة والوقار ، وتبين على وجهه امارات الدعة والذكاء . وكان ديوانه أعرق الدواوين التي عرفتها بغداد وأكثرها سمواً وازدهاراً . غير انه كان يظهر الجبن والتردد في مناسبات خطيرة ، وفي مناسبات أخرى كانت تستفحل فيه البسالة . ومن الغريب انه كان يؤيد التقدم العلمي والثقافة العقلية ويثني عنهما أيد أخرى . وكان كرمه مصحوباً بجشع مسنون . ولم ينجه ذكاؤه ، الذي لا ريب فيه ، من أذم أنواع الحماقات وأكثر الاحكام خطأ . ولم يكن وفياً في معاملته للاشخاص ولا مستقراً على حال . وكان فيه مس من السجايا العالية وشرر من الشخصية الفردة ، وهو الامر الذي رفعه من دركة المملوكية الحقيرة الى درجة الباشوية ، مع انه بقي أقرانه (الذين يشبهونه في الطراز) يتسكعون في عالم اللالي المتقشفين . ومع تقدمه عليهم فقد بقي فيه الشيء الكثير من أحوالهم . غير أنه ، وان لم يكن عظيماً بالمعنى الحقيقي ، كان ذا شخصية بارزة بأكثر مما يحتويه الحكم من مظهر فخم وسلطان متسع . ولو قدر لحكام أقوى منه وأعقل أن يلاقوا شتى الاحوال التي مرت عليه ، بعد ابقائه خمسة عشر عاماً في عز وثروة ، وقذفه خارج بغداد وهو حقير لا يملك شروى نقير ، لتقهقروا عنها خائبين .

وكان توليه الباشوية معروفاً بالاعتدال العظيم وبأطيب الآمال التي علقت عليه . فقد عفا عن ثوار كركوك والاسرة البابانية ، واستطاع أتباع سعيد أن ينقذوا أنفسهم منه بدفع غرامات باهظة له . غير ان خطة الاعتدال المستدام ، لم تكن لتأتلف مع الزمن وما يتطلبه في شتى الحالات . فان « القبوجي » الذي جاء بالفرمان لم يكن من المناسب أن يرجع صفر اليدين ، وكانت الخزانة فارغة ، وجمع الضرائب موقوفاً ، والجنود بمختلف صنوفهم لم تدفع لهم رواتبهم منذ مدة . وكان أنزال العقاب على جماعة من موظفي الباشوية السابقين من مقتضيات توطيد الامن ، كما كان تأديب آخرين غيرهم مما تسوغه روح الانتقام ، وكان الضغط على فريق آخر منهم يعد من قبيل الاكراه[٢٦] . ولم يكن بوسعه أن يعد نفسه

---

(٢٦) كان يعتقد في بغداد على هذا العهد ان السجن والتعذيب كانا من الامور الشائعة في أول ادوار هذا الحكم . وقد سمع كيبل في سنة ١٨٢٤م

لمهام الحكومة ما لم تتطهر العاصمة من الناس المخطرين ، وما لم يدخل الخزينة شيء من المال ، فيدفع للجنود رواتبهم ، ويعترف بالباشا في كل أرض وصقع .

وتعرف مدة نصف الجيل التي امتـــدت خلالها باشـوية داود بخلوها من الحوادث المهمة . فالاضطرابات الداخلية لم تخرج عن الطراز المألوف. والعلاقات بايران كانت شيئاً ذميماً الا انها لم تكن في وضع حاسم . وكانت ادارته ــ التي ينتقدها الاوربيون المطلعون بتسديد ــ تتمتع بنفوذ كاف لضمان الطاعـة التي لم يتوصل لضمانها من كان أحسن منه من الحكام ، وبطمأنينة ظلت تذكر بعده مدة طويلة . وقد خصص خريف عام ١٨١٧م (١٢٣٣هـ) وشتاؤه لحملات على القبائل قصيرة فعالة ، وكانت هذه اولى الحملات الكبيرة التي اضطلع بها الكهية المقتـدر غير الهياب محمد آغا . وسواء كانت هذه الحملات على بني تميم أو شمر أو البو موسى أو بني عمير أو الغرير ، وسواء كان الكهية نفسه يقودها أو أي ضابط أقل منه رتبة ، فانها كانت تكلل نتيجتها بالظفر من دون أن تراق فيها الدماء . وكان يتلو نهب مواشي القبيلة حسب العادة في كل من هذه الحملات تبـديل الشـيخ واخلاد القبيـلة الى السكينة بضعة أشهر . وفي حملات ١٨١٨ م الاولى غُـرم الدليم بمقدار البقايا التي استحقت عليهم من قبل ، واخضعت عشائر شمر الجربا بالكلية ، ثم جردت قبيلة اليسار ، قرب الحلة ، عن حيواناتها . وقضت على شمر طوقة ضربة سريعة من بغداد . وفي أواخر السنة نفسها نشأ وضع حرج بفـرار صادق ــ أكبر أبناء بويوگ سليمان الاحياء ــ الى قبائل زبيد ، بينما كان جاسم الشاوي ملتجئاً الى الخزاعل من قبل . فانضمت قوات الاثنين بعضها الى بعض كما انضم اليهم ناس من الناقمين الساخطـين . وكان من الطبيعي أن يخشى داود ، الذي كان مشغولاً بشؤون البابانيين ، تكرر حوادث ١٨١٣م في عهـده هـــذا فتؤدي لدخول ابن من ابناء الباشا الكبير الى بغداد على اكتاف القبائل فعزل شفلح ، شيخ زبيد ، وعرض على صادق معروضات ودية . وبعد أسابيع قليلة أرسل رتلاً

(١٢٤٠ هـ) ان ١٥٠٠ شخص كانوا قد إعدموا . ويذكر گروفز ان صالح بك « كان الرجل الوحيد من الاقارب الذي ابقى داود على حياته » ، وهذه مبالغات عظيمة . غير ان « دوحة الوزراء » يجعل ضحايا هذا العهد البشرية اثنين فقط .

لمطاردة العصاة فتشتت قواتهم والتجأوا طالبين النجاة الى قبائل[37] أبعـد . وفي حملات أخرى لسنة ١٨١٨م كسر الصقور ، فرع من عنزة في غرب المسيب ، الآغا المرسل لقتالهم شر كسرة . واحرزت حملة ثانية سيقت على شيخ ثائر من شمر انتصاراً سهلاً وظفرت بغنائم وافرة . ونجحت حملة ثالثة سيقت لقتال قبائل البادية فيما يجاور النجف . وحدث عكس هذا في مكان آخر في تشرين الاول ١٨١٨م ، اذ تفوقت على ارتال منتخبة من المماليك الحرس قوة قبلية أقل منهم شأناً ، فقتل كثير منهم واسر ثلاثمائة . فاقتضى ذلك حشد قوة كبيرة بقيادة الكهية في الحال .

ولا تعرف أهداف الحملة التي سيقت بعد ذلك التحشيد معرفة واضحة ، الا أن الحركات (التي يصفها بايضاح كاتب[38] انكليزي زار محمد آغا في معسكره) تقدم لنا نماذج منتقاة من « سوء التدبير الغريب ، والاضطهاد الوحشي ، الذي كان يمارسه الاتراك تجاه فلاحيهم[39] » . فأن الكهية لم يبلغ مقصوده بقوة السلاح ولا بالتسوية الصلحية الحكمية ، وانما نجح في اقتناص عشرة من الشيوخ الثائرين بأبشع خيانة فبعثهم في أسر حقير الى بغداد . ولم تجد نفعاً حتى هذه الضربة ، في تهدئة الفرات الاوسط ، فان رجال البادية الذين هاجهم انتهاك حرمة الشرف والعفة أخذوا يشنون غاراتهم على طول منطقة الفرات الاوسط وفي عبره . لكن غزوات الكهية المقابلة التي كانت تشنها العشائر الموالية كانت ناجحة وقد انتقلت ساحة الحرب من حسكة الى عفك ، ومن هناك في اتجاه دجلة الى البغيلة ثم رجعت الى أهوار الشامية . وأخيراً كسرت المقاومة ، وجمعت الغرامات الجسيمة ، فعاد محمد آغا الى ترحيب واستحسان في بغداد .

وكانت أهم حملات ١٨١٩ على الدليم الذين فرق قسم كبير منهم عند عبورهم الفرات فارين من الجيش الذي جفلهم قدومه على حين غرة . وقد نوقشت الحساب قبائل أخرى مثل زوبع والجميلة والبو عيسى . وفي النهاية اقتضى الامر سير الجيش الى شفاثة . فجمعت بقايا الضرائب من كل مكان ، وانعم

---

(٣٧) وقد عفى عن صادق بك فيما بعد .
(٣٨) پورتر
(٣٩) ريج

بالخلع على المستحقين • على انه بقي ، من جهة أخرى ، شيء كثير من عمليـــة التهدئة بين القبائل والمدن مما لم توفق له الحملة • وقد افزع سكان الحدود في منطقة مندلي ثائر" شهير يدعى السيد صالح • اما الشمال فان اللصوص المزمنين المتأصلين في سنجار منه قـد انتشرت جماعاتهم في الطـرق المؤدية الى الموصل وماردين ، وكانت كل جماعة منهم متألفة من عدة مئات ، فكان من بين المسلوبين فوارس التتر [٤٠] الذين ينقلون البريد ، واضطر المسافرون الاوربيون للعدول عن سلوك هذه الطريق • ولم يكن بوسع باشا الموصل ، الذي كان غير آمن [٤١] هـو نفسه ، أن يعيد النظام الى نصابه • وكانت الجرائم وحوادث الارهاب مستفحلة في البصرة • فدخلت المدينة في حـزيران ١٨٢٠م (١٢٣٦هـ) ثلة قـــوية من النجـــديين ، وهاجمت السراي فكادت أن تستولي عليه ، ثم انزلت الرعب في القلوب وارتكبت جريمة القتل في الاسواق •

الغـــزوات من كرمنشاه

تعد حادثة استيلاء امير كرمنشاه على العراق محور الحوادث الواقعة في أيام باشوية داود • وقد أعقب هذه الحادثة استيلاء ثان مثله شدة ، ووقوع حرب أهلية مخطرة • وهذا ما يدعو الى القاء نظرة على العلاقات الايرانية العراقية العامة لبضع سنين خلت ، وعلى السياسة التي انتهجها الباباييون منذ تولى داود الحكم •

فلم تك ايران ، خلال العشرين سنة المضطربة من النضال ، التي ابدلت فيها السلالة القاجارية من سلالة الزند المالـكة ، متفرغة للاهتمام بشؤون العـراق • والحقيقة ان آغا محمد ، الخصي الشيطان الذي أسس السلالة القاجارية ، كان يرمق العراق بعيون مستطلعة نحو العتبات المقدسة ، لكنه لم يكن بوسعه أن يحرك ساكناً للاستيلاء عليها • كما أن فتح علي شاه ، الذي خلفه في١٧٩١م (١٢٠٦هـ) واستقام مدة تولي حكم العراق فيها عدة باشوات ، كان معروفاً بميله أكثر من سلفه للاستفادة من أسباب الحرب الكامنـة التي تتولد كل سنة في كردستان •

---

(٤٠) الططر أي الغرانق والفيج

(٤١) تولى أحمد باشا الجليلي في ١٨١٣م بعد سعدالله باشا فأعاد بناء السور • وقد نقل في ١٧١٧م ثم أعيد في ١٨١٩ ، وكان حسن باشا هو الحاكم في غيبته

فكانت الاعصاب تزداد توتراً في العراق كلما كان الناس يسمعون بعظمة البلاط الايراني واستقبال الديبلوماسيين الاوربيين فيه • وكان الاعتداء الوهابي يلاحظ بكل اهتمام من طهران ومن استانبول على سواء • وقد رددت ايران بأجمعها صدى نهب كربلا وضريح الامام الحسين • فلم يك تأثير هذا الاعتداء الديني أشد في غير ايران ، كما لم تكن فرصة أخرى للتدخل في شؤون العراق سانحة مثل هذه الفرصة • وأحسن ما كان يدل على مقدار تعفف الشاه قبوله أكياس الدراهم الثقيلة ، المرسل بها اليه من بغداد ، لأن الطمع وجمع المال كانا من طباعه •

وانفرجت هذه الأزمة ، الا أن الحادث الذي كان أكثر أهمية بنتائجه للعراق هو تعيين محمد علي مرزا لكرمنشاه في ١٨٠٥م (١٢٢٠هـ) • فسرعان ما أصبحت ولايته تضم قسماً عظيماً من ايران بالنظر لمقدرته وطموحه وشراسته ، وكانت قطعاته تدرب على الطريقة الاوربية • وقد استقصت صفحات متقدمة من الكتاب جهوده المتواصلة بالسيف والقلم في جعل الولاية البابانية من الممتلكات الايرانية • وفي أيام سعيد الضعيف كان أمر الاستيلاء الايراني على العراق بأجمعه موضع البحث الصريح • ومن المحتمل أن المرزا كان قد أمسك عن ذلك حرصاً على امتناع أبيه من تعكير صفو السلم ، وانقياداً لضغط الديبلوماسيين الاجانب[42] في طهران ، وطمعاً بالمبالغ الجسيمة التي كان يرسل بها الى كرمنشاه لاسكاته[43] • الا ان كل واحد من هذه الموانع لم يبق طويلاً ، لأن الأسرة البابانية فتحت الباب على مصراعيه من جديد للامير الايراني •

فقد ركت العلاقات السياسية التي كانت تربط بين داود باشا ومحمود بابان ، وانقلبت من صداقة مقسم عليها الى انشقاق علني • وأخذ حديث حسد داود ودسائسه على الوحدة البابانية يدور على الالسن في السليمانية ، كما كان الجميع في بغداد يلومون محموداً على انقلابه ومخامرته بالمراسلة لكرمنشاه

---

(٤٢) كان السفير البريطاني في أيران هو الذي اقنع الشاه باحترام حدود ١٦٣٩م (١٠٤٩هـ) •

(٤٣) راجع پورتر (ج ٢ ص ٢٠٢) ان تأكيده على ان الباشا كان يدفع أتاوة خاصة لكرمنشاه لا يمكن أن يصدق •

وسخريته بمشورة داود الابوية . وحلت سنة ١٨١٨م (١٢٣٤هـ) فلم يظهر أي مخرج من النزاع سوى شهر السلاح . فدفع محموداً تقدم القوات من بغداد نحوه وخيانة أقاربه أنفسهم له لمراسلة المرزا . فعبر الحدود عشرة آلاف ايراني لضده ، ثم غزا غيرهم من الايرانيين مندلي وبدرة وجصان . فبعث داود في الحال الكهية لصد الغازين في مندلي وغيرها فصدهم ، كما بعث لمقاتلة معظم الجيش عبد الله باشا ، عم محمود ، فوصل الى كركوك ووجد جميع الاودية الشرقية قد أصبحت في حوزة الايرانيين . الا ان القتال الجدي العنيف قد تأجل من جديد ، لأن المرزا طلب اعادة محمود فلم يرَ داود ، وقد طلب النجدة من استانبول ، بدا من قبول ذلك . فرجعت القوات الايرانية الى بلادها .

غير أن هذا التدبير قد أزال سبباً واحداً من مائة من أسباب الحرب . فقد تنازع آخرون من المدعين بالزعامة البابانية ــ الذين كانوا في شبه انعــزال في كركوك يومئذ ــ مع الأغوات المحليين وهربوا حسب المعتاد الى كرمنشاه . وقد وجد أن موظفين كباراً في بغداد كانت لهم اليد الطولى في الامر وأطماع يبغون تحقيقها ، ومن جملتهم الكهية نفسه . ثم اجتمع في ديوان محمد علي بكرمنشاه الناقمون واللاجئون . وفيما عدا ذلك كانت تركية وايران قد أشرفتا على الحرب يومذاك لاسباب غير هذه . فقد آوى باشا أرضروم قبيلتين رحالتين تدعي ايران برعويتهما لها . وكان حاكم أذربايجان ، الذي كانت القبيلتان في حكمه ، عباس مرزا ، وارث الشاه ، الذي حرضه زيادة على ذلك رسول روسي على السير الى الفتح . فوجد محمد علي مرزا في التجاء الامراء البابانيين اليه سبباً من أسباب الحرب يشابه ما سبق من الاسباب . وكان عنده علاوة على ذلك من الاسباب سوء معاملة الاتراك للزوار الايرانيين في العراق . فنال في هذه المرة من والده ، بعد أن زاره مستشيراً ، سماحاً مطلقاً بما يعمل . فبعث اولاً الملتجئين البابانيين ليقوموا بمهمة التعرض فعبروا من زهاو ، ونهبوا خانقين صارخين « الى بغداد » ، غير انهم عيقوا عن تقدمهم بزحف الجيش للقائهم .

وقد خف داود فأعلم سيده بالخطر المحدق به ، فوصل رسوله بعــد أن وصلت أنباء ظفر عباس ميرزا في الشمال مباشرة . فأجاب السلطان باعــلان الحرب . وأصبح من الضروري أن تُعزز بغداد ، وأن يُهيأ الجيش ، وأن

تُحتل ايران بأسرع ما يمكن والى أبعد ما يمكن أن يصل اليه الجيش • وأمر على الفور بارسال نجدة تتألف من خمسة آلاف الباني « هايته » فوصل قسم منهم الى بغداد • وفي غضون ذلك صودق على بقاء محمود في الحكومة البابانية بينما أنعم المرزا بنفس الجائزة على عم محمود عبدالله باشا • وبعد أن أضاف داود « الهايتة » الى قواته بعث بالقوة كلها مع أربعين مدفعاً بقيادة الكهية محمد آغا الى زنكباد فوصل في ايلول ١٨٢١م (١٢٣٧هـ) • وبعد انتظار مدة أربعين يوماً تحرك الكهية على طريق كركوك الى مضيق بازيان ، لأنه علم ان عبد الله سبق له أن دخل شهرزور مع خمسة آلاف ايراني • فتحرك الجيشان ، كل في وجهته ، الى السليمانية • وقد حلت العقدة الحاصلة من الحال هذا بطريقة يشك فيها الناس وحتى المطلعون المعاصرون • فقد ضعفت القوة المعنوية للجيش بحلول شتاء كردستان القاسي وبتفشي المرض • وكانت التجهيزات قليلة ، كما كان تماديها في القلة يهدد وضع الجيش يوماً بعد يوم • وعندما هجم محمد آغا كسره العدو كسراً كلياً ، وترك هو نفسه جيشه مشتتاً فانضم الى صفوف العدو • وكان هجومه في نظر الكثيرين من بابة المكر والخدعة ، فخيانته كانت شيئاً واضحاً • الا أن كثيرين من غير هؤلاء كانوا يرون فيه قائداً باسلاً ساقه خوفه بعد الكارثة الى الالتجاء الى صفوف العدو • اما قواته الممزقة فقد رجعت الى كركوك فعقبهم – بعد نصب عبدالله في السليمانية – اليها الجيش الايراني • غير أن فلاحي كركوك التركمان لم يرقهم أن يخضعوا لحاكم ايراني ، فأعدم عدد منهم لرفضهم الطاعة • ولم تشأ القلعة أن تستسلم ، كما لم يكن بوسع الامير أن يبقى منتظراً نتيجة الحصار[٤٤] • وبعد أن مر بطاووق الى كفري احتل خط البلدان الى هناك ، عاداً محمد آغا ، الكهية الهارب ، امام الجميع باشا المستقبل • ثم وقف الجيش في الخالص •

وكان داود باشا قد حصن العاصمة وملأ مخازنها استعداداً للدفاع بالتحصن ثم جيّش جماعات المتطوعين ، وتهيأ الحرس الخاص لأمر أشق من واجباتهم في القصر • كما طلبت المعونة من استانبول • وبقيت المدينة هادئة حتى وافت الانباء مفيدة بوصول الايرانيين الى هبهب ، وهي على مسيرة يوم واحد تقريباً من بغداد •

---

(٤٤) سوث گيت (ج ٢ ص ٢٠٩) •

وعندئذ هرب مئات الناس من بغداد الى الحلة[٤٥] ، وارتفعت الاسعار ، وأصبح التحصن والامتناع ضربة لازم • وعلى هذا كانت نتيجة الحال مشكوكاً فى حقيقتها • فقد كانت خزينة داود ملأى بالمال ، ومخازنه ممتلئة بالذخائر والطعام ، ورجاله كافين للدفاع ، كما لم يكن يخشى هو الخيانة من الداخل • ولكن القوات المهاجمة كانت مستعدة لضرب حصار طويل متواصل ، على أن كفايتها لم تكن قمينة بحصار مدينة ذات سور عظيم • غير ان الوضع الحرج لم يوضع على المحك • فقد تفشت الهيضة الحادة (الكوليرا) فى الجيش الايراني وأخذت تفتك به ، ومن المحتمل انها كانت قد تفشت فى بغداد أيضاً • ووقع الامير نفسه فريسة للمرض الوبيل • وظل جيشه عدة أسابيع مستريحاً بالقرب من بعقوبة وواضعاً مفرزة من الجيش فى خان بني سعد وهي من بغداد على مسافة خمسة عشر ميلاً • وكانت جماعات الجيش التي ترعى الحيوانات تجول فى كل مكان من تلك الاصقاع ، وقد اشتبكت واحدة منها مع صفوك الفارس ، شيخ شمر المعين فى المشيخة حديثاً ، فعوملت بشدة وقسوة • ولم يحصل أي هجوم من بغداد الى الخارج •

ولذلك فقد حمل المرزا مرضه ، ورغبته فى تجنب حملة طويلة لا تعرف نهايتها ، على مفاتحة العدو بعقد الصلح • فأرسل عالماً شيعياً للمفاوضة • فرد عليه داود باشا بارسال اثنين لا يقلان وقاراً عن العالم الشيعي • وسرعان ما اتفق الفريقان على تسوية المشاكل • وكان الاتفاق على أن تعطى السليمانية عبد الله باشا ، وأن يعوض عما نهب فى الخالص ، وان تخلى الاراضي التركية على الفور • فعاد الجيش الايراني ، وعبر الحدود ، ثم سار راجعا الى كرمنشاه • وقد مات محمد علي مرزا فى كرنت • فكان رجوع الجيش هذا فرجاً لبغداد ما فوقه من فرج ، وكانت وفاة المرزا فرجاً أعظم • ثم عاد سكان المدينة الذين التجأوا الى الحلة والفلوجة قبل حصار الايرانيين • وتوجهت مفرزات من الجيش لتأديب القبائل التي كانت قد ساعدت الايرانيين بالادلاء أو الذخائر ، ولاعادة النظام الى نصابه • وسارت حملة الى القبائل المحيطة بالدجيل • ثم أفنيت الحامية الايرانية التي تركت فى خانقين عن آخرها • وأذيع منشور اعفاء القرى ، التي أفقرها

---

(٤٥) والفلوجة

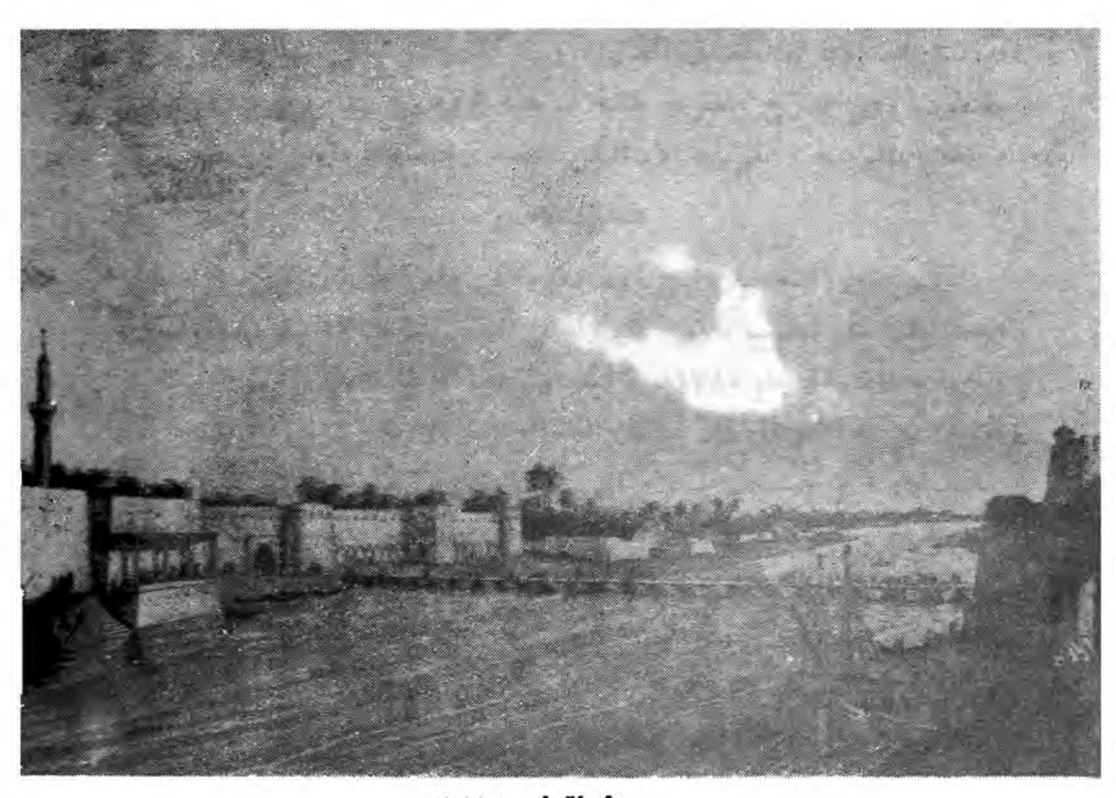
العدو ، من خراج سنة واحدة .

بيد أن حالة الحرب بقيت بين السلطان والشاه . فكان عباس مرزا مقيماً على استيلائه على الاراضي العثمانية في شمالي كردستان ، واخبر بوصول الشاه نفسه الى همذان يقود جيشاً جراراً . اما الجانب التركي ، فان ولاة ديار بكر والموصل وبغداد فيه قد اخبروا بالقيام بهجوم مقابل . وكان من بين أوامر السلطان أمر خاص بالقبض على محمد آغا وقتله وطءً بالاقدام . وامتثالاً لذلك نظم جيش مؤلف من عشرة آلاف مقاتل في بغداد بقيادة الكهية الحاج طالب[٤٦] ، وسار ذلك الجيش مع خيله ومدافعه بطريق خراسان الى الحدود .

وكان قد خلف محمد علي مرزا ابنه حسين الذي كان يحفزه الانتقام والطمع الى أمل الاستيلاء على العراق بحركات واسعة . ولم يكد الحاج طالب يصل زهاو حتى كان القائد الايراني ، وكان قد جمع جيشاً مؤلفاً من أربعين الف مقاتل ، قد اخترق الحدود من عدة نقاط . وقتلت قواته خمسمائة تركي ، وعندما تحرك الى قزلرباط أجبر الكهية على التنحي عن طريقه . ثم قرر مؤتمر للضباط الاتراك ، الانسحاب ، الا أن القبائل في الوقت نفسه أخذت تضايق الايرانيين المتقدمين في منطقة الخالص ومنطقة شهربان . فقد قطعت القبائل دوريتهم ونفائضهم المستطلعة وأحرقت كل الحاصلات الزراعية التي في طريقهم. وحدث أن وقعت قوة من شمر مؤلفة من ثمانمائة مقاتل بقيادة صفوك في شرك القوات الايرانية ، فاشتبكت معهم بالقتال وتمكنت من دحر قوة ايرانية كبيرة . فكانت تلك براعة حذت حذوها القطعات العشائرية الاخرى . وتفشت في هذه المرة أيضاً الهيضة الحادة (الكوليرا) بين الجند الايراني . فقفلوا راجعين ، ونهبوا ما وجدوه في طريقهم ثم اخترقوا الحدود الى بلادهم ، وهكذا انصرم أمر الاستيلاء الثاني وخاب الفأل فيه .

وفي غضون ذلك كانت وفاة محمد علي مرزا قد أعادت الخصومة المتعبة

(٤٦) والد سليمان بك المؤرخ . وقد كان من مماليك بويوك سليمان المعتقين ـ (المؤلف) . وسليمان بك هو والد حكمة بك وخالد بك والمرحومين محمود شوكة باشا ومراد بك المعروفين في بغداد . والحاج طالب مدفون في جامع يقع خلف بناية متصرفية بغداد الحالية ـ المترجم



الحلة في ١٨١٨

بين أفراد الاسرة البابانية • فقد استعاد محمود باشا السليمانية لنفسه بحملة باسلة وموقعة باهظة ، ثم طردته عنها الجنود الايرانية والاردنية • وحافظ عبدالله ، وقد كان مرضياً عنه في بغداد وكرمنشاه معاً يومذاك ، على العرش حتى رجع اليه محمود بعد ان نبذ التابعية التركية وتمسك بالتابعية الايرانية وكان رجوعه بموافقة الفريقين • وقد سبب ارسال أحمد بك ، اخي داود ، لتولي دويلة السليمانية بنفسه التجاء محمود بسرعة الى ايران ، وسير جيش بغداد الى كركوك • ولا يعجبن متتبع هذه الدسائس المعروفة بانعدام الولاء الثابت ، والمبدأ القويم ، وبفقدان الغاية الشريفة التي لا تعرف الا مصلحة الذات ، اذا عرف ان عبدالله باشا كان بصحبة هذا الجيش الواصل الى كركوك، وهو المرشح الايراني للعرش مرة بعد أخرى • ولم يسد السلم الا عندما اتفقت القوتان على نصب محمود في السليمانية وعبدالله في كوي • وكانت معاهدة أرضروم الاولى ، الموقعة في الثامن عشر من تموز ١٨٢٣ م (١٢٣٩ هـ) ، من الوثائق المهمة ، الا انها لم تكن تؤذن بالتسوية النهائية الا قليلاً • وقد صودق بها على حدود مراد الرابع القديمة (التي حاولت تكرار تحديدها القوات المسلحة لكلا الفريقين طوال قرنين) ولكن كل مجال وكل سبب للقلق من أجلها بقي كما كان من قبل •

ولم يبق الا النزر اليسير مما يجب ذكره عن أخبار باشوية داود • فقد حدثت ثورة خطرة عقيمة فأعقبها اتخاذ التدابير الاعتيادية المتضمنة لتأديبات القبائل وسياستها ، وحلول بضع سنوات من الحكم المألوف في العراق خلال عهد طويل •

وأحدث ظهور محمد آغا ـ الكهية المتمرد في حملة شهرزور ـ على رأس ثورة قوية في الفرات الاوسط فزعاً بيناً في بغداد • ولا غرو فقد كان عبدالله آغا في ١٧٧٨ م (١٩٢ هـ) قد حصل على الباشوية بثورة مقصودة وبعضد المماليك له ، وها هو محمد يثور في ١٨٢٤ م وهو ذو شخصية أقوى وقائد أمثل بين المماليك ، فلذلك أصبح ثائراً أعظم • وقد تكاثر أتباعه بسرعة ، فخف اليه المجازفون والعصاة والقبائل المستعدة على دوام لنزع النير الحالي عنها • وكانت القوة الروحية في البلاد يومذاك منحطة بسبب الغزوات

الايرانية ، وكانت بغداد مغتاظة من الضرائب الجديدة التي أخذ يجمعها داود • ثم استبدل بالحاج طالب في منصب الكهية أحمد الضعيف المجنون ، وهو أخو الباشا • وكان جيش الثوار في غضون ذلك الوقت يتكاثر في الحلة ، وأقسمت الايمان الغليظة في العتبات المقدسة على التحالف ، وبات الهجوم على بغداد على قاب قوسين أو أدنى منه • وبعد ذلك كسرت القوات من غير صعوبة رتلين ضعيفين ارسلا من بغداد لقتالها • غير ان هذا التوفيق لم ينتج فائدة ما ، لأن عزماً جديدا ظهر في بغداد • فقد عاد الحاج طالب لمنصب الكهية وخول السلطة المطلقة ليقوم بتبديلات شاملة في موظفي سيده المرتاع•واستطاع تحشيد قوة ما ، بيما استعمل الباشا مواهبه في الديبلوماسية • فجذب المماليك القدماء المعتزلين الى الخدمة من جديد بعد ان عفى عن ذنبهم ووعدوا بالمواعيد الخلابة • ثم فت في عضد القبائل العاصية بتقدم القبائل المعادية لها لمساعدة الحكومة • وعندما سار الحاج طالب الى الحلة التقى بجيش مؤلف من خمسة آلاف مقاتل • الا انه استعمل سلاح دعايته فكان ذلك ماضياً في العدو لأن انفضاض الكثيرين من قوات محمد آغا عنه وتراخي القوة التي كانت تجمع الباقين منهم قد أوديا بــه فأصبح الآغا هارباً مقهوراً •

وقد أعقب انهيار هذه الثورة القيام ببعض الاصلاحات في حالة القبائل • وكانت قطعات زبيد وشمر في عون الباشا فطاردت أهل السوء ، كما كانت قواته أنفسها يقودها ضابط ماهر وهو سليمان آغا الميرآخور «رئيس الخيلية» وقد سيقت أعظم الحملات الى العراق الجنوبي ونظمت حركة موحدة لاعادة سلطة الحكومة في المنتفك حيث كان حمود الثامر الشيخ الاعمى ممتنعاً منذ سنين من دفع المال للحكومة ومن احترام سيده الباشا • فرحب بالخصوم من مرشحي السعدونيين في ديوان بغداد ، ثم رافقوا الميرآخور المتوجه الى ديرة المنتفكين • فاستنجد حمود بني كعب ، وارسل الوكلاء لتجنيد قوة مساعدة من عربستان ، كما بعث رسولاً الى امام مسقط السيد سعيد • فانضمت الى قوته عناصر كثيرة • وقاد قوته ابناه ، فيصل وماجد ، حتى أشرفا على سور البصرة التي أخذت تقاسي أهوال الحصار • ولم يكن ضغط اسطول مسقط من الماء أقل خطراً على البصرة ، حتى رشا متسلمها أصحاب الاسطول بالمال • وقد تعمد المير آخور التباطوء في سيره الى البصرة ، لان المنياء كان بوسعه ان يدافع عن نفسه عدواً ليس عنده مدافع ، والوقت خير كفيل

بحل جيش حمود وتشتيته • فكان حدسه بذلك من الصواب • فقد أدرك الاتباع، ثم القبائل المحالفة ، ثم إبنا حمود نفسه ، ان الهجوم على البصرة عديم الفائدة والجدوى، برغم الجدية التي أبدوها خلال بضعة الايام التيضغطوا فيها عليها من قبل • وأخذ قسم بعد آخر من القبائل يلتف حول عجيل الشاب السعدوني اللامع الذي كان قد اُنعم عليه بحكم المنتفك • وبعد ان وزع عجيل العطايا وعقد الوعود امتلك ناصية الحال ، فهرب حمود وعاد الميرآخور الى بغداد • وعادت المياه الى مجاريها في البصرة وقبائلها ، ولم يعكر صفوها الا النزاعات العنيفة الواقعة في الزبير • وكانت دويلة الحويزة آخذة في الانحطاط ، غير انها كانت ما تزال على قوتها • وبقيت علاقة بني كعب بالبصرة غير محددة ، وظلت الحدود بين البصرة وشستر مشكوكاً فيها في مدى مسافة واسعة • فلم تكن معاهدة أرضروم تحل مشاكل هذه الحدود التي زاد النزاع عليها من بعد تمصير المحمرة على مصب كارون في ١٨١٢م (١٢٢٧ هـ) • وقد كان مؤسسها ، وهو من قبيلة المحيسن ، تابعاً لبني كعب • الا ان ابنه الحاج جابراً ذهب الى أمر أبعد من التخلص من هذه التابعية ، ففدت المحمرة في ١٨٣٠م (١٢٤٦هـ) خصماً لبني كعب بدل أن تكون عوناً لهم •

ولم تعرف أخريات سني داود باشا (عدا ظواهر للتقدم العلمي التى سيبحث فيها في صفحات متأخرة) بشيء ذي أهمية في جميع أنحاء الباشوية • فقد كان الآغا يتلو الآخر في البصرة وماردين وكركوك ، وبقي شيوخ القبائل البارزون محافظين على مناصبهم ـ عجيل في المنتفك وذرب في الخزاعل ووادي الشفلح في زبيد • اما عند الملين فأن أيوب بك كان قد خلف تيموراً والده • كما جاء صفوك بعد فارس في شمر الجربا • ثم أضاع صفوك منزلته ، وكان ذا حظوة عالية عند الباشا لاعماله الباهرة في قتال الايرانيين ، وأصبح أشد أعداء الباشا • ولم تدم تسوية الامور التي اجريت في المملكة البابانية سنة ١٨٢٣م (١٢٣٩هـ) • فقد تلاها أول وجه من أوجه النضال الطويل بين الاخوين محمود باشا وسليمان باشا • وظلت حامية ايرانية في السليمانية حتى توفي فتح علي شاه في ١٨٣٤ م (١٢٥٠هـ) • وكانت المملكة البابانية في الحقيقة آخذة في الانحطاط منذ مدة • فكانت على هذا العهد تهيمن عليها ايران هيمنة لم تفقها فيها تركية بأي زمان كان •

وقد سببت حالة النزاع بين الاخوين الاضطراب والفوضوية والفقـر ، فأكمـل الطاعون من بعد ذلك خراب المملكة • وكانت جارتها رواندوز في تقدم مستمـر على عهد الباشا الاعور • وفي الموصل ، كان الجليلي يتبعه جليلي آخر ، ولا يحدث أكثر من ذلك سوى حوادث العنف والتمرد التي اعتادت عليها المدينة منذ القدم ، مع مجاعة مهلكة وقعت في ١٨٢٧ (١٢٤٣هـ) •

الفصل العاشر

نهاية عهـد

نظـرة اخـيرة الى عـراق المماليك

ظل العراق يتذكر داود باشا بعـد قرن واحـد بثقافته وتدينه الاسلامي ، وحرسه المماليك وجيشه الأهلي ، وبكرمه وسخائه ، ثم باسـتقلاله الصريح عن استانبول . وليس بوسعنا ان نحكم في ثقافته بشيء الا ان الروايات تنقل الشيء الكثير عن صمت الملالي والاساتذة في حضرته . واما ديانته فيمكننا ان نستعـير وصف المؤرخين له بأنه كان « متديناً بدون تكلف » ومن دون ان يؤثر ذلك في أخلاقه تقريباً . وكان هذا الملك ـ الفيلسوف الشرقي ـ يتصف بجميع الصفات الخلابة مع شيء من الرأفة . واذا ما انتقلنا الى حاشيته نجد في ساحة السـراي الحرس الانكشاريين واقفين في مراكزهم وعشرات المباشرين من المماليك بدلاتهم اللامعة . وتظهر في باب البهو ثلاثة من اذناب الخيل الدالة على الوزارة مع الهلال والنجمة الامبراطوريين . ولم يكن يعوز الديوان في الداخل شيء من الجـلال الزاهي . فان اثاث الغرف المرفقية ، وقاعة الاستقبال الملكية ، وتفصيلات المراسيم والتشريفات ، وما يحمله كل من رجال الحاشية وكل مباشر ، كلهـا كانت تبهر الزوار الاوربيين بكون « المقام ... مقام أمير ملكي تماماً[1] » . وكان الزائرون من أصحاب الرأي والمشاهدون النقاد يعجبون مما يرونه من امارات الثـروة الطائلة ، والثقافة المتناسبة ، والترف المتناهي الذي قيل انه يفوق ما كان منـه في بلاط السلطان .

وكان أمثل موظفي الباشوية ـ عدا مناصب حكام البصرة وكركوك وماردين ـ الكهية ، الذي يوازي الصدر الاعظم في استانبول ، وعدة من « المصـاحبين »

---

(١) پورتر (ج ٢ ص ٢٤٩)

(مشاورون أو من رجال الحاشية) الذين كان بينهم « باب العرب»[2] ، وأعضاء الديوان الاعتياديين وهم : الدفتردار ، وسكرتير الديـوان ، ورئيس الحجاب ، ورئيس التشريفات ، ورئيس الاصطبل الملكي ، ورئيس القواسين ، وأمين القسم الخاص . وكان بين أغوات (المابين) الذين كانون يعدون مجد البلاط بعددهم وتجهيزاتهم ، خدام الباشا الخاصون ولكل منهم عنوان العمل الذي يقوم به . فهم للالبسة ، والقهوة ، والحلويات ، وعدة الخيل ، والسجاد ، وماء الغسل ، وماء الشرب ، والشطب (جبوق) ، والعَلَم . وكان اذا ركب الباشا للخروج يصحبه العشرات من هؤلاء الاغوات يقودهم أمين الصندوق وحامـل السيف ورئيس المرتقين . وكان من السهل عليهم الانتقال الى قوات الباشوية العسكرية ، لان رجال الحاشية المماليك أصبحوا ، منـذ أيام أبي ليلة ، من صفوة الجنود[3] . فقد أكثر منهم سليمان الكبير ودربهم فكون منهم قوة عسكرية . وجاء داود فهيأ لهم المعلمين الاجانب والاسلحة الحديثة . وما تزال الأحاديث المنقولة تذكر أخبار كتائب ثلاث من المماليك سميت كل منها باسم أحد أبناء الباشا ، وكانت عـدة كل منهـا الف مقاتل . وتشير تلك الروايات فى مناسبات عدة الى القوات العسكرية الاخرى وهي : الجنود المستأجرة من اللاوند والعقيل ، ومشاة التفنكجية الاخرى والبرطليون النظاميون ، والانكشاريون والمدفعيون « الطوبجية » الذين ما زالت عليهم المسحة الامبراطورية ، والرعاع العشائريون ، وقطعات الامراء الاكراد ، والقليل ممن بقي من فرسان الاقطاع .

وكانت واردات الباشوية تجبى بوسائل تختلف في أصلها وقدمها ، فقسم منها بقي مطبقاً بحسب نظام الاقطاع وقسم آخر ابتدعه حديثاً آخر الباشـوات . وكانت وارداته الكمركية ، المتبـدلة بحسب أهوائه ، منبعاً للكسب يقل بمضايقته

---

(٢) هود (ص ١٧٢) ، أوشية ــ ايلوي (ص ٢٣٥) .

(٣) قابل بين ماكتبه نيبور (ص ٢٥٦) عند بحثه في ١٧٦٥م بما كتبه ثابت عند البحث فى الدور الاخير : يذكر الاول وجود ٨٠٠ أيچ اغالري ، ويذكر الثاني ١٨٠٠ منهم . وكان عدد الاغوات الخارجيين (الكهية والموظفون وملحقهم) فى ١٧٦٥م ٢٠٠ ، وفى ١٨٣٠م الفاً وسبعمائة .

للتجارة وحركة السفر عن الاتاوى التي يفرضها كل شيخ أو كل مختار قرية على قارعة الطريق • وكانت مزارع السنجق أو القناة أو الجداول العشائرية تأتي الى الخزينة بكسر من المال الذي كان يعصر من الدافعين الحقيقيين الذين كانوا يكابدون الشدة اكثر من غيرهم لضعفهم وسهولة استغلالهم • وكانت ضريبة الجزية على « الرأس » المضروبة على اليهود والنصارى يجمعها ، بكثير من سوء الاستعمال ، أكثر المتزايدين من الملتزمين • وكان للباشوية مبالغ أخرى تجمع بتزايد من ضرائب المرور (ترانسيت) على البضائع ، ومن الانحصارات الحكومية لبعض الحرف وأنواع التجارة الشائعة ، ومن تصريف النقود الخاطىء والعملة المزيفة • وقد عرف ان النهب العلني الصريح كان يسوق الوجوه من السكان الى استانبول نفسها طلباً للتعويض او الترضية ، ولم يخل ذلك من فائدة لهم • وكانت تقوم بواجبات الشرطة في أمهات البلدان مراكز الانكشاريين وحجاب الباشا وموظفوه • وكان القاضي المبعوث كل سنة الى بغداد ، مع زملائه الذين هم أقل منه درجة في الاماكن الاخرى ، يقومون ببسط العدل بين الناس • فكانت الحياة رخيصة، والشرع صارماً وكل شيء للبيع •

اما الحكومة بوجه عام فأن أبرز ما يظهر فى الصورة الصادقة عنها فى الحقيقة عصيان القبائل المزمن الذي كان من واجب الحكومة معالجته كل سنة ـ وعصابات اللصوص التي لما تقهر ، وسلب المسافرين المستدام ، وضرب الضرائب على الاقلية الذين كان من الممكن تحصيل الضريبة منهم ، والضعف البارز في التحرش بالبقية من السكان • وقد ظلت القرى والاراضي تباع ليحكمها هذا المملوك المقرب أو ذاك أو أي من رجال الحاشية الذين يستفاد منهم فوائد • وبقي الاغوات يشاغبون ويعربدون ، وظل الجنود متمادين فى الاغتصاب والنهب • وكان الديوان العالي ، المتلىء بأكثر مما تستطيع البلاد أن تصرف عليه بحق ، يؤوي كثيراً من المشاورين المجانين ، الجهلة ، المتعصبين • وقد اضيف الى الاخطار ، الناشئة عن قلة ادراك معنى الحكومة والنظام الحكومى المرثى له ، نقاط الضعف المحزنة التي كانت متجمعة في الحاكم الحالي نفسه • لكن الصورة تلك يجب أن تدل على أكثر من هذا • فقد كانت الحرب الاهلية غاية بذاتها • وكانت القوات الكافية تجند لتأديب البدوي الذي لا يعبأ بشيء ولتستعرض فى العاصمة • وكان في تشجيع

الباشا المستمر على الاختلاف بين كل قبيلة مضمون السياسة الراميـــة الى تشتيت شمل القبائل وتفكيكها • كما كان في استمرار الباشا على منح الاراضي أو الانعام بها شعور بالحاجة لامتلاك أثبت للاراضي ممزوج بالسخاء المحض الذي كـــان مشتهراً به • وان كان كثيرون من الناس قد كابدوا ما كابدوا باسمه ، فان قسما غير قليل منهم قد اغتبط بالعطايا والهبات التى كان يتسلمها من يده هو نفسه • وقد أسست على عهده عدة مدارس ومطبعة ، وزينت بغداد بجوامع جديدة وسوق ثلاثي الطوق يحمي فى الوقت الحاضر أكثر أسواق بغداد مشغولية وأزدحاماً • وبني بعض الناس كثيراً من دور السكنى الجميلة على طراز ذلك العصر ، فكان هـذا أزهى وأثبتَ ما بني فى ذلك العهد •

هكذا كان عراق العشرة الثالثة من القرن التاسع عشر بوجه عام ، وهكـذا كان حاكمه ، وبذخ ديوانه ، وسوء الحكم فيه خارج العاصمة • ولم يبق مـــن مصايره في أثناء حكم المماليك الطويل ما يستحق التدوين سوى الكـــارثة التي أزالتهم من الوجود حتى الابد • ويظهر ان تبدلات عديدة كثيرة ، مما ذكرته هذه الصفحات، لم تتبع فى وقوعها قاعدة ما أو لم تحدث بموجب سبب سوى الهوى والصدفة، كما لم يكن ذلك بحسب تطور معلوم أو مبدأ معروف• أما ما يختص بسقوط دولة المماليك فان الامر فيه على عكس ذلك • فالحقيقة هي ان الكوارث الطبيعية النازلة ساعدت على انهيار تلك الدولة فقطعت أنفاسها وخلصتها من نزع الموت • وفيمـا عدا ذلك فان الاحوال والاسباب والوسائط التي قطعت عليها استمرارها فى الحكم الى خلال القرن التاسع عشر كانت كلها تعمل عملها منذ مدة • وقد جاء سقوط داود باشا وجميع سلالته ونظام حكمه بفجأة روائية ، ولكن هذا السقوط كـــان شيئاً مأمولا طول جيل كامل يمتد الى ما قبل ١٨٣٠م • فقد غدا مجرى التـــاريخ العام يتطلب زوال الوضع الشاذ ، وجعلت التبدلات العظيمة التي طرأت عـــلى الحكومة التركية نفسها ذلك الطلب واضحاً ملحاً فيه • وبات حكم المماليك ، من حيث تعامله مع القوات الاوربية ، وليس فيه من الحداثة العصرية الا اليسير • فكان لزاماً على هذا الحكم ان ينتهي بشخص حاكمه ، وتم ذلك بالفعل •

تبـــدل الازمـــان

كانت علاقات العراق بدول أوربة الغربية قد ازدادت تقرباً واتساعاً مـنـذ

أواخر القرن الثامن عشر . وبين يدينا الآن مذكرات ثلاثين من السياح ، وما هذه الا قسم قليل من مذكرات السياح الكثيرين الذين زاروا العراق من أوربة والهند . فقد كان في سنة ١٨٠٠م (١٢١٥هـ) عدة من الكرمليين الافرنسيين ، وصيرفي يوناني ، وتاجر بندقي أحياناً ، يضيفون وكلاء شركة الهند الشرقية الصغار الذين كانوا يمرون من هناك بين حين وآخر . وكان فرسان التاتار «الططر» يحملون الى استانبول بريد الاوربيين وبريد الباشا . وكان بريد الجمال الذي للشركة يتردد بين بغداد وحلب على طريق الصحراء بصورة منتظمة . وكانت وسائل النقل النهرية المنشغلة تنقل أقمشة الاطلس والقطيفة الواردة من فرنسة ، والاقمشة الانكليزية ، والبضائع المعدنية الالمانية . وكانت هذه تنقل كذلك الزجاج الوارد من ڤينة وبوهيمية ، والسكر الوارد من أميركا . وقد أصبحت للمؤسسات الدينية الفرنسية والطليانية منازل دائمة ، وكان أسقف بابل أحياناً يشغل كرسيه الاسقفي ووظيفة القنصل الافرنسي معاً . وكان الموظفون القنصليون الافرنسيون في بغداد والبصرة أول القناصل ظهوراً ، لكنهم لم يلاقوا العاقبة التي تليق بأمتهم في المدينتين . فكان انتقاء الوكلاء في بعض الاحيان انتقاءً سيئاً ، ولذلك لم يكن بوسع هؤلاء ان يحافظوا على المصالح الافرنسية كثيراً . فكانوا ، الى تقلقل مركزهم وعدم حصولهم على النفقات الكافية ، ليس لهم المهارة اللازمة للتعامل مع الحكومة المحلية . وقد مرت من العراق في ١٧٩٦ م (١٢١١ هـ) بعثة سياسية افرنسية[٤] . وبعد عامين اعتقل ممثلوهم في العراق وصودرت أوراقهم واحتلت منازلهم . وبعد الافراج عنهم بقيت أعمالهم تافهة ان لم نقل لا شأن لها . ولم يهتم الباشا نفسه بادعاء وكيلهم بأرجحيته الرسمية على الدبلوماسيين البريطانيين . غير ان مدرب جيش داود المنتخب كان فرنسياً ، وكذلك كان طبيب سليمان الكبير . وكان لقنصلهم في البصرة بعض الاتصال بوجوه المدينة والقبائل . ومع ذلك كله كان نفوذ وكلاء الشركة البريطانية ونجاحهم مبعث حنق الافرنسيين الممزوج بالحسد[٥] .

اما منزلة الشركة البريطانية فقد عظمت عما كانت عليه في ١٧٨٠ م (١١٩٤ ـ ٥ هـ) . فقد ظفرت بعطف سليمان باشا نفسه وعرفانه للجميل لانها

---

(٤) وبهذه المناسبة كتب أوليڤييه كتابه « الرحلة » الذي رجعنا اليه .

(٥) فونتانييه (ج ١ ص ١٧١) ، سوف بوف (ص ٨٨) .

ساعدته في الارتقاء لمنصبه • وورد لها الدين بعشرين سنة من العطف الشامل وباستعمال خدماته لها بصراحة • وفي ١٧٨٢ م طلب بواسطتها من بومبي « طلبية » من السلاح والعتاد ، وفي سنتي ١٧٩٨ م و ١٧٩٩ م طلب كمية أخرى من العتاد مع مدربين أوربيين من الهند • وفي ١٨٠٢ م وقفت شحنة مشابهة لذلك في أيوان كسرى في الوقت الذي كان النزاع للباشوية قد بلغ أقصى حده • وكان تدبر المقيم البريطاني وترويه قد نفع الباشا غير مرة • فقد استرحم الباشا ، عندما شاع تعيين الشاوي للباشوية في ١٧٨٧ م (١٢٠٢ هـ) ، منه ان يسرع بمراسلة السفير البريطاني في استانبول ليتوسط في الامر • وكان توسط المستر مانيستي في « وكالة البصرة » في ١٧٩٨ م هو الذي صفى الحساب مع سلطان مسقط • ولم تبد حكومة المماليك رأياً ما حول ازدياد نفوذ المقيم المستمر العلني بين القبائل وسكان المدن حتى في أشد أيام الاختلاف الذي كان يحصل بين المقيم والسلطة المحلية • وقد حدث في ١٧٩٣ م (١٢٠٨ هـ) نزاع مع يهود البصرة المحليين ومع المتسلم فأدى اشتداد ذلك لانتقال المقيمية البريطانية الى الكويت وبقائها هناك مدة سنتين •

وكانت بغداد قد أصبحت مركزاً دائماً لوكيل محلي للشركة في ١٧٨٣ م ، ومنذ ذلك الحين فصاعداً كان يزورها بصورة مستمرة المقيم الموجود في البصرة • وفي ١٧٩٨ م – وكان ذلك شيئاً منتظراً من جهة واستعداداً للدسائس النابوليونية في الشرق الاوسط من جهة أخرى – عين مقيم بريطاني دائم فيها أيضاً ، وقد أعطى جميع السلطات القنصلية في ١٨٠٢ م • وأصبحت بغداد منذ ذلك الحين فصاعداً أهم مركز للنفوذ البريطاني ، الذي كان لابد من ان يتحور تدريجياً في ماهيته ومقدار تأثيره • اما بالنسبة للتملك أو تسرب النفوذ فلم يكن لهما أي أثر ولم تحدث بشأنهما مشكلة • فان الخدمات العظيمة التي يمكن ان تؤديها حكومة عاقلة تقدمية الى العراق لابد من أن تصيب خيراتها المسافر البريطاني والمواطن العراقي على سواء • غير ان هذه التخيلات كانت بعيدة عن الواقع وغير مضمونة أو ملموسة • ومع ذلك كله فان ازدياد النفوذ البريطاني حتى زمن داود باشا وبعده كان شيئاً بارزاً تماماً • فقد أصبح الباشوات يحسبون الحساب للهند ويعدونها جارة عظيمة يبادلونها الرسائل البلاطية والاحتجاجات أحياناً ، واستمر طلب الذخائر الحربية

منها • وكانت زيارات الجنرال مالكولم (وكان يتردد بين ايران وبومبي) الرسمية الى العراق تظهر للجميع أبهة « ايلچى » انكليزي وثروته • وكانت مؤسسات[٦] المقيمية في بغداد والبصرة ـ ومنها الابنية الواسعة ، وفيها الحاشية اللامعة ، والخدم المزركشون ، والاسطبلات ، وآلات النقل النهرية ، والحرس الخاص (سيوي)ـ من مؤسسات الامم ذات الحظوة الخاصة • وعند أعلان الحرب بين تركية وانكلترة في أوربة من ١٨٠٧ م الى ١٨٠٩ م بقي الممثلون البريطانيون في العراق مكرمين دون أن يمسوا بسوء ، وظل الباشا يراسل كلكتا بود واحترام • وكان يزداد شأن « الباليوز » وتعظم أهميته شيئاً فشيئاً منذ أول اتصال صميم حصل بين هارفورد جونز وبيوك سليمان • كما كان تعين كلوديوس جيمس ريج مقيماً بريطانياً في ١٨٠٨ من أهم الاحجار الاساسية السياسية • فقد استطاع في مدة ثلاث عشرة سنة ، وهو الموهوب له جميع مواهب الوراثة والمزاج والمزايا الفاضلة ، ان يضيف الشيء الكثير الى كرامة مقيميته • تلك المقيمية التي أصبحت أحسن مجلس اجتماعي محلي ، وملتقى أكبر الموظفين والاشراف ، وبيتاً مفتوحاً للضيوف ، وداراً للبحث التنقيبي الاثري • وقد استطاع ريج أن يحافظ على منزلته ونفسه خلال الايام الاخيرة العاصفة من أيام سليمان الصغير ، وان يتمتع بالحظوة العالية عند عبدالله باشا ، وان يهنيء داود بتوليه الحاكمية •

وكانت علاقته بداود باشا ، بعد فترة أولية من الود الصميم ، علاقة متوترة لابد من أن تنشأ بين شخصية انكليزية عنيفة نزيهة ، كثيرة الشك والريبة ، وطاغية شرقي أحاط به مشاورون جهال متعصبون • فقد كان داود ووزراؤه لا يمكنهم اخفاء غيظهم عندما كان يوجه لهم الانتقاد بصورة مستمرة لغمطهم الحقوق الاوربية ، وتلاعبهم بأسعار العملة ، وعرقلتهم الظاهرة للتجارة الأوربية • حتى ان الباشا لم يتورع في ١٨٢٠م (١٢٣٦هـ) عن التصريح بأن « لا توجد حقوق أوربية في بغداد » وأردف هذا الحكم الذي لا يقبله العقل ـ المخالف للمنطق والتاريخ ،

(٦) كانت هناك مقيميتان في البصرة وبغداد ما بين ١٧٩٨ و ١٨١٠ وفى ١٨١٠ أصبحت بغداد مركزاً للوكالة السياسية فى بلاد العرب التركية كلها وغدت البصرة تابعة لها • ثم انزلت البصرة فى ١٨٢٢ مرة أخرى الى « وكالة محلية » يدير شؤونها رجل أرمني •

ولاوامر السلطان ـ بمضاعفة الرسوم الكمركية على البضائع البريطانية ، وبكل بيان سمج معرقل•فعزم ريج على ترك بغداد الى بومبي ، فمنع الباشا ذلك • وكانت الحركات التالية فريدة في تاريخ الديبلوماسية • فقد قاوم ريج الاعتقال بحرسه الهنود وبخدام المقيمية وجماعة من زواره ومعارفه•فأحاطت بالبناية المشاة والهجانة والمدفعية فجابهتهم أفواه البنادق وتدابير التحصن ، غير ان الجبن أنقذ الباشا من موقفه السخيف الذي سيق اليه بدافع الطمع والطيش•وقد توقف ضباطه وموظفوه عن عمل شيء بالنظر للاحترام الذي يكنونه للباليوز ولحراجة الموقف ، حينما كان عدد من المحلات في بغداد مستعدة للقيام بوجه الحاكم المكروه • فأعاد الجند ، غير ان ريج بقي أسيراً • ولم يسمح له داود بالسفر الى الهند (مايس ١٨٢١) الا بعد أن وجه حاكم بومبي خطابات شديدة اللهجة الى بغداد واستانبول • فأعيدت المياه الى مجاريها وتحسنت العلاقات بين الباشا والمقيم الحديث ، ولم ترد الى تلك الدركة بعد هذا •

وهكذا توضح لنا وقائع الديبلوماسية البريطانية في عراق المماليك ، بوجهة نظر حديثة ، قناعة هذه الصفحات بأن حكومة السلالة التي أسسها حسن باشا في ١٧٠٤ (١١١٦هـ) ؛ فانحطت معنوياً لا مادياً في عهد داود ، كانت خطأً تاريخياً مزعجاً ، وهي تدان على هذا الاساس • ولم يكن بوسع أمـــة من أمم أوربة ، استطاعت طوال قرنين من الزمن أن تشيد صرح تجارتها ، وتتبوأ مركزاً اجتماعياً ويبلوماسياً شرعياً بصبر وأناة ، أن ترى هــذه المصالح والامتيازات تقوض على مرأى منها بمجرد كلمة هوائية تصدر من حكومة بغــداد الرحعية المرتشية • هذا زيادة على أن شخصية المقيم في بغداد كانت نسبياً أبرز من شخصية الســفير في استانبول • فاذا ما اُهين أو مس بسوء فلابد من أن يصل خبر ذلك الى السفير في استانبول ، وعندئذ تعلم به حكومة استانبول نفسها • ولا غرو فان الباشوات المماليك عندما سمحوا للمقيم البريطاني أن يصبح الرجل الثاني في العراق قــد أظهروا شيئاً من الاعتراف بوسائل التقدم ، وبعض الرغبة في الانقياد للارشاد ، وشيئاً من قلة التعصب ، وقليلا من الصداقة والمجاملة • لكنهم أدخلوا بهــذا بين ظهرانيهم نظماً لا يمكنهم أن يستسيغوها ، ووجها من التجدد لا يأتلف البتة مــع أساليبهم • كما سمحوا في الوقت نفسه لمنتقديهم الذين كانوا يرقبونهم عن كثب

ان يبعثوا بتقاريرهم عن الوضع الى العاصمة • وعلى هذا لم يسمع السلطان سوى ان الحكومة في بغداد التي خابت في حماية المملكة من الوهابيين ، وفشلت في توطيد دعائم السلم مع ايران ، قد أصبحت واسطة لسوء التفاهم مع الدول الاوربية أيضاً •

فعلى مثل هذا المنوال ينطوي سبب من الأسباب التي دعت الحكومة المركزية الى أن تقدم وهي مبتهجة على تبديل السلالة العراقية الحاكمة بحكمها هي بالذات ، لانها ظلت طوال قرن من الزمان عاجزة عن تحقيقه • ولم تكن تركية التي اضطلعت بهذا الواجب في النهاية تركية التي كانت قد عينت القيصريه‌لي ، وحولت عمر ، وتوخت السلم بتعيين بيوك سليمان • بل كانت امبراطورية دبت فيها الحياة من جديد فغدت لا تحتمل انشقاق مماليك العراق عنها فضلاً عن مساوئهم الاخرى •

ولقد كان الكثيرون يعتبرون معاهدة قينارجي ضربة قاضية على العظمة العثمانية • غير انه حتى في ذلك العصر لم تكن روح التفاؤل بالاصلاح ميتة في الامبراطورية الكسيرة المتأخرة ، الفاقدة للشعور الى حد كبير • والحق ان الاصلاحات العسكرية والبحرية التي قام بها الاميرال غازي حسن باشا لم يظهر من حسناتها الا النزر اليسير ، الا انها كانت تدل على اتجاه الاصلاحات المقبلة وعلى احجام الرأي العام التركي من قبولها معاً • وفي ١٧٨٩ م (١٢٠٤ هـ) تسنم السلطان سليم الثالث العرش فكان بمزاجه وتدريبه وميوله من المصلحين • فقطع في مدة عشرين عاماً من عهده مرحلة طويلة من طريقه المؤدي الى تحطيم الوضع التاريخي الشاذ الذي كانت بموجبه البلاد مضطربة ، خائرة القوى ، ومتقهقرة عن المحافظة على مركزها • فأمر بايقاف سوء الاستعمال في أمور الاقطاع ، بشرط ان تدخل الاراضي الاقطاعية بالتدريج في ضمن الاملاك الاميرية • وحددت مدة الحكم لحكام الولايات بثلاث سنوات فقط • ثم تقدم[7] بالغاء جباية الضرائب بالضمان « الالتزام » واستئصال سوء الاستعمال الجائر الذي كان يجري بواسطته • ثم أسست المدارس ، وشجعت الطباعة ، وترجمت الكتب من اللغات الاجنبية الى التركية ، وارسلت البعثات الى العواصم الاوربية • على ان هذا البرنامج الاصلاحي الطموح طبق قسم منه في بعض مناطق الامبراطورية

(٧) تقدم السلطان بكذا أي أمر به

فقط ، وليس عندنا ما يدعو الى التردد في الاعتقاد بأن هذه الاصلاحات لم يفكر أحد في تطبيقها في العراق • وقـد مشى السلطان سليم في الاصلاح العسكري مشياً بطيئاً ، الا ان بطأه ذلك كان يعد سرعة كبيرة بالنسبة لمقاييس ذلك الزمان • فسمح بتشكيل كتيبـة نموذجية واحدة على الاصول الحديثـة ، غير ان اشارة واحدة لمح بها الى الديوان بتطبيق الاساليب الحديثة على الانكشاريين أيضاً ولدت الفتنة في الحال • فقد بذرت حماسة السلطان الشخصية بذرة الجيش الحديث في تربة غنية بالمزايا العسكرية الفائقة التي يعرف بها العنصر التركي ، لكنهـا اختنقت بما كان في تلك التربة من جذور عميقة وأدغال سامة يغذيها الانكشاريون العربيدون المبتذلون الوقحون ، والعلماء الرجعيون المعادون للتجدد ، الذين كان التدريب والمدفعية الأوربيين في نظرهم من أحابيل الكفار ، والذين كانوا يعدون الحاج بكتاش خيراً من سـوارو او نابليون فى رسم الخطط العسكرية وقيـادة الجيوش • وكانت القصة المستمرة لشغب الانكشاريين وجورهم في كـل جزء من أجـزاء الامبراطورية تعرب عن جسامة سوء الاستعمال الذي كان يومذاك ، وعن صعوبة اجراء الاصلاح • وفي ١٨٠٧ م (١٢٢٢ هـ) خلع سليماً الاوباش الذين خاب فى استئصال شأفتهم وادخال التجدد عليهم • ثـم انتعش الاصلاح ودبت فيه حياة جديدة بتسنم الامير الشاب ، ذي الصلابة والمبدأ ، محمود الثاني • غير ان الرجعية عادت فانتصرت ثانية ، فاضطر السلطـان الشاب ان يعلن بعجز ومرارة ايقاف الاصلاحات التي كانت أقرب ما يكون الى قلبه ، بينما كانت خيانات الانكشاريين المفضوحة قد صودقت وبوركت • وظلت سرايا الانكشاريين القديمة ، التي كان يؤازرها رجال الدين والرأي العام الرجعي ، لنصف جيل آخر ضعيفة عاجزة • وقـد ظهر عجزهـا الشائن وعدم كفايتهـا في عشر مواقع جرت مـع اليونانيين والمصريين ، وفي قراب عشرين حادثة من حوادث العصيان والتمرد ، فضحى هؤلاء فى ذلك بكل شيء من أجل منافعهم الخاصة من دون خجل •

ولم يتجرأ السلطان محمود على اصدار أمر من ديوانه يجزم فيه ان تخضع نسبة معينة من كـل سرية للتدريب الحديث الا في عام ١٨٢٦ م (١٢٤٢ هـ) وقد تلا ذلك هياج بحسب العادة ، الا ان النتيجة كانت شيئاً جديداً • فقد أعدم الانكشاريون عن آخرهم فى استانبول ، واعدم آلاف كثيرة منهم أيضا فى مختلف

المدن التركية الاخرى . فتشتت بذلك سراياهم التي كان لها الذكر الذائع مدى دهر طويل واضمحل القاصي والداني منها ، ثم شطب اسمها واندثرت نظمها . وبعد ذلك أمر بتأليف جيش حديث على الطراز الجديد .

وكان ليوم خلاص الامبراطورية العظيم هذا الذى يعزى النجاح فيه لمزايا رجل واحد ، نتائج مباشرة في العراق سنأتي على ذكرها . وليس من اختصاص هذا التاريخ البحث في الفشل الجزئي الذي منيت بـه الامبراطورية في حصد فوائد هذا اليوم المستحصدة ـ بنتيجة التعدي الروسي المتزايد قبـل ان يصـل الجيش التركي الحديث الى أوج قوته ـ ولا في الصعوبات التي لم يثبت تجاهها (النظام الجديد) الكفاية اللازمة في أوربة وآسية وأفريقية . الا ان الاصلاحات الاساسية الاخرى التي قام بها محمود الثاني كانت تدل على روحية تركية الجديدة التي أصبح مماليك العراق نقمة عليها . فبينما كان داود باشـا في بغـداد ينعم بمعظم الاراضي العراقية على مقربيه وذوي الحظوة عندهم ، ويوقفها عليهم ، كان السلطان يشتغل في وضـع القسم الاكبر من الاوقاف الدينية تحت الاشـراف الحكومي . فقد رجعت ارادة سلطانية واحدة الى نفـوذ الحكومة جميع الهبـات الاقطاعية (المساء استعمالها منذ مدة طويلة) التي اعطيت خلال قرون عدة . أما حاكم العراق فكان يهب كل يوم امتيازات جديدة على غير قاعدة . وكانت سياسته الاستغلالية الضعيفة تجاه شيوخ القبائل والامراء الاكراد بعيدة كل البعد عـن عزم سيده الاسمي في اخضاع كل واحد من ، لا بل جميع ، « بيكات الوديان » العاسفين الذين ربمـا كان من الممكن أن يكون الباشا المملوك نفسه في الحقيقـة شبيهاً لهم ولـكن بمقياس أوسع . وكانت في استانبول تبذل الجهود ـ وهـي جهود لم تثمر تمامـاً حتى في القرن التالي ـ للقضاء على سوء استعمال الجبايـة والاستيفاء والجور الحكومي ، اما في العراق فقد كان الهوى ، الذي يسيطر عليه التعصب والجشع ، الحكم الوحيد في جمع الضرائب وتسييرها .

والحقيقة ان حكام العراق لـم يستخبروا بشيء عن هذه التبدلات العظيمة المحدثة في الامبراطورية . فلم يزر استانبول الا قليـل من الاغوات ، ولم يكن يعرف منهم جغرافية الامبراطورية الا قسم قليل . لـكن ما كانوا يعرفونه حق المعرفة هو بعـد العاصمة وعجز السلطان ، المبرهن عليـه ، في تنفيذ رغباته في

العراق • وكان الباشا ، لقصر نظره ، وثقافته القديمة ، ومشاوريه الجهال غير الحكيمين ، على غير علم ، أو لم يتمكن من العلم ، بمدى الاصلاحات التي ادخلت في تركية ولا بشخصية سيدها الحديدية[8] • ومع هذا كان الباشوات المماليك ، كما مر بنا ، يبدون ترحيباً جزئياً بدعاة التقدم في بلادهم من الاوربيين ، ولم يرفض آخرهم بالكلية قسماً من الاصلاحات التي اشير عليه بادخالها • وقد تبدلت نوعية الانكشاريين في العراق كثيراً خلال القرن الماضي ، فقد كان ضباطهم الذين يردون من استانبول يقلون شيئاً فشيئاً حتى انقطعوا تماماً • فتوقف ورود قوائم المجندين من الخارج ، وعوّض النقص الحاصل من ذلك بالتجنيد محلياً • وربما كان آخر مظهر ظهروا فيه كقوة تتسم بشيء من الصبغة الامبراطورية اشتراكهم في النزاعات على الحاكمية الحادثة في ١٨٠٢ م • ومنذ ذلك الحين فصاعداً لم يكن الانكشاريون الا جنوداً يجندون محلياً ، وتدفع لهم أرزاقهم من الخزينة المحلية ، وبذلك كانوا يشابهون البرطلية والتفنكجية في جميع الامور الاساسية ، برغم بقاء جمل واصطلاحات متأصلة بينهم ، مع شيء من الاختلافات في اللباس والواجب الذي يقومون به • اما في الجهات الاخرى من تركية فقد كان جورهم وشغبهم آخذاً في الازدياد كلما كانوا يقتربون من نهايتهم ، لكن ذلك أخذ يتناقص في العراق بتعاظم شأن القوات المحلية وطغيانها عليهم • ومما هو جدير بالذكر ان الباشا نفسه كان في منتصف القرن الثامن عشر لا يجرؤ على البقاء من دون أن يثبت اسمه في سرية الانكشاريين ، لان الانخراط في سلكهم كان ضرورة اجتماعية لاتنطوي على القيام ببعض الواجبات وانما تعد من قبيل المحافظة على النفس • اما في عهد الباشوات الاواخر من المماليك فقد توقفت تلك الضرورة وتوقف معها احتكار الامتيازات الناشيء عن الانخراط في ذلك السلك برغم بقاء العضوية التي لا تستدعي القيام بالاعمال الحربية •

---

(٨) ان المقايسة واضحة بين شخصية الباشا وشخصية البادشاه ـ لقد كان الباشا دمثاً متعلماً بشوشاً جذاباً ، الا انه كان ضعيفا جبانا ومستولى عليه • وكان البادشاه من جهة أخرى بعيد النظر متيناً ذا عزم مضحياً بالراحة والهدوء في سبيل الاصلاح • ولم يساعده الا قليل من الناس بل لم يساعده أحد مطلقاً في مساورة مساويء الامبراطورية الجسيمة •

وقد طلب السلطان محمود بعد قضائه على انكشاريي استانبول تواً اتخاذ الاجراءات نفسها من حكام الولايات أجمع ٠ فوصل الامر بذلك الى بغداد في آخر صيف ١٨٢٦م (١٢٣٢ هـ) ٠ فأخفاه الباشا مؤملاً حلول فرصة يجدد فيها ولاءه وطاعته للسلطان ويحسن علاقاته به ، ثم يقضي على القوة الوحيدة الموجودة في الباشوية من دون أن تكون تابعة له بالكلية ٠ وقد جلبت القوات من المراكز الخارجية الى بغداد في يوم معين كان السراي فيه مكتظاً بخيرة جند المماليك ٠ وكانت بطاريتان من المدفعية مسلطتين على ساحته ٠ وقد اصطف وسطه المماليك الذين كانت ثماني عشرة سرية منهم في بغداد حينذاك ٠ فكان ذلك اجتماعاً فريداً في بابته اشرأبت فيه الاعناق وخمدت النفوس انتظاراً لاعلان النبأ الجديد ٠ وقوبلت الارادة الملكية ، بعدما قرئت بصوت عالٍ ، بتعجب لا يصدق به ٠ فطلب الباشا والدموع ملء عينيه حزناً على مصير الانكشاريين ـ حصن الاسلام الحصين منذ القدم ـ من الجميع أن ينخرطوا في صفوف القوات التي كان يراد تأليفها حديثا ٠ وبادر كل جندي في السريات من غير عنف ولا ضغينة ، ولا تغير القواد الى نزع « القالباق » واستبداله بلباس الرأس الجديد ، والى اثبات اسمه في كتيبة « النظامية » ، وسمع بعد ذلك دوي الاطلاق من المدافع ، المعدة لغرض آخر اذا استدعته الحال ، أيذاناً بالفرح ٠ وقد عرضت المشاهد نفسها ، الشبيهة بخلوها من سفك الدماء وبعدها عن الطريقة التي جرت عليها في استانبول ، في الحلة والبصرة وفي سائر الاماكن ٠ فانتهى كل شيء ولم يبق غير تجهيز الجيش الحديث بالمعدات ٠ وعهد امر تدريبه الى المسيو ديفو ، وهو ضابط افرنسي[9] كان بخدمة محمدعلي مرزا في كرمنشاه ٠ وقدمت المشورة من جانب المقيم البريطاني الميجر تايلور الذي كان بعهدة ابنه تأليف كتيبه من الخيالة على الطراز[10] نفسه في سنة ١٨٣٠م (١٢٤٦هـ) ٠ وكان الباشا قد طلب من بومبي منذ ١٨٢٤م طبيباً بريطانيا وتجهيزات لالف جندي ٠ لكن طلبه هذا قد رفض لانه كان يقصد تجهيز الحرس المماليك به ٠ وبعد المباشرة بتشكيلات « النظام الجديد » طلب المساعدة بمقياس

---

(٩) هوار (ص ١٧٥ ، الحاشية)

(١٠) يقول فونتانييه (ص ١٩٢) ان تايلور حاول بكل سخافة احباط مسعى ديفو ليأتي بكتيبة نموذجية من الهنود

أوسع ، فقد طلب ضباطاً ومدرسين وصناعاً وثلاث سفن مسلحة كبيرة وكميات كبيرة من الذخائر الحربية • فرفض طلبه ثانية ، وربما كان الرفض ناشئاً عن الاعتقاد بأن مثل هذه الأشياء قد تساعد لاغراض الثورة والعصيان • غير ان النظام الجديد قد نمى وتوسع ، فكانت عدة آلاف من الجند في التدريب والسلاح في ١٨٣٠ م وكانوا يقبضون رواتبهم بانتظام ، وقويت عزائمهم بنجاحهم في الحرب القبائلية • وكان يمشي الى جنب هذا التجنيد تأسيس المعامل المقتضية لصنع البستهم واللوازم العسكرية الاخرى •

ويقول مبشر انكليزي[11] كان في بغداد في الشهر الذي حدث فيه هذا التبدل ان « كل شيء كان يدل على تغلغل النفوذ الاوربي ••• ولم يكن هذا الاتجاه في استعمال الاساليب الاوربية وادخال التحسينات بارزاً في الشؤون العسكرية حسب بل في امور اخرى اكثر أهمية منها • فقد كانت رغبة الباشا عظيمة في ادخال الملاحة البخارية في هذين النهرين الجميلين •• واني أشعر في الحقيقة بأن الباري سبحانه وتعالى قد ادخل انقلابات عظيمة في قلب هذه الأمة » •

ويدل هذا الرأي على كثير من الحقيقة • فقد فتحت المعامل ، وجيء بميكانيكي من جنيف ، وبستاني من اليونان • وكثر التحدث عن مواصلات أسرع من القديمة بين اوربة والهند على طريق الفرات ، وبدأ جماعة من الموظفين البريطانيين ـ أورمزبي وايليوت ـ يمسحون الانهر • وبات في حيز الامكان نقض الانتقادات الموجهة على عهد المماليك الاخير الواصفة له بالجمود والرجعية • فقد شاهد الكل علامات التقدم المادي والاسلحة الحديثة والامل بتحسن المواصلات وتزايد السياسيين الاوربيين • فلم يكن باب التقدم موصداً بالكلية ، كما لم يكن مفتوحاً على مصراعيه أيضاً بل كان يفتح ويسد تبعاً للاهواء • وكانت الرغبة في المظاهر لا في روح التقدم • ولم تخط كل هذه الاصلاحات خطوة في الطريق المؤدية لتكوين حكومة صالحة[12] •

---

(١١) المستر أ•ن گروفز • وقد كتب مذكرات يومية واضحة جداً ، يعتمد عليها في حدود الامور التي يبحث عنها •

(١٢) ان ما وصف به ستوكلر داود باشا بانه « مجدد ناجح على الطريقة التركية » وما ذكره في « مقاومته الطويلة للباب العالي » قد يكون مسوغا لمخاوف حكومة بومبي عندما رفضت أن تبيعه السلاح •

حل عام ١٨٣٠م فكان داود باشا بشخصه وبيته وسلالته وجميع نظامه قد كتب عليه الزوال ، لاسباب كنا قد وفيناها حقها من البحث بشيء من الاسهاب . فقد أصبح استقلال بغداد الطويل لا يطاق ولا يأتلف مع الاحترام الذاتي للامبراطورية الام . فكان داود باشا يومئذ منفصلاً عن سيده في استانبول ، ولم يعد له أمراً غير احلال الجيش النظامي في محل الانكشاريين في الاخير . وبقي محتفظاً بحرسه المماليك الذين كانوا طوع اشارته في الطاعة ، وهم أشد خطراً على سيده السلطان من الانكشاريين . على أن جميع مساوىء الحكم وكثيراً من سوء الاستعمال ، مما كان السلطان مشغولاً في القضاء عليه من دون هوادة ، كان يرى مزدهراً في العراق ومتعاظماً في الشأن يوماً بعد يوم . وكانت اوهام الباشا غالباً ما تضايق ديبلوماسيي الدول القوية . فبات عهد المماليك سخيفاً أحياناً ، ومهيناً بعضاً ، وخطراً في بعض الاحايين . وقد امتنع باشا بغداد ــ وهي أغنى الولايات بعد مصر ــ عن مساعدة سيده السلطان مساعدةً كان به أمس الحاجة اليها ، وذلك عندما كان في حرب ميؤوس فيها مع الروس ، فزاد ذلك في الطين بلة ولم يعد السلطان يحتمل ذلك الوضع . وعند ذاك عزم على ارجاع العراق الى حظيرة الامبراطورية التي كانت داخلة في دور الاصلاح . فكانت أول خطوة خطاها لتنفيذ عزمه ارسال رسول ماهر يطلب من الباشا المملوك في بغداد التخلي عن الحكم . وقد انتدب لهذه المهمة السياسي المعروف صادق افندي . فأرسل بهذه المهمة في الحقيقة ، لكن مهمته الظاهرية كانت جمع التبرعات من بغداد وغيرها للجيش الحديث . وبذلك رفع سفر صادق أفندي من استانبول الستار عن آخر دور قام بتمثيله المماليك في العراق .

فقد كانت مواكب القبوچيين الواردة كل سنة من استانبول وهي تحمل الفرمان والخلعة شيئاً مألوفاً . لكن الغريزة في هذه المرة قد انذرت داود بأن هذا الموكب الجديد اكثر خطورةً من المواكب المألوفة فأعد عدته وحضر مبالغ جسيمة من المال ، كان قد جمعها على مدى السنين بجشعه ، ليبتاع بها سلامته عند اقتضاء الحال لها . وارسل الى طوزخرماتو في استقبال صادق افندي عربة ذات أفراس أربعة مع موظف كبير يحمل هدايا الترحيب . لكن الرسول كان قد وضع خطته التي يسير بموجبها في هذا الشأن . ولما كانت أخبار سفك داود للدماء ،

التي رواها له الجليلي في الموصل ، ما تزال طرية في مسمعه قابل المبعوث مستقبليه بجفاء وخشونة . وعندما وصل الى ضواحي الاعظمية أبى التوقف لزيارة الامام الاعظم ، خلافاً للعادة ، قبل ان يدخل المدينة . فدخل بغداد ومشى بين صفوف حرس الباشا متجهاً نحو المحل المعد لنزوله من دون أن يعبأ بمظاهر الاستقبال ولا بزيارة داود ، الذي كان ينتظره في السراي بكل أبهة . فازدادت الوجوه الفزعة في بغداد خوفاً ووجلاً .

وكانت زيارته الاولى للقصر في صباح اليوم الثاني . غير ان داود تعمد ان يتأخر في النهوض له الى آخر لحظة مجازاة للخشونة التي بدت منه . فتبودلت التحيات الرسميه وسمت القهوة والحلويات ، ولم تصدر أية كلمة في الحديث عن غايات الرسول ووفادته . وحدثت في اليوم التالي زيارة أخرى ، الا انها كانت رسمية وجافة كالاولى . وفي الزيارة الثالثة أبان صادق جلية الامر وفاه بما جاء من أجله . فأعلن عزل الباشا وطلب منه تسليم الحكومة في الحال رافضاً أي تأخير وطلب للتفاهم . واذ ذاك حل محل احتجاج الباشا واعتراضه التهديد والوعيد . وأصبح لابد من حدوث حادث جلل قبل سفر صادق . فرجع القبوجي مذعوراً حذراً الى مخدعه ، وبعث في طلب سليمان آغا الميرآخور وطلب اليه ان يطيع أمر البادشاه ويذبح الباشا العاصي الوقح بعد ان وعده بالباشوية على سبيل المكافأة . لكن الميرآخور استمهله الى حين ، وخف راجعاً لسيده في السراي . فانزعج داود للامر واهتم ، وبعث في طلب محمد مصرف[13] واسحق الصراف اليهودي لاستشارتهما . فاتفق الجميع بعد ساعة ، وزنت خلالها المخاوف واحدة باخرى وقويست المحاذير ، على قتل رسول السلطان الرسمي من غير عجلة ولا ارتباك . وفي مساء اليوم التاسع عشر من تشرين الاول ١٨٣٠م (١٢٣٦هـ) احتشدت بعد الصلوة سريات النظاميين بكل سكون حول مخدع الرسول . ثم ملئت بكل هدوء جميع الغرف بمن يعتمد عليهم من المماليك ، وانتخب الخدم المسرعون ، ثم عهد بمهمة

---

(١٣) قال أحد الآلوسيين في المخطوط المرقوم ب ٢٥٩٦ من خزانة الاوقاف ببغداد « سنة ١٢٤٦ جاء صادق افندي من امراء الدولة الى بغداد فقتله المصرف محمد افندي بأمر داود باشا » ـ « م ج » .

القتل الى خالد آغا ورمضان آغا حاجب الباشا • فدخلا من غير مراسيم على الرسول المحكوم عنيه فقابلهما بذعر شديد • وبعد ان نطق بسؤال غير مفهوم قضيا معه مهمتهما ونطقا بأوامرهما قصيرة يسيرة • ولم تجده نفعاً توسلاته في مفاوضة أخرى لداود ولا وعوده الخلابة ولا استعطافاته • فقد ضغطت على حنجرته يدا خالد الضخمتان فخنق بعقدة حمالة السيف •

وفي هذه الاثناء كان الباشا قد تنكر وخرج يحوطه حرسه الخاص لينتظر بالقرب من باب المعظم الاخبار السارة بنجاح الخطة • وعند علمه بما تم دخل غرفة الموت بنفسه فتحقق خروج الحياة من جثة الرسول ، ثم أمر بدفنها • وكانت تدو عليه أمارات التأثر التي لم تكن تخلو من اخلاص • وقد أظهرت هذه الجريمة الشنعاء من شخصه الضعيفة عزماً غير مألوف ، لأنه أيقن بأن المستقبل أصبح رهيباً لا محالة • كيف لا وقد كان هناك قبوجي آخر ينتظر نتيجة وصول صادق ، في الموصل ، وكان آخر ينتظر في ديار بكر أيضاً • وفي غضون ذلك انتشر النبأ في بغداد بسرعة • فخشي قسم من الناس ان يستسلم الباشا الى الشاد حفظاً لسلامته • وظن آخرون ان قواته حسب الظاهر كافية للوقوف في وجه ما سيرسله السلطان البعيد المشغول من قوة • وفكر قسم آخر في ان استانبول ، بعد قرن مفعم بأمثال هذه الحوادث ، سوف تتغاضى عن هفوات المماليك هذه • اما الباشا فقد كتب الى استانبول بوفاة القبوجي على أثر اصابته بالهيضة محاولاً بذلك في الوقت عينه تمويه الامر على الرأي العام في بغداد[١٤] • غير ان الحقيقة كانت واضحة للعيان • فاخذت الاسعار ترتفع لان الجميع صاروا يكتالون ويختزنون حيطة لما قد يحدث من الاضطرابات التي اذا وقعت فلن تكون هينة ولا بطيئة •

وقد أضافت هذه الحادثة الخسيسة الى الاسباب العامة ، الداعية للقضاء على انشقاق المماليك عن امبرطورية السلطان ، أسباباً داعية اخرى • فلم يعد بوسع

---

(١٤) ان أوشيه أيلوي المشار اليه من قبل يرى أن المقيم كان مجبراً على التسامح في قضية الجريمة لرغبته في أبقاء نظام الحكم الحالي اما ستوكلر (ص ١٥) فيورد الخبر بشكل يحاول فيه داود تبرير عمله لدى تايلر ـ بأن صادقاً كان هو المعتدي الخ لكن فريزر (ج ١ ، ص ٢٦٠) يؤيد ما ذهب اليه أوشيه أيلوي •

السلطان، وقد قوبلت سلطته، في أفريقية بنجاح محمد علي غير المحتمل، أن يبقى ثائراً ثانياً مثله في الوجود، وكان يعرف جداً كيف يعبر كتب داود الرقمية ويستنتج الوضع منها . ولم يبق امامه غير اختيار خلف له . فعرضت ولاية بغداد في بادىء الامر على يوسف باشا، وهو رجل مجازف من الروم ايلي كانت بعهدته ايالة حلب . لكن طلباته من المال والجند من أجل أن يقوم بالمهمة حالت دون تعيينه . وكان المرشح الثاني الحاج محمد علي رضا باشا[15] ، الذي شاور من عرف العراق من أصحابه في العاصمة، فقدم نفسه للخدمة مشترطاً ان يعطى ستة آلاف كيس فقط مع لواء من الجند . وكان هذا من الوزراء الحديثين ذوي التاريخ المجيد . وعندئذ رفع لدرجة صار حكم فيها مجموع أيالات العراق وحلب عدا الموصل . وبعد ان حشد قواته في حلب في كانون الثاني من سنة ١٨٣١م (١٢٤٧هـ) تركها في أوائل شباط مع تسعة مدافع وقطعة صغيرة من الجيش النظامي الحديث في حلب، وكتيبتين من خيالة الاقطاعيين، وعدد كبير من غير النظاميين الذين كثروا بعد ذلك بانضمام الشمريين من أتباع صفوك اليهم . وكان خلال سيره يرسل بالكتب بصورة مستمرة من معسكره الى الفئات المتبرمة في العراق بأيدي الكثيرين ممن ترك جيش المماليك . وتوفق في الموصل ببذله الاموال وكرمه ان يجتذب قلوب الجميع اليه . فعين حاكمها قاسم باشا العمري قائداً ثانياً بعده . وبينما كان الجميع متأهبين للتقدم نحو الجنوب وافتهم أنباء من العراق الجنوبي فأوقفت سير هذا المنتقم، الذي بات زاجبه منوطاً بيدٍ أقوى من أيدي البشر .

فقد كانت تصل الى بغداد منذ تموز ١٨٣٠ م اشاعات عن تفشي الطاعون في تبريز . وبعد شهرين تحقق تأثيره المروع وسرى شره الى كركوك، وقد حدثت فيها عدة أصابات طاعونية . وفي الحين الذي كانت فيه بغداد مذعورة لقتل القبوجي تواردت اليها شتى الانباء عن تقدم الطاعون نحوها . فقد جاوز كركوك وأخذ يعيث فتكاً بالسليمانية . وعلى هذا أحضر طبيب المقيمية الانكليزية في بغداد تعليمات لتنفيذ الحجر الصحي، بعد ان طلب اليه ذلك الوالي بنفسه . غير ان التأثيرات الرجعية التي أفتت بأن كل عمل يتخذ للحيطة يعد ضرباً من الزندقة حالت دون

---

(١٥) نجح مرة في قمع اضطرابات في عينتاب عندما كان متسلماً في تلك الجهات . وهو من اللاظ الذين يمتون للجراكسة بصلة ويقطنون في الساحل الجنوبي الشرقي من البحر الاسود .

اتخاذ معظم الاحتياطات ، وأذن للقوافل الواردة من الاصقاع التي حل فيها الطاعون من ايران وكردستان في ان تدخل بغداد بكل حرية • وفي اليوم الحادي والعشرين من شهر شباط علم الجميع بأن السلطان أعلن اعتبار داود باشا ثائراً[16] • ووافى نبأ في اليوم الرابع والعشرين يفيد أن علي باشا غادر حلب قاصداً الى بغداد ، وبعد مضي شهر وقعت أول اصابة طاعونية • وكان أول[17] حدوث الاصابات في البيوت القذرة من محلات اليهود • وفي أوائل نيسان حاول الكثيرون الفرار من المدينة ، ولكن الى أين ؟ فقد استولت القبائل على الطرق كافة ، وكانت السفن النهرية قليلة ومكتظة وقد تسرب الطاعون اليها • وقد بلغت الاصابات أشدها منذ اليوم الرابع من نيسان ، فبات الناس يموتون بمعدل مائة وخمسين في اليوم الواحد • وبادر النصارى[18] والاوربيون القليلون اذ ذاك في بغداد لتحصين مساكنهم والحجر عليها منعاً للاختلاط بكل ما لهم من شدة • أما الباشا وأهل بيته فقد حاولوا الفرار من وجه الطاعون ، غير انهم لم يستطيعوا ترك ثروتهم المكدسة ولا حملها معهم • ثم اختل النظام بأجمعه وانتشر اللصوص فلم يردعهم رادع • وبعد ذلك وافت أنباء تقدم العدو واقترابه من المدينة يوماً بعد يوم • واضطر المقيم الى الانتقال الى البصرة على النهر •

---

(١٦) يذكر كتاب « مرآة الزوراء » ان مؤامرة لم تنفذ كانت قد دبرت بين مماليك بغداد لقتل داود وطلب العفو من السلطان •

(١٧) قال مصطفى جواد ورد في تعليقات لأحد الآلوسيين على المخطوط المرقوم « ٢٥٩٦ » من خزانة الأوقاف ببغداد ما نصه « سنة ١٢٤٦ جاء الطاعون الى بغداد ووقع الطعن في العشرة الاخيرة من رمضان ثم كثر في خمس من شوال والناس بين مصدق ومكذب ، وأول ما وقع في روافض الصدرية ثم اليهود ، وفر الناس وزادت دجلة زيادة لم يسمع بمثلها وكسرت السداد وأحاط الماء والبلاء بالناس وهدم من الجانبين نحو خمسة آلاف دار بل أكثر ، ومات في اليوم عشرة آلاف نفس وأكثر ، وعجزوا عن الدفن فجافت الطرق والبيوت ، والناس كيوم القيامة وبعد أن هان الامر في الجملة القيت الموتى في دجلة ، يجرون من أرجلهم • وكثير منهم تنفصل رجله ، وذهبت الاموال هدماً وسرقا فانا لله وانا اليه راجعون » •

(١٨) يؤكد ذلك ويلستيد وسليمان بك كما أن المستر كروفز اتخذ التدابير نفسها ، ومع ذلك أفقده الطاعون زوجته (ص ١٤٠) •

وتجمع أخبار هذه الكارثة كلها على التفصيلات الواردة عن تفشيه وسيره المفزع • فقد تبدلت الحال بين الناس من عدم المبالاة الى الذهول والذعر ، ومن الكآبة الصاخبة الى صمت الموت والقنوط ومات على هذا المنوال حتى اليوم العاشر من نيسان سبعة آلاف من الناس خلال خمسة عشر يوماً • ثم هلك في اليوم الحادي عشر الف ومائتان ، ومنذ هذا اليوم الى اليوم السابع والعشرين كان عدد المائتين في كل يوم بين ألف وخمسمائة الى ثلاثة آلاف • ولم يشف مريض واحد من كل عشرين مصاباً • وكان الطعام لا يوجد الا في الندرة ، ولم يشتغل السقاؤون ، فركدت حياة المدينة بأسرها ولم يفكر أحد في غير الموت والموتى • وعلى هذا توقفت أعمال الحكومة جمعاء ، لان الموت هاجم الموظفين وأفراد الجيش وخدم الديوان فقضى عليهم كقضائه على سائر الناس • فأصبح الباشا الحائر وليس من أحد يأخذ بأوامره • وكان قد طلب ان يأتوا اليه بالسفن فلم تحضر سفينة واحدة • وخابت مساعي الاحياء في دفن الموتى امام سيل الموت الجارف حتى ظل الاموات منكدسة أشلاؤهم في الشوارع والازقة ، وهام الاطفال والعجزة على وجوههم من غير هدى وهم جائعون لا قبل لهم بشيء • وقد كثرت الجرائم والسرقات في هذا العهد الرهيب حتى قضى الموت على الجاني والبريء معاً •

واذ ذاك ظهر للعيان خطر جديد ومنبع فزع حديث في الحادي والعشرين من نيسان • فقد أخذت دجلة في الزيادة ، فتعالى مستوى مائها كثيراً عن المعتاد • وأحاطت المياه ببغداد ، فمنعت ألوف الناس من الفرار وحالت دون ورود الطعام الى المدينة من الخارج • وبقي فيضان الماء يزداد بوصة فبوصة فبلغ الى أعالى السداد وكانت مهملة وامتلأت السراديب ولم يبق بين بغداد والغرق سوى قدم واحد من السدة المتداعية • وفي ليلة اليوم السادس والعشرين انهار قسم من المسناة الواقعة في الجهة الشمالية من المدينة وقسم من القلعة ، ففاض الماء وتساقط على أثر ذلك من الدور الفان في ظرف بضع ساعات • فاستحال السراي وسبعة آلاف من الدور ، في ضمن أربع وعشرين ساعة ، أنقاضاً متراكمة دفن فيها في رمس مشترك المرضى والاموات والقليل من الاحياء الباقين • وشوهدت خيل الباشا الاصائل هائمة في الازقة ، وأصبحت اهراؤه الوسيعة الملأى بالطعام مفتوحة على مصاريعها • وبعد يومين أخذ الماء بالانخفاض وقل مقياسه في اليوم الثلاثين من الشهر بمقدار ياردة

واحدة • وفي نهاية الاسبوع الاول من مايس زال خطر الطاعون والماء معاً • ومع احتشاد من بقي من سكان المدينة في عدة من المحلات اليابسة ، وما في ذلك من تسهيل لفتك الطاعون بهم ، قلت وطأة الطاعون نفسه فتجدد بذلك أمل ان بغداد لن تضمحل عن آخرها كيفما كان الامر • على ان الكثيرين من السكان بقوا في عداد المرضى ولم يزل ثقيلا عليهم عبء الجثث ، الملقاة في الازقة تلعب بها الكلاب في أوحال ماء الفيضان • ولم ينته أجل المآسي المحزنة ، التي لم يكن مثيل لها في هذه المدينة ، الا بعد ان انقضى ثلثا الشهر الجديد •

ثم رفعت جثث الموتى شيئاً فشيئاً ، فدفن قسم منها والقي القسم الآخر في النهر ، وجمعت الحيوانات الشاردة ، وأبيع شيء من الطعام ، ثم تعالت أصوات المؤذنين من الجوامع الباقية • وقد خرب قسم كبير من المدينة بهذه الكارثة العظيمة بحيث لم يعد في الامكان اصلاحه • وبقي القسم الآخر واقفاً آوى اليه بقايا السكان المرعوبين وبضع مئات غيرهم ممن رجع الى المدينة من الخارج • ودب دبيب المواصلات قليلاً في الاسواق المهدم أكثرها المسروقة كلها • الا ان كثيراً من المهن انقرض مع من مات من القليلين البارعين فيها •

سقوط بغداد

أجال الباشا بصره في بغداد الغريقة فأرسل عليها نظرة تعسة يا لها من نظرة • فلم يك أحد أشقى منه يومئذ ، فقد توالت عليه المصائب من كل حدب وصوب • وبقي في خدمته أربعة من الصعاليك البشعين الشاحبي اللون بدلاً من عشرات الاغوات الزهر من المماليك الكرج ، ولم يبق من كتائبه الشهيرة الا بضع عشرات من أفرادها ، وأصبح القصر المنيف وقد خرب نصفه وتهدم • اما الخزانة فكانت لا تزال ملأى ولكن لغير غرض • وانفصمت عرا الولاء والطاعة أو وهنت لحد كبير • وعلى هذا فقد غدا داود في أواخر أيام الطاعون ضعيفاً من المرض ، وحيداً في غرف قصره وحجره المطلية بالذهب وفي خدمته أمرأة عجوز وهو ينوء من ضعفه بحمل مسؤوليات المستقبل الذي كان يتراءى له شبحه • وكيف لا يكون كذلك وقد خاب أمله وحبطت مساعيه في الدفاع عن بغداد ، فضلا عن الاهوال التي توالت عليها • وكان عند أول تخوفه من نزول العقاب به قبل تفشي الطاعون قد بعث بقوة قبائلية لتحتل خط الفرات في ديرالزور ، وأرسل قسماً من جيشه النظامي الى ماردين • ولما أيقن أخيراً بأن ذلك لم يعد بكثير نفع عليه لاعتماده

الباطل عدل عن ترتيباته السابقة وبعث يوسف آغا مع كتائب الجيش النظامي لتعزيز كركوك • فدمر الطاعون القسم الاغلب منها وأخرج سكان المدينة من بقي منها • وفي أوائل أيام مرضه بعث الميرآخور لجمع الجنود الاجيرة من الخالص ، الا أن الموت عاجل ضابطه المحارب هذا وتفرق شمل الجنود الاجيرة • وبعد ذلك ترك بغداد كل" من محمد مصرف ومحمد باشا بابان في الوقت الذي كانت فيه تحاصرها من جهتين لها قوات صفوك الخفيفة ومقدمة جيش علي رضا التي توجهت من الموصل بقيادة قاسم باشا • وكان غرضهما من ذلك جمع فلول كتائب يوسف باشا وتجنيد جنود أجيرة غيرها ببذل المال لهم • بيد انهما ما وصلا الخالص حتى علما باضمحلال يوسف وقرب وصول صفوك ، وعندئذ اتجها جنوباً وشرقاً الى بلاد شمر طوقة فوقعا فريستين لاطماع القبائل هناك وشراستها • وبذلك انزلت ضربة قاضية أخرى على الباشا المملوك الذي لم يبق منه الا هيكله الهزيل يحمل يومياً بضع ساعات من فراشه الى الديوان فيقصده فيه جماعة من الزائرين ممن تدفعهم عادتهم أو رغبتهم الى الاستطلاع للحضور لديه •

وكانت الاخبار التالية التي جيء بها تفيد وصول قاسم باشا الى الكاظمية مع سليمان غنام العقيلي (الذي رافق علي رضا من استانبول) والشيخ صفوك • وهناك قرىء الفرمان بعزل داود بصوتٍ عالٍ ، وركع الجميع لاوامر البادشاه ، ثم ارسل عشرون وكيلا الى بغداد • فحدث بنتيجة ذلك أول هياج قام به رعاع محلة باب الشيخ ، فانهم ساروا الى السراي وأحرقوا باباً من أبوابه ثم فروا عندما ثارت أول طلقة من بندقية عبدالباشا الرابض • اما الباشا فلم يظهر بجنبه أحد من الاتباع ولا صديق من الاصدقاء • ولما أناخ الليل بكلكله ركب الباشا وبجانبه عبده الحبشي الوحيد ، الذي استعان به عند الركوب ، وترك قصره فالتجأ الى بيت صديقٍ له • على ان جميع الجهات في البلد كانت قد عزمت على الاستسلام للقوة الجديدة • فقام وفد من الاشراف والعلماء ممن يعلم بمكان اختبائه وقادوه الى دار[١٩] صالح بك ، ثم أخذوا عليه عهداً وثيقاً بتسليم الباشا الى علي رضا عند اللزوم • وبعد ذلك دخل المدينة قاسم باشا ، فاستقبله اولئك الوفد الذين وضعوا

---

(١٩) وهي الدار التي أصبحت أخيراً دار المقيم البريطاني

داود في الاسر انفسهم وشيعوه الى السراي • فبان للجميع ان كل شيء قد انتهى من غير عناء • وبذلك أمسك القائد الموفد زمام الحكم ، ولم يبق لسيده الذي بعث به الا ان يتقدم من الموصل نحو الجنوب ، ليجد باستقبالة الجميع •

غير ان العنف الخالي من الحكمة الذي أبداه قاسم (المقبل على السكر كما قيل) وسوء سلوك أحلافه الشمريين والعقيل سرعان ما استفز همم البغداديين ، ولم يكن فيهم شيء ثابت سوى ترددهم ، فقاموا بوجه الجائرين • وقد أُشيع يومئذ ان قاسم باشا كان ينوي الاحتيال على رئيسه ليحكم بغداد هو بنفسه ، ولاجل ان يوفق للقيام بذلك كان عليه ان يزيل الاتراك والمماليك عن طريقه ويعتمد على العرب وحدهم • وعندما قرىء فرمان عزل داود باشا على الجميع طلب قاسم تنفيذ ذلك في الحال • غير ان مجلسه الشوري ـ المؤلف من الضباط وأشراف البلد ـ أصروا على تأجيل تنفيذ ذلك • وأصبح الوضع يتطلب من القليل من الضباط والجيش ممن سلم من الطاعون ان يجازفوا بحياتهم في تنحية قاسم • فخفوا للاجتماع في دار صالح بك وجرى نقاش بينهم فكان نقاش محافظة على النفس لا نقاش سياسة ، وتقرر وجوب إزالة قاسم •

وفي صباح اليوم الثالث عشر من حزيران ذهب قاسم لمجلسه وانتظر إحضار داود • فعاد من بعثوا لاحضاره خائبين ، وكذلك سمعت جلبة وضوضاء في الخارج • فكان ذلك ان قوة من المماليك والعقيل والاهالي قد أحاطت بالبناية وأصبح الحاكم الجديد أسيراً في حوزتها • وعندما حاول أتباعه في الداخل ومريدوه في الخارج الدفاع عنه والهجوم على المتجمهرين توسعت أعمال الفوضوية وكثر اطلاق النار • فسحبت المدافع من القلعة وسطا المتجمهرون على القنابل والذخيرة الموجودة في مخزن الاسلحة • اما في الداخل فقد ارتدع الكثيرون عن حركتهم وتركوا ما كانوا يسعون اليه على دون هدى • وبعد ظهر اليوم استسلم قاسم[٢٠] و ويوضة ماردين • اما سليمان غنام الذي بقي مسيطراً على جناح من

---

(٢٠) لم يذكر سليمان بك مصير قاسم باشا بعد الاستسلام • وقد صنع كروفز بأنه قتل ، وسمع فريزر (١٦١) بأنه القي في البئر • أما تقويم الموصل فيذكر ان داود باشا اعدمه « المؤلف » قلت قال أحد الآلوسيين في أحد المخطوطات المذكورة سابقاً « ٢٥٩٦ من الاوقاف » ما نصه « ١٢٤٧ قتل قاسم باشا والي الموصل قتله أهل بغداد أيام الفساد » ـ « م٠ج » •

السراي حتى مغيب الشمس فقد سرق عند حلول الظلام جميع ما تمكن من حمله ، ثم أضرم النار في القاعة الكبرى وفر هارباً والسيف بيده ماراً بالازقة والشوارع الخالية . فتسربت النار التي أضرمها من غرفة الى أخرى ومن حجرة الى غيرها حتى تهدم القسم الاعظم مما بقي عامراً من السراي . وقد احترقت بهذه النار خزائن الباشا التي لم تكن لتثمن وأدوات بيته وفي ضمنها الاحجار الكريمة والأعلاق النفسية والجواهر والذهب والسجاد النادر وأنواع الحرير والاقمشة المجلوبة من مختلف البلاد . وقد تلفت بهذا اللهيب ، الذي أضرمه اليأس في التعاسة المؤلمة ، عشرات النفائس المتجلي فيها الفن الشرقي ووقع ما بقي منها بيد أول الهاجمين على الغنائم من العقيل ورعاع بغداد .

على أن هذه القلاقل قد وحَّدت جميع الاحزاب . وأصبح الرأي العام بأجمعه في جانب داود ، لا سيما وان نهب السراي وحرقه كان جريمة سوف يحاسب علي رضا من أجلها الجميع على سواء . وكان من المصلحة لهم يومئذ أن يقفوا بجانب حاكم بوسعه ان يحفظهم ، فأُجبر صالح على قبول منصب قائم مقام بغداد ، فتقلده وهو ألعوبة بيد داود وكان ترشيحه فضلاً عن تعيينه يعد تحدياً للسلطان . ثم بعث[21] بالرسائل الى استانبول ، وقد طلب وجوه بغداد فيها انهم مستعدون لزيادة الضرائب وجمعها كل سنة من غير تمهل ، كما انهم مستعدون لتلافي نفقات حملة علي رضا باشا على شرط ان يوافق السلطان على تعيين صالح أو داود للعراق موحداً بأجمعه . ثم كتبوا الى علي رضا انه سوف يلاقي في تقدمه أبواباً موصدة ومقاومة شديدة واقترحوا عليه ان ينتظر مثلهم أوامر سيده وسيد الجميع .

أما علي باشا فكان قد غادر الموصل مذ وافته أنباء قاسم وما كان من أمر دخوله بغداد . وقد وجده رسول البغداديين معسكراً على الزاب الكبير ، ومن هناك أمر بالتقدم في الحال . فوصل الى بغداد في بداية شهر تموز بعد ان جدّ في السير ، وخيم في الاعظمية ثم اعد مدافعه لحصار المدينة . فرد عليه الاهالي ببضع جولات مما دل على رغبتهم في المقاومة . وفي خلال الاسابيع العشرة الاولى كان كل يوم منها مفعماً بالشائعات عن الدسائس المحبوكة داخلاً وخارجاً ،

---

(٢١) يقول ثابت ان ذلك كان « بواسطه تايلور القنصل البريطاني »

وبقصص الجرائم العنيفة الحادثة في كل محلة من محلات بغداد ، وبما كان يحدث من سفك الدماء على أبواب السور وما وراءه . وقد فضل علي باشا ، بدافع أخلاقه وخططه ، الصبر الاكيد غير الممجد على الهجوم الذي لابد من ان يكلفه ذهاب الارواح وتحمل المرارة . وكان جميع ما في حوزة المدافعين من القـــوة خمسمائة من الجند النظامي الحديث ، أي الحرس المماليك ، وبقدر ذلك من عرب العقيل . وكان عند علي باشا في الخارج كتيبتان من الخيالة ، واثنتان من المشاة ، واثنا عشر الفاً من غير النظاميين . فسخر بحرية تامة سلاح أســـاليبه الرحيمة ووعوده الخلابة مع أي منقلب يلتجيء الى جيشه . ثم تزلف للقبـائل وأغناها ، وكذلك أنعم بالاراضي بتبذير واسراف ، ولم يبق من ريب في النتيجـة الاخيرة . واذ ذاك كانت آمال المدافعين متعلقة بقدوم الحلفاء من العرب ، أو بورود جواب سار من استانبول ، أو بوصول شائعات تنبيء بضعف العدو . وقد ظهرت انقساماتهم واضمحلت قوتهم الروحية في الصدامات العنيفـــة في الشوارع ، وبانشاء الاستحكامات الحربية والمتاريس بين محلة وأخرى ، وبتأليف عصابات الرعاع والاوباش . وكان الضبط في الخارج أحسن بقليل . فقد هاجم العرب المنضمون الى قوة علي باشا ضاحية الكرخ من غير ايعاز رسمي قصدوا ، وانقلبت سرية من الالبانيين عليه طمعاً في رواتب أعظم من التي لهم ، ثم فرقت عرب سليمان غنام ، الذين كانوا مسيطرين على طريق الحلة ، قوةً ما فأزاحتهم عن هذا المدخل واستولت على خيام العقيليين وأمتعتهم[٢٢] . وبعد ان تشجع المدافعون بهذا النجاح حاولوا شن هجوم للخارج الا ان الارض الوعرة المغمورة بالمياه حالت دون ذلك . وكانت نتيجة هجوم غير منتظم شن على معسكر علي باشا في الاعظمية ضياع طابيتين من طوابي المعسكر حتى الجأت الهاجمين على الفرار قوة صغيرة من الخيالة . ثم قوبلت بالاستحسان في أول الامر خطة[٢٣] أوسع وأكثر طموحاً ، الا انها تركت

---

(٢٢) من الواضح ان العقيليين ــ وهم المذبذبون في أخلاقهم والاجيرون بمهنتهم ــ كانوا منقسمين على الدوام . فكان قسم منهم يتبع سليمان غنـــام ، وقسم آخر ينتصر لداود ، وكثيرون غير هؤلاء اضاعوا أنفسهم بين العصـــابات التي كانت تفزع المدينة .

(٢٣) رسمها المسيو ديفو الذي بقي حياً بعد الطاعون

لانها كانت غير حكيمة ولا ناضجة وواصل الفريقان القصف بالمدفعية البعيدة المدى من دون جدوى •

ومع ان هذه الهجمات التي شنت الى الخارج قد صادفت شيئاً من النفع الآني العاجل في توحيد الصفوف وتقوية القوة الروحية فقد كان لزاماً في الوضع ان يرجع الى أصله في ضعف الامل • اذ لم يتمكن صالح الشهواني الضعيف الارادة ، حتى في زمن الشدة هذا ، ان يترك ملذاته فيمسك بيده عنان القيادة • وكان داود باشا مريضاً لا يزوره أحد ، وقاربت الإموال النفاد ، واستحالت قلة الطعام الى مجاعة مميتة • ولم يكن علي باشا أحسن حظاً ، فقد كان حائراً لنفاد المال عنده ، ذلك المال الذي كان عليه ان يدفع منه لقواته التي اوشك الصيف ان ينصرم عنها فيدهمها الشتاء ببرده وأمطاره • وفي الوقت الذي كان يتجاهل فيه مظاهر النقمة والسخط لم يتأخر عن الاستيلاء على سائر أقسام الباشوية عدا العاصمة • فاستقبل ممثله في البصرة ، وكانت مجمع الملتجئين من بغداد ، وكان انتشار الطاعون وهجمات عرب الزبير وما جاورها قد جعل من الضروري انسحاب المتسلم منها وعودته بعد أسابيع قضاها في التحصن[24] على أكتاف بني كعب • ثم احتل الحلة مملوك منقلب ، كما سبق ان استولى على الخالص وبقاع ديالى من قبل • ولم يدخر المماليك المنقلبون الموجودون في معسكر علي رضا وسعا في اقناع من كان في داخل السور بقبول الباشا الجديد : وقد اجبر حتى حجاب داود الخاصون على الاعتقاد بأن مهمة علي باشا كانت تستهدف اعادة المماليك الى عظمتهم السالفة بأشراف ثان • وعلى هذا أخذ الجيش المهاجم يزداد كل يوم بهرب الكثيرين من رجال القوة المحصورة في الداخل اليه ، بدافع الخوف والأمل والجوع ، والحسد والتهديد والوعيد •

وما حل أيلول حتى كانت النتيجة في اليد ، فقد أصبحت الحالة في بغداد لا تطاق • إذ كانت المنهوبات تعرض علناً للبيع من دون خوف ولا خجل • وقل

---

(٢٤) گروفز (ص ١٧٤ ، ٢١٣ ، ٢٣٢) ستوكلر (ص ٤٢ ، ٥٧ ، ٦٧ـ٦٨) : كان متسلم داود باشا على البصرة عزيز آغا الذي استعاد مكانته أخيراً بشق النفس • وقد اقنع باعلان الولاء لعلى رضا • (مـرآة الزوراء) (المؤلف) • ان المقصود هو عزيز أغا ــ المترجم

الطعام ، ولم يصبح في متناول اليد ، كما لم ير احد اللحم بعينه بتاتا • ونضب الخزائن ، فنزلت جواهر الباشا نفسه للبيع بـ « المزاد »•وقد ساق الجوع والدسائس وكل تعاسة أخرى الاهـــالى الى حيث ينفد الصبر • وفـــي اليـــوم الثـــاني عشر عزم كثيرون منهم على الانتظار لمدة خمسة أيام أخرى حين يصل الشيخ عجيل (وكان قارب بغداد حقيقة فصد عنها) فيصانع العدو برأس داود وصالح ويصالحه • اما علي رضا فقد وصلته ، واليأس يساوره لنفاد ماله ، رسالة من استانبول في هذه اللحظة تأمره بالعدول عن حملته (ان كانت لم تنته بعد) والرجوع الى استانبول بأحسن ما يمكن[٢٥] • فعزم حينئذ ، وهو غير مقتنع باطاعة هذا الامر ، (لان سمعة بغداد وحدها ووقع ذلك في نفس الجند هي التي كانت تحفظ الوحدة بينهم) على أن يصل الى نتيجة ما قهراً •

وبعد ساعات معدودة من ذلك كان رسوله يطرق باب المعظم معلناً وصولـه لمن كان في الداخل • فطلب منهم ارسال ممثلين عنهم ليلتقوا بممثليه خارج السور • وفي المؤتمر المنعقد في بستانٍ قريب من الموضع ألح ممثله على وفد بغداد بأن ينتخبوا في الحال أحد أمرين : العفو العام أو القصاص الشديد • فرجع ممثلو صالح بك وعقدوا معه اجتماعاً سرياً حضر فيه داود ، وقضى الجميع بذلك ليلة مفعمة بالتردد المؤلم وعدم التصميم على شيء ولم يتوصلوا لحلٍ ما للمشكلة • وعلى هذا لم يبق للانقاذ من الموقف الا الخيانة لتعمل في ما خابت فيه الفطنة وفشل الحذر • وقد سبق ان سببت مكايد الخونة والمنقلبين في داخل السور انشقاق الكثيرين على جانب الطبقة القديمة • وعندما علم هؤلاء ان الوضع بات لا يتحمل أي تأخير تجمعوا في ظرف عدة ساعات فكونوا حزباً مستعداً للقيام بكل ما من شأنه انقاذ أنفسهم • وفي ليلة الرابع عشر من أيلول ، المفعمة بالقلق ، دهموا مزالج باب الظلمـات فامتلكوا ما يسمح للجند الامبراطوري بالدخول • ثم تبودلت الرسائل قبل الفجر ، وبعد ذلك في الحال دخلت سرايا جيش علي الى بغداد من غير مقاومة • فانتقلت المدينة بذلك من يدٍ لأخرى بدون عناء •

وبقي علي باشا في معسكره خارج المدينة • اما داود فقد نهض من هجوعه

---

(٢٥) هذا ما ذكره « ثابت » ، الا ان مثل هذه التعليمات تظهر بعيدة عن خطة السلطان المعروفة وعن حقيقة الوضع ، غير ان سليمان يعتمد عليه كثيراً •

المضطرب ، فأخبره قبل بزوغ الفجر رئيس العقيل بسقوط المدينة مناشداً اياه النجاة بالفرار الى المنتفك • ففكر داود طويلاً ، ثم أجابه بأن ضعفه يحول دون الفرار ، ولابد من تنفيذ مشيئة الله • وبعد ان صلى صلاة الصبح ركب ، وهو خائف وجل ، الى القلعة بعد ان مر بأقصر الطرق وكان يقصد الالتجاء الى الغرف التي سيق منها سعيد الى حتفه قبل أربع عشرة سنة • وعندما منع الدخول اليها دخل بيتاً[26] قريباً وجلس بصمت ووقار وحيداً ينتظر ما سيحل به خلال ساعة واحدة • وفي وضح الصباح اهتدى ضباط علي باشا الى مقره فدخلوا عليه بتواضع واحترام ، وأخذوه معهم لخارج المدينة حيث نصبت خيمة خلفه • فنهض علي باشا من مكانه ، عندما كان الركب بعيداً ، ثم قابل داود وهو أسير حقير باحترام لم يقابل بمثله مملوك من قبل ولو كان في أوج ابهته وعظمته • فجلس الباشيان احدهما الى الآخر يحتسيان أكواب القهوة ، كما مألوف في اجتماع تتجلى فيه امارات الاحترام والصداقة ، وهما يتساءلان اسئلة اعتيادية • ثم ارسل الأمان الى صالح بك وعين درويش آغا الملقب بـ « قائم المقام » مكانه في المدينة ، ثم نادى المنادون في جهات المدينة بالامان العام • واطلقت من بعد ذلك الحرية الكافية لمن أراد زيارة داود باشا في المعسكر ، حيث كانت حريته غير مقيدة[27] •

وبينما كانت الطمأنينة والتجارة تعود ساعة بعد ساعة في الشوارع ، ويأمل الجميع حدوث تبدلات عظيمة ، كانت تتخذ الترتيبات اللازمة لارسال داود الى اوربة • وكان كتاب علي باشا الذي أخبر فيه بنجاحه في الفتح يتضمن استرحاماً بالعفو عن المملوك بحسب ما كان يسير عليه من خطة • وأعطيت الاوامر لمن ذهب لايصاله بقتله في الحال ان حاول نجاة أو فراراً • وما تزال تروى القصص عن وقائع السفرة وعن الاستقبال المشكوك فيه في استانبول • والحق ان داود كان قد عادى ملكاً شديد العقاب عداء مراً • وربما كان سبق العفو عنه

---

(٢٦) يقول « ثابت » ان البيت كان بيت جواد بك أحد خدامه القدماء ، ويقول مؤلف « مرآة الزوراء » انه كان بيت ابنه نوح •

(٢٧) يذكر صاحب « مرآة الزوراء » ان المماليك المرتدين الذين كانوا بصحبة علي رضا « وهم رستم وسعدون وأبو بكر » حثوه على قتل أسيره ، الا ان علياً فضل ان يتركه حياً ليرى فيه سلطانه رأيه •

توصيات علي رضا به ، او امكان الاستفادة منه في المفاوضة مع حكومة مصر[28] . ويغلب على الظن ان خلاصه كان من أجل مزاياه العجيبة ، وشخصيته الزهراء ، وتضلعه من القانون والشريعة[29] . ولم تكن كل هذه المؤهلات لتغنيه فتيلاً في تركية قبل خمسين سنة . واذ ذاك أرسل منفياً نفياً شريفاً في بروسة مصحباً عائلته ومعتاشاً ببقايا ملكه الخاص . وبعد انتصار المصريين المفجع في قونية في تشرين الاول من عام ١٨٣٢ م عزم أولو الامر على الانتفاع به عوداً على بدء . ثم صار والياً على بلاد البوسنة ، ومن بعد ذلك صار رئيساً لمجلس الدولة في استانبول . وفي ١٨٣٩ م (١٢٥٥ هـ) عين لولاية انقرة لكنه استدعي منها الى منفاه القديم في بروسة لما كان يحوم حوله من الريب . وفي ١٨٤٥ م (١٢٦١ – ٢) تمكن من ان ينال لنفسه العطف الخاص من السلطان عبدالمجيد ، ففاز بمنصب يناسب مؤهلاته وهو منصب « حامي العتبة المقدسة » في المدينة . وهنا جلبت له مواهبه الكلامية والسيمائية ، وماضيه الرومانتيكي ، اعتباراً لم يكن أقل من الاعتبار الذى كان يتمتع به في عرشه القديم في العراق الا قليلاً . ومات في ١٨٥١ م (١٢٦٨ هـ) . وهكذا قضى نحبه بعد ان عاش محترماً شارحاً للاسلام بلسانه وتدينه ، وبعد أن كان نصرانيا في صباه عندما غادر تفليس الى بغداد قبل سبعين سنة ، وقد فاز في وطنه الجديد وديانتـه الجديدة بحريته أولاً ثـم بالوظيفة ، ومن بعـد ذلك بعرش الولاية مـدة نصف قرن . وقد استبدل في بضعة أسابيع بالقوة وبالابهـة المرض والاستجداء والخوف من الموت . ثم عُفي عنـه فرفع محله ، بخلاف جميع ما كان يتوقـع ، وتقلد المناصب العالية في الامبراطوريـة عشرين سنة زيادة على ما مضى ، ومات مذكوراً بكل حسنة ومحمدة في المكان الذي توفي فيه النبي (ص) .

علي رضا

كتب شاهد عيان[30] حضر في يوم سقوط بغداد فقال ان « الخوف بأجمعه

---

(٢٨) وهذا ما يؤكده سليمان في « مرآة الزوراء » .

(٢٩) يذكر ستوكلر (ص ٥١) كثيراً من أخبار « توزيع الذهب بكثرة » ، الا اننا نرجح انه لم يكن يملك هذا المقدار منه ولو ملك ذلك المقدار لما تمكن من شراء السلطان محمود .

(٣٠) كروفز

قد أزيل عن جمهور الاهالي ، فاصبح الجميع مـن أناس وحيوانات مسرورين برجوع الخير » • وقـد هبطت الاسعار مائة ضعف وفتحت المخـازن والمتاجر والحوانيت للبيع بعد ان كانت مغلقة عدة أسابيع ، ثم وقفت الجرائم عند حدها في الحال • فنظفت الشـوارع وامتلأت من جـديد ودخلت القـوافل وبسطت الاسواق •

وبقي علي رضا في المعسكر خارج السور حتى تحرك للسفر داود باشـا بسلام ، فزاره هناك جميع وجوه بغداد فبش لكل منهم بأدبه المعهود • وقد وعد المماليك بعشرات التعيينات والوظائف والأراضي • ثم دخل بغداد فكان دخوله لا يعوزه شيء من المهابة والوقار على ما كان يعوزه من زهو وجلال • وفي اليوم الثالث ، بحسب العـادة ، دعي الجميع لسماع قراءة الفرمان بصورة رسمية • وكانت الدار التي جرت فيها الحفلة ـ لان السراي كان خربة محرقة ـ مكتظة بخيرة الجند • وقد وقف في السـاحة من بقي حياً من المماليك الذين لم يفر منهم خارج المدينة الا نفر قليل ممن أوجسوا خيفة عـلى أنفسهم • وكان صالح بك منحرف المزاج فلم يتمكن من الحضور • فقرىء الفرمان وعاد الباشا الى حجرة في الداخل ، فكان ذلك بمثابة اشارة انقض بموجبها جماعة من الالبانيين عـلى الاغوات المماليك وقتلوا القسم الاعظم منهم ببنادقهم الخفيفة[31] ، ثم ذبحوا البقية عن آخرهم • واما الذين اعتقلوا منهم فقتلوا في مكان آخر من المدينة • ووقع صالح من ظهر حصانه فقتل امام الدار[32] التي كان قد حكم فيها بغداد عـدة أسابيع مضطربة • ومن بعد ذلك قرئت الاوامر الرسمية الصادرة من استانبول التي تسوغ هذه الافعال الوحشية مع ما كان فيها من حكمة ، وطُلب كل مملوك داخل المدينة وخارجها • حتى ان المماليك المتقمين الذين كانوا قد رافقوا الباشا الى بغداد ـ كالجواسيس ، والوكلاء الذين ساعدوه فيالحصار ، وكانوا يتمتعون بكثير من عطفه ـ قضي عليهم أجمعين فوسدوا التراب • ووجد نفر قليل منهم ،

---

(٣١) قال المحشي على المخطوط المذكور «١٢٤٧ قتل الكولات الكرج وقام المفتي عبدالغني افندي جميل زادة على الوزير فى ٢٧ ذي القعدة سنة ١٢٤٧هـ » ـ م ج•

(٣٢) ان ما ذكره فريزر (ج ١ ، ص ٢٦٦) فى هذا الشأن يختلف عن هذه فى التفصيلات •

يعد على الاصابع ، ملجأ آمناً مدة طويلة في البقاع النائية من الباشوية أملاً منهم لأن يفوزوا بعفو متأخر • ثم وزعت أمتعة الاغوات المقتولين ، وبيع قسم منهـــا فدخلت قيمتها وارداً للخزانة الحكومية •

وكان فرمـان علي رضا ينص عـــلى حكم « بغـــداد وحلب وديار بكر والموصل » وهي مجموعة من الولايات لم يسبق ان انعم بحكومتها معاً على حاكم واحد في وقت واحد • على ان الحقيقة كانت في انه لم يحكم أكثر من العراق نفسه ، وبذلك استعيد لقب الخليفة[٣٣] القديم وفي خلال عدة أيام من دخـوله بغداد قرىء فرمان تعيينه في كل مدينه من مدن العـراق • فقبل النظام الجديد وأخذت ماكنته في الاشتغال • وكان العفو عن سلفه في الحكم ، والبسة الباشا الجديدة مع رجال حاشيته ، ووجود الاوربيين محيطين به ، وعـدم التشدد في العادات الاجتماعية الاسلامية المنتظر ، كل هذه كانت تؤذن بحلول عهد جديد • وجددت بعناية خاصة امتيازات شركة الهند الشرقية القديمة •

وهكذا انتهى أمد الانشقاق الطويل • ورجعت ولايات العراق التيانفصلت لمدة طويلة الى حضن امها الامبراطورية العثمانية بعد ما أدركها الاصلاح والتقدم بوجه عام • فتلاشت سلالة المماليك الى الابد • وفي الساعة التي حمل بها داود باشا الى الخارج ، ودفن فيها خـدامه وحرسه ، أصبح العراق ولاية من ولايات تركية الحديثة •

---

(٣٣) كان حكام بغداد يلقبون بهذا اللقب ، بصورة غير رسمية وواهية ، وكان يطلق عليهم محلياً فقط ، ومن دون تاثير في منزلة السلطان • وكذلك كان في عهد علي رضا ، لكن المؤرخين دونوا اللقب له بصورة خاصة •

الفصل الحادي عشر

من المماليك الى مدحت باشا

العلاقات الامبراطورية والاجنبية

ان البحث في التاريخ الذي وصلنا به حتى الآن الى ١٨٣١ (١٢٤٧ هـ) لا يمكن أن نوفيه حقه بنفس المقياس المتبع فى الفصول السابقة ، اذا ما أردنا اكماله والوصول به الى نهاية القرن التاسع عشر • فليس من الممكن ان يخصص للسبعين السنة هذه سوى فصلين بسيطين[١] • وقد اضطرت المؤلف لهذا اعتبارات قهارة • فقد نضبت عنده المراجع الشرقية المدونة ، ولاجل أن يجد شيئاً منها يجب عليه أن ينقب فى السجلات والجرائد التركية التي لا سبيل له للوصول اليها البتة • ولا تزال المدونات الديبلوماسية غير منشورة • اما مذكرات السياح فمتيسرة ، لكنها ان وصفت شيئاً فلا تدل به على ما يوجه التاريخ • وان كان مؤرخ هذا الدور نفسه ضيق الحدود بمراجعه وأسانيده بسبب ما بينا فانه لابد من أن يشعر بشيء من الارتياح متى علم بان هذا الدور شهد استبدال العمامة بالطربوش ، وتبديل اللحى المسرحة باللحى المحددة نصف المحلوقة ، وحكم القرون الوسطى المتواني بالسفسطائية الفاسدة ، واختفاء أشياء كثيرة كان عدم اعتيادها يجعلها جذابة خلابة ، وظهور الشيء الكثير من البشاعة الرثة •

وسيدون هذا الفصل الميزات الرئيسية التي تميز هذا الدور المنحصر بين تولي علي رضا باشا الحكم فى ١٨٣١م وتعيين مدحت باشا فى ١٨٦٩م (١٢٨٦ هـ)•

---

(١) لقد امتنع المؤلف عن الاقتباس من المراجع فى هذا الشأن لانه لم ير من المراجع المهمة لـه الا النزر اليسير ، وان القسم الاعظم من مادته هذه غير مدون •

اذ سيبحث أولا في حال الولايات العراقية فى الامبراطورية التركية وفي علاقاتها الخارجية ، وسيلي ذلك بحث فى الانقلابات الدستورية والادارية الحاصلة فـي داخلها • ومن بعد ذلك سينحصر البحث في المجهودات المبذولة لقمع الدسائس العدائية ، وفي معالجة الوضع القبائلي • وسيقتصر البحث فى الاخير على تطـور طرق المواصلات الحديثة (بواسطة الاجانب) •

فقد ظلت أيالات العراق بعد ١٨٣١م جزءاً لا يتجزأ من الامبراطـورية التركية • لكن طلاوة البحث فى حوادث الارتداد بنطاق واسع ، والحـروب الخارجية ، وأطماع أبناء الاسر المالكة ، لا تنير لنا هذه الحقبة من الزمن • اذ ظل باشوات العراق يبعثون الى استانبول مسانهةً المبالغ الطائلة دون ان تكون لهم رغبة فى ذلك • وكان جميع الموظفين العسكريين والملكيين على المستوى الامبراطوري ، ولم يكن منهم من يتجرأ على مقاومة رغبات رؤسائهم •كما كان لا يزال من الممكن الحصول على جميع المناصب بالطرق القديمة المألوفة وهي طرق الشراء بالمال او المحسوبية ، وكثير منها لم يكن يختلف عن حاكميات الاقطاع القديمة ، غير انـه ولا واحدة منها كان يمكن الاحتفاظ بها بضد رغبات السلطان • بل كان الامـر بالعكس ، فان «المركزية» التى فرضها محمود الثاني ، وبقيت نافذة من ١٨٣٤م الى ١٨٦٩م ، اضطرت الجهات المختصة الى تطويرها فيما بعد لانها كانت على جانب عظيم من التطرف • ولما كانت هذه المركزية أسمية فى الولايات النائية غالباً فقـد كانت شيئاً مثالياً غير عملي عند التطبيق •

واذا نظرنا الى العراق من حيث السياسة العالمية نجد انه كان له نصيب من الالتفات الذي كان يوليه سياسيو أوربة لتركية بوجه عام•فقد كان واقعاً على طريق من الطرق المقترحة الى الهند ، كما كان يعمل فيه وكيل دبلوماسي بريطاني مهم • وكانت من العوامل الخارجية التي تدفع بالعراق الى حظيرة العالم الحديث اللجان الدولية التي ألفت لحسم قضايا الحدود العراقية ـ الايرانية ، وهيأة التفتيش المتألفة من كبار الموظفين المرسلة من العاصمة ، وتوسع التجارة الخارجية ، والتفكير فى الملاحة النهرية ، وشيوع المواصلات التلغرافية ، والتنقيب الاثري • ولو درست علاقاته الخارجية عن كثب لتبين انها كانت ضئيلة مع الخليج،بينما كانت مع الجزيرة العربية لا تخرج عن الاقلاق الناشيء من القبائل على الحدود واضطرابها المألوف •

لكن علاقاته مع ايران كانت تنطوي على مراحل متعاقبة من الريبة والمشاكسة .

اذ كانت الخصومات البابانية في الحدود الكردية مثارة للاصطدام الدائم مع الشاه حتى حان سقوط ذلك البيت في ١٨٥٠م (١٢٦٧هـ) . كما كانت غارات السلب والنهب التي تشنها القبائل البدوية التي تخترق الحدود مراراً وتكراراً ، وخيانتها للعهود والمواثيق المعقودة معها ، كلها منبعاً مستداماً للاحتجاجات والانكارات . فكانت قبائل الجاف والپشدر تجوّل في مراعي الجهتين من الحدود ، كما كان الهماوند يغزون ويسلبون من كركوك الى همذان . اما في جنوبي العراق فان تعلق الايرانيين الوثيق بالعتبات المقدسة التي تغلي بالشغب والعنف كان يورطهم في اعسوبب التي كانت توجه على الثوار والعصاة الواجدين مأوى عندهم ، كما كانت معاملة زوارهم موضوع التذمرات المرة من باشوات ذلك اليوم الجائرين . ولم يحظ التجار الايرانيون الا بالنزر اليسير من عطف الحكام الذين كانوا في نظرهم رافضة منبوذين . وكان الشاه بدوره يرتاب من التجاء الامراء الايرانيين الى بغداد واحتمائهم فيها . وفي مثل هذه الاحوال كان من المنتظر ان لايتفق الطرفان على نقاط الاختلاف الا بمقاساة كثير من الصعوبة . ففي ١٨٣٧ (١٢٥٣ هـ) هاجم[٢] علي رضا المحمرة ، التى كان قد أسسها من قبل تابع مشكوك في أمره ينتمي الى قبيلة تطالب بتابعيتها الدولتان . وأعقب ذلك مطالبات ايرانية جسيمة بالتعويض ، وسرعان ما أعاد احتلال البلدة شيخ من شيوخ المحيسن معتمداً على معاضدة الايرانيين فى الوقت الذي لم يكن خاضعا فيه لقبيلة كعب ولا البصرة . وتمادى الشاه والسلطان فى ادعائهما ، كل من جانبه ، بالمحمرة وبقيا غير متفقين على أي خط من خطوط الحدود . وقد أبقت الوضع دقيقاً حوادث التعديات المستدامة ، وحماية الملتجئين ، وخدمة القبائل للوقت . وكانت نتيجة ذلك كله معاهدة أرضروم الثانية المعقودة في ١٨٤٧م (١٢٦٤هـ) . فنصت شروطها على تخصيص المحمرة للايرانيين ، وبحثت بوجه عام في شؤون قبائل الحدود ،

---

(٢) ان دويلة الحويزة التي بقيت وهي ضعيفة في هذا العهد انزلت بها الضربة القاضية عندما بدل نهر الكرخا مجراه في ١٨٣٣ م (١٢٤٩ هـ) فأدى ذلك لبقاء البلدة من دون نهر في يوم واحد .

والزوار وأمور الملاحة • وقد بدأت بالعمل في ١٨٥٠م « لجنة حدود » مؤلفة من أربعة أعضاء : بريطاني وروسي وتركي وايراني ، وكان بدء عملهم من المحمرة • غير ان أعمالها انتقضت بادعاءات درويش محمد وتهكماته ونتج عن ذلك « بقاء الامر على حاله » بصورة غامضة • على ان الموظفين البريطانيين استمروا في القيام بأعمال المسح وتدقيق النظر على طول الحدود ، وبقي اعداد الخرائط سائراً على هوادته بتباطؤ في موسكو • وبقيت الحال على هذا المنوال حتى نشبت حرب القرم فزادت تركية على الريبة المتقابلة بين الفريقين ضغثاً على ابالة بالنظر لتخوفها من محالفة الايرانيين للروس • وعندما أنجز عمل الخرائط الروسية أقر اتفاق عقد « بقاء القديم على قدمه » ثانية • على ان هذا التعبير الملائم كان يضم بين طياته أحوالاً مائعة الى حد ينعدم فيه الأمل بالنسبة لوجود البدو المتجولين وراء الكلأ وقطاع الطرق الذين ينشدون المأوى واللجوء • وبذلك كان الوصول الى تسوية مبنية على أسس ثابتة متفق عليها شيئاً بعيد المنال على ما يبدو •

اما في داخل العراق فقد زاد انتقال البلاد من حالة القرون الوسطى الى المستوى الدولي الحديث في اتصاله بالممثلين الاجانب وتعاونه معهم • اذ كان المسعى البريطاني من جهة يقوم بخدمات جليلة للعراق من دون أن يطلب شيئاً في مقابل ذلك سوى تأمين توسع التجارة البريطانية • وكان حكام العراق المتعصبون من جهة أخرى يستاءون من وجود هؤلاء الاجانب وامتيازاتهم ، وصداقتهم للقبائل ، لكنهم لم يقووا على منع كل ذلك • فقد كان بوسع كبيرهم « المقيم » ان يحطم كل شخص بكلمة واحدة تصدر منه الى استانبول ، وهو على حق ولو تأثر منه الباشوات ، ونزيه بحيث يخجلهم ، ومتيقظ في غير مصلحتهم • وبينا كان القنصل ـ التاجر في القرن الثامن عشر غير قادر على طلب شيء سوى دوام « الامتيازات » وتركه حراً من دون تعرض له أصبح « مقيم »[٣] القرن التاسع عشر وهو المتكلم نيابة عن شركات البواخر، وهيئات انشاء التلغراف ، والاثريين، ومؤسسات الهيئات الخيرية[٤] • ولم تفتأ بعض استنجادات القبائل بالحماية

---

(٣) وكان من بين المقيمين رجال ندار مثل السر راولنسون (١٨٣٤ ـ ٥٥) والسر أ • ب • كيمبول (١٨٥٥ ـ ٦٨) والكولونيل هربرت (١٨٦٨ ـ ٧٤) •

(٤) وخاصة « أرث أوده » وهو مبالغ جسيمة خلفها ملك أوده الشيعي ،

البريطانية تزعج الباشا أشد الازعاج • ولم يكن ليغيب عن بال الجميع في العراق من الشيوخ والافندية وقسم من الموظفين البريطانيين ان مستقبل بريطانيا العظمى في العراق سائر الى الاهمية لا محالة ، وربما ليصبح شيئاً أعظم •

ظاهـرات الاصـلاح

لم تتطرق العلاقات الخارجية هذه بشيء الى التجديد الانتقالي الذي يكوّن أهم ميزة من ميزات هذه الحقبة ، برغم سريانه في داخل العراق بصورة متقلبة ، نصف جدية ، خالية من الحكمة والتعقل •

اذ تدل التغييرات الحاصلة في الوحدات الادارية الكبيرة ، في هذه السنين، على ميل عامّ غير دائم نحو التوصل الى « نظام الولاية » الذي قدر لمدحت باشا ان يطبقه بعد هذا • فان مجموعة الولايات واسعة النطاق التي كانت بعهدة علي رضا سرعان ما تقلصت واصبحت تشمل العراق وحده • لـكن كركوك ، التي ربما كان السلطان راغبـاً في فصلها عن بغداد ، قـد بقيت متصلة بها[5] • وفي عـام ١٨٣٥ م (١٢٥١ هـ) فصلت ماردين عن العـراق وضمت الى ديار بكر • ثـم الحقت الدويلات الكردية بالموصل وكركوك كلما كانت تقع في حوزة النفوذ التركي بالتدريج • وغدت الموصل في ١٨٥٠ م (١٢٦٧ هـ) سنجقاً تابعاً لبغداد في الوقت الذي أصبحت فيـه البصرة (السنة نفسها) أيالة مستقلة • وبعـد اثنتي عشرة سنة قل شأن البصرة فجأة فاصبحت متصرفية ، ثم عادت فارتفع شأنها ثانية في ١٨٧٥ م (١٢٩٢ هـ) •

ويعد تاريخ الادارة نفسها سجلاً للتطبيق الجزئي الذي طبقت به الحكومة المعاصرة يومذاك قوانينهـا المتحررة نسبياً • فقـد بقيت الاصلاحات المتطرفـة (الاسمية في كثير من الاحايين) التي جاء بها السلطان محمود الثاني نافذة الفعل حتى وفاته في ١٨٣٩ م (١٢٥٥ هـ) • وفي تلك السنة أعلن السلطان الحديث ، عبـد المجيد ، في « خط ـ ي ـ شريف گولخانة » الشهير التنظيمات الاساسيـة للحكومة المدنية وعاهد نفسه على اتباعها • فكانت هذه ـ المعروفة فـي تركية بال « تنظيمات » ـ دستوراً للحكام في الولايات ، وقد أكدها ثانية فيما بعد ، مع شيء

وكان توزيع المبالغ هذه بين مجتهدي كربلا والنجف من اكثر واجبات المقيم دقة • واستمرت على تلك الحال حتى الحرب العامة •

(٥) هذا ما يرتأيه صاحب « مرآة الزوراء » •

من الاضافات ، في الـ خط ـ ي ـ همايون " لسنة ١٨٥٦م (١٢٧٣هـ) • الا ان هذه الاصلاحات ، التي أحلت في الحقيقة الرأي الغربي في الحكومة محل الرأي التركي ، لم تتسرب الى العراق الا ببطء ولم تنتج هناك نتاجاً يتفق وعظم شأن المبادىء التي دعت لاجرائها • وكان تنظيم الجيش قد بدأ بداية حسنة من قبل ، لكنه بقي ناقصاً غير كامل ردحاً طويلاً من الزمن : فبقيت تجهيزات الجنـــد المضحكة على اختلافها موضع تسلية السياح وتندرهم لعدة سنين ، بينما مســخ أصول تدريبهم الى حد التلاشي تقريباً خلال عملية نقله من باريس الى العراق • اما التجنيد الالزامي الذي طبق في الموصل سنة ١٨٣٥ م بصرامة خطيرة خالية من الرحمة فلم يحاول تطبيقه أحد في جنوبي العراق قبل سنة ١٨٧٠م (١٢٨٧هـ) • وظل جيش " الهايتة " البائد غير النظامي ، المستمر في ظل النظام الجديد ، مصدراً للنقمة التي حاول الجميع من غير جدوى التخلص منها بالـ « تنظيمات »•ولم تشاهد في بغداد ، ولا في الموصل ، أية علامة من العلامات الدالة علىمجموعة الاصلاحات التي أدخلت في أجـزاء الامبراطورية الاخـرى حتى حل عهد نجيب باشا في ١٨٤٢م (١٢٥٨هـ) • فأصبح واضحاً منذ ذلك الحـــين بأن كل سوء استعمال يتأتى عن الفوضوية وفقدان الامن ، بوجود قوات غير كافية بالمرة لقمع كل مايحدث (مثل ما تفعله العشائر حينما تساء معاملتها بالوهن المفعم بالعجرفة والتغطرس ، أو ما يقوم به السكان بوجه عام عندما تدمرهم أساليب الجباة المطبقة بطرق غير مستندة الى أسس اقتصادية سليمة) كان يمكن أن يكون متماشياً بسهولة مع الحكومة التي دخل عليها الاصلاح •

وفي الحين الذي نجد فيه ان بعض الارتكابات المالية وسوء التصرف قــد تلاشت ، وان المناصب التاريخية ـ ومنها منصب الكهية نفسه ـ قد أصبحت غـير ملائمة لروح العصر ، نجد أن العهد الجديد لم يأت بما يعد تقدما كبيراً بالنســبة للعهد السابق اذا كنا نعد ان التقدم أو النجاح الحكومي يقاس بمقدار حـــرية الرعايا ورفاهيتهم • ذلك لأن مستوى الامن بقي منخفضاً ، كما بقي العدل نادراً ، والجباية فظيعه ، والحكم خالياً من الفطنة • على أن بعض التقدم قد حصل حقيقةً في عدة من النواحي • فقد وضعت القواعد والمستويات مهما كانت بعيدة المنـال ، فكثر تعيين الرجال للمناصب العالية ممن عندهم شيء من الثقافة العقلية الحديثة •

وزاد الاتجاه نحو العناية بالاختصاص فى مختلف الوظائف • فظهر للوجود ، فى الحقيقة ، هيكل حكومة منصفة تنتظر حاكماً يمكن أن ينفخ فى هذا الهيكل الحياة بما عنده من قابلية ونيات حسنة • وقد حصل التقدم أيضاً فى تحديد السلطات المحلية ، لكن هذا الاجراء حتى لو كانت الحاجة ماسة له ، فى العراق نصف المتوحش ، فانه فى كثير من الاحيان كان يحرم الحكومة من أسرع أسلحته وأكثرها تهيؤ •

وقد جعلت الحقبة نفسها مختلف مظاهر الحكومة فى الولاية ، مما كانت قد تعودت عليها الولايات الاخرى ، شيئاً واضحاً فى العراق • فقد توسعت فيه طبقة الموظفين الاعتياديين - الافندية - الذين حلوا محل القدامى من الباشوات الجائرين وكأن الولايات قد وجدت من أجلهم • وكان اولئك الخدام العامون ، الذين سلمت الوظائف الحكومية بأيديهم وحدهم ، يقرأون ويكتبون من دون أن يتعلموا أشياء أخرى ، ويتصفون بالرجعية لكنهم متأدبون بالآداب الاجتماعية المقبولة ، ومتزيين بمجموعة مضحكة من الملابس الأوربية ، وكانوا حريصين دقيقين لكنهم يغرقون في المجاملات بالكتب الرسمية ، وبعيدين كل البعد عن روحية الخدمة العامة • أضف الى ذلك أنهم كانوا لا يقيسون الناس الا بمقاييس الطبقة التي ينتمون اليها ، ويحتقرون القبيلة والفلاح ، ويصرون على التكلم بالتركية بين العرب • وأخيراً فقد كان الفساد متفشياً بينهم جميعاً تقريباً والرشوة مستفحلة بين ظهرانيهم • وقد جاءوا بمزيد من الأسماء التي كان يهزأ بها غلادستون ، والقوانين الساذجة غير المشرعة على الوجه المطلوب ، التي قوبلت بالثناء الحسن في أوربة والاستبشار في بغداد ، وبمزيد من المجالس والاختام والسجلات ، والاساليب التي كان يمكن أن يستخدم بموجبها أي عدد من الموظفين الذين يساء دفع الرواتب لهم ، وتؤجل بحسبها أية معاملة الى أجل غير مسمى •

ومع جميع هذه الخيبة في الاصلاحات ، وهذه العيوب التي كان لها في هذا العصر مرتع خصب ، فانه قد عرف بالتقدم الحقيقي الذي حصل في جهات أخرى • فقد لاقت خطة السلطان محمود في القضاء على البيكات المستقلين " دره بيكي " نجاحاً لا يستهان به • واقتطفت في الموصل وفي كردستان نتائج مهمة ، كما قضي في عدة من البلدان العراقية الاخرى على الاوضاع الشاذة •

غير انه قد ثبت ان القيام بهذا الواجب بين القبائل كان أمراً شاقاً ، ولم تحدث معالجة الوضع غير إعضال المرض واشتداده .

شخصيات هذه الحقبة

بقي علي رضا باشا رأساً للحكومة في بغداد وملحقتيها البصرة وكركوك مدة إحدى عشرة سنة . وقد أبدى خلال اشتغاله في هذه المدة شيئاً من حرية الفكر . وكان كرمه مضرب الامثال ، كما كانت سماجته مختفياً قسم كبير منها وراء اعتداله . وكان يتلاءم مع دعاة التقدم من الاجانب ، لانه كان خلواً من التعصب والاندفاع بالكلية . يضاف الى ذلك انه كان ذا أخلاق سامية ، وله رغبة في عمل الخير الحقيقي ، زيادة على ميوله الادبية والعلمية . على انه كان حاكماً فاشلاً حقاً ، فقد كانت خطته الوحيدة في حكم القبائل ان يحرك قبيلة على أخرى . وكان كسله وسمنه المفرط يمنعانه عن إجهاد نفسه في العمل ، فأصبح بذلك مضطراً للخضوع الى أسوأ المشاورين . ولم يكن قادراً على ضبط المدن ولا القبائل ، ولا قواته الخاصة غير النظامية .وقد عرفت أول سنة حكم فيها بغداد بعصيان عبدالغني المفتي[٦] . وحدث في ١٨٣٣ م عصيان عبدالعزيز متسلم البصرة السابق فلم ينتج شيئاً . ويدلنا تفشي الطاعون مرات عديدة خلال مدة حكمه على ان حكومته لم تتعلم من هذه التجارب كيفية مكافحة هذا المرض الوبيل بالحجر الصحي . اما في الامور المالية فقد وجد على عهده العسف في الجباية وفراغ الخزانة في صعيد واحد . وعلى هذا يمكن القول ان علي رضا باشا لم يفز بالذكر الحسن إلاّ بنجاحه في خلع داود باشا ، وبسخائه في منح الاراضي . وقد تزوج في بغداد ، ثم نقل الى سورية في سنة ١٨٤٢ م (١٢٥٨ هـ) .

وأعظم منه شأناً وشخصية محمود باشا الملقب « أينجه بيرقدار » [٧] ، الضابط

---

(٦) وهو جد أسرة آل جميل المعروفة اليوم في بغداد . وكان داود باشا قد عينه للافتاء بعد ان دعاه من الشام ، وقد اختلف مع علي رضا باشا (اللاز) هذا لما ظهر من رجاله من تعسف ومضايقة لبعض الأسر البغدادية بقصد ابتزاز المال . وكانت نتيجة ذلك ان أحرقت دار المفتي وضاعت خزانة كتبه الثمينة فاضطر الى النزوح الى الخارج — المترجم

(٧) أي « حامل العلم » النحيف

المجازف الذي كان ينتمي الى القوة غير النظامية . وكان قد عينه في باشوية كركوك علي باشا نفسه . فلقد حكم هذا الرجل القاسي في الموصل منذ ١٨٣٥ م ، فكان همه الوحيد هناك تحطيم الدويلات الكردية الصغيرة ، وهو عمل خطير سنأتي على تفصيله في غير هذا المكان . وتمكن من توطيد الامن في الموصل وفي الطرق المحيطة بها ، ثم نفذ الخدمة العسكرية بالرغم من المعارضة الهائلة التي لقيها في ذلك . وقد فتح شوارع جديدة ، وشيد مخزناً للاسلحة وثكنة ومستشفى ، كما حقق السلم والعدالة ، بطرق قاسية ، بين اناس لم يكونوا يعرفون شيئاً عن « التنظيمات » بعد . وقد توفي في ١٨٤٣ م فنفَّه موته عن الكثيرين ، وخسرته ولايته . اما أخلاقه في الحكم فيجد القارىء الشيء الكثير من أخبارها في ما كتبه لايارد .

ووقعت ولاية بغداد في ١٨٤٢ م الى نجيب باشا ، وهو من أسرة كبيرة في استانبول ومن المقربين الى السلطان . وكان لهذا الباشا ذكاء وشجاعة وحيوية خارقة . غير ان روحه القومية انقلبت الى كره راعب للأجانب عنه . ولاجل ان يحصل على المال لنفسه في الغالب ، عاد لاستعمال طرق الجباية الخالية من بعد النظر تماماً المبيدة للناس . وكانت غطرسته تغيظ القبائل مع ان قواته كانت عاجزة عن تهدئة القلاقل التي كان يسببها هو بنفسه بين ظهرانيها . ولم يحل عنفه دون أخذه الرشوة ، ولا تدبره دون تعصبه الذميم . وتستغرق أقسام أخرى من هذا الفصل البحث عن أهم الحوادث الواقعة على عهده . وقد تبعه ، بعد باشويتين[٨] قصيرتي الامد لا شأن لهما ، أول تعيين جرى لنامق باشا في ١٨٥٢ م (١٢٦٩ هـ) .

وبعد سنة تولى الحكم رجل لا يزال ذكره مشرفاً وهو محمد رشيد باشا الملقب بـ « گوزلگلي » أي « صاحب النظارات » . وقد كتب لهذا ان يموت في بغداد بعد مضي خمس سنوات تقضت بالحكم النزيه الصارم الحر . ولم يشاركه أحد في المجهودات الحقيقية التي بذلها خلال مدة حكمه لحل المشاكل ، كما لم تكن المعضلات التي لقيها فحلها لتحل بوقت قصير كوقته ولا بموارد شحيحة مثل موارده . واستبان في أيامه ان الحكومة الحديثة التي أدخلت عليها الاصلاحات كان من الممكن أن تطبق بصورة معقولة فتنجح في العراق . فقد كان يلح على موظفيه

(٨) عبدالكريم نادر « عبدي » في ١٨٥٠م ، ووجيهي في ١٨٥١م

في أن يعملوا بنزاهة ، وحاول مكافحة الفساد العام المستحوذ على كل شيء ، ثم كثرت في أيامه الواردات لانه حال دون الاكثار من النهب والاختلاس ، وحقق موردا دائما للتصدير بنقل الحبوب الى الحجاز . وكذلك شق الترع العديدة للاسقاء والترويه . غير انه ضويق كثيرا من استانبول لوجدان المال الكثير والارسال به للحكومة المركزية التي كانت مشغولة بحرب القرم . اما خلفه عمر باشا الملقب ب « سردار أكرم » فقد خلف لنفسه ذكر الجندي الصالح الصارم في مصلحة الحكومة على الطراز القديم . وقد مصرت مدينة العمارة في زمانه . ولم يشتهر الباشيان[9] التاليان لهما بشيء . ثم رجع نامق باشا ثانية في ١٨٦١م (١٢٧٨هـ) فحكم مدة سبع سنوات . وكان نامق ذا صرامة كصرامة نجيب ، وضيق التفكير مثله أيضاً . فقد أظهر ثباتاً فائقاً في خطة تفكيك القبائل بالرغم من فقدان الوسائط اللازمة للقيام بتنفيذ هذه الخطة الواسعة . وعلى هذا أدى الاضطراب المؤلم ، الواصل لحد الفوضوية ، الذي ولدته حملاته ، الى خراب البلاد والاساءة الى القوي من بين القبائل . وكان ضابطه المشهور شبلي باشا رئيس عصابة قديماً . على ان نامقاً يذكر اليوم لا بأفعاله الدالة على الخرق ، ولا بخيباته وفشله المتكرر ، بل بتشييده الابنية العديدة التي بدأ بها في بغداد ، فأكملها مدحت باشا من بعده . وكثيراً ما تروى القصص عن أموره المالية المضبوطة التي تمكن بها من تحويل المبالغ الجسيمة الى السلطان عبدالعزيز في استانبول ليدر بأنفاقها على قصوره المشيدة . وحكم بعده عدة شهور تقي الدين ، وهو حاكم كركوك السابق . ثم تبع هذا مدحت باشا فدخل بغداد في آخر يوم من شهر نيسان لسنة ١٨٦٩م (١٢٨٦ هـ) .

توسيع الحكم المباشر

لقد اتخذ هذا التاريخ بوجه عام موقفاً تجاه الحكومة التركية امتنع فيه عن الثناء الحسن بأوسع معانيه . فان كان خلع البيكات الاكراد عن عروشهم التي كانوا فيها مدة طويلة ، وهم بين مستقل أو تابع ، يعد تقدماً يستبشر به فانما ذلك هو تقدم من وجهة النظر التركية فقط . ذلك لان حكم الافندية الحديثين مع جيشهم « الهايته » و « ضابطيتهم » لا يمكن ان يعد تحسناً عن ذي قبل في نظر

---

(٩) مصطفى نوري ١٨٥٩ ، وأحمد توفيق ١٨٦٠

الفلاح أو الراعي ، أو من حيث نفوذ البحدينان والبدرخان • على انه لم يكـن بوسع أية حكومة امبراطورية ان تتحمل ، بعد الدروس التلقينية التي القاها السلطان محمود ، وجود الامراء الوراثيين في ضمن حدودها وهم بوضع نصف عـدائي ونصف مهين • وبالرغم من ان الحقيقة هي ان الاتراك كانوا غير قادرين على حكم السلالات الموصلية والكردية ، وانهم كانوا مشغولين بقضايا كثيرة أخرى غــير قضاياهم ، فانهم لا يمكن أن يلاموا على ما فعلوه بهم • حيث ان الســهولة التي انهارت بها تلك السلالات تدل على اضمحلال حكامها الاقدمين •

وفي اللحظة التي كان السلطان المصلح ينظر نظرته الى العراق في الجنوب والشرق كانت الاسرة الجليلية قد كتب عليها الزوال • فقد سبق ان وهن حكم هذه الاسرة للموصل بمعارضة العناصر الاخرى لها • وقد وجد علي رضا في ١٨٣١ باشا عمرياً يحكم الموصل أعقبه آخر من أهل حلب • فكان يحيى ، آخر الجليليين[١٠] ، قد أخذ الباشوية قسراً في ١٨٣٣ م (١٢٤٩ هـ) ، ثم أضـاعها بالقوة في ١٨٣٤ م ، فكانت هذه النزاعات الدموية تدل بتأكيد على أن تبدلا كائنة ما كانت صفته ظل ممكناً وهيناً • فعين الأينجة بيرقدار في ١٨٣٥ م ، وأصبحت الموصل في يوم واحد ولاية اعتيادية • وانخرط بذلك الجليليون الانف[١١] في عداد ملاكي الاراضي من الاشراف •

وكان ظهور رشيد باشا ، الصدر الاعظم ووالي سيواس الاسبق ، في ديار بكر وهو يقود جيشاً في ١٨٣٥ م منذراً بسقوط كثير من العروش الكردية • فقد قمع الاضطراب في ماردين المشاغبة ، وفصل تلك المنطقة فصلا دائماً عـن الموصل فألحقها بديار بكر ، ثم قبض على صفوك العظيم وبعث به الى استانبول • وبعد ان أدب تلعفر سار عبر دجلة متوجهاً الى هدف أعظم • وقد آزر حملتــه البيرقدار من الموصل وعلي رضا من بغداد فأرسلا له ارتالا من الجيش في وقت واحد •

وكانت دويلة رواندوز الصغيرة قد انتقلت في حدود عام ١٨١٠ م (١٢٢٥ هـ) من يد أوغوز بك الى مصطفى بك وهذا ، بعد ان حارب البابانيين حرباً غير منقطعة ، تزوج منهم زواج حلف ثم انصرف الى توحيد مملكته فوحّدها وحكمها بحكمة ،

---

(١٠) اعني آخر من حكم منهم ، لان كثيراً ممن ينتمون للاسرة لا يزالون في الموصل (١١) الانف جمع «الانوف» •

وأخذ الحكومة محمد بك ـ أي مير محمد ـ من يدي والده الواهنتين قبل وفاته . ومات مصطفى[12] في ١٨٢٦ م ، وتبعه محمد (المعروف بـ" كور " أي الأعور لا صابته بعلة في احدى عينيه) ، وقتل عميه في الحال . وقد ظهرت مزايا « البك الاعور » في سلسلة غير منقطعة من الفتوحات . فقد أخضع الشيروان الاقوياء وقبائل البرادوست في الشمال ، وقلل من نفوذ السورچي ، ثم طرد الحاكم البابانى من حرير ، وأخذ أربيل وآلتون كوبري ، ونصب أقاربه في هذه الاماكن . واقتطعت رانية وكوي من البابانيين ، وأصبح الزاب الاسفل هو الحد . وقد اضطر علي رضا الى الاعتراف بهذه السلطة الجديدة ، فرفعه الى مرتبة الباشا . وفي أوائل ١٨٣٣م سار محمد الى عقرة ، وأخذها بعد ان حاصرها ، ثم طرد حاكمها اسماعيل باشا . وبعد ان خلع من العمادية سعيد باشا[13] بسهولة نصب في حكومة أصقاع البهدينانية أخاه واسمه رسول . وأصبحت دهوك وزاخو من توابع امبراطوريته فأقام فيهما الضبط غير الخاطىء بقسوته العادلة ، ولم يكن مثل هذا الضبط معروفا قط في مثل هذه الاصقاع . وقد كان الكل يقايس هذه الحالة بالفوضوية والارتباك اللذين كانا سائدين في العراق . وبعد ذلك غزا في جبل سنجار ، وضرب قرى قريبة من الموصل ، واحتل جزيرة ابن عمر ، وأفزع البدرخانيين في حسنكيف ، وكذلك هددت نصيبين وماردين نفسها . غير ان هذا كان حده الذي وقف عنده . فان ظهور رشيد ، الذي اُنتقي لكبح جماحه أو القضاء عليه ، اوقف تهديداته في الحال ، وأرخى العرى التي كانت تربط بين أجزاء امبراطوريته المشفية على الفناء ، وسر اعداءه وخصومه . فتراجع الكردي الأعور الى عاصمته ، وقد كان مخيفاً دائماً أكثر مما كان محبوباً . ثم خانه كثير من أتباعه بحيث لم يستطع الاستفادة من التنافس المبني على الحسد الذي نشأ بين رشيد وعلي رضا ، واستسلم في الاخير بعد ان اعطي أوثق العهود بأن يعامل بالحسنى . فأرسل الى استانبول وتوقع الكثيرون انه سيعود تابعاً تركياً ، الا انه اختفى بدلا من ذلك بصورة سرية وذهب ضحية للحذر التركي والخيانة التركية معاً .

---

(١٢) هناك شك لابد منه بأن الأمر فيه تلاعب مشين .

(١٣) لقد زاره الدكتور روس الذي كان في مقيمية بغداد حينئذ (فريز ج١ ص ٦٨) .

وبذلك رجع الموظفون الاتراك ثانية الى أربيل وآلتون كوبري • وانتعشت برهةً ما العمادية ، الا ان البابانيين لم يستعيدوا عزتهم • وبقيت رواندوز يحكم فيها أخو الباشا الأعور ، وحل في الجزيرة متسلم محل البك • وفي ١٨٣٧م (١٢٥٣هـ) سحق جند جاء من خارج العراق ، يقودهم حافظ باشا ، اليزيديين في سنجار ثانية ، وتولى في ١٨٣٨ م الأينجه بيرقدار اتمام العمل غير الكامل في كردستان • فاُلحقت ، في الاخير ، العمادية بعد ان حوصرت ، ثم تبعتها عقرة ودهوك • وعلى هذا أصبح الحكام الاكراد وأُسرهم من المحالين على المعاش غير الضاربين في الموصل وبغداد • فظهر الموظفون الاتراك والهايته في القرى الكردية ، وكان ظهورهم في بادىء الامر في أيام آخر الحكام المحليين ، وأخيراً حلوا محلهم • وكان الوضع الجديد هذا متقلقلا ، اسمياً ، ولم يكن فعالا بين القبائل وفي الجبال النائية الا بلأي وصعوبة • فقُضي على أغلب ما كان يلم شعث الامة الكردية على كل حال •

وظل الآخرون بضع سنوات أخرى • ففي امبراطورية الملين القبائلية المركبة (التي أورثها تيمور أيوب) صمد تيماوي بك ، حفيد المؤسس ، للضربات التي أنزلها رشيد باشا في القضاء على أبيه في ١٨٣٤ ، ثم استعاد سطوته عندما ضعف الاتراك بانتصارات المصريين في سورية • وكذلك بقي ابنه محمود بالرغم من عداوات والي ديار بكر الموجهة عليه ، وترك لوارثه الشهير ابراهيم باشا اتحاداً قبلياً قوياً في أوائل أيام السلطان عبدالحميد • وفي جنوب الزاب الصغير قاوم البابانيون حتى سنة ١٨٥٠ م • وقد مر بنا في مكان غير هذا ما كان من أمر النزاع المبيد الذي كان مستعراً بين أبناء عبدالرحمن باشا • فقد استعاد سليمان الحكم في الاسابيع الاخيرة من عهد داود باشا • وفي ١٨٢٣م طردته القوات الايرانية ، الا انه عاد فظهر ثانية وحكم سبع سنوات أخرى في أودية شهرزور التي اجتمع عليها الطاعون ، ثم الضعف والفوضوية اللذان أعقبا النزاعات العائلية ، ونهوض رواندوز ثم سقوطها ، فأوهن فيها القوى وأخلاها من السكان • وبقيت حامية ايرانية في السليمانية حتى سنة ١٨٣٤ م • ومن ثم فُرض على المملكة البابانية عندما استعادت سطوتها (ولم تكن نافذة الفعل الا في عاصمتها) ان تجند عدة من السرايا على الطراز الحديث • وقد تمادئ اولو الامر في هذه المحاولة المتأخرة المهمة في تكوين

جيش عصري حديث حتى في أيام أحمد باشا الذي انقطع أمد حكمه لسنة[14] واحدة في ١٨٤٠م بعودة عمه محمود باشا • فأثار الجيش الايراني ، الذى أعاد هذا المحارب القديم ، عاصفةً ديبلوماسية باستيلائه على أراض كانت تعد عثمانية • وقد قيل ان الشاه نفسه أوعز بذلك في الوقت الذي كان يطمع في أكثر من كردستان • وعند انسحاب الايرانيين تولى الحكومة البابانية ثانية أحمد نفسه • وفي ١٨٤٢ م (١٢٥٨ هـ) أدت التدابير ، المشكوك في أمرها ، التي اتخذها في نزاعات الحدود الى تنحيته وأخذه الى بغداد • وقد رُتب ان يخلفه قادر باشا ، حفيد مؤسس السليمانية ، الا ان عبدالله أخا أحمد ، نازعة هذه التولية • وفشل استيلاء ايراني كان يقصد به اعادة محمود بمعارضة عبدالله أيضاً ، ولذلك بقي عبدالله هو الحاكم حتى عاد أخوه أحمد عندما استبدل بباشا بغداد باشا آخر • وكان نجيب باشا يأمل القضاء على هذه السلالة بتشجيع الاختلافات والنزاع بين أفرادها • فنجح في ذلك ، وفضل عبدالله ثانية على أخيه فأعطي السليمانية مع رتبة قائممقام • وكان البابانيون يدفعون الاتاوة الى بغداد كما كانت الاجناد الاتراك في السليمانية قبل عدة سنوات ، وفي هذا الحين أيضاً أكثرت نسبتها وزيد عدد الجند في الحاميات الامبراطورية • فدنت النهاية بحلول عام ١٨٥٠ م عندما حل اسماعيل باشا ، القائد التركي ، محل آخر البابانيين • وبذلك غاب عن كردستان البيت الذي حكم بسطوة وشهرة ، مدة قرن ونصف ، اصقاعاً منها مترامية الاطراف • فخلي المجال للتعليمات المدونة في الورق ، وللموظفين الجبناء الذين يباعون ويشرون بالمال ، وللاستغلالية الواهنة ، واللغة التركية الغريبة •

اما في غير كردستان فقد كان الاتراك في الوقت نفسه يظهرون العزم في الحكم • فقد كافح علي رضا في بغداد نفسها لطرد العقيل من الضاحية الغربية التي تغلغلوا فيها وصاروا سكاناً وسادة ، وذلك في ١٨٣٣ م (١٢٤٩ هـ) • وفي ١٨٤٧ م (١٢٦٣ هـ) طهّر نجيب باشا محلة باب الشيخ من العناصر الخبيثة التي طالما أبدت مقاومتها للحكومة • وفي ١٨٤٣ م وقعت حادثة العقاب الشديد الذي أُنزل في كربلا • ولو تطلعنا ببحثنا الى كربلا في هذا العهد لرأينا انها كانت منذ عدة سنوات ، وقد صار نصف سكانها من الايرانيين ، ملجأ للهاربين الخبثاء من

---

(١٤) لسنة واحدة أي بعد سنة واحدة

ماردين الى المحمرة ، وبذلك كانت بعيدة عن حكم الحكومة التركية تقريباً ، فلم يتسن لداود باشا ولا لعلي رضا الدخول اليها • وآلت في سنة ١٨٤٢ م حكومتها الداخلية الى رؤساء العصابات من " اليرماز "[١٥] الذين كان يخضع لسوء تصرفهم العالم المجتهد والحاكم على حد سواء • وقد الزم نجيب باشا في أواخر ١٨٤٢ م البلدة بقبول الحامية التركية وبقائها فيها ، فرفضت وتبع ذلك الرفض الحركات العسكرية • فدوفع عن البلدة بكل حماسة ، وأعقب العراك في البساتين المجاورة حصار منتظم كانت نتيجته ان دخل الجند الاتراك البلدة ، فارتكبوا فيها شناعات كثيرة سرعان ما بولغ فيها ، ففزع من ذلك الايرانيــون والديبلوماســيون في استانبول • ولم تكن الحالة في النجف بأحسن منها • فان فريقيها المتخاصمين ، وهما فريقا الزكرت والشمرت ، لم يعبأ بالباشا ولا بالسلطان ، وكان كل شيء في المدينة يجري بموجب فتاوى المجتهدين النافذة ورغبات الرؤساء • وقد أدى نزاع اعتيادي في البلد ، في ١٨٥٢ م (١٢٦٩ هـ) ، الى ثورة • فخفت القوة التركية ، وبعد عراك شديد في الشوارع دام يوماً واحداً تمكن الاتراك من انزال العقاب بالبلدة وكان كالذي أنزل بكربلا من قبل ، ولكنه أقل شراسة • وقد وقع مثل هذا الحادث في ١٨٥٤ م عندما بعث نامق باشا ضابطاً من قبله فدخل البلدة قسراً بالرغم من قوة الفريقين الموحدة •

سياسة القبائل ١٨٣٨م (١٢٥٤ هـ) - ١٨٦٩م (١٢٨٦ هـ)

سيعلم قارىء هذه الصفحات علماً يقيناً ، بدلا من ان يظن ، ان حل الدويلات الكردية والضربات القاسية التي ضربت لاصلاح حال العتبات المقدسة كانت شيئاً كافياً لادخال هذه الاماكن في جهاز الحكم التركي المنظم • على ان سطوة السلطان امتدت الى أبعد مما كانت عليه بنتيجة الحركات التي كانت جارية خلال الثلاثين السنة هذه ، وان كانت معارضتها قد بقيت موجودة بجميع عناصرها ، فانهـا قـد أصبحت أقل فعالية وانتظاماً منذ ان زال البيكات المستقلون وقضي على عصابات اليرماز •

---

(١٥) تعنى كلمة « ياره ماز » بالتركية السفهاء الذين لا يصلحون لشيء • وكان هؤلاء هم الهاربون والمجرمون والعصاة الذين وجدوا في كربلا ملجأ لهم وكان عددهم عدة مئات يقودهم رؤساء بارعون •

وكانت سياسة القبائل في هذه الحقبة شبيهة بالسياسة التي اتخذت مع غيرهم من حيث الغاية ، فان مشكلة القبائل كانت من أخص المشاكل التي يصادفها حكام هذه البلاد ، وكانت ماهية هذه المشكلة العويصة معروفة بايضاح منذ مدة ، وليس عندنا ما نضيف هنا الى ما بيناه حتى الآن في أحوال القبائل وحالتها ، فما زالت هذه القبائل (في جنوب العراق عامة) تحث وتستفز من جانب المجتهدين على الاتراك ، وتعارض من حيث المصلحة أية حكومة منظمة تحكم في البلاد ، ولا تطلب شيئاً من الحكومة التي تضغط عليها في جمع الضرائب دوماً وأبداً ، وتفضل العرف العشائري على أية محكمة أو عدالة ، وهي سلفية بالكلية ، وجائعة بحيث لا تفوتها فرصة تسنح لها للحصول على مغنم ، ومتوحشة لا تقيم للمعنويات وزناً بحيث لا تحافظ على ما يعقد معها من معاهدات ، ولا تعبأ بالتوافق ولا الاتفاق على شيء ، وتظل أبداً ودوماً سيدةً في الطرق والانهر والريف اجمع الا المناطق الضيقة ، لانها تعود الى وضعها من دون تبدل يذكر برغم المئات من حوادث التأديب التي تفرض عليها ، وقد كان بقاؤها على مثل هذه الحال وهذا المقياس لا يناسب وجود أية حكومة تستحق ان يكون لها اسم تحت الشمس كما كان يراها بحق باشوات هذه السنين ، وعلى هذا كانت المعضلة على جانب عظيم من الصعوبة ، وقد زادت ثلاثة قرون من الحكم السيء في استعصائها ، وأصبح حلها من أصعب الأمور على الاتراك من بين جميع الامم الحاكمة .

ومن المحتمل ان عدة طرق لحل هذه المشكلة كانت قد تكونت في الاذهان ، الا ان العقلية التركية ما كانت تعد رجال القبائل الا وحوشاً كواسر يعارضون الحكومة قصداً للاذى والتشميت ، والحق ان منازل هذه القبائل كانت عبارة عن مجتمعات ساذجة ما يزالون يعيشون فيها عيشة (بعيدة عن كل ما تستوجبه الحكومة من أمور) لايمكنهم ان يتصوروا غيرها ، ولم يتقدم أحد لينير السبيل لهم نحو عيشة أخرى ، ولذلك فقد كانوا يرتطمون ، وهم مدفوعون بدافع تفكيرهم القبلي ، الوف المرات بهذا الشيء الاجنبي عنهم الذى يقال له الحكومة ، ومع هذا لم تتصد لهم اية حكومة فتناشدهم بقولها : " كفوا عن عيشتكم هذه ، وعيشوا على الطريقة الحسنى التى سنجعلها موفورة لكم " ، فالحل الحقيقي لمشكلة العشائر الازلية الذي كان يجب أن يتبع فى تفكيك القبائل هو انَ تهيأ لهم حياة أخرى غير حياتهم،

حياة يكون في امكانهم قبولها وتفضيلها ، لا ان تنزل بهم ضربات موجعة بين حين وآخر . وكان الجواب الحقيقي عن اللغز الذى كان يقف امامه نجيب باشا ونامق باشا بحيرة هو : « وطنوا قبائلكم فى الارض ، وساعدوهم على استقائها بشق الترع ، وأمنوهم على تملكها ، وأجمعوا منهم الضرائب الخفيفة بعدالة ، ولا تسمحوا بوقوع تعدٍ على من توطن منهم ، ثم كافئوا بسخاء وعاقبوا بروح اصلاحية » .

على ان طريقة الحل هذه لم تتخذ . بل جاهد باشوات ذلك الزمن — وهم المتعاقبون — غير المتساهلين — في سحق الحياة الموجودة فى القبائل بثقل السلاح . فنبذوا الطرائق حتى الطريقة الاستغلالية القديمة ، وولوا شطرهم نحو قلب الوحوش المتمردة الى « مواطنين » طائعين بكل عنف وشدة من غير ان يبينوا لهم كيف يعيشون عيشة أخرى غير عيشتهم ، ولا ان يعلموهم الطرق التى تقنعهم بوجوب الطاعة . فبقي رؤساؤهم يرون بأمهات رؤوسهم غدر الحكام الاتراك وضعفهم تارة ثم قسوتهم تارة أخرى . وظلوا يشاهدون المعاملة الجائرة التى يلقاها المتوطنون منهم الذين ينهبهم كل جاب من الجباة ويتغضب عليهم كل من يصل اليهم من «الضابطية» . كما ظلوا يرون الاستخفاف بهم مع غطرسة الاتراك وازدرائهم المهين . وقد رأوا ذلك كله فتملصوا من الخطر الذي جاء يسلب حريتهم فيقدم لهم بدلاً منها أهوال الحكومة . وعلى هذا فان سياسة تفكيك القبائل والقضاء عليها بصورة هادمة كان لابد من فشلها على كل حال ، وقد فشلت فى هذه الحقبة من الزمن لاسباب خاصة وأخرى عامة . لان محاولة تنفيذها كانت قد جرت باستخدام قوات أقل بكثير من القوات التى كان يستحقه هذا العمل الجسيم الخطير ، ومن دون أن توضع لها خطة ثابتة ، أو ان يكون لها تدبير منظم . وكانت النتيجة ان زجت الاصقاع العشائرية من العراق في أتون مشتعل من القلاقل ، وفى أحضان أسوأ ما يتذكره الناس من الفوضوية ، ودفع الفلاحون المتوطنون الى البادية من جديد ، وأنزلت البلاد الى أسفل دركات الضعف والتعاسة فى الوقت الذى ظهرت فيه أنواع المواصلات الحديثة .

وقد كان علي رضا باشا راضياً عن استمرار الطرق القديمة هذه فى حكم القبائل . فكان يستبدل أحياناً بشيخ المنتفك شيخاً آخر ، أو يجد خصماً لصفوك ،

أو يستخدم الشيخ وادي معتمداً وجامعاً للضرائب • وكان سوء تدبيره لأمور القبائل قد عرّض بغداد لحالات حصار وتحصن أكثر من مرة • فغدت قبائل عنزة وشمر والزبيد تجوّل حوالي السور وتطيف به وهي مشمئزة من تقلب الباشا ومتشوقة للحصول على كل ما يأتي به ضعفه اليهم • وقد رجع صفوك ، وكان قبض عليه رشيد باشا وأرسل به الى استانبول في ١٨٣٦م (١٢٥٢هـ) ، فنشر نفوذه على العراق من ماردين الى بغداد • وبقي كذلك حتى حل عام ١٨٤٧م (١٢٦٤هـ) فأمر نجيب باشا بقتله (بمكيدة) بعد قتل خصمه نجرس • وكان نجيب باشا أول داعية لسياسية تفكيك القبائل بصورة تدميرية وبالقوة • وقد اشتهرت باشويته بالحملات العشائرية[16] المتوالية • ففي ١٨٤٣م كان هدفه في التأديب الخزاعل وشمر ، وفي ١٨٤٤م الخزاعل وعنزة • وفي ١٨٤٥م قصد كردستان ، وقمع اضطراباً في النجف ، وأدب العبيد • واضطرب في تلك السنة بدو الحدود الفراتية ، وكذلك كانت عفك والمنتفك غير هادئة • ووقعت القلاقل في الجزيرة بعد قتل صفوك في ١٨٣٧م • وقام بنو لام في ١٨٤٩م منكرين تعيين شيخ منتفكي لجمع الضرائب من منطقتهم ، وهو تدبير على جانب عظيم من الجهل المطبق • وكانت شمر تغزو حول مدينة بغداد • ثم ثارت قبائل الهندية ، وكان وادي شيخ زبيد مسلطاً عليهم يومئذ ، بسبب جبايته الخالية من الرحمة وابتزازه للاموال • وقد سبب قمع هذه الثورة عداوة مرة بين نجيب وزميله العسكري الذي حل مكانه ، أخيراً ، فوفق بين جمهرة قبائل الهندية • وانتهى عهد نجيب تجلله الكآبة وتستفحل فيه الفوضوية القبائلية الخالية من الامل في العراق من أوله الى آخره • فلم تنتج سياسته ، المطبقة بمنتهى الشدة ، شيئاً •

وقد استمرت هذه الاحوال وهذه العلاقات التي لا أمل فيها • وجرت

---

(١٦) ومما حدث في عهد باشويته أيضا مذابح التياريين المسيحيين المشهورة في منطقة العمادية ، التي قام بها بكر خان (من اسرة جزيرة ابن عمر الحاكمة) ونور الله الشديد التعصب ، وكان ذلك في ١٨٤٣م • وقد تكرر وقوع مثل هذه الحوادث – التي احتج عليها السر ستراتفورد كانينغ في استانبول – بشيء من الاعتدال في ١٨٩٦م • وكان ينافسهم في هذه ، اذ ذاك ، الشيخ عبدالقادر في السليمانية

في عهد عبدي باشا حركات واسعة النطاق في الفرات حينما ذبحت القبائل ، في جملة تجاوزاتها ، حامية الكفل بأجمعها • ثم قوبل نامق باشا ، في باشويته الاولى ، بثورة عامة بين قبائل الفرات بقيادة وادي • على ان هدوءً نسبياً حل في عهد الكوزلكلي فدل على مدى المسؤولية ، التي تلقى على ما كان يبديه نجيب ونامق من تشدد أعمى ، مفعم بالغطرسة والتجبر ، بالنسبة لما حصل في أيامهما من غلو في الاضطرابات والقلاقل • وربما كان في سياسة الكوزلكلي الملحة في تنظيف الاقنية والترع شيء من السياسة الحكيمة الرامية الى توسيع الاصقاع المستوطنة وتزيد الواردات بسبب توسع الاراضي المزروعة واصلاح حالة القبائل تدريجياً بتوجيهها الى حديدة يعيشونها بدلاً من معيشتهم البعيدة عن حماية القوانين الذميمة • وحدثت في عهد « سردار ... م » ثورات أخرى بين قبائل الهندية والشامية ، وغزوات أخرى من جانب عنزة ، وتأديبات صارمة للهماوند[17]

وفي باشوية نامق باشا الثانية كانت الضرائب على القبائل تزاد[18] باستمرار ، وينقم عليها نقمة دائمة ، وتجبى بعنف وعسف وقوة • واقتُص من بني لام لمقاومتهم المستكنة • وقد أدت سنتان من الحرب في المنتفك ـ غايتها احلال قائم مقام[19] محل شيخ المشايخ ـ بعد انتشار التعاسة والفوضوية ، لتبديل سعدوني بآخر أي بتبديل فهد بمنصور • غير ان جميع مشايخ المنتفك اتفقوا ، بالرغم من تفرقهم وتناحرهم في سبيل المشيخة والوظائف الحكومية ، على مقاومة الايدي التركية التي كانت تعمل على ابتزاز امتيازاتهم القديمة ونقلها للاتراك • وقد أعقبت الحرب المنتفكية الطويلة حركات وجهت على الخزاعل فكانت عقيمة لا نتيجة لها • وتمادى الهماوند في غزوهم بأكثر من وقاحتهم المعتادة فلاقوا صفحاً غير مألوف •

المواصلات الجديدة

كانت ملاحة الانهر العراقية في ١٨٣١ تقتصر على الوسائط التى تأصلت في

(١٧) وربما كان هؤلاء ، وهم اشهر قبائل اللصوص في كردستان الجنوبية ، من الجاف في الاصل • وقد ظهروا في منطقة بازيان (بعد ان كانوا مقيمين في ايران من قبل) في حدود ١٨٣٠م •

(١٨) وخاصة في المنتفك

(١٩) وفي الوقت نفسه ضمت اراض سعدونية واسعة الى الحي والقرنة •

القدم قبل ان يشهدها هيرودوتس . فالاكلاك المسيرة بالجلود المنفوخة فى الزابين واعالي دجلة ، والشخاتير الخشبية المبسوطة المنتشرة ما بين بيرمجك والفلوجة ، والقفف المزفتة الموجودة في كل شريعة وفرضة (مرسى) ، والمشاحيف القصبية أو الخشبية المستعملة في الاهوار ، والسفن الشراعية التي تجر بالحبال فى دجلة الجنوبية وشط العرب ، و « مهيلات » الفاو العظيمة ذات حمولة المائة الطن ، كانت تؤلف كلها جميع وسائط النقل النهرية الموجودة فى العراق يومذاك . وكادت هذه الوسائط تظل سائدة فيما اتخذت له لو لم تتهيأ الفرص المناسبة والاختراعات الحديثة فتتضافر جهودها على ادخال الوسائط الحديثة فى النقل . ولقد كانت السفن البخارية شيئاً جديداً ظهر في العالم ، وكانت بريطانية العظمى تواقة الى وجدان طريق أسرع تصل به الى ممتلكاتها النائية فى الهند .

وقد بانت طلائع المواصلات الحديثة ـ المساحون ـ أول مرة فى العراق في أيام داود باشا . فكان مساحان من مسّاحي الاسطول الهندي يعملان في العراق فى سنة ١٨٣٠م . واستطاع الكابتن جيزني ، في أواخر أيام هذه السنة ، أن ينزل فى الفرات من القائم الى الفلوجة . ومن بعد ذلك اشتغل المساحون الثلاثة معا بمسح الانهر فكانوا معجبين بقابليتها للملاحة . وقد صرح الكابتن جيزني المذكور ، بتشجيع وليم الرابع ، امام « لجنة الملاحة البخارية » فى مجلس العموم سنة ١٨٣٤م بتصريحات مهمة ، فأدى ذلك لتجهيز حملة على رأسها الكابتن نفسه ، وانفقت عليها الحكومة وشركة الهند الشرقية معاً . وصادف فى الوقت ذاته ان زالت حكومة المماليك من بغداد ، وأخذ علي رضا فى ١٨٣٣م يفكر فى أمكان اجراء السفن البخارية في أنهره . لكنه تسلم فى أوائل ١٨٣٥ الفرمان الصادر ـ باسلوب تأففي ـ بالسماح لبعثة جيزني بالعمل .

وبدأت رحلة الباخرتين « دجلة » و « الفرات » من بيرمجك فى نيسان ١٨٣٦م ، وبعد شهر من ذلك قضى على « دجلة » اعصار عاصف . وبقيت «الفرات» ، فقامت برحلة تستدعي العناية التامة في التدقيق فى أحوالها مما كتبه الكتاب [٢٠] عنها . فقد طلب فلاحو الحديثة الى الرواد فيها ان يبقوا فى بغداد مرة ثانية ويرفعوا علم ملاحتهم هناك ، وقوبلوا فى الحلة كما يقابل الكفار ، وقابلهم

---

(٢٠) جيزني ، أينزورث ، هيلفر

الخزاعل المتوحشون في مستنقعات اللملوم بشراسة وخيانة وحيل • ووقعت الباخرة في سوق الشيوخ بالفخ الذي نصبه القنصل الافرنسي لاحباط مساعي الحملة ، وذلك باستعمال الحواجز المتخذة من جذوع النخل • ثم تبودلت في القرنة المراسيم الحكومية مع زورق تركي مسلح • اما في البصرة فقد فتش الباخرة القبطان باشا • وبقيت « الفرات » بعد ذلك تمخر عباب المياه العراقية مدة خمس سنوات أخرى •

وفي ١٨٣٩م (١٢٥٥هـ) أفرغت في البصرة[٢١] حمولة أربع بواخر جديدة تحتوي على آلات وأدوات مختلفة • وظل اسطول صغير يدور في المياه العراقية لمدة سنة أخرى من دون ان يعاق بالرغم من عدم وصول فرمان الترخيص ، ثم وصل ذلك أخيراً في سنة ١٨٤١م • وسمح من بعد ذلك للمستر لنج بتشغيل باخرتين • وفي ١٨٤٢م أخذت ثلاث بواخر الى الهند وبقيت باخرة « نيتوكريس » وحدها راسية بالقرب من المقيمية البريطانية حتى أبدلت أخيراً بباخرة اسمها « المذنب » (كوميت) • وكانت خلال الفترة هذه اعمال المسح ورسم الخرائط قائمة على قدم وساق حتى احضرت أدق الخرائط وأحسنها بهمة لنج ، وفيلكس جونز وسيلبي وكولينغوود وبيوشر ، وظلت تستعمل هذه الخرائط حتى سنة ١٩١٤م • ولا يخفي ان هذه الخدمة للبلاد ليست بالشيء اليسير •

وقد ترك خط الفرات باعتباره طريقاً لبريد الهند عندما أظهر ما أصاب «دجلة» من كارثة ، وبعد وقوع حوادث أخرى ، ان النهر غير صالح للسفرات السريعة المنظمة • ولذلك كانت اعمال الحكومة البريطانية بعد ١٨٤٢م تنحصر في أمور المسح فقط ، وقد أخذت الحكومة التركية مكانها في الامور الاخرى • وأدرك رشيد باشا الكوزلكلي بسرعة أهمية السفن البخارية العظيمة ومنافعها • وفي ١٨٥٥م (١٢٧٢هـ) دعا جماعة من التجار لاجتماع عرض فيه عليهم تأليف شركة للملاحة يكون نصف رأس مالها من الحكومة والنصف الآخر يشترك فيه التجار •

---

(٢١) ان الغرض من مجيء هذه العمارة البحرية غير واضح • فقد كانت البواخر لا تصلح لشحن البضائع التجارية ، ولم تكن تستعمل لنقل البريد • على انه يبدو ان مجيئها كان الغرض منه ان يدل على تقبل البلاد للتعامل معها بوجه عام • وقد عيّن الملازم لنچ لقيادتها •

وبعد ذلك أرسل بـ « طلبية » الى أنتويرب لصنع باخرتين ، « بغداد » و «البصرة»• فوصلت الاولى وشدت في العراق قبيل وفاة الكوزلكلي ، ثم وصلت الثانية بعد ذلك• وبالرغم من اهتمام الاهلين الجزئي بهاتين الباخرتين رفض الواليان التاليان استعمالهما لنقل بضائع التجار[22] ، وأسس في ١٨٦٧م (١٢٨٤هـ) نامق باشا هـذه المصلحة باسم « أدارة عمان العثمانية » ، ووضعها بعهدة « مدير الامور الطبية الذي كان يشتغل في معيته ، ثم شيد لها معملاً للتعمير والاصلاح • لكنه لم يؤسس لذلك انحصاراً خاصاً ، حيث ان « شركة لنج » التي أصبح لها اسم مشرف في المياه العراقية بمساعي اسرة لنج[23] المشكورة كانت قد تمكنت في ١٨٦١ من نيل فرمان يبيحها اجراء باخرة « مدينة لندن » « سيتي أوف لندن » ، وقد أصدر هذا الفرمان برغم معارضة نامق باشا القوية لذلك • وحصلت المعارضة نفسها في سنة ١٨٦٤م عندما جيء بالباخرة الجديدة « دجلة » • غير ان الباشا لم يكن له من الحول والطول ما يمنع به هذا النوع من الاستيلاء على العراق بواسطة المراكب الحديثة ، خاصة وهي تفوق مراكبه بكثير وتؤدي لحرمان أدارة عمان العثمانية من جني الارباح • وقد استبدل بفشل مساعيه معارضته المحلية على قدر الامكان والاكثار من بواخره • ولذلك وصلت اليه في ١٨٦٧م البواخر « الموصل » و « الفرات » و « الرصافة » • على أن ادارة هذه البواخر قد اعترضتها مصاعب كثيرة منذ الايام الاوائل ، وذلك من حيث عدم اتقان امور الاصلاح والايقاد لوجود موظفين مستفسدين في ادارتها وبحارة لا يدفع لهم أولو الادارة الاجور بانتظام ، وبقيت تلك المشاكل من دون أن تتغلب عليها الجهود • هذا مع انه كانت باخرتا شركة لنج على أحسن حال وهما تدران الارباح على الشركة[24] •

---

(٢٢) من المحتمل ان مشغولية الباخرتين في أمور عسكرية تتعلق بتجهيز الحملات على بعض القبائل في ١٨٥٦ ـ ١٨٦١ قد حال دون الاستفادة منها في شحن البضائع

(٢٣) خدم الملازم لنج في العراق مدة سنين عديدة ، فأضاع خلالها أخا في كارثة « دجلة » وآخر مات مريضا

(٢٤) ومن نتائج سير هذه البواخر النهرية تعاظم شأن العمارة والكوت ، والتأثير التهذيبي المحسوس في القبائل النهرية ، وتجريد السواحل النهرية من الصفصاف والطرفاء « الطرفة » اللذين يسبب تكاثرهما تأثيراً سيئاً في مجرى الانهر

وإذا ما عدنا الى المواصلات البرية فاننا سوف نعجب عندما نجد فقــدان الوسائط النقلية ذات العجلات من العراق مدة طويلة من الزمن . فان انبساط الاراضي الممتدة والضرورة الاقتصادية كانتا تستدعيان شيوع هذه الوسائط كما هو الحال في البلاد المماثلة . الا ان درس أحوال العراق عن كثب يسوّغ عدم شيوع الوسائط المذكورة . فان الجمود الروحــي العام ، والتخــوف مــن العواقب الاجتماعية للتجديد ، ورؤوس الاموال القليــلة المتوفرة لدى أصحاب الافكار المحدودة من الناس ، كلها كانت أسباباً قوية تجيز تلك الحال . على انه توجد أسباب أخرى خاصة لها حصتها في تسويغ الوضع . فمن الطبيعي أن تنقل الأموال الى جهات معينة في البلدان المختلفة ، غير ان هذه البلدان نفسها بقيت حتى الزمن الاخير ليس فيها شارع واحد يجعل سير المجلات ممكناً فيه . وعلى هذا أصبح التاجر الذي تقف عربة الحمل على مسافة طويلة من باب خانه يفضل تسخير الحمير دوماً والحمال الكردي في نقل بضاعته . اما في الطرق العامة خارج المدينة فقد كانت موانع النقل تنطوي على أشياء أخرى . ففي القسم الشمالي من العراق ، وفي أطراف الأصقاع الكردية ، كان يمكن العجلات أن تسير عـلى تـربة ذات حصباء صلبة انى اتجهت . وينقطع وجود الحصى والحجـر مـن جنـوبي هيت وسامرا ، وهنـا لا يمكن تمييز الطرق عن أراضي البادية ولا عن حقول الزرع الا بتكاثر الوحل والغبار فيها . ولذلك لا يمكن تهيأة الطرق الصالحة للسير الا بالعناية الدائمة . وان ما لا يحصى من السواقي والترع القاطعة للطرق دائماً ومن دون انتظام تمنع من سير العربات غير انها تسمح بسير حيوانات النقل . هذا زيادة على ندرة وجود المواد التي تشيد منها القناطر ، ولم يكن بوسع أحد غير الحكومـــة الصارمة ان يتمكن من اجبار الزراع على نصب القناطر ، ومنعهم من اغراق الطريق العامة بين حين وآخر ، وعن تجاهلهم أمر الطريق واقدامهم على حراثته مع الارض المعدة للزرع . وان حلت جميع مشاكل البلدة والريف في هـذا الشـأن ، فان المسافرين لم يبرحوا يشعرون بأن « العربانة » الواسعة الملائمة كانت ما تزال طعمة جيدة للعصاة وقطاع الطرق .

وقد جاء أول اقتراح للنظر في طرق أحسن ونقليات أسهل من الخارج ، فلم يثمر شيئاً . ففي سنة ١٨٦٥ م (١٢٨٢ هـ) سافر رجل[٥] افرنسي ، يدعى الكونت

دي بيرثري ، من الشام الى بغداد ، وكانت نيته منصرفة الى فتح هذا الطريق لتسيير العربات فيه • اما عن شيوخ البادية الذين يمكن أن يحولوا دون سلامة الطريق فقد ارتأى بادىء ذي بدء انه من السهل أن تشرى حماية الطريق منهم بالمال • ووجد في بغداد ان التجار مستعدون لتأسيس الشركة وتمويلها ، غير ان نامق باشا ، وكان لا يزال متأثراً تأثراً مراً من وجود البواخر الاجنبية في دجلة ، لم ترقه الفكرة الجديدة التي ينتزع بها الاجانب من يده الطريق البرية أيضاً • وعلى هذا فقد منع المساهمة في المشروع ، وحذر الكونت من التعرض لشؤون القبائل •

وكانت في اوربة ، في غضون ذلك ، مشاريع أعظم وأغرب في قيد البحث والمداولة • فقد فكر في ١٧٤٢ (١١٥٥ هـ) صاحب معمل أيرلندي في أن يمد سكة حديد من كاليه الى استانبول ثم الى كلكتا وبكين ، فكان ذلك مشروع « سكة حديد الاطلس » لويليام بين • وفي ١٨٤٣ م (١٢٥٩ هـ) عرض الكسندر كامبل مشروع سكة حديد « انكلتره - فالهند » على أن يمتد على طريق وادي الفرات ، وهو المشروع الذي عرض من بعد ذلك على شركة الهند الشرقية ، فأحضر ما يقتضي ورسمت الخرائط • وفي ١٨٤٩ م عرض جون رايت مشروعاً آخر لانشاء خط يمر بوادي الفرات • ومات سنة ١٨٥١ م في استانبول الدكتور ج• ب• طومسن شهيد الحماسة في هذا الشأن • وبعد ثلاث سنوات جمع و• ب• آندرو ، الداعي لانشاء طريق مثل هذا الى الهند خلال سنين عديدة ، جماعة معروفة من العلماء والمغامرين - لنج وجيزني ومكنيل وغيرهم - وكونوا شركة لانشاء سكة حديد من البحر الابيض المتوسط الى الخليج • وكانوا يرون ان تمر السكة بسلوقية وانطاكية وحلب و « قلعة جعبر » وهيت وبغداد ، ومن هناك الى القرنة فالبصرة • وقد رضيت هذه الجماعة ان تمد أولاً خط سلوقية - فالفرات فقط (وطوله ثمانون ميلاً) ومن هناك يطرق نهر الفرات بالبواخر • وقد ضربوا في تحقيق مشروعهم هذا على وتر الخوف من تسرب النفوذ الروسي الى الشرق ، والثروة العظيمة الكامنة في العراق ، واستفادة تركية والهند ، والتوسع المنتظر في التجارة مع الشرق الاقصى ، وسهولة انجاز المشروع من الوجهة الهندسية ، وتوفر المواد الانشائية في سورية • ففاز هذا المشروع بالتأييدات الرسمية ، وبضمنها تأييد بالمرستون والسر سترانفورد كانينغ كما كانت الحكومة التركية مستعدة لقبوله •

وبعد جهود خمس عشرة سنة تبين عدم امكان جمع المال اللازم لـذلك ، فتـرك المشروع كله • اما المشاريع المحلية فقد ظلت ميتة لا حراك لها • وقد فترت حركة المشاريع الاوربية في هذا الشأن ، لمدة ما ، بسبب افتتاح قناة السويس في ١٨٦٩ م (١٢٨٦ هـ) •

ولم يكن وجود لمصالح البريد في العراق طوال هذه الحقبة ، غير ان الملاحة البخارية أعقبها في الحال ظهور التلغراف • وكان هذا اختراعاً حديثاً معرضـاً للعطب ، ومفتقراً الى شيء كثير من الخطوط والنقليات لادامته بصورة اقتصادية • ومن أجل هذين السببين كان من المحتمل أن يظل العراق محروماً من التلغراف طوال القرن التاسع عشر ، لكن البلاد ، لما كانت جزءً من كل أكبر وجسراً أرضياً علاوةً على ذلك ، فقد قدر لها ان تستفيد من ميزاتها التي كان يندر الإستفادة منها • فكانت تركية قد خرجت من حرب القرم غانمة ، صائرة من القوى الاوربية التي يعبأ بها ، كما أصبحت دولة ذات سيادة مضمونة ، وقد علمتها تجارب الحرب انها تحتاج الى مواصلات أحسن في ضمن امبراطوريتها ، وكانت انكلترة بعد « العصيان » ترحب بكل مشروع يكون من ورائه اتصال لها اسرع بالشرق • وقد سبق ان رسمت الخطط لمد الحبل السلكي « القابلو[٢٥] » في قعر البحر من الهنـد الى البصرة ، ومن هناك في قعر دجلة الى بغداد • وتقدمت شركة الهند الشرقية في ١٨٥٦ م (١٢٧٣ هـ) الى الحكومة التركية بمشروع مد خط أرضي من سورية الى الخليج • وقد رفضت استانبول التأمينات التي لم يكن بدونها بوسع الشركة (ومن ورائها شركة الاتصال التلغرافي الهندية الاوربية) ان تبدأ بالعمل ، هذا زيادة على ان منح امتياز أجنبي كان في حد ذاته شيئاً غير مستساغ • على ان الحكومة التركية والبريطانية اتفقتا في ١٨٥٧ م على قيام المهندسـين البـريطانيين بمـد الخطوط على ان يكون المشروع تركياً صرفاً ، وفي صيف ١٨٦١ م تحقق الاتصال عن طريق البر بين استانبول وبغداد •

وتبع ذلك البحث في ربط بغداد بالخليج ، فسمح نامق باشا بأن يمسح المقيم نفسه طريق الفرات مسحاً شخصاً • فعين طريق ما ، وبدأ العمل في

---

(٢٥) كابل هو تعريب « حبل العربية » ـ « م • ج »

أواخر ١٨٦٣ م ، وبدىء ، في الوقت نفسه ، بمد خط بغداد ـ فخانقين • وما حل الخريف التالي حتى كان هذا الخط الاخير في قيد الاستعمال ، وبعد عدة شهور أخرى بدىء باستعمال خط الفرات • وأصبحت خطوط التلغراف العراقية متصلة بخطوط تركية وايران (في خانقين) والخليج والهند (بالفاو) • ومددت الخطوط من بعد ذلك بالتعاقب الى كربلا فالنجف ، والى الكوت والعمارة فبدرة ومندلي على طريق دجلة ، ثم اتصلت على طريق كارون بالخطوط الايرانية في الاهواز • وما حلت نهاية القرن حتى فتحت الدوائر في جميع البلدان المهمة • وبالرغم من كثير من التقصير ـ كحدوث الخلل في الاجهزة ، وعدم تدريب مراقبي الخطوط ، والعرقلة المستمرة من جانب الجهال والعابثين ، ووجود الموظفين الذين لا يعرفون فائدة لكتم الاسرار ـ كان الجهاز التلغرافي يشتغل بانتظام • وبذا فقد أصبح ما كان يعد غريباً شيئاً لابد من وجوده • وبات ضبط القبائل بالطريقة المثلى ممكناً لان جمع القوات بسرعة أصبح سهلاً ، وذلك بالرغم من أن هذه الخطوط أصبحت أهدافاً سهلة الاصابة على نقمة القبائل وعبثها •

الفصل الثاني عشر

اواخر القرن التاسع عشر

مدحت باشا

دخل مدحت باشا بغداد والياً فيها في اليوم الثلاثين من نيسان ١٨٦٩ م (١٢٨٦ هـ) . وقد دلت سيرته في السابق ، كما حققت أعماله فيما بعد ، على انه جيء به من أوربة الى هذه الولاية النائية للاصلاح والتجديد .

وقد ولد في استانبول سنة ١٨٢٢ م (١٢٣٨ هـ) ونشأ ، فكانت تربيته ودراسته التي تخللتهما التنقلات ، التي كانت تصيب اباه وهو موظف صغير ، دراسة اعتيادية في المدارس المحلية . وكان قد انخرط في شبابه في سلك الكتبة الصغار ، وخدم في دمشق واستانبول وقونية . وتدرج من ١٨٤٩ م (١٢٦٦هـ) الى ١٨٥١ مرتقياً في سلم الوظائف وحصل على أصدقائه من أصحاب السلطة . وقد ارسل سنة ١٨٥٢ للكشف عن سوء استعمال حصل في ولاية دمشق وولاية حلب العربيتين فنجح في المهمة خير نجاح . وكان نجاحه فيهما بمقام تجربة وتدريب لعمله المقبل في بغداد . وقد تقلد منذ ١٨٥٣ الى ١٨٥٨ وظائف في البلقان وبورصة ثم في الولايتين : ودين وسالسترية المضطربتين ، وسمح له في السنة الاخيرة من هذه المدة ان يتجول في عواصم أوربة فاستغرق التجول ستة أشهر . وقد قضى القسم الاعظم من السنوات العشر التالية في البلقان ، وكانت السنوات الاربع الاخيرة منها في المنصب المهم الشاق وهو منصب والي ولاية الدانوب المؤلفة أخيراً . فكانت ادارته بها ادارة نزيهة تقدمية متساهلة ، ولذلك أصبحت على عهده تلك تعد « ولاية نموذجية » . وكان تطبيقه لنظام « الولاية » وملحقاته ، وتأسيس البنوك الزراعيـة ، واجراء البواخر النهرية ، وتشييد المستشفيات لها وتشغيل الصناعات الحكومية ، تؤذن مبدئياً باصلاحات هذا الباشا

المماثلة في العراق • وبعد ان قضى شهوراً قلائل في المركز باستانبول عين ، في ١٨٦٩ ، والياً في بغداد خلفاً لتقي الدين باشا • وكان اذ ذاك في أوج قوته ونشاطه ، حيث كانت لحيته السوداء الكبيرة لم يتطرق اليها الشيب بعد • ولم تخل أعماله العديدة التي اضطلع بها خلال سني حكمه في العراق ، وله السلطة المطلقة ملكياً وعسكرياً ، من آثار العجلة والاغلاط الاقتصادية الناشئة عن جهل بعض الامور أو تناسيها • لانه كان في بعض الاحيان كثير الثقة ، حتى الافراط، بكل ما يسمى تجديداً ، كما انه كان يفضل في أحيان أخرى الامور الخلابة على الامور المعقولة • فقد سمح في طريقة تسجيل الاراضي التي جاء بها بتحريك الماكنة الرسمية التى لابد من أن تنتج ما لا يحصى من الاغلاط فضلاً عن الغموض والفساد • وكتب لمشاريعه في اصلاح الانهر أن تبوء بالفشل المروع لعدم اعتمادها على الدراسة التمهيدية الواجبة • وقد انجزت اساطيله النهرية أقل مما كان يأمله منها بكثير ، ولم تشتغل كراءات « كراكات » شط العرب مطلقاً ، كما لم تستقم البواخر الذاهبة الى البحر طويلا • ولم تظهر للوجود قط مشاريع سكك الحديد التي كان يفكر فيها ، ولم تصل المكائن الصناعية التي طلبها من أوربة • ولم يكن قادراً على تحقيق مشروع كان عزيزاً عليه وهو بيع خزائن النجف وانفاق مبالغها على الاشغال العامة ــ فخاب تماماً في القضاء على الفساد • ولم تعش بعده اصلاحاته البلدية الا بصورة ضئيلة • وقد ترك تهديمه لسور بغداد أكواماً عظيمة من الانقاض ومدينة محرومة من الدفاع • وكان يأمل أن يدفع ثمن الآجر المستخرج من انقاض السور ما يستحقه جنده من الاجور ، ولم يسلم « طاق كسرى » ذي الجلال من عمل كهذا • فبمثل هذه البراهين يمكن أن تنتقد أعمال مدحت باشا •

على ان نظره للامور ، وفعاليته الوطنية ، واستقامته المطلقة ، كلها قد انجزت أعمالاً أعظم من الاعمال التى تمكنت ثقافته الناقصة من تشويهها • فقد أكمل ما بدأ بتشييده نامق باشا من الابنية العامة وأضاف اليها شيئاً كثيراً • فان اصدار جريدة ، وتأسيس المعامل العسكرية ، وبناء مستشفى ودار للعجزة وميتمة وعدة مدارس ، ومد خط « للترامواي » الى الكاظمية ، كانت كلها ، مع الروح التجددية التي دلت عليها ، قد نورت بغداد وبعثت حياة التجدد فيها • ولقد طبقت الاصلاحات ، العسكرية والمدنية ، في بغداد لاول مرة على عهد مدحت باشا بعد ان

كانت مطبقة مدة طويلة من الزمن في ولايات أخرى • وفرض الخدمة العسكرية ، ثم اسس البلديات والمجالس الادارية ، وطبق نظام « الولاية الجديد » بحذافيره • وكان تمصير البلدتين الناصرية والرمادي من صنع يديه •

وقد كان العراق التركي في سنيه الاخيرة بلاداً متأخرة سيئة الحكومة بحيث ان ما يعزى لمدحت باشا من التأثير الحسن العظيم فيه يقيم ثناءاً مشكوكاً فيه • على أن ثناءاً مثل هذا لا يعد في غير محله ، وعلى الذين يضنون بهذا الثناء أن يتأملــوا الفرق في العلاقات بين الحكومة والقبائل قبل باشويته وبعدها ، والامن النسبي في الطرق ، وانتشار التعليم الابتدائي ، وتوسيع الفكرة الاقليمية • وكان أعظم ما قام به من الخدمات أنه وضع خطة حكيمة لتوزيع الاراضي على القبائل لاجل ان يعيد الاراضي الواسعة في العراق الى الاستيطان مستفيداً ، في الوقت نفسه ، من الخطة في تمدين القبائل مما سيأتي بحثه بعد هذا • ويرجع الفضل في هذه الخطـــوة الاكيدة التي خطاها في مضمار التوطين ونشر الامن ، في الربع الاخير من القرن ، لهذه الخطة وللروحية الرسمية التي صحبتها • وعلى هذا فأن كثيراً من العيوب العديدة التي ظهرت في الحكومة بعد مدحت باشا لم يكن سببها تطبيق هذه الاساليب بل نسيانها • ولم تكن حاكمية مدحت باشا في العراق الا شيئاً طارئاً على سيرته [١] ، غير أن اسمه الشهير باقترانه باسم العراق في القرن التاسع عشر ، ما يزال دائراً على الافواه في المدن وبين القبائل ، فهم يذكرونه دائماً من حيث كونه مبتدعــاً مهذباً •

وترك مدحت باشا منصبه في بغداد في أوائل ١٨٧٢ بعدما باع ساعته ـ على ما يروى ـ ليدفع نفقات سفره الى العاصمة •

ولا يسمح المجال في هذا الكتاب بأكثر من التنويه بشخصيات هذا الزمن

---

(١) فقد أصبح صدراً أعظم في ١٨٧٢ م (١٢٨٩ هـ) على عهد السلطان السلطان عبد العزيز ، وتقلد هذا المنصب ثانية في عهد عبدالحميد في ١٨٧٦ • وقاد خلال هذه المدة حزب « الترقي والحرية » ، وكذلك كان مسؤولا عن الدستور العقيم • وقد قضى عليه تصادم نظرياته بنظريات عبـدالحميد ، فقد أقصي الى الطائف قرب مكة وقتل هناك في ١٨٨٣ م (١٣٠٠ هـ) بعد ان نقل الى حاكمية سورية وحاكمية أزمير بحال يشبه النفي •



الاخرى . فالموصل والبصرة ، بكون كل منهما سنجقاً أو ولاية ، لم يظهر فيهما أي حاكم بارز ، كما لم يكن موظفوهما الكبار يعدون من الطبقة العليا في تدريبهم ولا أصلهم ولا روحيتهم . وقد كان معظمهم من الاتراك ، ولم يعدم وجود العرب (وأكثرهم من سورية) بينهم ، وكان بوسع الاكراد أن يبلغوا المناصب العالية وخاصة في المناطق الشمالية .. وكان من النادر للعراقي أن يصل الى أعلى من منصب المتصرف ، ولو أن الدرجات المنخفضة من الطبقة البوروقراطية كانت تتألف منهم . وقد عرفت كركوك (ولسانها التركية) بكونها مشتلا تهيأ فيه طبقة الموظفين . وفي خلال هذا العهد كانت الاسر المعروفة في كل بلدة لها المكانة الثابتة في المجتمع ، وهي تحمل عادة لقباً تركياً أو تتلقب باسم المكان الذي نشأت منه ، وكان أبناء هذه الاسر ، من غير استثناء لأحد منهم ، يسرون بالانخراط في سلك الموظفين وقابلياتهم ضعيفة في الغالب . ولم يكن أحد من خلفاء مدحت باشا ، ممن يشملهم تاريخنا هذا ، يمكنه أن يعد من الطبقة الأولى[٢] . فكان رديف باشا (١٨٧٤) نظامياً صارماً ، وعبدالرحمن باشا (١٨٧٥ ـ ٧٩) اصولياً شديداً متعصباً ، وكان عاكف باشا البانياً محبوباً لكنه في غاية من الفساد والتفسخ ، كما كان قادري باشا (١٨٧٨) عالياً مشككاً . وقد جاء تقي الدين باشا ، سلف مدحت باشا ، الى بغداد مرة ثانية فحكم ست سنوات (١٨٨٠ ـ ٨٦) . وقد خلف مصطفى عاصم باشا (١٨٨٧) أخباراً لجولاته الفعالة في الخارج ، ونزاعاته العنيفة للسيد سلمان افندي النقيب . وكان سري باشا الكريتي الاديب شغوفاً بتزيين عاصمته وتزويقها . وكان الحاج حسن (١٨٩٢) ، وهو تركي من استانبول ، ذا قوة جسمية فائقة ومتديناً على الطراز القديم . اما عطاء أفندي (١٨٩٦) ، وهو قاض سابق ، فقد كان مدققاً في القانون طاعناً في السن . وانتهى القرن بنامق باشا الصغير المعروف بزهده المتطرف . ولم ينشأ من بين هؤلاء جميعاً ، على اختلاف طرزهم وعنصرياتهم ، من تعدى منصبه هذا بشهرته فخلد لنفسه اسماً في التاريخ . ولا مجال هنا لذكر الشخصيات الاخرى المماثلة بشهرتها في عراق ذلك الوقت من الملاكين والعلماء والتجار والقادة ، ومازال كثير منهم في قيد الحياة ، وقد تعرف بقسم غير قليل منهم مؤلف هذا الكتاب .

---

(٢) عدا ناظم باشا (١٩١١ ـ ١٢)

شهدت السنون الأخيرة من القرن التاسع عشر محاولات تستحق الذكر قامت بها تركية للتوسع في الجزيرة العربية . ولم يوعز بهذا التوسع أحد ، وانما جد فيه مدحت باشا من العراق لأول مرة . وكان يرمي بذلك الى ضم جميع الامارات العربية المستقلة في نجد وسواحل الخليج الى الامبراطورية العثمانية . وكان هذا الاستقلال ، في الامارات الساحلية ، قد دام من دون معارض منذ القرن السادس عشر حينما كانت الاساطيل التركية تشن غزوات ساحلية فجائية في يوم واحد فتدعي بتابعية الكويت أو الاحساء[3] أو البحرين لها ، وفي نجد[4] بعدما كانت القوات المصرية ، لا التركية ، قد استولت عليها ثم انسحبت منها . وان كان الرجوع الى التاريخ يميط اللثام عن قليل من العذر لهذا التوسع ففي التاريخ أسباب أخرى تسوغه أيضاً . فأن البعث الداخلي ، الذي كان مدحت يناضل في سبيله ، كان يصحبه في العادة جور واعتداء في الخارج . وكان سكان ولايات الخليج سنيين ، ولذلك كانوا من رعايا الخليفة الأصليين . وكان لابد للدولة الوهابية من أن يُقضى عليها في النهاية لأن انقساماً خطيراً قد وقع في داخلها . فقد كانت تصل الى الباشا في العراق معروضات عديدة من هذا الامير الملتجيء أو ذاك ، لأن المألوف في سياسة العرب أن يلتجيء الشخص الى أي جهة كانت للحصول على مقصده . كما كان وضع البريطانيين في الخليج لابد من أن ينازعهم فيه أحد على الرغم مما كانت تنطوي عليه من نبل في المقصد أعمالهم التمدينية الخالية من الغرض ، التي استمرت مدة طويلة من الزمن في رسم الخرائط ومكافحة القرصنة . وأخيراً فقد كان السبب الجوهري الاصيل للتوسع جوع الاتراك الدائم غير المنقطع الى الارض والتملك ، الرامي على دوام فيه الى الاستيلاء على ممتلكات مورطة غير مفيدة ، والراغب أبداً في ضم الرعايا المعادين والرمال القاحلة . وكانت حقيقة الحال في العقد السابع من القرن نفسه أن بلاد البحرين ، الممزقة بالحرب الاهلية فيها ، كان يدعي الاتراك بكونها عثمانية وهي ما زالت تابعة حتى الايام الاخيرة لامير الوهابيين في الوقت الذى كانت فيه السفن البريطانية

---

(٣) كانت الاحساء (اسمياً) تابعة للبصرة في أيام حسين باشا .
(٤) كان باشا مصر ، بطبيعة الحال تابعاً للسلطان نظرياً .

مجدة في أعمالهـا البذرقية[٥] « البوليسية » بأزاء سواحلها • وكانت بلاد الاحساء والقطر تكون كذلك جزءاً منحلا مختلا من ممتلكات الوهابيين • لكن واحات نجد بقيت موطن قوتهم ومركزها الأصلي • غير أن مطالبة الاتراك بجميع هذه الممتلكات بقيت غير منقطعة • وقد انتهى عهد فيصل بن تركي الهادىء الطويل في نجد سنة ١٨٦٥م (١٢٨٢هـ) ، ومن بعد ذلك بدأت منازعات ابنيه عبدالله وسعود ، من أجل الامارة الوهابية • وكان الاول ينظر الى الترك في المساعدة ، فأرسل وكيلا عنه الى بغداد سنة ١٨٦٦م وسنة ١٨٧٠م ، مستنجداً بمدحت باشا بعد نجاح أخيه في الثورة وعارضاً التابعية ودفع الاتاوة بشرط أن يعاد الى منصبه • وقد مر وكيله بطريق الكويت حينما كان الشيخ عبدالله بن صباح فيها يرى ، حتى عدة سنين خلت ، من مصلحته أن يتصل اتصالا وثيقاً بالبصرة •

وقليل من الاتراك من كان يستطيع أن يمسك نفسه عن قبـول ولاية أو مقاطعة تقدم اليه ، وكان حرص مدحت باشا في هذا المضمار يفوق حد المخيلة والنشاط • وعلى هذا فقد عزم على قبول معروضات عبدالله بن فيصل ، حتى يلحق بولايته المملكة الوهابية ، ان أمكنه ذلك ، بحجة اعادة النظام الى نصابه في ممتلكات السلطان النائية • فبعث بواسطة نقالات شط العرب البالية ، قوة قوامها عدة آلاف رجل يقودها نافذ باشا • فنزلت في رأس التنورة في أيار سنة ١٨٧١م (١٢٨٨هـ) ، واحتلت القطيف بسهولة • وقد ادعى نافذ بأن غايته هي أن يسبغ نعمـاء الحكم التركي على سكان الاحساء ، وأن يعيد عبدالله الى مكانه برتبـة « قائممقام نجد » • فعين الحكام في قرى الاحساء واحتلت القطر بحامية وضعت في دوله • وظل الحكم التركي أسابيع معدودة محموداً بالنسبة لقسوة الوهابيين وشدتهم من قبل ، وعندما حضر عبدالله بن فيصل المعسكر التركي تحقق ان عودته لمكانه كان أمراً بعيداً عما كانوا يضمرونه له ، فهرب ولم يخلف بعده الا شيئاً قليلاً من الندم في الاحساء •

على أن القوة العسكرية التي بقيت هناك سرعان ما زال انطباعها الحسن عن

---

(٥) البذرقية منسوبة الى « البذرقة » وهي حياطة القوافل البرية أو البحرية ونقض المسالك لها • يقال « بذرق الامير القافلة يبذرقها بذرقة » ـ (م • ج)

هذه المنطقة بالخبرة والمران ، فبدأ أفرادها يشعرون بأن احتلالها هذا يزداد مشقة وعناء كل يوم . وقد قل عددهم من جراء الحمى والامراض ورداءة التجهيزات . ولذلك ترك مدحت باشا بنفسه بغداد ، في أواخر ١٨٧١م (١٢٨٨هـ) ، للتفتيش فكان بمعيته الامداد والذخيرة الكافية . فاستقبل بحفاوة في الكويت وعين شيخها قائمقام ثم سحب جند حامية الاحساء بعد أن استولى على أفرادها المرض فاستبدل بهم رجالا أقوياء ، وأعلن انضمام المنطقة الى ممتلكات السلطان من دون قيد ولا شرط (منكراً بذلك ادعاء الوهابيين بها) ، كما عين نافذ باشا « متصرف نجد » . غير ان أي تقدم نحو الواحات الداخلية لم يحصل ، كما لم يتعرض لما يختص بالمصالح البريطانية في البحرين . لكن الاتراك ، في هذا الوقت وفي اوقات أخرى حتى نهاية هذه الحقبة ، ظلوا يدعون بدخول الجزيرة هذه في نطاق تابعيتهم ، فكان ذلك ادعاءاً غير حقيقي ولم يسمح به .

وقد استقامت ترتيبات مدحت باشا حتى سنة ١٨٧٤م ، الا انه علم فيما بعد بأن حكم سنجق الاحساء حكماً مباشراً كانت إدامته باهظة التكاليف . ففوض ناصر باشا ، متصرف البصرة المنتفكي ، بادخال نظام رخيص الكلف في الادارة[٦] . فزار الاحساء واستعاد أكثر الحامية التركية ، ثم عين الشيخ براكاً ، شيخ بني خالد ، متصرفاً فيها . فكان نصيب هذا العمل الرجعي الخيبة والفشل في عدة أسابيع . فقد قامت حركة وهابية مقابلة طردت الشيخ براكاً وصارت تهدد الجنود التركية القليلة التي كانت هناك . فاضطر ناصر باشا أن يعود الى دخول الاحساء في أواخر ١٨٧٤ ، فيعيد النظام الى نصابه بشدة ، ورجع تاركاً ابنه متصرفاً فيها . وقد حكم بعد هذا عدد من الموظفين الآخرين ، فاستقام الحكم التركي حتى سنة ١٩٠٠م[٧] فكان حكماً منحطاً شرهاً جامداً مكروهاً عند عدم تجاهله . على أن علاقات هذا السنجق بالعراق لم تتقدم في أي وقت من الاوقات ، مع كونه كان تابعاً له اسمياً ، ولذلك ليس لنا شأن بالبحث عنه في هذا التاريخ . ولم يلفت نظر

---

(٦) ومما لا شك فيه ان هذه الوقائع أدت لتكوين ولاية مستقلة من البصرة (١٨٧٥) .

(٧) وبعد ذلك كان السيد طالب (البصرة) متصرفا فيه لمدة سنتين أولاهما ١٩٠٢ م .

العالم الى شؤونه الا بالقرصنة المزمنة التي كانت شائعة أزاء سواحله حتى قضت عليها السفن البريطانية برغم احتجاج الامير التابع الذي لم يكن بوسعه أن يتحرك لعمل شيء ، ولم يقو عليه •

وبقيت امارة الكويت ميالة للاتراك بصورة جلية خـــلال عهد عبدالله بن صباح ، وتمادى خلفه في السياسة نفسها حتى قتل في ١٨٩٦م (١٣١٤هـ) وأصبح قاتله الشيخ مبارك قائممقام فيها • على أن سيادة الاتراك على الكويت كانت تقدرها تقديراً مختلفاً السلطات العربية والتركية والاوربيـــة والهندية • فلم يعتـــرف البريطانيون في أي وقت من الاوقات بالحقوق التركية التامة فيها ، مع انهم رفضوا هم أنفسهم غير مرة طلبات الشيخ لحمايتهم • على ان اشاعة سرت في عام ١٨٩٨م مفادها ان الروس ينوون تحقيق مشروع سكة حـــديد ، فبدلت الوضع وتم في الاشهر الاخيرة من القرن عقد اتفاق رسمي بين الشيخ والحكومة الهندية أُلزم فيه الشيخ برفض جميع الامتيازات الاجنبية • وعندما جرت مباحثات أخرى بشأن انشاء سكة حديد أصبحت منزلة مدينـة الكويت على جانب عظيم من الاهميـة ، لكن هذه القضية والمباحثات يعود الخوض فيها للبحث عن القرن العشرين • اما نجد الكائنة في وسط الجزيرة فلم يكن لحكام العراق أية علاقة بها تقريباً خلال السنين المتبقية من هذه الحقبة • وقـد بقيت حروب الاسرة السعودية الداخليـة مستمرة ، كما ظل النضال بين امبراطوريتي حائل والرياض المتخاصمتين مشبوب الأوار • ولم يخل الحال من تضرع هذا الجانب أو ذاك الى بغداد ، وكل يعـدها بالخضوع والولاء للسلطان[8] •

ومن المناسب هنا ان نذكر شيئاً عن العلاقات الايرانية ، وغيرها من العلاقات الاجنبية ، قبل أن نعود للبحث عن الشؤون الداخلية • فان زيارة ناصر الدين شاه لعتبات العراق المقدسة في ١٨٧١م (١٢٨٨هـ) لم تؤد الى تقليل مشاكل الحدود ، التي كانت معروفة حتى ذلك الحين بكثرة ما عقد بشأنها من مؤتمرات ومعاهدات منذ ١٨٢٣ ، وانما انتجت التصادم بدلا من الود والوئام • فأن « الخريطة الاصلية » التي احضرت بعناية الرسامين البريطانيين والروس الذين انجزوا رسمها بعـــد

---

(٨) لقد احتلت القوات التركية التي كان يقـودها فيضي باشـا القصيم في ١٩٠٥ ، فقسمت البلاد الى وحدات اسمية على الطراز التركي ، ثم انسحبت•

اشتغال عشرين سنة لم يكن بوسعها تقديم علاج ما ، لأن اللجنة التركية كانت تدعي بخط يقع بأجمعه خارج المنطقة المنازع عليها بحسب ما ادرج في الخارطة . وعلى هذه الشاكلة استمر النزاع ، بشتى درجات الحدة أو الخشونة ، حتى حلت نهاية الحقبة التي نبحث عنها . وكان النزاع على أشده في بنجوين ومنطقة زهاو في جنوبي كردستان ، وفي أهوار عربستان النهرية . وقد عرف هذا النزاع ، في الجهة الشمالية ، بالتعديات المستمرة من كلا الجانبين على المنطقة المنازع عليها ، وبالتبرم الفوري الذي كان يقدمه الجانب المقابل . وكان النزاع على الجزر الطينية في شط العرب يحتدم بالحماسة نفسها . ولقد ظهر ان القلعة المنشأة في الفاو (وقد بدىء بناؤها في ١٨٨٦م ولم يتم قط) مما يخل بمعاهدة ارضروم الثانية التي حرم بموجبها تحصين الشط . وكانت أكثر لعبات الاتراك غيظاً تجري بواسطة مخافر الشرطة ، ومحطات الحجر الصحي ، والجباية المغيظة لرسوم الكمرك التي كانت تضرب على السفن المتجهة الى كارون . هذا زيادة على نقاط التصادم التركي ـ الايراني الاعتيادية التي كانت دائمة الوجود ولم تخرج عن الجور في العتبات الشيعية ، وسلب قوافل الزوار ، وحماية القبائل العاصية ، واقامة الامراء الايرانيين المشكوك في ولائهم في بغداد .

وكان يمثل بريطانيا العظمى في العراق[9] ممثل جليل المقام في بغداد ، و « مساعد وكيل سياسي » (صار قنصلاً منذ ١٨٩٨) في البصرة ، ونائب قنصل (ليس مستمراً) في الموصل . ولم يقل النفوذ الذي كان يتمتع به هؤلاء الموظفون ، كما لم يقل السخط عليهم من الموظفين المحليين الكثيري الشك والريبة. فان التلغراف ، وامتيازات « المقيمية » ، وحقوق الملاحة في دجلة ، ودوائر البريد الهندية ، كانت كلها أسباباً للمعاكسة ووضع العراقيل . غير أن الدلائل بأجمعها تدل على أن موقف الوكلاء البريطانيين في هذه الامور كان موقفاً صحيحاً بحسب الواقع ومعروفاً بالصبر وطول الاناة . ولم تكن منزلتهم الخاصة لتمسن بسوء (المحصلة بثلاثة قرون) ، مهما بلغت من الوضوح عند القبائل وفي المدن . وكانت ترفض طلبات عديدة من الرعايا الاتراك للحماية البريطانية ، كما ان فرصاً كثيرة

---

(٩) كان يعرف باسم « وكيل سياسي » في ١٨٧٠ م ، وباسم « مقيم » اخيراً . ولم تشيد « المقيمية » الجديدة الا في عام ١٩٠٥ م .

للحصول على السلطة والنفوذ ولتشويش الادارة التركية كان يضرب عنها صفحاً •

وكان قنصل افرنسي يمثل حكومته الجمهورية في بغداد ، وفي البصرة أحياناً • كما أبقت كل من روسية والولايات المتحدة والمانية وكيلها في بغداد ، ولم يكن في سير هؤلاء خلال وجودهم ما يستحق ان ننوه به في هذا التاريخ • وقد كانت أكثر الاتصالات حيوية مع سكان العراق اتصالات البعثات الاثرية الموجودة يومذاك • وكثيراً ما كانت وظيفة القنصل ووظيفة المنقب الاثري لدولة ما تتحدان في شخص واحد •

الخطة الجديدة في تسوية الاراضي

وافى هذا العصر بخطة جديدة في شؤون البلاد الداخلية وتطور سريع ، فرأى السائحون والمقيمون في هذه البلاد في سنة ١٩٠٠ م تحسناً ظاهراً في التحضر والامن منذ العهد البادىء سنة ١٨٦٥ م • واجمع كثيرون على ان الاساليب التي اتخذت فنجحت في هذا العهد كانت من صنع مدحت باشا •

فقد أنتجت خيبة أسلافه في وضع خطة للحكم ، وسياسة الرعية بالقــوة والرأفة ، خراب البلاد فأصبحت أرضها بلقعاً وماؤها ضائعاً • وكان من الضروري لاضعاف نفوذ القبــائل العظيمة ونشر الامن في طرق المواصلات وتوسيع الزراعة ان يحرم الشيوخ النفوذ المطلق على قبائلهم ، وان يكون ضلعهم مع الحكومة من تلقاء أنفسهم • فاستهدف الحكام ذلك بمجيء مدحت باشا • على ان شيئاً من التطور في هذه الناحية سبق ان حصل بالتدريج في عهد الكوزلكلي وسردار أكرم ونامق ، فبدأ قسم من القبائل بالتوطن خيمة بعد خيمة • وجاء مدحت باشا فعجل هــذه الحركة بالوسائط الحديثة التي تتطلب عناية خاصة ، وكانت أعماله لا تخرج عن كونها بداية العلاج لمعضلة التوطين بوجهة نظر جديدة : وهي وجهة نظر الارض نفسها •

فقد كانت الاراضي في العراق تتعاورها ادعاءات بالملكية كثيرة • لان المقاطعات كانت توهب هبة مطلقة من جانب داود باشا وعلي رضا ، فظل أحفاد أصحاب التيمار الاقطاعيين متمسكين بالوثائق والعقود التي ورثوهــا بمقتضى منــزلتهم الاقطاعية ، وكان بيع الاراضي الحكوميــة وشراؤها جاري العادة منذ أجيال مــن غــير علم الحكومة أو اعترافها • وكان مجرد تملك القرويين والشيوخ ، الذين تنتشر

عشائرهم في أراض واسعة ، لهذه الاراضي مدة طويلة على هذه الطريقة مدعاة للادعاء بالملكية الصرف « ملك » • وقد سبب انكار الحكومة لهذه الادعاءات والحقوق أحوالا غير طبيعية يعود وبالها على مسألة الاسكان نفسها • فقد تأخر ادخال التحسينات الممكنة على الاراضي لان حقوق المتصرفين فيها لم تكن ثابتة ولا مقررة ، وادركت القبائل بهذا ان مجرد توطنهم مكاناً ثابتاً يعرضهم لعقوبات الحكومة واستيفاء الضرائب منهم بسهولة • وبالجملة فان تلك الحياة الجديدة ، التي كان يجب أن تتوفر للقبائل لاجل أن يعيشوا بموجبها ويتركوا من أجلها حياة البداوة والرعي المعروفة ، لم يستطع أحد تهيأتها لهم • وجل ما كان يمكن أن يقدم لهم من طريقة العيش هو ان يبدأوا بفلاحة الارض فقط من دون أي مشوق آخر • على ان توطنهم وفلاحتهم لم يكونا ميسرين لهم أيضاً ، لان نصيب القرويين من هذه الفلاحة ونفسية القبائل ونظمها كانت تكفي لتنفيرهم عن عيشة التوطن وابقائهم على البداوة •

وكانت طريقة مدحت باشا تتضمن بيع أراض صغيرة أو واسعة من أراضي الحكومة بأقساط قليلة سهلة الدفع على حاملي الفرمانات المشكوك فيها ، ولاصحاب مثل هذه الامتيازات القدماء ، على أن تبقى لهم حرية التصرف التامة (لا الملكية الصرف) ، وكذلك للقرويين الذين كروا نهراً من الانهر أو غرسوا بستاناً ، ولشيوخ القبائل بمقدار يسع القبيلة كلها • وفتحت دوائر التمليك (الطابو) فملئت السجلات واعطيت سندات التملك ثم دفعت الاقساط الأولى • ولذلك فمن الممكن أن يقال ان معظم الاراضي في العراق هي « ميري طابو » أي أراض حكومية مضمون اشغالها أو التصرف فيها (قبالة تعهدات مهمة) لاصحاب « اللزمة » •

فعقدت على هذا أعلى الآمال التي لم تكن في غير محلها بالكلية • لان الشيخ الذي كان بالامس محور القوات المعادية للحكومة أصبح فاقداً لما كان يملكه من وسائل الارهاب ، ولان النظام القبيلي نفسه ضعف في محيطه الجديد محيط التوطن والاقامة ، كما غدت المصالح العديدة وعلاقات هذه الحياة الجديدة طاغية على مظهر الحياة القبيلية البائد • ولما كان الشيوخ قد أصبحوا رؤساء المجتمعات الزراعية بعد التوطن فقد سهل الاتصال بهم لانهم ظلوا مضطرين للاقامة في مكان ثابت ، وكذلك غدا عقابهم ممكناً لان الماء الذي يسقون زروعهم به هو بيد

الحكومة ، كما أمكن اسيفاء الضرائب منهم لان حاصلاتهم لم يعد من الممكن تهريبها أو التصرف بها بسهولة ويسر • هذا وقد أصبحوا معتمدين ، كملاكي الاراضي ، على الحكومة ليستمدوا منها سلطتهم ، وقوتهم على أخذ حصتهم من الزرع • ومن أجل ذلك كله غدا من المنتظر أن تزداد قوة الرجال وتكثر الواردات •

الا أن هذه الطريقة لم تنجح نجاحاً تاماً ، فقد كانت عرضة لصعوبتين عظيمتين اولاهما جهل موظفي الطابو وقابليتهم للارتشاء مما يدل على أن ماكنة الطابو لم تكن قائمة بواجبها على الوجه المطلوب ، وثانيتهما عدم اهتمام الرأي العام بالاستفادة من الوضع الجديد • فقد أدرك كثير من الناس الغاية الواضحة من تفكيك القبائل واسكانها • وارتاب آخرون بالخير الذي يصدر عن « سراي » الحكومة • وقنع غيرهم بما كانوا عليه من العزلة وعدم اقتضاء ذلك قبول أي تبدل في الوضع • يضاف الى ذلك أن خوف العشائر الواضح من التجنيد قد أبعدهم عن قبول تبعات التوطن ، الذي كان ينطوي على مساوىء أخرى تدور حول سهولة وصول الحكومة اليهم ، واعتمادهم على الاسواق وجداول الري ، والكد والتعب في عمليات الزرع • وعلى كل فقد كان هذا كله يتطلب أموالاً للدفع • ولذلك خاف معظم رؤساء القبائل من الوضع الجديد فابتعدوا عنه • وكانت النتيجة ان استغل الوضع نفر من سكان المدن المقربين عند موظفي الطابو في بعض الاحوال ، وتقبل الآخرون شراء الارض فاكتسبوا حقوقها ولكن في مكان يبعد عن العشيرة ، ودفع غيرهم القسط الاول ثم امتنعوا عن دفع الباقي • وعلى هذا فان كانت الغاية من أعمال الطابو تثبيت التملك القبيلي للاراضي الزراعية الذي يجب أن يجعل من الشيوخ ملاكين للارض فان تلك الغاية قد أحبط أغلبها بتردد الشيوخ أنفسهم وأحجامهم عنها •

ومع ذلك كله فقد أتت تلك المحاولة ثمراً يانعاً في بعض الاماكن • فقد أصبح شيخ بني كعب أو المحيسن ، الذي يملك البساتين الواسعة على ضفاف شط العرب ، وبساتينه رهائن ثمينة تستغلها الحكومة عند الحاجة • وكون السادة (انصاف العشائريين) في انحاء الشامية الموحشة نواة للسكنى والتوطن • وأصبح شيخ عنزة ، ابن هذال العظيم ، ما لكاً للبساتين في سقي الفرات الاعلى • واستقر

فرحان رئيس قبائل شمر الجربا في أراضيه بالشرقاط . كما أسجل لكثير من الاغوات على الحدود الكردية بقسم من الاراضي بأسمائهم . على ان أعظم أعمال نظام الطابو شأناً ، والضربة القاضية عليه في الوقت نفسه ، كانت مسألة تملك آل السعدون في المنتفك . فقد بادروا ـ ورأسهم ناصر باشا الموظف العثماني يومئذ ـ الى شراء الحقوق في مقاطعات وأراض غامضة الحدود في منازل القبائل . فأصبح أفراد عشائر المنتفك ، الذين طال تحملهم لامرائهم ، فلاحين عندهم ، وقد رأوا سادتهم مؤخراً يحملون الالقاب العثمانية ويتقلدون الوظائف في الوقت الذي كانوا هم فيه مذعنين لا لدفع الضرائب حسب بل لدفع حصة من حاصلهم لساداتهم أصحاب الارض . ومهما يكن من شيء فان الحكم لا يدوم لأحد ، وربما كان نجم آل السعدون قد بدأ بالأفول : فان تملكهم هذا ، باشراف العثمانيين المصحوب بالجشع ، والنزاع القائم بينهم هم أنفسهم ، قد أدى الى اضمحلالهم . وكان تبدل الوضع هذا شيئاً فجائياً لسكان الاهوار . فعندما كانت أراضي المنتفك الوسيعة ينعم بها انعاماً رسمياً على هذا السعدوني أو ذاك أخذت تبدأ معها النزاعات بين الملتزم والمالك ، لأن أيام شيخ المشايخ المجيدة كانت قد انتهت . على ان السعدونيين استمروا على العيش في مقاطعاتهم متقاتلين يقودون قسماً من القبائل ويحارب بعضهم بعضاً . وبقيت منطقة المنتفك موصدة الابواب بوجه الحكومة ، ولم يدفع للحكومة فيها من الضرائب الا النزر اليسير . غير انه مع ذلك كله قد بذرت بذور الاسكان هناك ، وتفرق السعدونيون وأخرجوا من بعض الاماكن .

وتدل أحوال القبيلة نفسها على النواحي الاخرى من الخطة الجديدة وعلى المصاير التي آلت اليها . إذ كان ناصر باشا ، أخو منصور ، قد ساوم بمشيخته في ١٨٦٦ م (١٢٨٣ هـ) أعلى مساومة . فقد صار في عهد مدحت باشا الآلة ، المصطفاة الراضية ، المسخرة لتطبيع المنتفك[١٠] . ثم اسس مدينة الناصرية ، وقبل منصباً حكومياً عالياً . الا ان هذا التفريط في عشيرته قد ترك أثراً سيئاً فيها كانت نتيجته وبالاً عليها ، وكان ناصر وابنه فالح مرشحي الحكومة لتنفيذ الروح

---

(١٠) كان في ١٨٧٢ م (١٢٨٩ هـ) المتصرف في لوائه ، وفي ١٨٧٤ أرسل الى الاحساء لاخماد الثورة . وفي ١٨٧٥ عين والياً على البصرة ، واخذ من ذلك المنصب الى استانبول .

العثمانية (العثمنة) وسياستها هناك ٠ فزخرت المدة التي بين ١٨٨٠ م و ١٩٠٠ م بالنزاع المستمر بين الجهتين ، ذلك النزاع الذي اندمج فيه الطمع الشخصي والبغضاء بنتائج الخطة الجديدة الواضحة ٠ اما الحكومة فقد تمايلت بين المقاومة القنيلة على « الطراز القديم » والخطة الحازمة في ابقاء رجلها المسخر في الحكم ٠ وتصرمت السنون بعد السنين والحرب القبيلية قائمة على قدم وساق ، وكانت قوات الدولة تتدخل أحياناً من حصونها في الخميسية أو خارجها ٠ وكان الظاهر يومئذ ان الحكومة المدنية لا يسعها ان تسير البتة هناك ، على ان الاسكان وتشتت القبائل كان سائراً بحالة شبه ظاهرة برغم ان اليوم الذي يخلد فيه فلاحو المنتفك الى السكينة ودفع الضرائب كان ما يزال بعيداً ٠ وبذلك تبددت المخاوف منذ مدة مديدة من وجود جيش منتفكي متحد ٠

ونشأ مثل هذا الوضع في قبيلة شمر ، اذ حصل رد فعل مماثل على الشيخ الذي شرع في تنفيذ السياسة العثمانية في عشيرته ٠ فقد أصبح فرحان بن صفوك باشا رفيعاً كناصر فوجب عليه أن يكون واسطة لاسكان البدو التابعين له ، وزار استانبول فغاظ قبيلته بتخلقه بالعادات التركية وتزوجه بأزواج مدنيات ، وباقامته لاجل الزراعة والفلاحة على دجلة بكل خضوع ٠ وكانت النتيجة ان انشق نصف القبيلة عنه برآسة فارس الداعي للمحافظة على حياة البادية والحرية ، واستمرت العداوة من أجل أشياء خاصة : فلم يكن توطن فرحان واشتغاله بالفلاحة مهماً بحد ذاته بقدر أهميته فيما صنع في تحطيم عادات البدو وتقربه من الحكومة وتثقيف أبنائه بالثقافة التركية ، وكان ذلك أهم بكثير من انتصاراته في الحروب القبيلية ٠ اما العشائر الاخرى فقد أصبحت عندها تربية الابل من بابة حفظ مظاهر الاحترام للشيوخ بدلا من أن تكون واسطة العيش للجميع كما كانت من قبل ٠ فضربت الدليم خيامها بين عانة والفلوجة ، وأقامت قبائل زبيد على دجلة وحوالي الحلة ، وضربت شمر طوقة خيامها من ديالى الى الكوت تقريباً ٠ والحقيقة ان خارطة القبائل أخذت شكلها الذي هي عليه الآن منذ ذلك الحين ، وبات رسم خطوط الحدود عليها يعمل بكل تدقيق ، وأصبح العراق في ١٩٠٠ م بلاد القبائل التي بدأت تضيع ميزاتها القديمة بسرعة وغدا من الصعب عليها أن ترجع الى طراز المعيشة السابق ٠ فباتت علاقاتها محلية أكثر منها قبلية ، ومعتمدة على الأمن والنظام أكثر من اعتمادها على شيء آخر ، ومحتفظة برغم ذلك كله بعددها المادية ولغتها

وجهلها وسهولة تحريكها في غير مصلحتها ، وتذمرها من الحكومة وجميع أعمالها .

على ان ناحيتي السياسة القبلية الموصوفتين حتى الآن ـ اسكان العشائر في أرض واحدة ، وبث الروح العثمانية فيهم (العثمنة) ـ كانتا كلاهما مهدمتين للروح القبيلية . وقد بقيت هناك ناحية أخرى ، يرجع عهدها الى سنة ١٨٨٥ ، وتختلف في اتجاهها اختلافاً بيناً . ولم تكن هذه من سياسة باشوات العراق بل من سياسة السلطان نفسه . ولما كان المقصود من هذه ان تطبق على الأكراد فقط ، فقد كانت الغاية منها ضمان اتصالهم الوثيق بالخليفة أكثر من توطين القبائل والعمل على استقرارهم ، وذلك عن طريق الخدمة الاجيرة من دون ترك الحياة القبيلية . فبقيت في الوجود أفواج « الحميدية » المتألفة من الخيالة الأكراد ، المقدمين من كل رئيس قبيلة ، حتى أزالت ثورة ١٩٠٨ السلطان الذي أمر بتشكيلها . وقد استفادت الحكومة بعض الفوائد من هذه القوة المستأجرة المتألفة من الاكراد الاقوياء : غير أن انحلال الضبط في الحميدية المفعم بالشغب والعربدة ، والشك في ولاء رجالها واخلاصهم للدولة ، يجعل هذا الوجه من أوجه تلك السياسة معرضاً للادانة والتجريح بوجه عام . فلم يتعد تأثيرها حواشي الحدود الشمالية من العراق . وكان ابراهيم باشا الملي ـ من نسل تيمور باشا الذي عاش في أيام سليمان الكبير ـ من جملة من جندوا في ضمن هذه الفترة .

هذا وتلوح الحروب القبائلية في هذه السنين وهي ضئيلة بالقياس الى السنين السابقة التي بحثنا فيها حتى الآن . فقد ساق مدحت باشا حملة شهيرة على الدغارة ، وتمادت شمر في القلاقل كل سنة ، ولا سيما بعد شنق عبدالكريم وظهور فارس بعده لقيادة المعارضة المضادة لفرحان . وكان بنو لام يتقاتلون بينهم في سنة ١٨٧٩ م ، كما كان جيرانهم البو محمد يقطعون طرق المواصلات في دجلة[١١] سنة ١٨٨٠ م ، وحدث في السنة نفسها هياج على المسيحيين في بلاد الهكاري بتحريض الشيخ عبدالله ، وازدادت قوة الشيخ سعيد في السليمانية فاستفحل أمره وبقي يلعب على الطرفين . فكان يحالف الحكومة تارة ، وينتقض تارة أخرى متفقاً

---

(١١) ومن تعدياتهم الاخرى انهم هاجموا باخرة شركة لنج المسماة « خليفة »

مع الهماوند • وتمادى في التخريب والفساد ، وثارت ثائرة الهماوند فبقيت الطرق الواقعة شرقي كركوك في حكمهم ، ولم يجد نفعاً ترحيل قسم منهم الى مكان آخر[12] • فازداد فسادهم ازدياداً قضوا به على الحكومة في السليمانية في بعض الاحيان • وفي سنة ١٨٨٦ حدثت معارك سالت فيها الدماء بغزارة بين شمر والدليم ، وبين قبيلتي الفتلة وبني حسن في الاهوار سنة ١٨٩٣ م • وفي هذه السنة الاخيرة عاقب كاظم[13] باشا صهيوداً من مشايخ البو محمد ، كما نُفي أيضا حسن الخيون شيخ بني أسد بعد ان اخرج من الهور عنوة • وفي امكاننا أن نضيف الى هذه الحوادث عشرات أخرى غيرها تتضمن تأديبات عديدة للقبائل • فقد كان من المعتاد في بعض الاماكن ان ترسل الحكومة في كل حفنة من السنين قوة خاصة لجمع بقايا الضرائب • وكان البعض من هذه القبائل لم تصل اليها سياسة الاسكان ، ومع ذلك كله فقد بدأت معارضة القبائل المنظمة للحكومة تقل كثيراً عما كانت عليه من قبل • وازداد تغلغل النفوذ التركي ، فاذا بالطربوش يشاهد في كل قرية • وصار في الامكان عقاب العصاة واحداً بعد واحد في غير خيبة ولا فشل تقريباً ، وحل محل الحرب القبائلية الموجهة ضد الباشا من قبل تمرد جماعة من العصاة في مكان دون آخر • وبهذا أصبح الاضطراب والعبث بالأمن ، الذي ما يزال يخيف اخافة ظاهرية ، لا يستند الى أساس متين •

لكن الوسائل اللازمة لمواجهة هذه الاوضاع قد تحسنت أيضاً • فقد ظهرت للوجود ، بعد عودة القوات العسكرية من الحرب الروسية سنة ١٨٧٨ ، مراكز عسكرية في الخميسية من بلاد المنتفك ، وفي الرمادي بين الدليم ، وفي العمارة بلاد بني لام ، وتحسنت الحاميات العسكرية بعض التحسن في ضبطها وعدد أفرادها • وقدم التلغراف (المعرض للعبث بصورة محزنة) مكسباً جديداً للقوات الحكومية كذلك • كما ساعدت الزوارق البخارية في قمع حركات القبائل في دجلة الجنوبية • يضاف الى ذلك ان مراكز الشرطة التي أسست على طول الطرق

---

(١٢) رحلوا الى شبه جزيرة سينا فى ١٨٨٢ م الا انهم رجعوا لوطنهم قسرا بالحرب والسلب •

(١٣) أخو زوجة السلطان عبدالحميد ، وقد ابعد الى بغداد لاسباب سياسية فكان فيها قائداً للخيالة •

ولا سيما بين الرمادي ودير الزور ، وبين الخالص وكركوك ، وجنوباً بين بغداد والحلة والعتبات المقدسة ، قد جعلت الاسفار فيها سالمة من الخطر للمتبصرين من الناس على شيوع السلاح وكونه ظاهراً للعيان في كل مكان ، فضلاً عن ان نفوذ الحكومة بين عدة من القبائل قد زاد بتأثير أعمال الري التي كان على الحكومة ان تعالج تنظيمها وتوزيعها بالعدل لعمران البلاد • فقد كان كل عقد من عقود القرن التاسع عشر يشهد مزيداً من مياه الفرات تتدفق في فرع الهندية[14] • وما حل عام ١٨٨٥ حتى أوشك فرع الحلة على الجفاف ، وأقلق العشائر الذين أقاموا على شطوطه من أمد قريب • فجيء بالمهندسين الفرنسيين[15] لاصلاح الحالة ، وأنهوا عملهم في ١٨٩١ • وبذلك صار بوسع الجميع أن يروا في هذا المشروع شيئاً حيوياً للقبائل ، لا يمكن ان ينجز الا على يد مؤسسة تفوق القبائل في قدرتها — الامر الذي يعد مثلاً من أمثلة اعتمادهم الجديد على الحكومة •

حكومة العراق فى نهاية القرن التاسع عشر

لقد ساهم العراق لحد ما في المصائر الدولية التي كانت تركية منغمسة فيها • وأعد الاموال لبذخ عبدالعزيز المبيد ، ثم قبّل فرمانات خلفه الغبي مراد الخامس ، كما رحب بعبدالحميد الثاني الشديد البأس الذي كان في نصبه سنة ١٧٧٦ أمل للجميع • وقد سببت الحرب الروسية الناشبة في ١٨٧٧ م فراغ الحاميات العراقية وزادت في عبء الفقر المنتشر فيه • وكان للدعاية السنية الفعالة

---

(١٤) ان شط الهندية (المسمى باسم الهندي آصف الدولة الذي حفره لايصال الماء الى النجف) بدأ يجري الماء فيه بصورة منتظمة منذ ١٨٠٠م ، وفى ١٨٣٠م أصبح من الضروري توجيه قسم من ماء الفرات الى فرع الحلة الذي بدا يقل ماؤه ، فحاول علي رضا باشا ونجيب باشا من أجل ذلك انشاء سدة له • وتمكن عبدي باشا من سد الفرات وبناء ناظم قوي له من الآجر • وقد تهدم ذلك الناظم سنة ١٨٥٤م • ثم بنى عمر باشا سداً عظيماً من التراب والحطب فلم يبق الا قليلا • وكان تعميره موضع عناية خلفائه باستمرار • وما حلت سنة ١٨٨٠م حتى أصبح فرع الهندية هو مجرى الفرات الاصلي تقريبا •

(١٥) كانت تلك محاولة شونديرفر فى بناء سدة محكمة عرضها ياردتان معه فتحة فى وسطها • وقد تصدعت السدة المذكورة فى ١٩٠٣م وبقيت الحالة سيئة فى شط الحلة الى أن أكمل ولكوكس انشاء سدة الهندية فى ١٩١٣م

التي كان يبثها عبدالحميد في البلدان والعشائر الكردية تأثيرها البين في الولايات العراقية التي قدرت لعبه الحاذق بالامور الكثرى محافظة ورجعية[16] • وفي السنين الاخيرة من القرن سرت اشاعات ضعيفة في دواوين بغداد بحركة جديدة ترمي الى « الاتحاد والترقي » ، كما تسربت أفكار ، تختلف عنها وتقل شدة ، غايتهـا استقلال العرب • وليست هناك حاجة لذكر أكثر من هذا عن مكانة العراق في الامبراطورية العثمانية • فقد كانت الولايات العراقية ، على كونها من أبعد الولايات وأكثرها تأخراً ، تحتوي على جميع معالم العهد الحميدي ، ولم تكن لتأسف على بعدها عن ضفاف البوسفور بالنسبة للشؤون الاخرى •

ويقع البحث المسهب فيه عن تشكيلات الدوائر الحكوميـة المختلفة خارج نطاق هـذا التاريخ ، لان المعلومات الوافية عنها يمكن الحصول عليها من السجلات الرسمية • وأنما نحن معنيون هنا بالاشارة ، بصورة موجزة ، الى التبدلات المهمة فقط الحادثة خلال العهد الاخير هذا ، وبالحكم على كفاية الماكنة التركية بشكلها هذا من وجه عام •

فقد كان أول عمل من أعمال مدحت باشـا ان اعلن تطبيق نظام « الولاية » في العراق ، الذي سبق ان وضعه هو وطبقه في الدانوب • وبهذه الواسطة أدخلت الترتيبات الادارية التي بقيت فلم يمسها الا قليل من التبدل ، حتى عام ١٩١٤ م • ففي كل بلدة او قرية ، مصنفة بحسب أهمية منطقتها ، كان يوجـد المتصرف أو قائم المقام أو مدير السنجق أو القضاء أو الناحية • وفي كل من هذه التشكيلات كان ثمة ملاك للموظفين الذين يقومون بواجبات معينة ، وفي كل منهـا مجلس منتخب يساعد رئيس الوحـدة الادارية بصلاحيات مبهمة • وما تزال الأسماء والمصطلحات الحكومية ، التي كانت معروفة في العهد الاخير من العراق التركي ، متداولة حتى الآن •

وبقيت البصرة سنجقاً ملحقاً ببغداد حتى كونت منها في ١٨٧٥ م ولاية من جديد • وقد سبق للاتراك ان كانوا يعدون نجـداً قائممقامية ملحقة بالبصرة ،

---

(١٦) ان الاحترام الذي لا يزال يكنه سكان المدن فى العراق لعبدالحميد شيء معروف تماما •

وصارت الاحساء سنجقاً في ١٨٧١ م ، وفي السنين التالية لذلك صار من المناسب للحكومة التركية ان تنعم بمناصبها الادارية على مختلف امراء الخليج • وعادت البصرة سنجقاً في ١٨٨٠ م ، ثم اعيد تشكيل الولاية فيها سنة ١٨٨٤ م • وقل شأن الموصل فأنزلت لدرجة المتصرفية عام ١٨٥٠ م ، ثم صارت في سنة ١٨٧٩ م ولاية من جديد لها سنجقان : كركوك والسليمانية[١٧] •

وكان الامن العام مستتباً بقوات الجيش النظامية والاحتياطية ، وبالاسطول في البصرة وبقوة « الجاندرمة » • وكانت قوات الجاندرمة ، والضابطية منظمة أفواجاً وسرايا ، لكنها في الحقيقة كانت متوزعة في مراكز صغيرة منفصلة عديدة ، ولم تكن سوى قوات منحطة لا نظام لها يدير أموالها ضباط أميون[١٨] فاسدو السيرة في العادة واناس حثالات غير مجهزين ولا تدفع اليهم رواتبهم بانتظام • ولم يكن هؤلاء ، في الحقيقة ، سوى مراسلين وجباة ضرائب وخدام

---

(١٧) وعلى هذا أصبح العراق التركي بشكله الاخير يومئذ يحده سنجق دير الزور الذي لا يتبع أية ولاية ، وولاية ديار بكر التي لها سنجق المركز وسنجقا ارغنة وماردين ، وايران • وكان يتألف من ولايات ثلاث هي : ولاية الموصل التي كانت تضم ثلاثة سناجق وهي سنجق المركز وتتبعه أقضية دهوك وزاخو والعمادية وسنجار وعقرة ، وسنجق كركوك وتتبعه أقضية اربيل ورانية وراوندوز وكوي سنجق وكفري ، وسنجق السليمانية وتتبعه أقضية بازيان وحلبچة وشهرزور ومركه • وولاية بغداد التي كانت تضم سنجق المركز وأقضيته عانة والرمادي وسامرا والكاظمين والعزيزية والكوت وخانقين وبعقوبة ومندلي وبدرة ، وسنجق الديوانية وتتبع له أقضية الحلة والسماوة والشامية ، وسنجق كربلا وأقضيته الهندية والنجف وقضاء الرزازة الصحراوي • وولاية البصرة التي كانت تضم سنجق العمارة وأقضيته دويريج والزبير وقلعة صالح ، وسنجق البصرة نفسها وأقضيته الفاو والقرنة والكويت ، وسنجق المنتفك وأقضيته مركز الناصرية والشطرة وسوق الشيوخ والحي • وكان سنجق الاحساء يضم ثلاثة أقضية وهي الهفوف والقطر والقطيف • مع انه كان سنجق القصيم الخيالي في وسط الجزيرة العربية يضم ، على الورق فقط ، قضائي بريدة والرياض • وقد تشكل سنجق القصيم هذا بشكله المذكور منذ د١٩٠٥م •

(١٨) وأصبحت الامية أكثر انتشاراً عند انتهاء القرن • غير ان قوة الجاندرمة الموصوفة آنفاً قد اصلح من شأنها كثيراً سنة ١٩٠٠م • ولم تتألف قوة شرطة البادية الا بعد سنة ١٩٠٠م باشارة من فان دير غولتز (غوليچ باشا) •

للموظفين الكبار الاقربين • ولم يكن بوسع أفراد الجاندرمة ان يقوموا بواجبات الشرطة على الوجه المطلوب في الطرق العامة ولا في الاسواق • وجل ما كانوا يتفوقون به على الناس شيء من النظام والسلاح ، وشيء من القيادة والتدريب بغير اختصاص•وعلى هذا فقد كانوا ضعفاء لا قدرة لهم لمطاردة اللصوص العشائريين، وسهلي الارتشاء في المدن • عـلى انه كان بينهم كثير من الرجـال المقتدريـن الاجلاد •

ولا يحتاج اسطول شـط العرب الى الوصف • فقـد كان منذ أول عهده، قبل عشرات خلت من السنين قوة حقيرة متفككة لا قيمة لهـا الا باطلاق المدافع للتحية وبنقل قوى الجيش بكل مجازفة • على ان الحقيقة هي ان الجيش التركي لا يمكن ان يوفى حقه بهذا الوصف ، بيد ان وصفه المسهب فيه لا يدخـل في تاريخ العراق هذا • فقد عدل « النظام الجديد » الذي جاء به محمود الثاني بعد الحروب الروسية لسنة ١٨٥٤م ، ثم نقح ثانية بموجب الجهاز القاري ذي المناطق في سنة ١٨٨٥ م • وأصبح العراق بموجب هذه التراتيب يكوّن منطقة « الجيش السادس » الذي يقدم وقت السلم فيلقاً واحدا ، وهو الفيلق السادس ، ويقـدم وقت الحرب ثلاثة فيالق ، بصورة نظرية ، هي السادس والثاني عشـر والثامن عشر • وكانت طريقة جمع الجند هي طريقة التجنيد الاجباري نفسها في المدن والقرى مع كثير من الاستثناءات ، ورمي « القرعة » بين اللائقين لخدمة العلم • اما الاماكن العشائرية فكانت تدفع فيهـا « البـدلات » لأن كل شـخص مكلف الخدمة كان بوسعه ان يدفع بدلاً عن الخدمة فيعفى منهـا • وكانت تشكيلات الجيش المؤلف من « النظام » (الجيش النظامي) ، و « الرديف » أي الاحتياط الاول ، و « المستحفظ » أي الاحتياط الثاني ، متقنة وملائمة للحال بوجه عام • وكانت الاركان والتأسيسات والتعليمات التعبوية بوجه عـام عـلى نمط الجيش الحديث • وقد كانت مقرات الوحدات وسائر التشكيلات توجـد كل منها في المكان المعين لها • فهذه النقاط الحسنة ، مضافاً اليها السجايا العسكريـة العاليـة للجند الاكراد والتركمان ربما كان يستدل منها على وجود جيش كامل الكفاية• على ان الواقع كان يدل على غير ذلك • فان التدريبات المتقنة المتكررة لم تجـد نفعاً ، ولم تحل دون هبوط مستوى الوحدات العسكرية الى الدرج الاسفل من

الكفاية ، وأحياناً الى [illegible]ححلال • وكانت حتى الجيوش النظامية تكلف بواجبات غير عسكرية ، وكثيراً ما كان جنود الاحتياط يقلومون بالقوة « السوق العسكري » للحرب ، في حين أن أفواج الاحتياط كانت تعتبر حلم القيادة العليا وأملها المرتجى • اما التجهيزات فلم تكن متناسقة ولا موحدة ، اذ كانت الاسلحة من جميع الطروز[19] ، وكانت الالبسة خلقا ومختلفة ، كما كان التدريب غير كاف لجميع الرتب والدرجات • وكان تأخر دفع الاجور من الامور الاعتيادية ، فكان من يحصل عليها كمن يحصل على معروف نادر الحصول • هذا الى ان دفعها كان عرضة لانواع الانتقاص والاختلاس وللاغتصاب والمشاغبة على الدوام • وكان أبرز ما يُـه في الاول والآخر الانحطاط الشائن في مستوى كل شي فيه ، فلم يكن هناك أي جيش اخر يسمح بأن يكون المهندس التركي أو الطبيب أو المدفعي فيه بهذه الدرجة من الانحطاط[20] • على ان هذا الجيش الذي كانت خيوله دبرة الامطاء[21] ، وحالته الصحية في حالة العدم ، والذى كان يستعمل البنادق الصدئة والمدافع من الطرز البائد، ويشد عدد خيله بالخيوط والحبال ، نقول ان هذا الجيش بالرغم من ذلك كله لم يحرم القيام ببعض الحركات الموفقة • لكنها كانت تدل بايضاح ، على كل حال ، على معالم الخيبة المتأصلة في الحكم التركي كمثل : التدني في المستوى شيئاً فشيئاً في كل ميل يبعد عن استانبول ـ والفقر (المسبب عن الادارة العمياء الفاسدة) الذى كان يشدد في المساوىء التى تنتج عنه ـ والقناعة الشرقية بالاحوال الراهنة ، والجهل الذى يطغى على كل شيء • ولم يكن هناك شيء من الصداقة بين الضابط وجنوده سوى ما هو كعلاقة الخادم بمولاه • اما بين القبائل وسكان القرى فان الخوف من التجنيد كان مما يؤخر قضية الاسكان ويفزع الكثيرين من الالتفات للامور العامة •

---

(١٩) الطروز جمع طرز ـ م • ج •

(٢٠) ان هذه الملاحظات تنطبق على العراق فى ١٨٧٠ ـ ١٩٠٠م ، لا على العراق حتى السنين الاخيرة قبل الحرب العامة ، ولا على جميع الجيوش التركية فى العهود الاولى غير المذكورة • فقد كان الجيش السادس باعتراف الجميع أحط الجيوش نظاما •

(٢١) الامطاء جمع مطا وهو الظهر

وليس هناك من الحاجة ما يدعو لذكر شيء عن النظام التشريعي في البلاد سوى القول بأنه كان توفيقاً بين السذاجة الاسلامية و « قانون نابوليون » • وكان ، وهو المشوه عند التطبيق (الا أقله) ، المبرقش في مجراه ، البطيء لحد الأياس ، يسير بقوانين هي سقيمة التقنين عندما تكون قديمة ، وسيئة الوضع اذا كانت حديثة ، وأحيانا غير ممكنة التطبيق بصورة ضمنية في هذه الولاية أو تلك • اما كون الفساد كان عاماً شاملاً ، وانتهاك حرمة العدالة غير بعيد عن متناول المال والمحسوبية مهما كان نوعه ، فكان في الواقع شيئاً يعترف به جميع الذين يشتركون في اقترافه أوانذاك • فقد كان يؤخذ المجرم او المديون من المحكمة الى سجن يجلب له فيه أقاربه الطعام (فيشاركه فيه السجان بكل مودة) ، وكانت الملابس المختصة بالمساجين والانظمة والاعمال التدريبية من الامور غير المعروفة ، كما كانت جميع الامور التي تحدد من الحرية المطلقة ينظر اليها بأسف الجمهور الذي نادراً ما كان يمقت الجريمة او الدين • وليس هناك حاجة للتأكيد على ان كل موظف في السجن من الحاكم الى الحارس كان يبيع الامتيازات والخدمات ، وحتى اطلاق الحرية بالمال •

واذا ما تركنا العدل والامن جانباً نأتي الى البلديات والمصلحات العامة • فتقدم لنا البلديات أشد ما يدعو الى الارتياح من أوجه الحياة في آسية التركية[٢٢] • فالرئيس والمجلس المنتخب في كل بلدة ، الذي يجتمع بانتظام لتسيير مهام الحراسة والحماية ، وتنظيف الشوارع ، وتجهيز الماء والضياء أحيانا ، واصلاحات الجسور ، والاشراف على الابنية ، وما أشبه ذلك ـ كان يتمتع بكبرياء بلدي غير يسير ونصف استقلال تجاه الحاكم المحلي • والحقيقة ان البلديات في كثير من الاحايين كانت لا تقوم بشيء سوى دفع الرواتب والاجور للموظفين والمستخدمين ، والاحتفاء بالموظفين المقيمين أو الزائرين بين حين وآخر ، وعلى هذا فكانت

---

(٢٢) لا شك للباحث في تاريخ الاسلام ان نظام البلديات مبني على نظام « الحسبة » في الدول الاسلامية التي قوامها الامر بالمعروف والنهي عن المنكر وكان أمر الحسبة موكولا الى القضاة والى من يكلونها اليه من نوابهم واصحابهم ، فالمحتسب كان يقوم مقام رئيس البلدية اليوم ولكن نظام الحسبة أرقى وانقى وأرعى لمصالح الشعب ـ م • ج •

مستوياتها منحطة وأعمالها لا تضم ما تتطلبه السلطات البلدية في أوربة ، ومع ذلك كله كان بوسع المرء أن يرى من النزاهة في الغاية والشعور بالخدمة عند البلديات أكثر مما كان يراه في الادارة المركزية • وأكثر هذه الهيئات كانت من صنع مدحت باشا ، ثم ظهرت البقية للوجود واحدة بعد الاخرى • وعند حلول عام ١٩٠٠م كانت كل قرية مهمة لها مثل هذه الهيئة ، وكان في بغداد ثلاث بلديات • ومن المصالح العامة التي تكلف بها الحكومة كانت دائرة النافعة (الاشغال العامة) قليلة الفعالية في العراق[٢٣] • وكانت الخدمات الصحية من اختصاص البلديات في البلدان ، وكانت مفقودة في غيرها • وكانت محطات الحجر الصحي ـ الموضوعة في الفاو والبصرة وفي خانقين والعتبات المقدسة ، وفي بعض المراكز الاخرى في طريق الزوار ـ تجمع بين عدم الكفاية عدماً شائناً وخبث المقصد ، وكانت تستخدم بسهولة سلاحاً مزعجاً على الاجانب ، لان كل فرد كان بوسعه أن يشتري السماح التام بدراهم معدودة • وكان في بغداد مستشفى عامة ، ولم يكن في غيرها (خلال هذه المدة) أي مستشفى • ومما يجب أن يقال عن جميع الخدمات الطبية والصحية هذه ان أبرز ما يتضح للعيان من الخليط الشرقي المألوف المتكون من النظافة الوسواسية وأشد أنواع القذارة ازعاجاً كان الشق الأخير[٢٤] • ولم تكن مصلحة للبيطرة • وكان من المعارف شيء قليل ، الا ان هذا القليل كان كثيراً جداً بالنسبة للعدم • وقد عظم شأن المعارف بسرعة بعد الدافع التقدمي العظيم الذي جاء به مدحت باشا • فمن المحتمل ان نسبة المتعلمين كانت في سنة ١٨٥٠م بمقدار نصف في المائة من سكان المدن ، ثم ارتفعت النسبة الى ٥ ـ ١٠ بالمائة في سنة ١٩٠٠م • (وكان التعليم في القبائل وما يزال منحصراً في أفراد من الناس) • وكانت في المدن الكبيرة مدارس للنصارى واليهود ، وكانت مدارس الاتحاد « الاليانس » الاسرائيلية ، من بين هذه ، تقدم أحسن أنواع التعليم • ونادراً ما كان يتفوق

---

(٢٣) ان الاشغال العامة القليلة جدا كان يقوم بها الجيش ودائرة الاراضي السنية والبلديات ، اما سدة الهندية (التي شيدها شونديرفر في ١٨٩١) فكان تشييدها شيئاً شاذاً •

(٢٤) تفشت الهيضة الحادة في عام ١٨٧١م ، و ١٨٨٩م ، و ١٨٩٤م ، و ١٨٩٩م • وتفشي الطاعون في ١٨٧٧م ، و ١٨٨١م ، و ١٨٨٢م

معظم هذه المدارس على الكتاتيب (مدارس الملالي) الموجودة في كل مسجد وجامع في ابتعادها عن الأساليب ومواضيع الدروس الحديثة • على ان نسبة المتعلمين كانت عالية جداً بين غير المسلمين من الرعايا • وكانت للحكومة مدرسة ابتدائية في مركز كل قضاء عدا المدارس العسكرية التي كانت موجودة • وقد أُسست مدرسة ثانوية للبنين في بغداد سنة ١٨٧٠م ، ثم أُسست مدرسة ابتدائية للبنات في ١٨٩٨م• وبوسعنا أن نتغاضى هنا عن جهل مديري المدارس المطبق وعن سوء خلقهم أحياناً • اما التدريس نفسه فقد كانت أبرز ظواهره استخدام اللغة التركية فيه ، فكانت لهذا نتيجتان : اولاهما ان مادة الدرس كانت غير مفهومة في الغالب ، وثانيتهما ان المراقبين نشأوا وهم غير قادرين على الكتابة بأيسر العربية • ولايمكن ان تنكر الفائدة السياسية من أمر تحويل العرب بهذا تحويلاً نصفياً الى أتراك ، فقد أدى ذلك الى تأجيل الشعور بالقومية العربية وتأخيره ردحاً طويلاً من الزمن ، وحصر المتعلمين بطبقة الموظفين ، فكان ذلك شيئاً قاضياً من الناحية التربوية • وبقي علينا أن نذكر شيئاً عن دائرتين هما : دائرة الطابو (تسجيل الاراضي) التي أسسها مدحت باشا بآمال معسولة فكانت ضرورية له في تحقيق خطته الرامية الى اسكان العشائر ، ودائرة الاوقاف (الهبات الدينية) • فقد كانت دائرة الطابو يعوزها الكثير من الامور الجوهرية المؤدية الى نجاحها ، فلم تكن هذه الدائرة تملك الخرائط ، ولم يكن لها مساحون ، ولا موظفون مثقفون نزهاء • ومن أجل هذا فقد ضاعت ، بين الالتباس والارتشاء ، الدقة التي كان من الاحسن لتسجيل الأملاك وحقوقها ان لا يكون له وجود من دونها • فقد كانت تعطى ناساً سندات التملك لاراض يملكها الغير ، أو أراض يشك في موقعها الحقيقي ، أو ليس لها حدود معلومة ، فأدت هذه الحالة ، التي نصفها ببضع كلمات ، الى صعوبات جسيمة نشأت عنها • اما الاوقاف ، ذات التأثير العظيم بما لها من مصالح دينية ــ اجتماعية قوية ، فقد نجحت لحد ما في قيمومتها على الهبات الدينية فأنقذتها ، على الاقل ، من سوء الاستعمال الدنيوي ، لكنها لم تتوفق في حالة محاولة المحافظة على واردات الوقف الزائدة دون الارسال بها في كل سنة الى استانبول ، في الوقت الذي كانت فيه أملاك الوقف منحطة بصورة عامة ، والجوامع مستهدمة مسترمة ، وموظفوها من رجال الدين يتضورون جوعاً • ولم تكن دائرة الاوقاف ، بكونها ملاكاً كبيراً للاراضي ، أحسن حالاً من أسوأ البخلاء الرسميين والمعرقلين ، كما كانت عدواً

أشد للتقدم الذي لابد من ان يقف حجر عثرة في طريق سوء استعمالها نفسها ، ومأموريها العاطلين .

اما عن المواصلات فقد ذكر شيء في الفصل السابق ، فلوحظ منه ان تشكيلات البريد لم تكن موجودة[٢٥] خلال الجيل الكامل الذى تلا عهد المماليك . وقد فتحت في ١٨٦٨م دائرة بريد بريطانية ـ هندية في بغداد والبصرة بموافقة تقي الدين باشا . وبقيت هذه الدوائر تشتغل بانتظام من غير اعتراض رسمي عليها عشر سنوات كان خلالها البريد ينقل بانتظام الى المدن الواقعة على الانهر ، والى العتبات المقدسة مدة ما . غير ان تركية شاركت في ١٨٧٨م في « مؤتمر باريس » ودفعت قيمة مشاركتها في « الاتفاقية البريدية » . ومنذ هذا الحين فصاعداً كان موقف تركية ازاء دوائر البريد البريطانية معروفا بالوقائع الديبلوماسية في استانبول، وبحملة محلية لايقاف أعمالها في العراق . وقد فتحت دوائر البريد التركية بالتدريج ، فظهرت للوجود مصلحة غير كاملة فكانت بالرغم من عدم الاعتماد عليها ومن سوء الاستعمال فيها كافية ، بوجه عام ، لحاجات العراق اليسيرة . وكانت زوارق البريد ، وصناديقه في الشوارع ، وموزعو الدوائر البريدية الهندية ، عرضة للعراقيل بين حين وآخر . ثم مدت خطوط التلغراف الى جميع البلدان الكبيرة فاصبح العراق ، في هذه الناحية ، من المناطق المفتوحة في العالم . على ان انعدام الاعتماد وضياع الاسرار لم يقلا .

اما في الانهار فقد قدر للملاحة البخارية أن تصيبها مجهودات مدحت باشا التي لا تعرف الراحة . فقد وُجد ان اسطول ادارة عمان العثمانية منحط فاقد للكفاية . وكانت أخريات بواخره وهي الباخرة « توفيق » والباخرة «رصافة» (اللتان طلبهما نامق باشا) قد وصلتا في ١٨٦٩م . فادخل الباشا على الادارة اصلاحات كثيرة ، وعين مديراً أكثر أهلية ، وأوعز بشق قناة كنعان القديمة ووصلها بالصقلاوية لتكون موصلاً مائياً واحداً بين النهرين . وندبت باخرة

---

(٢٥) ويقصد بهذا البريد الحكومي لخدمة المجتمع فبريد الجمال الذي لشركة الهند الشرقية كان موجوداً منذ مدة ، ولم يتوقف حتى حوالي ١٨٥٥م كما كان الباشوات خلال قرون يتصلون باستانبول ويتصلون بعضهم ببعض بواسطة الخيالة الططر

لاعمال المسح في الفرات ، ثم طلبت كراءة « كراكة » . وعندما حلت الشهـور الاخيرة من عهده كان اسطوله المؤلف من زوارق بخارية صغيرة يصل الى البصرة بالتدريج . غير ان نفاد المخصصات المالية ، وتحويل دولته له ، وعدم لياقة الزوارق نفسها ، كل أولئك أدت لتلف الارسالية بأجمعها . فقد بقيت الزوارق ولم تركب مكائنها فأتلفها الصدأ في معامل البصرة . ولذلك كان ما أنجز من هذه الاعمال يرجع فضله الى مدحت باشا . فقد صعد في أواخر أيامه في العراق الى أعـالي الفرات حتى وصل الى مسكنة بعد ان مر بسلام من الصقلاوية . وهذا يشير الى أوج ما وصلت اليه المشاريع النهرية في العراق التركي ، اذ لم يحاول أحد عمل شيء من هذا الضرب بعد هذا . ومنعت شركة لنج من توسيع اسطولها ، وكـان الترك مشغولين بالكلية بجعل بواخرهم صالحة للسير في الماء . وقد اغرقت فـي ١٨٧٦م « دجلة » فأستبدلت بها « بلوص لنج » ، وفي ١٨٨٣م منعت السلطات ببغداد الشركة فجأة عن تسيير اية باخرة بسبب أضافة الباخرة « مجيدية » الى اسطول الشركة مؤخراً . فاحتجت الشركة منكرةً ذلك أشد الاحتجاج لدى المقيـم البريطاني ، الا ان تقي الدين كان أشد من الحجر الصلد تجاه ذلك . لان العناد الطبيعي ، المضافة اليه بعض المصالح الشخصية في بغداد ، وأمل الربح الوافر من البواخر التركية ، كان سبباً في كل ذلك . فاتخذت الازمة في الاخير طـوراً سياسياً مهماً بين العاصمتين واستؤنف سير بواخر الشركة . وكانت حالة البواخر العمانية ، بعد مرور عشرين سنة على عهد مدحت باشا ، بحالة يرثى لها . فلـم يجدد من السفن شيء ، واصبحت واحدة منها انقاضاً نخرة ثم غـرقت الثانيـة واحترقت ثالثة ، وبقيت البواخر الاربع الاخرى مهملة حتـى اشرفت عـلى التلف[٢٦] .

على ان المواصلات البرية كانت على جانب أكبر من التقدم . فقد أثمـر مشروع « الترامواي » الذي جاء به مدحت باشا لا مشروع سكة الحديد . وبدأت

---

(٢٦) وقـد اشترت اسطول ادارة عمـان العثمانية في ١٩٠٤ دائرة « السنية » وسميت « الحميدية » . واخذت البواخر تسير بالحسنى وبربح أكثر حتى سقوط عبدالحميد ، ثم انتكست الى حالتها القـديمة التي وجدتها فيهـا الحرب العامة .

عدة عربات تقطع بعض الطرق الرئيسية ، ثم انشيء خط تراموای بين الكوفة والنجف في نهاية القرن • وفيما عدا هذه كان البغل والحصان ، والحمار والجمل، من وسائل النقل العامة • ولم يكن مشروع سكة الحديد (الاجنبي المنشأ) ميتا ، ففي ١٨٧٨م ، أي بعد الخيبة في محاولات أندرو بعدة سنوات ، ألفت جماعة أخرى مشروع « وداي دجلة » • وكان يمر طريق هذا المشروع من ديار بكر الى الموصل فالكويت ، غير ان تدعيم الحكومة البريطانية لهذا المشروع لم يتحقق فترك أمره • وفي ١٨٩٨م دهشت السلطات البريطانية عندما تسربت اليها اشاعات امتيازات روسية نيلت في استانبول ، وهي تتضمن مد خط من آسية الصغرى الى الكويت • الا ان النتيجة المحلية الوحيدة لذلك كانت توثق العلاقات البريطانية المعقودة مع الشيخ مبارك في الكويت وازدياد موقف السيادة التركية حرجا هناك • وقد تبين ان الالمان ، لا الروسيين ، كانوا يفكرون في شن مثل الهجوم[27] •

وبقي علينا أن نذكر شيئاً عن الدوائر الحكومية التي تنتج الواردات • فقد كان يمثل دوائر الكمرك ، في جميع الاماكن التي على الحدود النهرية والبرية ، أنحس الموظفين الموجودين في دوائر الدولة وأكثرهم فساداً وتفسخاً • فكانت ضريبة الاستيراد الاعتيادية المقدرة بثمانية في المائة ، وضريبة الاصدار المقدرة بواحد في المائة ، يغض النظر عنها أو تخفف بحسب السخاء الذي يبديه الشاحن أو رئيس القافلة لموظف الكمرك • والا فتصيب البخيل في هذا الشأن متاعب

---

(٢٧) كانت المانية في ١٨٨٥م قد اتمت مد سكك حديد البلقان ، فمهد ذلك لتحقيق اتصال مباشر باستانبول • وحصلت في ١٨٨٨م من تركية امتياز خط حيدر باشا ـ ازميت ، وفي١٨٨٩م تأسست شركة « سكة حديد الاناضول » برأس مال الماني ، فكمل خط انقرة في ١٨٩٣م ثم كمل خط اسكيشهر وقونية في ١٨٩٦م ، ثم أخذ امتياز (ولكن لم يشرع فيه) بخط انقرة ـ قيصرية ـ سيواس ـ ديار بكر ـ فبغداد • وفي سنة ١٩٠٠م كانت منزلة المانية في السكك الحديد التركية شيئاً ممتازاً وليس أمراً فنياً فقط • وفي ١٨٩٩م صودق على امتياز قونية ـ الخليج فزارت الكويت هيئة المانية • ولذلك كان حديث سكك الحديد في العراق في ١٩٠٣م موضوعا حساسا ، ووصلت في ١٩١٢م أول شحنة من مواد انشاء الخط ، وفي ١٩١٤ كان خط بغداد ـ سامرا كاملا •

التأخير ، والحجر الصحي ، والتقدير المفرط . على ان هذا كان مصدراً رئيسيا من مصادر الواردات . اما المصدر الثاني فكان الضريبة على المواشي والحيوانات « الكودة » وهو مورد ثر مناسب للحال فيما عدا المناطق المتوحشة . والمورد الثالث هو ضريبة الارض التي كان موظفوها ـ المشتغلون في شتى الاحوال المحلية ، ومختلف المشاكل العملية ، الذين تقل عندهم الاستقامة ـ موجودين في كل مقر أو مركز للحكومة صغر او كبر . وكانت طرق الاستيفاء كثيرة منها : تقدير الحاصلات ، وتعداد الاشجار ، وعد وسائل ضخ الماء ، وفلاحة مقاطعات بأكملها ، والمساومة على مبالغ مقطوعة . وفي الاصقاع الوسيعة غير الممسوحة وغير المحكومة الا جزئياً كانت الحكومة مضطرة للاعتماد فيها على موظفين لا يؤتمنون بالكلية ، فتستوفي ما يمكن استيفاؤه من هناك وتعوض ما تفقده بهذه الطريقة بما تستوفيه من السكان ، الذين كان يمكنها الوصول اليهم ، بتقديرات مجحفة مبيدة . وقد كانت الحسابات دقيقة متقنة ، فكانت البقايا غير المدفوعة تنقل باتقان من سنة لاخرى حتى تشطب بالعفو او تستوفى بحملة عسكرية . وكان يرى في مضمار استيفاء الواردات بأجمعه (وهو الشغل المهم لعدد لا يحصى من الموظفين) عناية الحكومة بالدريهمات المستوفاة عاجلاً وعدم عنايتها بجمع الدنانير آجلاً ، وفقدان الثقة المستفحل بين الحكام والمحكومين ، والجهل المطبق بأساليب الحكم الذي تفرض بموجبه الضرائب على كل شيء من غير ان تساعد جهة من الجهات . وكانت هذه الاخطاء الاساسية أقل وضوحاً في المؤسسات ذات الادارة الخاصة ، كدائرة « السنية » ، وهي الدائرة التي تدير أمور أراضي السلطان الخاصة ، و« دائرة الديون العمومية » التي تستوفي واردات صيد الاسماك واستهلاك المشروبات الروحية وبيع الملح وبيع حصص « الدين العثماني العالمي » ودائرة الحصر[٢٨] (الريجي) التي تتولى بيع التبغ . وقد انشئت دائرة السنية في العراق في السنين الاخيرة من القرن ، فكانت تدير أمور المقاطعات الوسيعة المنتخبة التي تملكها السلطان من الدولة بالتدريج بشرائها ، الحقيقي أو الاسمي ، أو بنقل ملكيتها له بطريقة استبدادية .

---

(٢٨) والاسم الكامل هو شركة « حصر المصالح المشتركة بتبغ الامبراطورية العثمانية » ، وهي شركة ذات حصص مشتركة تحتكر تهيئة التبغ وبيعه في تركية .

ومع ان هذه المقاطعات كانت تدار أمورها من غير منافسة ، وكونها تصرف اليها العناية الخاصة ، ويحافظ عليها (على حساب الدولة) فقد كانت ادارتها في النتيجة متفوقة بكثير على ادارة الاراضي الحكومية • فان أبنيتها الحسنى ، ومجاريها المكراة ، وموظفيها المنتخبين الذين يعاملون بالحسنى ، وارداتها الوفيرة ، كانت تدل بعض الدلالة على أي المتجهات كان يمكن أن يتجه اليها تحسين ادارة أمور الاراضي بكمالها ، وبأية سهولة كان يمكن اجراء ذلك •

تامل وحكم

هكذا كانت قسمات الوجه الاخير[1] من أوجه الحكم التركي في العراق • فقد اقتفينا أثر هذا الحكم منذ أن فتح السلاطين العثمانيون العراق أول مرة وأخذوه من يد ايران القوية في عهد الصفويين الاوائل ، وفي خلال قرن واحد من الحكم التركي الذي يحكم عليه من النتائج التي أنتجتها حوادثه غير المدونة ،

---

(١) يقع البحث في القرن العشرين خارج بحثنا في هذا الكتاب • وقد عرف هذا القرن في العراق بوجه عام ببعض دوافع التقدم الناشئة عن اعلان دستور ١٩٠٨ م • فلم يكن بوسع عدد من الانظمة الجديدة التي ادخلت حينئذ ان تحسن من شخصيات طبقة الموظفين • فان زوال شخصية عبدالحميد وماكنة الدعاية التى كان يسيرها كان لها نتائج سيئة في ارخاء عرى الولاء لعرشه • وكانت النتائج المباشرة لاعلان الدستور انتقال ملكية اراضي السلطان الى الدولة ، وتمادي الانحطاط في بواخر الشركة الحميدية ، وتشتت شمل الكتائب الحميدية ، وانشاء قوات الجاندرمة المحسنة وشرطة البلدان • وقد أخذت اصلاحات ليمان فون ساندرز العسكرية تاتي أكلها • ثم بديء بخط سكة حديد سامرا ــ بغداد في ١٩١٢م فأنجز العمل فيه سنة ١٩١٤م • وكانت لجنة حدود ايرانية اخرى تمسح الحدود في ١٩١٣ ــ ١٤ ، واحتلت نجد ثم أخليت • وتقدم أمر اسكان القبائل باطراد ، عدا ما حدث من جفاف نهر الحلة من ١٩٠٣م الى ١٩١٣م فأخر سير هذه الحركة ، وقد أصلحت الحال فيه بعدئذ سدة الهندية • وتمادى شأن السعدونيين في الضعف والانحطاط ، كما تزايد انقسام الشمريين ، فكانت قضية اسكانهم شيئاً فاشلا • وما برحت شؤون النقل والتحميل تهددها القبائل النازلة على الانهر والاهوار ، كما استمر الهماوند في ضحكهم على الحكومة في بازيان • وكانت أشهر شخصية في هذه السنين شخصية ناظم باشا والي الولايات الثلاث في ١٩١١م لعدة أشهر •

ومن تلك العهـــود التي تفشت فيهـــا الخيانـة واستفحل العنف وحلت سيطرة الايرانيين أمداً قصيراً ، الى اليوم التاريخي المشهـود الذي استعيد فيـه العراق منهم ، ومن هناك خلال ستين سنة من الحكم الخامل الى حقبة طويلة نيفت على القرن الواحد كان العراق خلالها منشقاً على الامبراطورية تحت حكم حكام محليين صمدوا لصد الهجمات العظيمة وتمكنوا من انشاء بلاط مستقل لهـــم تقريباً • وتلت سقوط هؤلاء مدة سبعين سنة أخرى كان العراق فى أثنائها أيالة اعتيادية من أيالات الامبراطورية التي تنتظر من الفوائد ما ينعم به عليها السلطان •

وليس عندنا من جديد نذكره عن الادارة التركية في العراق أو في غـيره من ممتلكات السلطان • فقد كانت نظرتنا التاريخية التي نظرناها الى العراق فى ١٩٠٠ ـ بعد أربعة قرون تقريباً من أول فتح تركي قامت به تركية وهي فى أوج فوتها وسطوتها ـ ترينا بايضاح كاف ما كابدته هذه البلاد الاسلامية الوسيعة الغنية وما ربحته • وقد أبانت تلك النظرة في الحقيقة انعدام التقدم ، في هذه البلاد منذ عهد سليمان القانوني ، فى الفكر أو الروح ، وفى الثـروة الماليـــة والاساليب الحديثة • فقد خرجت البـــلاد من القـــرن التاسع عشر من دون أن تكون أقل وحشيةً وجهلاً الا بمقدار يسير ، وعلى نفس الدرجة من عـــدم اللياقة للحكم الذاتي ، وليس أقل فساداً مما كانت عليه حينما دخلت فى القرن السادس عشر من قبل • ولم تكن مستوياتها فى الحياة المادية لتفوق ما كان فيها من مستويات فى النواحي العقلية والخلقية • فقد بقيت مواردها أبكاراً لم تلامس بالرغـم مما كان يدل عليه تأريخها طول الاجيال الماضية ، وما كان يدل عليه وجه الارض فيها • وفي الوقت الذي ينتهي فيه الدور ، المبحوث عن تأريخه ، نجد أن واجب الحكومة الاساسي في توجيه القبائل والمدن الى التقدم قد بدىء فيه بعد لأي • كما انهـا خابت تماماً في أوضح واجباتها التي كانت تحتم عليها ضمان حرية الرعية والمحافظة على حقوقها ، وكانت خيبتها فيهذه الناحية أكثر من خيبة أية حكومة من حكومات العصر التي كانت تسعى متمدنة • فقد خابت بالرغم من الاجيـــال الطويلة التي حكمت فيها العراق ، فمرتالامبراطورية خلالها بأدوار الرخاء والضنك ، وبالرغم من التقدم العظيم الذي كان يسرع خطاه فى الوقت نفســه فى أوربة والهنـــد ، وبالرغم من المكافأة المادية التي كان يؤمل الحصول عليها بعد النجاح •

على أن الحكم القاسي على ما كان يعد جريمة مؤدية للاهمال المروع ، وعلى الرجعية الجموح الظاهرة بمكن أن يلطف تلطيفاً ما ببعض الاعذار . فلم يتسن لأية أمة اسلامية أن تصل في التاريخ الحديث الى مصاف الامم في الدرجة الاولى. وقد أثبت العقل السلفي الذي فسرت بموجبه عقائد الديانة العظيمة انه غير مؤتلف مع روح التقدم كما يعرف معرفة اعتيادية . ولا غرو فان الجو الشرقي يظهر انه مفعم بالخمول ، وبفقدان الدافع الى التقدم ، مما يجب أن لا يغيب عن بال النقاد الذين يتصدون للبحث عن دولة من دول الشرق . فان تركية والعراق هما من البلاد الشرقية الاسلامية ـ وليس ذلك ذنباً لهما ـ ، وان من يحكم عليهما بانصاف يجب أن يأخذ بنظر الاعتبار ، الى أقصى حد ، الفرق العظيم في التقاليد والتفكير والغاية التي ترمي اليها هاتان الكلمتان . وسيجد من أراد الحكم على وضع البلاد ، عن كثب ، ان اللوم في الاختلاف الفكري المميت وفي النفور الشديد بين الاتراك ورعاياهم من الكرد والعرب لا يقع على الحكام وحدهم . لأن هؤلاء الرعايا لم يبتعدوا عن الولاء والطاعة للاتراك لانهم اتراك ، وانما كان ذلك ابتعاداً عن أية حكومة كانت تصطدم نظمها ، ونظمهم الخاصة ، وحريتهم المطلقة ، التي كانوا يون بموجبها طوال القرون السابقة . فقد كانت كل حكومة شيعية مثلاً تلاقي حتماً بعداوات كردستان وشمالي العراق وكثير من أواسط العراق . كما كانت كل حكومة سنية لابد من أن تلاقي معارضة المجتهدين في كربلا والنجف ، علاوةً على معارضة القبائل الشيعية . وكان في امكان كل حكومة ، وان كانت عادلة وشريفة ، ان تجد ان بسط المعدلة لم يكن شيئاً مفيداً في كل مكان ، وانه كان يقاوم كلما كان خفيف الوطأة ومرشداً للطريق السوي ، كما كان بوسعها ان تجد أن الضغط على بعض الناس (وهو الضروري لحرية الجميع) كان من الواجبات التي كان لابد للحاكمين من أن يلتجئوا اليها بين حين وآخر ، وانه شيء مسخوط عليه أبداً ودوماً . والخلاصة فان مشاكل الحكم في العراق كانت لابد من أن تكون بعيدة الغور لكل من يقع هذا الواجب على عاتقه كما وجدها غير الاتراك أيضاً ، وكما سيجدها كل الحكام كذلك في المستقبل .

ولقد جاء بُعد هذه الولايات عن قلب تركية بعواقب خاصة لها . فقد عرض ذلك العراق للكوارث التي صبتها عليه امبراطورية الشاه ووقع فريسة لها مرة من

قبل،بعد ما قاومها مقاومة نبيلة .وربما كان في الضغط الدائم،الذي كان يوجهه جار خطر كهذا على بلاد بعيدة مثل هذا البعد عن المساعدة الامبراطورية ، بعض العذر للاتراك مما يسوغ العناية القليلة التي كانوا يولونها الاحوال الداخلية في هذه البلاد . ويعزى لهذا البعد ، بدرجة كبيرة ، استقلال الباشوات المماليك مدة طويلة من الزمن ، تلك المدة التي لم تكن الحكومة العثمانية تلام فيها الا قليلاً على المجهود القليل الذي بذلته خلالها لمساندة الولاية المنفصلة ، وعلى تقصيرها في تعهدها والحدب عليها . وعلى هذا فقد أصبح العراق ، من جديد ، لا تركياً ولا مغرياً للاتراك . ولم يجذب الى نفسه ، في القرون الاولى من الحكم ، الا القليل من الاتراك النازحين لينزلوا فيه ويستغلوا أراضيه بالضمان « الالتزام » ، كما ظل في القرون المتأخرة يحكمه الموظفون الاتراك الذين يعدون في الدرجة الثانية لانه لم يرغب أحد في الخدمة عن طيب خاطر في بلاد تبعد هذا البعد عن وطنه . ولذلك لم يصل الى العراق من استانبول سوى الموظفين المنحطين ، الا من شذ ونـدر ، ولـم يكن الموظفون الذين كانوا يتعينون محلياً ليتفوقوا على هـؤلاء أيضـاً . وبذلك تدنت الخدمات الحكومية ، بشتى فروعها ، عن خدمات الحكومة القريبة من العاصمة ولم تكن تضارعها في أعمالها .

وأخيراً فاننا لا يمكننا ان نحكم على أخطاء الحكم التركي في العراق من دون الاشارة الى أحداث الامبراطورية المركزية ومصائرها . فقد كان انشغال أولي الأمر في المقر الاعظم بالدفاع عن الامبراطورية يلهي العاصمة عن ان تصرف العناية الكافية للممتلكات النائية ، كما كانت حاجة الحكومة المركزية الدائمـة للمـال والرجال تستنزف هذه الممتلكات . ولذلك كانت الامبراطورية وهي في دور الانحطاط ، ومهددة من مسافة قريبة بالانقراض ، معذورة في كثير من تقصيرها . وبالرغم من ذلك كله ، فقد ظهرت في الجيل الأخير من الحكم العثماني في العراق علامات التحسن بالنسبة للقرون السابقة ، وبذلك كان يؤمل منه شيء من التقدم الذي يأتلف مع الخلق التركي .

على ان جميع هذه الاعذار الملطفة لا يمكنها أن تحجب عن العين ان العثمانيين بعد أن فتحوا ممتلكات الدولة الكلدانية والآشورية التي اشتهرت خصوبتها في التاريخ ، مرة ثانية ، وبعد ن تمسكوا بها مدة قرون أربعة باسم السلطان ، قـد

تركوها وهي ما تزال متأخرة جاهلة ، فقيرة غير مستثمرة ، تعمها الفوضوية ويخالجها السخط على حكامها ، ومن دون أن توجه الى أي طريق من طرق التقدم . ولم يكن بوسع السياح ان يجدوا في أي ولاية تركية قابليات كامنة أعظم مما وجدوه في الولايات العراقية ، ولا ثروات مهملة أكثر من هذا الاهمال ، كما لم يجدوا في غيرها مثل ما وجدوا فيها من سوء الحكم الأشد جموداً .

وقد كان الاتراك ، الذين وهب لهم المزايا العسكرية البارزة والسجايا الاجتماعية الجذابة ، يلقنون كحكام بالمفهومة الحكومية التي تركها سموهم وانحطاطهم غير متبدلة . فقد حجبت الجمل والاسماء المستعارة من أوربة ، بدلا من أن تعدل ، مبدأهم الحكومي الدال على ان حكم الرعايا يجب أن يستهدف مجد الحاكم ومنفعته ليس الا . وبات يحكم بموجب هذا المبدأ السلطان ، أو الباشوات المستقلون ، أو طبقة الموظفين القليلة ، أو العسكريون المجازفون في بعض الاحيان ، وبذا ظل الملايين من الرعايا جائعين خائفين . وفوق جميع الاسباب الوقتية أو المحلية ، كان سوء الحكم الطويل الامد في العراق ، الذي درسناه حتى الآن ، مسبباً عن فقدان النية في الحكم الصالح . فلم يعترف الاتراك في أعمالهم – بالرغم من اعترافهم كتابياً – بأن العدل هو الذي يجب أن يستهدفه القضاة ، وان الواردات ما هي الا واسطة لاسعاد من يدفعها ، وان ضمان حقوق الضعفاء وأكثرية السكان هو الغاية التي يجب أن تستهدفها الحكومة .

الملاحـــــــق

١ ـ مراجع الكتاب

٢ ـ نسب بعض الأسر

٣ ـ قائمة بملوك تركية وايران المتعاصرين

٤ ـ ايضاح المصطلحات والأسماء الاعجمية الواردة في الكتاب

الملحق الاول

مراجع الكتاب

استخرج هذا التاريخ من المؤلفات المخطوطة والمطبوعة التي كتبها المؤلفون العرب والاتراك ، ومن مدونات الرحالة والسياح الاوربيين وغيرهم ، ومن مختلف التواريخ والرسالات التي تبحث عن العراق وحده أو عن جارتيه العظيمتين ، ومن سجلات شركة الهند الشرقية ، ومن التحقيقات المحلية التي قام بها المؤلف • وليس في المراجع المذكورة مرجع تسيطر رواياته على الحوادث قط • فان كتابات السياح متقطعة ولا تدل الا على انطباعات عابرة ، وتغرق معظم المراجع الاخرى بتفصيل خاص بدلاً من ان تؤلف قاعدة صحيحة في التاريخ • وقد بحث المؤرخون وحتى المؤلفون الشرقيون منهم عن أدوار محدودة ، وهذه لا يمكن الاعتماد عليها الا بعد التوفيق بين مختلفها ، وهم لا يخرجون عن كونهم اما مؤرخين رسميين لتركية (لا يطرقون بحث العراق الا اذا كان يعاني حصاراً أو ثورة تهم الامبراطورية) واما كتاباً عراقيين ينحصر همهم في الكتاب في تاريخ ولايتهم • والمراجع في كثير من الاحيان غير معروفة في اوربة ، وفي أحيان أخرى تكون منسية أو لم يرجع لها من قبل بكونها مادة تاريخية ، وفي غيرها من الاحيان لا يمكن لأحد أن يحصل عليها الا المستشرقون •

وتقسم المراجع في هذا الملحق الى مجموعات مختلفة كالآتي

١ ـ تواريخ قديمة (شرقية) تبحث عن العراق في هذه القرون

٢ ـ تقييدات السياح والرحالة

٣ ـ سجلات شركة الهند الشرقية

٤ ـ التواريخ العامة للبلاد المجاورة للعراق

٥ ـ رسالات مختلفة في العراق والبلاد المجاورة له أيضاً

٦ ـ تحقيقات محلية

گلشن خلفا وقد كتب بالتركية في سنة ١١٠٠ للهجرة ، كتبه مرتضى أفندي نظمي زاده • ويشمل البحث عن المدة التي تبدأ بتأسيس بغداد وتنتهي في سنة ١١٣٠ الهجرية (١٧١٧ ـ ١٨) • وقد طبع في استانبول في آب ١٧٣٠ • على ان النسخ المطبوعة اندر من النسخ المخطوطة ، فمنها أربع في دار كتب المتحف البريطاني • وهذا المرجع مفيد جداً للبحث عن المدة التي من ١٦٣٨ حتى ١٧١٧ •

حديقة الوزراء : وهو تاريخ مخطوط بالعربية في تاريخ حسن باشا وأحمد باشا كتبه الشيخ عبدالرحمن بن الشيخ عبدالله السويدي • ولم ير المؤلف نسخة منه • وانما استعمل نسخة كتبها سليمان أفندي الدخيل على نسخة وجدها في خزانة كتب حكمة الله بن عصمة الله أفندي في استانبول (المؤلف) • لقد طبع الجزء الأول منه مؤخراً (مطبعة الزعيم بغداد ، ١٩٦٢) باسم (حديقة الزوراء في تاريخ الوزراء) ، وبتحقيق الدكتور صفاء خلوصي ـ المترجم

دوحة الوزراء : وهذا مع كتاب « گلشن خلفا » أهم المصادر المذكوره على الاطلاق ، ومؤلفه هو رسول حاوي أفنـدي الكركوكي • ونسخه المخطوطة نادرة ، كما ان نسخه المطبوعة أندر • وهو مكتوب بتركية منمقة ، وقد طبعه بأمر من داود باشا في بغداد سنة ١٢٤٦ الهجـرية (١٨٣٠) مرزا محمـد باقـر التفليسي • والكاتب رزين (لكنه متحيز) بذكر الحوادث التي شهدها • ويبحث عن المدة التي بين ١٧١٨ و ١٨٢١ • وقد استعار المؤلف للمراجعة من حمدي بك بابان نسخةً مطبوعة وأخرى خطية من شكري أفندي الفضلي (المؤلف) •

ولقد نقل هذا الكتاب الى العربية الاستاذ موسى كاظم نورس ، وطبعته في بيروت (دار الكاتب العربي) مكتبة النهضة في بغداد قبل سنوات معدودة من دون ان يذكر تاريخ السنة التي طبع فيها عليه • وقد ظهر الكتاب بعنوان (دوحة الوزراء في تاريخ وقائع بغداد الزوراء) ـ المترجم •

مطالع السعود كتبه بالعربية أمين بن حسن الحلواني المديني ، وقد طبع على الحجر في بومبي سنة ١٣٠٣ الهجرية (١٨٨٥) • وهو اختصار لكتاب غير مطبوع كتبه الشيخ عثمان بن سند البصري • ويبدأ الكتاب الاصلي بسنة ١١٨٨

الهجرية (١٧٧٤) ، وهي سنة ولادة داود باشا ، ويقف في ١٢٤٢ الهجرية (١٨٢٦) ، ثم يتابع كتابته أمين بن حسن الى ١٨٣١ (المؤلف) . طبع هذا المختصر في القاهرة (المطبعة السلفية ١٣٧١ هـ) بعنوان (خمسة وعشرون عاماً من تاريخ العراق) ، ووقف على طبعه محب الدين الخطيب ـ المترجم .

زاد المسافر ولهنة المقيم والحاضر : وهو بحث مختصر بالعربية عن الحوادث الاخيرة في أيام حسين باشا في البصرة (١٦٤٥ ـ ٦٥) وقد كتبه الشيخ فتح الله بن علوان الكعبي . كان يوجد مخطوطاً وقد استعمل المؤلف النسخة المخطوطة ، الا انه طبع في بغداد ١٩٢٤ (المؤلف) . طبع في مطبعة الفرات ، ووقف على طبعه المرحوم خلف شوقي الداوودي صاحب جريدة شط العرب ـ المترجم .

حروب الايرانيين كتبه سليمان بك بن الحاج طالب كهية ، ولا يوجد منه الا نسخة خطية بالتركية لا يعرف المؤلف غيرها ، وقد استعارها من حمدي بك بابان . وكتب حوالي ١٨٨٠ م في بغداد ، وهو يشمل ببحثه المدة التي بين ١٧٢١ م و ١٧٤٦ م . وقد اعتمد الكاتب على الكتّاب الرسميين الاتراك وعلى دوحة الوزراء وعلى جهانكشاي نادري ومؤلفه المرزا مهدي وعلى معلومات خاصة . وقيمة الكتاب قائمة بمعلومات المؤلف الخاصة ولو كانت لا تعد من الصنف الاول .

بغداد كوله من حكومتنك تشكيليله انقراضنه دائر رساله وهو كتيب مطبوع بالتركية في استانبول سنة ١٨٧٥ م كتب عليه ان مؤلفه « ثابت » الا انه في الحقيقة قد كتبه سليمان بك بن الحاج طالب كهية وقد فضل ان يضع عليه اسما مستعاراً ، ويشمل المدة بين ١٧٤٩ و ١٨٣٦ . وتوجد منه ثلاث أو أربع نسخ في بغداد وتوجد أيضا نسخة أو أكثر في مصر وربما يوجد منه في استانبول ، وقد حصل المسيو هوار على نسخة منه وسمح لنفسه أن ادخل معلومات الكتيب في ضمن كتابه[1] . وهذا مرجع يعتمد عليه بالرغم من احتوائه على التحيز الطبيعي لاسرة المؤلف ، فان الحاج طالب كان كهية داود باشا وهو من المماليك المعتقين (المؤلف) . طبعت في بغداد في العام الماضي (مطبعة المعارف ١٩٦١ مئة

(١) هوار (المقدمة ص ٤) ، ويذهب هوار مذاهب شتى حول هوية المؤلف المعروف جيداً في أوساط المثقفين البغدادية .

صفحة بالقطع الصغير) الترجمة العربية لهذا الكتاب باسم (تاريخ المماليك الكوله مند في بغداد) ، والترجمة بقلم محمد نجيب الارمنازي ـ المترجم .

مرآة الزوراء للمؤلف السابق نفسه ولا توجد منه الا نسخة خطية غير كاملة . وهذا يشمل ، عدا المدة التي يشملها الكتاب السابق ، البحث عن السنين السبع الاولى من عهد علي رضا باشا . ويقال ان النسخة الكاملة فقدت عند نفي المؤلف . والنسخة التي وجدها مؤلف هذا الكتاب هي مفسخة غير كاملة ، وهي لحمدي بك بابان ويظهر انها نسخت بعدة أيد ، ويعتمد عليها كثيراً (المؤلف) . لقد نقل هذا الكتاب الى العربية الاستاذ موسى كاظم نورس وطبع في مطبعة المعارف ببغداد سنة ١٩٦٢ بعنوان (تاريخ بغداد) ـ المترجم .

غاية المرام : وهذا كتاب مخطوط ألفه ياسين العمري[1] بن خيرالله العمري الخطيب الموصلي . وفي هذا الكتاب معلومات جغرافية ونسبية وسيرية كثيرة عدا ما فيه من تاريخ بغداد الذي يعد البحث عن مدة الخمسين السنة الاخيرة (المنتهية في ١٨٠٥ م) (١٢٢٠ هـ) منه مبتكراً ومهماً .

غرائب الاثر كتاب مخطوط للمؤلف المذكور نفسه ، مكتوب بالعربية ، يكرر فيه البحث عما كتب في كتابه الاول بطريقة مختلفة ، لكنه يضيف اليها بحثاً مفصلاً شافياً عن ١٨٠٥ – ١٨١١ م (المؤلف) . طبع هذا الكتاب في الموصل ونشره الدكتور محمد صديق الجليلي (مطبعة ام الربيعين ، ١٣٥٩ ، و ١٩٤٠ م) ، وعنوانه المطبوع (غرائب الأثر في حوادث ربع القرن الثالث عشر) ـ المترجم .

وبهذا الكتاب تنتهي قائمة أهم المراجع . اما المراجع التالية فهي أقل أهمية منه بكثير

---

(١) قال مصطفى جواد ولياسين العمري كتاب آخر فى الموضوع اسمه « الدر المكنون فى المآثر الماضية من القرون » ابتدأ بـه التاريخ من السنة الاولى للهجرة المباركة وانهاه بسنة ١٢١٨هـ . وقد نقلنا عنه أشياء ، ومنه نسخة بدار الكتب الوطنية بباريس رقمها « ٤٩٤٩ عربيات » قال فى أولها : « وقد رفعته الى حضرة الوزير الكبير الشهم الخطير ... حضرة افندينا المعظم علي باشا ... » وفيه الغث والسمين وفى تاريخ العصور الاولى كثير من الغثاثة .
وله كتب تراجم أخرى لا محل لذكرها هنا .

زبدة التواريخ : لمؤلفه عبدالواحد بن الشيخ عبدالله باش أعيان • والكتاب لا يزال مخطوطا بست عشرة مجلدة عربية وهو في خزانة كتب الشيخ أحمد باش أعيان • ويشمل الكتاب البحث عن الخلافات جميعها وكذلك تاريخ البصرة الاخير • وفيه امعانات طويلة في التاريخ التركي العام وتاريخ الحجاز •

تقويم ولاية الموصل لسنة ١٣٢٥ الهجرية : وهو مكتوب بالتركية كتبه حسن توفيق أفندي « مكتوبجي » الولاية • وأحسن ما دون فيه حصار نادر شاه للموصل في ١٧٤٣ م ، وكذلك عهد الاينجه بيرقدار (١٨٣٥ ـ ٤٣) • وفيه قائمة تامة بأسماء باشوات الموصل منذ سنة ١٠٠٠ الهجرية •

تاريخ الموصل لمؤلفه سليمان الصائغ وقد طبع في مصر في ١٩٢٤ م • ولم يضف هذا شيئاً الى ما هو مدون في الكتاب قبله • والحقيقة ان الكتابين يستقيان بكل أمانة من كتاب عربي لم ير مؤلف هذا الكتاب نسخته الاصلية يسمى « منهل الاولياء » لمحمد أمين أفندي العمري (المؤلف) • يقع (تاريخ الموصل) للقس سليمان الصائغ في ثلاثة أجزاء في الوقت الحاضر • وقد طبع الجزء الأول منه في القاهرة (المطبعة السلفية ١٩٢٣) ، وطبع الجزء الثاني في بيروت (المطبعة الكاثوليكية ١٩٢٨) ، وطبع الجزء الثالث في جونية بلبنان (مطابع الكريم ١٩٥٦) • اما كتاب (منهل الأولياء) الذي يشير اليه المؤلف فقد نشر في الموصل (مطبعة الجمهورية ١٩٦٧) بتحقيق الاستاذ سعيد الديوه‌چي مدير متحف الموصل ـ المترجم •

تقويم ولاية البصرة لسنة ١٣٠٥ (١٨٨٧ م) وفيه قائمة بولاة البصرة ومتسلميها وفصل من المعلومات التاريخية ، وهذا الفصل مستمد كله حسبما يظهر من تاريخ باش أعيان •

تقويم ولاية بغداد لسنة ١٣٢٢ الهجرية (١٩٠٤) : كتب بالتركية وفيه (ص ٥٠ ـ ٥٥) قائمة لولاة بغداد مع مدد حكمهم بالضبط منذ ١٦٣٩ •

خلاصة تاريخ العراق للاب انستاس (طبع البصرة ١٩١٩) يبحث عن المدة التي يبحث فيها هذا الكتاب بصفحات قليلة ، وهو مستمد بأجمعه من مختلف المراجع المذكورة أعلاه ، خاصة (غاية المرام) •

كتابات السياح والرحالة

نذكر فيما يلي السياح الذين قصدوا العراق وما كتبوه مرتبا حسب السنين التي زاروا فيها البلاد :

١٥٥٣م سيدي علي ريس ـ رحلات الاميرال التركي سيدي علي ريس ومغامراته (لندن ، لوزاك ، ١٨٩٩) • ترجمه من التركية الى الانكليزية فمبري • واسم الكتاب الاصلي « مرآة الممالك » وقد نشرته مكتبة الاقدام باستانبول في ١٣١٣ الهجرية • وكانت رحلته من حلب ـ فالموصل ـ فبغداد ـ فالفرات ـ فالبصرة ـ فهرمز • وكان المؤلف أميرالاً تركياً وأديباً •

١٥٥٣ ـ ٥٤ المؤلف مجهول ـ لا يعرف عنوان الكتاب ـ كتاب مخطوط في ١٥٥٣ • وهذا سائح برتغالي كانت رحلته من سورية ـ فالعراق ـ فالبصرة •

١٥٥٥ انطونيو تينريرو ـ كتب بالبرتغالية في وصف هرمز ـ فالخليج ـ فايران وقد طبع في لشبونة سنة ١٨٢٩ م •

١٥٦٣ سيزار فردريچي ـ طبع فيما نشرته هاكلايت « رحلات » ، وهذا تاجر بندقي كتب رحلاته بالايطالية في ذكر حلب ـ فالعراق ـ فالبصرة •

١٥٧٥ الدكتور ليونارد راوولف ـ مجموعة رحلات وسياحات مؤنسة (١٢ مجلداً) ـ جمعها بهذا العنوان جون ري (لندن ١٦٩٣ م) وهذا طبيب الماني وتاجر كتب بالالمانية في وصف حلب ـ فالفلوجة ـ فبغداد ـ فكركوك ـ فالموصل ـ فالاناضول •

١٥٧٩ غاصبارو بالبي ـ (بركاس ٢ وپنكرتون ، رحلات وأسفار ، لندن ١٨١١) ، وهو جوهري بندقي كتب بالايطالية في وصف حلب ـ فالفلوجة ـ فبغداد ـ فالبصرة •

١٥٨١ جون نيوبري (بركاس ٩) ، وهو تاجر لندني كتب في وصف سورية ـ فبغداد ـ فهرمز •

١٥٨٣ جون ايلدرد ـ (هاكلايت ٢ ، القسم ١ • وثلاث رسائل في بركاس) •

١٥٨٣ رالف فيتج ـ (هاكلايت ٢ ، القسم ١ . وكذلك نشر من قبـل هورتن رايلي ، لندن ١٨٩٧ على حساب جمعية هاكلايت) .

١٥٨٩ السر أنطوني شيرلي ـ نشر الكتاب بعنوان « الاخوة الثلاثة » وهم السر انتوني والسر روبرت والسر شيرلي . (لندن ١٨٢٥) ، وهو مغامر انكليزي عرف بعد ذلك في بلاط ايران . كان طريق سفرته حلب ـ فالفرات ـ فبغداد ـ فقزوين .

١٦٠٤ بيدرو تيكسيرا (تيثيرا) ـ رحلاته ، نشرها و.ف. سنكلير ود . فيرگوسن لجمعية هاكلايت في لندن ١٩٠٢ ، وهو سائح برتغالي كانت رحلته وصفاً للخليج ـ فالبصرة ـ فالمدن المقدسة ـ فبغداد ـ فعانة .

١٦١٥ بيترو ديلافاله ـ مجموعة رحلاته المشهورة (باريس ، ١٦٦٣ ، ٤ أجزاء) وهو رجل ارستقراطي على الطراز الروماني . والجزء الاول والثاني فقط يبحثان عن العراق ، والكتاب طريف جداً .

١٦٢٥ الحاج خليفة ـ « جهانامة » (استانبول ١٢٤٥ للهجرة) وهو مؤلف وسائح تركي ، جاء للعراق مع خسرو باشا ، والكتاب طريف ملذ .

١٦٢٩ ر.ب. فيليب ـ « رحلة الشرق » (ليون ١٦٥٢) . من الكرمليين الافرنسيين ، وطريقه من حلب ـ فالفرات ـ فبغداد ـ فايران .

١٦٣٨ م.د. ثيفنو ـ « قصة رحلة في بلاد المشرق » (باريس ١٦٦٥) . ان الصفحة ٥٦٩ فيها وصف شاهد عيان قيم للاستيلاء على بغداد .

١٦٣٨ م.د. ثيفنو ـ مجموعة رحلاته (امستردام ١٧٢٧) ، ج٤ ، ٥٥٧ ـ ٩٢ : البصرة ـ فالاحساء ـ فالقطيف .

١٦٣٨ ج.ب. تافيرنيه ـ « الرحلات الست في تركية وآسية » (نقله الى الانكليزية ج.ب. لندن ١٦٧٨) والمؤلف نبيل افرنسي . الكتاب الثاني في رحلاته سنة ١٦٣٨ ، ١٦٤٤ ، ١٦٦٣ . ضروري .

١٦٣٨ سيور دلوار ـ « رحلاته المتضمنة في عدة رسائل » (باريس ١٦٥٤) راجع الفون هامر (٩ ، ٣٣١) لم يطلع عليها المؤلف .

١٦٤٩ سيور دلابويي دي گوز ـ « رحلاته ومشاهداته » (باريس ١٦٥٧) .

١٦٥٥ رحلات اوليا چلبي ـ (استانبول ١٣١٤) ، والمؤلف سـائح تركي

من رجال الحاشية • وهو يكتب في وصف ايران فكردستان ـ فبغداد ـ فالبصرة •

١٦٦٣ الأب مانويل گودينهو ـ الخلاصة في ما كتبه موري في « آسية » أدنبره ١٨٢٠ ، وهو يسوعي « جزويتي » برتغالي كتب في ذكر البصرة ـ فبغداد ـ فعانة •

١٦٧١ م• كاريه ـ «رحلات جزر الهند الشرقية » (باريس ١٦٩٩) ، عن البصرة ـ فبغداد ، وهو سائح افرنسي •

١٦٩٤ المؤلف مجهول « قصة ممات الشاه سليمان ملك ايران ••• والخ » (باريس ١٦٩٦) ، عن ايران ـ فكردستان ، وأهميته في معلوماته عن أصول البابانيين ، اطلع المؤلف على نبذة من مخطوطة تتعلق بالموضوع •

١٦٩٥ سور سيور دوفال ـ « رحلتي الى جزر الهند الشرقية » (مخطوط فقط)، وهو رجل افرنسي كتب في صفة سورية ـ فعانة ـ فبغداد فمندلي ـ فايران • (النسخة الخطية موجودة عند يعقوب افندي سركيس ، بغداد) •

١٧٢٠ دوري افندي ـ « دوري أفندي سفارتنامه‌سي » وهو كتاب تركي مطبوع على الحجر غير مؤرخ • وكذلك ترجمته التي ترجمها الى الافرنسية المسيو پتي دلاكروا (باريس ١٨٢٠) • ودوري هو سفير تركي استسفر الى ايران في ١٧٢٠ ، وقد مر بالعراق •

١٧٢١ الكابتن أ• هاملتون ـ « بحث جديد عن جزر الهند الشرقية » (لندن ١٧٣٩) ، والمؤلف كابتن بحري سكوتلاندي ، فيه بحث عن البصرة فقط •

١٧٢٦ « كشط الرداء وغسل الران في زيارة العراق » كتبه مصطفى بن كمال الدين بن علي الصديقي • لم يطلع عليه المؤلف • (وصف سفرات في العراق وغيره) رقم ٩٣٠ من مجموعة كتب براون هاند ليست في مكتبة جامعة كمبرج •

١٧٣٣ ج• نيكوديم ـ « رسالة القس المسيو دلامار كيز دفيلنوف » وهو

الطبيب الافرنسي لطوپال عثمان ، وفيه وصف مسهب فيه لواقعة حزيران ١٩ ، ١٧٣٣ م . وهي موجودة في كتاب الفون هامر ، ١٤ ، ص ٥١٤ .

١٨٣٦ عبدالكريم « رحلة من الهند الى مكة » ترجمه الى الافرنسية لانكليه ، باريس ١٨٢٥ . والى الانكليزية ف. گلادوين ، لندن ١٧٩٣ . كتب بالفارسية ، والكاتب من أهالي كشمير ومن مقربي نادر شاه . وقد كتب في وصف ايران ـ فبغداد ـ فالعتبات المقدسة ـ فكركوك ـ فالموصل . ولم يطلع المؤلف على النسخة الفارسية الأصلية .

١٧٣٦ م. أوتر ـ « رحلة في تركية وايران » (باريس ١٧٤٣) . وهو وكيل الحكومة الافرنسية ، سافر مع عبدالباقي خان وكتب عن الموصل وبغداد وايران ، وكتب في ١٧٣٩ عن رحلته الى مندلي ـ فبغداد ـ فالبصرة، وفي ١٧٤١ عن البصرة، وفي ١٧٤٣ عن البصرة ـ فبغداد ـ فالموصل ـ فديار بكر . مهم .

١٧٣٩ ر. پوكوك ـ « وصف للشرق » (لندن ١٧٤٣) ، والمؤلف ومختص بالآثار العاديات، كتب في وصف سورية والجزيرة .

١٧٤٤ ليأندور دي س. كاسيليا « رحلات في فلسطين وايران وبين النهرين» (روما ١٧٥٣ ـ ٧) ، لم يطلع المؤلف الا على خلاصة الرحلة في (موري ، « آسية ») ، والكاتب [illegible] ايطالي .

١٧٥٠ م.م. بليستد وأليو ـ « أبحاث عن البادية العربية » (باريس ، السنة الخامسة) ، والكاتبان هما من موظفي شركة الهند الشرقية ، وهذه ترجمة افرنسية للاصل الانكليزي ، الرحلة من البصرة ـ فالزبير ـ فالنجف ـ فكبيسة ـ فحلب . موجودة في كتاب هاويل ، ص ٣٢٧ ـ ٨٢ .

١٧٥٧ المؤلف مجهول ـ « من أوربة الى الهند بطريق البر في ١٢٥٧ » (اوترخت ، ١٨٦٠) . كتب باللغة الهولندية ، والسفرة بين البصرة وحلب عن طريق البادية .

١٧٥٨ الدكتور أي. أيفز ـ « رحلة من أيران الى انكلترة » (لندن ١٧٧٣)،

وهو جراح شركة الهند الشرقية • كتب في وصف البصرة ـ فالفرات ـ فبغداد ـ فكركوك ـ فالموصل ـ فماردين ، وهو طريف جداً •

١٧٦٥ ك • نيبور ـ « رحلة في بلاد العرب وما جاورها » (امستردام ١٧٧٦)، وهو عالم دانماركي • وهذه ترجمة افرنسية للكتاب عن وصف البصرة ـ فالفرات ـ فبغداد ـ فكركوك ـ فالموصل ـ فماردين • وهو كتاب تاريخي أساسي •

١٧٦٨ جوزيف أمين ـ « حياته ومغامراته » (اعادت طبعه أيمي أبكار ، كلكتا ١٩١٨) ، طبع أولا في لندن في ١٧٩٢ • والمؤلف ارمني مغامر ، ولد في همدان سنة ١٧٢٦ وشهد الحروب الايرانية في ١٧٦٨ ، وكتب في ذكر أرمينية ـ فبغداد ـ فالحلة ـ فالبصرة • كتب في ١٧٧٤ في البصرة ـ فبغداد ـ فالبصرة •

١٧٧١ رفيق للسر أيري كوت ـ « ريبورتاج عن رحلة من الزبير قرب البصرة الى حلب في ١٧٧١ » (مخطوطة) ، موجودة عند يعقوب أفندي سركيس في بغداد ، ومطبوعة في مجلة الجمعية الجغرافية الملكية ، المجلد ٣٠ (١٨٩٠) ، ص ١٩٩ •

١٧٧١ المستر كارمايكل ـ « رحلة من حلب الى البصرة بطريق البادية » ، وهي مطبوعة كملحق لطبعة ١٧٧٢ من كتاب گروز « رحلة الى جزر الهند الشرقية » (لندن ١٧٧٢) ، والمؤلف من مستخدمي شركة الهند الشرقية • مؤنس •

١٧٧٤ أ • پارسنز ـ « رحلات في آسية وأفريقية » (لندن ١٨٠٨) • وهو قنصل (انكليزي) في الاسكندرونة ، كتب في حلب ـ فبغداد ـ فالحلة ـ فحسكة ـ فالبصرة (حصار ١٧٧٥) • مهم وتاريخي •

١٧٧٨ ج • كير ـ « ملاحظات حول المرور الى الهند » (لندن ١٧٨٥) • وهو يبحث عن رحلة من حلب الى البصرة بطريق البادية ، وفيه قصة احتلال الايرانيين للبصرة •

١٧٧٩ المؤلف مجهول ـ « مذكرات حول رحلة من البصرة الى بغداد » (هورشام ١٧٨٤) • كتبها أحد مستخدمي شركة الهند الشرقية عن

سفرة من البصرة ـ فبغداد ـ فحلب • طريفة •

١٧٨١ سيستيني ـ « رحلة من القسطنطينية الى البصرة في ١٧٨١ » (پاريس)• وهو عالم ايطالي كتب واصفاً ديار بكر ـ فالموصل ـ فالبصرة • وكتب في ١٧٨٢ في البصرة ـ فالفرات ـ فبغداد ـ فكركوك ـ فالموصل • طريفة •

١٧٨١ ايليس ارووين ـ « سلسلة من المغامرات في أثناء رحلة » (لندن ١٧٨٧)• والمؤلف سائح ، وما له علاقة من الرحلة بالتاريخ هـــذا موجود في الجزء الثاني ص ٣١٢ فقط • والرحلة عن الفرات ـ فعانة ـ فحديثة ـ فألوس ـ فبغداد ـ فالبصرة • لا يعتمد عليه •

١٧٨١ د• كامبل ـ « موجز عن مغامرات غير اعتيادية ومكابدات » (لنـدن ١٧٩٧) ، وهو أحد مستخدمي شركة الهند الشرقية ، والرحلة تبدأ من الموصل ـ فكركوك ـ فبغداد ـ فالموصل •

١٧٨٢ آندريه ميشو ـ « رحلة سورية وايران » طبعه الدكتور هارڤي (جنيف ١٩١١) • والسائح افرنسي ، والرحلة من حلب ـ فبغداد ـ فالبصرة •

١٧٨٥ الكونت دي فيرير ـ سوفبوف ـ « مذكرات تاريخيـة » (پاريس ١٧٩٠) •

١٧٨٦ ج • كريفنس ـ « رحلات في أوربة وآسية الصغرى وبلاد العرب » (لندن ١٨٠٥) ، وهو طبيب انكليزي ، حلب ـ فالبادية ـ فالبصرة •

١٧٨٧ و• فرانكلن ـ « ملاحظات حول رحلة من البنغال الى ايران في ١٧٨٥ ـ ٨٧ » (لندن ١٧٩٠) ، وهو من مستخدمي شركة الهند الشرقية ، كان في البصرة في ١٧٨٧ عندما احتلها ثويني •

١٧٨٨ ت• هاول ـ « رحلة العودة من الهند بطريق البر » (پاريس ، العـام الخامس) ، الكاتب من مستخـدمي شركة الهنـد الشرقية ، كتبهـا بالانكليزية في الاصل ، البصرة ـ فالفـرات ـ فبغـداد ـ فكركوك ـ فالموصل (أيام احتلال ثويني للبصرة) •

١٧٩٠ الميجر تايلور ـ « رحلة الى الهند عبر البادية الكبرى » (پاريس ١٨٠٧)، من مستخدمي شركة الهنـد الشرقيـة ، كتب الاصل بالانكليزية عن

سورية ـ فالبادية ـ فالبصرة •

١٧٩١ ج• أ• اوليفيه ـ « رحلات في الامبراطورية العثمانية ومصر وايران » (باريس) ـ وهو وكيل رسمي افرنسي كتب فى صفة ماردين ـ فالموصل ـ فكركوك ـ فبغداد ـ فالفرات ـ فالبصرة • أساسي •

١٧٩٧ ج • جاكسون « رحلة من الهند الى انكلتره في ١٧٩٧ » ، (لندن ١٧٩٩) البصرة ـ فالفرات ـ فالموصل • طريف •

١٨٠٢ مرزا أبو طالب خان ـ « رحلاته فى آسية وأوربة وأفريقية » فى ١٧٩٩ ـ ١٨٠٣ (لندن ١٨١٠) • وهو رجل هندي كتب النسخة الاصلية باللغة الفارسية • وكتب فى وصف ماردين ـ فالموصل ـ فكركوك ـ فبغداد ـ فالعتبات المقدسة ـ فالبصرة وفيه أغلاط سخيفة[1] •

١٨٠٧ محمد رافع ـ « سفارتنامه » ، (وهو سجل سفارته الى ايران فى سنة ١٢٢٢ للهجرة) استانبول ١٣٣٠ يستطرق الى البحث عن تاريخ عبد الرحمن باشا بابان •

١٨٠٧ ادريين دوپريه ـ « رحلة فى ايران فى ١٨٠٧ ـ ٩ عبر الاناضول وبين النهرين » (باريس ١٨١٩) ، وهو سائح افرنسي ، كتب عن ماردين ـ فنصيبين ـ فالجزيرة ـ فالموصل ـ فكركوك ـ فبغداد ـ فايران • أساسي •

١٨٠٨ ج • ب• روسو ـ « رحلة من بغداد الى حلب » (باريس ١٨٩٩) ، يراجع عن المؤلف ما جاء بهذا الملحق تحت عنوان « رسائل تختص بتاريخ العراق والبلاد المجاورة له (العراق) » ، طبع هذا المؤلف نقلاً عن مخطوطته بعد تسعين سنة ، فيه قائمة عشائرية مهمة •

١٨٠٨ المؤلف مجهول ـ « مذكرات رحلة فى تركية الاسيوية وايران » (باريس ١٨٠٩) ، ايران ـ فبعقوبة ـ فبغداد ـ فالموصل ، طريف •

١٨٠٨ـ١٦ ج موريير « رحلة في ايران وارمينية وآسية الصغرى الى القسطنطينية ١٨٠٨ ـ ٩ » ، (لندن ١٨١٢) • ثم « رحلة ثانية فى ايران » (لندن

---

(١) لم يذكر المؤلف شيئاً من تلك الاغلاط ، ومع تلك الاغلاط نرى انه ممن خيرة السياح الذين يؤثرون الحقائق على المداجاة والمحاباة والموافقة ـ م• ج •

١٨١٨) . والمؤلف ديبلوماسي انكليزي في ايران ، وهو يستطرق الى ذكر العراق في الفصل ٤٤ - ٤٦ من كتابه « الحاج بابا الاصفهاني » .

١٨١٠ ج . م . كينير - « رحلة في آسية الصغرى وأرمينيـة وكردستان » (لندن ١٨١٨) . ثم « مذكرة جيولوجية عن الامبراطورية الايرانية » (لندن ١٨١٣) ، والبحث فيهما عن ايران في الاصل الا انه يستطرق الى الكتابة عن شمالي العراق وشرقيه .

١٨١٦ ج . س . بكينغهام - « رحلات في آثور وميـدية وايران » (لنـدن ١٨٣٠) . الجزء الاول عن بغداد - فايران ، والثاني عن البصرة .

١٨١٦ ج . س . بكينغهام - « رحلات في بلاد ما بين النهرين » (لندن ١٨٢٧) الجزء الاول في ديار بكر - فماردين ، الجزء الثـاني في الموصل - فكركوك - فبغداد - فبابل - فبغداد . طريف .

١٨١٧ و . هود - « رحلة في الخليج العربي » (لندن ١٨١٩) ، كتب في ذكر البصرة - فالفرات - فالغراف - فبغـداد - فالموصل . ممتع ، تاريخي .

١٨١٨ السر ر . ك . پورتر - « سياحـات في بلاد الكرج وايران وارمينيـة وبابل القديمـة » (لندن ١٨٢٢) . والمؤلف من الآثاريين ، الجزء الثاني (ص ٢١٠) عن ايران - فخانقـين - فبغـداد - فكفري - فالسليمانية - فايران . ممتع .

١٨٢٠ ك . ج . ريج - « قصة مقيم في كردستان » (لندن ١٨٣٦) . وهـو المقيم البريطاني في بغداد سنة ١٨٠٨ - ٢١ ، وهذه قصة نزوله ضيفاً على محمود باشا بابان في السليمانية سنة ١٨٢٠ . ممتع ، ومهم عن تاريخ البابانيين .

١٨٢٤ الاونورابل ج . كيبل - « سياحات في بابل وآشور وميدية وسكيثية في ١٨٢٤ » (لندن ١٨٢٧) ، وهو من المتصلين بشركة الهند الشرقية وسياحاتـه في الخليـج - فالبصرة - فبغــداد - فبابل - فبغداد - فبعقوبة - فايران . طريف .

١٨٢٥ R.C.M. « مذكرة عن جولة في ايران » (لندن ١٨٢٨) ، يبدأ من

ص ٢٣٠ بذكر ايران ــ فبعقوبة ــ فبغداد ــ فالبصرة •

١٨٢٧ ر• مينيون ــ « سياحات فى بلاد الكلدان » (لندن ١٨٢٩) ، وهو من المتصلين بشركة الهند الشرقية ، والكتابة عن البصرة ــ فبغداد ــ فالحلة ــ فبغداد ، وإن الصحائف ٢٦٩ ــ ٨٦ فيها تلخيص لكتاب « زاد المسافر » المشار اليه فى هذه المراجع •

١٨٣٠ ــ ٣١ ج• ر• ويلستيد ــ « رحلات فى مدينة الخلفاء » (لندن ١٨٤٠) ، وهــو من المنتمين للاســطول الهنــدي ، وكتب فى صفة البصرة ــ فالفرات ــ فبغداد ــ فالفلوجة ــ فحلب ، وهذا مهم ولا سيما فى أخبار طاعون ١٨٣١ •

١٨٣٠ــ٣١ القس أ•ن• گروفز ــ « مذكرات اقامة فى بغداد » (لندن ١٨٣٢) ، والكاتب من المبشرين ، ويبحث عن بغداد فى ١٨٣٠ ــ ٣١ بحثاً دقيقاً واضحاً ، والكتاب تاريخي طريف •

١٨٣١ ج•هـ ستوكلر ــ « خمسة عشر شهراً من زيارة لجهات غــير مطروقة فى خوزستان وايران » (لندن ١٨٣٢) • وهــو صحفي وما كتبــه (ج ١ الى ص ٨٠) مهم فى موضوع البصرة فقط •

١٨٣١ ــ ٣٦ ف• ر• چيزني ــ « حملة مسح النهرين دجلة والفرات » (لندن ١٨٥٠) ، « قصة حملة الفرات » (لندن ١٨٦٨) • مهم من الوجهة الطوبوغرافية ، ولا معلومات تاريخية فيه •

١٨٣٤ ــ ٣٧ الدكتور ج • روص ــ « رحلة من بغداد الى اطلال أوپيس والجدار الميدي فى ١٨٣٤ » وهي مذكرات لرحلة من بغداد الى اطلال الحضر (مجلة الجمعية الجغرافية الملكية ، ج ١١ ، قسم ٢ ، ص ١٢١) ، والكاتب هو طبيب المقيمية ، وفى كتابته معلومات فى أحوال القبائل •

١٨٣٤ ج•ب• فريزر ــ « رحلات فى كردستان وما بين النهرين » (لنــدن ١٨٤٠) • وهو رجل مهنته الكتابة ، وقد كتب بهذا يصف أردلان ــ فشهرزور ــ فكفري ــ فبغداد ــ فالفرات ــ فايران من جديد • وقد ترجم القسم الأول من هذه الرحلة مترجم هــذه السطور وطبعــه بعنوان (رحلة فريزر الى بغداد فى سنة ١٨٣٤) • فى مطبعة المعارف

بغداد سنة ١٩٦٣] ، وكتب أيضاً « مذكرة في الاحوال الحالية في في باشوية بغداد » ، وكتب هذه المذكرة لتقدم للحكومة البريطانية • والكتابان مهمان •

١٨٣٥ اوشيه ـ ايلوي ـ « قصة رحلة في الشرق في ١٨٣٠ ـ ١٨٣٨ » (باريس ١٨٤٣ ، طبعة جوبير) • والكاتب عالم نباتي ، كتب في صفة ماردين ـ فالموصل ـ فبغداد ـ (والحلة) ـ فايران ، وفي ص ٩٩ يصف حملة الاينجة بيرقدار في ١٨٣٥ •

١٨٣٥ ـ ٣٦ ف • فونتانيه ـ « رحلة في الهند وفي الخليج العربي » (باريس ١٨٤٤) • والكاتب قنصل افرنسي في البصرة كتب يصف البصرة ـ فبغداد ـ فالمحمرة • وفي هذا معلومات كثيرة لكنها غير منظمة متحامل فيها على الانكليز بشدة • (ج ١ ، الفصل ٨ ـ ١٨) •

١٨٣٦ و•ف• أينزورث ـ « بحوث في بلاد الآشوريين والبابليين والكلدان » (لندن ١٨٣٨) •
« سياحات وبحوث في آسية الصغرى وبين النهرين وبلاد الكلدان وأرمينية » (لندن ١٨٤٢) •
« سياحات في طريق العشرة آلاف يوناني » (لندن ١٨٤٤) •
« قصة شخصية عن حملة الفرات » (لندن ١٨٨٨) • والمؤلف كان جيولوجياً بصحبة چيزني ، وفي المؤلفات معلومات طوبوغرافية كثيرة ومعلومات عن الاحوال العامة ، الا انها قليلة الاهمية تاريخياً • طريفة •

١٨٣٦ مدام هيلفر ـ « سياحات الدكتور والمدام هيلفر » ترجمها للانكليزية ج• ستورج لندن ١٨٧٨ ، وهذان المانيان صحبا حملة چيزني •

١٨٣٦ الماجور راولينسن ـ « مذكرات سفرة » من زهاو في سفوح الزاكروز وعلى طول جبال خوزستان » • وهذه مهمة في وصف زهاو ولرستان والبختياريين • (مجلة الجمعية الجغرافية الملكية) ، المجلد ٩ ، ص ٢٧ •

١٨٣٧ هـ•ب• لنج ـ « مذكرات في وصف قسم من دجلة بين بغداد وسامرا »• وهي مذكرات سياحية • مجلة الجمعية الجغرافية الملكية ، المجلد ٩ ،

ص ٤٧١ ، وهناك معلومات أخرى عن الموضوع في مذكرات جمعية بومبي الجغرافية ، أيلول ١٨٤١ ـ مايس ١٨٤٤ (١٨٩١) •

١٨٣٨ القس هـ• ساونكيت ـ « قصة جـولة في أرمينية وكردستان وايران وبين النهرين » (لندن ١٨٤٠) ، الجزء الثـاني فقط ، وفيـه صفة ايران ـ فخانقـين ـ فبغـداد ـ فكفـري ـ فكركوك ـ فالموصل ـ فماردين • والمؤلف من المبشرين •

١٨٣٩ الدكتور أ• كرانت « النسطوريون » (لندن ١٨٤١) ، والكاتب طبيب مبشر ، يكتب في صـفة ماردين ـ فالموصل ـ فعقـرة ـ فالعمادية • طريف •

١٨٤٠ ـ ٥١ أ•هـ• لايارد ـ « المغـامرات الأولى في ايـران وسوسيانا وبابل » (لندن ١٨٩٤) • كان مع متفورد في سفرته الى بغداد ، والكتابة عن بلاد البختياريين وعربستان ، وعن البصرة الى بغـداد ، وعن دجلة شمالاً وجنوباً ولورستان والموصل ، والكتاب طريف الا ان أهميتـه التاريخية قليلة •

ثم « نينوى وآثارها » (لندن ١٨٩١) •

و « نينوى وبابل » (لندن ١٨٥٣) •

١٨٤٠ ي• ل• متفورد ـ « سفرة برية من انكلترة الى سيلان قبـل أربعين سنة » (لندن ١٨٨٤) وفيـه كتابة في ذكـر الجزيرة ـ فماردين ـ فالموصل ـ فبغداد ـ فالحلة ـ فخانقين ـ فايران •

١٨٤٢ ـ ٤٣ القس ج• ب• فليتشر ـ « خواطر عن نينوى » (لندن ١٨٥٠) ، من المبشرين ، كتب عن ديار بكر ـ فالموصل والى ديار بكر ثانية •

١٨٤٨ ـ ٥٥ الكوماندر فيلكس جونز ـ تقييدات مختلفة في مجلة جمعية بومبي الجغرافية ، المجلد ٩ و ١٠ و ١١ (١٨٤٩ الى ١٨٥٦) • غير تاريخية •

١٨٤٩ ـ ٥٠ و•ك• لوفتس ـ « رحلات وتنقيبات في بلاد الكلدان وسـوسة » (لندن ١٨٥٧) • وهذا عضو من أعضاء اللجنة لتحديد الحدود سنة ١٨٤٩ • والكتابة في وصف الموصل ـ فبغداد ـ فالفرات الأوسط ـ فالبصرة ـ فعربستان •

١٨٥٠ الملازم ف. والبول ـ « النصيرية أو (الحشاشون) مع سياحات الى الشرق البعيد » (لندن ١٨٥١) . الجزء الاول عن ديار بكر والموصل ،

١٨٧٨ الليدي آن بلنت « قبائل الفرات البدوية » (لندن ١٨٧٩) ، ثم « زيارة نجد » (لندن ١٨٨١) . وهذا بحث عن شؤون بادية الشام ، وملاحظات دقيقة .

١٨٧٨ ج. گيري ـ « في تركية الآسيوية » (لندن ١٨٧٨) ، والكاتب صحفي ، كتب في وصف البصرة ـ فالموصل ـ فآسية الصغرى . سطحي .

١٨٨٥ هـ . بينديه ـ « في كردستان وبين النهرين وايران » (باريس ١٨٨٧) ، عن كردستان والموصل وبغداد وايران . بارد غير ملذ .

١٨٩٢ هـ.س.كاوپر ـ « في بلا العرب الآسيوية » (لندن ١٨٩٤) ، والكاتب سائح ، كتب عن الفرات ـ فبغداد فالبصرة .

١٨٩٥ ج.د. پيترز ـ « نيبور » أو ارتيادات ومغامرات في الفرات » (نيويورك ١٨٩٧) .

١٨٩٩ ـ ١٩٠٦ السر م. سايكس « سفرة في ولايات خمس تركية » (لندن ١٩٠٠) وهو في الفرات الاعلى والموصل وكردستان الوسطى . ثم « ارث الخلفاء الاخير » (لندن ١٩١٥) وهو في الجزيرة الشمالية والموصل وكردستان . و « دار الاسلام » (لندن ١٩٠٤) عن الفرات والموصل وأواسط كردستان .

١٩٠٨ ـ ٩ ي.ب. سون ـ « سفرة متنكر الى بلاد ما بين النهرين وكردستان » (لندن ١٩١٢) .

١٩٠٩ المس بيل ـ من مراد الى مراد ـ « اموراث الى اموراث » (لندن ١٩١١) وهو كتاب آثاري ووصفي .

١٩١٠ د. فريزر ـ « ايران وتركية في ثورة » (ادينبرغ ١٩١٠) . اسلوب صحفي .

١٩١٣ ـ ١٤ ج.ي. هبرد ـ « من الخليج الى ارارات » (أدنبرغ ١٩١٦) .

سجلات شركة الهند الشرقية

ان مجموعات الاخبار التي رجعنا اليها في هذا الكتاب هي : « الخلاصة »

وفيها معلومات تختص بعلاقات شركة الهند الشرقية الاولى بالبلاد العربية الخاضعة لتركية • وهذه جمعت من دون أن يذكر عليها أي اسم وطبعت في ١٨٧٤ في « مطبعة دائرة الشؤون الخارجية » في كلكتا • وهي تحتوي على فهرست للاعلام وعلى الخلاصة نفسها (ص ١ ـ ١٣٧) وعلى ملاحق خمسة • والمعلومات الحقيقية المطابقة للواقع التي يمكن أن تستخرج من مراسلات المقيمين والوكلاء في البصرة (وأخيراً في بغداد) هي قليلة ، لكنها كثيرة التنوير والصحة •

ثم ان بعض الرسائل المدرجة في « خلاصة في الشؤون العربية والتركية » لكاتبها الهندي ج•أ• سالدانها (سيملا ١٩٠٦) مهمة في هذا الشأن •

التواريخ العامة للبلاد المجاورة

وهذه تكون مصدراً من مصادر تاريخنا هذا على جانب كبير من الاهمية • فقد كان العراق منفصلاً عن ايران وتركية بحدود غير دقيقة ومرتبطاً بهما بالتعامل الدائم ، كما ان تركية التي نعدها هنا « بلاداً مجاورة » لم تكن جاراً فحسب بل كانت كلا كبيراً ليس العراق الا جزءاً منه •

تواريخ تركية ـ ليس في هذه التواريخ ما يمكن أن يستند اليه تاريخنا هذا ، بوجه عام ، الا شيئاً يسيراً ، نستثني من ذلك ما كتبه المؤرخون الرسميون الاتراك • ومن مثل هؤلاء ممن رجعنا اليهم نعيما (١٥٩٢ ـ ١٦٢٩) ، وراشد (١٦٦٠ـ١٧٢١) وما كتبه جلبي زاده مصطفى عاصم أفندي تكملةً له (١٧٢٢ـ٢٨) ، وصبحي (١٧٣٠ ـ ٤٣) وعـــزي (١٧٤٤ ـ ٥٠) ، وواصف (١٧٥٠ ـ ٧٤) ، وشانيزاده (١٨٠٥ ـ ٢٠) • والحوادث في هذه المراجع مسرودة بحسب ترتيب الوقائع وهي مفهرسة بصورة جيدة • اما المؤرخون الاتراك الاصليون الآخرون الذين رجعنا اليهم عن السلطان سليمان نفسه فهم : فردي وبشاوي وجلال زاده ، وذلك لتاريخ المدة نفسها • وكذلك رجعنا الى نوري وقره جلبي وعبدالعزيز فيما يختص بحملات السلطان مراد •

ان هذه المراجع (ومراجع أخرى غيرها لم يتوصل اليها المؤلف) تؤلف مصدراً عظيم الفائدة لتاريخ المـدد التي كان يزج فيهـا العراق في حالة تضطر المؤرخين الى تدوين وقائعه • اما عن الحقب الاعتيادية وما فيها من علاقات بـين مختلف الولايات واستانبول فان هذه المراجع لا قيمة لها ، وهي نادراً ما تذكر

شيئاً عن العراق في مثل هذه الاحوال • ومن المؤرخين الاتراك المتأخرين جودت باشا (استانبول ، ستة أجزاء ، ١٣٠٢ للهجرة) ، وهو مهم فيما يختص بتاريخ ١٧٥٠ ـ ١٨٢٥ لانه استند الى مراجع أصلية قديمة لا يمكن التوصل اليها ، كما كان عنده شيء من الروح التاريخية الحديثة أكثر من الرواة القديمين •

اما مؤرخو تركية من الأوربيين الذين هم كثيرون فان أغلب كتاباتهم عن العراق لا تحتوي الا على اتفه الاخبار وأكثرها تشويشاً • فدراسة كتب نولز وريكو وكانتامير وعدة من الآخرين غيرهم ، فيما يختص بشؤون العراق ، لا يمكن أن يستخرج منها الا صفحة أو بعضها • الا ان الملخصين المتأخرين لتاريخ الشؤون العثمانية كريسي وخليل غانم ودلاجونكيير ولامارتين ولسين بول وايفرسلي في إمكانهم أن يجعلوا القارىء الاعتيادي لمؤلفاتهم يضع الشؤون العراقية في صلب التاريخ التركي • كما ان كتاب الرسالات في السنين القلائل الاخيرة مثل گيبونز وميلر وليبير يعطون من المعلومات عن المراجع ما يثير في المستطلع البحث والتنقيب • بيد انه يمكننا ان نقول بوجه عام ان دارس التاريخ العراقي يجب أن لا يرجع الى التواريخ الغربية التركية • وليرجع الى الفون هامر وحده ـ والى جوركا بدرجة أدنى ـ بصورة دائمة للحصول على مجمل يشتمل على مراجع عظيمة الاهمية ، عن أحوال العراق وشؤونه التاريخية ، من الصعب التوصل اليها من دون مراجعة هذا الجامع المدهش • وقد رجعنا أيضاً الى الطبعة الأفرنسية لكتاب ج•ج• ايلسير (باريس ١٨٤١ ١٨ جزء) •

تواريخ ايران ـ ان التواريخ التي رجعنا اليها في هذا الشأن هي كتاب « تاريخ ايران » لمؤلفه السر جون مالكولم (١٨٢٩) وكتاب ر• غ واتسن (١٨٨٦) وكتاب السر بيرسي سايكس (الطبعة الثانية ١٩٢١) •

وسوف تذكر اشارات الى رسالات هانوي وبريجز وكروسينسكي ودوراند في فصل المراجع التالية من هذا الملحق •

تواريخ بلاد العرب ـ ان التاريخ العام الوحيد الذي رجع اليه في هذا الكتاب من أجل بلاد العرب هو كتاب د•گ• هو گارث (إكسفورد ١٩٢٢) • وسوف يذكر عن أهم الرسالات في تاريخ العرب في المراجع التالية من الملحق هـذا •

رسائل تختص بتاريخ العراق والبلاد المجاورة له

لا بد لنا هنا من ان نذكر المراجع التي رجعنا اليها في هذا التاريخ فقط ، لان المراجع التي تختص بالموضوع بوجه عام والتي لها علاقة به كثيرة بحيث لا يمكن سردها • وسوف نذكرها فيما يلي مرتبة بحسب البلاد التي تبحث عنها او الموضوع الذي لها علاقة به ، وبترتيب الزمن الذي كتبت فيه تقريباً •

العــــراق

« الحوادث السريانية المختصة بحصار الايرانيين للموصل » وهذه طبعة افرنسية وترجمة قام بها المسيو هـ • يونيون لنسخة سريانية خطية وجدت في كنيسة تل قوش (ربما القوش) بالقرب من الموصل • وهي مكتوبة في سنة ١٧٤٦ •

« قصة حصار نادر شاه للموصل » وهي نسخة خطية تركية (ذات رقم ٧٨٦٧ ومدرجة في ص ٢٤٩ من الفهرس) من مجموعة المخطوطات التركية الموجودة في المتحفة البريطانية ويظهر ان مؤلفها من رجال الحاج حسين الجليلي ، فقد اهديت اليه الرسالة •

« الفرات ودجلة » للمسيو دانفيل (الجغرافي الاول للملك) باريس ١٧٧٩ وهذه جغرافية صرف وليست مبنية على تدقيق نظر شخصي •

« وصف باشوية بغداد » وهي رسالة خلو من اسم المؤلف (الا ان المفهوم من اشارات المؤلفين الآخرين انها منسوبة الى المسيو ج•ب• روسو) باريس ١٨٠٩ وهي وان كانت غير مرضية فانها تحتوي على عدة نقاط لم تبق محفوظة في غيرها • وكان كاتبها قنصلا لفرنسة في البصرة في حدود ١٧٨٠ ، وفي بغداد في ١٧٩٦ ـ ٩٨ •

« بهجة الاخوان في ذكر الوزير سليمان » لمؤلفه محمود بن عثمان الرحبي • وهذه الرسالة في أربعة أجزاء يبحث الجزء الرابع منها عن تاريخ سليمان باشا في البصرة • وهي مخطوطة مرقمة ٣٨٥ ومذكورة في (ص ١٤٧) من فهرس الكتب الشرقية المطبوع في (١٨٤٦) •

« الدرر[1] الفاخرة في أخبار العرب الاواخر » لكاتبها محمد بسام التميني (قد تكون التميمي) ، وفيها بحث عن قبائل العراق الحديثة جمع للمستر ريج في سنة ١٨١٨ • وهذه مخطوطة مرقمة برقم ٣٤٢ في المجموعة السابقة •

« تقييدات في ذكر المحمرة وعرب كعب » لكاتبها الكولونيل هـ • س • راولينسن • وهي مطبوعة في مذاكرات الجمعية الجغرافية الملكية في الهند ١٨٥٥ – ٥٧ •

« تقييدات في طريق وادي الفرات الى الهند » لندن ١٨٥٧ كتبها و•ب• اندرو •

« مطالع المجد في أحوال بغداد والبصرة ونجد » لمؤلفه السيد ابراهيم فصيح (الحيدري) : وهي قصة وصفية جغرافية تاريخية احصائية نسبية في ذكر البصرة وبغداد ونجد • وهي مخطوطة عربية اكملت كتابتها في سنة ١٢٥٦ للهجرة (١٨٣٦) • وأهميتها ، غير العظيمة ، في ذكرها انساب العوائل العراقية الشهيرة (المؤلف) • وقد طبعته (دار منشورات البصري) في بغداد قبل سنوات بطبعة غير مؤرخة – المترجم •

« ولاية بغداد » للمسيو شيحا (القاهرة ١٩٠٠) وهو ما كتبه ايطالي أقام طويلا في العراق ، وفيه فصل تاريخي • وأهم ما فيه ما يذكر عن منتصف القرن التاسع عشر وأواخره (المؤلف) • ان هذا المؤلف هو حبيب شيحا الذي كان سورياً عثمانياً لا ايطالياً • فقد درّس الفرنسية مدة خمسة عشر عاماً في مدرسة اللاتين ببغداد ثم تزوج وامتهن التجارة – المترجم •

« تاريخ بغداد في العصر الحديث » للمسيو كليمان هوار (باريس ، لورو ، ١٩٠١) • وهو تلخيص للكتب الثلاثة الشهيرة التي أشرنا اليها أعلاه وهي كتاب كلشن خلفا ومطالع السعود وكتاب ثابت • ويستوعب بحثه المدة التي من ١٢٥٨ م الى ١٨٣١ م •

« سيرة مدحت باشا » لمؤلفه علي حيدر مدحت (لندن ١٩٠٣) •

---

(١) نظام السجع يقتضي ان يكون الاسم : « الدر الفاخر في أخبار العرب الأواخر » •

بلاد العـرب

توجد في« قائمة المخطوطات العربية » للمستر ي. غ. براوني من جامعة كمبرج اشـارة الى « رسـائل مختلفـة » (برقـم ٥٠١ ص ٣٤٣) تبحث في « الاصطدام بين الاتراك والوهابيين بالقرب من بغداد في ايلول ١٨٠٩ » .

« تقييدات في أخبار الوهابيين » للمسيو ج.ب. روسو ، وهو كتاب وصفي مهم .

« تاريخ الوهابيين » للمسيو ل. أ. كورانسيز (باريس ١٨١٠) .

« مذكرات عن البدو والوهابيين » للمستر ج. ج. بورخارت (لنـدن ١٨٣١) .

« تاريخ مختصر للوهابيين » للسر هـ. ج. بريجز ، وهو المجلد الثاني من كتابه « وقائع بعثة صاحب الجلالة الى البلاط الايراني » (لندن ١٨٣٤) .

« رحلات في الجزيرة العربية » للمستر س. م. دوتي وهذا كتاب خالد مشهور يبحث عن أحوال بلاد العرب (كمبرج ١٨٨٨) .

« عنوان المجد في تاريخ نجد » لمؤلفه عثمان بن عبدالله ومنقحه محمد بن عبدالعزيز المانع النجدي وسليمان الدخيل ، وهو مطبوع في مطبعة الشابندر بغداد سنة ١٣٢٧ للهجرة (١٩٠٩ م) .

ايـران

« تاريخ عالم آراي عباسي » لمؤلفه اسكندر بك تركمان (طبع طهران بالحجر سنة ١٣١٤ للهجرة) ، وهو مهم في بحثه عن تاريخ الشاه عباس وعلاقته ببغداد .

« تاريخ ثورة ايران » للأب كروسنسكي (ترجمة الاب دي سيركو ، لندن ، بجزئين ، ١٧٢٨) ، وهو من المراجع الجيدة في استيلاء الافغان ونتائجه .

« جهان كشاي نادري » للمرزا مهدي خان سكرتير نادر شاه الاول . وهو وصف كامل لحملات هذا الفاتح على العراق . وقد لخصه وليم جونز في كتابه « سيرة نادر شاه ملك ايران » (لندن ١٧٧٣) .

« سلالة القاجاريين » للمستر هـ. ج. بريجز (لندن ١٨٣٤) .

« نادر شاه » للمستر هـ. م. دوراند (لندن ١٩٠٨) .

كردستان :

« الشرفنامة » ، وتوجد منها عدة طبعات شرقية ونسخ مخطوطة كثــيرة ـ المؤلف • لقد ترجم الشرفنامه هذه الى العربية الملا جميل بندي روژبياني ، وطبعها في بغداد (مطبعة النجاح ١٩٥٣) بمساعدة من المجمع العلمي العراقي ـ المترجم •

الخليج العربي :

ان المراجع التالية تبحث في شؤون الأوربيين في الخليج :

ترجمة ج • ستيفن (لندن ، ٣ج ، ١٨٩٤) لما كتبه مانوئيل فاريا كسي سوسا ، وهذا يصل بتاريخ البرتغاليين الى سنة ١٦٤٠م •

« البرتغاليون في الهند » (لندن ، ٢ج ، ١٨٩٤) للمستر دينفرر ، « تعاظـم السطوة البرتغالية في الهند » للمستر وايتوي (لندن ١٨٩٩) ، « البرتغاليون في بلاد العرب الشرقية » ، للمستر س • ب • مايلز ، « البرتغاليون والترك في المحيط الهندي في القرن السادس عشر » (مجلة الجمعية الآسيوية الملكية ، كانون الثاني ١٩٢١) ، « شروح الفونسودي البوكرك » (جمعية هاكلايت في لندن ، ٤ أجزاء) للمستر و • غ • برج ، « رحلات تكسيرا » ، « بحث جديد عن الهند الشرقية وأيران » ١٦٧٢ ـ ١٦٨١ (لندن ١٦٨٨) للدكتور فراير ، « رحلات بعض السنين في آسية وأفريقية » (لندن ١٦٣٨) للسر ت • هربرت ، « سفارة السرتوماس رو» (لندن ١٨٩٩) ، « تاريخ الاسطول الهندي » (لندن ، جزءان ، ١٨٧٧) للمستر س • ر • لو ، « المعامل الانكليزية » (لندن جزءان ١٩٠٦) ، « وقائع شركة الهند الشرقية » (لندن ٣ مجلدات ، ١٨٠) للمستر ج بروس •

التحقيقات المحلية

من المستحيل ان يكون المرء مدققاً في هذا المصدر من مصادر التاريخ • وأن المؤلف ليشعر بنفسه بانه استفاد في معلوماته عن أحوال العراق وجغرافيته فوائـد جمة خلال اشتغاله مدة تزيد على ثماني سنوات في أشغال سياسية وأدارية فـي العراق • وهو مدين في محادثاته التي لا عد لها عن التاريخ القبائلي والاجتماعي والمالي لكثير من اصدقائه العراقيين • وفي كثير من المعلومات المذكورة في الكتاب تؤيد المؤلف شهادة أناس من نسل القبيلة أو الأسرة المقصودة بالبحث ، وذلك مرجع خال من الخطر والمجازفة تأريخياً ، الا انه فريـد في بابـه ولا يمـكن احلال شيء محله •

الملحـق الثـاني

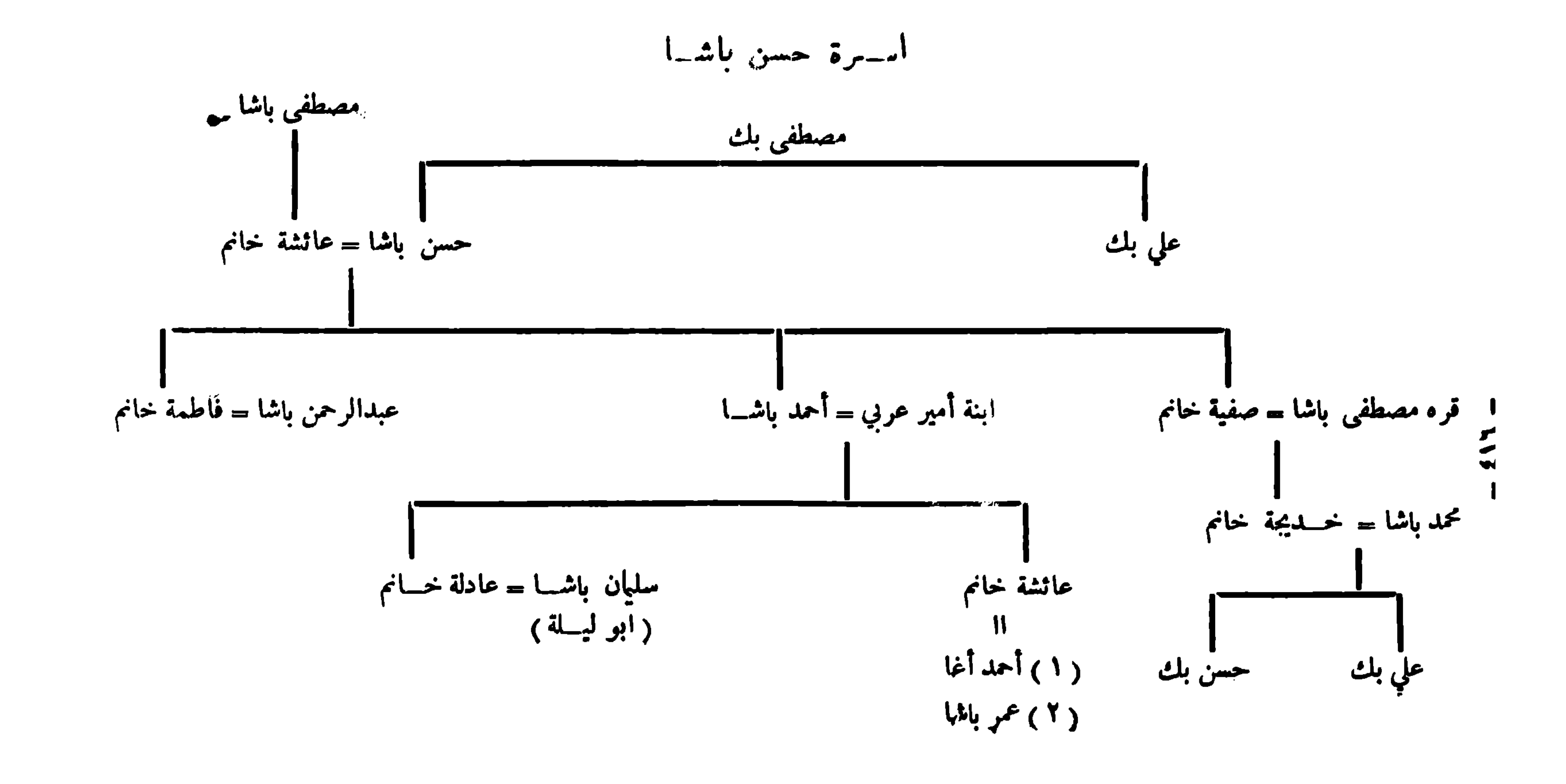
انساب الأسر التالية :

١ ـ اسرة حسن باشا

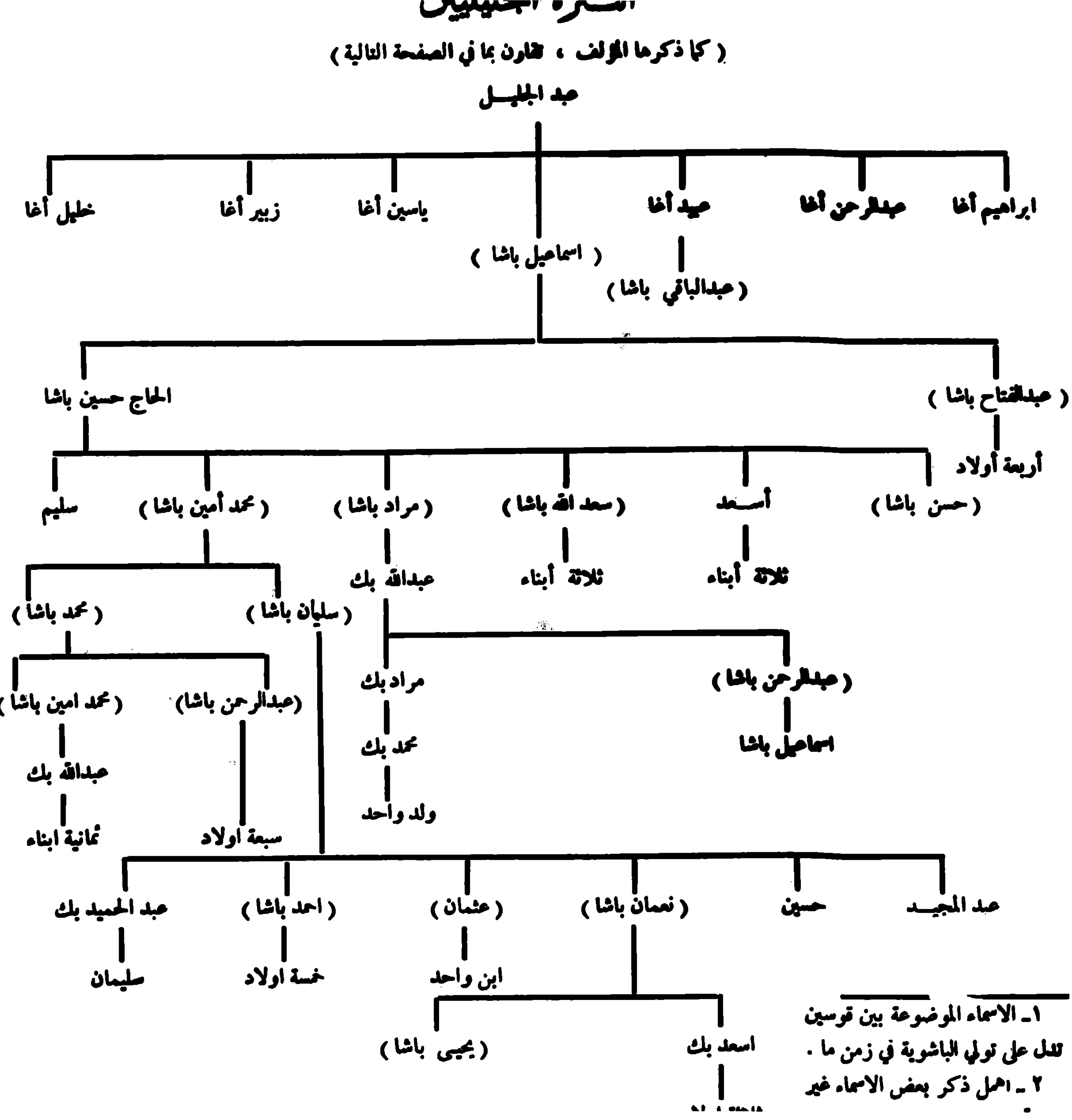
٢ ـ اسرة الجليليين

٣ ـ اسرة البابانيين

٤ ـ اسرة آل شبيب (السعدونيون)

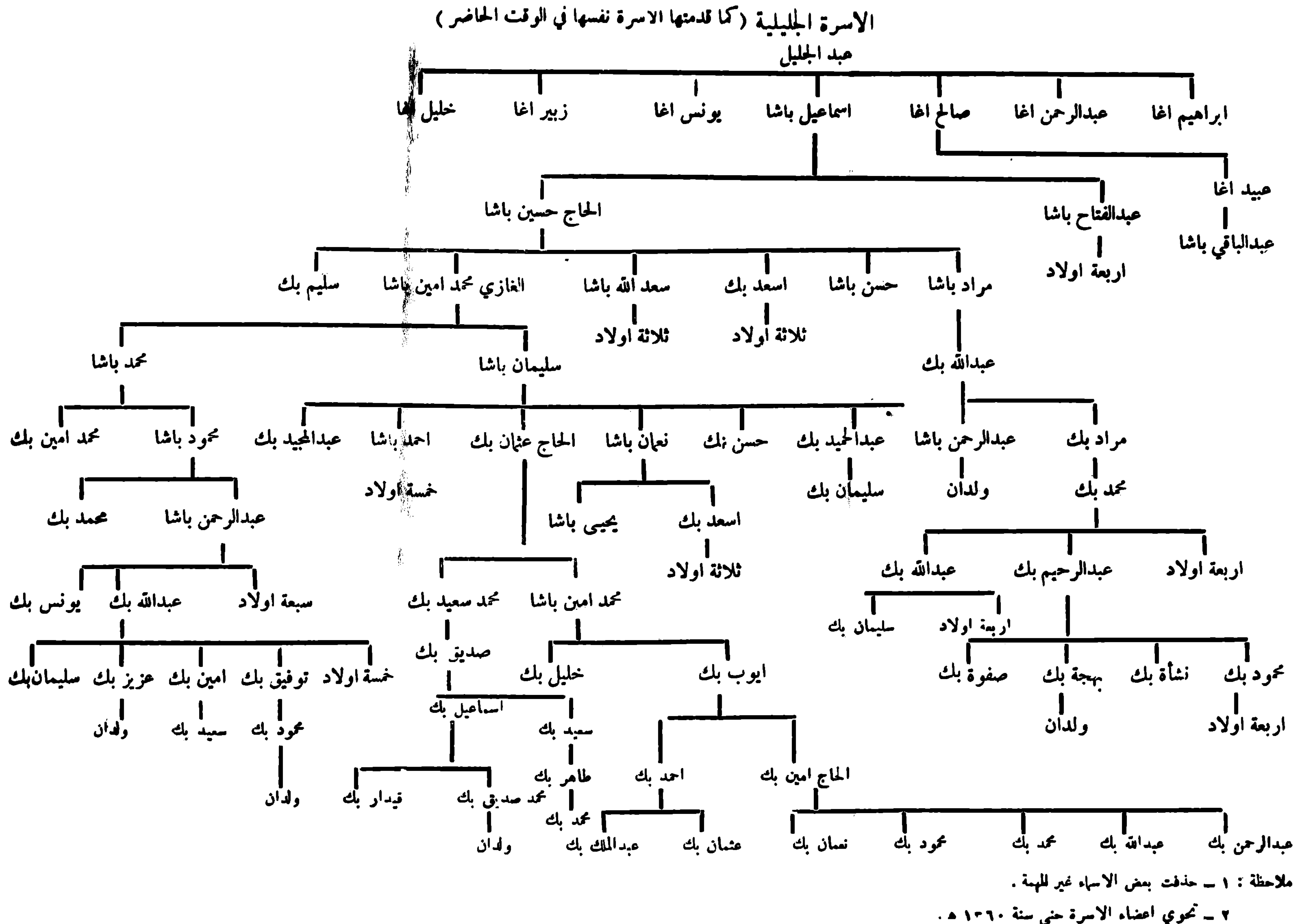

أسرة حسن باشا
مصطفى باشا
مصطفى بك
حسن باشا = عائشة خانم
علي بك
عبدالرحمن باشا = فاطمة خانم
ابنة أمير عربي = أحمد باشا
قره مصطفى باشا = صفية خانم
محمد باشا = خديجة خانم
سليمان باشا = عادلة خانم
(ابو ليلة)
عائشة خانم
=
(١) أحمد أغا
(٢) عمر باشا
حسن بك
علي بك

(كما ذكرها المؤلف ، قارن بما في الصفحة التالية)



١ ـ الاسماء الموضوعة بين قوسين تدل على تولي الباشوية في زمن ما .
٢ ـ اهمل ذكر بعض الاسماء غير

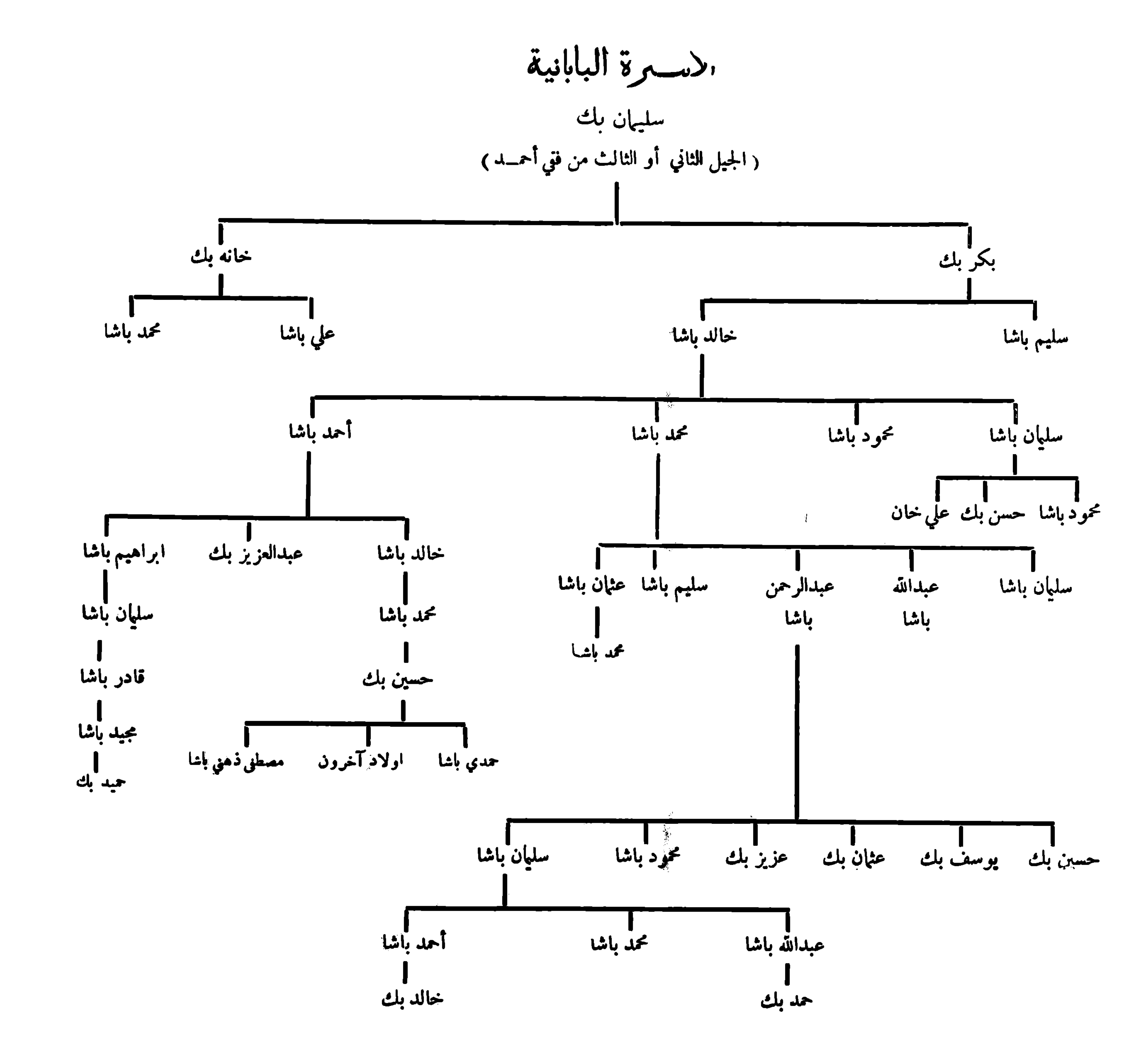
الاسرة الجليلية (كما قدمتها الاسرة نفسها في الوقت الحاضر)



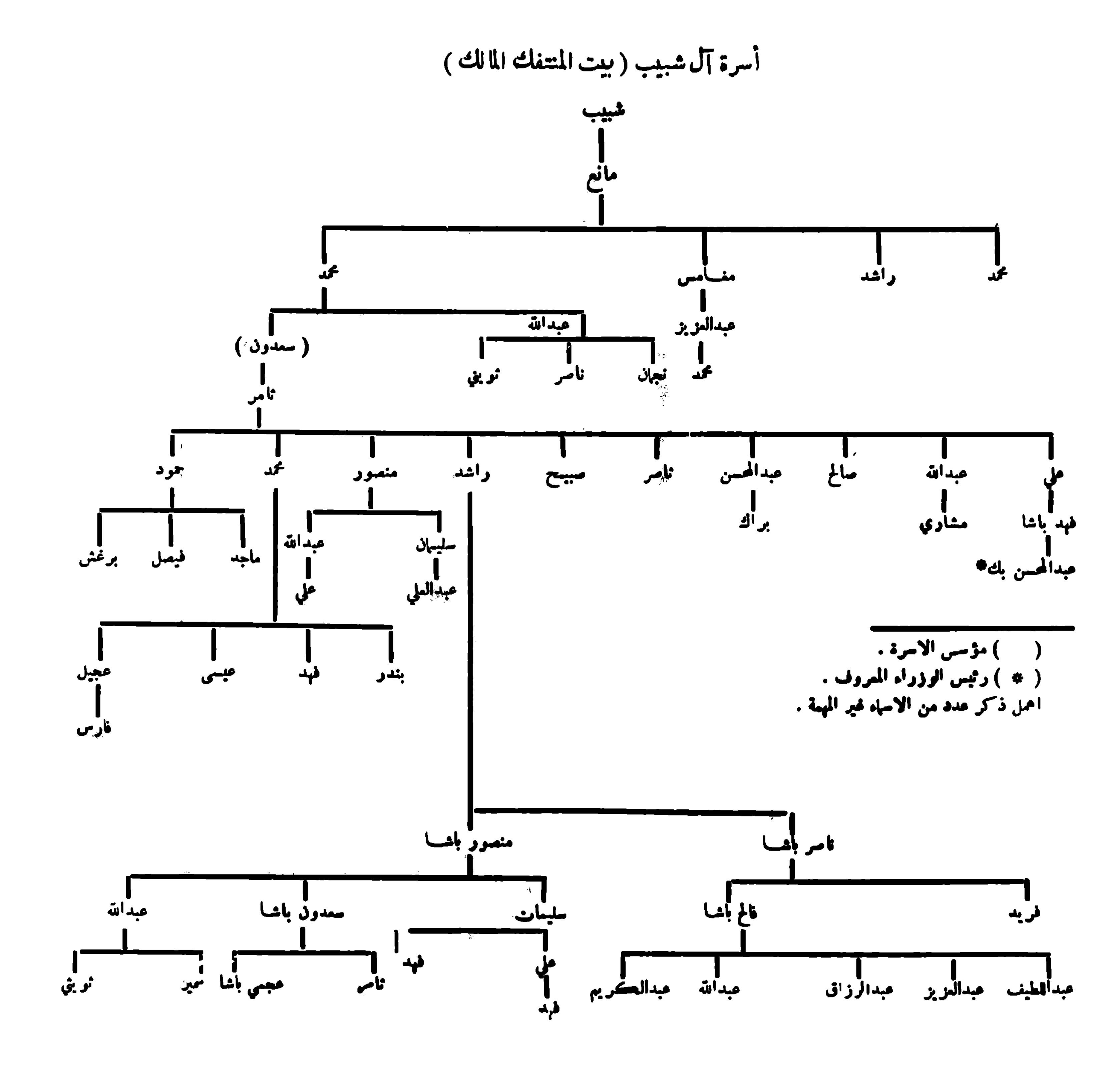
ملاحظة : ١ ـ حذفت بعض الاسماء غير المهمة .

٢ ـ تحوي اعضاء الاسرة حتى سنة ١٣٦٠ هـ .

الاسرة البابانية



أسرة آل شبيب (بيت المنتفك المالك)



( ) مؤسس الاسرة .
(*) رئيس الوزراء المعروف .
اهمل ذكر عدد من الاسماء غير المهمة .

الملحق الثالث

ملوك تركية وأيران المتعاصرون

تركية		ايران		
التاريخ	اسم السلطان	التاريخ	أسم الشاه	
١٥١٢	سليم الاول	١٥٠٠	اسماعيل الاول	صفوي
١٥٢٠	سليمان الاول	—	—	
١٥٦٦	سليم الثاني	١٥٢٤	طهماسب الاول	كذا
١٥٧٤	مراد الثالث	—	—	
—	—	١٥٧٦	اسماعيل الثاني	كذا
—	—	١٥٧٨	محمد خدابنده	كذا
١٥٩٥	محمود الثالث	—	—	
١٦٠٣	أحمد الاول	١٥٨٧	عباس الكبير	كذا
١٦١٧	مصفى الاول▬	—	—	
١٦١٨	عثمان الثاني*	—	—	
١٦٢٢	مصطفى الاول (للمرة الثانية)	—	—	
١٦٢٣	مراد الرابع	١٦٢٩	صفي	كذا
١٦٤٠	ابراهيم▬	١٦٤٢	عباس الثاني	كذا
١٦٤٨	محمد الرابع▬	١٦٦٧	سليمان	كذا
١٦٨٧	سليمان الثاني	—	—	
١٦٩١	أحمد الثاني	—	—	
١٦٩٥	مصطفى الثاني ×	١ ٩٤	حسين	كذا
١٧٠٣	أحمد الثالث▬	—	—	
—	—	١٧٢٢	محمود خان	أفغاني
—	—	١٧٢٣	أشرف خان من المدعين بالعرش	

× تنازل عن العرش

▬ خُلع

* قُتل

تركية		ايران		
التاريخ	اسم السلطان	التاريخ	اسم الشاه	
١٧٣٠	محمود الاول	١٧٣٠	طهماسب الثاني	صفوي
—	—	١٧٣٦	نادر	أفشار
—	—	١٧٤٧	عادل	أفشار
١٧٥٤	عثمان الثالث	١٧٤٩	شاه رخ وغيره : فوضى	
١٧٥٧	مصطفى الثالث	١٧٥٧	كريم خان الوصي الزندي	
١٧٧٣	عبدالحميد الاول	١٧٧٩	فوضى	
١٧٨٩	سليم الثالث	١٧٩	أغا محمد	قاجاري
١٨٠٧	مصطفى الرابع	١٧٩٧	فتح علي	قاجاري
١٨٠٨	محمود الثاني	—	—	
١٨٣٩	عبدالمجيد	١٨٣٤	محمد	قاجاري
١٨٦١	عبدالعزيز	١٨٤٨	ناصر الدين	قاجاري
١٨٧٦	مراد الخامس	—	—	
١٨٧٦	عبدالحميد الثاني	١٨٩٦	مظفر الدين	قاجاري
١٩٠٨	محمد الخامس	١٩٠٧	محمد علي	كذا

ايضـــاح المصطلحات

والأسماء الأعجمية

الـواردة في الكتـاب

أغا ـ (تركية) سيد او موظف من الدرجة الوسطى (العالية احياناً) ، وقد يكون عسكرياً او ملكياً او مستخدماً (في بيت عظيم الشأن) •

آق ـ (تركية) ومعناها أبيض

أيالة ـ (عربية) أكبر وحدة ادارية في الامبراطورية التركية •

أيج آغالري ـ (تركيـة) أغوات الداخل ، وهم أفراد الحاشية فيقصر الباشا الخاص •

أيج دائرهسي ـ (تركيـة) الدائرة الداخلية ، أي القسم الخاص من القصر •

أيلجي ـ (تركية) رسول أو سفير •

بـاب العرب ـ (عربيـة) الموظف العربي فيديوانالباشا الذي تراجعه القبائل العربية في البلاد في شؤونها مع الحاكم •

باليوز ـ (أيطاليـة) قنصل اوربي في تركيـة ، وخاصـة المقيم البريطاني في بغداد •

براطلي ـ (تركيـة) فوج الجيوش المشاة النظامية التي تجند محلياً •

بستانجي ـ (صيغة تركيـة) جندي من جنود السلطان الاهليـة التي اندمجت أخيراً بالانكشاريين •

بكلربكي (تركيـة) بيك البيگات وهو لقب باشا من أعلى درجة ولقب حاكم أيالة •

بويوريلدي ـ (تركية) الوثيقة التي يصدرها الباشا في منح وظيفة أو امتياز •

تنظيمات ـ (عربيـة) مجموعـة الاصلاحات والمؤسسات الجديدة التي أدخلها السلطان عبدالحميد •

تفنگچي ـ (تركية) جندي من حملة البنـادق التابعين لأفواج الجند النظـامي المحلي •

تيمار ـ (ايرانية) اقطاع او التزام وراثي لا تقـل قيمتـه عن عشرين ألف « آقچة » •

تيماري ـ صاحب التيمـار الملـزم بالخدمة العسكرية فى أمرة السنجق بكي•

جيبهجي ـ (تركية) جنـدي من الجنود القـديمة (الامبراطورية) المختصة بالاسلحة وبعهدتهـا المدفعيـة ومخـازن الاسلحة •

خلعة ـ (عربية) بزة الشرف

درهبكي ـ (تركية) صـفة للحكام (العشائريين بعضاً) المستقلـين فى مناطـق داخلة اسمياً فى ولاية من الولايات التركية•

دفتردار ـ (تركية) رئيس موظفي الواردات والخزينة في الولاية •

ديرة ـ (عربية) منطقة مخصصة برعي الحيوانات لقبيلة من القبائل •

رئيس افندي ـ (عربية تركية) مختصرة من « رئيس الكتاب » ، وهو الوزير العثماني المختص بالشؤون الخارجية (تحت الصدر الاعظم) حتى القرن التاسع عشر •

زعامة ـ (عربية) وحدة اقطاعية قيمتها من عشرين ألف « آقچة » فما فوق •

زعيم ـ صاحب الزعامة •

سپاهي ـ (ايرانية) جندي خيال (١) يقدمه الاقطاعيون لخدمة موقتة ، (٢) جندي من الجيوش الخيالة النظامية الامبراطورية •

سراگليو ـ تحويل أو تحريف أوربي لكلمة « سراي » •

سردار ـ (تركية) القائد العام

سقاء ـ (عربية) نوع من الجند مختص بالماء •

سنجق ـ (تركية) بمعنى علم ، وهي منطقة يحكمها سنجق بگي بمقام وحدة اقطاعية ، واصبحت بعد ذلك تعني وحدة ادارية تابعة للأيالة ويحكمها متصرف •

السنيور الكبير ـ لقب أوربي للسلطان

صگبان ـ (ايرانية) تعني أصلاً مراقب كلاب صيد السلطان ، وأصبحت بعد ذلك تعني صنفاً من الجنود المندمجة بالانكشارية ، وفي الأخير أصبحت تعني جنداً نظامياً منحطاً •

صوباشي ـ (تركية) كانت يعني بها في الأصل موظف لتوزيع الماء وجباية الواردات ، وأصبحت تعني أخيراً ملازم الجند الذي يقوم بأعمال الشرطة في المدن •

طوبچي ـ (تركية) كانت تعني في الاصل جندياً من الجنود غير المحاربة المرتبطة بالجبهچية ، وأخيراً كانت تطلق على الجند الخفيف المجند محلياً •

فرمان ـ (ايرانية) أرادة ملكية تصدر من السلطان بتعيين أو بأعطاء شيء •

قائمقام ـ (عربية) تعني الحاكم ، (١) وبصورة عامة نائباً عن الموظف الاداري في كل وظيفة ، (٢) لكن المعنى الخاص انه حاكم قضاء •

قالپاق ـ (تركية) لباس الرأس المصنوع من جلد الحيوان الذي يلبسه الانكشاريون وهو بحجم كبير ، كما يلبسه سائر الجنود ولكن بحجم أصغر •

قالپاقلي ـ فوج الجنود النظامية المحلية الذين يلبسون القالپاق في رؤوسهم •

قبطان پاشا ـ (من الايطالية) أمير البحر الأعلى •

قپوچي ـ (تركية) « البواب » ومعنى ذلك حاجب السلطان او رسوله في مهمة خاصة •

قپو قولي ـ (تركية) « خادم الباب » ، وهـذه قوة أمبراطورية تعـار للخدمة في الولايات .

قزلر أغاسي ـ (تركية) أمين القسم الخاص (النساء) في قصر السلطان ، رئيس الخصيان .

قضاء ـ (عربية) وحـدة أدارية بين السنجق (أو اللواء) والناحية .

كهية ـ (تركية) تحريف كلمـة كتخدا الأيرانية . وتعني بوجه عام الأمين والموظف الكبير ، ثم أصبحت تعني الوزير الأول (لكل شيء) في حكومة الولاية التي يحكم فيها باشا من الباشوات .

كوله ـ وجمعها « كوله من » (تركية) مملوك ، عبد معتق (من أصل جركسي) .

كونللي ـ (تركية) نوع خاص من جند الخيالة الخفيفة .

كيد يكلي ـ (تركية) صاحب الملك أو الدرجة بطريقة أقطاعيـة خاصـة ، وبصورة عامة تعني تابعاً من أتباع السلطان أو موظفاً من موظفيه .

لاوند ـ (تركية) جند نصف نظامي يجند محلياً ، وهـو في العـراق مكون في الغالب من الاكراد واللريين .

لواء ـ (عربية) وحدة أدارية يحكمها متصرف ، أو وحدة من وحدات الجيش .

متسلم ـ (عربية) نائب الحاكم في سنجق أو في أيالة عندما تكون عدة أيالات تابعة لباشا واحد .

متصرف ـ (عربية) حاكم لواء أو سنجق .

محافظ ـ (عربية) الضابط الـذي يقود الحامية في القلعة .

مصاحب ـ (عربية) من رجال الحاشية

مهردار ـ (تركية) حامل ختم الباشا

مير آخور ـ (أيرانية) رئيس الخيلية

مير ميزان ـ (ايرانية) درجـة من درجات الباشوات تقع تحت درجة الوزير وبيك البيگات .

نظامية ـ أو نظام (عربية) الترتيبات الجـديدة التي أدخلها السلطان محمـود وخاصة في الناحية العسكرية من الحكومة . وأخيراً أصبحت تطلق على القوات النظامية لتفريقها عن قوات الاحتياط .

والي ـ (عربية) الحاكم العام في الولاية .

ولاية ـ (عربية) آخـر شكل من أشكال الأيالة .

ويووضه ـ (سلافية) بمعنى حاكم ، اصطلاح شائع في الولايات الأوربيـة وفي ماردين ، وهو يوازي درجة متسلم .

هايتة ـ (تركية) قوة الجاندرمة غير النظامية أو جنـود محليـة يستخدمها عادةً الحاكم المحلي ويدفع لها الأجور ، وهم غالباً من العرق الألباني .

يرماز ـ (تركية) سفيه لا يصلح لشيء .

الأب انستاس ماري الكرملي
في كنيسة اللاتين
بغداد (العراق) في ٢٣/ ٨/ ١٩٤١

الى الاستاذ الجليل السيد جعفر خياط المحترم
مدير التعليم الثانوي في وزارة المعارف.

سلامًا واحترام وبعد فقد تناولت بيد الشكر والمعروف هديتكم الثمينة (اربعة
قرون من تاريخ العراق الحديث) ولا جرم انكم قد سددتم الاوشين عند نقلكم اياه الى لغتنا الشريفة
المنادية. واظن انه لا يوجد في حاضرنا من كان يستطيع ان يعمل عملكم لأسباب عدة: ان
عبارة المؤلف وهو العلامة لنكريك معقدة في الانكليزية فيها طول وعرض وبعض الاعلام
وثانيها انه لم يجر على وتيرة واحدة لضبط الاعلام العربية على وجه مصطلح عليه فهو
لم يجار المستشرقين على اختلاف قومياتهم ولا تمشى الانكليز على اصطلاح دولي معروف
وما يقابله من الحروف الافرنجية، فجاءت الاعلام غير متجانسة الكتابة كثيرة الخبط والوهم
ولهذا جاء نقلكم لتلك الاعلام مخالفًا لما عرفه العرب من اقدمين ومحدثين ومع ذلك
انكم معذورون في ذلك واللوم على المؤلف نفسه. وانا اذكر بعض الامثلة من ذلك
ففي ص ٧ ورد اسم حمورابي والمستشرقون يكتبونه حَمُورَبي حَمُّورَبي
وجاء في تلك ص ٥ وسرخس وقالت العرب الاوائل كيرش واليهود كورش ومن ذلك
اسم المدينة المجاورة لبابل اي (كوثى ربّى) لانه سقطت على تل كوثى ربي او كيرش تلك
ومنها: سلوقيوس المشهور في كتبنا العربية سلوقس ومنه سلوقية في العراق وفي سورية.
ومنها: خسرو والعرب قالوا كِسرى وهو منقول عن خُسرو لان هذا اللفظ في
الاصل فارسي واحد الايرانيين جعلوا (كسرى) للملك و(خسرو) لعلم آخر
وانا لا اريد ان ازعجكم بعد هذه الملاحظات لكن مما يدل على سوء كتابة الاعلام
العربية لمؤلفه لنكريك انه كتب اسم الشيخ (شفلّح الشلال) هكذا: Shafullah
وكان يجب ان تكتب Shafallah فان Sh = ش، و ḥ = ح وهذا اصطلاح
الانكليز في معلمة الاسلام واما مصطلح المستشرقين فهو هكذا Šafallaḥ لان الشين
المعجمة يكتبونها هكذا Š والحاء هكذا Ḥ - وكتب السومرية وهي المشرية الانهم
يكتبونها هكذا SUMERIAN. وراجع ص ٣٦٥ من ترجمتكم (شيحا)(وفي ص ٣٤٣ من الاصل)
وقال عليه: "ايجاي امام ضواحي العراق". - والسبب ان المؤلف كتبه حسب ما Chiha

وشمالها سوريا

وكان الاوانس في مدرستنا [illegible] اللغة الفرنسية منذ ٥٠ سنة ثم تزوج واخذ يتعاطى
التجارة . ولما الف كتابه [illegible] انا [illegible] عندكم نسخة مترجمة
بالفرنسية . و [illegible] ما كان يعرف كلمة واحدة من الايطالية [illegible]
[illegible] الآثار الشرقية

و[illegible] ان هذه الترجمة تنفد بسرعة فتصلح فيشتغل [illegible]
مستر [illegible] وعباس العزاوي و[illegible] الدكتور مصطفى جواد [illegible]
[illegible] ان تنقل معاني [illegible] الفاضل [illegible]
الكبير الاستاذ جعفر خياط الذي كان سببا [illegible] هذا الكتاب المفيد ومني لكم
احسن الشكر واطيب الثناء

الأب انستاس ماري الكرملي

صورة الكتاب الذي بعث به الى المترجم العلامة المرحوم الأب انستاس الكرملي بعد اطلاعه على الطبعة الاولى من ترجمة الكتاب .

فهرست الاعلام

ـ خ ـ

– د –

- ص -

ـ ل ـ

— م —

- ي -

هذا الكتاب

أحتل كتاب «أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث» للمستشرق البريطاني ستيفن هيمسلي لونكريك ، منذ أول صدوره بالانكليزية عام ١٩٢٥ ، موقعاً بارزاً بين الدراسات العلمية الجادة عن تاريخ العراق في خلال العصر العثماني ، وعلى الرغم من صدور العديد من الدراسات بعده ، الاّ أن الكتاب أثبت أنه قادر على أن لا يخلي موقعه العلمي أمام الدراسات التاريخية في موضوعه ، على كثرتها وتنوع مناهجها . وأنه ما يزال ذلك المرجع المعتمد في أغلب احكامه ، والدقيق في معلوماته ، والغزير في مادته وتفاصيله .

واحدى ميزات هذا الكتاب ، أن مؤلفه اعتمد في وضعه على مجموعة ضخمة ، ومهمة ، من المصادر التاريخية والجغرافية والوثائقية ، مما يعسر على أكثر الباحثين جلداً وصبراً الوصول اليه . بل الاستفادة منه . فبين مصادره كتب ووثائق نادرة كتبت بمختلف اللغات الشرقية والاوربية ، وتواريخ رسمية وأخرى محلية ، وسياحات اوربية عديدة ، ومذكرات عزيزة المنال ، ومخطوطات قيمة . وكان منهج المؤلف يعتمد المقارنة بين معطيات هذه الاصول ، والتثبت مما ورد فيها ، والتدقيق في مدى صحة اخبارها .

ومن ميزاته أيضاً ، أنه لم يقتصر على دراسة تاريخ العراق السياسي فحسب ، وأنما عني بتقديم صورة متكاملة عن طبيعة الحياة الاجتماعية والاقتصادية فيه ، في عدد من الصور المتداخلة والمفعمة بالحيوية والمعبرة عن روح العصر وخصائصه ، مكتوبة بأسلوب شيق ورصين .

ومن ناحية أخرى فأن الكتاب يستمد جانباً من أهميته من طبيعة الحقبة التي يؤرخ لها ، وهي الممتدة من اواخر القرن الخامس عشر ، حتى قيام الحرب العالمية الاولى ، ففي هذه الحقبة عانى الشعب في العراق من أطماع أجنبية كثيرة ، ومن آثار التخلف السائدة ، وحرم فرصة التطور المستقل للحياة السياسية والاجتماعية والإقتصادية فيه . ومع ذلك كله . فقد أثبت الشعب ، أن جميع تلك الضغوط والتحديات ، لم تكن قادرة على طمس هويته ، وتشويه معالم شخصيته ، وأفقاده القدرة على النهوض وأستمرار العطاء .

وزاد أهمية الترجمة العربية للكتاب ، أن الذي قام بها ، أحد ثقاة المترجمين الى هذه اللغة ، هو المرحوم السيد جعفر الخياط ، وتولى التعليق عليها واثرائها بالاستدراكات التاريخية المفيدة ، عالم ومؤرخ جليل ، هو المرحوم الدكتور مصطفى جواد .

الدكتور عماد عبدالسلام رؤوف

منشورات مكتبة اليقظة العربية

طبع الغلاف في شركة مطبعة الأديب البغدادية المحدودة

طبع مطبعة اركان

السعر ٣٫٥٠٠ دينار

تصميم الغلاف : ليث ...